بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات المطلوبة

الاسم (رباعي) : محمد عبد الرحمن حبنكة الشهير بالميداني / كلية الدعوة وأصول الدين : قسم : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتـــوراة في تخصص : العقيـــدة

عنوان الأطروحة : " **النبوة والأنبياء بين حقائق الدين وشبهات العلمانيين** " .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه – والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٧/ ٢/ ١٤٢٣هـ بقبول الأطـروحة بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغ النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف
الاسم:أ. د. محمود محمد مزروعة
التوقيع : ....

مناقش داخلي
الاسم :أ.د. محمد بن عمر محمد حسن
التوقيع : ....

مناقش خارجي
الاسم : د. سعود بن حمد الصقري
التوقيع : ....

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د. عبد العزيز بن أحمد الحميدي

التوقيع : ....

- **يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة**

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قسم العقيدة

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٤١٤٠
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

النبوة والأنبياء

بين حقائق الدين وشبهات العلمانيين

رسالة مقدمة إلى قسم العقيدة لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب
محمد بن عبد الرحمن حسن حبنكة الشهير بالميداني

إشراف الأستاذ الدكتور
محمود بن محمد مزروعة

المجلد الأول

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة

بعنوان : " النبوة والأنبياء بين حقائق الدين وشبهات العلمانيين ".

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه، وبعد :

فهذه الرسالة تتكون من : مقدمة وبابين وخاتمة .

الباب الأول : خقائق النبوات ومضامينها ، وقد تضمنت فصوله الخمسة :

بيان معنى النبوة والرسالة والفرق بينهما ، وبيان حكم النبوة والحكمة منها ، وبيان حقيقة الوحي وعلاقته بالكلام الرباني ، وبيان الآيات الدالات على صدق الأنبياء عليهم السلام (المعجزات) ، والمواضيع التي تتعلق بها ، وبيان مضامين الرسالات الربانية ومميزاتها ومصدري مضامين الرسالة الخاتمة .

الباب الثاني : الرد على شبهات وأباطيل علمانيين تناول النبوة وموضوعاتها ، ويشتمل على :

تمهيد : حول العلمانية وتسللها في ديار المسلمين ، وعلى قسمين ، الأول: يشمل الرد على مقالات افترائية تتناول شبهات متنوعة، والثاني: يشمل الرد على شبهات مثارة حول قضايا محددة.

الخاتمة : وقد تضمنت أهم نتائج البحث ، ومنها :

١- أن الرسول أخص من النبي عليهما السلام .

٢- أن النبوة والرسالة اصطفاء من الله تعالى مباشر .

٣- أن التفاضل بين الأنبياء والرسل عليهم السلام ثابت ، وفضل خاتمهم صلى الله عليه وسلم عليهم جميعاً حق .

٤- أن الحكمة الربانية تقتضي بعث الأنبياء والرسل عليهم السلام .

٥- أن الوحي الرباني حقيقة ثابتة .

٦- أن الآيات الربانية المعجزات من مقتضيات حكمة الله تعالى ، وهي متنوعة ولها شروط وأوصاف .

٧- أن الأنبياء عليهم السلام معصومون فيما يبلغونه عن الله سبحانه وعن الكبائر وأمراض القلوب والنفوس وصغائر الخسة وعن الإقرار على الخطأ .

٨- أن مصدري الرسالة الخاتمة هما : القرآن الكريم الذي هو كلام الله تعالى ، والسنة النبوية ، وهي وحي منه تعالى ، وهما محفوظان بحفظه سبحانه.

٩- أن شبه وأباطيل العلمانيين حول الحقائق السابقة وغيرها مهما تنوعت فهي داحضة ، وهم لا يقصدون منها إلا المكر والكيد بهذا الدين وأهله .

إلى غير ذلك من نتائج عديدة .

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
محمد عبد الرحمن حبنكه الميداني	أ.د. محمود بن محمد مزروعة	د. عبد الله بن عمر الدميجي

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر ودعاء

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على النبيين والمرسلين وسلم تسليما.

أما بعد، فقد خلق الله عز وجل الإنسان، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وهي نعم كثيرة وعظيمة، لا غنى له عنها لحظة واحدة.

ثم إنه تبارك اسمه قد جعل الإنسان كائناً اجتماعياً، فلا يقدر أن يتكفل لنفسه بجميع حاجياته، بل لابد له من الاستعانة بغيره من عباد الله، على كثير من أموره.

ولهذا فقد فطر الله جل جلاله عباده على فضيلة الشكر. وأمرهم به تجاهه، وتجاه كل من كان سبباً في إسداء معروف إليه، أو إيصال نعمة من نعم الله عليه.

وإن أول شكر يجب على الإنسان أن يؤديه هو ما كان لربه عز وجل، وهو واجب دواماً. وعبادته تعالى من شكره، ومهما عمل الإنسان فلن يستطيع أن يؤدي حق شكر نعمة واحدة، فضلا عن سائر النعم والمنن، وهو جل وعلا غفور رحيم.

فالحمد لله تعالى في الأولى والآخرة، وله الشكر والثناء الحسن. والحمد له وحده على نعمه التي لا تحصى وأعظمها نعمة الهداية إلى دينه القويم، وصراطه المستقيم، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، على الوجه الذي يرضيه ويرضى به عنا تبارك اسمه.

وبعد الله عز وجل؛ فإن أعظم الخلق فضلا على من سواهم: الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، الذين كانوا سبباً للهداية الربانية.

ومن شكرهم: اتباعهم، والاقتداء بهديهم، والتمسك بما جاؤوا به، وكثرة الصلاة والسلام عليهم، ولاسيما بالنسبة إلى من أرسل للثقلين كافة.

فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله أجمعين، الذين بلغوا ما أمروا به أحسن بلاغ، وأدوا الأمانة أكمل الأداء.

وصلى الله على سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين، من أرسل رحمة للعالمين، شاهداً ومبشراً ونذيراً وسراجاً منيراً، النبي الأمي محمد بن عبدالله، وعلى آله

الطيبين الطاهرين، وصحابته أعلام الهدى، وسلم تسليماً كثيراً.

ثم إن كل فرد من هذه الأمة مأمور بأن يستغفر للذين سبقوه بالإيمان، لما لهم عليه من فضل إيصال العلم إليه، فرضي الله جل وعلا عن الصحابة، وغفر لهم، وللتابعين، وكل من تبعهم بإيمان، وكان له فضل على من بعده في إيصال علم أو نشر هداية.

ومن أوجب الشكر ما كان للوالدين، إذ هو مقرون بشكر الله عز وجل، لعظم حقهما، فلن يستطع إنسان أن يفي والديه ما يجب لهما عليه.

وإنني أسألك اللهم أن تعينني على دوام برهما، وأن تجزيهما عني أحسن الجزاء، فهما من خير الوالدين المعلمين الناصحين الموجهين المرشدين، فبارك الله لهما في عمرهما، وفي صحتهما وقوتهما وأعمالهما الصالحة حتى يكونا من عبادك المقربين، وأنلهما رفيع الدرجات عندك في جنات النعيم.

وأسألك اللهم أن تثيب بالحسنى كل من كان له علي فضل من أهل بيتي، الذين كانوا معي كجسد واحد، يشد بعضه بعضاً.

وأسألك اللهم أن تنعم بوافر الفضل على شيخي ومشرفي على هذه الرسالة فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور / محمود مزروعة، الذي لم يضن بوقت أو توجيه أو تصحيح أو إرشاد، فكانت له يد طولى في إخراج الرسالة على الوجه المرضي بإذن الله تعالى.

ثم إني أسأله عز وجل أن ينيل خيراً كل من كانت له عندي يد في تهيئة أسباب طلب العلم، من خارج جامعة أم القرى، ومن داخلها، ولا سيما المسؤولون في عمادة كلية الدعوة وأصول الدين، وفي قسم العقيدة، فللجميع مني الشكر والتقدير، ومن الله عز وجل التوفيق لما فيه خيرهم، وصلاح حال المسلمين.

وصلى الله عليه نبينا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله وبعد :

فإن الدارس لكتاب الله عز وجل يجده يحتوي على طريقين أساسيين :

الطريق الأول: طريق إثبات العقائد الحقة والأحكام الشرعية بالأدلة والبراهين المتنوعة .

الطريق الثاني: الرد على شبهات أهل الكفر والجحود التي يثيرونها حول العديد من قضايا العقيدة أو الأحكام الربانية المنزلة .

أما الطريق الأول فنجده في معظم آيات الكتاب العزيز .

وأما الطريق الثاني فإن الأمثلة عليه كثيرة ، وعلى سبيل المثال فقد أورد تبارك اسمه شبهة لليهود – عليهم من الله عز وجل ما يستحقونه – ينقصون فيها من مقام الرب عز وجل ، فقال جل شأنه :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... (٦٤)﴾ المائدة .

وعلى الرغم من ظهور بطلان هذه الفرية فقد أوردها جل ذكره في كتابه ، ورد عليها ، والمتدبر لآيات القرآن المجيد يجد فيها الكثير من الردود على هذه الفرية ، إذ تبين حكمة الله جل جلاله في الإعطاء والمنع .

ومما يؤكد أهمية الرد على شبهات المنحرفين عن الحق أو الخارجين عليه؛ أولئك الشعراء من الصحابة رضوان الله عنهم ، والذين كانوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يردون على شعر المشركين، وعلى ما فيه من الخرافات وأباطيل .

ثم إنه على الرغم من أن الحق هو الأصل وهو السابق على أي باطل ، فإن من السنن الربانية في دار الابتلاء والاختبار أن يوجد فريق من الناس ينحرفون عن الحق بإراداتهم الحرة ، وتملي عليهم الشياطين وأهواؤهم أنواعاً لا حصر لها من الباطل، وبعد هذا يحصل الصراع بين الحق والباطل ، ولا شك أن الغلبة للحق على الباطل أخيراً ، قال تعالى :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(١٨)﴾ الأنبياء .

وقال جل جلاله :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ الرعد.

إلا أنه مع هذا فقد يتسرب الوهن إلى قلوب أهل الحق – إذا ضعف تمسكهم به – فيسايروا أهل الباطل في باطلهم ، وقد يعم الباطل ويطغى ، وتختفي معالم الحق أو تكاد .

ومن أجل هذا اقتضت حكمة الرب الرحيم جل جلاله أن يرسل إلى عباده في كل مدةٍ رسولاً يبين لهم الحق صريحاً ويدعوهم إلى التمسك به .

ولما كانت الرسل عليهم السلام لا تأتي في كثير من الأحيان إلا عند عموم الفساد والضلال فإنه من الطبعي عند مجيئ الرسل عليهم السلام ودعوتهم إلى الحق؛ أن يقاومهم رؤوس الضلال والمستفيدون الحقيقيون من وراء انتشاره وعمومه بين الناس، وكذلك كثير من أتباع الأهواء والشهوات، ومن المصرين على التقليد الأعمى للآباء والأجداد الأقدمين، ولو كانوا لا يعقلون. قال تبارك اسمه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾ الأنعام.

وقال جل ذكره :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً (٣١) ﴾ الفرقان.

وهذا ما حصل في الرسالة الخاتمة، فمنذ اللحظة الأولى لإعلان الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته قاومها رؤوس الكفر والضلال وأتباعهم من المجرمين، وكانت مقاومتهم ومحاربتهم لهذه الدعوة علنية شديدة، ووصلت في أحيان كثيرة إلى حد قتل الضعفاء وإزهاق أرواحهم. وحتى عندما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة – عاصمة الدولة الإسلامية الأولى – استمر المعاندون والمصرون على الكفر من أهل مكة في محاربة الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، وقد اتخذت طابع القتال العسكري .

وفي المدينة نشأ فريق آخر يحارب الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، ولكن نظراً لضعفهم وقوة المسلمين وكونهم أصحاب الدولة؛ فقد أتخذ هؤلاء الكافرون المحاربون للدعوة أسلوباً ماكراً جديداً، وهو إظهار الإيمان بهذه الدعوة كذباً، وإبطال العداوة لها ، ومحاربتها سراً كلما وجدوا لهذا سبيلاً ، وهؤلاء الذين عرفوا في الإسلام باسم المنافقين .

وقد استمر وجود هذا الفريق المحارب للدين وأهله مع تظاهره بأنه منهم طوال التاريخ الإسلامي ، وإلى يومنا المعاصر ، وكثيراً ما كان يتخفى تحت أسماء وشعارات ومذاهب مختلفة .

والحق أن هذا الفريق كان له الأثر الأكبر في إضعاف الدولة الإسلامية ، وإثارة الفتن والحروب بين أبناء المسلمين عبر تاريخهم، وأخيراً كان له الأثر الأكبر في تفكيك الدولة الإسلامية وتفتيت وحدتها .

وعلى الرغم من الضعف الذي تعيشه الآن الأمة الإسلامية؛ فإن أعداءها الصرحاء الخارجيين لا يزالون يجدون أن أفضل طريقة للإجهاز النهائي -في ظنهم- على هذه الأمة؛ هي في بث المنافقين بينهم تحت أسماء وشعارات مختلفات، منها العلمانية، ومنها أسماء أخرى، سواء أكانوا من أبناء المسلمين الذين انسلخوا من دينهم ، ومن انتمائهم لهذه الأمة ، وصيروا أنفسهم عبيداً لشياطين الإنس والجن ، أم كانوا من أبناء الكفار الذين تظاهروا بالإسلام واندسوا بين المسلمين ليكيدوهم ويمكروا بهم ، والله من ورائهم محيط .

ثم إن المنافقين المعاصرين لم يكتفوا بمجال معين لنشر مكايدهم، بل إنهم لم يدعوا مجالاً استطاعوا أن يتسللوا إليه إلا استغلوه على أسوأ وجه يستطيعونه ، للإسراع فيما يتمنونه من الإجهاز الكامل على هذه الأمة ، وتحقيق حلم أسيادهم الذين استعبدوهم . ولعل من أخطر المجالات التي استغلها المنافقون هو المجال الفكري والعقدي ، إذ أخذوا ينشرون الأفكار الهدامة والمذاهب الباطلة ويتلاعبون بالعقيدة الربانية، وبأحكام الشريعة الإسلامية المنزلة، ليصدوا الناس عن سبيل الحق، ويردوهم في مزالق سبل الضلال العديدة.

ولعلم أعداء الإسلام بأن أي سلوك إنساني إنما ينبثق عن جذر عقدي ، فقد اتبعوا سبيلين أساسيين لإفساد عقيدة المسلمين الحقة :

السبيل الأول : نشر الآراء والأفكار الضالة المضللة .

السبيل الثاني : إثارة الشبهات الساقطات حول قضايا العقيدة الحقة .

وبالطبع فإنه لا ينخدع بأي من السبيلين إلا الجهلة وضعاف الإيمان ، أو ممن هم مؤمنون بالتبعية والتقليد ، لا عن فكر واقتناع ذاتي .

والحق أن حال علماء المسلمين المحدثين مثل حال من سبقهم من علماء المسلمين الأقدمين، فقد كانوا لأولئك المنافقين وأسيادهم بالمرصاد ، يردون على أفكارهم الباطلة الضالة ، ويفندون شبهاتهم ويبينون تهافتها وسقوطها .

إلا أن طغيان الحالة الغثائية في العالم الإسلامي ، وبعد كثير من المسلمين عن دينهم، وجهلهم به، نتيجة عوامل عديدة ، يعود بعضها إلى أعداء المسلمين أنفسهم الذين ما فتئوا يثيرون الفتن والقلاقل بين المسلمين، ليشغلوهم عن فهم دينهم الفهم الصحيح. وكذلك الحالة الاقتصادية المتردية في كثير من بلاد المسلمين، والتي كان للأعداء دور كبير في إيجادها، لتكون غالبية الجماهير الإسلامية في حالة من الفقر المدقع، والفقر والجهل لا يكادان ينفكان إلا قليلاً ، أو ليشغلوا المسلمين باللهث وراء الكفاف، فلا يجدون فرصة للتزود من العلم الصحيح ، وإن وجدت ألهوهم بما يضرهم ولا يجلب لهم نفعاً.

فبسبب طغيان تلك الحالة، وبسبب اتساع رقعة أرض الأمة الإسلامية، وعدم كفاية العلماء الحقيقيين لكامل تلك الرقعة ، وبسبب كثرة ناشري المذاهب الضالة والشبه الساقطة، بدعم من أعداء الإسلام ؛ فقد وجدت تلك المذاهب والآراء والشبه سبيلها إلى كثير من قلوب المسلمين وأمسوا يرددونها ، وقد يغفل بعضهم عن كونها مخرجة له من الدين بالكلية ، وقد يرددها بعضهم وهو يملك عاطفة دينية ويظن نفسه من الغيورين على هذا الدين .

وقد ساعد كذلك على انتشار تلك المذاهب والشبهات أن كثيراً من ناشريها هم من أبناء المسلمين بالاسم ، والمضلون يسترون أنفسهم بشعارات براقة يخفون تحتها مقاصدهم الحقيقية ، ويظهرون – كذباً وزوراً – أنهم لا يريدون إلا صلاح الأمة ، وتجديد دينها بما يتلاءم مع العصر الحاضر .

ثم إنهم في كل مدة يتلونون في إثارة شبهاتهم وأباطيلهم، وهذا من خلال أساليب مختلفة، وطرائق لغوية متعددة ، ولهم في اشتقاق الكلمات والتعابير قاموس كبير .

من أجل ذلك كان لزاماً على المسلمين أن يوجد فيهم العدد الكافي لصد هجمات أولئك المنافقين ورد كيدهم –بإذن الله تعالى– في نحورهم ، وكشف أباطيلهم ، وإسقاط شبهاتهم ، وبيان

تهافتها ، والرد عليها بما يتلاءم مع اللغة التي يستخدمونها والأسلوب الماكر الذي ينتهجونه .

وبناء على ما سبق؛ فقد وجدت أهمية كبيرة لأن أحاول الرد على شبهات وأباطيل لأولئك المنافقين ، فاخترت بعضاً من الأسماء المعاصرة لهم ، وانتقيت مجموعة من أبرز وأخطر شبهاتهم وأباطيلهم ، وفندتها ورددت عليها .

ومن أهم الصعوبات التي تواجه الباحث في هذا المجال :

أولاً: أنه يتعامل مع أناس قد مردوا على النفاق وتمرسوا في طرائق التلاعب بالألفاظ والأفكار ، ومن تعود الحياة في الضياء والوضوح ، لا يسهل عليه في بداية الأمر تتبع دسائس وألاعيب أهل الظلمات الدامسات .

ثانياً: وفي كثير من الأحيان فإن أولئك المنافقين يحاولون أن يثيروا شبهات عديدات، وفي مواضيع شتى، وإن كان حديثهم في الأساس حول موضوع معين ، وهذا ليظن القارئ غير العليم بأن لهم شبهات عديدات حول مسألة واحدة، فيثير مثل هذا الأمر الشك والريبة في نفسه ، والحقيقة أنها شبهات ساقطات، وأنها لا تتناول موضوعاً واحداً ، بل موضوعات متعددات ، ولربما يكون الاتصال فيما بينها بعيداً .

ومثل هذا الأمر يحتاج إلى جهد لتفنيد تلك الشبهات وتقسيم موضوعاتها ، وبيان مدى تلاعب أصحابها بالحق وأهله .

ثالثاً: أن أمثال هؤلاء المنافقين لا يتصور منهم الأمانة في النقل ، ولاسيما من علماء المسلمين، ولهذا فإنهم إن نسبوا إلى بعض العلماء قولاً فلابد للباحث من أن يجهد في البحث عن موضع هذا القول ، ليعلم مدى صحة نقلهم من عدمها .

رابعاً: ثم إن من يتصدى للرد على أمثال هؤلاء الماكرين المنافقين لابد أن يتوخى الحذر في رده ، لئلا يكون رده مؤكداً لشبهتهم بدل أن يبطلها .

وغير هذا من صعوبات لا تخفى على من تحمل مشقة الرد على أهل الزيغ والضلال .

منهج البحث:

إنه لا يخفى على مؤمن أهمية ركن الإيمان بالأنبياء عليهم السلام ، إذ هم المبلغون لرسالة الله عز وجل ، وهم الذين بينوا العقيدة الصحيحة والشريعة الربانية المنزلة ، فمن أثار حولهم الشبهات والأباطيل فإنما هدفه الأساسي إنما هو إبطال العقيدة والشريعة التي جاؤوا بها .

ونظراً إلى هذا فقد اخترت من شبهات وأباطيل القوم ما يتعلق بموضوع الأنبياء والرسل عليهم السلام ، أو ما يتصل بهذا الموضوع ، وقد سرت في هذا على النحو التالي :

أولاً: وضعت مقدمة للرسالة ذكرت فيها أهمية الموضوع، ومنهجي في البحث، ومخطط الرسالة.

ثانياً: عرضت العقيدة الصحيحة فيما يتعلق بالمواضيع المتصلة بركن الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام، وهذا بأسلوب مختصر، دون إطالة في ذكر ما قد يوجد لبعض الفرق الإسلامية من اختلافات في بعض تلك المواضيع ، والرد على المخالف، إذ ليس هذا الأمر هو المقصد من هذه الرسالة، وإنما مقصدها الرد على شبهات وأباطيل المنافقين المعاصرين، ممن ليس لهم في الحقيقة حظ من الدين إلا مجرد الاسم والادعاء الباطل.

ومع ذكري للعقيدة المختصرة أذكر الدليل عليها من الكتاب أو السنة، أو كليهما.

ثالثاً: ثم أتبعت عرض العقيدة الصحيحة بتفنيد الشبهات والأباطيل التي اخترتها، ورددت عليها بما أمكنني من الحجة والبرهان، مستعيناً في هذا بالله عز وجل أولاً، وبالمنهج الذي اختطه علماء المسلمين للرد على المضللين قديماً وحديثاً، وقد وضعت تمهيداً لهذا القسم عن العلمانية والعلمانيين.

رابعاً: قسمت الرسالة إلى بابين:

الباب الأول: في عرض العقيدة.   الباب الثاني: لرد الشبهات.

وقسمت الباب الأول إلى فصول ومباحث على حسب ما تحتاجه كل مسألة، وكل موضوع.

وقسمت الباب الثاني أيضاً إلى فصول ومباحث، وربما إلى أقسام أخرى، على حسب ما يقتضيه الحال.

خامساً: نقلت عبارات أصحاب الشبه والأباطيل بنصوصها، حتى لا يشك أحد في أنني أقولهم مالا يقولون أو أفتري عليهم وأتزيد، وربما نقلت نصاً طويلاً، لأن كثيراً منهم يتستر ضمن شكوى أن من يرد عليهم إنما ينقل بعض كلامهم دون بعض، كحال من يكتفي بقوله عز وجل:

﴿ فويل للمصلين (٤) ﴾ الماعون.

سادساً: حاولت قدر الإمكان ألا أدع شيئاً من الأباطيل والشبهات في النصوص التي أنقلها دون أن أرد عليه، لأبين مدى الضلال الذي وصل إليه أصحابها ، ولئلا تثير بعض العبارات شكوكاً في نفوس بعض القراء من غير المتمكنين ، ويظن أنه لا مجال للرد عليها ، فأكون من المسيئين الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

سابعاً: وثقت النصوص التي أنقلها من مصادرها الأصلية ، ولم أنقل شبهة عن ناقل قبلي .

ثامناً: وثقت الآيات الكريمات بذكر السورة والآية على حسب المعتاد ، وقد درجت على أن أذكر التوثيق في المتن.

تاسعاً: اعتمدت في عرض العقيدة على الكتاب والسنة، وأقوال علماء أهل السنة الموثوقين.

عاشراً: عند استنادي إلى أية فكرة من علماء سابقين فإنني أحيل عليهم ، وأقدم من كانت استفادتي منه أكبر ، وإلا قدمت الأقدم فالأقدم .

حادي عشر: عندما أحيل على مرجع في هامش الرسالة؛ أذكر اسمه واسم مؤلفه، إلا إن تكرر قريباً . ثم إني أحيل على الجزء والصفحة ، إن وجد، أو إلى الصفحة فقط. وإن كانت الإحالة على ترجمة أو حديث، فإني أذكر رقم الترجمة أو الحديث إن وجد .

ثاني عشر: وثقت الأحاديث النبوية من خلال مصادرها الأصلية، فإذا كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بهما غالباً إلا لحاجة كزيادة هامة.

وإذا كان في غير الصحيحين حاولت قدر الإمكان أن أنقل حكم علماء الحديث من الأقدمين أو المعاصرين على الحديث .

ثالث عشر: عرفت بالأعلام والمذاهب في مواضع ذكرهم.

رابع عشر: وضعت خاتمة للرسالة سجلت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في بحثي.

خامس عشر: لم أطل الرسالة بالفهارس الكثيرة، إذ موضوع الرسالة يكفيه الفهرس الموضوعي المعتاد وفهرس الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وليس هو من الموضوعات التاريخية أو التحقيقية أو نحوها، التي تحتاج إلى فهارس متنوعة.

سادس عشر: وضعت في خاتمة الرسالة فهرساً للكتب التي استفدت منها أو نقلت عنها.

سابع عشر: ختمت الرسالة بالفهرس الموضوعي المعتاد.

خطة البحث :

مقدمة : وفيها بيان أهمية الموضوع وسبب اختياره وأهم الصعوبات التي واجهتني عند البحث ، ومنهجي وخطتي فيه .

الباب الأول : حقائق النبوات ومضامينها .

ويشتمل على الفصول التاليات :

الفصل الأول : معنى النبوة والرسالة والفرق بينهما .

ويشتمل على :

المبحث الأول : النبي والرسول – عليهما السلام – لغة .

المبحث الثاني : النبي والرسول – عليهما السلام – اصطلاحاً .

المبحث الثالث : الفروق بين النبي والرسول عليهما السلام .

المبحث الرابع : النبوة والرسالة اصطفاء رباني .

المبحث الخامس : الحكمة والنبوة .

المبحث السادس : التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام ، والتفاضل بينهم وبين الملائكة عليهم السلام.

الفصل الثاني : حكم النبوة والحكمة منها .

ويشتمل على :

المبحث الأول : حكم النبوة .

المبحث الثاني : الحكمة من بعث الأنبياء والرسل عليهم السلام .

الفصل الثالث : حقيقة الوحي .

ويشتمل على :

المبحث الأول : الوحي لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : طرق وصور الوحي .

المبحث الثالث : الوحي وكلام الله عز وجل .

الفصل الرابع : الآيات الدالات على صدق الأنبياء عليهم السلام (المعجزات).

ويشتمل على :

المبحث الأول : المعجزة لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : الحكمة من وجود الآيات الربانية المؤيدة لرسله وأنبيائه عليهم السلام .

المبحث الثالث : وجه دلالة الآيات المعجزات على صدق الأنبياء والرسل عليهم السلام .

المبحث الرابع : شروط وصفات الآيات الدالات على صدق الأنبياء والرسل عليهم السلام (المعجزات) .

المبحث الخامس : الصفات التي لا يجب إثباتها لكل آية معجزة .

المبحث السادس : الفرق بين المعجزة والكرامة . والفرق بين المعجزة والسحر .

المبحث السابع : الأدلة الموضوعية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

الفصل الخامس : مضامين الرسالات الربانية بصفة عامة ، والرسالة الخاتمة بصفة خاصة، ومميزاتها ، ومصدرا مضامين الرسالة الخاتمة .

ويشتمل على :

مقدمة حول مضامين الرسالات الربانية بصفة عامة .

المبحث الأول : المضمون العقدي ومميزاته .

المبحث الثاني : المضمون الخلقي ومميزاته .

المبحث الثالث : المضمون التشريعي ومميزاته .

المبحث الرابع : مصدرا مضامين الرسالة الخاتمة .

الباب الثاني : الرد على شبهات وأباطيل علمانيين ، تتناول النبوة وموضوعاتها.

ويشتمل على :

تمهيد : العلمانية ، وتسللها في ديار المسلمين .

القسم الأول : مقالات افترائية علمانية تتضمن شبهات حول مواضيع في النبوة متعددة ، والرد عليها.

ويشتمل على :

الفصل الأول : المقالة الافترائية الأولى ، وبيان ما فيها من أباطيل ومغالطات.

(وهي تدور حول مناقشة " العلماني " لمن قالوا بوجوب النبوة ، ومادسه من افتراءات وأباطيل تتناول كثيراً من قضايا النبوة).

ويشتمل على : مقدمة ، وثلاث وثلاثين قضية .

الفصل الثاني : المقالة الافترائية الثانية ، وبيان ما فيها من أباطيل ومغالطات .

(وهي تدور حول تظاهر "العلماني" بمناقشته لمن ادعوا استحالة النبوة ، ومادسه من افتراءات وأباطيل متنوعة) .

ويشتمل على :

مقدمة : حول اتخاذ بعض العلمانيين حيلة الرد على القائلين باستحالة النبوة للوصول إلى باطلهم.

المبحث الأول : مناقشة (العلماني) لما أسماه (الاستحالة المبدئية) ، والرد على افتراءاته .

المبحث الثاني : مناقشة (العلماني) لما أسماه (الاستحالة العقلية) ، والرد على افتراءاته .

المبحث الثالث : مناقشة (العلماني) لما أسماه (الاستحالة العملية) ، والرد على افتراءاته .

الفصل الثالث : المقالة الافترائية الثالثة، وبيان ما فيها من أباطيل ومغالطات.

(وهي تدور حول تظاهر "العلماني" بادعاء إمكان النبوة ، وما افتراه من زيوف تبطل النبوة وحقائقها) .

ويشتمل على مقدمة وخمس قضايا .

القسم الثاني : إبطال الشبهات الواردات حول موضوعات ومسائل خاصة تتعلق بالنبوة .

ويشتمل على تمهيد ، وقضايا متعددة .

القضية الأولى: شبهات وأباطيل حول مسألة اشتقاق كلمة (النبوة).

القضية الثانية: شبهات وأباطيل حول معنى النبوة والرسالة.

القضية الثالثة: شبهات وأباطيل حول مكانة موضوع النبوة بالنسبة إلى سائر

موضوعات العقيدة.

القضية الرابعة: شبهات وأباطيل حول الفرق بين النبي والرسول عليهما السلام.

القضية الخامسة: شبهات وأباطيل حول كون النبوة اصطفاءً ربانيا.

القضية السادسة: شبهات وأباطيل حول مسألة التفضيل.

القضية السابعة: شبهات وأباطيل حول حقيقة الوحي الرباني.

القضية الثامنة: شبهات وأباطيل حول موضوعات النبوة والوحي.

القضية التاسعة: شبهات وأباطيل حول آيات الأنبياء عليهم السلام (المعجزات).

القضية العاشرة: شبهات وأباطيل حول عصمة الأنبياء عليهم السلام.

القضية الحادية عشرة: إنكار العلمانيين شمول رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الجن.

القضية الثانية عشرة: شبهات وأباطيل حول القرآن الكريم.

القضية الثالثة عشرة: شبهات وأباطيل حول السنة النبوية المطهرة.

القضية الرابعة عشرة: شبهات وأباطيل حول مكانة الكتاب والسنة في التشريع.

القضية الخامسة عشرة: شبهات وأباطيل حول عموم وشمول وجوب تحكيم شريعة الله عز وجل.

خاتمة : وتتضمن أهم نتائج البحث .

فهارس الرسالة :

١- فهرس الآيات الكريمة.

٢- فهرس الأحاديث الشريفة.

٣- ثبت للمراجع التي استفاد منها الباحث ، أو نقل عنها .

٤- فهرس تفصيلي للموضوعات .

وبعد، فإني أسأل الله جل ذكره أن يمدني بالهداية والمعونة والتوفيق، وأن يعفو عن الزلل والتقصير، وأن ييسر إتمام هذا البحث، على الوجه الذي يرضيه جل وعلا، إنه على كل شيء قدير. والحمد لله رب العالمين.

الباب الأول : حقائق النبوات ومضامينها

ويشتمل على:

الفصل الأول : معنى النبوة والرسالة والفرق بينهما.

الفصل الثاني : حكم النبوة والحكمة منها.

الفصل الثالث : حقيقة الوحي .

الفصل الرابع : الآيات الدالات على صدق الأنبياء عليهم السلام (المعجزات).

الفصل الخامس : مضامين الرسالات الربانية بصفة عامة، والرسالة الخاتمة بصفة خاصة، ومميزاتها ، ومصدرا مضامين الرسالة الخاتمة .

الفصل الأول : معنى النبوة والرسالة والفرق بينهما

ويشتمل على :

المبحث الأول: النبي والرسول -عليهما السلام- لغة.

المبحث الثاني: النبي والرسول -عليهما السلام- اصطلاحاً.

المبحث الثالث: الفرق بين النبي والرسول عليهما السلام.

المبحث الرابع: النبوة والرسالة اصطفاء رباني.

المبحث الخامس: الحكمة والنبوة.

المبحث السادس: التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام، والتفاضل بينهم وبين الملائكة عليهم السلام.

المبحث الأول : النبي والرسول -عليهما السلام- لغة.

النبي : لغة :

لقد وردت ألفاظ : النبي وجمعها : (الأنبياء والنبيون) والنبوة في القرآن الكريم مرات عديدة ، وبيّن علماء القراءات أن جمهور القراء العشر قد قرؤوا هذه الألفاظ من غير همز ، إلا نافعاً فإنه كان يقرأ هذه الألفاظ بالهمز حيثما وردت في القرآن . فيقرأ النبي مثلاً : النبيء . والنبوة : النبوءة . والنبيّين : النبيئين ، والأنبياء : الأنبئاء . وهكذا [١] .

وعلى هذا فقد قيل إن الأصل هو النبيء ، أي بالهمز ، والذي عليه قراءة نافع . وأما قراءة الآخرين (النبيّ) بياء مشدّدة ، فهي على الإبدال والإدغام [٢] ، أي إبدال الهمزة ياءً وإدغامها في الياء التي قبلها . وفي النبوءة تقلب الهمزة واواً وتدغم في الواو قبلها [٣] .

وقد اعتبر سيبويه [٤] أن تحقيق النبي – أي نطقه بالهمز – لغة

(١) انظر: في هامش القرآن الكريم : القراءات العشر المتواترة ؛ إعداد : محمد كريم راجح ومحمد فهد خاروف: آل عمران: الآيات: ٦٨ (النبي)، ٧٩ (النبوة)، ٨٤ (النبيون)، ١١٢ (الأنبياء). و: التذكرة في القراءات الثمان؛ الإمام: أبو الحسن طاهر بن عبد المنعم بن غلبون المقرئ الحلبي (ت:٣٩٩هـ)، دراسة وتحقيق: أيمن رشدي سويد: ٢/٢٥٣-٢٥٤. و : المهذب في القراءات العشر؛ محمد سالم محيسن : ٥٩. و: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ؛ عبد الفتاح قاضي : ٣٤. و : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز؛ عبد الحق بن عطية الأندلسي: ١/٣٢٠- ٣٢١، وانظر الهامش (١) في ص: ٣٢١، في شأن ما ورد عن قالون الراوي عن نافع في قوله تعالى: ﴿ للنبي إن أراد ﴾ -٥٠ الأحزاب-، وقوله: ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا ﴾ -٥٣ الأحزاب -، ولهذين الموضعين راجع: المهذب في القراءات العشر: ١٤٧، ١٤٨. و : البدور الزاهرة: ٢٥٦، ٢٥٧. و: القراءات العشر في هامش القرآن، الأحزاب: ٥٠، ٥٣. وانظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون؛ أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي: ١/٣٩٩-٤٠٠، ٤٠٢.

(٢) انظر : المهذب في القراءات العشر: ٥٩. وفي لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرّم الأنصاري: ٢٠/١٧٣: (فيجوز أن يكون نبي من أنبأت مما ترك همزه لكثرة الاستعمال).

(٣) انظر: المعجم الوسيط؛ مجمع اللغة العربية؛ إبراهيم مصطفى وآخرون : ٢/٨٩٦. و: المسامرة؛ الكمال بن أبي الشريف، بشرح المسايرة ؛ للكمال بن الهمام: ١٩٨، ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٤) سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر؛ أبو بشر وقيل أبو الحسن، المعروف بسيبويه، مولى بني الحارث بن كعب، وقيل: مولى آل الربيع بن زياد. وسيبويه : كلمة فارسية، معناها: رائحة التفاح. أصله من أهل فارس، ومنشؤه بالبصرة. ابتدأ حياته في طلب الحديث والفقه ، ثم انتقل إلى طلب اللغة والنحو، فصحب الخليل بن أحمد، وأخذ كذلك عن يونس وأبي الخطاب الأخفش وغيرهم ، إلى أن برع في النحو وصار إمام أهله ووضع كتابه فيه (الكتاب)، وهو إمام كتب النحو، ومن أعظم ما ألف فيه، واعتنى بشرحه الكثير، ومنهم أئمة كبار ، =

رديئة (١) . وورد في إنكار لفظ النبيء حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاءه أعرابي فقال له : [يا نبيء الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لست بنبيء الله ولكني نبي الله"] (٢). ولكن هذا الحديث ضعيف جداً فلا يصلح للاستدلال به على شيء ابتداءً، فضلاً عن أن يعارض به حرف من القرآن الكريم ثابت بالتواتر (٣).

وأما ما ذكره سيبويه فإنه وإن لم يكن مقبولاً أن توصم لغة لكلمة قرآنية ثبتت في قراءة متواترة بأنها رديئة ، إلا أنه مع ذلك يمكن أن يعتذر عنه رحمه الله بأنه : لم يثبت عنده تواتر هذه

= وممن شرحه: ابن السراج، والرماني، والمهلبي، وابن سيده، وغيرهم كثير، وقيل: إن قلمه كان أبرع من لسانه، وقيل: إنه كان جميلاً أنيقاً. ارتحل في آخر عمره إلى خراسان فمرض ومات هناك في حدود سنة ١٨٠هـ، وهو الأشهر، وقيل:١٧٩، أو ١٨٨، أو: ١٩٤هـ، وذكر أن قبره في شيراز، وقيل: إن سنه كانت عندئذ (٣٢) سنة، وقيل: (٤٠) سنة.

انظر: تاريخ بغداد؛ الخطيب البغدادي: ١٢/١٩٥ - ١٩٨ (٦٦٥٨). و: البداية والنهاية؛ ابن كثير: ١٠/١٧٦-١٧٧. و: سير أعلام النبلاء؛ للذهبي: ٨/٣٥١ (٩٧). و: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة؛ الفيروز أبادي: ٢/١٦٣-١٦٥ (٢٥٦). و: الفهرست؛ ابن النديم: ٢/٧٦. و: الأعلام؛ الزركلي: ٥/٨١.

(١) انظر : الكتاب ؛ سيبويه : ٢/١٧٠ .

(٢) روى هذا الحديث الحاكم في مستدركه : كتاب التفسير ، ٢/٢٣١ ، عن أبي ذر رضي الله عنه . وتساهل الحاكم رحمه الله فقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه). وتعقبه الذهبي بقوله : (بل منكر لم يصح، قال النسائي : حمران - وهو أحد رواة الحديث - ليس بثقة ، وقال أبو داود : رافضي روى عن موسى بن عبيدة وهو واه) . انظر : الموضع نفسه .

(٣) وقد ذكر البعض وجها للجمع بين هذا الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبين قراءة من قرأ النبيء بالهمز، فذكر السمين الحلبي نقلاً عن أبي زيد سعيد بن أوس، وهو من علماء اللغة أنه حكى: (نبأت من أرض كذا إلى أرض كذا ، أي : خرجت منها إليها ، فقوله : يا نبيء الله ، بالهمز ، يوهم : يا طريد الله الذي أخرجه من بلده إلى غيره ، فنهاه عن ذلك لإيهامه ما ذكرنا ، لا لسبب يتعلق بالقراءة . ونظير ذلك نهيه للمؤمنين عن قولهم: راعنا، لما وجدت اليهود بذلك طريقاً إلى السبّ به في لغتهم. أو يكون حضاً منه عليه السلام على تحري أفصح اللغات في القرآن وغيره) . الدر المصون : ١/٤٠١ . وانظر : مفردات ألفاظ القرآن؛ الراغب الأصفهاني: ٧٩٠ . و: لسان العرب : ١/١٥٧ . و : ترتيب القاموس المحيط ؛ الطاهر أحمد الزاوي : ٤/٣٠٨ . و : الصحاح؛ إسماعيل بن حماد الجوهري : ١/٧٤ . و : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ؛ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ، تحقيق : عبد العليم الطحان : ٥/١٥ . و: النهاية في غريب الأثر؛ ابن الأثير الجزري: ٣ / ٥.

أقول : ويمكن القول فيما لو ثبت للحديث أصل من غير هذا الطريق: أن الإنكار كان قبل أن يُعْلِم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، وكان الحرف الذي يقرأه الرسول صلى الله عليه وسلم ويقرئه ليس فيه إلا : نبي الله، بغير همز. والله أعلم.

القراءة ، ولاسيما أن أول من سبع السبعة هو ابن مجاهد [١]، وقد ولد سنة: ٢٤٥هـ، بينما وفاة سيبويه في حدود سنة: ١٨٠هـ [٢]. أو أنه يقصد أن عدم الهمز في النبي لغة أفصح وأوسع انتشاراً في العربية من الهمز ، وإن كان ذلك لا يعني عدم صحتها [٣] ، وقد بين العلماء أن الأصل هو النبيء ، ثم ترك الهمز تخفيفاً وتسهيلاً [٤] .

وعلى هذا فإن أصل اشتقاق النبيء أو النبي يعود إلى أحد وجهين :

الوجه الأول :

أن النبي مشتق من النبأ وهو : الخبر.

فالنبيء : هو المخبر عن الله عز وجل، لأنه أنبأ عنه.

قيل هو فعيل بمعنى فاعل للمبالغة ، أي أنه مُنَبِّئ عن الله تعالى برسالته . فاسم الفاعل أساساً هو : منبئ ، على وزن مُفْعِل، ثم قيل نبيء بمعنى منبِئ للمبالغة ، كما قيل : سميع بمعنى مُسْمِع ، ونذير بمعنى مُنذِر ، وأليم بمعنى مُؤلِم .

وقيل يجوز أن يكون فعيل بمعنى مفعول ، أي إنه منبَّأ من الله تعالى بأوامره ونواهيه ، فاسم المفعول في الأصل هو : مُنبَّأ ، على وزن مُفَعَّل ، ثم قيل : نبيء بمعنى مُنَبَّأ .

---

(١) ابن مجاهد: هو: أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد العطشي البغدادي التميمي؛ أبو بكر ابن مجاهد المقرئ. أحد أئمة الإقراء، وكان شيخ الإقراء في عصره ، حتى قال عنه ثعلب إنه في عصره لم يكن أعلم بكتاب الله منه، وكان ثعلب معاصراً له . وكان كذلك راويا للحديث، ثقة مأموناً ، حدث عن خلق كثير، وروى عنه الكثير، منهم الدارقطني . تلا على قنبل المكي وغيره . وصف باتساع العلم وبراعة الفهم وصدق اللهجة وظهور النسك ، والفطنة والجود والأدب . قيل إنه كان في حلقته (٨٤) مقرئا ممن يأخذ عنهم الناس . صنف كتبا عديدة في القراءات: من أشهرها كتاب القراءات السبعة ، وله كذلك : كتاب القراءات الصغير ، وكتاب الياءات وكتاب الهاءات ، وغير ذلك ، وهو من أهل بغداد ، ولد سنة (٢٤٥هـ) ، وتوفي فيها في شعبان ، سنة (٣٢٤هـ) . انظر :
تاريخ بغداد : ٥/١٤٤-١٤٧ (٢٥٨٠) . و: تاريخ مولد العلماء ووفياتهم ؛ محمد بن عبد الله بن أحمد بن سليمان بن زبر الربيعي : ٦٥٥/٢ . و : سير أعلام النبلاء : ٢٧٢/١٥ - ٢٧٣ (٢١). و : معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ؛ الذهبي : ٢٦٩/١-٢٧١(١٨٦) . و : البداية والنهاية : ١٨٥/١١ . والفهرست ؛ ابن النديم : ٤٧/٢ . و : الأعلام ؛ الزركلي : ٢٦١/١ .

(٢) راجع ترجمته ص : ١٤، هـ: ٤.

(٣) انظر: لسان العرب : ١٥٧/١ ، فقد نقل ابن منظور قول سيبويه: (والهمز في النبي لغة رديئة)، وقال: (يعني لقلة استعمالها، لا لأن القياس يمنع من ذلك ...) .

(٤) انظر: مفردات ألفاظ القرآن : ٧٩٠ . و : المحرر الوجيز ؛ ابن عطية : ٣٢١/١ . و : الدر المصون ؛ السمين الحلبي : ٤٠١/١. و: لسان العرب : ١٥٧/١ . و : المهذب في القراءات العشر : ٥٩ . و : الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ؛ القاضي : أبو الفضل عياض اليحصبي : ٢٥٠/١ .

ورجح ابن تيمية [١] أن يكون بمعنى مفعول، لأنه إذا نبأه ا لله تعالى فهو نبي ا لله عز وجل، سواء أنبأ بذلك غيره ، أم لم ينبئه ، فالذي صار به النبي نبيا : أن ينبئه ا لله تبارك اسمه ، وهو ما امتاز به عن غيره [٢] .

وأقول : إنه لا مانع من ملاحظة الأمرين ، فالنبي مُنبَّأ من ا لله تعالى، ثم هو يقوم بإنباء الخلق – إذا أُذن له –، وهذا من أشرف وظائف النبي [٣].

ويقال له : نَبأَ ، ونَبَّأَ ، وأَنْبأَ ، أيْ : أخبر .

ويتعدى بنفسه ، فيقال مثلاً : نبأه إياه ، ويتعدى بحرف وهو الباء ، فيقال نبَّأه به .

ويقال : تنبأ وتنبى الرجل إذا ادعى النبوءة أو النبوة وليس بنبيّ . وهذه الصيغة وإن كانت تصح في وضع اللّغة أن تطلق على النبي ، إلا أنه لما تعورف استعمالها فيمن يدعي النبوة كذبا اختصت به .

وظهور الهمز في تنبأ يؤيد القول بأن أصل كلمة (النبي) مهموز [٤] .

---

(١) ابن تيمية هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد ا لله بن محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد ا لله بن تيمية الحراني ثم الدمشقي ، شيخ الإسلام، ولد في حران سنة: ٦٦٧هـ ، وانتقل به أخوه وهو صغير إلى دمشق، فتلقى العلم فيها عن كثير من العلماء، حتى أتقن علوم الدين والعربية وتبحر فيها، وحتى قيل فيه : إنه كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي أو السامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أنه أحداً لا يعرف مثله. وقد أثنى عليه معظم العلماء، حتى كثير ممن خالفه . انتصب للتدريس والإفتاء منذ حداثة سنه، وصنف الكثير من الكتب في الفروع والأصول، وفي الرد على المخالفين، وكانت له اختيارات فقهية استنبطها من النصوص الشرعية. وجمع رحمه ا لله بين جهاد اللسان والقلم واليد، إذ إنه حارب التتار. وقد أوذي في سبيل ا لله تعالى مراراً وسجن ، وتوفي في سجن قلعة دمشق سنة: ٧٢٨هـ. ومن مصنفاته: النبوات، ودرء تعارض العقل والنقل، ومنهاج السنة النبوية، والإيمان، وشرح العقيدة الأصفهانية، والرد على المنطقيين، والسياسة الشرعية، والصفدية ، وغيرها كثير. انظر: العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. و: تذكرة الحفاظ: ٤/١٤٩٦-١٤٩٨. و: البداية والنهاية: ١٤/١٤١-١٤٥. و: الدرر الكامنة: ١/١٥٤-١٧٠ (٤٠٩). و: النجوم الزاهرة: ١١/١٢٣-١٢٤. و: طبقات الحفاظ: ٥٢٠-٥٢١ (١١٤٢). و : طبقات المفسرين؛ الداودي: ١/٤٦-٥٠ (٤٢). و: شذرات الذهب: ٦/٨٠-٨٦. و: البدر الطالع: ١/٦٣-٧٢ (٤٠). و: معجم المؤلفين: ١/٢٦١. و: الأعلام: ١٤٤.

(٢) انظر: النبوات؛ ابن تيمية: ١٦٦.

(٣) انظر لكلا الأمرين: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ؛ السمين الحلبي: ٥٥٩ .

(٤) ويؤيده أيضاً من باب الاستشهاد الاستئناسي ما تذكره كتب اللغة والتفسير والسيرة وغيرها؛ من أن الشاعر : العباس بن مرداس قال للنبي صلى ا لله عليه وسلم :

يا خاتم النبآء إنك مرسل ... بالحق كل هدى السبيل هداكا =

وجمع النبيء : أنبئاء ، ونبآء، ونبيؤون ، وأنباء [١] . وأما جمع فعيل علـى أفعلاء ؛ أي أن يكون جمع النبيء على أنبياء ؛ فقد جاء لغة ، ولكنـه قليـل ، فقـالت العـرب : خميـس وأخمسـاء ، ونصيب وأنصباء .

والاسم : النبوءة .

وأما النبي فيجمع على : أنبياء ونبيين ، وعلل ذلك بأن الهمز لما أبدل ، وألـزم الإبـدال ؛ جُمِع جَمْع ما أصل لامه حرف العلة ، كعيد وأعياد .

والاسم هنا : النبوة [٢] .

وقد رأى الراغب الأصفهاني [٣] أن النبأ ليس هو مجرد الخبر ، فالنبأ لابـد أن تجتمـع فيـه

= قالوا : ولم عليه ينكر النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (النبآء) مع أنها جمع النبيء . وقـال السـمين الحلبي في الدرر المصون - ١/٤٠٠ - : (فظهور الهمزتين يدل على كونه من النبأ) .
وإنما قلت: من باب الاستشهاد الاستئناسي؛ لأنه قد نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنـه سمع هـذا البيت ووافق عليه، وهذا لا يؤخذ مسلما حتى يثبت بإسناد صحيح، ولكن الكثير مما ترويـه كتـب الأدب والتـاريخ لا يتوفر له مثل هذا الإسناد، ومن ذلك هذا البيت، إذ لم أجد له - فيمـا بحثـت - مرجعاً في كتـب الحديـث التي تذكر السند، أو غيرها من التي تتبع الأسلوب نفسه ، حتى يتمكن الدارس مـن الحكم بالصحة أو غيرهـا لـه .
انظر : المراجع التالية في التعليق بعد الآتي. و: السيرة النبويـة؛ ابـن هشـام؛ حققهـا: مصطفى السـقا وآخـرون: ٤٦١/٢. و: ديوان العباس بن مرداس؛ تحقيق: يحيى الجبوري: ٩٥. و: النهاية في غريب الأثر: ٥/٣.

(١) لهذا الجمع انظر: ترتيب القاموس المحيط: ٣٠٨/٤. و: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيـز ؛ الفيروز أبادي : ١٤/٥. و: المعجم الوسيط: ٨٩٦/٢.

(٢) انظر فيما سبق: غريب الحديث؛ حمد بـن محمـد بـن إبراهيـم الخطـابي البسـتي؛ تحقيـق: عبـد الكريـم العزبـاوي: ١٩٣/٣-١٩٤. و: لسـان العرب: (نبأ)/ ١٥٦/١-١٥٩، (نبـا)/ ١٧٢/٢٠-١٧٣. و: الصحـاح: (نبـأ)/ ٧٤/١-٧٥. و: ترتيب القاموس المحيط : (نبأ)/ ٣٠٨/٤. و: المشوف المعلم في ترتيب الإصلاح على حـروف المعجم؛ عبد الله بن الحسين العكبري الحنبلي؛ تحقيـق: ياسـين السـواس: ٧٥٠/٢. و: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي؛ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي: (نبأ)/ ٥٩١/٢. و: جامع البيـان عـن تـأويل آي القرآن؛ أبو جعفـر محمـد بـن جريـر الطبري: ٣١٦/١- ٣١٧. والمحرر الوجيز: ٣٢٠/١-٣٢٢. و: تفسـير البحر المحيط؛ محمد بن يوسف أبو حيـان الأندلسـي: ٢٢٠/١،٢٣٧. و: الـدر المصـون: ١/ ٣٩٩-٤٠٢. و: عمدة الحفاظ: (نبأ)/ ٥٥٩-٥٦٠. و: بصائر ذوي التمييـز في لطـائف الكتـاب العزيـز؛ مجد الديـن محمـد بـن يعقوب الفيروزأبادي؛ تحقيق عبد العليم الطحان: ٥/ ١٤-١٥. و: الشفا في تعريف حقوق المصطفى؛ القـاضي عياض: ٢٥٠/١. و: المعجم الوسيط: ٨٩٦/٢.

(٣) الراغب هو : الحسين بن محمد بن المفضل (أو: المفضل بن محمد) ؛ أبو القاسم الراغب الأصبهاني. إمام عـالم في: اللغة والتفسير، أديب، وله غوص في دراسة حكم الشريعة الربانية، تدل على مدى علمه، في الأخـلاق والنفـس الإنسانية والحكمة، وكان يقرن بالإمام الغزالي. وله تصانيف عديدة في فنون شتى، منهـا جامـع =

أمور ثلاثة :

١- كونه خبراً .

٢- كونه ذا فائدة عظيمة .

٣- كونه يحصل به علم أو غلبة ظن .

واستشهد لذلك بآيات متعددة ؛ كقوله تعالى :

﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ... ﴾ (هود : ٤٩) .

وقوله :

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ... ﴾ (الأعراف :١٠١) .

وأما قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ...﴾ (الحجرات :٦) .

فيدل على أنه إن كان الخبر متعلقاً بأمر عظيم فحقه – وإن علم أو غلب على الظن صحته – أن يتوقف فيه ، حتى يعاد النظر في شأنه ، ويتبين حاله [1] .

وبالنظر في المعجم المفهرس يتبين أن القرآن المجيد لم تأت فيه كلمة الخبر وما يشتق منها إلا في مواضع يسيرة ، فيما عدا وصف الله تعالى بالخبير . وذلك بخلاف النبأ وما يشتق منه ، فقد ورد مجيئه في القرآن كثيراً ، حتى مع استثناء ما يتعلق بألفاظ النبي والأنبياء ونحوهما .

وبالنظر في المعجم أيضاً يتبين لنا : أن القرآن الكريم قد جاء فيه استعمال إنباء الله عباده، ولم يستعمل إخباره إياهم ، كقوله :

﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير (٣) ﴾ التحريم.

وجاء فيه إنباء القرآن ولم يستعمل إخبار القرآن ، كقوله :

﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ... (٦٤) ﴾ التوبة .

وجاء فيه إنباء الرسول المرسل إليهم ، ولم يستعمل إخباره إياهم ، كقوله :

= التفاسير، وهو تفسير كبير. ومنها تحقيق البيان في تأويل آي القرآن، والمفردات في غريب القرآن، وحل متشابهات القرآن. وله: كتاب في الاعتقاد، وله: الذريعة إلى مكارم الشريعة، وتفصيل النشأتين –في الحكمة والنفس الإنسانية –، والأخلاق، ومحاضرات الأدباء، وأفانين البلاغة. سكن بغداد، وتوفي سنة ٥٠٢هـ. انظر : البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة؛ محمد بن يعقوب الفيروزأبادي: ٩١/٢ (١١١). و: كشف الظنون: ٣٧٧/١ ، ١٧٧٣/٢. و: الأعلام؛ الزركلي: ٢٥٥/٢.

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن؛ الراغب الأصفهاني: (نبأ)/ ٧٨٨-٧٩٠، (نبئ)/ ٧٩٠. و: عمدة الحفاظ: (نبأ)/ ٥٥٩.

﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ... (١٥) ﴾ آل عمران .

وقوله :

﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم (٤٩) ﴾ الحجر [١] .

فإذا كان الإنباء قد استخدم في حق العلوم الآتية من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وكتابه ، دون الإخبار ، فإن ذلك يدل دلالة ظاهرة على أن للنبأ درجة أعلى من مجرد الخبر، فهو خبر له أهميته .

ثم إنه من خلال القدر الذي راجعته من كتب اللغة القديمة لم أجد فيها ما يدل على أن العرب قد أطلقت كلمة النبي أو النبيء على مخبري الأخبار من عامة البشر ، مهما بلغت أهمية أخبارهم .

فلعلهم جعلوا هذه الكلمة مختصة بمن يأتي بأنبائه من عند الله جل شأنه عن طريق الوحي، أو يدعي ذلك . والمدعي الكاذب أطلقوا عليه اسم المتنبئ ، كما سبق .

أو لعل إطلاق هذه الكلمة على طائفة من البشر إنما عرف بعد نزول الرسالة الربانية .

وقد بين ابن تيمية أن لفظ الإنباء أخصُّ من مطلق الإخبار ، فهو يستعمل في الإخبار بالأمور الغائبة المختصة، دون المشاهدة المشتركة . كقوله :

﴿ عم يتساءلون (١) عن النبأ العظيم (٢) ﴾ عم [٢] .

الوجه الثاني :

أن النبيء أو النبي مشتق من قولهم : نَبَأَ نَبْأً ونُبُوأً : ارتفع وظهر. وقيل : نبؤ فهو نبيء، والنَّبْأَة : النَّشْز .

ومن هذا قيل للطريق الواضح الظاهر ، وللمكان المرتفع المُحْدَوْدِب : النبيء .

وعلى هذا اشتق لمن جاءه الوحي من عند الله تبارك اسمه على وجه مخصوص : اسم النبيء، ملاحظاً في ذلك ارتفاع قدره على سائر الخلق ، وكونه طريق الخلق إلى الهداية [٣] .

وهذا الوجه وإن كان لا يمتنع أن يجتمع مع الوجه الأول ، فيلاحظ المعنيان كلاهما لاشتقاق لفظ النبي، إلا أنه لا يمكن اعتباره بمفرده هو الوجه لهذا الاشتقاق ، إذ ليس فيه ما يميز النبي الموحى إليه من قبل الله تعالى عن العلماء مثلاً ، الذين هم أيضاً لهم رفعة على سائر الناس ،

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف؛ محمد فؤاد عبد الباقي: (خبر): ٢٨٧، (نبأ): ٨٥٨ ٨٥٩ .

(٢) انظر : النبوات ؛ ابن تيمية : ٢٢٢ .

(٣) انظر : لسان العرب: (نبأ)/ ١/١٥٩. و: ترتيب القاموس المحيط: (نبأ)/ ٤/ ٣٠٨. و: بصائر ذوي التمييز: ١٥/٥ . و: المعجم الوسيط : ٨٩٦/٢ . و : المحرر الوجيز : ٣٢٢/١ . و : البحر المحيط : ٢٢٠/١.

وهم طرق هداية للحق[1] .

وفي مادة النبأ " بالهمز " جاء في المعاجم اللغوية : النَّبْأة : الصوت الخفي ، يقال : نَبَأ نَبْأً وَنَبْأَةً: صات صوتاً خفيفاً [2] .

ولم أجد فيما راجعته من لاحظ هذا الاستعمال اللغوي في اشتقاق النبي ، ويمكن القول: إنه لا يستبعد أن يلاحظ في الاشتقاق هذا الاستعمال ، مع ما سبق ، ووجه الملاحظة هنا : أن إحدى طرق الوحي للنبي عليه السلام – كما سيأتي – [3]؛ هي: إرْسالُ رسول من الملائكة عليهم السلام إليه، فيخبره بالأنباء عن الله تعالى ، وهذا الوحي إنما يكون بصوت خفي عن جميع من حول النبي عليه السلام من البشر . والله أعلم . ،

ثم إنه قد جاء في كتب اللغة وغيرها احتمال اشتقاق النبي من أصل غير مهموز ، وهذا الاحتمال مرجوح، لأنه لا يلاحظ صحة إطلاق النبيء بالهمز، وأنه الأصل للفظ النبي [4]. ولأن ما ذكر فيه لا يختص به النبي الموحى إليه من الله عز وجل على وجه الخصوص ، كما سبق قريباً في الوجه الثاني .

ولكن مع ذلك لا يمتنع أن يكون ما ذكر تحت هذا الاحتمال من وجوه داخلا ضمن حكمة اختيار لفظة النبي لإطلاقها على من اختصهم الله تبارك اسمه بالاصطفاء لتلك المرتبة الشريفة، ولاسيما أن تلك الوجوه تصح أن تكون أصولاً للفظ النبي، غير المهموز، فيكون هذا اللفظ قد لوحظ فيه ما يصح اشتقاق أصله المهموز منه – وهو النبيء – ، ولوحظ فيه أيضاً ما يصح لغة اشتقاقه هو منه .

ثم إن الأصول غير المهموزة التي ذكرت لاشتقاق النبي ، يجد الدارس معانيها قد وردت في الوجه الثاني الذي سبق ذكره لاشتقاق النبيء ، فمما ذكر هنا :

١- أنه يجوز أن يكون اشتقاق النبي من النَّبْو ، وهو : العلوُّ والارتفاع ، يقال : نبا يَنْبو : ارتفع .

والنَّبْوَة والنَّبَاوَة والنَّبي: ما ارتفع من الأرض، والنبي كذلك: العلم من أعلام الأرض

---

(١) انظر : النبوات : ٢٢٢- ٢٢٣ .

(٢) انظر : الصحاح: "نبأ " ٧٤/١ . و : لسان العرب: "نبأ": ١٥٩/١. و: ترتيب القاموس المحيط: "نبأ": ٣٠٨/٤ . و : بصائر ذوي التمييز : ١٥/٥ . والمعجم الوسيط : ٨٩٦/٢ .

(٣) انظر ص: ١١٤، وما بعدها.

(٤) قال السمين الحلبي: (وأما من لم يهمز فإنه يحتمل وجهين : أحدهما : أنه من المهموز ولكن خفف ، وهذا أولى ليوافق القراءتين ... ، والثاني : أنه أصل آخر بنفسه مشتق من ...) .
انظر : الدر المصون : ٤٠١/١ . وانظر كذلك : النبوات : ٢٢٣ .

التي يُهتدى بها .

فقيل: إن النبي المصطفى من قِبَل ا لله تعالى مشتق مما سبق، لأنه أرفع خلق ا لله تبارك اسمه، ولأنه يهتدى به.

وعلى هذا فإما أن يعتبر لفظ "النبي" فعيلا بمعنى فاعل ، أي: هو ظاهر مرتفع. وسبب لهداية الخلق . أو بمعنى مفعول ، أي : رفعه ا لله جل شأنه على خلقه وجعله سبباً للهداية .

٢- وقيل : إن من معاني كلمة النبي لغة : الطريق . والأنبياء عليهم السلام من البشر هم طرق الهدى، وهم طرق ا لله جل جلاله إلى الخلق ، وبهم يتوصل الخلق إلى معرفة ربهم عز وجل[1] .

الرسول لغة :

إن المراجع لمادة (رسل) في معاجم اللغة ونحوها يجد فيها عدة معان قد تفيده في تعريفه لكلمة (الرسول) لغة :

الوجه الأول: يقال لغة: أرسل إليه إرسالاً، والاسم: الرّسالة والرَّسالة والرَّسول والرَّسِيل.

والرسول : الرّسالةُ ، والمرسَلُ .

والرسالة : ما يُرْسَل من الخطاب وغيره ذلك .

وتراسل القوم : أَرْسَل بعضهم إلى بعض .

وفي التنزيل العزيز :

﴿ ... إنا رسول رب العالمين (١٦) ﴾ الشعراء .

ولم يقل : رسل ، لأن فعولاً وفعيلاً ؛ يستوي فيهما المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع، مثل : عدو وصديق .

وعلى الرغم من هذا فإن الرسول يجمع على : أَرْسُل، ورُسُل، ورُسْل، ورُسَلاء.

وجمع (مُرْسل) : مرسلون ، والمرسلات جمع : مرسلة ، وإن أريد بهم الأنبياء عليهم السلام؛ فعلى تقدير أن (المرسلات جمع مرسلة ، ومرسلة صفة لجماعة من الأنبياء ، فالمرسلات

---

(١) انظر فيما سبق: غريب الحديث؛ الخطابي: ١٩٣/٣. و: الصحاح: (نبا)/ ٢٥٠٠/٦ - ٢٥٠١. و: لسان العرب: (نبأ)/ ١٥٧/١-١٥٨، (نبا)/ ١٧٢/٢٠-١٧٣. و: ترتيب القاموس المحيط: (نبا): ٣١٨/٤. والمشوف المعلم: (نبا)/ ٧٥٠/٢. و: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٣١٧/١. و: المحرر الوجيز: ٣٢١/١-٣٢٢. و: تفسير البحر المحيط: ٢٢٠/١. و: الدر المصون: ٤٠١/١-٤٠٢. و: الشفا بتعريف حقوق المصطفى - صلى ا لله عليه وسلم - : ٢٥٠/١. و : عمدة الحفاظ: (نبو)/ ٥٦١. و : أصول الدين؛ عبد القاهر بن طاهر البغدادي: ١٥٣-١٥٤ .

جمع : مرسلة ؛ الواقعة صفة لجماعة ، لا جمع : مرسل ؛ المفرد) [١] .

وسُمِّيَ الرسول رسولاً : لأنه ذو رسول ، أي : ذو رسالة .

فالرسول اسم من أرسلت ، وكذلك الرّسالة .

وأرسلتُ فلاناً في رسالة ، فهو مُرسَلَ ورسول .

والمِرْسال: الرَّسول.

وقيل : رسول : فعول بمعنى مفعل ، أي : اسم مفعول أي : مُرسَل، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أي : الذي أرسله الله عز وجل .

وراسله مراسلةً ، فهو مُراسِل ورَسِيل.

والإرسال لغة : التوجيه والبعث .

يقال : أرسلت رسولاً ؛ بعثته برسالة يؤديها فهو فعول بمعنى مفعول .

ورسالة الرسول : ما أمر بتبليغه عن الله ، ودعوته الناس إلى ما أوحي به إليه .

والإرسال كذلك : التسليط والإطلاق والإهمال والتخلية، كإرسال الريح أو الشياطين، ونحو ذلك. فالتسليط عمل إيجابي فيه دفع للمسلط، والتخلية مؤداها عدم المنع، وسلب العوائق.

الوجه الثاني: قيل في معنى: "أشهد أن محمداً رسول الله – صلى الله عليه وسلم –": (أعلم وأبين أن محمداً متابع للإخبار عن الله عز وجل)[٢]، والرسول معناه في اللغة: الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذاً من قولهم: جاءت الإبل رسلاً، أي: متتابعة .وقيل: إن الرسول مأمور بمتابعة التبليغ وتكريره، والأمة ألزمت اتباعه. وقيل: إنه أطلق عليه هذا اللفظ لتتابع الوحي عليه، من رسل اللبن إذا تتابع دره .

الوجه الثالث : الرِّسْل والرِّسْلَة في اللغة : الرفق ، والرَّسْل : الذي فيه لين واسترخاء ، وسير رسل : سهل ، واسترسل الشيء : سلس . وناقة رَسْلَة : سهلة السير . وشعر رَسْل : مسترسل ، أي : سبط .

والرَّسيل : السهل ، والموافق لك في النضال ونحوه .

الوجه الرابع : والرِّسْل والرِّسْلة في اللغة كذلك : التؤدة . وقولهم : افعل كذا وكذا على رسلك، أي : اتئد فيه .

---

(١) الدر المصون : ٦٢٩/١٠ .

(٢) نسبت كتب اللغة هذا القول لأبي بكر بن الأنباري ، انظر : لسان العرب : ٣٠٢/١٣ .

الوجه الخامس : والترسل من الرسل في الأمور والمنطق ، كالتمهل والتوقر والتثبت ، والترسل في القراءة والترسيل : التحقيق بلا عجلة .

وقيل: الترسُّل في الكلام: التوقر والتفهم والترفق من غير أن يرفع صوته شديداً، قال الراغب:

(أصل الرِّسْل: الانبعاث على التؤدة، ويقال: ناقة رِسْلَة، سهلة السير. وإبل مراسيل: منبعثة انبعاثاً سهلاً. ومنه: الرسول المنبعث. وتصور منه تارة: الرفق، فقيل: على رسلك، إذا أمرته بالرفق، وتارة: الانبعاث، فاشتق منه الرسول.

والرسول: يقال تارة للقول المتحمل، وتارة لمتحمل القول والرسالة...، وجمع الرسول: رُسُل.

ورسل الله: تارة يراد بهم الملائكة، وتارة يراد بهم الأنبياء. فمن الملائكة قوله تعالى:

﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ (التكوير : ١٩) .

ومن الأنبياء قوله :

﴿ وما محمد إلا رسول ... ﴾ (آل عمران : ١٤٤) .

والإرسال يقال في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتسخير، كإرسال الريح والمطر، نحو:

﴿ ... وأرسلنا السماء عليهم مدراراً [١] ... ﴾ (الأنعام : ٦).

وقد يكون ببعث من له اختيار، نحو إرسال الرسل...، وقد يكون ذلك بالتخلية وترك المنع، نحو قوله:

﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم [٢] أزا ﴾ (مريم : ٨٣) .

والإرسال يقابل الإمساك، قال تعالى:

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده...﴾ (فاطر:٢). .

والرسل من الإبل والغنم: ما يسترسل في السير، يقال: جاؤوا أرسالاً، أي: متتابعين..)[٣].

---

(١) المدرار: الكثير الدر، يقال لغة: درت السماء المطر أي: صبته كثيراً. انظر: مادة (درر) في المعجم الوسيط: ٢٧٩/١.

(٢) تؤزهم: أي تغريهم وتهيجهم، انظر: مادة : (أزز) في: المعجم الوسيط: ١٦.

(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن: (رسل)/ ٣٥٢ - ٣٥٣.

الوجه السادس : والاسْتِرسَال إلى الإنسان: كالاستئناس والطمأنينة. واسْتَرسَل إِلَيْـه: أي انبسط واستأنس.

فالاسترسال : الاستئناس والطمأنينة إلى الإنسان والثقة فيما يحدثه، وأصله السكون والثبات(١).

مما سبق يتبين أن المعنى الرئيسي للرسول هو كونه: موجهاً ومبعوثاً من قبل الله تعالى، لتبليغ الخلق ما أمره الحق تعالى بتبليغه.

وهذا لا يمنع أن تكون سائر المعاني الأخرى المشتقة من هذه المادة قد روعيت في اختيار لفظ الرسول؛ لإطلاقه على من يصطفيه الله جل جلاله من الخلق ببعثه إليهم، لتبليغهم شرعه.

فالرسول:

١- يتابع أخبار من بعثه جل شأنه ، فيبلغها كما أوحاها إليه تعالى من غير تبديل .

٢- وهو يتابع ويكرر التبليغ . والوحي يتتابع عليه .

٣- والأمة مأمورة باتباعه .

٤- وهو في أخلاقه : سمح سهل .

٥- وهو يتبع في دعوته أسلوب التؤدة والتمهل واتباع السنن الربانية وعدم الاستعجال.

٦- وهو يتبع في دعوته كذلك أسلوب التفهم للأمور التي تصادفه ، والتثبت منها، لتكون معالجته لها على أكمل الوجوه .

٧- وهو يتبع كذلك أسلوب الترفق بالمدعوين.

٨- والرسل عليهم السلام يستأنس بهم أتباعهم ويطمئنون إليهم ويثقون بأقوالهم .

---

(١) انظر فيما سبق كله: الصحاح؛ الجوهري: (رسل): ٤ / ١٧٠٩. و: ترتيب القاموس المحيط: (رسل)/ ٣٣٨/٢. و: المشوف المعلم: (رسل)/ ٢٩٨/١. و: المصباح المنير: (رسل)/ ٢٢٦/١. و: مختار القاموس: (رسل)/ ٢٤٨. و: مختار الصحاح: (رسل)/ ٢٤٢- ٢٤٣. و: لسان العرب: (رسل)/ ١٣/ ٢٩٩- ٣٠٣. و: المعجم الوسيط: (رسل) والمواد بعدها/ ١/ ٣٤٤. و: البحر المحيط: ٢٧١/٢، ٢٩٧. و: الدر المصون: ٤٩٣١/١. و: النبوات؛ ابن تيمية: ١٦٦. و: الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم: ٢٥٠/١. وأصول الدين؛ عبد القاهر البغدادي: ١٥٤.

المبحث الثاني : النبي والرسول عليهما السلام اصطلاحا.

إن التعريف الاصطلاحي للفظي النبي والرسول قد تعددت التعبيرات الدالة عليه ، مما يدل على اهتمام علماء العقائد بتحديد معاني الألفاظ على أدق الوجوه.

وقبل الشروع في بيان أهم تلك التعريفات ومناقشتها، لابد من إيضاح الأمور المتفق عليها في مختلف تلك التعريفات، والتي من أهمها:

* اعتبار الوحي ركناً أساسياً لثبوت النبوة أو الرسالة لشخص معين.
* لا يكون الشخص نبياً أو رسولاً إلا بالاصطفاء الرباني.

وقد يحرص بعض العلماء على أقصى درجات الدقة في التعريف، وذلك بذكر أهم الصفات المتعلقة بشخص النبي أو الرسول عليهما السلام، مما قد يشاركه فيها الكثيرون، مثل كونه: إنساناً ، حراً ، بالغا ، عاقلاً ، من أهل القرى ... (١).

وباستثناء الذين لم يفرقوا بين النبي والرسول عليهما السلام ، والذين توقف تعريفهم للنبي أو الرسول عند حدود أنه من بعثه الله لتبليغ ما أوحاه إليه إلى الخلق (٢)؛ فإن الدارس يجد أن العلماء قد بحثوا في الأمور التي يستطيعون بها التفريق بين النبي والرسول عليهما السلام تفريقاً دقيقاً.

ويلاحظ هنا أن معرفة الفوارق بين النبي والرسول، ليست من العقائد التي يجب على المكلفين معرفتها والإيمان بها. ولهذا لم تأت نصوص قاطعة توضح بشكل ظاهر وكامل الفوارقَ بين النبي والرسول. ولكن لا يوجد مانع من أن يكون للعلماء اجتهادات في استنباط الفوارق بين

---

(١) انظر: النبي والرسول ؛ أحمد بن ناصر بن محمد آل حمد: ٢٣- ٤٤ . وأهم هذه الصفات هي في كونه إنساناً، إذ روي عن بعض السلف نفي النبوة عن الجن مطلقا ، كابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد، والحسن البصري. انظر: المرجع نفسه: ٣٠. وفي نظري أن إثبات وجود نبوة في الجن أو نفيها يحتاج إلى دليل من الشارع قاطع، وإذ لم يوجد مثل هذا الدليل فإن أي رأي في هذه المسألة يحتمل الصواب والخطأ، دون وجود مرجح قاطع. ولكن القطعي -الذي دلت عليه النصوص الشرعية- أن محمداً صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الثقلين كافة.

(٢) جاء في شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار : أن الرسول إذا أطلق فلا ينصرف إلا إلى المبعوث من جهة الله تعالى دون غيره ....، وأن المراد بالنبي المبعوث من جهة الله تعالى ....، وأنه لا فرق في الاصطلاح بينهما. انظر ص: ٥٦٧.

وجاء في كتاب الإرشاد لإمام الحرمين الجويني: أن النبوءة ترجع إلى قول الله تعالى لمن يصطفيه: "أنت رسولي". انظر: ص: ٣٥٥. ونحوه: غاية المرام؛ الآمدي: ٣١٧/٢.

وجاء في كتاب المواقف للإيجي: أن النبي هو من قال له الله -تعالى- أرسلتك، أو بلغهم عني، ونحوه من الألفاظ. انظر: ص: ٣٣٧.

وانظر: النبي والرسول؛ أحمد آل حمد: ١٥ - ١٧، فقد ذكر فيه نقولات عدة، نحو ما سبق.

النبي والرسول، على أن تظل هـذه الآراء ضمن مجـال الاجتهـادات الشـخصية للقـائمين بهـا ولا تحسب على شرع ا لله.

ولعل أهم الفوارق بين النبي والرسول التي حاول العلمـاء استنباطها مـن خـلال الدلالـة اللغوية الأساسية لكليهما.

فالنبي عليه السلام -كما سبق- مشتق مـن النبأ؛ فهـو إنسـان قـد أنبـأه ا لله جـل شـأنه بواسطة إحدى طرق الوحي : أنه قد اصطفاه لهذه المرتبة الشريفة. ثم تتوالى عليه الأنبـاء مـن ا لله تبارك اسمه بواسطـة الوحي ما دام نبياً. ولم يأت ما يدل على أن نبـوة نـبي تنقطـع عنـه في حياتـه، فهي مستمرة له حتى موته، ويبقى له -عليه السلام- بعد موته الشرف الرفيع لتلك المنزلة.

وأما الرسول ، فهو حامل رسالة، وطبعي أنه لم يحملها؛ إلا وقد أنبئ وأخبر بها قبل ذلك، ولهذا كان كل رسول نبياً ، وليس كل نبي رسولاً ، وهو ما يكاد يجمع عليه المفرقـون بينهمـا(١). فالرسول يحصل له ما يحصل للنبي ، وبالإضافة إليه يخبره ا لله جل ذكره بصورة من صـور الوحـي أنه قد اختاره ليكون رسولاً له إلى الخلق، ومن ثم يكلف أن يبلغ رسالة ا لله تبارك اسمه إلى الخلق.

ولكن يبقى بعد ما سبق تساؤلات حـول عـدة أمـور في شـأن النـبي، وفي شـأن الرسـول، عليهما السلام. ففي شأن النبي عليه السلام:

١- هل هو لا يكلف بأي تكليف تجاه الخلق ؟ ! .

٢- وإذا كلف فما هي حدود تكليفه ؟.

٣- وهل يتعارض مع كونه نبياً لا رسولاً، أن يفتي في بعـض الأحـوال، أو أن يطلـب منه أمر، فيتجه إلى ا لله تعالى بالدعاء والسؤال فيفتيه في شأنه، ويخبر هو من ثم الخلق؟.

وفي شأن الرسول عليه السلام:

١- ما هي طبيعة الرسالة التي يحملها؟، وهل يشترط أن تكـون علـى صـورة واحـدة عند جميع الرسل -عليهم السلام-، ككتاب منزل -على سبيل المثال-؟.

٢- ثم إذا حددت تلـك الصـورة بـأمر أو أمـور ، هـل يكتفـي في الاسـتدلال عليهـا

---

(١) انظر: أصول الدين؛ عبد القاهر البغدادي: ١٥٤. وقد: ذكر البيجـوري -في كتابـه تحفـة المريـد شـرح جوهـرة التوحيد- رأيين لم يبين قائلهمـا: أحدهما: احتمال وجود نبي لا يكون رسولاً ، وهو من أوحي إليه بشرع يعمـل به ويختص به ، ووجود رسول لا يكون نبيا، وهو من أوحي إليه بشرع يبلغه لغيره ويعمل به، ولا يختـص بشـيء منه. فإن اختص ببعض وبلغ بعضا فهو النبي والرسول. ومما ضعف به هذا الرأي أنه لا دليل على مـا ذكـره مـن إثبات رسالة في البشر بلا نبوة ، وأن ثبوت النبوة فيه عن طريق خصوصية الشريعة . ثم من هو هذا الـذي كـان رسولاً ولم يكن نبياً؟. انظر: النبي والرسول: ٢٣.

بمجرد الدلالة التي تعطيها كلمة رسول؟، إذ لا يمكن الاستدلال عليها من واقع حال الرسل عليهم السلام، فما جاء عن شأنهم -ولاسيما في هذه المسألة- في الكتاب والسنة الصحيحة؛ إنما هي بالنسبة لكثير منهم أمور عامة لا توضح التفصيلات الجزئية.

٣- ثم هل الكيفية التي يوحي بها الله تبارك اسمه إلى من اصطفاهم للنبوة أو الرسالة تختلف في النبي عنها في الرسول، فتصبح بذلك إحدى الفوارق التي تميز بينهما عليهما السلام؟.

إنه للحصول على شيء من الإجابات عن التساؤلات الواردات حول مفهوم النبي الاصطلاحي ، فإنه يمكن قياس النبي غير الرسول عليه السلام على حال العالم الرباني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم -على سبيل المثال-، وهو قياس من باب أولى، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، كما قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

" ... إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر" (١).

فالعالم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم له وظائف متعددة، فهو يقرر الأحكام المنصوص عليها، ويستنبط ما لم ينص عليه، من خلال ما ثبت عنده وروده في الكتاب والسنة، والعالم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو من لم يؤمن إلى الإيمان بالله تعالى، والتزام شرائع

---

(١) طرف من حديث نصه: "من سلك طريقاً يبتغي فيه علما سلك الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم. وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء ورثة الأنبياء. إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر".

وقد روي هذا الحديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ رواه عنه: أحمد: المسند: ١٩٦/٥. و: أبو داود في سننه: ٣١٧/٣ / ح: ٣٦٤١، وقال الشيخ الألباني: صحيح. و: الترمذي في سننه: ٤٨/٥ / ح: ٢٦٨٢، وقال الألباني: صحيح، ولفظ الحديث له، وقد روى الترمذي الحديث بإسنادين ، وذكر أن الآخر منهما أصح من الأول. و: النسائي في سننه الصغرى: ٩٨/١/ ح: ١٥٨ ، وقال الألباني: حسن. و: ابن ماجه في سننه: ١/ ٨١/ ح: ٢٢٣، وقال الألباني: صحيح. و: ابن حبان في صحيحه: ٢٨٩/١-٢٩٠/ح: ٨٨، وقال المحقق شعيب الأرناؤوط: حديث حسن. والبغوي في: شرح السنة: ٢٧٥/١-٢٧٦/ح: ١٢، وقال المحقق شعيب الأرناؤوط: حسن. ورواه غيرهم.

وقال ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري: (وحسنه حمزة الكناني، وضَعّفه عندهم باضطراب في سنده ، لكن له شواهد يتقوى بها.) الفتح: ١٦٠/١.

وفي مجمع الزوائد للهيثمي: (وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العلماء خلفاء الأنبياء" . قلت له في السنن: "العلماء ورثة الأنبياء" رواه البزار ورجاله موثقون). ١٢٦/١.

وفي العلل المتناهية لابن الجوزي: (... وقد روي: "العلماء ورثة الأنبياء" بأسانيد صالحة.). انظر: ٧٩/١/ح:٨١.

وصحح الألباني الحديث في صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١٠٧٩/٢/ح : ٦٢٩٧.

الدين، وهو قدوة حسنة للناس في أخلاقه وأقواله وأعماله... الخ.

وعلى ذلك فالنبي -عليه السلام- لابد أن تكون له تلك الوظائف السابقة، بل لابد وأن يتميز عن العالم فيها وفي غيرها ، ومن أظهر ما يتميز به النبي -عليه السلام- هو عصمته، فإذا أراد -على سبيل المثال- استنباط حكم من خلال شريعة رسول قد أمر هو باتباعها ، فإنه إذا اجتهد وأصاب أقره ا لله تبارك اسمه، وإن أخطأ نزل عليه الوحي ببيان الحق، وعصمه عن الخطأ.

ثم إن الأنبياء -عليهم السلام- ولاسيما أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام؛ كانت لهم وظيفة سياسة أتباعهم، والمؤتمرين بأمرهم. قال صلى ا لله عليه وسلم:

"كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون..."(١).

فالأنبياء يطبقون أحكام ا لله عز وجل، وينفذون شريعته بين أتباعهم، ويسوسون الأتباع في شؤونهم الدنيوية على أحسن الوجوه، وعلى ما يطابق شرعة ا لله تعالى التي بين أيديهم، وهذه الوظيفة هي من أهم الواجبات على الخلفاء في أمة محمد صلى ا لله عليه وسلم، ولا يعقل أن تكون وظيفة أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام أقل من وظيفة الخلفاء في أمة محمد صلى ا لله عليه وسلم.

وعلى ما سبق فإن حدث حادث في عصر نبي من الأنبياء عليهم السلام وطلب منه أتباعه الحكم الملائم لذلك الحدث، وأن يفصِّل لهم في شأنه؛ فاستنبط هو ذلك الحكم وفصل لهم من خلال شريعة ا لله تبارك اسمه التي بين يديه، أو طلب منه أتباعه أمراً فالتجأ إلى ا لله تبارك اسمه فأوحى إليه في شأنه ، وبلّغ هو من ثم الأتباع ما أوحاه ا لله عز وجل إليه ؛ فإن ذلك كله لا يخرجه عن كونه نبيا إلى كونه رسولاً ، إذا لم يقض ا لله تعالى له بذلك ، فالعلماء يستنبطون الأحكام، وقد ينزل بالمؤمنين أو ببعضهم حدث فيلهم ا لله تبارك اسمه عالماً أو صالحاً أو خليفة السبيلَ إلى معالجة ذلك الحدث على وجه حسن، أو طريقة مثلى للفصل في شأنه ، أو أي شيء يتعلق بذلك الحدث، وقد يكون ذلك بحلم يراه، والدارس لتاريخ المسلمين يجد من ذلك أمثلة كثيرة، فإذا كانت مثل تلك الأمور تحدث لآحاد المؤمنين، فإنه لو حدث شيء من ذلك لنبي من الأنبياء عليهم السلام، وأوحي إليه في شأن أمرٍ ما، وبلّغ هو ذلك الوحي ؛ لم يكن ذلك بمجرده دليلاً على إثبات مرتبة الرسالة لذلك النبي عليه السلام ، وهذا كما حدث لنبي من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام من بعد موسى عليه السلام، إذ طلب منه بنو إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون تحت رايته، فأخبرهم بمن بعثه ا لله جل جلاله ملكاً عليهم، قال تعالى :

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه ، واللفظ للبخاري. صحيح البخاري: ٣/١٢٧٣/ح: ٣٢٦٨.
و: صحيح مسلم: ٣/١٤٧١/ح : ١٨٤٢.

﴿ ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين (٢٤٦) وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم (٢٤٧) وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين (٢٤٨)﴾ البقرة.

فذلك ما يتعلق بالنبي عليه السلام. وأما الرسول عليه السلام فإن الأساس في كونه رسولاً -كما سبق- هو: اختيار الله تبارك اسمه هذا الشخص المعين لتلك المرتبة، ومن ثم يتم إخباره بذلك الاصطفاء، وبعد ذلك يبلّغ رسالة من الله تعالى، ويقوم هو بإبلاغها إلى الخلق.

ولكن تحديد ماهية تلك الرسالة قد اختلف فيها العلماء، وذلك راجع في الأصل إلى أنه ليس لدينا تفصيل ما أمر كل رسول بإبلاغه إلى أمته، ثم قد وجد من ثبت أنه رسول وكان تابعاً لشريعة رسول قبله، كداود وسليمان عليهما السلام، إذ كانا مأمورين بتحكيم شريعة التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، ولهذا فقد ذكرت أقوال عدة في تحديد تلك الرسالة ، ومن تلك الأقوال:

١- أن الرسول عليه السلام مأمور بتبليغ شرع جديد، والدعوة إليه[1]، واعترض على هذا بأنه ليس كل رسول مأموراً بذلك، فداود وسليمان عليهما السلام -كما سبق- مأموران بتحكيم شريعة التوراة.

٢- أن الرسول عليه السلام مأمور بتبليغ شرع جديد، سواء في نفسه ، أم بالنسبة إلى من يدعوهم إليه، كإسماعيل عليه السلام، الذي دعا جرهما[2] إلى شريعة أبيه إبراهيم عليه

(١) انظر: أصول الدين؛ عبد القاهر البغدادي: ١٥٤. و: أعلام النبوة؛ الماوردي: ٥٢. و: تفسير البيضاوي: الحج، آية: ٥٢، ١٣٣/٤. و : المسايرة؛ الكمال بن الهمام، مع شرحها: المسامرة: الكمال بن الشريف: ١٩٨. و: حاشية الكستلي على شرح العقائد النسفية: ٣٥. و: النبي والرسول: ٦٣-٦٤.

(٢) جرهم: هم بطن من القحطانية كانت منازلهم أولاً باليمن، ثم انتقلوا إلى الحجاز فنزلوه، ثم نزلوا بمكة واستوطنوها. وقدومهم إلى مكة يعزى إلى سببين، الأول : انتزاع السلطة لأنفسهم من أيدي العماليق، الثاني: تكاتف أبناء عمومتهم ضدهم ونفيهم من بلاد اليمن. انظر: معجم قبائل العرب، عمر كحالة: ١٨٣/١.

السلام[١].

ومما يعترض به على هذا الفرق :

أولاً : أنه يوجد في بني إسرائيل من ثبتت رسالته، وكان تابعاً لشريعة سابقة، ولم يثبت أنه قام بالدعوة خارج بني إسرائيل، كداود عليه السلام.

ثانياً : الاعتراض على ما ذكر من كون تكليف النبي عليه السلام تبليغ قوم دعوة رسول سابق، لا علم لهم بها ، أو هم غير مؤمنين بها، يدل على أنه نبي رسول، ووجه الاعتراض: أن العلماء من أمة محمد صلى ا لله عليه وسلم يقومون بهذا الأمر، وهم ورثة الأنبياء عليهم السلام، فهذه الدعوة من وظيفة الأنبياء عليهم السلام.

ويجاب عن هذا الاعتراض: بأن الرسول محمداً صلى ا لله عليه وسلم، قد بعث إلى الناس كافة، وأمته وفي مقدمتهم العلماء مكلفون أن يبلغوا دعوته للخلق جميعاً، إذ عموم وجوب اتباعه صلى ا لله عليه وسلم على الخلق جميعاً مستمر إلى قيام الساعة.

وأما الأنبياء والرسل عليهم السلام قبله صلى ا لله عليه وسلم ، فإنهم إنما كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، أو إلى من كلفهم ا لله تبارك اسمه بأن يبلغوهم دعوته تعالى، قال صلى ا لله عليه وسلم:

" أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة."[٢].

٣- أن الرسول عليه السلام هو من يأتي بشريعة، أو حتى ببعض النسخ لشريعة سابقة، فهو يقرر ما لم ينسخ من تلك الشريعة، ويبلغ المدعوين ما نسخ منها، وقد يأتي ببيانات

---

(١) يلاحظ أن دعوى كون إسماعيل عليه السلام كان على الشريعة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، أو أنه أنزلت عليه شريعة فيها اختلاف عن دعوة إبراهيم عليه السلام كلتاهما تحتاج إلى دليل، وما لم يوجد دليل فالراجح هو التوقف، وا لله أعلم. انظر : حاشية الكستلي على شرح العقائد النسفية للتفتازاني: ٣٦. و: النبي والرسول: ٦٤.

(٢) متفق عليه من حديث جابر بن عبد ا لله رضي ا لله عنهما . واللفظ للبخاري. البخاري: ١/١٢٨/ح: ٣٢٨. وانظر: ١/١٦٨/ح: ٤٢٧. و: مسلم: ١/٣٧٠/ح: ٥٢١.

وتفصيلات زيادة على ما جاء في شريعة الرسول السابق له عليه السلام ، فهو بذلك يتحمل رسالة جديدة [١]. ومما يعترض به على هذا الفرق : أن رسل بني إسرائيل بعد موسى، وقبل عيسى عليهم السلام، لم يثبت أنهم جاؤوا بنسخ، بل كانوا متبعين لشريعة التوراة.

وقد يجاب عن هذا الاعتراض: بأن النسخ ليس هو الصورة الوحيدة للرسالة التي يتحملها أمثال هؤلاء الرسل عليهم السلام، فلو أنزل إليه كتاب فهو رسالة يتحملها، ونحو هذا مما لسنا نملك تفصيله. وا لله أعلم.

٤- أن الرسول عليه السلام هو: مَن جاء بكتاب منزل من عند ا لله عز وجل [٢]، بخلاف النبي عليه السلام.

واعترض على هذا بأن اشتراطه في كل رسول يحتاج إلى دليل ، ولا دليل على أن إسماعيل عليه السلام -على سبيل المثال- قد جاء بكتاب منزل من عند ا لله تعالى.

ولكن لا شك أنه إن أنزل كتاب على نبي فإن هذا يدل على كونه قد جمع بين صفتي النبوة والرسالة، إذ الكتاب رسالة ظاهرة من عند ا لله تبارك اسمه ، يبلغها النبي عليه السلام إلى أمة دعوته، وحمله لهذه الرسالة دليل واضح على كونه رسولاً، عليه السلام.

٥- أن الرسول عليه السلام هو: من يأتيه الوحي يقظة، أو بأسلوب معين، أو أن الملك هو الذي يأتيه بالوحي، أو أن جبريل عليه السلام هو الذي يأتيه بالوحي. وذلك بخلاف النبي عليه السلام: فهو من يكون وحيه عن طريق الإلهام، أو الرؤية بالمنام، أو إخبار من طريق رسول -عليه السلام- أو نحو ذلك [٣].

وهذه الدعوى في الحقيقة لا دليل عليها، ولا يمكن استنباط دليل لها من خلال عمومات النصوص الشرعية الواردة في شأن الأنبياء والرسل عليهم السلام، فلا يمكن من ثم اعتمادها والتنصيص عليه في مسألة بيان من هو الرسول أو من هو النبي.

وغاية ما اعتمد عليه مَن ذَكَر أحد أوجه هذه الدعوى؛ النصوص التي ورد فيها كيفية

---

(١) انظر: أصول الدين: عبد القاهر البغدادي: ١٥٤. و: حاشية الشهاب على البيضاوي: ٣٠٥/٦. و: شرح المقاصد؛ التفتازاني: ١٧٣/٢. و: حاشية الكستلي على شرح العقائد النسفية: ٣٥-٣٦. و: المسايرة مع المسامرة: ١٩٨. و: النبي والرسول: ٦٣-٦٤.

(٢) انظر: الكشاف؛ الزمخشري: ٣٧/٣. و: شرح العقائد النسفية؛ التفتازاني مع حاشية الكستلي: ٣٥-٣٦. و: المسايرة مع المسامرة: ١٩٨. و: النبي والرسول: ١٩.

(٣) انظر: تفسير الرازي: ٤٨/٢٣-٤٩. و: المقدمة؛ ابن خلدون: ١٠٩. و: أعلام النبوة، الماوردي: ٥٢. و: التعريفات؛ الجرجاني: (النبي)/ ٢٣٩. و: حاشية الكستلي على شرح العقائد النسفية: ٣٦.

الوحي إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم[1]، ولكنها نصوص لا يوجد فيها ما يدل دلالة ظاهرة على أن ما ورد فيها عام في جميع الرسل عليهم السلام ، أو أنه مقتصر على الرسل دون الأنبياء عليهم السلام.

وإذا كانت الملائكة قد ظهرت وحادثت أناساً ليسوا من الأنبياء ولا المرسلين عليهم السلام، بل وبشرت بعضهم ببعض البشارات، وأمرت بعضهم ببعض الأوامر، فكيف لا تظهر وتحادث من هم أفضل منهم من الأنبياء عليهم السلام؟، قال تبارك اسمه:

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن ا لله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (٤٢) يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين (٤٣)﴾ آل عمران.

وقال تبارك اسمه :

﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن ا لله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين (٤٥)﴾ آل عمران.

وقال عز وجل :

﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا (١٦) فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا (١٧) قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا (١٨) قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا (١٩)﴾ مريم.

وقال جل جلاله :

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين (٢٤) إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون (٢٥) فراغ [2] إلى أهله فجاء بعجل سمين (٢٦) فقربه إليهم قال ألا تأكلون (٢٧) فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم (٢٨) فأقبلت امرأته في صرة[3] فصكت[4] وجهها وقالت عجوز عقيم(٢٩) قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم (٣٠) قال فما خطبكم أيها المرسلون(٣١)﴾ الذاريات .

فهذه سارة رضي ا لله عنها زوج إبراهيم عليه السلام؛ قد رأت الملائكة المتمثلين في أشكال رجال، وتحدثت معهم وتحدثوا معها. وغير ذلك من حوادث ورد بعضها في السنة النبوية

---

(١) انظر : المقدمة؛ ابن خلدون: ١٠٩.

(٢) راغ إلى كذا: مال إليه سراً. انظر : الجامع لأحكام القرآن؛ القرطبي: ٤٥/١٧. و: مادة: (روغ) في: المعجم الوسيط: ٣٨٣.

(٣) ﴿في صرة﴾: في صيحة وضجة. انظر: الجامع لأحكام القرآن؛ القرطبي: ٤٥/١٧-٤٦.

(٤) ﴿فصكت﴾: أي لطمته تعجباً. انظر: المرجع السابق: ٤٦/١٧. و: مادة: (صكك) في: المعجم الوسيط: ٥١٩.

المشرفة[١].

٦- أن الرسول عليه السلام: من أوحي إليه بشرع يبلغه ، والنبي عليه السلام بخلافه، فهو من أوحي إليه بشرع لا يبلغه[٢].

ويعترض على هذا التعريف بأمرين :

الأول: أن ما ذكر في حق الرسول عليه السلام من أنه هو من أوحي إليه بشرع يبلغه: هو في الحقيقة يرجع إلى القول الذي سبق ذكره والاعتراض عليه ، والذي مفاده: أن الرسول عليه السلام هو: من أوحي إليه بشرع ناسخ، أو شرع جديد، أو شرع فيه شيء من التجديد على الشرع السابق...، وقد كان الاعتراض: أن اشتراط هذا الأمر في جميع الرسل عليهم السلام اشتراط لا دليل عليه.

الثاني: أن العلماء ورثة الأنبياء عليهم السلام ، وأعظم وظيفة للعلماء هي تبليغ شرع الله عز وجل المنزل، ولا شك أن الأنبياء عليهم السلام أولى المؤمنين بتبليغ شرع الله تبارك اسمه، فكيف يقال: إن الله جلت قدرته قد أنزل إليهم شرعاً لا يبلغونه؟، ثم ما هي الحكمة من تبليغ مؤمن واحد شرعاً يبقى مكتوماً مخفياً؟!.

ويمكن لأصحاب التعريف السابق أن يقولوا: إنهم لا يقصدون أن الأنبياء عليهم السلام لا يقومون بتبليغ الشرائع السابقة، التي يطالبون بتحقيقها، كما هو الحال بالنسبة إلى أنبياء بني

---

(١) من ذلك حديث الأبرص والأقرع والأعمى الذين أرسل الله تعالى إليهم ملكاً ليمتحنهم. انظر: البخاري: ١٢٧٦/٣/ح:٣٢٧٧. و: مسلم: ٢٢٧٥/٤ / ح: ٢٩٦٤.
ومن ذلك أيضاً : حديث الرجل الذي زار أخا له في قرية أخرى، لم يزره إلا لأنه يحبه في الله عز وجل، فأرصد الله تبارك اسمه له ملكا يخبره بأن الله يحبه كذلك. انظر: مسلم: ١٩٨٨/٤/ح: ٢٥٦٧.
ومن ذلك: عمران بن حصين رضي الله عنه، الذي كانت الملائكة تسلم عليه، فلما اكتوى تركت ذلك، ثم لما ترك الكي رجع إليه سلامهم، عليهم السلام. انظر: مسلم: ٨٩٩/٢/ح: ١٢٢٦. و: صحيح ابن حبان: ٢٤٥/٩/ح: ٣٩٣٨. و : مسند أبي داود الطيالسي: ١١١/ح:٨٢٧. و: سير أعلام النبلاء: ٥٠٨/٢ – ٥١٢ / تر: ١٠٥.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية؛ ابن أبي العز الحنفي: ١٦٧، وقد أطلق القول بأن النبي هو من نبأه الله بخبر السماء، إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره ، فهو نبي وليس برسول. وانظر: المسايرة مع المسامرة: ١٩٧. و: لوامع الأنوار البهية؛ السفاريني: ٤٩/١، ٢٥٨/٢. و: معارج القبول؛ حافظ حكمي: ٩٥، وقد قال عن الرسل إنهم: (كل من أوحي إليه وأمر بالتبليغ ، أما من أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبي فقط وليس برسول). و : تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد: ١٢٧،٨. و: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام؛ القرطبي : ٢٣٧ – ٢٣٩، وقد أطلق القول بأن النبي من جاءه الخبر عن الله تعالى ولم يؤمر بتبليغه، وأما الرسول عليهما السلام فيؤمر بتبليغه. و: النبي والرسول: ٩٧ – ١٠٢.

إسرائيل بعد موسى عليهم السلام ، ولكن الرسول عليه السلام يوحى إليه بشرع جديد يكلف أن يبلغه، وأما النبي عليه السلام فمع قيامه بواجب الدعوة إلى شرع الله تعالى السابق، فإنه يوحى إليه بتشريعات (كعبادات ونحوها) لا يكلف بتبليغها، بل تكون خاصة به[١].

وقد ذكر أصحاب هذا التعريف قيد: (الوحي بشرع لا يبلغ) في حق الأنبياء عليهم السلام، ولم يطلقوا كون النبي عليه السلام هو من يوحى إليه من قبل الله جل جلاله ؛ وذلك حتى لا يعترض عليهم بمن أوحى الله جل شأنه إليهم بغير شرع من غير الأنبياء والرسل عليهم السلام، كسارة وأم موسى ومريم وغيرهن رضي الله تعالى عنهن[٢].

ولكن مريم رضي الله عنها قد أوحت إليها الملائكة وطلبت منها أن تسجد وتقنت لله تعالى، وتركع مع الراكعين، قال تعالى:

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (٤٢) يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين (٤٣)﴾ آل عمران.

وهذا وحي يتضمن تكليفاً .

ولأصحاب التعريف السابق أن يقولوا : إن هذه التكاليف ليست خاصة بمريم رضي الله تعالى عنها، وإنهم يقصدون شرعاً (أو تكليفات شرعية) يوحي به الله جل شأنه إلى النبي عليه السلام (غير الرسول) ويكون مختصاً به[٣].

إلا أنه مع ذلك كله؛ فإنه لا يوجد دليل ظاهر وقاطع على هذا الذي ذهب إليه أصحاب هذا التعريف، بالنسبة إلى الأنبياء عليهم السلام، ولاسيما دليل يؤكد وجود مثل هذا الأمر في جميع الأنبياء من غير الرسل عليهم السلام[٤].

مما سبق بيانه فإن التعريف الذي يمكن استنباطه لكل من النبي والرسول عليهما السلام، أن النبي عليه السلام:

إنسان حر ذكر، متصف بكمال العقل والخلق، اصطفاه الله تبارك اسمه لنفسه ولمرتبة

---

(١) وقد يستأنس لهذا الأمر؛ بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مختصاً بعبادات دون جميع أمته، كمواصلة الصيام.

(٢) انظر: النبي والرسول: ٩٨، ٩٩.

(٣) انظر: المسامرة: ١٩٨، فقد ذكر قريباً من ذلك.

(٤) توسع د: أحمد بن ناصر بن محمد آل حمد في كتابه: النبي والرسول؛ في إيراد الأقوال في تعريف كل من النبي والرسول عليهما السلام، وإيراد الاعتراضات عليها. انظر: ١٤-١٠٤ ، وكثير من الردود السابقة مستفادة منه، ومما سبق ذكره من المراجع.

عالية الشأن، فأنزل عليه وحيه بناء على ذلك الاصطفاء ، وذلك لينبئه باصطفاء ا لله جل شأنه له، ولينبئه بما يشاء ا لله عز وجل ، وليؤيده ، وليكلفه تكاليف ، تتضمن تكاليف يقوم بها النبي عليه السلام ، مع من يشاء ا لله عز وجل من عباده .

والتكاليف المذكورة في التعريف تشمل: ما قد يختص به النبي عليه السلام من عبادات، وتشمل ما يقوم به تجاه من كلف أن يرعاهم ويسوسهم من عباد ا لله تعالى ، كالحكم بينهم بشريعة رسول سابق له، وقد يقوم بتنظيمات وترتيبات إدارية وسياسية، كحملات جهادية، ونحو هذا، وقد يوحي إليه بشيء من تلك الأمور، كما في قصة النبي الذي كان في بني إسرائيل بعد موسى عليهما السلام، والذي أخبرهم باختيار ا لله جل جلاله طالوت ملكا عليهم ، وطالبهم بالانقياد له. وبصفة عامة فإن النبي عليه السلام لابد أن يقوم بما يقوم به العلماء والخلفاء الصالحون من أمة محمد صلى ا لله عليه وسلم، وله فوقهم تكاليف يختص بها، ثم إنه معصوم مؤيد من ا لله عز وجل.

وأما الرسول عليه السلام:

فهو إنسان حر ذكر متصف بكمال العقل والخلق، اصطفاه ا لله جل جلاله لنفسه ولمرتبةٍ عالية الشأن، فأنزل عليه وحيه بناء على ذلك الاصطفاء، وذلك لينبئه باصطفاء ا لله تعالى له، ولينبئه بما يشاء ا لله جلت قدرته، وليؤيده ، ولينبئه كذلك برسالة، يبلغها هو إلى من أمره بتبليغهم، وليكلفه تكاليف خاصة وعامة.

وواضح أن جميع ما هو متحقق في النبي عليه السلام، هو متحقق في الرسول عليه السلام، إلا أن الرسول عليه السلام يزيد على النبي عليه السلام بالرسالة التي يكلف تبليغها، والتي من أجلها أطلق عليه اسم الرسول.

وبالنسبة إلى الرسالة فهي تشمل كل ما يمكن أن يطلق عليه اسم الرسالة، أي سواء أكانت تشريعاً متكاملاً، أم تجديداً في تشريع سابق، أم إبلاغ تشريع سابق لقوم آخرين غير مؤمنين به، أم كتاباً يختص به هذا الرسول عليه السلام، ونحو ذلك، وليس من الشرط وجود جميع تلك الأمور في جميع الرسل عليه السلام، بل يكفي أحدها، وا لله أعلم.

ويلاحظ على التعريفين السابقين أنهما لم يتقيدا بالأسلوب المعهود في التعاريف، وأنهما احتويا على شيء من الشرح ، وسبب ذلك قد تبين من خلال ما سبق ذكره عند بيان وظيفة كل من النبي والرسول عليهما السلام، التي هي -في الحقيقة- الأمر الوحيد الذي يمكن لنا دراسته ومعرفته، ولكن على الرغم من هذا فإنه لا يكاد يذكر أمر إلا ويوجه نحوه اعتراض، وأهم اعتراض هو: عدم وجود دليل على التخصيص أو التعميم، في شأن ما يذكر في حق النبي أو الرسول عليهما السلام. وهذا أمر طبعي لعدم وجود تفصيل دقيق لحياة كل نبي وكل رسول

عليهم السلام، بل إن ما ذكر وعين لنا من أسماء الأنبياء والمرسلين إنما هو نسبة يسيرة من مجموعهم عليهم السلام. بالإضافة إلى أن عدداً ممن عين لنا بالاسم لا نعلم عنهم إلا قليلاً، كذي الكفل واليسع ويحيى عليهم السلام ونحوهم. وبقية من ذكر -عليهم السلام- لا نستطيع أن نجزم بأن عندنا التفصيل الدقيق لكل ما أوحي إليه، ولكل ما كلفه. فمن أجل هذا كان التعريفان اللذان سبق ذكرهما أقرب إلى الشرح منهما إلى التعريف بمعناه الاصطلاحي، وقد استند فيهما -كما تبين- إلى ما أمكن استحضاره من النصوص التي لها تعلق بهذا الشأن، وإلى المعنى اللغوي لكل منهما، والذي لاختياره حكمة لابد من ملاحظتها عند ذكر المعنى الاصطلاحي . وهو مستند كذلك إلى جمع الأقوال المتقاربة، التي ذكرها العلماء ، إذ يمكن اعتبار كل واحد منها يتناول طرفا من الحقيقة، فإن جمعت أعطت صورة أكثر اكتمالاً لحقيقة المعنى الاصطلاحي، وا لله أعلم.

المبحث الثالث: الفروق بين النبي والرسول عليهما السلام

لقد تبين من خلال تعريف النبي والرسول أن هناك فرقاً بينهما، وقبل بيان الفرق بينهما، لابد من ذكر ما يؤيد من الدليل الشرعي وجود الفرق بين النبي والرسول عليهما السلام.

قال تعالى:

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم (٥٢)﴾ الحج.

ففي هذه الآية يعطف جل شأنه النبي على الرسول، ولابد أن يكون لهذا العطف والفصل حكمة، ولابد أن يكون لمعنى مقصود، والعطف في الأصل يدل على نوع من المغايرة، أي أن هناك فرقاً بين النبي والرسول[١].

وإذا كان القولان المعتبران في هذه المسألة يدوران بين أنه لا فرق بين النبي والرسول، وبين أن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً[٢]؛ فإنه يتبين أن القول الثاني هو الراجح، لأنه يتمشى وقاعدة أن الأصل في العطف المغايرة. وعلى هذا تظهر لنا الحكمة من عطف النبي على الرسول، فهو من عطف العام على الخاص[٣]، فذكر أولاً الرسل، وهم الذين اصطفاهم الله تعالى بالمرتبتين: النبوة والرسالة، ثم ذكر من اصطفاهم بمرتبة النبوة عموماً، ليشمل سائر الأنبياء الذين لم يختصهم سبحانه بمرتبة الرسالة، عليهم جميعاً سلام الله تعالى.

ويتوجه على ما سبق أمران:

الأمر الأول: أن ثبوت النبوة لإنسان يحمل معنى ثبوت الإرسال له، فإذا كان النبي من نبأه الله بالأخبار، ثم هو ينبئ قومه، فإن ذلك يدل على تحمله رسالة يوصلها إليهم، فيصدق

---

(١) انظر: الكشاف: ٣٧/٣. و: المحرر الوجيز: ٣٠٧/١٠. و: التفسير الكبير؛ الرازي: ٤٩/٢٣. و: البحر المحيط: ٣٨٢/٦. و: فتح القدير: ٤٦١/٣.

(٢) سبق أن أشرت إلى ما ذكره شارح جوهرة التوحيد من إيراده قولاً لمن لم يسميهم يزعمون وجود نبي ليس رسولاً، ورسول ليس نبيا، ونبيا هو رسول. وذكرت ما في هذا القول من احتمال أن يكون قد أورد من قبيل القسمة العقلية، لابد من قبيل أن هناك فعلاً من ذهب إلى القول به.

وعلى العموم: فإن هذا القول لا يعكر على ما ذكر أعلاه، ولكنه يضيف صنفاً آخر يحتاج إثباته إلى دليل، وهو ما لم أجده له.

(٣) انظر: التفسير الكبير؛ الرازي: ٤٩/٢٣.

على كل نبي اسم رسول[1].

يدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون(٩٤)﴾ الأعراف.

وقوله جل شأنه :

﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين (٦)﴾ الزخرف.

فالآيتان فيهما دليل على أن كل نبي هو مرسل من عند الله تعالى، فيصح أن يطلق عليه اسم رسول، وكذلك فإن الآية التي بين أيدينا قد قال فيها سبحانه:

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ... (٥٢) ﴾ الحج.

فالنبي بحسب ظاهر السياق قد أرسله الله تعالى، فيكون كالرسول فيتحد المراد منهما[2].

والرد على ما سبق من وجهين :

الوجه الأول: أن الإرسال في الآيات السابقات هو : الإرسال بالمعنى العام، الذي يصح أن يشمل النبي والرسول عليهما السلام، كالبعث والتوجيه ونحو ذلك . وليس إطلاق الإرسال على شيء يدل على جواز إطلاق اسم الرسول الاصطلاحي عليه. ومن الإرسال العام الوارد في الكتاب العزيز إرسال المطر كما في قوله تعالى:

﴿ ... وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ... (٦) ﴾ الأنعام.

وإرسال الريح، كما في قوله جل شأنه:

﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلّوا من بعده يكفرون (٥١)﴾ الروم.

وإرسال الجنود، كما في قوله سبحانه:

﴿ ... فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ... (٩) ﴾ الأحزاب.

ونحو ذلك[3].

وقوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ... (٥٢)﴾ الحج، يدل على ذلك، فإنه قد ذكر الإرسال للرسول، ولا يكون الرسول رسولاً إلا وقد نبئ، لأن إخباره

---

(١) انظر: أعلام النبوة؛ الماوردي: ٥٢. و: التفسير الكبير؛ الرازي: ٤٩/٢٣، فيما حكاه عن المعتزلة. و: النبي والرسول: ٤٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير؛ الرازي: ٤٩/٢٣، وقد ذكره نقلاً عن المعتزلة. و: النبي والرسول: ٤٤-٤٥.

(٣) انظر: النبوات: ٢٥٥-٢٥٨. و: النبي والرسول: ٤٨ - ٤٩.

بالرسالة هو إنباء له من الله تعالى بها ، ولذلك كان كل رسول نبياً . وأما ثبوت النبوة لشخص فإنه لا يدل على ثبوت الإرسال بمعناه المخصوص له، والذي من أهم خصائصه[(١)]:

أن هذا النبي الذي اصطفاه الله ليكون رسولاً ، قد حمله جل شأنه رسالة جديدة ، أو ذات صفة تجعلها بمثابة رسالة جديدة ، وأمره أن يبلغها من أرسله إليهم. والإرسال بهذا المعنى لم يأت ما يدل على ثبوته لكل من اصطفاه الله تعالى ليكون نبيا من أنبيائه ، فليس كل نبي قد جاء يبلغ قومه رسالة جديدة، أو لها مثل حكمها ، ومن ثم صح عطف أحدهما على الآخر، وأن يوصف بهما أكثر من نبي، كما سيأتي قريباً، ولو كان لفظ النبي في الآية يصدق على جميع من يصدق عليه وصف الرسول ومن غير إضافة أي معنى؛ كان تكراراً ليست له فائدة تليق وكلام رب العالمين، لأن معنى النبوة ظاهر في كل من أرسله الله، والإرسال بمعناه العام يدل عليه لفظ النبوة.

والقول بأن الفائدة في ذكر النبي مع الرسول هو مجرد التنويه برفعتهم[(٢)] ، أو للدلالة على ثبوت وصف النبوة لهم، هو قول ضعيف، فإن هذه الفائدة ظاهرة لا تحتاج إلى تأكيد عليها، وتكراره في أكثر من موضع[(٣)]، فما أرسل الله رسولاً إلا نبأه ، وثبوت اصطفاء الرسالة لشخص يدل لدى كل ذي عقل على ما اختصه الله تعالى به من شرف عظيم ومنزلة رفيعة، فكيف ينسب مجرد إرادة تلك الفائدة لكلام رب العالمين، وليس كذلك القول بأنه ليس كل نبي رسولاً، على اعتبار وجود أنبياء من لم يختصهم تعالى برسالة يبلغونها للخلق؛ فإنه قول يعطي لعطف النبي في الآية على الرسول معنى جديداً جديراً بذلك العطف، ويستطيع الدارس أن يتبين من خلال هذه الفائدة المستنبطة الحكمة الربانية من ذلك العطف ، فذكر تعالى أولاً كل من اختصهم بمرتبتي النبوة والرسالة، ثم عطف عليهم عموم من اختصهم بمرتبة النبوة، وإن لم يختصهم بمرتبة الرسالة[(٤)].

وأما قوله: جل شأنه:

---

(١) أي: ومن غير تقدير نوع خصوصية لمعنى الإرسال، والذي اشتق منه الرسول المصطفى ، فإن الإرسال بمعناه العام يدل عليه لفظ النبي، كما سبق في بيان الوجه الأول، انظر ص: ١٦، ومن ثم لا تعطي كلمة رسول معنى جديداً يستحق من أجله أن يؤكد عليه ويكرر مع لفظ النبي في أكثر من آية.

(٢) وهذا القول يستند على ما يدل عليه لفظ النبوة من الارتفاع والظهور، راجع المبحث الأول ، ص: ٢٠. وانظر: تنزيه القرآن عن المطاعن؛ القاضي عبد الجبار بن أحمد : ٢٧٣-٢٧٤. والنبي والرسول؛ أحمد آل حمد: ٤٥-٤٦.

(٣) كما سيأتي بيانه قريبا عند ذكر اجتماع الوصفين في حق عدد من المصطفين في عدد من آيات القرآن الكريم. انظر: ٤٢-٤٤.

(٤) يلاحظ أن في إعادة النفي في قوله ﴿ولا نبي﴾ مع أنه كان من الممكن أن يقول (ونبي) اكتفاء بالنفي السابق؛ ما يؤكد إرادة معنى جديد قد جاء بعد النفي الثاني لم يرد فيما جاء بعد النفي الأول في قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ...(٥٢)﴾الحج، والظاهر أنه لو أراد بالنبي جميع من أراده بالرسول لما ظهر من إعادة حرف النفي فائدة تليق وكلام الحكيم العليم جل شأنه . والله أعلم .

﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي ... (٩٤)﴾ الأعراف.

وقوله تعالى:

﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين (٦) ﴾ الزخرف.

فإنه لا دلالة فيهما على أن كل نبي رسول فغاية ما تدل عليه ثبوت الإرسال لهؤلاء الأنبياء المقصودين في الآيتين عليهم السلام، وليس فيهما أن كل من نبأه الله تعالى فقد اصطفاه بالرسالة[1].

الوجه الثاني: أن العطف بالواو في قوله تعالى :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ...(٥٢)﴾ الحج.

هو من باب عطف عامل حذف وبقي معموله ؛ على عامل آخر مذكور يجمعهما معنى واحد. ففي الآية عطف عامل نبيٍ والذي حذف وتقديره (ونبأنا من نبي)؛ على العامل الآخر المذكور وهو ﴿ أرسلنا ﴾، بجامع الاصطفاء بينهما[2].

الأمر الثاني: أن مجرد الفصل لا يدل على اختلاف الجنسين، فقد فصل تعالى نبينا صلى الله عليه وسلم عن سائر الأنبياء، ولم يدل ذلك على أنه ليس منهم . وفصل الفاكهة عن النخل والرمان ، ولم يدل ذلك على أن النخل والرمان ليسا من الفاكهة ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً (٧)﴾ الأحزاب.

وقوله تعالى :

﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان (٦٨)﴾ الرحمن[3].

وهذا الاعتراض ضعيف، وذلك أننا نبحث عن معنى قوي يكون سبباً للعطف الوارد في الآية بين النبي والرسول، ولم يوجد ذلك إلا في إثبات المغايرة على الوجه الذي سبق بيانه .

وأما ما ذكر من أمثلة هنا ؛ فإنها كالآية التي بين أيدينا، لابد أن يكون للعطف الوارد فيها حكمة.

---

(١) انظر: التفسير الكبير؛ الرازي : ٤٩/٢٣ .

(٢) في كتب اللغة يضربون مثالاً بقول الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا

قالوا : أي : وكحلنا العيون ، والجامع بينهما : التحسين .

انظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب؛ أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري (ت : ٧٦١هـ) : ٣٥٧، (حرف الواو) .

(٣) انظر : شرح الأصول الخمسة ؛ القاضي عبد الجبار بن أحمد : ٥٦٨ . و : النبي والرسول : ٥١-٥٢.

أما عطف نبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم على سائر الأنبياء عليهم السلام فقد صح لوجود مغايرة قد لا تكون في أصل النبوة أو الرسالة، ولكنها في الاختلاف بين الذوات، وبين رفعة كل منهم وعلو شأنه، فقوله تعالى:

﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم...(٧)﴾ الأحزاب.

هو من قبيل عطف الخاص على العام ، فليس نبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام هم جميع أنبياء ا لله ورسله ، فهم بعضهم ، ومن ثم صح عطفهم على سائر النبيين من باب عطف الخاص على العام ، وفي ذلك إظهار لمزيتهم على سائر أنبياء ا لله ورسله ، فهؤلاء هم أولو العزم من الرسل عليهم السلام.

وأما عطف النخل والرمان على الفاكهة، فهو كذلك من قبيل عطف الخاص على العام، إذ ليس النخل والرمان كل الفاكهة بل بعضها.

والفاكهة تصدق على ما لا يصدق عليه إنه نخل ورمان ، فهناك وجه تغاير. ثم في هذا العطف إبراز لمزية هذين الصنفين من الفاكهة(١).

وعموماً فإن إثبات نوع تغاير بين مفهومي النبوة والرسالة هو أمر يفرضه المعنى اللغوي لهما، والذي سبق بيانه(٢). ويفرضه مجيئهما معاً في الآية التي سبقت دراستها(٣). ويفرضه مجيئهما معاً في وصف عدد ممن اصطفاهم ا لله ليكونوا واسطة بينه وبين سائر خلقه من المكلفين في البلاغ، كقوله تعالى في شأن محمد صلى ا لله عليه وسلم :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل...(١٥٧) ﴾ الأعراف.

فاجتماع الرسول والنبي في وصف محمد صلى ا لله عليه وسلم يدل على أنهما اسمان لمعنيين، كما سبق بيانهما(٤).

وكقوله سبحانه في شأن موسى عليه السلام :

﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيا (٥١) ﴾ مريم.

وقوله في شأن إسماعيل عليه السلام :

---

(١) انظر : النبي والرسول : ٥٢-٥٣.

(٢) انظر ما سبق ص: ١٦-٢٥.

(٣) آية (٥٢) من سورة الحج .

(٤) انظر : الكشاف : ٩٧/٢ . و : المحرر الوجيز : ١٠٠/٦-١٠١ . و : التفسير الكبير ؛ الرازي : ٢٣/١٥.

﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً (٥٤) ﴾ مريم.

وغير ذلك مما يؤكد الدلالة على أنهما وصفان متغايران ، ولذلك صح اجتماعهما في عدة مرات(١). ولو كان معنى النبوة مطابقاً لمعنى الرسالة في ذلك كله، لكان تكرار مجيئهما معاً مما لا تظهر الفائدة فيه، وهذا مما ينزه عنه كلام ا لله تعالى(٢).

وكذلك فإن مما يثبت التغاير بين مفهومي النبوة والرسالة: الحديث الذي علم فيه الرسول صلى ا لله عليه وسلم دعاءً يقوله المسلم قبل نومه ، ورواه عنه البراء بن عازب ، رضي ا لله عنهما(٣)، فقد قال صلى ا لله عليه وسلم :

" إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، وقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رهبة ورغبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت ، فإن مت؛ مت على الفطرة ، فاجعلهن آخر ما تقول " .

قال البراء رضي ا لله عنه : (فقلت أستذكرهن : وبرسولك الذي أرسلت) .

---

(١) انظر : الكشاف : ٤١٤/٢ . و : المحرر الوجيز : ٤٨٤/٩ . و : التفسير الكبير : ٢٣١/٢١ .

(٢) انظر : النبي والرسول : ٥٤ – ٥٥ .

(٣) وهو: البراء بن عازب بن الحارث، ويتصل نسبه بـ: مالك بن الأوس، الحارثي الأوسي المدني الأنصاري ، أبو عمارة ، وقيل : أبو عمرو ، وقيل : أبو الطفيل . هو وأبوه من الصحابة رضي ا لله عنهما . رده النبي صلى ا لله عليه وسلم وعبد ا لله بن عمر رضي ا لله عنهم يوم بدر لصغر سنهما، وكانا لدة، وغزا مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم خمس عشرة غزوة ، وجاء عنه أنه سافر مع النبي صلى ا لله عليه وسلم ثماني عشرة سفرة، قيل إنه غزا أحداً وقيل غير ذلك، وشهد الخندق والحديبية وغيرهما . وقيل إنه افتتح الري سنة ٢٤هـ، وشهد غزوة تستر مع أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنهما ، وقاتل مع علي رضي ا لله عنهما أيام الفتنة. ونزل في الكوفة، ومات بها ، وقيل : بالمدينة ، سنة : ٧١ ، أو : ٧٢هـ ، روى عن النبي صلى ا لله عليه وسلم وعن كبار الصحابة ، وروى عنه جماعة منهم : أبو جحيفة ، وعامر الشعبي وغيرهم، وآخرهم أبو إسحاق السبيعي ، وروايته في الكتب الستة .

انظر : طبقات خليفة : ٨٠ ، ١٣٥ . و : الطبقات الكبرى : ٣٦٤/٤ ، ١٧/٦ . و : الجرح والتعديل : ٣٩٩/٢/تر :١٥٦٦. و : التعديل والتجريح : ٤٣٧/١/تر : ١٦٦ . و : معرفة الثقات : ٢٤٥/١/تر : ١٤٨. و: الثقات : ٢٦/٣/تر : ٩٢. و : تاريخ بغداد : ١٧٧/١/تر : ١٦ . و : التاريخ الكبير : ١١٧/٢/تر: ١٨٨٨. و: مشاهير علماء الأمصار: ٤٤/١/تر :٢٧٢. و: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة: ٢٦٤/١/تر : ٥٤٦ . و : تهذيب الكمال: ٣٤/٤/تر :٦٥٠. و : الإصابة في تمييز الصحابة: ٢٧٨/١ . و: تهذيب التهذيب : ٣٧٢/١/تر : ٧٨٥ . و : تقريب التهذيب : ١٢١/١/تر : ٦٤٨ . و : إسعاف المبطأ برجال الموطأ : ٦ .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا ، وبنبيك الذي أرسلت " [١].

فرد الرسول صلى الله عليه وسلم على البراء بن عازب رضي الله عنه يعطي دلالتين:

الأولى : أن هناك اختلافاً في المعنى بين لفظي الرسول والنبي ، ولو كانا متحدي المعنى لما رد الرسول صلى الله عليه وسلم على البراء رضي الله عنه .

الثانية : قوله: "نبيك الذي أرسلت" فيه إشارة لكونه اصطفي بالنبوة أولاً ، ثم جاء الاصطفاء بالرسالة تالياً له [٢].

فالمقام مقام تعليم ، بل وفيه تعليم الدقة في الألفاظ ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد علم البراء رضي الله عنه أن يقول " وبنبيك الذي أرسلت " ، وعندما أخطأ أعاد عليه أن يقولها كما علمها له أولاً ، وبالترتيب نفسه : " نبيك الذي أرسلت " ، دون تغيير ، مما يعطي دلالة على أن هذا الترتيب هو الصحيح .

فإذا كان الترتيب أن يكون المصطفى نبياً أولاً ، ثم يكون رسولاً ، إذا أرسله ربه ، فما المانع أن يكون بعض المصطفين قد وقف بهم حد الاصطفاء عند النبوة ، ولم يتناول مرتبة الرسالة؟. ولاسيما إذا كان لذلك ما يؤيده من الدليل الشرعي الذي سبق بيانه ، دون أن يوجد للمخالف دليل صريح يؤيد ما ذهب إليه .

هذا وفي إثبات الفرق أدلة أخرى ، لكني لم أر أنها وصلت في القوة إلى الحد الذي يمكن من الاستشهاد بها في باب العقائد [٣] .

أما ماهية الفرق بين النبي والرسول فقد تبينت من خلال التعريف لكليهما والذي استخلصته من كلام العلماء [٤] .

---

(١) متفق عليه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما . واللفظ للبخاري : ٥/٢٣٢٦ /ح : ٥٩٥٢ ، والرواية أعلاه لفظه في هذا الموضع، ورواه أيضاً في :١/٩٧/ح :٢٤٤ ، ٥/٢٣٢٦/ح: ٥٩٥٤ ، ٥/٢٣٢٧/ح: ٥٩٥٦، ٦/٢٧٢٢/ح : ٧٠٥٠، وفي المواضع الثلاثة الأخيرة ذكر قوله: " ووجهت وجهي إليك ". ورواه مسلم : ٤/٢٠٨١-٢٠٨٢/ عدة روايات . ورواه غيرهما.

(٢) انظر: فتح الباري: ١/٣٥٨ ، ١/ ١١٢. و: المحرر الوجيز : ٦/١٠١. و: النبي الرسول : ٥٨ – ٥٩.

(٣) انظر : النبي والرسول : ٦٠ -٦٢ .

(٤) انظر : ما سبق : ٣٥-٣٦.

فبعد كون اصطفاء النبي قد توقف عند حدود النبوة ، وأما اصطفاء الرسول فشمل مرتبتي النبوة والرسالة ؛ فإن الفرق الأساسي بينهما والذي أمكن التوصل إليه بالدراسة هو: أن الرسول يكلف بتبليغ رسالة جديدة أو لها حكم الجديدة، وسواء أكانت أحكاما شرعية أم كتاباً أم نحو هذا . بينما النبي لا يكلف مثل هذا التكليف .

والله تعالى أعلم إن كانت توجد فروق أخرى بينهما ؛ لم نتمكن من معرفتها أو من التدليل عليها.

المبحث الرابع : النبوة والرسالة اصطفاء رباني.

إن ا لله جل شأنه قد تكفل بقسمة ما يكون به قيام حياة المكلفين في دنياهم ، وهذا من الناحيتين : المادية، المشتملة على ما يتعلق بالرزق بمفهومه العام، والمعنوية، والتي تشمل ما يكتسبه الإنسان من الأمور والعلوم الدينية والدنيوية . أما الرزق فا لله تبارك اسمه هو منزله، وهو تعالى من يقسم الأرزاق بين العباد ، وكل فرد يحصل على ما قسمه ا لله جل جلاله له ، وذلك من خلال سعيه واجتهاده . قال تعالى :

﴿ ... نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ..(٣٢) ﴾ الزخرف.

أما العلوم والمعارف : فما يتعلق منها بظواهر الحياة الدنيا فهو وإن ناله من اشتغل فيه بدراسته وبحثه واجتهاده ونظره في ظواهر الكون وآثارها؛ إلا أن ذلك كله هو من إيتاء ا لله جل شأنه ومن فضله، فهو خالق الكون، وهو الذي أودع فيه القوانين والسنن ، وهو الذي أعطى الإنسان القدرة على دراسة ظواهر الأشياء واستنباط ما تدل عليه ، وهو الذي يمده دواماً بعطاءاته لتستمر له تلك القدرة وغيرها من القدرات والقوى .

ومما يدل على أن ذلك كله من عطاء ا لله تعالى عموم قوله جل شأنه :

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً(٨٥)﴾ الإسراء.

فالعلم كله إيتاء من ا لله تبارك اسمه ، وفضل منه ، امتن به جل جلاله على عباده ، كما قال:

﴿ الرحمن (١) علم القرآن (٢) خلق الإنسان (٣) علمه البيان (٤) ﴾ الرحمن.

وقال جل ثناؤه:

﴿ الذي علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥) ﴾ العلق.

وكل من الرزق والعلم بظواهر الحياة الدنيا؛ قد فضل ا لله تعالى به بعض الناس على بعض، ولا يمكن لأحد أن يدعي أن الناس متساوون في ذلك، ولا أن يجبرهم على أن يكونوا متساوين، فالمواهب والقدرات التي أعطاهم ا لله جل شأنه ، والتي بها يحصلون على ما قسمه لهم من الرزق والعلم: هي كذلك متفاوتة لا تساوي بينها [1].

---

(١) إن التطبيق الواقعي لنظرية الشيوعية الداعية إلى الملكية الجماعية ، وإلى أن كل إنسان ليس له إلا حاجته ، قد أثبت فشل هذه النظرية فشلاً ذريعاً . وقد تبين ذلك بوضوح في الدول التي كانت تشكل ما يعرف بالاتحاد السوفيتي، وسائر الدول الأخرى التي تسير على نهجه وفي ركابه .

ثم إن العلم بالدين المنزل لا يختلف عن الرزق والعلم بظواهر الحياة الدنيا، فمصدره من الله جل جلاله، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون السبيل إلى وصوله إلى البشر كافة هو عن طريق رسل منهم ، فإذا بلغه الرسل عليهم السلام؛ أمكن لكل إنسان أن يحصل منه على ما قسمه الله تبارك اسمه له منه، من خلال كسبه واجتهاده[1]، والمستفيد حقاً مما ينزله تعالى هو المؤمن به، وبما أنزله، أو هو الباحث عن الحق ، والذي يملك الاستعداد للإقرار به والإذعان له إذا تبين له، دون المنكر أصلاً الذي ليس له همّ إلا إطفاء نور الله سبحانه مهما بلغت درجة افتراءاته.

ولكن وظيفة تلقي رسالة الله تعالى من خلال الوحي ومن ثم تبليغها إلى البشر هي وحدها التي لا يستطيع أحد أن ينال شرف القيام بها إلا باصطفاء من الله تبارك اسمه ، وذلك مهما بلغ في جده واجتهاده ، وعبادته ربه جل وعلا .

واصطفاء الله جل جلاله يتبع مشيئته ، فإذا شاء أن يختار إنساناً فيصطفيه ليكون نبياً أو رسولاً، فإن مشيئتة سبحانه لا تفارق حكمته، ومقتضى هذا أن المختار لتلك المهمة هو بلا ريب قد اختصه الله جل شأنه في صفاته الفطرية بميزات وشمائل لا توجد في سائر البشر ، بل هي خاصة به، لتلائمَ صفاته مقتضيات المهمة التي سيكلفها ، فهو تبارك اسمه يعد هذا المصطفى عليه السلام إعداداً خاصاً ويتعهده بالرعاية والعناية ، حتى يتمكن من القيام بما سبق في تقديره عز وجل أنه سيصطفيه به، سواء كان نبوة أم رسالة.

وإذا كانت العلوم الشرعية والدنيوية لا ينال منها الإنسان إلا القدر الذي قسمه الله سبحانه له ، وبحسب ما وهبه له من صفات فطرية تؤهله لتحمل تلك العلوم ، وإذا كانت الأرزاق كذلك ؛ فإن النبوة شأنها أعظم وأعلى وأجل ، ولا شك أنها لا تكون إلا باصطفاءٍ من الله تعالى وحده ؛ لمن يكون من أهلها ، فهو جل جلاله وحده الذي يعلم من يكون مستجمعاً للصفات التي تمكنه من القيام بمهمة النبوة قياماً حسناً .

والنبوة – كما سبق بيان معناها [2] – تتضمن : إنباء الله عز وجل من يصطفيه عن طريق وحيه تعالى، بما يشاء، وتكليفه أموراً يقوم بها مع المكلفين . ومن المعلوم أن الواحد من البشر يختار هو من يريد أن يرسله برسالة إلى غيره ، أو من يريد منه أن يقوم له بمهمة من المهام ، والعاقل يختار من يرى أنه أهل لإيصال تلك الرسالة ، أو للقيام بذلك التكليف[3]؛ فكيف الحال

---

(١) أي كما في العلم بظواهر الحياة الدنيا. ويلاحظ هنا أن من ابتغى وجه ا لله تعالى فيما يطلبه من العلم –ولاسيما العلم الشرعي– فإنه عز وجل يمده بمزيد عطاء وتوفيق فضلاً منه تبارك اسمه .

(٢) انظر ما سبق ص: ٣٥-٣٦.

(٣) والبشر لكونهم لا يستطيعون الإحاطة بمعرفة أحوال بعضهم بعضا ، فإنهم قد يضطرون للاستشارة ، وأما الرب جل شأنه فإنه المحيط بكل شيء علماً .

مع رب البشر تبارك اسمه، فهو خالقهم، والعليم بأحوال جميع عباده الباطنة والظاهرة ، لا يخفى عليه شيء منها ، والخبير بمن هو أهل لأن يصطفيه بالنبوة أو الرسالة؟.

فليست النبوة مرتبةً يصلها الإنسان بكثرة عبادة، أو باجتهاد في طلب علم أو نحو ذلك ، كما في مراتب التقوى والبر والإحسان، ومراتب العلماء، بل هي خارجة عن هذا المعنى[1]، إذ هي تكليف بالقيام بمهمة، هي في الحقيقة أعلى وأجل وأشرف وأخطر مهمة يمكن أن يقوم بها بشر، ولذلك اقتضت حكمة الله العلي العظيم ألا تكون إلا باصطفاء من يقوم بها اصطفاءً خاصاً.

وقد جاء تقرير هذه الحقيقة الدينية السابقة في القرآن الكريم في آيات متعددات، منها قوله تبارك اسمه:

﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .. (٩٠) ﴾ البقرة .

وقوله تعالى جده :

﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير (٧٥) ﴾ الحج .

وقوله جل شأنه آمراً بالتسليم على عباده المصطفين :

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ...(٥٩) ﴾ النمل .

والتسليم قد جاء في القرآن مختصاً بأنبياء الله جل جلاله وبرسله عليهم السلام، كما هو ظاهر في سورة الصافات مكرراً ، منها قوله تعالى :

﴿ سلام على نوح في العالمين (٧٩) ﴾ - ﴿ سلام على إبراهيم (١٠٩) ﴾ .

وقال عز وجل :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين (٣٣) ﴾ آل عمران.

وقال تبارك وتعالى في ختام الحديث عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام :

﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار (٤٧) ﴾ ص .

فأمر النبوة قائم على اصطفاء الله تعالى ، المستند إلى مشيئته الحكيمة ، التي لا تختار لهذا الأمر العظيم إلا من هم أهل لحمل المهمة المنوطة بهم ، فهم أفضل البشر قاطبة ، وهم عليهم السلام صفوة العباد في صفاتهم التي لها تعلق بهذا الأمر العظيم . وأما الرياضة والتدريب

---

(١) وإن كانت هذه المراتب كلها تحتاج إلى توفيق من الله تعالى ومعونة ، فما من خصلة من خصال الخير إلا وهي من فضله جل شأنه .

والاجتهاد، أو الدراسة والبحث ، ونحوها فكلها أمور منتفية في حق النبوة، إذ لا يمكن أن تنال بواسطتها بأي حال من الأحوال.

ومما اعترض به مشركو مكة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند ربه؛ زعمهم: أن هذا الذي جاء به لو كان حقاً من عند الله تبارك اسمه؛ لكان ينبغي أن ينزل على رجل يملك أسباب القوة والعظمة في نظرهم القاصر ، التي ترجع – في تصوراتهم – إلى : المال والجاه والسلطان وكثرة الأعوان ، فكأنهم ظنوا أن الحصول على المال والجاه والسلطان دليل على المنزلة الرفيعة عند الله جل شأنه ، ومن ثم فما من فضل رفيع إلا وهو أهله دون غيره ، ومن ذلك النبوة وإنزال الكتاب ، على فرض أنه حق وممكن . وقد جاء الرد الرباني على هذا الاعتراض الفاسد والظن الكاذب في قوله تعالى :

﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (٣١) أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون (٣٢) ﴾ الزخرف.

فالآية الأولى تذكر زعم المشركين: أن نزول القرآن –لو كان حقاً من عند الله عز وجل– لكان ينبغي أن يكون على رجل عظيم من إحدى القريتين –مكة أو الطائف–، وليس هذا حال محمد صلى الله عليه وسلم . وقد رد جل شأنه عليهم بأنهم ليسوا هم المخولين بتحديد من يستحق أن تنزل عليه رحمة الله جل جلاله، وتحديد من لا يستحق ذلك، وظاهر أن من أهم الأمور التي تشملها رحمة الله تعالى في هذا السياق؛ أمر النبوة.

وبين تبارك اسمه : أن أسباب تلك العظمة والقوة التي يتباهون بها من الغنى والسلطان والجاه هي كذلك مقسومة وموزعة ومقضي في شأنها من عند الله جل جلاله، ولم يكونوا –في الحقيقة– هم المتولين لقسمة هذه الأمور، التي هي بحسب الظاهر تنال بكسب المرء واجتهاده[1].

وقد ذكر جل شأنه حكمة من حكمه البالغة في جعل الناس متفاوتين فيما ينالونه من الغنى والجاه والسلطان، في قوله: ﴿ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ... (٣٢) ﴾ الزخرف، فيستخدم الغني الفقير وذا الصناعة والحرفة لقضاء حوائجه، وينالون هم منه ما يعطيهم مقابل ما قدموه له، وبهذا يستخدم الناس بعضهم بعضاً، وكل ينال من الآخر ما يحتاجه، ويعطيه مما عنده، وهكذا تسير دورة الحياة دواماً دون توقف، فليس الغنى والجاه والسلطان دليلاً –بمجرده– على عظمة صاحب تلك الأمور ورفعة قدره عند الله جل جلاله.

---

(١) رزق المرء مقسوم له ومحدد منذ أن كان في بطن أمه ، فلابد أن يحصل عليه ، والعمل والاجتهاد سبب في الوصول إلى ذلك الرزق المقسوم . ولكن ليست بينهما علاقة ثابتة مضطردة دواماً .

وفي موضع آخر بين تبارك اسمه حكمة أخرى من حكم هذا التفاوت بين البشر ، وهي حكمة ابتلاء واختبار كل إنسان فيما آتاه الله جل شأنه ؛ كيف يكون تصرفه حياله ؟، فهل يكون في تصرفه متبعاً ما يرضي ربه عز وجل ؟، أم متبعا أهواءه وشهواته ؟!، قال تعالى:

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن (١٥) وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن (١٦) كلا بل لا تكرمون اليتيم (١٧) ﴾ الفجر.

فلا الغنى ولا الفقر دليل مستقل على مكانة هذا العبد عند ربه عز وجل، بل هو ابتلاء له، ومكانته عند ربه جل شأنه تتحدد بحسب ما يكون تصرفه حيال ذلك الابتلاء. وجاء هذا المعنى في موضع آخر في قوله تعالى:

﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٥) ﴾ الأنعام.

فابتلاء البشر فيما رزقهم الله عز وجل هو الحكمة من جعلهم متفاوتين في ذلك، وهو ابتلاء مستتبع بجزاء رباني عادل.

والتفاوت بين البشر مقسوم ومقدر من الله جل جلاله، وله سبحانه في ذلك حكم بالغة، منها : ما يتعلق باستمرار دورة الحياة الدنيا للمكلفين في السير وعدم الانقطاع، إلا أن يشاء الله عز وجل، ومنها ما يتعلق بمصير المكلفين في الدار الآخرة. وإذا كان الشأن في التفاوت على ما سبق بيانه ؛ لم يكن هذا التفاوت -بمجرده- سبباً لأن يعتقد صاحبه أنه ذو منزلة رفيعة عند الله جل شأنه، وأنه يستحق دواماً أن تكون له الحسنى في كل الأحوال وفي جميع الأمور[1].

ثم إن الله تبارك اسمه قد ختم آية سورة الزخرف السابقة بقوله :

﴿ ... ورحمة ربك خير مما يجمعون (٣٢) ﴾ .

وفي هذا بيان لكون رحمة الله جل جلاله ؛ التي تشمل في هذا السياق : أمر النبوة ؛ هي أعظم وأعلى شأناً مما يصرف هؤلاء المعترضون أوقاتهم في جمعه وكنزه ، وهم لا ينالون إلا ما قضاه الله عز وجل لهم وقسمه بين عباده . وإذا كان أمرها كذلك فحريّ بها أن لا تكون إلا

(١) يذكر في هذا المقام صاحب الجنة الذي كفر بربه سبحانه ، وظن أن لا بعث بعد الموت ، وأنه حتى لو كان هنالك بعث فإن له عند ربه تعالى الحسنى ، مستدلاً بما أعطاه الله عز وجل في هذه الحياة الدنيا ، غافلاً عن أن هذا العطاء إنما كان ابتلاء له من قبل ربه جل جلاله، هل يكون من الشاكرين أم من الكافرين؟. سورة الكهف: الآيات: (٣٢-٤٤).

باختيار الله عز وجل الحكيم العليم الخبير ، لا بحسب أهواء الناس وآرائهم [1]، كما قال تبارك اسمه رداً على الكافرين :

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون(١٢٤)﴾الأنعام.

فهذه الطائفة من الكافرين توسعت في الأمر ، وأرادت أن يؤتى كل فرد منهم الذي أوتيه رسل الله عز وجل ، فينزل عليهم الوحي ، وتأتيهم الرسالة ، وهذا لم يكن في أمور الحياة الدنيا المعتادة ، فكيف بأشرف الأمور وأعظمها على الإطلاق بالنسبة إلى البشر في هذه الحياة ، وهو أمر النبوة والرسالة ؟! .

فلا تكون النبوة ولا الرسالة إلا فيمن اختاره الله جل جلاله واصطفاه لهذه المهمة العظيمة، وهو المبني على عظيم حكمة الله تبارك اسمه وعلمه بمن هو أهل لحمل تلك الرسالة[2] .

ومما سبق يتبين أن النبي عليه السلام يتحقق فيه أمران :

الأول: اصطفاء الله تبارك اسمه له واختياره لهذه المرتبة الشريفة، وإنزال وحيه عليه.

الثاني: أن من يصطفيه الله جل شأنه للنبوة والرسالة؛ يكون قد اختصه في أصل فطرته

---

(١) انظر في تفسير آيتي الزخرف : تفسير الطبري : ٦٤/٢٥-٦٨ . و : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ؛ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري : ٤١٧/٣-٤١٨ . و : المحرر الوجيز: ٢١٦/١٣-٢١٨ . و : التفسير الكبير ؛ الفخر الرازي : ٢٠٩/٢٧-٢١٠ . و : البحر المحيط: ١٣/٨. و : تفسير القرآن العظيم ؛ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي : ١٢٦/٤-١٢٧. و : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ؛ محمد بن علي بن محمد الشوكاني: ٥٥٣/٤-٥٥٤. و: التحرير والتنوير؛ محمد الطاهر بن عاشور: ١٩٩/٢٥-٢٠٢.

(٢) انظر : لوامع الأنوار البهية : ٢٦٧/٢-٢٦٨. و : النبوة والأنبياء؛ محمد علي الصابوني : ٨-٩. و : العقيدة الإسلامية وأسسها؛ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : ٢٦٧-٢٦٨ . و : الرسل والرسالات؛ عمر سليمان الأشقر: ٥٩ - ٦٠.

ومما استدل به كذلك؛ قوله تعالى بعد أن ذكر شيئاً من قصص عدد من الأنبياء عليهم السلام: ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا (٥٨)﴾ مريم .

وقوله جل شأنه حاكياً مقالة يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم (٦) ﴾ يوسف. ومعنى اجتباه: اختاره واصطفاه. انظر: مادة (جبي) في: المعجم الوسيط: ١٠٦/١.

وقوله تبارك اسمه مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين (١٤٤) ﴾ الأعراف.

فالنبوة والرسالة محض فضل الله تعالى ونعمته لمن يختاره يصطفيه لها. ولم يأت في الأدلة، ما يخالف هذا المعنى.

بصفات عديدة تؤهله للقيام بما سيحمله ا لله تبارك اسمه إياه عند اصطفائه له .

وقد نسب ابن تيمية القول بأن حقيقة النبوة تشمل الأمرين السابقين إلى الجمهور ، وذكر الحديث الذي قالت فيه أم المؤمنين خديجة رضي ا لله عنها للنبي صلى ا لله عليه وسلم[١] عندما أتاها فزعاً من نزول جبريل عليه السلام لأول مرة عليه في غار حراء:

(كلا، وا لله ما يخزيك [٢] ا لله أبداً، إنك لتصل الرحم[٣]، وتحمل الكل[٤]، وتكسب المعدوم[٥] .

(١) هي: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية أم المؤمنين، وأول من آمن بالنبي صلى ا لله عليه وسلم، وأم أبنائه عدا إبراهيم، فضائلها لا تحصى، وهي أشهر من أن تعرف ، ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين. رضي ا لله عنها. انظر: الطبقات الكبرى ابن سعد: ١٤/٨، وما بعدها، ٥٢/٨. و: الإصابة؛ ابن حجر: ٦٠٠/٧، وما بعدها. و: الثقات؛ ابن حبان: ١١٤/٣.

(٢) ذكر النووي وابن حجر أن بعض رواة صحيح البخاري وصحيح مسلم رووا هذه الكلمة: (يحزنك)، من الحزن. انظر: شرح النووي على مسلم: ٢ / ٢٠١. و: فتح الباري: ٢٤/١.
والخزي: الفضيحة والهوان والوقوع في بلية وشهرة بذلة. انظر : شرح النووي على مسلم: ٢٠١/٢. و: فتح الباري: ٧٢٠/٨.

(٣) تصل الرحم : أي : تحسن إلى الأقارب . انظر : شرح النووي : ٢٠١/٢ .

(٤) الكَلّ : شرحه ابن حجر بقوله : (هو من لا يستقل بأمره) . فتح الباري : ٢٤/١ .
قال النووي: (ويدخل في حمل الكلّ: الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك). شرح النووي: ٢٠١/٢.

(٥) تكسب: ذكر ابن حجر أن من رواه صحيح البخاري من رواها: بضم التاء، ومنهم بفتحها، قال ابن حجر: (والكسب هو الاستفادة). قال النووي: (يقال: كسبت الرجل مالاً وأكسبته مالاً، لغتان، أفصحهما باتفاقهم: كسبته، بحذف الألف).
والمعدوم: قيل المراد به المعدم، وهو الفقير المحتاج العاجز عن الكسب، وأطلق عليه المعدوم لكونه كالمعدوم الميت الذي لا تصرف له.
وقيل: المراد بالمعدوم: ظاهره، أي الأمر الذي لا وجود له .
ونظراً للاختلاف السابق ؛ فقد ذكرت عدة معان لهذه الجملة ، فقيل :

أ- قال النووي: فمن رواه بالضم -تكسب- فمعناه : تكسب غيرك المال المعدوم، أي: تعطيه إياه تبرعاً، فحذف أحد المفعولين.

ب- وقال أيضاً: وقيل معناه: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق .

جـ- قال النووي : وأما رواية الفتح فقيل معناها كمعنى الضم ، وقيل معناها: تكسب المال المعدوم، وكانت العرب تتمادح بكسب المال المعدوم ولاسيما قريش.
قال ابن حجر : وإنما يصح هذا المعنى إذا ضم إليه ما يليق به من أنه كان مع إفادته للمال يجود به في الوجوه التي ذكرت في المكرمات.

د- وقيل معنى الجملة: أنك ترغب أن تستفيد رجلاً عاجزاً فتعاونه، بينما غيرك يرغب أن يستفيد مالاً موجوداً.

هـ- وقيل المعنى: أن ما يعدمه غيره ويعجز عنه يصيبه هو ويكسبه. وهذا إن أريد به أمرا ماديا اقترب من القول السابق عن كسب المال المعدوم (المذكور في جـ).

وصحح النووي القولان الأول والثاني.
انظر: شرح النووي على مسلم: ٢٠١/٢-٢٠٢. و : فتح الباري: ٢٤/١-٢٥. و: هدي الساري: ١٥٤، ١٧٩. و: النهاية في غريب الأثر: ١٩١/٣ ، ١٧١/٤.

وتقري الضيف [١] ، وتعين على نوائب الحق [٢]) [٣].

وفي رواية: (وتصدق الحديث) [٤].

فاستدلت رضي الله تعالى عنها بعقلها، من خلال المحاسن والمكارم التي وجدتها في الرسول صلى الله عليه وسلم؛ على أن الله سبحانه لا يخزيه ولا يهينه. فليس من سنته جل شأنه ولا من حكمته ولا عدله أن يخزي من جعل فيه تلك المحاسن والصفات العالية ، بل من سنة الله جل شأنه، الحكيم في أفعاله وقضائه أن يكرم أهل الخير ، كما أنه يهين أهل الشر والفساد .

ونبه ابن تيمية على أنه يجب أن لا نظن أن كل من اتصف بخلال حميدة فإنه يكون نبيا، مهما ظن صاحبها أو ظن فيه أنها بلغت درجة عالية، فوجود الخصال الحميدة في الأنبياء عليهم السلام حق لا ريب فيه ، ولكن الاقتصار عليها في بيان حقيقة النبوة هو الباطل، فلابد مع تلك الخصال من اصطفاء الله جل جلاله لهذا الشخص بالنبوة.

وعلى هذا فلا ينبغي لإنسان أن يظن أن النبوة أو الرسالة تنال باكتساب الإنسان، بعد أن يستكمل تزكية نفسه وأخلاقه، كما تنال العلوم المكتسبة، فليس أمر النبوة مما جعل الله تبارك اسمه للعباد إليه طريقاً يسلكونه فيصلون إليها، بل أمر النبوة راجع إلى مشيئة الله عز وجل الحكيمة.

فما يذكر للأنبياء من الصفات والخلال إنما يعتبر جزأ من أجزاء نبوتهم، وليس هو الحقيقة الكاملة لنبوتهم، كما أن الرؤيا الصادقة هي جزء من أجزاء النبوة [٥]، قال صلى الله عليه وسلم:

---

(١) (تقري الضيف): بفتح التاء، قال النووي: (يقال: قريت الضيف أقريه قرى وقراء. والقرى: الطعام الذي تضيف الضيف به). شرح النووي على مسلم : ٢/٢٠٢ .

(٢) النوائب جمع نائبة وهي الحادثة ، وإنما قالت: نوائب الحق، لأن النائبة قد تكون في الخير وقد تكون في الشر. ذكر ذلك النووي. انظر: شرح النووي على مسلم: ٢/٢٠٢.
وقال ابن حجر عن هذه الجملة: كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولما لم يتقدم. انظر: فتح الباري: ١/٢٥.

(٣) متفق عليه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها. واللفظ للبخاري. صحيح البخاري: ١/٤/ح:٣. ورواه كذلك في: ٤/١٨٩٤/ ح: ٤٦٧٠، ٦/٢٥٦١/ح: ٦٥٨١. وانظر: مسلم: ١/١٣٩/ح : ١٦٠. و: أحمد في المسند: ٦/٢٣٢. و: ابن حبان في: صحيحه : ١/٢١٦/ح: ٣٣. و: الحاكم في: المستدرك: ٣/٢٠٢. و: إسحاق بن راهويه في: مسنده: ٢/٣١٤.

(٤) هذه الجملة موجودة في جميع روايات المراجع السابقة، ماعدا رواية البخاري الأولى.

(٥) انظر: الصفدية؛ ابن تيمية: ١/١-٧،١٣٥،٢٢٥-٢٣٦. و: النبوات؛ ابن تيمية: ٢٤٨-٢٥١. و: درء تعارض العقل والنقل؛ ابن تيمية : ٥/٣٤١،٣٥٣، ٣٥٥-٣٥٦. و : مجموع فتاوى ابن تيمية؛ جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، وابنه: محمد: ٩/١٤-١٥، ١٢/ ٣٥٤. و: لوامع الأنوار البهية: ٢/٢٦٧-٢٦٨. و: عصمة الأنبياء؛ محمد أبو النور الحديدي: ٣١-٣٢.

" رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزأً من النبوة " (١).

ثم إن تلك الصفات والخلال الحميدة التي توجد في الأنبياء عليهم السلام ؛ لا يعلم إلا الله تعالى مدى ما هي عليه عندهم ، ولكن الذي لا شك فيه -عند المؤمن حقا- أن من لم يصطفيه الله تبارك اسمه لمرتبة النبوة؛ فإنه مهما بلغ في تصفية نفسه وتزكية أخلاقه فلن يصل إلى الدرجة التي عليها أنبياء الله ورسله عليهم السلام.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. واللفظ للبخاري، صحيح البخاري: ٦/٢٥٦٣/ح: ٦٥٨٧. وانظر مسلم: ٤/١٧٧٤/ح: ٢٢٦٣ (عدة روايات)، وهذه رواية سعيد بن المسيب عن أبي هريرة وقد اتفقا كذلك على رواية ابن سرين لهذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي أوله زيادة "إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب". انظر: البخاري: ٦/٢٥٧٤/ح: ٦٦١٤. ومسلم: ٤/١٧٧٣/ح:٢٢٦٣. وقد أخرج مسلم الحديث من طريق أبي صالح ومن طريق أبي سلمة ومن طريق ابن منبه كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه، انظر: مسلم: ٤/١٧٧٤/ح: ٢٢٦٣. وقد اتفق الشيخان على إخراج الحديث عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم. انظر: البخاري: ٦/٢٥٦٢/ح: ٦٥٨٢، ٦/٢٥٦٨، ح: ٦٥٩٣. و: مسلم: ٤/١٧٧٤/ح: ٢٢٦٤ . وقد أشار إلى أن ثابت البناني قد روى هذا الحديث عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم. واتفقا كذلك على إخراج الحديث عن أنس عن عبادة رضي الله عنهما. انظر: البخاري: ٦/٢٥٦٣/ح: ٦٥٨٦. و: مسلم: ٤/١٧٧٤/ ح: ٢٢٦٤. وأخرج البخاري الحديث كذلك عن: أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: ٦/٢٥٦٤/ح: ٦٥٨٨. والحديث أخرجه كذلك أصحاب السنن ومالك وأحمد وغيرهم كثير.

وتحديد العدد بـ "ستة وأربعين" هو الرواية المشهورة ، ولكن الحديث قد جاء في بعض الروايات عند الأئمة السابقين بعدد مختلف، إما زيادة أو نقص في حدود الأربعين، وإما بلفظ "السبعين".

المبحث الخامس: الحكمة والنبوة.

الحكمة لغة:

يدور لفظ الحُكْمْ في اللغة حول عدة معان منها:

أ- القضاء والفَصْل، وقيل: القضاء بالعدل، فالحُكْم مصدر لـ حَكَمَ بينهم يَحْكُـمُ، أي: قَضَى، ويقال: حَكَم عليه حُكْماً وحَكُومَةً، وحَكَمَ له، وَحَكَمَ بينهم، والحاكم: القاضي بالحكم، والجمع: حُكّام.

وأما الحكيم في هذا المعنى فليس إلا الحاكم العدْل، ولذلك فإن من معاني الحكمة: العدْل.

ب- الإتقان، والتوثيق، والخبرة في الأمور المستفادة من التجارب.

يقال: أحكمت الشيء فاستحكم، أي: صار محكماً، وأحكم الشيء: أتقنه. واحتكم الأمر واستحكم: وثق.

فالحكيم من هذا: المتقن للأمور، ومن أحكمته التجارب.

جـ- المنع والرد والأخذ على اليد، وربما اختص بالمنع عن الفساد[1].

يقال: حَكَمْتُ وأَحْكَمْت وحَكَّمْت بمعنى رددت ومنعت، قيل ومنه اشتق: الحاكم، لأنه يمنع الظالم من الظلم.

ويقال: حكم الشيء وأحكمه منعه من الفساد، ويقال: حَكَمْت السفيه وأَحْكَمْتُه: إذا أخذت على يده. ويقال: حَكَمَ فلان عن الأمر والشيء: أي رجع، وأَحْكَمْتُه أنا، أي رجعته، وأَحْكَمَه هو عنه: رجعه. ويقال حَكَمَ الرجلَ وحَكَّمَه تحكيما وأَحْكَمَه: منعه مما يريد. ويقال: حكمت الفرس وأَحْكَمْتُه وحَكَّمْتُه: إذا قدعته[2] وكففته، ومنه حَكَمَة اللجام، وهو: ما أحاط بحنكي الدابة منه، سميت بذلك لأنها تمنع الدابة من الجري الشديد، وتمنعها من مخالفة راكبها.

والحِكْمَة في الكلام أو الشعر على هذا المعنى يراد بها: أن الكلام النافع يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما، كالمواعظ والأمثال.

د- العلم والفقه، فالحكيم هو العالم الفقيه، نافذ البصيرة في حقائق الأمور ودقائقها.

ومن هذا المعنى عُرِّفَت الحكمة بأنها: عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.

---

(١) ذكر هذا الفيروز أبادي في: بصائر ذوي التمييز: ٤٩١/٢. ولم أجد هذا الاشتراط في كتب اللغة.

(٢) القدع: الكف والمنع. انظر: مادة: (قدع) في: لسان العرب: ١٠/ ١٣٢.

هـ- بلوغ الغاية القصوى في الاتصاف بالجميل من الخلال ، والبعد عن كل دني من الأقوال والأعمال والصفات.

يقال: حَكَمَ الرجل يَحْكُمُ حُكْماً: إذا بلغ النهاية في معناه مدحاً، واسْتَحْكَم الرجل: إذا تناهى عما يضره في دينه أو دنياه .

و- وقد جاء في كتب اللغة إطلاق الحكمة إما على معاني جزئية، كبعض مفردات الأخلاق: مثل: الحلم، وإما على معاني مستفادة من بعض الإطلاقات الشرعية لكلمة الحكمة: وذلك كالنبوة، والقرآن، والسنة ، والإنجيل، وكما جاء في المعجم الوسيط: أن من معاني الحكمة: العلة، فيقال: حكمة التشريع، وما الحكمة في كذا ؟. ويظهر أن هذا المعنى الأخير إنما استخدمه العلماء المسلمون في كتاباتهم ، ولم يكن موجوداً عند الأوائل بهذا المعنى ، وإن كان قد لوحظ فيه المعاني التي دارت عليها لفظة الحكمة عند الأقدمين ، كما هو الحال بالنسبة إلى إطلاق الحكمة على القرآن أو النبوة ونحوهما [1].

---

(١) انظر: الصحاح ؛ الجوهري: (حكم) ٥/١٩٠١ - ١٩٠٢ . و: جمهرة اللغة؛ أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري، ط: أولى؛ في مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن؛ جمادى الأولى، (١٣٤٥هـ): ١٨٦/٢ . و: تهذيب اللغة؛ أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (٢٨٢-٣٧٠هـ)، تحت سلسلة (تراثنا) ، تحقيق عبد الكريم العزباوي ، مراجعة: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة ، مصر: ٤/(حكم). و: معجم مقاييس اللغة؛ لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥هـ)؛ بتحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (محمد محمود الحلبي وشركاه) خلفاء، طبعة ثانية: ١٣٩٠هـ ، ١٩٧٠م: ٩١/٢. و: مجمل اللغة؛ لابن فارس ؛ دراسة وتحقيق : زهير عبد المحسن سلطان ؛ ط: أولى ؛ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م؛ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان: ٢٤/١. و: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة؛ علي بن إسماعيل بن سيده (ت : ٤٥٨هـ)؛ تحقيق عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، ط: أولى؛ ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م؛ نشرته: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر؛ محمود نصار الحلبي وشركاه -خلفاء-، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية: ٣ / ٣٥- ٣٧. و: ترتيب القاموس المحيط: (حكم)/ ٦٨٥/١- ٦٨٦ . و : لسان العرب : (حكم)/ ٤٧٨/١-٤٨٠ . و: مفردات ألفاظ القرآن؛ الراغب الأصفهاني: (حكم)/ ٢٤٨-٢٥١. و: مختار الصحاح؛ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: (حكم)/ ١٤٨. و: بصائر ذوي التمييز؛ الفيروز أبادي، ٤٣: بصيرة في الحكم والحكمة: ٤١٧/٢-٤٩٢. و: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير؛ أحمد الفيومي: ١٤٥/١. و: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ؛ السمين الحلبي (حكم): ١٣٤- ١٣٥. و : المعجم الوسيط. (حكم)، والمواد بعدها: ١٩٠/١.

وبناء على ذلك كله فإنه إذا جاء الإطلاق الشرعي لإيتاء الحكمة (أو: الحكم) لشخص، أو جاء في الشرع وصف كلام بأنه حكمة (أو: حكم)، أو تسميته بأحد الاسمين ؛ فإن تلك المعاني السابقة أو جلها قد لوحظت عند ذلك الإطلاق وتلك التسمية[١].

فإذا كان من أعطاه الله تبارك اسمه الحِكْمَة أو الحُكْمَ نبيا؛ فهو بلا شك قد بلغ الغاية في تلك المعاني الكلية السابقة. وهذا أمر يوقن به المؤمنون با لله جل جلاله وبأنبيائه عليهم السلام حقاً.

وكذلك فإنه إذا كان الكلام الذي وصفه الله سبحانه بأنه حكمة (أو: حكم)، أو سماه بأحدهما؛ هو: كلام رباني، كالقرآن الكريم ؛ فإن تلك المعاني الكلية السابقة كلها يمكن أن تلاحظ في هذا الإطلاق ، وعلى ما يشابهه ، وهذا بدرجة رفيعة .

فمن آيات الكتاب العزيز يستنبط القضاء الحق، والحكم العادل لأهم ما يتعلق بالإنسان في معاشه ومعاده، وأمور دينه ودنياه . ومنها كذلك يستنبط القول الفصل بين الحق والباطل في العقائد والشرائع ، وفيها المواعظ والأمثال ، وهي متقنة محكمة غاية الإتقان والإحكام، وهي تدعو الناس إلى البعد عن كل ما لا ينبغي لهم أن يتصفوا به أو يقولوه أو يعلموه، فتردهم عن الجهل والخطأ.

وهي تحثهم كذلك على أن يكونوا في جميع تلك الأمور على أحسن ما يعود عليهم بالخير في دنياهم وأخراهم. وهي كلها من أعظم العلم وأفضله.

الحكمة اصطلاحاً :

إن لفظة (الحكمة) تعتبر من الألفاظ القديمة المستخدمة سواء لدى العرب، أم لدى الأمم الأخرى، كل حسب لغته، ولعل ما فسرت به لفظة الفلسفة (اليونانية) من أنها محبة (أو: طلب) الحكمة؛ مما يشير إلى قدم استخدام هذه الكلمة (أو ما يقابلها من الكلمات في اللغات الأخرى).

وبعد مجيء الإسلام فقد انتشر استخدام لفظة الحكمة بين المسلمين جدا، ولعل أهم عامل لهذا الانتشار هو كثرة ورودها في نصوص الكتاب والسنة ، وكون الله جل جلاله قد اتصف بالوصف المشتق منها، وهو كونه تبارك اسمه: الحكيم.

(١) ما عدا المعاني الجزئية ولا سيما المستنبطة من الإطلاقات الشرعية .

ونظراً إلى كثرة ورود لفظة الحكمة في النصوص الشرعية، وإلى كونها قد يراد بها في بعض النصوص معنى اصطلاحي، يختلف عن المراد من نصوص أخرى، (كالنبوة أو القرآن أو السنة)، ونحو ذلك، ونظراً إلى كون أي معنى اصطلاحي هو في حقيقة أمره يمكن أن يعود إلى معنى كلي عام؛ فلذلك كله وضع العديد من العلماء معاني يمكن أن تكون كلية تنتظم المعاني الجزئية الواردة لها. وذلك كالقول :

بأن الحكمة: هي معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بما تبلغه الطاقة(١).

أو أنها: اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم(٢).

أو أنها: إتقان العلم النافع وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم(٣).

أو أنها: إتقان القول والعمل(٤).

أو أنها: الكلام المحكم الذي لا مدخل فيه للفساد بوجه(٥).

أو أنها: قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة(٦).

أو أنها: الإصابة في القول والعمل والاعتقاد(٧).

أو أنها: وضع كل شيء موضعه على الصواب(٨).

أو أنها: معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به(٩).

---

(١) انظر: التعريفات؛ الجرجاني: (الحكمة)/ ٩١. و : التحرير والتنوير؛ ابن عاشور: ٣/٦١-٦٤، ١٤/٣٢٧، (وعرفها بأنها: المعرفة الخالية عن الخطأ)، ١٥/١٠٦، ٢١/١٤٩-١٥٢.

(٢) انظر : البحر المحيط ؛ لأبي حيان : ١/٣٩٣ ، ٥/٥٤٩ ، ٧/١٨٦ . و : المحرر الوجيز ؛ ابن عطية : ٨/٢٤٥. و: التحرير والتنوير: ٣/٦٣-٦٤.

(٣) انظر: التعريفات؛ الجرجاني: (حكمة)/٩١. و: جامع البيان: ٣/٨٩-٩١. و: الكشاف: ١/١٦٢. و: البحر المحيط: ١/٣٩٣، ٢/٣٢٠. و: بصائر ذوي التمييز: ٢/٤٨٧-٤٩٢. و: التحرير والتنوير: ٣/٦١-٦٤.

(٤) المحرر الوجيز: ٢/٤٥٦-٤٥٧. وانظر: مفردات ألفاظ القرآن؛ الراغب الأصفهاني: (حكم)/ ٢٤٨-٢٥١. و: بصائر ذوي التمييز : ٢/٤٨٧-٤٩٠. و: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ؛ السمين الحلبي: (حكم)/ ١٣٤-١٣٥. و: التحرير والتنوير: ٣/٦١-٦٤.

(٥) انظر: الكشاف؛ الزمخشري: ٢/٣٦١.

(٦) انظر: المحرر الوجيز: ٩/٩٢.

(٧) انظر: جامع البيان: ٣/٨٩-٩١، ٢١/٦٧-٦٨. و: تفسير الرازي: ٢/٦٦-٦٧. و: المحرر الوجيز: ٨/٥٤٥. و: مفردات ألفاظ القرآن: (حكم): ٢٤٨-٢٥١. و: البحر المحيط: ٥/٥٤٩. و: تفسير ابن كثير: ١/٣٢٢. و: عمدة الحفاظ: (حكم)/١٣٤-١٣٥. و: فتح القدير:١/٢٨٩،٤/٢٣٧. و: التحرير والتنوير: ١٤/٣٢٧،١٥/١٠٦.

(٨) انظر: البحر المحيط:١/٢٦٩،٣٢٠،٣٩٣. و: شفاء العليل؛ ابن قيم الجوزية:٣٣٤. و: تفسير الرازي: ٦/٢٥٢.

(٩) انظر : تفسير الرازي : ٢٠/٢١٣ ، ٢٥/١٤٥ . و : التعريفات ؛ الجرجاني : (حكمة) : ٩١ .

أو أنها : لا تخرج عن العلم وفعل الصواب ، لأن كمال الإنسان في فعل شيئين: أن يعرف الحق لذاته، وهذا يرجع إلى العلم، وأن يعرف الخير لأجل العمل به، وهذا يرجع إلى فعل العدل والصواب[(١)].

أو أنها: معرفة الموجودات، وفعل الخيرات[(٢)].

والحق أن هذه الأقوال كلها مرجعها إلى معنى واحد وهو بعد المرء عن الجهل والضلال والخطأ، وطلبه الحق والصواب، وذلك فيما يعلمه أو يعمله حتى أقصى غاية يمكنه الوصول إليها، وإيصاله نفع ذلك إلى الغير بأحسن الوسائل.

وقد يكون ذلك عند المرء في جميع شؤون حياته أو معظمها، وقد يكون ذلك عند المرء متعلقاً بأمر معين، كما لو قيل: فلان حكيم في الطب ونحوه.

ولعل أجمع تعريف للحكمة هو أن يقال إنها:

وضع الأشياء في مواضعها على الصواب (علماً وقولاً وعملاً)، واختيار أفضل السبل لتحقيق النتائج النافعة أو الحسنة.

وكما سبقت الإشارة فقد وردت لفظة الحكمة في العديد من نصوص الكتاب والسنة، ويلاحظ أنه في بعض تلك النصوص يترجح كون المراد بالحكمة معنى كليا، بينما يترجح في بعضها الآخر كون المراد بالحكمة معنى جزئي معين.

ففي قوله تعالى:

﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب (٢٦٩) ﴾ البقرة.

يظهر بوضوح كون المراد بالحكمة هنا أمراً عاماً يشمل جزئيات عديدة، ولذلك كان مما فسرت به الحكمة في هذا الموضع:

١- ﴿ يؤت الحكمة ﴾: يؤتي الله - جل جلاله - الإصابة في القول والفعل من يشاء من عباده[(٣)].

---

(١) انظر : تفسير الرازي : ٧/٧٢-٧٣ ، ٢/٢١٣ .

(٢) انظر : مفردات ألفاظ القرآن: (حكم): ٢٤٨-٢٥١. و: بصائر ذوي التمييز: (٤٣ - بصيرة في الحكم والحكمة): ٢ / ٤٨٧- ٤٩٢. و : عمدة الحفاظ ؛ السمين الحلبي : (حكم)/ ١٣٤ - ١٣٥. وهذا كله بالطبع بالنسبة للحكمة البشرية ، والتي هي المرادة هنا.

ولم تخرج التعريفات التي ذكرها الجرجاني في كتابه (التعريفات): ٩١ - ٩٢؛ عن ما سبق ذكره، ولكنه ذكر من ضمن تعريفات الحكمة أنها: هيئة القوة العقلية العلمية المتوسطة بين إفراط هذه القوة، وتفريطها.

(٣) انظر : جامع البيان: ٣/٨٩-٩١ .

٢- أن الحكمة: الإتقان في عمل أو قول[١].

٣- أن الحكمة: العلم - النافع - والفهم[٢].

٤- ﴿ يؤت الحكمة ﴾: يوفق للعلم والعمل به[٣].

٥- أن الحكمة: إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم[٤].

٦- أن الحكمة: إما العلم وإما فعل الصواب[٥].

وكذلك في قوله تعالى:

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥) ﴾ النحل.

فإن أشمل ما قيل في تفسير الحكمة في هذا الموضع هو أنها: المقالة والكلام الصواب، والمتضمن للحجج والبراهين المثبتة للحق والقاطعة للباطل ، وهو مع هذا قريب من النفس يقع فيها أجمل موقع[٦].

وجاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم:

" أتاكم أهل اليمن، أضعف قلوباً، وأرق أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانية."[٧].

وفي رواية:

" أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً. الإيمان يمان، والحكمة يمانية ..."[٨].

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ، ابن عطية : ٢/٤٥٦-٤٥٧ .

(٢) انظر : جامع البيان : ٣/٨٩-٩١، وقد نقل عن الإمام مالك في تفسير الحكمة: أنها: المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له. وانظر : تفسير الرازي : ٧/٧٢-٧٣، فقد نقل عن مقاتل : أن أحد وجوه الحكمة في القرآن هو أنها بمعنى: الفهم والعلم .

(٣) انظر : الكشاف ؛ الزمخشري : ١/١٦٢ .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : ٣/٦١-٦٤ .

(٥) انظر : تفسير الرازي : ٧/٧٢-٧٣ .

(٦) انظر: المحرر الوجيز: ٨ / ٥٤٥. و : تفسير الرازي : ٢٠ / ١٣٨-١٣٩. و : الكشاف: ٢/٣٤٩. و: البحر المحيط: ٥/٥٤٩. و: فتح القدير : ٣/٢٠٣. و: التحرير والتنوير: ١٤/٣٢٧.

(٧) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. واللفظ للبخاري: ٤/١٥٩٥/ح : ٤١٢٩. ورواه كذلك في: ٣/١٢٨٩/ح: ٣٣٠٨، ٤/١٥٤٩/ح: ٤١٢٧. وانظر: مسلم: ١/٧١/ح: ٥٢، (عدة روايات).

(٨) هي إحدى روايات الإمام البخاري ، التي سبقت الإشارة إليها: ٤/١٥٩٤/ ح: ٤١٢٧. وانظر: مسلم: الموضع السابق، إذ جاء في بعض الروايات التي ذكرها مثل هذه الرواية.

وقد بين الإمام النووي[١] معنى الحكمة في هذا الحديث؛ أنها:

(عبارة عن العلم المتصف بالإحكام (الإتقان)، المشتمل على المعرفة بـا لله تبـارك وتعـالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق، والعمـل بـه، والصـد عـن اتبـاع الهـوى والباطل. والحكيم من له ذلك)[٢].

فالعلماء –رحمهم ا لله تعالى– فهمـوا الحكمـة الـواردة في الحديـث السـابق بمعناهـا العـام والشامل للجزئيات التي يمكن أن تندرج فيها.

وبعد، فقد تعددت أقوال المفسرين وشـراح الحديـث في بيـان معنـى الحكمـة الـواردة في الآيات والأحاديث، وكانوا – رحمهم ا لله تعـالى – بـين ذاكـر لمعنـى جزئـي يدخـل ضمـن معنـى الحكمة العام، وبين موضح للمعنى الكلي للحكمة، والذي يمكن أن يشمل جميع ما ذكر من معان جزئية لها.

فليس بين تلك المعاني المذكورة اختلاف تضـاد ، وإنمـا هـو : إمـا اختـلاف تنـوع، فكـل يذكر نوعاً، والحكمة جنس تشـمل تلـك الأنـواع. وإمـا اختـلاف في التعبـير عـن المعنـى الكلـي للحكمة، والمقصود واحد.

ثم إنه في بعض المواضع قد يكون أحد المعاني الجزئيـة هـو الأظهـر في المـراد مـن الحكمـة الواردة فيه، ولاسيما إذا كان المعنى المذكور يكاد يشمل المعاني الكلية التي عرفت بهـا الحكمـة، ويشمل كذلك المعاني اللغوية التي ترجع إليها الحكمة، والتي سبق بيانهـا، وذلك كالقرآن والسنة والنبوة ونحو ذلك.

---

(١) الإمام النووي : يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين الحزامي الحوراني الشافعي ؛ محي الدين أبو زكريا النووي. ولد في نوى، وهي قريـة مـن قـرى حـوران جنـوب دمشـق ، سـنة: ٦٣١هـ. إليـه المنتهـى في الفقـه الشافعي، فهو محرر المذهـب ومنقحـه ومرتبـه ، وكـان مـع فقهـه عالمـاً مـن علمـاء الحديـث وعلومـه، واللغـة وعلومها، وغير ذلك . وكان زاهداً ورعا، لا يضيع شيئاً مـن وقتـه إلا في عبـادة أو تصنيـف أو تدريـس، لـه الكثير من المؤلفات. توفي في بلدته نوى سنة: ٦٧٦هـ. رحمه ا لله تعالى. ومن تصانيفـه: شـرح صحيـح مسـلم، وتهذيب الأسماء واللغات، ورياض الصالحين ، وشرح المهذب في الفقه ، ومنهـاج الطـالبين، والتبيـان في آداب حملة القرآن. وغير ذلك كثير. انظـر: تذكـرة الحفـاظ: ٤/١٤٧٠–١٤٧٤. و: طبقـات الشـافعية الكـبرى: ٨/٣٩٥–٤٠٠/ تـر: ١٢٨٨. و: طبقـات الشـافعية؛ الأسـنوي:٢/٤٧٦–٤٧٧/تـر: ١٣٦٢. و: البدايـة والنهايـة: ١٣/٢٩٤. و: طبقـات الشـافعية؛ ابـن قـاضي شـهبة : ٢/١٩٤–٢٠٠/تـر: ٥٤٥٤. و: طبقـات الحفاظ: ٥١٣– ٥١٤ / تر: ١١٢٨. شذرات الذهب: ٥/٣٥٤–٣٥٦. الأعلام: ٨/١٤٦–١٥٠.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم: ٢/٣٣.

وعلى سبيل المثال يذكر قوله تعالى:

﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات ا لله والحكمة إن ا لله كان لطيفاً خبيراً (٣٤) ﴾ الأحزاب.

ففي الآية تقابل بين آيات ا لله عز وجل، وهي الموجودة في القرآن الكريم؛ وبين الحكمة، التي بين تبارك اسمه أنها تتلى في بيوت النبي صلى ا لله عليه وسلم كذلك، وهذا يقتضي أن تكون الحكمة هي كلمات الرسول صلى ا لله عليه وسلم وبياناته، وهي السنة المطهرة. فليس ثمة ما يتلى في بيوت النبي صلى ا لله عليه وسلم غير هذين الأمرين: كتاب ا لله عز وجل: وسنة نبيه صلى ا لله عليه وسلم[1].

ولا شك أن سنة النبي صلى ا لله عليه وسلم تنطبق عليها جميع المعاني اللغوية لمادة (حكم)، التي سبق بيانها، وينطبق عليها كذلك المعاني العامة التي ذكرت في تفسير الحكمة شرعاً.

ففي السنة علوم ومعارف كلها حق، وهي داعية إلى كل خير، ناهية عن كل قبيح، وفيها تفصيلات الأحكام الشرعية.

ونحو الآية السابقة قول ا لله تبارك اسمه عن داود عليه السلام:

﴿فهزموهم بإذن ا لله وقتل داود جالوت وآتاه ا لله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع ا لله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن ا لله ذو فضل على العالمين (٢٥١) ﴾ البقرة.

فقد رجح الكثير من المفسرين أن المراد بالحكمة هنا: النبوة، ولا سيما أن ا لله عز وجل قد ذكر في الآية أعظم ما امتن تعالى به على عبده داود عليه السلام ، وهو عليه السلام نبي ملك، قد آتاه ا لله تبارك اسمه الزبور. وإذا كان الملك قد ذكر، والزبور يمكن أن يدخل ضمن قوله جل جلاله: ﴿ وعلمه مما يشاء ﴾، فلم يبق إلا أن يكون المراد بالحكمة النبوة.

ولا شك أن النبوة هي أعظم ما يمتن ا لله جل ثناؤه به على من أكرمه بها، ولما لم ينص عليها في مقام ما امتن ا لله عز وجل به على داود عليه السلام في هذه الآية، مع ذكره جل جلاله

(١) ممن رجح أن المراد بالحكمة الواردة في الآية: السنة؛ كل من: الطبري؛ انظر: جامع البيان:٩/٢٢. و: الرازي؛ انظر: تفسير الرازي: ٢١٠/٢٥. و: ابن عطية؛ انظر: المحرر الوجيز: ٦٤/١٢. و: ابن كثير؛ انظر: تفسير ابن كثير: ٤٨٦/٣. و: الشوكاني؛ انظر: فتح القدير: ٢٨٠/٤.

إيتاء الحكمة له عليه السلام ، فإن هذا كله يدل على أن المراد بالحكمة في هذه الآية : النبوة ، وقد عبر عنها بهذا اللفظ للدلالة على صفة هي من أهم صفات النبوة [١] ، وللدلالة على أن النبوة هي السبيل لأعظم ما يمكن أن يوصف بالحكمة [٢] .

ومما يوقن به كل مؤمن أن النبوة هي السبيل للوصول إلى الحق الكامل في مسائل العقائد والأحكام الربانية، وذلك على أوضح وجه وأظهره ، والذي لا يخالطه أي خطأ أو جهل أو ضلال من حيث ذاته. وكذلك فإن مما يوقن به كل مؤمن حقاً أن أنبياء ا لله عليهم السلام هم أعظم البشر على الإطلاق اتصافاً بالحكمة على أكمل وجوهها ، وعلى ما يليق بالبشر .

وعلى ذلك كله فإن العلاقة بين النبوة والحكمة هي علاقة من باب العموم والخصوص المطلق؛ فكل نبي متصف بالحكمة على الوجه الذي سبق بيانه، ولكن ليس كل من اتصف بالحكمة أو أتاه ا لله تبارك اسمه شيئاً منها يكون نبيا، فقد يوصف بالحكمة من ليس بنبي، وقد دعا النبي صلى ا لله عليه وسلم لابن عباس[٣] أن يؤتيه ا لله جل جلاله الحكمة، فعنه رضي ا لله تعالى عنه قال:

[ضمني النبي صلى ا لله عليه وسلم إلى صدره وقال: "اللهم علمه الحكمة"].

---

(١) فكما أن النبوة مشتقة من النبأ ؛ وهو من أظهر ما يحصل للنبي عليه السلام، وذلك إذ يتلقى الأنباء من ربه عز وجل، فكذا الحكمة قد تطلق على النبوة، بناء على صفة هي من أهم صفات ما تتضمنه النبوة عموماً.

(٢) انظر: جامع البيان:٢/٦٢٣. و: الكشاف: ١/١٥١. و: تفسير الرازي:٦/٢٠٢ . و: البحر المحيط: ١/٢٦٩. و: تفسير ابن كثير: ١/٣٠٣. و: فتح القدير: ١/٢٦٦. و: التحرير والتنوير: ٢/٣٧١.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم ا لله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً (٥٤) ﴾ النساء. وانظر: تفسير الرازي: الموضع السابق.

(٣) هو: عبد ا لله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي؛ أبو العباس، حبر الأمة وفقيهه، وترجمان القرآن، وإمام التفسير. ولد رضي ا لله عنه قبل الهجرة بثلاث سنين، وصحب النبي صلى ا لله عليه وسلم نحو من ثلاثين شهراً، وحدث عنه بجملة صالحة ، وحدث عن عدد من الصحابة رضوان ا لله عنهم عن النبي صلى ا لله عليه وسلم ، وكان ذا معرفة واسعة بالعربية ، وقد مسح النبي صلى ا لله عليه وسلم على رأسه ودعا له بأن يعلمه ا لله تعالى الحكمة، توفي سنة: ٦٧ أو ٦٨هـ، وقد عاش رضي ا لله عنه ٧٠-٧١ سنة.

انظر: التاريخ الكبير: ٥/٣ . و: الجرح والتعديل: ٥/١١٦/تر: ٥٢٧ . و: المستدرك : ٣/٥٣٣-٥٤٦. و: تاريخ بغداد: ١/١٧٢-١٧٥/ تر: ١٤. و: تهذيب الأسماء واللغات: جـ: ١/ من القسم الأول/ ٢٧٤-٢٧٦/ تر: ١٢. و: وفيات الأعيان: ٣/٦٢- ٦٤/ تر: ٣٣٨. و: سير أعلام النبلاء: ٣/٣٣١- ٣٥٩/ تر: ٥١. و: العبر: ١/٧٦. و: تهذيب التهذيب: ٥/٢٧٦-٢٧٩/ تر: ٤٧٤ . و: تقريب التهذيب: ١/٤٢٥/تر: ٤٠٤. و: البداية والنهاية: ٨/٢٩٨ - ٣١٠. و: العقد الثمين: ٥/١٩٠-١٩٢/ تر: ١٥٥٧. و: النجوم الزاهرة :١/١٨٢.

وفي رواية: "علمه الكتاب" (١) .

وأما كون الحكمة هي من إيتاء ا لله عز وجل وعطائه، فذلك لأن كل فضل ونعمة تحصل لبشر إنما مرجعها إلى إيجاد ا لله تبارك اسمه وإلى خلقه، وإرادته جل شأنه أن يوصل شيئاً من ذلك لعبد من عباده، قال جل ذكره:

﴿ وما بكم من نعمة فمن ا لله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (٥٣) ﴾ النحل.

وليس معنى ذلك أن الحكمة بمفهومها العام لا تدخل ضمن نطاق كسب البشر، بل هي كسائر الفضائل، يعمل المرء على أن يكتسبها ويجتهد في ذلك ، وقيامها به يكون بخلق ا لله جل شأنه. ولم يأت في الأدلة ما يشير إلى أن الحكمة لا تكون إلا لمن يصطفيه ا لله تعالى بها.

وقد يمتن ا لله جل ذكره على عبد من عبيده فيعطيه الحكمة ابتداء، ويجعله متصفا بها، عطاء خالصاً منه تبارك اسمه.

يتبين مما سبق أن الحكمة صفة محمودة شرعاً، ومحمود من وصف بها، وقد امتن ا لله جل جلاله بها على أشرف خلقه من البشر وهم الأنبياء عليهم السلام.

والمتصف من البشر بالحكمة حقا - في نظر الشرع - هو امرؤ يبحث عن أشرف الحقائق من مصادرها الأصلية اليقينية، ليعتقدها ويبتعد عن كل جهل وضلال ، وهو يطلب كذلك الاتصاف بكل خلق حميد والبعد عن الدنيء منه ، ويطلب أن يكون في جميع أفعاله على أحسن ما يستطيعه، وهو من ثم يدعو الخلق بأحسن الوسائل إلى ما وصل إليه من الحق والخير في علمه وعمله ، ويصرفهم في دعوته عن كل باطل وشر، مبيناً لهم الحكم الفصل في تلك الأمور، وفيما يواجههم في مسيرة حياتهم . وهو في ذلك كله إنما يبتغي وجه ا لله جل شأنه ورضوانه والدار الآخرة.

---

(١) الحديث بروايتيه أخرجه البخاري في صحيحه. صحيح البخاري: ١٣٧١/٣/ ح:٣٥٤٦. وممن رواه بلفظ: "علمه الحكمة": الترمذي: ٦٨٠/٥/ح: ٣٨٢٤. و: ابن ماجه: سنن ابن ماجه: ٥٨/١/ح:١٦٦. و: النسائي: السنن الكبرى: ٥٢/٥/ح: ٨١٧٩. و : ابن حبان: صحيح ابن حبان: ٥٣٠/١٥/ ح: ٧٠٥٤. و: الطبراني: المعجم الكبير: ٢٣٨/١٠/ ح: ١٠٥٨٨، و: ٣٤٥/١١/ح: ١١٩٦١، و : ٥٨/١٢/ح : ١٢٤٦٦. ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، انظرها: ٣٦٥/٢ وما بعدها، وقد روى بسنده إلى ابن عباس رضي ا لله عنهما قال: (دعا لي رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن يؤتيني ا لله الحكمة مرتين). وانظر ما ذكره ابن حجر في فتح الباري: ١٧١/١، وما بعدها، و: ١٠٠/٧. وانظر: تفسير ابن كثير: ٣٢٢/١.

المبحث السادس: التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام، والتفاضل بينهم وبين الملائكة عليهم السلام.

أولاً : التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام :

لقد ثبتت حقيقة تفاضل الأنبياء عليهم السلام فيما بينهم في الكتاب العزيز ثبوتاً لا ريب فيه، قال تبارك اسمه:

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾ البقرة.

وقال جل ذكره:

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً(٥٥) ﴾ الإسراء.

وأيضاً فإن مما يدل على التفضيل بين الأنبياء والرسل عليهم السلام: قول خاتمهم صلى ا لله عليه وسلم:

" أنا سيد الناس يوم القيامة ... " الحديث[1].

فهذا النص يدل دلالة قاطعة على أنه صلى ا لله عليه وسلم أفضل البشر جميعاً، بمن فيهم الأنبياء والمرسلون عليهم السلام.

وقد بين العلماء – رحمهم ا لله تعالى – أن بقية أولي العزم من الرسل عليهم السلام يتلونه صلى ا لله عليه وسلم في الفضل، وهم الذين أمر صلى ا لله عليه وسلم أن يصبر كصبرهم، قال جل ذكره:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) ﴾ الأحقاف.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظهما متحد في هذه الجملة. صحيح البخاري: ٤/ ١٧٤٥/ ح: ٤٤٣٥، وانظر: ١٢١٥/٣ / ح: ٣١٦٢. و: صحيح مسلم: ١٨٤/١ /ح : ١٩٤.

وذكر العلماء أن أولي العزم من الرسل عليهم السلام هم المذكورون في قوله جل شأنه:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً (٧) ﴾ الأحزاب.

وقوله جل جلاله :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) ﴾ الشورى .

ولكن ينبغي أن يعلم أن التفضيل بين الأنبياء عليهم السلام إن كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس فهو تفضيل مذموم ومنهي عنه ، وكذا إن كان على وجه الفخر أو الانتقاص بالمفضول . وهذا التفضيل المنهي عنه هو الذي حمل عليه قوله صلى الله عليه وسلم :

" لا تفضلوا بين أنبياء الله ".

وقوله في الحديث نفسه :

" ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى"[١].

وقيل: إن الحديث يدل على النهي عن التفضيل الخاص ، لأنه ورد في معرض قصة يهودي قال: (لا والذي اصطفى موسى – عليه السلام – على البشر)، فلطمه رجل من الأنصار، وقال له: (تقول والذي اصطفى موسى – عليه السلام – على البشر، والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا)، فلما اشتكى اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلم بالخبر، غضب صلى الله عليه وسلم وقال ذلك القول .

وهذا بخلاف التفضيل العام فإنه غير ممنوع ، ومثال هذا أن يقال في حق إنسان إنه أفضل أهل البلد ؛ فوقعه أيسر مما لو قيل إن فلاناً أفضل من فلان [٢] .

فالتفضيل بين الأنبياء عليهم السلام ثابت، وفضل خاتمهم صلى الله عليه وسلم على البشر جميعاً ثابت ، وهذا كله بالنصوص الواضحة الصريحة ، فهو من العقائد التي يجب الإيمان بها .

ثم إن في ذلك الفضل الثابت لسيد البشر صلى الله عليه وسلم تقوية لمحبته في نفوس أتباعه صلى الله عليه وسلم ، ليكونوا لشرعه أتبع ، وبهداه أشد اقتداء .

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظهما في هذين الموضعين متحد . صحيح البخاري: ١٢٥٤/٣ / ح: ٣٢٣٣. صحيح مسلم: ١٨٤٣/٤ / ح: ٢٣٧٣.

(٢) انظر تفصيل هذه المسألة في: شرح العقيدة الطحاوية: ١٦٩ – ١٧٤، ٣٤٩. و: فتح الباري؛ ابن حجر: ٤٤١/٦.

وأيضاً فإن عظم فضله صلى الله عليه وسلم يدل على عظم فضل الرسالة التي جاء بها، ومدى اكتمالها، ومن ثم فضل الأمة التي تؤمن بهذه الرسالة وتتمسك بها وتعمل بمقتضاها.

فجعل سيد البشر أجمعين صلى الله عليه وسلم؛ خاتمَ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام؛ له دلالة على الرقي الفكري والحضاري الذي بلغته البشرية، على وجه أصبحت معه مؤهلة لتلقي أعظم الرسل عليهم السلام، وأكمل الرسالات وأتمها.

وتدبر ذلك حقاً يزيد من شحذ الهمم للتمسك بالشرع المنزل ، وتطبيقه على الوجه الأمثل، للحفاظ على تلك الدرجة الرفيعة التي شرف الله تعالى بها أمة الرسالة الخاتمة.

ثانياً : التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام والملائكة عليهم السلام :

إن الراجح عندي في هذه المسألة – والله أعلم – هو التوقف فيها وعدم الخوض، إذ لو كانت من العقائد التي كلف الله تبارك اسمه عباده أن يؤمنوا بها؛ لبينها لهم بياناً قاطعاً. وأما محاولة استنباط التفضيل من خلال إشارات بعض الأدلة، ونقض ذلك من فريق آخر، فهو مما لا ينبغي أن يكون في مسائل العقائد. ولا يسع العباد إلا السكوت عما سكتت عنه الرسالة المنزلة إليهم.

وقد يقال: إن في بيان أن العباد قد يكونوا أفضل من بعض الملائكة عليهم السلام، إذا هم التزموا شرع الله تبارك اسمه وطبقوه على أفضل وجه يستطيعونه؛ فيه دافع لهم إلى الالتزام بذلك الشرع والانقياد له، فليس من يعبد الله جل شأنه بالاختيار كمن يعبده تعالى بالاضطرار.

وهذا وإن كان له وجه إلا أنه لا يمكن أن يطلق القول فيه من غير أن يكون مستنداً إلى دليل قاطع وبرهان لا يقبل النقض، وأما الاعتماد على مجرد احتمالات فإنه لن يؤدي إلى ذلك الغرض، بل سيؤدي إلى كثرة الاختلاف في المسألة والنزاع حولها، وضياع أية فائدة مرجوة منها[١].

---

(١) استعرض ابن أبي العز الحنفي أدلة مفضلي الأنبياء عليهم السلام على الملائكة عليهم السلام، وبالعكس، وبين أن كل دليل يمكن نقضه ، وأنه ليس في الأدلة قاطع ، والأصوب هو التوقف ، والله أعلم . انظر: شرح العقيدة الطحاوية: ٣٣٧-٣٤٨.

الفصل الثاني : حكم النبوة والحكمة منها

ويشتمل على :

المبحث الأول : حكم النبوة.

المبحث الثاني : الحكمة من بعث الأنبياء والرسل عليهم السلام.

المبحث الأول: حكم النبوة

إن الإيمان بتحقق وقوع النبوة، والإيمان بتكررها في الماضي من خلال إرسال الأنبياء والرسل عليهم السلام تترى إلى أن ختموا بسيد الأولين والآخرين محمد صلى ا لله عليه وسلم؛ كل ذلك إيمان واجب حتمي، إذ لاحظّ في الدين لمن لم يؤمن به الإيمان التام غير المنقوص، فالإيمان بالأنبياء عليهم السلام أحد أركان هذا الدين .

قال عز وجل:

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن با لله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسآئلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (١٧٧) ﴾ البقرة .

وقال تبارك اسمه :

﴿ إن الذين يكفرون با لله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين ا لله ورسله ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا (١٥٠) أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا(١٥١) والذين آمنوا با لله ورسله ولم يفرقوا بين أحدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان ا لله غفوراً رحيما(١٥٢) ﴾ النساء.

وقال جل جلاله :

﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن ا لله عدو للكافرين(٩٨)﴾ البقرة.

وقال صلى ا لله عليه وسلم عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان:

"أن تؤمن با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"(١).

ولكن هل يعلم وجوب ذلك الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام (أو بالنبوات) بالدليل العقلي؟.

إن الأقوال الرئيسة للإجابة عن هذا السؤال هي:

أولاً: القول بأن إرسال الأنبياء والرسل عليهم السلام واجب على ا لله عز وجل عقلاً ، فهو جل جلاله إذا علم أن صلاحنا يتعلق بالتكاليف الشرعية؛ فلابد أن يعرفناها لكي لا يكون مخلا بما هو واجب عليه(٢).

---

(١) الحديث رواه مسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه رضي الله عنهما. مسلم : ١/ ٣٦ / ح: ٨. وقد اتفق الشيخان على الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه . البخاري: ١ / ٢٧ / ح: ٥٠، ٤ / ١٧٩٣/ ح: ٤٤٩٩. مسلم: ١ / ٣٩-٤٠ / ح: ٩-١٠.

(٢) وهذا ما قرره القاضي عبد الجبار من المعتزلة ، انظر شرح الأصول الخمسة؛ له : ٥٦٣. وانظر: المواقف؛ الإيجي: ٣٤٢.

ثانياً : القول بأن النبوة ممكنة ولكنها واقعة قطعا، وهذا الوقوع هو دليل إمكانها، فإن الدال على الوقوع دال على الإمكان. وأنها ليست من المستحيلات، لأن ا لله عز وجل متكلم وقادر فلا يمتنع أن يوصل إلينا كلامه من خلال سفراء بيننا وبينه. وأصحاب هذا القول يرفضون إطلاق الوجوب على ا لله تبارك اسمه(١).

ثالثا: وأصحاب هذا القول يبينون أن في إرسال الأنبياء والرسل عليهم السلام حكمة ا لله بالغة، فالإرسال واجب ، ولكن لا بمعنى الوجوب على ا لله تعالى ، بل بمعنى أن كمال الحكمة الربانية تقتضيه لما فيه من الحكم والمصالح(٢)، وهذا القول الأخير يعتمد على أسس عدة، من أهمها:

الأساس الأول: قدرة العقل على معرفة حسن الأمور وقبحها، أو ما يعرف بالتحسين والتقبيح العقليين، والقول الوسط في هذه المسألة:

إن الحسن والقبح وصفان ذاتيان للأشياء والأفعال، وا لله سبحانه قد جعل ذلك مستقرًّا في العقول والفطر، بمعنى أنه تعالى ألهم العقول والفطر حقيقة التخالف فيما بين الأمور الحسنة والأمور القبيحة، وأعطاها قدرة على التفرقة بينهما، كما أنه سبحانه أعطى الحواس قدرة على التمييز بين الأمور المختلفة في ذاتها والمدْركة بتلك الحواس، فاللسان يميّز بين الحلو والحامض والمر والعذب، والعين تميز بين الألوان المختلفة، والأنف يُميّز بين الرائحة الزكية والكريهة ...الخ(٣).

كذلك فإن العقل قد يعلم حسن بعض الأشياء والأفعال الحسنة، وقبح بعض الأشياء والأفعال القبيحة، ويختلط عليه علم العديد من الأمور، وهو حتما سيغيب عنه علم الحق في كثير من القضايا، وأما الشرع فهو الذى يُعلم به جميع الأمور الحسنة والقبيحة على أكمل وجه وأتمه. وهو عندما يأتي يقرر ما جعله سبحانه مستقراً لدى العقول والفطر، فيؤكد ما استطاعت الوصول إلى الحق بشأنه ، ويهديها إلى الصواب فيما حارت فيه ، فضلّت في حكمها عليه عن الحق، أو توقفت في شأنه، ولايأتي بما يناقض ما جعله سبحانه مستقراً فيها، إذ الكل من عنده تعالى، ولايمكن أن يخالف قوله فعله. فالشرع يأتي بمحارات العقول لا بمحالاتها(٤).

فإذا ثبت ذلك فإنه يقال: إن الحسن كمال والقبح نقص، وا لله سبحانه لا يفعل ولا يقول

---

(١) وأصحاب هذا القول هم الأشاعرة . انظر: أصول الدين؛ البغدادي: ١٥٤. و: الاقتصاد في الاعتقاد؛ الغزالي: ١٧٢، وقد أشار إلى الرد على من قال بالوجوب. و: المسايرة وشرحها المسامرة: ١٨٧، ١٩١– ١٩٢، وقد رد على من قال بالوجوب. و: المواقف؛ الإيجي: ٣٤٢.

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية؛ سعد الدين التفتازاني: ٨٥. و: حاشية زين الدين قاسم على المسايرة؛ الكمال بن الهمام: ١٩١– ١٩٢.

(٣) انظر مفتاح دار السعادة؛ ابن قيم الجوزية: ٢ / ٥٩–٦٠ ، ١٠١–١٠٢ ، ١١٦.

(٤) انظر المرجع السابق: ٢ / ٥٩–٦٠ ، ٩٥، ١١٧.

ولا يأمر إلاّ بالأمر الحسن، وأما الأمر القبيح فإنه سبحانه يتنزه عن فعله وعن قوله وينهى عنه عباده. وهذا مبنيّ على أنه سبحانه كامل في ذاته وصفاته وأفعاله وأقواله، فلا يليق به إلا كلّ وصف كامل وكل فعل وقول وأمر متصف بغاية الكمال.

الأساس الثاني: أن الله جل جلاله متصف بالحكمة على أكمل وجه :

(وهذا يعني أنّ أفعال الله عزّ وجلّ ذات حِكَمٍ وعِلَلٍ تليق بكمالاته، أي إن لكل فعل أَوْ قَوْلٍ له سبحانه غاية ومقصداً وهدفاً حميداً ، وهذا لا يتحقق إلا بالأفعال والأقوال والأوامر الحسنة.

والحكمة على وجه العموم تعني: وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وهي بناءً على ذلك تتضمن ما في أفعال الله تعالى وأقواله من العلل والغايات الحميدة التي يتبين بها أن هذا الأمر المعين من قول أو فعل قد وضع في موضعه الملائم له. ومعنى كون تلك الغايات والعلل حميدة أنها تكون سبباً لحمد الرب جل شأنه.)[1].

وإثبات الحكمة لله سبحانه يكون بالنظر والتفكر في مخلوقات الله تعالى علويها وسفليها صغيرها وكبيرها، وإدراك ما في كل مخلوق خلقه الله جل شأنه من حكمة باهرة وغاية حميدة سواء في الكيفية التي خلقه الله تعالى بها أو في مكانه الذي خلقه فيه أو في زمانه الذي أوجده فيه، قال تعالى :

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون (٨٨) ﴾ النمل.

ومهما تفكر الإنسان وبحث ونقب في هذا الكون ؛ فإنه لن يجد في شيء مما خلقه الله سبحانه أي فطور أو خلل أو فساد. قال جل جلاله:

﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور (٣) ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير (٤) ﴾ الملك.

فإذا حصل للمرء الإيمان بحكمة الله سبحانه البالغة في الوجود كله[2]؛ قاده ذلك إلى أنه تعالى لابد أن تكون له حكمة بالغة من خلق هذا الإنسان، بل إن الحكمة من خلق الإنسان لابد أن تكون أظهر وأعظم من سائر الحكم ، لأن الإنسان كما هو معلوم أرقى الكائنات المشاهدة، وقد أثبت ذلك سبحانه بقوله:

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً (٧٠) ﴾ الإسراء

---

(١) انظر شفاء العليل؛ ابن قيم الجوزية: ٣٣٤.

(٢) توسع الإمام ابن قيم الجوزية في بيان الكثير من حكم الله سبحانه في كثير من مخلوقاته وذلك في كتابه: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، انظر: ١ / ٢٠٦ وما بعدها.

وإثبات الحكمة لله سبحانه يقتضي : انتفاء العبث والباطل عن جميع أفعاله وأقواله جل شأنه، فإذا انتفى العبث والباطل انتفاءً كليًا فإن الوصف الذي يليق أن توصف به أفعال الرب وأقواله هو الحق، إذ الحق في اللغة نقيض الباطل(١).

وقد جاء في الكتاب العزيز بيان: أن خلق ا لله سبحانه للسماوات والأرض وما بينهما إنما هو بالحق، فلا مجال لتصور اللّعب أو العبث أو الباطل في أي فعل من أفعاله تعالى، أو في أي قول من أقواله، وورود ذلك البيان في القرآن الكريم جاء بطرق متعددة:

منها : صيغة الإخبار المباشر من قبل ا لله سبحانه، وذلك كقوله تعالى:

﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير(٧٣) ﴾ الأنعام.

فالآية الكريمة تنص على أنه جل ذكره قد خلق السماوات والأرض بالحق. وقوله جل شأنه:

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين (٣٨) ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٩) ﴾ الدخان.

ومنها : صيغة الإخبار على لسان أولياء ا لله الذين آمنوا بهذه الحقيقة بعد أن تدبّروا وتفكّروا في هذا الكون الذي خلقه ا لله سبحانه، قال تعالى على لسان أولئك الذين سماهم: أولي الألباب، (أي: العقول التامة الزّكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جليَّاتها)(٢):

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب (١٩٠) الذين يذكرون ا لله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار (١٩١) ﴾ آل عمران .

فمن تفكر في خلق السماوات والأرض وتدبر ما فيهما من بديع صنع ا لله سبحانه وإتقانه واستطاع الوصول إلى بعض حكم ا لله سبحانه في مخلوقاته؛ تيقن من حقيقة أنه سبحانه لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً وإنما خلق ذلك كله بالحق.

وعلى النقيض من موقف أولياء ا لله يكون موقف أعداء ا لله سبحانه من الكفار الذين لم يَقْدُروا ا لله حق قدره فظنوا أنه سبحانه قد خلق الخلق عبثاً وباطلاً لا لحكمة ولا لغاية، قال تعالى:

﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (٢٧)﴾ ص(٣).

وهؤلاء الذين أنكر ا لله عليهم ظنهم الفاسد هذا قد طالبهم في كتابه العزيز بالتفكر في خلق الإنسان في ذاته، والتدبّر في منافع أعضائه وما في خلقها بالصورة التي خلقت عليها وبالمكان الذي

---

(١) انظر لسان العرب مادة: (حقق) / ١١ / ٣٣٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ١ / ٤٣٨.

(٣) انظر شفاء العليل؛ ابن قيم الجوزية: ٣٣٣-٣٣٤. و: بدائع الفوائد؛ له: ٤ /:١٦٦.

وضعت فيه؛ من حكمة وغاية عظيمة . فإذا استطاع الإنسان إدراك أنه لا يوجد في جسده شيء قد خلق عبثاً أو باطلاً، بل كل شيء خلقه ا لله في جسده إنما خلقه بالحق؛ تمكّن من أن يعمّم هذه الحقيقة على جميع ما في الكون، إما بالقياس، أو بالتدبّر والدراسة، فيدرك أنه سبحانه ما خلق هذا الكون كله بسماواته وأرضه وما بينهما إلا بالحق. قال تعالى:

﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق ا لله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون (٨) ﴾ الروم(١).

والإنسان لابد أن يصل إلى هذه النتيجة، ولكن بشرط أن يتفكر ويتدبّر بتجرد عن أيّ هوى أو شهوة.

ومن طرق إثبات حقيقة خلقه سبحانه السماوات والأرض بالحق: بيان شيء من الحكم في بعض مخلوقات ا لله تعالى، ليكون ذلك البيان دافعاً للبشر إلى التعرف على المزيد من الحكم العظيمة في سائر مخلوقات ا لله جل شأنه، ليؤمنوا بعد ذلك إيماناً جازماً بتلك الحقيقة. ومما جاء في القرآن إيضاحاً لهذه الطريقة؛ قوله سبحانه :

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق ا لله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون (٥) ﴾ يونس.

ففي هذه الآية يبين جل جلاله بعض الحكم الباهرة في خلقه للشمس والقمر، وعلى المرء أن يقوم باستكشاف المزيد من تلك الحكم ليصل إلى اليقين بكونه سبحانه لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما -بما في ذلك الإنسان - إلا بالحق(٢).

وعند الكلام عن الأساس الرابع سيتبين أن الحكمة من خلق الإنسان ابتلاؤه بما وهبه ا لله، وما أحاطه به من عوامل كانت هي دليل حقيقة الابتلاء، ثم إنه سبحانه إذ ابتلى الإنسان؛ فقد كلفه بمنهج يسير على وفقه ليجتاز مرحلة الابتلاء.

الأساس الثالث : مسألة الإيجاب والتحريم على ا لله عز وجل :

وقد بين ابن قيم الجوزية أن هذه المسألة لا يصح أن يطلق في حقها حكم واحد، بل الصواب في شأنها هو التفصيل.

فليس من الممتنع أن يحرم ا لله جل شأنه على نفسه أمورا ويوجب على نفسه جل جلاله أمورا أخرى.

وأما البشر فليس يجوز لهم بعقولهم القاصرة أن يحرموا على ا لله سبحانه أموراً ، أو يوجبوا عليه تبارك وتعالى أمورا أخرى، وذلك لأنهم مخلوقون مربوبون ، وا لله سبحانه هو الرب الخالق،

---

(١) انظر في ظلال القرآن؛ سيد قطب: مج: ٥/ ٢١ / ٢٧٥٩-٢٧٦٠. و: تفسير التحريروالتنوير: ٢١/ ٥٢- ٥٤.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: مج ٣ / ١١ / ١٧٦٤-١٧٦٧. و: تفسير التحرير والتنوير: ١١ / ٩٦- ٩٨.

ولا يمكن للمربوب أن يحكم على الرب سبحانه ويوجب ويحرم عليه[١].

وأما تحريم وإيجاب الرب جل جلاله على نفسه فهو في حقيقة الأمر من مقتضى كمال أسمائه وصفاته ومن مقتضى حكمته البالغة، لذا فإنه لا يليق به سبحانه أن ننسبه إلى ضد ما أوجبه أو حرمه على نفسه[٢].

وإيجاب الله تعالى على نفسه يتضمن إرادته لما أوجبه ومحبته له ورضاه به وأنه لابد أن يفعله، وأما تحريم الله جل شأنه على نفسه فيتضمن كراهته لذلك وأنه لا يفعله[٣].

ثم إن ذلك الإيجاب والتحريم ثابت في نصوص كثيرة، ففي الإيجاب في حق الله سبحانه يخبرنا جل شأنه أنه كتب على نفسه، وأحق على نفسه، فقال تعالى:

﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم (٥٤) ﴾ الأنعام .

وقال جل شأنه :

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين (٤٧) ﴾ الروم .

وفي التحريم يخبرنا جل شأنه أنه حرم الظلم على نفسه، كما في الحديث القدسي:

"ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا.." الحديث[٤].

ويؤيد معنى هذا الحديث آيات كثيرة، كقوله تعالى:

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن آساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد (٤٦) ﴾ فصلت.

وقوله سبحانه:

﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا (٤٩) ﴾ الكهف.

ومن المعلوم أن الإيجاب والتحريم يعقل من العبد بالنسبة إلى نفسه، وما النذر إلا عبارة عن عمل خير يوجبه المرء على نفسه. وقد حرم يعقوب عليه السلام على نفسه أنواعاً من المآكل، كما قال تعالى:

﴿ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين (٩٣) ﴾ آل عمران.

---

(١) انظر مناقشة قضية الإيجاب والتحريم على الله تعالى في : مفتاح دار السعادة؛ ابن قيم الجوزية: ٢ / ٥٩-٦٢، ٩٣، ١٠٦، ١١٢، ١١٥ وغير ذلك من المواضع .

(٢) انظر المرجع السابق: ٢ / ٥٩ ، ١٠٥-١٠٦.

(٣) انظر المرجع السابق: ٢ / ١١١.

(٤) طرف من حديث رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه ، وهو بداية الحديث. مسلم: ٤/ ١٩٩٤/ ح: ٢٥٧٧.

والعبد يعقل منه أيضاً أن يكون طالباً من نفسه فعلَ أمورٍ، ناهياً لها عن فعل أمورٍ أخرى، كما قال سبحانه:

﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم (٥٣)﴾ يوسف – عليه السلام –.

وقال جل شأنه:

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى (٤٠) ﴾ النازعات.

فإذا كان العبد يعقل منه ذلك مع أن له آمراً ناهياً فوقه، (فالرب تعالى الذي ليس فوقه آمر ناهٍ، كيف يمتنع منه أن يكون طالباً من نفسه؟، فيكتب على نفسه ويحق على نفسه ويحرم على نفسه، بل ذلك أولى وأحرى في حقّه من تصوره في حق العبد ...)[١].

الأساس الرابع: ثبوت حقيقة ابتلاء الإنسان في خلال رحلته في الحياة الدنيوية:

وأصل الابتلاء من البلاء، وكلاهما يأتي على معنى: الاختبار والامتحان والتجريب يقال: بلَوْت الرجل بلْواً وبلاءً وابتليته: اختبرته، وبلاه يبلوه بلواً: إذا جرّبه. ويقال: ابتلاه الله وبلاه، أي: اختبره وامتحنه. والابتلاء والبلاء يكونان في الخير والشر[٢]. قال تعالى:

﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ماآتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٥) ﴾ الأنعام.

أي: ليختبركم فيما أنعم عليكم من النعم المختلفة، فيتبين من يطيع الله فيها ومن يعصيه ويستخدم نعمه تعالى فيما لا يرضيه عز وجل[٣].

وهناك تعبير آخر ورد في القرآن يحمل هذا المعنى نفسه الذي حمله تعبير الابتلاء أو البلاء، ذلك التعبير هو: الفتنة. فالفتنة من معانيها اللغوية: الاختبار والامتحان[٤]. وقد وردت في القرآن بهذا المعنى في مواضع، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم (٢٨) ﴾ الأنفال.

فما وهبه الله جل جلاله لعباده من مال وولد في هذه الحياة الدنيا إنما هو لابتلائهم واختبارهم في هذا الذي وهبهم إياه، هل يكون تصرفهم فيه بما يرضيه تبارك اسمه، أم يخالفون أوامره ونواهيه سبحانه ؟[٥].

وقد ثبت في القرآن أن الابتلاء هو الحكمة العامة من خَلْقِ الكون وخَلق الحياة الدنيا،

---

(١) مفتاح دار السعادة؛ ابن قيم الجوزية: ٢ / ١١١ .

(٢) انظر لسان العرب: مادة (بلا) / ١٨/ ٩٠ .

(٣) تفسير الطبري: ٨ / ١١٤.

(٤) انظر لسان العرب: مادة (فتن) / ١٧ / ١٩٢ .

(٥) تفسير الطبري: ٩ / ٢٢٤.

ولكن الذي تتحقق في خلقه تلك الحكمة بصفة خاصة هو: الإنسان [1]. قال تعالى في بيان ذلك:

﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيّامٍ وكان عرشه على الماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحسن عملاً (٧)﴾ هود.

وقال جل شأنه في بيان أنه ما خلق الإنسان في هذه الحياة إلا ليبتليه:

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً (١) إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً (٢) ﴾ الإنسان.

ولأن الإنسان إنما هو مبتلى، أي مختبر من قبل ربه جل جلاله في هذه الحياة؛ فإن هذا يقتضي أن يوجد منهج رباني، يؤمر الإنسان بأن يسير على مقتضاه ، فإما أن يلتزم به، فينال السعادة والفلاح الخالد؛ وإما أن يخالفه فيكون من الخاسرين.

ولما كان الرب جل جلاله غيباً عن عباده، لحكمة اكتمال ظروف امتحان المكلفين، في هذه الحياة؛ فإن من أقرب وسائل إيصال المنهج الرباني مع الحفاظ على عوامل الابتلاء ؛ أن يرسل الرب عز وجل من يقوم بتبليغ ذلك المنهج إلى الممتحنين. ولا شك أنه جل جلاله متصف بالحكمة على أكمل وجه وأتمه، فلا يختار بحكمته البالغة لإتمام ذلك الإيصال إلا وفق كيفية هي من أفضل وأحسن الكيفيات وأكثرها ملاءمة للمرسل إليهم ، الموضوعين موضع الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيوية.

ويمكن إثبات حقيقة ابتلاء الإنسان في هذه الحياة من خلال دراسة الظروف التي أحاطت بالإنسان سواء في داخل ذاته أم فيما حوله من أمور مادية ومعنوية.

أولاً: صفات الإنسان الذاتية ودلالتها على الابتلاء:

لقد خلق الله جل شأنه الإنسان وأنعم عليه بأن أودع فيه جملة من الخصائص والصفات النفسية والجسدية، التي فضله بها على سائر مخلوقاته المشاهدة، وهي صفات يمكن لأي إنسان أن يتدبرها ويتدبر الغاية التي خلقت من أجلها سواء كان هذا التدبّر من خلال نفسه أمْ من خلال الآخرين من حوله.

١) فالمتدبر يرى أنه سبحانه قد وهب هذا الإنسان لبًّا يفكّر به في مختلف الأشياء من حوله، ويستنبط من خلال تفكيره أموراً أخر. ويدرك به عواقب الأمور وغايات الأشياء.

٢) ويرى المتدبر في النفس الإنسانية أنها قد أُلهمت إدراك وجود طريقين للخير والشر وذلك في مسيرة حياة الإنسان. ويرى كذلك أنها قد أُلهمت الكثير من معالمهما، وأن لديها المقدرة على التمييز بين الخير والشر في كثير من الأمور المتقابلة.

٣) ثم إن الإنسان لو تدبّر في ذاته حق التدبّر لأدرك أن في أعماق نفسه فطرة صالحة خيّرة تتجه نحو الحق والخير.

---

(١) ويشارك الإنسان في ذلك الابتلاء الجن.

٤) وبجانب هذه الفطرة هناك أهواء وشهوات للإنسان ليس لها ضابط غرزي ، وإنما ضابطها العقل وإرادة الإنسان الجازمة، فإن لم تضبط بهما أدت إلى شرور عظيمة.

٥) ويجد الإنسان من خلال تدبّره في نفسه أنه حرٌّ مختار في بعض تصرفاته وسلوكياته، مجبر في أحوال أخرى.

ثم إن المجال الذي ترك فيه للإنسان حرية الاختيار؛ هو مجال أعماله التي توصف بكونها خيراً أو شراً والتي يكون الإنسان مسؤولاً عنها.

٦) وأيضاً فإن المتدبّر للإنسان يرى أن كثيراً من أعماله الاختيارية الظاهرة هي في حقيقة أمرها نابعة من صفة نفسية يتصف بها الإنسان، وهذه الصفة قد تكون خيّرة فيكون الفعل النابع منها خيراً، وقد تكون سيئة فيكون الفعل النابع منها شراً، ومجموع هذه الصفات هي ما يسمَّى بالأخلاق.

٧) وكذلك فإن كثيراً من الدارسين للنفس الإنسانية قد أثبتوا أنها تحتوي -ولا سيما إذا كانت أكثر بعداً عن اعتياد الإثم والمعاصي- تحتوي على ما أسموه ضميراً خلقيّاً، وهذا الضمير الخلقي يحاسب صاحبه على ما قد يرتكبه من أفعال سيئة(١).

٨) وأما بالنسبة إلى صفات الإنسان الجسدية فإنه بالمقارنة بينها وبين مثيلاتها لدى الحيوانات الأخرى ، يتبين أنه وإنْ وجد تشابه بينهما ، إلا أن الإنسان يتميز في كون جميع صفاته الجسدية قد خلقت في أحسن تقويم وأحسن هيئة وشكل ، بحيث تساعد الإنسان في أداء أعماله اللائقة والخاصة به الأداء التام والمناسب لتلك الأعمال على الوجه الأكمل، فالإنسان إذاً مخلوق لله، قد خلقه سبحانه متميزاً عن كثير ممن خلق بما سلف ذكره من صفات نفسية ومن تقويم جسدي.

٩) ثم إن الواقع يدل على أن الأمور السابقة كانت من أسباب اختلاف البشر، ومن ثم وجود مؤمنين وكافرين....

تلك الأمور التي ميّز الله بها الإنسان وما أدت إليه؛ قد جاء بيانها في النصوص الشرعية، وذلك بأسلوب يتضح من خلاله أنه سبحانه ما ميز الإنسان بتلك الأمور إلاّ ليبتليه بها ابتلاءً يترتب عليه مجازاة الإنسان على ما عمله في مدة ابتلائه، وفيما يلي دلالة الأمور السابقة على كون الإنسان مبتلى في هذه الحياة:

١) منحة الفكر ودلالتها على الابتلاء:

لقد امتن الله سبحانه على الناس بإعطائهم أداة التفكير والتدبر، ومن أسمائها في القرآن: القلب، قال جل شأنه:

---

(١) انظر: دستور الأخلاق في القرآن؛ محمد عبد الله دراز: ٢٣ وما بعدها.

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيدٌ (٣٧) ﴾ ق.

قال الطبري[١]: (القلب في هذا الموضع : العقل)[٢].

وقال تعالى :

﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها ... (٤٦) ﴾ الحج.

وقال الإمام ابن قيم الجوزية[٣]:

(إن القلب يطلق على معنيين: أحدهما : حسي، وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر ...، والثاني : أمر معنوي ، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسانية)[٤].

ثم إن أداة التفكر والتدبر التي وهبها ا لله سبحانه للإنسان أداة خطيرة، إذ هي قد تفكر وتدبر فينشأ عنها إما خيرات عظيمة وإما شرور هائلة، وهذا أمر يدركه المؤمن والملحد، ولكن

---

(١) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب؛ أبو جعفر الطبري، ولد سنة: ٢٢٤هـ. إمام علم من أعلام الإسلام، إليه المنتهى في علم التفسير، وله باع طويل في الحديث وعلومه وعلوم اللغة، والقراءات والتاريخ، والأدب، والأشعار، والفقه. كان زاهداً ورعاً قانعاً بما يصله من أبيه، لا يقبل من السلاطين، كريم النفس لا تأخذه في الله لومة لائم. وقد رفض تولي القضاء. وكان حسن العبارة، حسن المنطق، متبعاً في العقيدة آثار السلف. ولاشك في ثقته، توفي في بغداد، سنة: ٣١٠هـ.

من مصنفاته : التفسير المعروف بجامع البيان عن تأويل آي القرآن، وتاريخ الأمم والملوك، وتهذيب الآثار، والتبصير في معالم الدين، وشرح السنة ، وقد بين فيه مذهبه واعتقاده ، والقراءات، والتنزيل، والعدد، والخفيف في أحكام شرائع الإسلام، والبسيط، وغير ذلك.

انظر : تهذيب الأسماء واللغات، الجزء الأول من القسم الأول: ٧٨-٧٩، تر: ٨. و: وفيات الأعيان: ٤/ ١٩١ - ١٩٢، تر: ٥٧٠. و: تذكرة الحفاظ: ٢ / ٧١٠ - ٧١٦. و:سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٢٦٧-٢٧٢، تر: ١٧٥. و : ميزان الاعتدال: ٤٩٨/٣ - ٤٩٩. و: طبقات الشافعية الكبرى: ١٢٠/٣-١٢٨، تر: ١٢١. و: البداية والنهاية: ١٥٦/١١ - ١٥٨. و : طبقات الشافعية؛ ابن قاضي شهبة: ٦٣/١-٦٤. و: لسان الميزان: ١٠٠/٥-١٠٣، تر: ٣٤٤. و: طبقات المفسرين؛ السيوطي: ٩٥-٩٧، تر: ٩٣٠. و: طبقات الحفاظ: ٣١٠-٣١١، تر: ٧٠٣. و: طبقات المفسرين؛ الداودي:١١٠/٢ - ١١٨، تر:٤٦٨. و: شذرات الذهب: ٢٦٠/٢. و: الرسالة المستطرفة: ٣٣. و: الأعلام: ٦٩/٦.

(٢) تفسير الطبري: ٢٦ / ١٧٧.

(٣) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (وقيل : سعيد) بن حريز الزُّرعي ثم الدمشقي؛ أبو عبدالله شمس الدين ابن قيم الجوزية، ولد في دمشق، سنة: ٦٩١هـ، وتفقه في المذهب الحنبلي، وبرع فيه وفي علوم كثيرة ولاسيما في التفسير والحديث وأصول الدين وأصول الفقه والعربية. لزم شيخ الإسلام ابن تيمية وأخذ عنه علماً جماً وسار على منهجه في الدعوة إلى الرجوع للكتاب والسنة، ونبذ البدع والآراء الفاسدة. وكتب بيده كثيراً من المؤلفات والتصانيف، توفي في دمشق سنة : ٧٥١هـ. من تصانيفه: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، وطريق الهجرتين وباب السعادتين، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، والروح، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ومدارج السالكين، وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، وأعلام الموقعين ، وأحكام أهل الذمة، وغيرها كثير.

انظر: البداية والنهاية : ١٤/ ٢٤٦-٢٤٧. و : الدرر الكامنة: ٢١/٤-٢٣، تر:٣٥٨٦. و: النجوم الزاهرة: ٢٤٩/١٠. و: الوافي بالوفيات: ٢٧٠/٢ - ٢٧٣، تر: ٦٩٣. و: طبقات المفسرين؛ الداودي:٩٣/٢-٩٧، تر: ٤٥٦. و: شذرات الذهب: ٦/ ١٦٨- ١٧٠. و: الأعلام: ٥٦/٦.

(٤) التبيان في أقسام القرآن؛ ابن قيم الجوزية: ٢٦٣.

المؤمن يدرك أن أعظم استخدام لهذه الأداة هو استخدامها في مجال التفكر في آيات ا لله الكونية والقولية للوصول إلى الإيمان به سبحانه الإيمان الصحيح، فطاعته جل جلاله وتنفيذ أوامره ونواهيه. إلا أن الإنسان–بصفة عامة– قد يستخدم تلك الأداة للوصول إلى ذلك الإيمان، وقد لا يستخدمها مطلقاً في هذا المجال ، بل هو إما أن يحجبها عنه ، وإما أن يستخدمها في المجال المناقض له، فيستخدم عقله في محاربة الدعوة إلى الإيمان با لله تعالى وطاعته. والعياذ با لله تعالى!.

بناءً على ذلك فإن الإنسان إذا أقر بأن ا لله سبحانه هو خالق هذا الكون، وهو من وهبه هذه الأداة، فإنه لابد أن يستنتج أنه جل شأنه ما وهب الإنسان تلك الأداة الخطيرة إلا ليبتلي ويختبر استخدامهُ لها، هل يكون وفق منهج ا لله أو مخالفاً له.

وهذا ما دلت عليه النصوص، إذ بينت أن الذين يستخدمون أداة التفكير –القلب– التي وهبهم ا لله إياها في المجال الصحيح من الذين يستحقون المدح الرباني؛ هم الموصوفون بأنهم أولو الألباب وبأنهم الذين يعقلون، وبأنهم الأحياء –أي : أحياء القلوب–، وذلك لأنهم استفادوا حقّاً من هذه المنحة الربانية إذ استخدموها في المجال الصحيح ، وفيما يعود عليهم بأعظم النفع. وأما الذين لا يستخدمون عقولهم وقلوبهم في التفكر في آيات ا لله ولا توصلهم تلك القلوب إلى الإيمان الصحيح با لله تعالى، فطاعته جل شأنه؛ قد ذمّهم سبحانه بأنهم أموات –أي: أموات القلوب–، وذمهم بأنهم لا يعقلون ولا يفقهون ....، إلى غير ذلك من عبارات الذمّ الدالة على أن تلك الأداة وإن كانت موجودة لديهم؛ إلا أنهم عندما لم يستخدموها في مجال التفكر في آيات ا لله، ولم تهدهم إلى الإيمان بربهم سبحانه؛ فقد فقدت تلك الأداة فائدتها، وأصبحت أداة ميتة كأنها لا وجود لها أصلاً.

واستحقاق المرء للمدح أو الذم نتيجة استخدامه لتلك الأداة يدل على أن إعطاءه إياها كان على سبيل الاختبار والابتلاء. قال سبحانه في شأن من يستفيدون من منحة العقل:

﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب (١٩٠) ﴾ آل عمران .

وقال تعالى:

﴿وسخر لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مسخراتٌ بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١٢) ﴾ النحل.

وقال جل شأنه:

﴿ وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إنْ هُوَ إلاّ ذكرٌ وقرآن مبين (٦٩) لينـذر مـن كـان حيّاً ويَحِقَّ القولُ عَلى الكافرين (٧٠) ﴾ يس.

قال الإمام الطبري في بيانه لمعنى الآيتين: (يقول : إن محمد إلا ذكر لكم لينذر منكم –أيها الناس– من كان حيّ القلب، يعقل ما يقال له، ويفهم ما يبين له، غير ميت الفؤاد بليد)[١].

وقال جل شأنه في بيان حال من لا يستفيدون مما منحهم ا لله إياه من فكر وعقـل للوصـول إلى ما ينفعهم حقيقة:

﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجـن والإنـس لـهم قلوب لا يفقهـون بهـا ولـهم أعـين لا يبصـرون بهـا ولـهم آذان لا يسـمعون بهـا أولئـك كالأنعام بـل هـم أضـل أولئـك هـم الغـافلون (١٧٩)﴾الأعراف.

فهنا نفى سبحانه عن قلب الكافر فائدته اللازمة له من الفقه والتدبر، إذ أعرض صاحبـه بـه عن التفكر والتدبر في آيات ا لله جل شأنه[٢].

وقال سبحانه:

﴿ ولئن سألتهم من نَزَّل من السماء ماءً فأحْيَـا بـهِ الأرض مـن بعـد موتهـا ليقولُـنَّ ا للهُ قـل الحمدُ لله بل أكثرهم لا يعقلون (٦٣) ﴾ العنكبوت.

وقال تعالى:

﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات إنّ ا للهَ يُسْمِعُ من يشاء وما أنت بمسمع مـن في القبـور (٢٢) ﴾ فاطر.

قال الإمام الطبري:

(وما يستوي الأحياء القلوب بالإيمان با لله ورسوله، ومعرفة تنزيل ا لله. والأموات القلوب لغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعقل عن ا لله أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال)[٣].

٢) منحة إلهام النفس معرفة طريقي الخير والشر ودلالتها على الابتلاء:

وأما ما يتعلق بإلـهام النفس معرفة حدود طريقي الخير والشر، والقدرة على التمييز بينهما،

---

(١) تفسير الطبري: ٢٣ / ٢٧.

(٢) انظر: المرجع السابق: ٩ / ١٣١-١٣٢.

(٣) المرجع السابق: ٢٢ / ١٢٨-١٢٩.

فإنه سبحانه قال في الدلالة على ذلك:

﴿ ونفسٍ وما سوّاها (٧) فألـهمها فجورها وتقواها (٨) ﴾ الشمس .

فهو تعالى قد خلق النفس الإنسانية سوية مستكملة لجميع الصفات اللائقة بها ، وأودع فيها معرفة معالم الحق والباطل والخير والشر، معرفة تمكنها من التمييز بين كثير من الأعمال الصادرة منها أَوْ مِنْ غيرها، والحكم عليها بما يليق بها . أي إنه جل شأنه قد مكّن النفس الإنسانية من تمييز العمل الفاجر والحكم عليه بكونه شرّاً لا يليق بها أن تقوم به، وإن كانت لديها المقدرة على القيام به إن اختارت طريق الفجور، وأيضاً فهو جل جلاله قد مكّنها من إدراك حسن كثير من الأعمال الخيّرة، التي يجب عليها أن تقوم بها ، ليتحقق لها رضوان الله والوقاية من غضبه، وأعطاها سبحانه المقدرة على القيام بها إذا اختارت طريق التقوى[1].

ويتبين من قوله تعالى في الآيتين التاليتين:

﴿ قد أفلح من زكاها (٩) وقد خاب من دساها (١٠) ﴾ الشمس.

أن الإنسان لم يمكّن من تلك المعرفة لغير حكمة، بل لحكمة لله بالغة، وهذه الحكمة هي اختبار الإنسان وابتلاؤه لينظر هل يستفيد من تلك المعرفة في تزكية نفسه بجعلها تقوم بالأعمال الصالحة، وبإبعادها عن الأعمال السيئة، فيستحق بذلك الفلاح. أم أنه سوف يؤثر طريق الفجور الذي يحقق له بعض مطالبه العاجلة، وإن كان فيه تدنيس لنفسه بالآثام والمعاصي فيستحق بسبب ذلك الخيبة.

والتعبير بالفلاح والخيبة يشير كذلك إلى الجزاء الأخروي المترتب على ذلك الابتلاء ، إذ قد لا يتحققان في الدنيا لكثير من مستحقيهما.

٣) منحة الفطرة ودلالتها على الابتلاء :

وأما الفطرة الصالحة فقال عنها تبارك اسمه:

﴿ فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرة اللهِ التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدينُ القيِّمُ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون (٣٠) ﴾ الروم.

وقال عنها صلى الله عليه وسلم:

["ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جدعاء".

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤/٥١٥-٥١٦ . وانظر: في ظلال القرآن؛ سيد قطب: مج ٦/٣/٣٩١٧. وانظر: تفسير سورة الشمس؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني في كتابه " معارج التفكر ودقائق التدبر": ٢/٣١٧- ٣١٩.

ثم قال أبو هريرة رضي ا لله عنه -راوي الحديث-:

﴿... فطرة ا لله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق ا لله...(٣٠)﴾][١]، -الروم-.

والراجح أن المراد بالفطرة الإسلام[٢]، وهذا يعنى أنه سبحانه قد جعل في أعماق النفس الإنسانية فطرة مقتضية لكل خير وصلاح، لو خلي بينها وبين مقتضاها لما نشأ الإنسان إلا مؤمناً با لله وبصفات كماله، موحّداً له سبحانه، شاكراً له، مطيعاً لأوامره، مؤمناً بما تقتضيه حكمته في أفعاله[٣]....

ولكن هذه الفطرة تُحجب عن مقتضاها، بعوامل كثيرة ، يأتي في مقدمتها : عامل التربية الذي أشار إليه صلى ا لله عليه وسلم في الحديث السابق، فينشأ الإنسان على ما ربّيَ عليه ويغيب عنه مقتضى فطرته الأولى، فيصبح كافراً با لله تعالى مشركاً به أو ملحداً أو نحو ذلك.

وقد تستيقظ تلك الفطرة في حالات، كحالات الخوف الشديد، الذي يدفع الإنسان إلى طلب العون والإنقاذ ممن يملكهما حقيقة ، فتستيقظ فطرته عندئذ ويتيقن بأنه لا يملكهما فعلاً إلا ا لله سبحانه، المالك لكل هذا الكون بجميع ما فيه، فيلتجئ إليه مخلصاً طالباً منه أن ينجيه من هذا الكرب.

ثم إن كثيراً ممن قد يتعرضون لمثل هذه الحالات إذا استجاب ا لله لهم وأنجاهم واطمأنوا نسوا ما كانوا فيه وغابت عنهم فطرتهم مرة أخرى، وعادوا إلى كفرهم وشركهم وفجورهم. قال ا لله تعالى مبيناً حال هؤلاء:

﴿ هو الذي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ والبحر حتَّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريحٍ طيِّبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصف وجاءهُمُ الموج من كلِّ مكانٍ وظنُّوا أنّهم أحيطَ بهم دَعَوُا ا لله

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. البخاري: ١/٤٥٦/ ح: ١٢٩٣، وانظر أيضا: ١/ ٤٦٥/ ح: ١٣١٩، ٤ / ١٧٩٢ / ح:٤٤٩٧، ٦ / ٢٤٣٤/ ح: ٦٢٢٦. وانظر: مسلم: ٤/ ٢٠٤٧- ٢٠٤٨/ ح: ٢٦٥٨، عدة روايات. وقوله: (تنتج): أي تلد، انظر: لسان العرب: (نتج)/٣/١٩٦. و: (جمعاء)، أي : سليمة من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملتها فلا جدع بها ولا كي، انظر: لسان العرب: (جمع)/ ٩/ ٤١١. و: (جدعاء)، أي: مقطوعة الأذن أو الأنف، انظر: لسان العرب: (جدع)/ ٩/ ٣٩٠- ٣٩١. و: مختار الصحاح: (جدع)/ ٩٦.

أبو هريرة هو: أبو هريرة الدوسي، اختلف في اسمه واسم أبيه، صحابي جليل أسلم سنة ٧هـ، عام خيبر وشهدها، ولزم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأكثر من الرواية عنه. وقد كني بأبي هريرة لهرة كان يحملها. وقد توفي رضي الله عنه عام: ٥٧هـ، وقيل ٥٨هـ، وقيل: ٥٩هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء: ٢/٥٧٨-٦٣٢/ تر: ١٢٦. و: الطبقات الكبرى: ٢/٣٦٢-٣٦٤، ٤/٣٢٥-٣٤١. و: تهذيب التهذيب: ١٢/٢٦٢-٢٦٧. و: شذرات الذهب: ١/٦٣. و: الإصابة ٦/٢٠٢-٢١١/ تر: ١١٩٠. و: الاستيعاب: ٤/٢٠٢-٢١٠. و: أسد الغابة: ٦/٢١٨-٢٢١/تر: ٦٣١٩. و: البداية والنهاية: ٨/١٠٧-١١٨. و: الأعلام: ٣/٣٠٨.

(٢) انظر شفاء العليل؛ ابن قيم الجوزية، الباب الثلاثون: في ذكر الفطرة الأولى ومعناها...، من: ٤٧٠، وما بعدها.

(٣) انظر مفتاح دار السعادة؛ ابن قيم الجوزية: ١ / ٢٨٠.

مُخْلِصِينَ لَهُ الدينَ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٢٢) فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ...(٢٣)﴾ يونس.

ولكن البعض قد يستفيد من حالات الصحو هذه، ويحاسب نفسه ويتفكّر فيما هو فيه ، وفي خالقه الحق جل شأنه، الذي يستحق وحده العبادة. وكيف أنه تعالى قد ترك الحرية له في أن يعبده أو يكفر به ، فيدرك -إن علم بأنه سبحانه حكيم في فعله كله- بأن له جل شأنه من ذلك حكمة بالغة، تتحقق في كونه تعالى إنما خلقه في هذه الحياة ليبتليه ويختبره ، هل يعبده العبادة الحقة، أم يكفر به جل شأنه؟.

٤) دلالة الأهواء والشهوات في الإنسان على كونه مبتلي:

وأما نوازع الأهواء والشهوات الموجودة في النفس الإنسانية ؛ فهذه تتعلق بأمور دنيوية ، قد زُيّن للناس حبُّها والتعلّق بها، ضمن عناصر ابتلائه. وجمع الله جل شأنه معظمها في قوله:

﴿ زُيِّنَ للناس حُبُّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسوَّمَةِ والأنعامِ والحرثِ ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا والله عندَه حسنُ المآب(١٤)﴾ آل عمران.

فهو تعالى يبيّن أنه قد زيّن لنفوس الناس حب أصناف الشهوات المذكورة في الآية، والتعبير بأن هذه الأمور مزيّنة للناس ليس فيه دلالة على أنها قبيحة ابتداءً، بل يدل ذلك التعبير على أنه سبحانه قصد لحكمةٍ أن يجعل في نفوس الناس محبة تلك الأمور ، ويمكن استنباط تلك الحكمة من قوله: ﴿ والله عنده حسن المآب ﴾، أي : حسن المرجع[1].

وقد بيّن سبحانه في الآية التي تليها بعض صفات ذلك المرجع البالغ الحسن فقال:

﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وأزواجٌ مطهرةٌ ورضْوانٌ من اللهِ والله بصير بالعباد (١٥) ﴾ آل عمران.

فالتعقيب على تزيين تلك الشهوات للناس بأنه سبحانه: ﴿عنده حسن المآب﴾، وبيان أن ذلك المآب إنما هو عبارة عن جنات عدن بما فيها من أصناف النعيم، ، يدل المرء على أنه لا ينبغي له أن يغتر بتلك الأمور فينجرف وراءها، بل عليه أن يعلم أن تلك الأمور قد ابتُلي بها ليتبّين هل هو من المتقين المستحقين لحسن المآب، أم يكون من الصنف الآخر الذين يغترون بتلك المتع وينسون أنها مجرد أمور يختبرون بها وسرعان ما تزول ليأتي الجزاء بعدها.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ١ / ٣٥٢.

وقال جل شأنه:

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجرٌ عظيمٌ (١٥)﴾ التغابن.

ومن معاني الفتنة -كما سبق بيانه-[١]: الاختبار والامتحان.

فالله سبحانه يبيّن أن الأموال والأولاد إنما هي امتحان للمرء واختبار له[٢]، فعلى الإنسان أن يعلم ذلك فيقوم في ماله وأهله وولده بما يرضي ربه، ولا يجعل شهوة المال والولد تتحكم فيه ومن ثمّ تهوي به إلى سخط الله، ثم على الإنسان أن يعلم كذلك أن ابتلاءه مستتبع بالجزاء الأوفى، وهذا مادل عليه قوله: ﴿ والله عنده أجر عظيم﴾، والأجر العظيم مختص بمن أحسن عمله، وأما من أساءه فله جزاء يناسبه.

فالإنسان يمتلك فطرة خيّرة ترتفع به إلى مراقي الخير والفلاح، وقد حُبِّبت إليه شهوات، إن لم يضبطها كانت وبالاً عليه ودافعة له إلى مهاوي الشر والرذيلة. وبالإضافة إلى هذين الداعيين الذاتيين للإنسان، فقد جاء في النصوص بيانٌ لداعيين آخرين منفصلين عن الإنسان، وإن كانا يقومان بعملهما من داخل كيان الإنسان. أحدهما: يدعو الإنسان إلى الخير ويأمره به، ويحببه فيه ويحذره من كل شر، وآخر: بخلافه، يزينّ للإنسان الانغماس في الشرور والآثام والشهوات، ويصرفه عن كل خير وفضيلة، قال صلى الله عليه وسلم في بيان هذين الداعيين:

["ما منكم من أحد إلاّ وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة" قالوا: وإياك يا رسول الله قال: "وإياي، إلاّ أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلاّ بخير"][٣].

فالحديث يدل على: أن قرين الجن وهو الشيطان يأمر الإنسان بالشر، وخُص صلى الله عليه وسلم بالإعانة حتى أصبح لا يأمره إلا بخير. فإذا كان حال الشيطان القرين لابن آدم أنه يدعوه إلى الشر، فلابدّ أن يكون حال الملك القرين على الضد من ذلك، أي: إنه يدعو الإنسان إلى كل خير وصلاح، قال ابن قيم الجوزية:

(إذا تأمّلت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب، فهذا يلمّ به مرة وهذا يلمّ به مرة، فإذا ألّم به الملك؛ حدث من لّمته الانفساح والانشراح والنور والرحمة والإخلاص والإنابة ومحبة الله وإيثاره على ما سواه، وقِصَرُ الأمل والتجافي عن دار البلاء والامتحان والغرور، فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهنأ عيش وألذه وأطيبه. ولكن تأتيه لمة الشيطان، فتحدث له من

---

(١) انظر: ٧٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٤ / ٣٧٦.

(٣) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ٤/ ٢١٦٧/ ح: ٢٨١٤.

الضيق والظلمة والـهمّ والغم والخوف والسخط على المقدور والشكّ في الحق والحرص على الدنيا وعاجلها، والغفلة عن ا لله، ما هو من أعظم عذاب القلب)[١].

ووجود هذين الداعيين: داعي الخير وداعي الشر؛ هو من باب إكمال عوامل ابتلاء الإنسان، ثم إن أي إنسان يجد من داخل كيانه من يدعوه تارة إلى فعل الخير وتارة إلى فعل الشر؛ فلابد أن يتساءل –وإن جهل وجود كائن منفصل يدعوه من داخله– عن سبب وجود هاتين الدعوتين المتضادتين في داخله، فإن كان لديه إيمان با لله الخالق الحكيم، وبأنه جل شأنه هو الذي خلقه بهذه الصفات، أدرك بعد تفكير أنه سبحانه قد أوجد فيه تلك الدعوتين المتضادتين من داخله اختباراً له يظهر منه حقيقة ميله ، هل هو ميل نحو الخير يدفعه إلى استجابة دعوة الآمر بالخير، أم هو ميل نحو الشر يدفعه إلى استجابة دعوة الآمر بالشر. قال تعالى:

﴿ ولقد صدّق عليهم إبليس ظَنَّه فاتبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين (٢٠) وما كان له عليهم من سلطان إلاّ لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربُّك على كلِّ شيءٍ حفيظ (٢١) ﴾ سبأ.

فهو سبحانه لم يمكّن إبليس لعنه ا لله من إضلال من أضله من الناس إلا لحكمة اكتمال مقتضيات الابتلاء، فالمؤمن با لله الإيمان الصحيح هو مؤمن بالآخرة إيماناً راسخاً لا يجد معه إبليس سبيلاً لإثارة الشكوك في نفسه، بل هو منقاد لجميع ما يقتضيه إيمانه ذلك. وأما من كان في إيمانه شئ من خلل أو شك، فإن إبليس عندئذ سيجد إلى إضلاله وإفساده سبلاً كثيرة.

ونظراً لخطورة داعي الشر –الشيطان– فقد حذّر منه ا لله في كتابه العزيز، وبيّن أنه يزيّن للإنسان المنكرات والمعاصي والآثام ويحبّبه فيها ويحثّه على ارتكابها، وأما الأعمال الصالحة، فإنه يبغّضها إلى نفسه فيصرفه عنها ، بل إنه ربما خوّفه من بعض الأعمال الصالحة ، كتخويفه الإنسان من الفقر إذا هو أدّى زكاة ماله، قال جل شأنه في بيان ذلك:

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء وا لله يعدكم مغفرة منه وفضلاً وا لله واسع عليم (٢٦٨) ﴾ البقرة.

وبيّن سبحانه أن وسيلة الشيطان لإضلال الناس هي: بالوعود والأماني الكاذبة الخادعة، قال تعالى:

﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً (١٢٠) ﴾ النساء.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن؛ ابن قيم الجوزية: ٢٦٥.

٥) منحة حرية الإرادة المحدودة ودلالتها على الابتلاء:

وأما ما وهبه الله سبحانه للإنسان من إرادة حرة في مجال معين، فهذه الإرادة يمكن استنباط الدليل عليها من آيات عدة منها قوله جل جلاله:

﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كُلُّهُم جميعاً أفأنت تكرِه النَّاسَ حتى يكونوا مؤمنين (٩٩) ﴾ يونس.

فمما تدل عليه هذه الآية أنه سبحانه لو شاء لسلب الناس حرية الاختيار التي منحهم إياها ولأجبرهم على الإيمان ، ولكن ذلك يتنافى مع كون الإنسان مبتلى في هذه الحياة، ابتلاءً يُعرف منه إن كان سيسير في سبيل مرضاة الله تعالى، أم أنه سيميل عن ذلك السبيل إلى سبل المعاصي ومالا يرضاه سبحانه. فهذا الابتلاء يقتضي أن يكون للإنسان نوعٌ من حرية الإرادة ، أي حرية إرادة في مجال معين، وهو مجال الاختبار والامتحان فقط(١).

وقال تبارك اسمه أيضاً:

﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يُلقى في النَّارِ خيرٌ أم مَنْ يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصيرٌ (٤٠) ﴾ فصلت.

فهو سبحانه يخاطب هنا الملحدين في آياته خطاباً مباشراً قائلاً لهم: ﴿اعملوا ما شئتم﴾، وهو إن كان خطاب تهديد ووعيد، ففيه دلالة على أنه سبحانه قد أعطاهم حرية في بعض تصرفاتهم وأفعالهم، ويكون التهديد بعد ذلك على نتيجة اختيارهم، إذا كان هذا الاختيار قد اتجه نحو عصيان الربّ سبحانه والكفر به، مع إعلامهم بأنه تعالى بصير بجميع ما يعملون لا تخفى عليه جل شأنه خافية من أعمالهم ، وإعلامهم أيضاً -مهدداً لهم- بالجزاء الذي سوف ينتظرهم على كفرهم وإلحادهم ، وهو الإلقاء في النار يوم القيامة ، مع مقارنة هذا الجزاء بالجزاء الذي سوف يلقاه من آمن بالله جل ثناؤه وآياته حق الإيمان، من الأمن يوم القيامة والنعيم المقيم(٢).

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجّلاً ومن يُرِدْ ثوابَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنْها ومن يرد ثواب الآخرةِ نؤته منها وسنجزي الشاكرين(١٤٥)﴾ آل عمران.

وقال جل شأنه أيضاً:

---

(١) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ٨٦.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٢٤/٢٤. و: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل:٨٧.

﴿ مَنْ كانَ يريد الحياة الدُّنْيَا وزينتها نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون (١٥) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النّارُ وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون(١٦)﴾ هود.

وقال سبحانه أيضاً:

﴿من كان يريد العاجلة عجَّلْنَا لَهُ فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصْلاها مذموماً مدحوراً (١٨) ومن أراد الآخرة وسعى لها سَعْيَها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً (١٩) كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً (٢٠) ﴾ الإسراء.

(هذه الآيات تثبت الحقائق التالية:

أولاً: وجود الإرادة الإنسانية الموجهة لأفعال الإنسان.

ثانياً: أن هذه الإرادة لها حرية اختيار، وليست إرادة مجبرة مسيرة في جميع الأحوال، وهذا يتضح من خلال أسلوب الآيات العام ، إذ وضع أمام العبد كلاًّ من طريقي الدنيا -أي: الدنيا فقط- والآخرة ليختار العبد بينهما.

ثالثاً: أن هذين الطريقين الذين عبر عنهما بطريقي الدنيا والآخرة هما مجال حرية الاختيار لإرادة الإنسان، فعليه أن يختار أحدهما إما طريق الدنيا، الذي يسلكه من يختار الدنيا وزينتها وما فيها من لذائذ وشهوات فقط، ويصرف إلى هذا الطريق كل جهده وهمه، ولا يفكر فيما وراء ذلك. والطريق الآخر هو طريق الآخرة، وهو الذي يختار السير فيه من يبتغي ثواب الآخرة.

رابعاً: أن حرية الاختيار التي منحها ا لله للإنسان ليست مطلقة بل محدودة ضمن المجال السابق فقط)[1].

فثبوت أن للإنسان إرادة لها حرية اختيار، هو ثبوت يقيني لا شك فيه، وهو أمر قد يعلمه الكثير ممن لا يكون مؤمناً بدين ا لله المنّزل.

وبشيء من التدبّر مع الاستعانة بما سبق إيراده من الأدلة يمكن الوصول إلى أن الحكمة من هذه المنحة الربانية تظهر في كونها لابتلاء الإنسان واختباره، اختباراً يتبيّن به: أيّ طريق من طريقي الخير أو الشر سيختاره الإنسان ويكون سبيله في هذه الحياة.

والآيات التي سبق ذكرها تُبَيِّنُ أن الجزاء مترتب على ذلك الابتلاء، بحيث يكون موافقاً لما اختاره الإنسان، وذلك الترتّب هو ما يقتضيه كمال الحكمة الإلهية.

---

(١) انظر: القضاء والقدر في الإسلام؛ فاروق الدسوقي: ٢١٢-٢١٣ بتصرف.

٦-٧) دلالة الأخلاق الباطنة والضمير الخلقي على الابتلاء:

وأما كون الأفعال الصادرة من الإنسان نابعة في أساسها من خلق من أخلاق الإنسان النفسية الداخلية، فإنّ مما يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم جواباً لمن سأله عن البِّر والإثم فقال:

"البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع عليه الناس"[١].

(البر: هو جماع أفعال الخير، وقد عرفه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه حسن الخلق، فهذا يدل على أن حسن الخلق يشتمل على جماع أفعال الخير)[٢]. أي إن كل فعل من أفعال الخير إنما مصدره خلق في الإنسان حسن، ومفهوم المخالفة لهذا المعنى أن كل فعل من أفعال الشر والرذيلة إنما مصدره خلق في الإنسان سيئ.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم عن الإثم:

"والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس ".

ففيه إشارة إلى الضمير الخلقي الذي فطر الله عز وجل الناس عليه، وهو ضمير يحس بالفضيلة الخلقية كما يحس بالرذيلة، وحينما يحس بالرذيلة يعتريه شعور بالنفرة منها وكراهيتها، ويلوم صاحبه على إرادته وارتكابه لها. والإنسان الذي يشعر بذلك يقدر أن مثل هذا الإحساس من شأنه أن يحدث لكل إنسان آخر إذا اطلع على ما عمله من عمل سيئ، ولذلك فهو يكره أن يطلع الناس على عمله الآثم ذلك، لئلا يخسر مكانته في نفوسهم حينما يعلمون ما اقترفه[٣].

وقد يمكن أن يكون هذا الضمير الخلقي هو : المراد من النفس اللوامة التي أقسم بها الله جل وعلا في كتابه فقال:

﴿ لا أقسم بيوم القيامة (١) ولا أقسم بالنفس اللوامة (٢) ﴾ القيامة.

ومن النصوص التي قد تدل على وجود ذلك الضمير الخلقي ولاسيما لدى المؤمن، قوله صلى الله عليه وسلم:

" ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنَبَتَي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تنفرجوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال:

---

(١) رواه مسلم عن النواس بن سمعان الأنصاري، ٤ / ١٩٨٠ / ح: ٢٥٥٣ (روايتان).

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ١ / ٤٩. وانظر: شرح النووي على مسلم: ١١١/١٦.

(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها: ١/ ٥٠.

ويحك، لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه. والصراط: الإسلام، والسوران: حدود ا لله تعالى، والأبواب المفتحة: محارم ا لله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب ا لله عز وجل، والداعي فوق الصراط: واعظ ا لله في قلب كل مسلم"(١).

فقوله: "والداعي فوق الصراط: واعظ ا لله في قلب كل مسلم"، قد يراد به قوة من نوع خاص يمنحها ا لله لقلب المرء الذي التزم السير في صراطه ، صراط الإسلام، حتى يصبح ذلك القلب مصدر مراقبة للمرء في جميع تصرفاته وأفعاله، فإن رأى صاحبه قد أخذ في إرادة شيء من الأمور المحرّمة انبعثت على الفور منه نداءات داخلية تحذّر صاحبه المسلم من مغبة قيامه بذلك العمل، لما يستلزمه من سيره في غير صراط الإسلام.

وكلما ازداد المرء طاعة لربه ازدادت تلك القوة الممنوحة لقلبه بفضل ا لله تعالى(٢).

وأما المرء غير المسلم فإنه لم يسلك أساساً صراط الإسلام ، فكيف يمنح قوة تحذّره من مخالفة مقتضيات السير في ذلك الصراط ؟!. ولكن قد يقال بأنه تنشأ لديه قوة في قلبه تمنعه من مخالفة ما يعتقد أنه حق أو باطل. وهذا غير ممتنع، وقد أثبت وجوده دارسو الأخلاق من غير المسلمين.

بناءً على ما سبق فإن الأخلاق التي يتصف بها الإنسان حسنة كانت أم سيئة؛ هي دليل داخلي لنفس كلّ مؤمن با لله جل جلاله الخالق الحكيم على أنه كائن مبتلى في هذه الحياة، إما أن يسير وفق ما تقتضيه أخلاقه الحسنة أو أن يسير وفق ما تقتضيه أخلاقه السيئة، ويقوّي أثر هذا الدليل في نفس الإنسان وجود المحاسب الداخلي له على أعماله، والذي يلومه على فعله السيئ، ويطالبه بالازدياد من الفعل الحسن، وهذا كله يدل على أن ا لله تعالى الذي خلق الناس وفطرهم، هو الربّ الحكيم الذي لا يمكن أن يترك المكلفين الموضوعين موضع الابتلاء في هذه الحياة ، دون أن يرسل إليهم منهجا يوضح لهم فيه: طريقي الخير والشر من غير التباس، ويكون لهم عونا على إصدار الأحكام الأخلاقية الصائبة، وميزان قسط لجميع الأقوال والأعمال، لئلا تنجرف بهم الأهواء والشهوات والمصالح العاجلة إلى قلب الأحكام والموازين تبعا لما قد تمليه عليهم تلك الأهواء.

---

(١) رواه أحمد عن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه، واللفظ له، المسند: ٤/ ١٨٢، ورواية أخرى: ١٨٣/٤. ورواه كذلك: الترمذي؛ السنن:٥/ ١٤٤/ ح: ٢٨٥٩، وقال الألباني: صحيح. و: النسائي؛ السنن الكبرى: ٦/ ٣٦١/ ح: ١١٢٣٣. و: الحاكم في المستدرك: ١/ ١٤٤، وقال : صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علة، ووافقه الذهبي. و: الطبراني؛ مسند الشاميين: ٢/ ١٨٠/ ح: ١١٤٧. والحديث صححه الألباني أيضا في صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٢ / ٧٢١- ٧٢٢/ ح: ٣٨٨٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٢٠/٤٤-٤٥. و: روائع من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم؛ عبدالرحمن حبنكة الميداني : ٤٣١-٤٣٣. وقد يراد بواعظ الله الوارد في الحديث؛ الملك القرين الذى سبق الحديث عنه، والله أعلم، انظر: ٨٤- ٨٥.

٨) الصفات الجسدية التي منحها الله تعالى الإنسان ودلالتها على حقيقة الابتلاء:

ما سبق كان في الصفات النفسية، وأما الصفات الجسدية وكونها ملائمة لوظيفة الإنسان الابتلائية في هذه الحياة ودالة عليها، فإن مما يدل على هذا قوله سبحانه:

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً (٢) إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإمّا كفوراً (٣) إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً (٤) إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً(٥)﴾ الإنسان.

فهو تعالى يبيّن في الآيات السابقة أن الحكمة من خلقه الإنسان في هذه الحياة هي ابتلاؤه واختباره، لينظر كيف يعمل، وهو ابتلاء سيتبعه الجزاء المناسب لعمل الإنسان. ويذكر جل شأنه بعض نعمه التي أنعم بها على ذلك الإنسان من خلال خلقته، تلك النعم التي هي بالإضافة إلى أنها دليل للإنسان على كونه مبتلى في هذه الحياة، فإنها تعينه على القيام بما يقتضيه ابتلاؤه عموماً على الوجه المطلوب. وفي مقدمة تلك النعم، نعمتا السمع والبصر، وهما اللّتان وردتا في الآيات السابقات. وهاتان النعمتان يدرك من خلالهما الإنسان الأمور المسموعة والمرئية إدراكاً يختلف عن إدراك سائر المخلوقات التي ترى بأعين شبيهة بأعين الإنسان وتسمع بآذان شبيهة بآذان الإنسان، وذلك لأن الإنسان يوصل ما يراه أو يسمعه إلى قلبه المفكر ، الذي يحلل ويستنتج ويستنبط، فيدرك ما وراء هذه الأمور المسموعة أو المرئية ، ويصل إلى الحقائق التي تدل عليها. فنعمة البصر والسمع مرتبطة بنعمة القلب المفكر، ودورهما الأول هو إيصال المعلومات إليه، ولذلك لا يرتفع حكم الابتلاء عمن لم يكن سميعاً بصيراً، مادامت الأمور الأساسية التي يقتضيها ابتلاؤه قد وصلت إلى فؤاده بأي طريق كان، سواء بالسمع وحده أم بالبصر وحده أم بالحس أم نحو ذلك، وإن كان ابتلاؤه لا يكون بالدرجة نفسها التي يكون عليها ابتلاء السميع البصير، لأن السمع والبصر نعمتان مبتلى بهما المرء لذاتهما، هل يستخدمهما فيما يرضي الله عز وجل، أم في تحقيق أهوائه ولو كانت تسخط الرب جل شأنه؟ ، ولذلك يخفف عمن يفقدهما بعض أنواع الابتلاء، كما يخفف عن الأعمى ابتلاء الجهاد بالنفس، وكذا الأعرج والمريض، قال جل جلاله:

﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج...(١٧)﴾الفتح.

أي: ليس على هؤلاء حرج في عدم خروجهم للجهاد لعدم استطاعتهم[1].

وكما نفى سبحانه فائدة القلب اللازمة له ، من الفقه والعقل -كما سبق ذكره-[2]، بالنسبة إلى من لم يستفد من تلك النعمة في مجال التفكرّ في آيات الله للوصول إلى الإيمان به، لأنه قد حجبها عن ذلك، فقد نفى أيضاً جل شأنه عن المعرضين عن التفكر في آياته فائدتي السمع والبصر عن آذانهم وأعينهم وإن كانت سليمة. وهذا يدل على أن هذه الآذان والأعين لم توهب

---

(١) انظر تفسير فتح القدير؛ الشوكاني: ٤ / ٥٠.

(٢) انظر: ما سبق: ٨٠.

للإنسان ليسمع ويرى بهما كما تسمع وترى البهائم، بل قد وهبت له لأمر هام وهو: سماع ورؤية آيات ا لله سبحانه الكونية والقولية، سماعاً ورؤية توصل تلك الآيات إلى القلب المفكّر ، ليتدبرها ويصل منها إلى الإيمان با لله جل شأنه. وبما أن هذه هي الوظيفة المطلوبة أساساً من تلك الأعين والأبصار، وبما أن الإنسان قد يقوم بتلك الوظيفة وقد لا يقوم، فإن هذا يدلّ على أنه تبارك اسمه قد أراد ابتلاء الإنسان واختباره ليظهر منه إن كان سيستخدم نعمتي السمع والبصر في أهم وظيفة لهما، وبما يحقق النتيجة المطلوبة، أم أنه لن يستخدمهما الاستخدام الصحيح الموصّل إلى تلك النتيجة.

قال تعالى في بيان ذلك:

﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنِّ والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون(١٧٩)﴾ الأعراف[1].

وفي موضع آخر يبيّن سبحانه أنه ليست الأبصار هي التي تعمى عن رؤية آيات ا لله، وإنما القلوب هي التي تعمى عن إدراك تلك الآيات المرئية ، قال تبارك اسمه:

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (٤٦) ﴾ الحج.

فالقلب هو الذي يعمى عن إدراك حقائق ما تراه الأعين، ولكن عماه عن إدراكِ تلك الحقائق يكون سبباً لانتفاء فائدة الرُّؤية عن الأعين، فيصحّ وصفها بالعمى وعدمِ الإبصار.

وعموماً فإن ا لله جلّ جلاله قد خلق الإنسان حسن الصورة سويّاً معتدلاً على أحسن تقويم، على وجه يلائم ما يقتضيه ابتلاؤه في هذه الحياة الدنيا، ويعينه عليها، قال تعالى:

﴿خلَقَ السّماوَات والأرض بالحق وصَوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وإليهِ الْمصيرُ(٣)﴾ التغابن.

وقال جل شأنه:

﴿ يا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غرَّكَ برَبِّكَ الكَريم (٦) الّذي خَلَقَكَ فسوّاك فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلاَّ بَلْ تُكَذِبُونَ بالدِّينِ (٩) ﴾ الانفطار.

وقال تبارك وتعالى:

﴿ لَقَدْ خلقنا الإِنْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْويم (٤) ثُمّ رَدَدْنَاه أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إلاّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِبُكَ بَعْدُ بالدّينِ (٧) أَلَيْسَ ا للهُ بأَحْكَم الحَاكِمِينَ (٨) ﴾ التين.

في هذه النصوص السابقات: يربط ا لله عزّ وجلّ ما وهب الإنسان في جسده من نِعمٍ بالجزاء، أي: إنّه سبحانه قد وهب الإنسان هذه النعم لغاية لا تكتمل إلاّ بتحقّق الجزاء الأخروي، الذي يتحقّق به الجزاء الأوفى على ما قدّمه الإنسان من عمل في الحياة الدنيا.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩ / ١٣١-١٣٢.

٩) دلالة سنة الاختلاف بين البشر ووقوع التضاد بينهم على كونهم مبتلين في هذه الحياة:

إن دراسة واقع الحياة يدل على أن ما سبق من الأمور كان من أسباب اختلاف البشر، ومن ثم أدى إلى وجود مؤمنين وكافرين، ووجود صالحين وفاسقين، ووجود مطيعين لله متّبعين لأوامره مجتنبين لما نهى عنه، وعاصين متّبعين لأهوائهم وشهواتهم ووساوس شياطينهم، وَوجُودُ هذينِ الفريقين يَدُلُّ كذَلِكَ على حقيقة كون الإنسان مبتلى في هذه الحياة، فعندما يرى الموقن أن الله سبحانه قد أوجد هذين الفريقين، وقدّر وقوع المواجهة بينهما، التي تصل إلى حد وقوع الحرب والمقاتلة، فإنه لابد أن يعتقد بوجود حكمة لله سبحانه من وراء هذا التقدير، وهذه الحكمة لا تتحقق إلاّ بكونه جل وعلا قد ابتلى خلقه بهذه الأمور.

فهو يبتلي المؤمنين بالكافرين، ليظهر صادق الإيمان حقّاً الذي لا تزلزل إيمانه المصائب والفتن، ويتميز عمن في إيمانه ضعف يظهر عند أول محنة يصاب بها من أجل إيمانه، وليظهر أيضاً مدى حب المؤمنين لربّهم ولدينهم، ومدى بذل أنفسهم وجميع ما يملكون من أجل نصرة دين الله، وليتميزّ بذلك الابتلاء من يكون ولاؤه ومعاداته في الله حقّاً، ممن يدعي ذلك وهو غير صادق، فتظهر تلك الشدائد حقيقة كذبه في دعواه[1].

وهو سبحانه يبتلي الكافرين بالمؤمنين، ليتعظ من شاء منهم بما جرى لبعضهم من العقوبة التي أوقعها الله عليهم بأيدي المؤمنين، فيكون ذلك سبباً لإيمانهم.

وقد دلت آيات عدّة على أنّ الله تعالى يبتلي المؤمنين بمقارعة الكافرين ومواجهتهم أذاهم، منها:

١- قول الله عزّ وجل:

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرْبَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاقَ فإمّا منّاً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم (٤) ﴾ (محمد) صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام الطبري عند قوله سبحانه: ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾:

(يقول: ليختبركم بهم، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من شاء منهم، حتى ينيب إلى الحق)[2].

٢- وقوله تعالى :

﴿ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلُوَ أخباركم (٣١)﴾(محمد)صلى الله عليه وسلم.

(١) انظر: طريق الهجرتين؛ ابن قيم الجوزية: ٢١٥.

(٢) تفسير الطبري: ٢٦ / ٤٣.

فهو سبحانه يبتلي المؤمنين بما يكون بينهم وبين الكافرين مـن مواجهـات مختلفـات الصـور، ليُعْلم من خلال ذلك الابتلاء المؤمن با لله حقاً، الذي يكون مستعداً لأن يبذل نفسه ومالـه، بالجهـاد في سبيله، ومستعداً لأن يصبر لجميع أنواع الأذى التي يتعرض لها، في سبيل الثبـات علـى ديـن ا لله، وفي سبيل نصرته والدعوة إليه. فهذه المواجهات يعلم بها القوي والصادق في إيمانه ممن هـو ضعيـف أو كاذب في ذلك الإيمان[1].

٣- وقول ا لله عز وجل:

﴿ ألم (١) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يفتنون (٢) ولقد فتنَّا الذين من قبلهم فليعلمن ا لله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين(٣)﴾ العنكبوت.

فهنا ينكر جل شأنه على من يظن أنه يكفيه إعلان إيمانه بقوله، مـن غـير أن يُمتحـن ويُفـتن بأنواع من الابتلاءات التي تَعْرِضُ له بسبب إيمانه. فمن أعلن إيمانه فعليه أن يعلم أنه سـبحانه سـوف يعرّضه لأنواع من الفتن اختباراً لمدى صدقه في ذلك الإيمان واختباراً لمدى تمكّن الإيمان من قلبه[2].

ومثل تلك الابتلاءات المشتملة على علاقات إنسانية شديدة التشابك، وبالغة الدقـة، والـتي تصل إلى حد المجابهة والمقاتلة؛ لا شك أنها تحتاج إلى منهج واضح المعالم لا يحابي أحدا، ويعطـي كـل ذي حق حقه بالقسط والعدل.

ثانيا: تسخير الكون للإنسان، ودلالته على حقيقة الابتلاء:

أ- إن المتدبّر للعلاقة بين الإنسان وبين الكون المشاهد من حولـه، علويـه وسـفليه، بمـا فيه من مخلوقات حية وغير حية؛ لاشك أنه سيستنتج أن هذا الكون عمومـاً قـد سـخره ا لله الخـالق الحكيم لـهذا الإنسان بنوعين عامّين من أنواع التسخير:

النوع الأول: أن كثيراً مما في هذا الكون قد جعله سبحانه سبباً لمصلحة من مصالح الإنسان، التي تتعلق بها أمور معاشه، من غير أن يكـون تحصيـل تلـك الأسـباب معتمـداً أساسـاً علـى مجهـود الإنسان.

وعلى سبيل المثال فإن الشمس قد جعلها سبحانه سبباً لنشر الضيـاء ليتمكّـن الإنسـان مـن العمل، وجعلها أيضاً سبحانه سبباً لكثير من الأمور التي لا تستقيم حياة الإنسان علـى هـذه الأرض

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٦ / ٦١.

(٢) انظر : المرجـع السـابق : ١٢٨/٢-١٢٩. و : شـفاء العليـل في مسـائل القضـاء والقـدر والحكمـة والتعليـل؛ ابـن قيـم الجوزيـة : ٤٠٥ .

إلا بها. وهكذا؛ فكثير مما خلقه ا لله قد جعله سبباً لتحقيق مصالح الناس، وهم قد يجهلونه كليًّا أو يعلمونه شيئاً قليلاً.

النوع الثاني: تذليل بعض هذا الكون للإنسان ليحقق فيه بنفسه وبمجهوده كثيراً من مصالحه التي لا غنى له عنها، كالأرض التي سخرها له سبحانه يحرثها ويبذر فيها زرعه، ومن ثم يحصد ما ينبته ا لله تعالى له فيها. وكالحيوانات التي يستفيد من لحومها وألبانها وأصوافها وظهورها.

ولا يستطيع الإنسان إحصاء نعم ا لله جل جلاله عليه، فيما سخر له من هذا الكون، سواء كان للإنسان جهد فيه، أم لم يكن له فيه أي عمل أو تدخل مباشر.

وتسخير الكون عموماً للإنسان واقتضاء هذا التسخير لحقيقة ابتلاء الإنسان؛ قد جاء بيانه في نصوص عدة من نصوص القرآن الكريم.

ففي إثبات حقيقة تسخير الكون وما فيه للإنسان قال جل شأنه:

﴿ ألم تروا أن ا لله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ... (٢٠)﴾ لقمان.

وقال تبارك اسمه:

﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون(١٢)﴾ النحل.

فالليل سخره ا لله جل ثناؤه للناس ليكون وقت راحتهم، والنهار سخره لهم ليكون فيه معاشهم، والشمس تمدهم بضيائها، والقمر بنوره، والشمس والقمر يكون بهما حسبان الأيام والشهور والسنين، والنجوم سخرها سبحانه ليهتدي بها المسافرون في البر والبحر.

وكل ذلك قد ورد في شأن امتنان ا لله تبارك اسمه على عباده به آيات عديدات في القرآن، وهي أمور قد سخرت للإنسان، ولا يوجد له في إيجاد منفعتها أي جهد، وإنما يكون جهده في تحصيل تلك المنفعة. وبذلك تكون هذه الآية دالة على النوع الأول من نوعي التسخير.

وأما النوع الثاني فمما يدل عليه، قوله تعالى:

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلابشق الأنفس إن ربك لرءوف رحيم (٧) والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون (٨) ﴾ النحل.

فالخيل مثلاً لم تركب إلا بعد أن بذل الإنسان جهداً في ترويضها.

وعموماً فإن على الإنسان أن يتفكر في الحكمة من تسخير ا لله جل شأنه تلك الأمور له.

قال سبحانه:

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون(١٣)﴾ الجاثية.

وبتدبر الإنسان في هذه الأمور المسخرات له؛ يجد أن كثيراً من أعماله الموصوفة بكونها خيراً أو شراً، أي التي يكون فيها مطيعاً لربه أو عاصياً له؛ إنما تظهر من خلال تعامله مع هذه المسخّرات. أي إن هذه المخلوقات لم تسخّر للإنسان إلا ليُختَبر ويُبتلى في استخدامه لها، وهل يكون ذلك منه حسناً أم يكون سيئاً ؟، قال جل شأنه:

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا (٧) ﴾ الكهف.

فجميع ما جعله سبحانه على الأرض مما سخره للإنسان ومما هو من زينة هذه الحياة؛ إنما هيأهُ جلّ شأنه بهذه الكيفية ليحقق حكمة ابتلاء الإنسان وامتحانه، الابتلاء الذي يتبين من خلاله المحسن في عمله من المسيء[1].

ب- ثم إنه ومن خلال واقع الحياة يتبين: أن ا لله سبحانه قد فاضل بين الناس فيما وهبهم إياه، مما جعله من زينة هذه الأرض ومتعها. قال تعالى:

﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعضٍ درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٥)﴾ الأنعام.

فالتفاضل مقصود للحكمة ذاتها المرادة من تسخير هذا الكون بأجمعه، تلك الحكمة التي هي: ابتلاء الإنسان ابتلاءً يتميز بسببه : المحسن في عمله من المسيء. ثم إن ا لله سبحانه سريع العقاب لمن أساء عمله، وهو جل شأنه غفور رحيم لمن آمن وأصلح عمله.

ومن التفاضل الموجود بين الناس تفاضلهم فيما وهبهم إياه سبحانه من الأموال، مما يؤدي إلى أن يكون بعضهم غنيًّا وبعضهم فقيراً. وا لله جل شأنه يبيّن أن هذا التفاضل مقصود كذلك لحكمة الابتلاء، قال جل جلاله في بيان ذلك:

﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن (١٥) وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن (١٦) كلا بل لا تكرمون اليتيم (١٧) ﴾ الفجر.

---

(١) انظر: تفسير فتح القدير؛ الشوكاني: ٣ / ٢٧٠.

﴿ فَقَدَرَ عليه رزقَه ﴾ أي: ضيَّق عليه في الرزق(1).

وقوله تعالى: ﴿ كلا ﴾ ؛ فيه رد على من زعم أن إعطاء المال دال على كرامة المعطى له عند ا لله سبحانه، وعلى من زعم أن التضييق في الرزق دال على هوان المضيّق عليه عند ا لله تعالى، فكلا الزعمين خاطئان، بل الإعطاء والتضييق ابتلاء من ا لله للإنسان، لينظر كيف يعمل في هذه الحال، أو في الحال الأخرى، وهو سبحانه بكل شئ عليم(2).

وكذلك ما يتفاضل به الناس فيما يهبهم إياه جل شأنه من الحكم والسلطان، هو مقصود لحكمة الابتلاء، قال تعالى بشأن سليمان عليه السلام وعرش ملكة سبأ:

﴿ ... فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإني ربي غني كريم (٤٠)﴾ النمل.

وهكذا سائر النعم والمصائب التي يختبر بها ا لله سبحانه عباده ، فإن عليهم أن يدركوا حقيقة كونهم مبتلين بها ابتلاء يقتضي مجازاتهم على حسب أعمالهم. قال جل جلالهُ:

﴿ ... ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون (٣٥) ﴾ الأنبياء.

الأساس الخامس: كون الرب تبارك اسمه غيباً عن عباده المكلفين وآثار ذلك:

أ- أن الله تبارك اسمه حكمة بالغةً في كونه غيبا عن عباده المكلفين، وتتلخص هذه الحكمة في : أنه تعالى قد شاء أن يكون هو جل جلاله أعظم امتحان يمتحن المرء به، أي في إيمانه بربه جل ذكره الإيمان الحق.

ب- وا لله عز وجل إذ قضت حكمته بتغييب عدد من الأمور عن الإنسان، فلا يستطيع أن يدركها بأي من حواسه المادية؛ إلا أنه تعالى مع ذلك قد وهب الإنسان مقدرة على معرفة كثير من تلك الأمور الغيبية، بالاستدلال عليها بما لها من آثار ظاهرة يمكن أن يدركها الإنسان، فينتقل بفكره من الأثر إلى معرفة المؤثر، وإن لم يدركه بحواسه المادية.

جـ- وا لله جل ذكره قد أقام للإنسان الدلائل العقلية والكونية العديدة الدالة عليه، وعلى وجوده وعلى كونه خالقا لهذا الكون بجميع ما فيه، وعلى كونه رب كل شيء ومليكه، وعلى أنه الإله الحق. وغير ذلك من الدلائل العقلية على كثير من الأمور المغيبة.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤ / ٥٠٩.

(٢) انظر: المرجع السابق. الموضع نفسه.

ولكن مع ذلك كله فإنه يوجد من الناس من لا يلتفت إلى تلك الدلائل ولا يتدبرها، أو يجحدها رغم ظهور الحجة فيها، وبهذا تتحقق حكمة امتحان الإنسان في حقيقة إيمانه بربه جل ثناؤه، وبسائر أمور الغيب.

فالإنسان لا يمكن أن يكفر بالأمر المشاهد وإلا لم يعد من العقلاء، فإذا كان يرى الله جل جلاله فإنه لا يعقل أن يكفر به ، ومن ثم فإن ظهور الرب سبحانه في هذه الحياة ينقض حكمة ابتلاء الإنسان التي خلق من أجلها[1].

د- ولكن لما كان الرب عز وجل غيبا عن الإنسان ؛ فإن هذا سيظهر حتما كل جاحد، أو في إيمانه شك أو خلل، إما بضعف إيمانه بالله تبارك اسمه، وإما بإشراكه به سبحانه، وإما بكفره المطلق بالله عز وجل وبما أخبر به. أما المؤمن راسخ الإيمان فإنه سواء غُيِّب عنه إلهه وخالقه وغُيِّب عنه ما أخبر به؛ أم لم يغيب شئ من ذلك، فإن إيمانه بالله تعالى وآياته لا يمكن أن يعتريه شك أو شبهة، فهو يخشى ربه بالغيب كما يخشاه بالمشاهدة.

هـ- ونظراً لأهمية ابتلاء إيمان الإنسان بالغيب، فقد ورد في القرآن تقديمه على كثير من صفات المؤمنين المتعددة. قال سبحانه في أول سورة البقرة وفي أول وصف للمتقّين، الذين هم الأهل لأن يهتدوا بكتابه:

﴿ الم (١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) ﴾ البقرة.

وعندما حرّم سبحانه على المحرم قتل الصيد؛ أخبر بأنه سيبتليه بأن يوجد حوله ما يمكن له أن يصطاده بيسر وسهولة، وذلك ليعلم -وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء- من يخشاه بالغيب حق خشيته، ومن لا يخشاه، فيصبح معرضاً للعذاب الأليم. قال جل شأنه:

﴿ يا أيها الذين ءامنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم (٩٤)﴾ المائدة.

و- ثم إن الفرق بين مَن يؤمن بالغيب ومَن لا يؤمن به ؛ أن المؤمن بالغيب: لا يقف عند حدود ظواهر ما يشاهده في هذا الكون، وإنما ينتقل بتفكيره إلى أساس وجود هذا الكون ومصدره، وإلى النظام الذي يحكمه، وإلى الغاية التي خلق من أجلها الكون بصفة عامة، والإنسان

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة؛ ابن قيم الجوزية: ١ / ٤.

بصفة خاصة، فيؤدّي به إلى الإيمان با لله سبحانه خالق هذا الكون، والإيمان بحكمته البالغة، ومن ذلك حكمته في كونه غيباً عن الإنسان، وحكمته في سائر أفعاله وأقواله وأقضيته، تلك الحكمة المستلزمة لأن يكون الإنسان مبتلى في هذه الحياة من قِبَل ربه عز وجل، ابتلاءً مستتبعاً بالجزاء يوم الدين. ويكون إيمانه بذلك كله يقينياً راسخاً على الرغم من أنه إيمان بالغيب.

أما غير المؤمن فإنه يقف عند حدود ظواهر الأشياء، دون إرادة منه للتفكر في غاياتها، ليس لأنه لا يستطيع هذا الأمر، فإن ا لله قد مكّنه منه كما مكّن المؤمن، وذلك لأن النوع الإنساني عموماً متفق على استخدام الاستدلال بالأمر المشاهد على الأمر الغيبي، وأنّه قد يفيد اليقين، ولكن الكافر بالغيب الذي جاء إثباته في دين ا لله المنزل؛ قد توقف في استدلالاته بالأمور المشاهدة على الأمور الغيبية عند حدود العلوم الكونية الدنيوية، لأنه لا يريد إلا الحياة الدنيا والتمتع بزينتها، ولا يريد التفكير فيما وراء ذلك، يقول جل شأنه في بيان غفلة أكثر الناس عن الآخرة:

﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٧) ﴾ الروم.

فالآية تبين التلازم بين من يقف عند حدود ظواهر الأشياء ولا يتفكر في غاياتها ولا فيما وراءها، وبين إنكار اليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ، الذي هو أمر غيبي، به تكتمل الغاية من خلق الإنسان في هذه الحياة، كما دل عليه قوله جل شأنه في الآية التي بعدها:

﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق ا لله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون (٨) ﴾ الروم[١].

فالإيمان بالغيب هو الأساس الأول الذي يفرِّق بين من عنده استعداد للإيمان الحق ؛ وبين من عنده رفض داخلي لمثل ذلك الإيمان.

الأساس السادس: ثبوت حقيقة تكليف الإنسان:

أ- إن ثبوت حقيقة ابتلاء الإنسان في هذه الحياة يؤدي إلى: ثبوت كونه مكلفا من قِبَل من ابتلاه جل جلاله . إذ من مقتضى الحكمة: أن كل من يختبر غيره فلا بد أن يوجد منهجاً يتم على أساسه هذا الاختبار والامتحان.

ب- وعليه فمن المسلم به أن يكون واضع ذلك المنهج هو من وضَع الإنسان موضع الابتلاء والاختبار جل شأنه. أي أن ا لله تبارك اسمه له وحده الحق في وضع المنهج الذي ينبغي أن

---

(١) انظر: المرجع السابق: ٢١/٥٤. وانظر: الكون والإنسان في التصور الإسلامي؛ حامد صادق قنيبي: ٥٢، ١٠٨.

يسير على وفقه البشر خلال رحلة ابتلائهم. فهو جل جلاله يضع المنهج ومن ثم يبينه للإنسان الممتحن، وهو بعد هذا إن شاء التزم منهج ربه فكان من الفائزين، وإن شاء خالفه فكان من الخاسرين. وبهذا يتم اختبار الإنسان من خلال تمسكه بمنهج ربه جل وعلا، أو رفضه له.

جـ- وعلى الرغم من أن ما سبق يكاد أن يكون بدهيا؛ إلا أن الإنسان كثير الجدل كما وصفه ربه عز وجل بقوله:

﴿ولقد صرفنا في هذا القرءان للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا(٥٤)﴾ الكهف.

فهذا الإنسان قد يجادل فيمن له الحق في وضع منهج ذلك الاختبار والامتحان، ويطالب بأن يكون له هو نفسه الحق الخالص في وضع منهج ذلك الاختبار، دون ربه عز وجل الذي وضعه في ذلك الاختبار والابتلاء!!.

ولمناقشة من يظن مثل هذا الأمر فإنه يبين له:

أن الإنسان وإن كان قد وهبه الله سبحانه فطرة صالحة ميَّالةً إلى كل خير، ومكّنه من التمييز بين العديد من الأعمال الحسنة والأعمال السيئة، إلا أنه نظراً لوجود دواعي الأهواء والشهوات التي لها على النفس تأثير كبير، فقد يلتبس على الإنسان في مسيرة حياته الحق بالباطل، فلا يستطيع التمييز بينهما. ولما كان الإنسان حرّ الإرادة مسخّراً له الكون، فإنه قد يختار سلوك سبيل تحقيق أهوائه وشهواته الجامحة ، وإن اقترف في سبيل تحقيقها الآثام والشرور، وإن بغى واعتدى وظلم غيره من الناس، وقد لا يرى في ذلك غضاضة إذ يظن أن سبيله هذا هو السبيل الواجب الاتباع، لكونه يحقق له رغباته وشهواته تلك، وهذا ما حصل بالفعل في حياة البشر.

وقد يقال : بأن البشر يمكنهم أن يضعوا لأنفسهم منهجاً، يضبطون به تصرفاتهم وفق حدود معيّنة، ويجاب عن هذا بأن الخيبة هي مصير أي منهج بشري يوضع في سبيل ضبط أعمال الناس وفق حدود معينة، وذلك لأسباب من أهمها:

١- أن ذلك المنهج لا يراعي غالباً مصالح جميع الناس، بل هو يراعي في المقام الأول مصالح واضعيه وإن أتت على حساب بقية الناس.

٢- أن واضعي المنهج هم قلة من البشر مهما بلغوا فعملهم لابد أن يكون ناقصاً، بحيث يظهر ذلك النقص بعد زمن يسير من تطبيقه.

٣- أن القائمين على وضع ذلك المنهج إن استطاعوا أن يحملوا الناس على تطبيقه بقوة السلطان، فإنهم لن يستطيعوا أن يحملوهم على محبته، وبالتالي فإن كثيراً من الناس سوف يبحثون عن الطرق التي يخالفون بها ذلك النظام ، دون أن يتعرضوا للعقوبة ، وإذا أمكن إقناع فريق من الناس بمحبة منهج وضعي لمدة من الزمن ، بحجة تحقيقه لمصالحهم ، فإنه بعد اكتشاف عيوب ذلك المنهج وسقوطه، وبعد تكرار وضع مناهج متعددة تنتهي إلى مثل النتيجة السابقة نفسها؛ يصبح الشعور الأول لدى غالبية الناس هو الشك في أي منهج يوضع لتنظيم حياتهم ، وعدم احترامه، ومن ثم البحث فوراً عن تلك الطرق التي يستطيعون بها مخالفة هذا المنهج الجديد ، بأمان من أي سلطة دنيوية .

هذا في علاقة البشر بعضهم مع بعض ومع الكون من حولهم، وأما علاقتهم بربهم عز وجل، فإن البشر إذا كانوا لم يستطيعوا أن يوجدوا منهجاً يحكمون به علاقتهم بعضهم ببعض؛ فكيف يستطيعون أن يوجدوا منهجاً لعلاقتهم بخالقهم، على الوجه الذي يرضيه جل وعلا؟!.

إن الموقنين بوجود خالق لهذا الكون يعتقدون - إلا من ندر منهم - بأن لهذا الخالق جل وعلا عبادات يجب عليهم أن يؤدّوها نحوه، ولكن ما هي تلك العبادات التي ترضيه؟.

إن تحديد تلك العبادات لو ترك للبشر لأدى إلى أن يكون لكل مجموعة من الناس طريقة تؤدي بها تلك العبادة ، تتعصب لها ضد طرق الآخرين، وربما وقع بينهم التناحر والقتال من أجل ذلك ، دون أن يكون لأحد منهم الدليل الصحيح على أن طريقته تلك هي الطريقة الحقة ، بل قد تكون جميع تلك الطرق طرقاً باطلة لا يرضى عنها الرب جل شأنه. وهذا ما حصل لدى الأديان الوضعيه أو المحرّفة.

وقد حصل أمر آخر لدى تلك الأديان؛ وهو عدم توحيد الخالق سبحانه في ربوبيته أو إلهيته، فيعبدون معه سبحانه، أو من دونه؛ آلهة أخر بأي نوع من أنواع العبادة، دون أن يكون لديهم دليل حق على أن الله تعالى قد أمر بعبادتها أو أنه أباح ذلك، هذا على الرغم من ميل العقل المنصف إلى أن المتفرّد بالخلق يجب أن يكون متفرّداً بالإلهية جل شأنه.

د- فالبشر ذوو إرادات حرة وذوو أهواءٍ وشهوات، وهي كثيراً ما تميل بهم إلى فعل الشرور والمنكرات والبغي والظلم، والبشر كذلك غير قادرين على وضع منهج لهم يضبطون به تصرفاتهم ضمن حدود الخير، وهم من باب أولى غير قادرين على وضع منهج لعلاقتهم بربهم عز وجل. وبناء على ذلك فقد يقول قائل: إنه سبحانه قد خلق البشر بالكيفية التي أدت إلى تلك

النتيجة دون أن يكون منه تعالى أيّ بيان لأي منهج يكون به صلاح علاقة البشر بعضهم مع بعض، ومع الكون من حولهم، وصلاح علاقتهم بربهم عز وجل!.

ولكن هذا التقدير لا تجوز نسبته إلى الله سبحانه، لأن النتيجة التي تحصل من ورائه تتعارض مع صفة الحكمة الثابتة لله تعالى، إذ كيف يجوز تصوّر أن الله جل شأنه الحكيم في فعله وقضائه؛ قد ترك الإنسان من غير هداية واضحة المعالم، حتى يخبط في الكون خبط عشواء، فيؤدي به ذلك إلى كثير من المفاسد والشرور والآثام، بقصد منه لها أو بغير قصد. فإذا لم تجز نسبة هذا التصور إلى الله عز وجل، لم يبق إذاً إلا أن يقال : إن حكمته تعالى تقتضي أن ينزل جل وعلا على عباده منهجاً يكلّف العباد أن يطبقوه، ويكون واضح المعالم، ينظّم علاقة بعضهم ببعض، ومع الكون من حولهم ، ويبينّ لهم كيف يعبدونه جل جلاله العبادة التي ترضيه، منهجاً إذا طبّقُوه على أكمل وجه لم يَبْقَ مجالٌ لحدوث شرٍ أو إثم أو ظلم أو كفر على هذه الأرض(١).

والمؤمن حقاً بالله تبارك اسمه وبحكمته البالغة؛ لابد أن يقوده إيمانه هذا إلى اليقين الجازم بأن الله سبحانه لا يتصور في حقه أن يخلق العباد على الصورة التي هم عليها لمجرد أن يتركهم هملا، دون أمر ولا نهي، (أي: منهج يسيرون بحسب مقتضاه)، ودون ثواب ولا عقاب. وهذا الإيمان يحصل عند من يقدر الله حق قدره ولو لم ترد النصوص المثبتة لمقتضى هذا الإيمان.

هـ- إن مما يؤكد الحقيقة السابقة: ما ورد في النصوص من الإنكار على من زعم أنه تعالى قد خلق هذا الخلق عبثاً، بلا غاية ولا هدف، فتركهم سدىً لم يأمرهم بشيء، ولم ينههم عن شيء، ولن يتبعَ أعمالهمَ بأي حساب ولا جزاء (٢). وقد أنكر سبحانه ذلك باعتبار أنه نقص يجب أن ينزّه تعالى عنه كما ينزّه عن سائر العيوب والنقائص ، والمؤمن بالله تعالى وبأسمائه وصفاته الإيمان الحق يدرك ذلك ويعلمه، قال جل شأنه:

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب (١٩٠) الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار (١٩١) ﴾ آل عمران.

---

(١) انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل؛ ابن قيم الجوزية: ٤٣٨. و: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية؛ عبد الكريم زيدان: ٣٩-٤٣. و: عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم؛ محمد أبو النور الحديدي: ١٢-٢٤. و: الرسل والرسالات؛ عمر سليمان الأشقر: ٢٩-٣٩.

(٢) انظر بدائع الفوائد؛ ابن قيم الجوزية: ٤ / ١٦٤-١٦٥.

فهذا ثناء من الرب سبحانه على عباده الذين تدبروا في خلقه للسماوات والأرض، وتدبّروا ما في ذلك الخلق من دلائل وصف ا لله تعالى بكمال الحكمة، مما أوصلهم إلى الشهادة لله جل جلاله بأنه لم يخلق السماوات والأرض باطلاً بل خلقهما بالحق ، و لما علموا ذلك وشهدوا به؛ علموا أن خلقهما يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه فذكروا في دعائهم هذين الأمرين فقالوا:

﴿ ... ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار (١٩١) ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار (١٩٢) ﴾ آل عمران.

فكانت ثمرة تفكرهم في خلق السماوات والأرض الإقرار به تعالى وبوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه...[(١)].

وأما من كان في إيمانه با لله تعالى وبأسمائه وصفاته خلل؛ فإنه قد يظن جواز وقوع شيء من الباطل في فعله سبحانه أو قضائه، فيعتقد أنه جل شأنه لا يعنيه أمر خلقه، ومن الجائز أن يتركهم سدىً فلا يكلفهم ولا يجازيهم، وهذا اعتقاد باطل، وقد قال سبحانه في الإنكار على من ظن هذا الظن الكاذب:

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦) ﴾ القيامة.

ويلاحظ: أنه تقدست أسماؤه قد أنكر أن يكون خَلَقَ الخَلْقَ سدىً لامن جهة الإخبار المحض، بل إنه سبحانه أنكره إنكار (من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه، وأنه لا يليق أن ينسب ذلك الكلام إلى أحكم الحاكمين)[(٢)].

ثم ذكر سبحانه بعد قوله ﴿ أيحسب الإنسان ...﴾: الأطوار التي جعل الإنسان يتقلّب فيها حتى يبلغ الكمال ، ذكراً كان أم أنثى ، من وقت أن كان نطفة لا حياة فيها، إلى أن أصبح كائناً حيّاً مكتمل النمو حسن الخلقة، قال جل شأنه:

﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى (٣٧) ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩) ﴾ سورة القيامة.

فمن تدبّر ما في الأطوار التي يتقلب فيها الإنسان عند خلقه من حكم عظيمة، وآيات باهرات، أدرك أن خالق هذا الإنسان إله كامل الحكمة والعلم والقدرة، ولذلك فإنه يستحيل أن يترك هذا الإنسان سدى، إذ هو مناقض للحكمة، بل لابد أن يكون قد جعله مكلّفاً في هذه الحياة، مجازى على تكليفه في حياة أخرى[(٣)].

---

(١) انظر: المرجع السابق: ٤/١٦٦.

(٢) مفتاح دار السعادة؛ ابن قيم الجوزية: ٢ / ١٢. وانظر: ١ / ٧.

(٣) انظر: المرجع السابق: ٢/ ١٢. و: تفسير الطبري: ٢٩/٢٠٠-٢٠١. و: مجموع فتاوى ابن تيمية: ٨/٥٢، ١٦/٢٩٩، ١٧/١٧٤. و: بدائع الفوائد؛ ابن قيم الجوزية: ٤ / ١٦٥-١٦٦. و: شفاء العليل: ٣٦٧. و: التبيان في أقسام القرآن: ١٠١-١٠٢. و: تفسير ابن كثير: ٤/٤٥٢. و: في ظلال القرآن؛ سيد قطب: مج: ٦/٩/٣٧٧٣-٣٧٧٤. و: تفسير سورة القيامة؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني، ضمن كتاب: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٢/٥١٧ - ٥١٨.

اقتضاء حكمة الرب جل جلاله إنزال تشريع يكلف البشر أن يتبعوه:

إن اقتضاء حكمة الرب جل جلاله إنزال تشريع يكلف البشر أن يتبعوه ، قد أصبح واضحا جليا بعدما تم بيانه في الأسس السابقة.

ولما كان الرب تبارك اسمه متصفا بالحكمة على أكمل وجوهها، وكانت صفات الإنسان الذي خلقه الرب الحكيم تبارك وتعالى ؛ كلها تؤكد حقيقة كون الإنسان مبتلى في هذه الحياة، وكون أي تشريع بشري وضعي لابد أن يتصف بالنقص والقصور ، بل والميل لصالح فريق من الناس ضد فريق آخر، على خلاف مقتضى الحق والعدل، مما يؤدي إلى فشله ضرورة، طال الزمن أو قصر؛ فإن ذلك كله يؤكد الحقيقة السابقة، إذ يتنافى وحكمة الرب العليم سبحانه أن يترك البشر سدى من غير أن ينزل إليهم منهجا، يحكم حياتهم وتصرفاتهم بصفة عامة، ويكلفهم اتباعه وتطبيقه، ولاسيما أنه تعالى لم يخلق البشر كالحيوانات العجماوات مسيرين وفق غرائز مضبوطة.

ولما كانت حكمة الرب تبارك اسمه قد اقتضت أيضاً -كما هو ظاهر- أن يكون هو جل ثناؤه غيبا عن عباده، إتماما لظروف ابتلاء البشر في هذه الحياة؛ فإن أحكم وسيلة لإيصال ذلك المنهج تتحقق بإرسال رسول يختاره الرب جل جلاله، ليبلغ البشر المنهج الرباني بكل أمانة ودقة وإخلاص.

وقد اختار الله أن يجعل الرسول الذي يبلغ عنه من البشر أنفسهم، فاعترض بعض الذين كفروا وطالبوا أن يكون الرسول ملكاً من الملائكة، لكن طلبهم قد كان من باب التعنت ، كما حكى الله تبارك اسمه اعتراض قوم نوح عليه السلام في قوله:

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون (٢٣) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين (٢٤) ﴾ المؤمنون.

إلا أن كل عاقل منصف يدرك حتما أفضلية أن يكون الرسول من جنس البشر ، لأنه أقرب إليهم من جهة ، ولئلا يعتذر أحد بأن ما جاء به الرسول لا يمكن أن يقوم به البشر، فاقتضت الحكمة اختيار الرسول البشري عليه السلام، الذي يقوم بتطبيق كل ما جاء به على نفسه أولا، ومن ثم لا يبقى للبشر عذر بعدم المقدرة على تطبيق المنهج الرباني . ومن ثم فإن كون الرسول بشرا يجعله محل قدوة للبشر جميعا يتأسون به ويهتدون بأفعاله وأقواله .

وثمة أمر آخر، وهو أن بشرية الرسول عليه الصلاة والسلام تجعل ما يأتي به من الآيات أقرب إلى قبول كونها تصديقاً من الله جل جلاله له، في كونه رسولا منه إلى البشر ، إذ لو كان ملكا؛ لأمكن أن يقال إن ما يأتي به وإن كان مستحيلا على البشر ، ولكنه من مقدور الملائكة عليهم السلام.

ثم إن الرسول لو كان ملكاً ؛ فلا يمكن أن يُرى – حسب ما وهبه الله تبارك اسمه للبشر من قدرات – على هيئته الملكية ، فلابد أن يجعله على صورة رجل، ويرجع الالتباس مرة أخرى. قال تبارك اسمه:

﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون (٩) ﴾ الأنعام.

وقد سبق بيان أنّ حكمة الرب تبارك اسمه اقتضت أنْ توجد أمور يكون من خلالها ابتلاء البشر واختبارهم بمدى إيمانهم بالعديد من الحقائق بعد تغييبها عنهم[١]، وأنه لو انكشفت الحقائق كلها فلا يمكن لعاقل أن يكفر بعدئذ، ومن المعلوم أن الملائكة هم أحد الأركان الإيمانية التي يمتحن البشر بالإيمان بها غيبا، وهذا يتعارض مع جعلهم رسلا يراهم البشر عياناً[٢].

استدلالات ابن قيم الجوزية على إثبات النبوات:

ذكر رحمه الله تعالى في كتابه مدارج السالكين عدة استدلالات على إثبات النبوات منها:

١) أن إثبات الحمد التام لله جل جلاله يقتضي أن لا يخلق خلقه عبثا، ولا يتركهم سدى، لا يؤمرون ولا ينهون، ولذلك نزه الله سبحانه نفسه عن هذا، وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة، أو قال ما أنزل الله على بشر من شيء؛ فإنه ما عرفه حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه، ولا قدره حق قدره، كما قال جل شأنه:

﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء...(٩١)﴾ الأنعام.

فإعطاء حمد الله حقه الكامل؛ يقتضي استنباط شهادة: (أن محمدا رسول الله)، كما يقتضي استنباط شهادة (أن لا إله إلا الله)، ومن آمن بحمد الله التام علم قطعا أن تعطيل النبوات مناف للحمد، كتعطيل صفات الكمال، وكإثبات الشركاء والأنداد.

٢) أن إثبات الإلهية للرب عز وجل وتفرده بها يستلزم عبوديته تبارك اسمه وطاعته، ولا سبيل إلى معرفة ما يعبد به ويطاع إلا من جهة رسله عليهم السلام.

---

(١) انظر: ما سبق: ٩٦-٩٨.

(٢) انظر: تلبيس إبليس؛ ابن الجوزي: ١/٨٣ – ٨٤.

٣) أن إثبات كمال الربوبية لله عز وجل وتفرده بها؛ يقتضي أن يأمر الرب عباده بأمور وينهاهم عن أمور، وأن يجزي محسنهم بإحسانه، ومسيئهم بإساءته، وهذا كله لا يتم إلا بالنبوة والرسالة.

٤) أن من كمال الرحمة الثابتة لله تبارك اسمه أن يعرف عباده بنفسه وصفاته، ويدلهم على ما يقربهم إليه، ويباعدهم منه، ويثيبهم على طاعته، ويجزيهم بالحسنى، وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة، وبهذا تكون رحمة الله جل شأنه مقتضية لها.

٥) أن كمال صفة الملك لله جل جلاله يقتضي إثبات كمال التصرف له في خلقه بالقول والفعل، والتصرف بالقول نوعان: تصرف بالكلمات الكونية، وتصرف بالكلمات الدينية، وكمال الملك بهما. وبهذا فإن إرسال الرسل عليهم السلام موجب كمال سلطانه وملكه، إذ هم السبيل لإيصال كلمات الله جل ذكره الدينية إلى خلقه.

٦) أن الإيمان بالجزاء في الدار الآخرة حقا لا يكون إلا بعد إثبات الرسالة والإيمان بها، إذ بها تقوم الحجة التي يدان بسببها المطيع والعاصي.

٧) أن من آمن بأن الله تعالى يهدي عباده إلى صراط مستقيم، وعلم أنه تبارك اسمه لم يخلق عباده مجبورين على الطاعة والانقياد؛ فلم يبق بعد هذا من سبيل لإيصال تلك الهداية إلى البشر إلا سبيل الرسل عليهم السلام[1].

---

(١) استنبط ابن قيم الجوزية هذه الاستدلالات وغيرها من سورة الفاتحة. انظر: مدارج السالكين: ١ / ٦٨- ٧٠.

المبحث الثاني: الحكمة من بعث الأنبياء والرسل عليهم السلام.

مما سبق يتبين : أن الحكمة الأساس والغاية العظمى لبعث الأنبياء والرسل عليهم السلام هي: أنهم السبيل لنيل السعادة الأخروية والدنيوية، إذ لا ينال رضى ا لله تبارك اسمه إلا من جهتهم، ولا ينال الهدى إلا من خلال ما جاءوا به ، ولا يعرف الطيب من الخبيث في الأقوال والأعمال على التفصيل إلا من جهتهم، وهذا بالنسبة لما يعود على المرء بالنفع أو الضر في معاشه ومعاده. وأما الأمور المادية الدنيوية؛ فإن الشرع قد جاء في معظمها بقواعد عامة، والإنسان في كثير منها قد يدرك النافع من الضار ولو عن طريق التجربة، وحتى الحيوان له شيء من هذا الإدراك، فالجمل -على سبيل المثال- قادر على التفريق بين الشعير والتراب.

وعلى الرغم من هذا ونظرا لغلبة الشهوة على كثير من بني آدم؛ فإن الإنسان قد يقدم على ما فيه مضرته المادية الدنيوية، مقدما عليها لذة عابرة عاجلة، وقد يغالط نفسه والآخرين حتى يجعل الضار حسناً، أو يغلب وجوه الحسن المرجوحة على وجوه الضرر الراجحة، تحقيقا لتلك اللذة العاجلة، وقد يظن أنه إن لم يسارع إلى تحقيق أكبر قدر من الشهوات -مهما جرت عليه من أنواع البلاء- فإن الفرصة ستفوته، ولن يمكنه تدارك الأمر أبدا. ومثل هذه الأمور قد تناولها الشرع إما بالتفصيل في بعضها، وإما بإعطاء قواعد وأحكام كلية تشمل مختلف الصور التفصيلية. ثم هو يقرن هذه الأحكام بالعقائد التي تعتبر أسسا لها من جهة، وداعمة لتطبيقها من جهة أخرى.

فالعقل وإن كان ا لله جل جلاله قد فطره على إدراك الفرق بين العديد من الأمور الحسنة والقبيحة؛ إلا أنه يعتريه النقص والقصور من نواح عدة منها:

١) أنه توجد أمور هي من أعظم ما يجب على الإنسان أن يعلمه على وجه الصواب ولا يستطيع أن يصل إلى هذا بمجرد عقله، ومن أمثلة هذه الأمور: تفاصيل صفات الرب عز وجل، وتفاصيل ثوابه وعقابه ، وكل ما يتعلق بعالم الغيب، مما يطالب الإنسان بالإيمان به، وقد يحار العقل في كثير من تلك التفاصيل فتأتي الرسالات الربانية وتبين له الحق كاملا ومفصلا.

٢) أن كثيرا مما يدرك العقل حسنه أو قبحه؛ لا يدركه إلا على سبيل الإجمال دون التفصيل.

٣) أن العقول قد تحار في حكم الفعل الذي قد يحسن للبعض ويقبح للبعض الآخر، وقد يحسن في وقت دون وقت، وكذلك في حكم الفعل الذي قد يكون مشتملا على مصلحة ومفسدة، فيجيء الشرع ويبين لها الحق والراجح واضحا جليا.

٤) أن ما يتوصل إليه العقل من الحق ليس له من الثبات في نفوس البشر والاستمرار في التاريخ كالذي يأتي الشرع بإقراره، إذ سلطانه على عقول أتباعه وقلوبهم أعظم من سلطان العقل بمجرده على من يزعمون أنهم أتباع العقل وحده.

٥) أن العقل وإن ترجح لديه أن الحسن في صفة أو قول أو فعل؛ إلا أنه قد يرجح الانقياد وراء ما هو قبيح في حقيقته، نظرا لعارض من مصلحة عاجلة أو نحوها، وبدون هداية الرسل فإن مثل هذا الأمر قد يصل إلى الدرجة التي تنقلب عندها الموازين فيصبح الخير قبيحا، والشر حسنا. ولا سيما أن مقياس العقل عندئذ يكون ماديا دنيويا، تغيب عنه الآخرة والجزاء فيها. وهذا ما هو معلوم ظاهر في المدنية المادية المعاصرة.

فالإنسان عنده شهوات كثيراً ما تجمح به وتجعله يرتكب الخطأ، وهو يعلم مضرته عليه أو على غيره ، وهذه الشهوات كثيرا ما تؤدي بأتباعها إلى النتيجة السابقة المؤدية إلى قلب الموازين، ولا يخفى استحسان كثير من البشر للخمر ومحاولاتهم المكشوفة إخفاء مضارها الظاهرة.

ومثل الشهوات: الأهواء، فهي كثيرا ما تميل بأحكام العقل، وتقلب موازين الأحكام، ومثال هذا: ميل هوى الإنسان نحو قرابته أو قومه أو طبقته ، أو من يمت إليه بأية صلة، وقد يصل به الأمر إلى الحد الذي يجعله يسن القوانين التي تغلب مصلحة أيّ من هؤلاء على بقية البشر، دون الاحتكام إلى ميزان العدل الصحيح، وهذا واضح ظاهر فيما فعلته الرأسمالية بميلها الجائر إلى طبقة الأغنياء، أو الشيوعية بميلها المزعوم الجائر في أحكامها إلى طبقة العمال والصناع ، وإن كانت في تطبيقاتها قد مالت ميلا جائرا آخر بعيدا عما ادعته.

وقد أصبحت تلك الأحكام الجائرة قوانين سلطت على رقاب البشر بالقوة المادية المباشرة وغير المباشرة.

وأما الأحكام الربانية المنزلة على أنبيائه ورسله فهي منزهة عن عوارض الأهواء والشهوات، وهي لا تحابي أحدا ضد أحد، وإنما البشر في أصلهم أمامها سواسية.

٦) أن الإنسان كثيرا ما تتعرض لديه الموازين الفطرية العقلية والنفسية للخلل، إما بسبب التربية السيئة أو المحيط السيئ ، أو بسبب بعد العهد عن الرسالة الربانية المنزلة. قال صلى الله عليه وسلم:

"ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء"[1].

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقد سبق تخريج الحديث، انظر: ٨٢.

فالرسل عليهم السلام يبعثهم الله تبارك اسمه ليعيدوا الناس إلى جادة الصواب، وما علم أن أحدا أعاد الناس إلى العقيدة الربانية الصحيحة إلا إذا كان نبياً أو تابعاً لنبي.

٧) أن عقول البشر تتفاوت في إدراكاتها، ومن ثم فهي تتفاوت في الحكم على الأشياء، فقد يستحسن عقل ما يستقبحه عقل آخر، ومن ثم تأتي الرسالة الربانية بالحكم الفصل. وكل منصف يعلم أن تسليم العقل المؤمن لشريعة الله جل جلاله أشد تثبيتا وأطول مدة من تسليم عقل لعقل بشري آخر.

٨) أن العقل لابد أن تتعرض أحكامه لكثير من أنواع القصور في العديد من القضايا، إما من ناحية استيعاب الحالات، أو من ناحية الاستيعاب الزماني، أو الاستيعاب المكاني، ونحو هذا....

٩) أن الشرع عندما يأتي ويبين للعقل الأحكام الصحيحة؛ فإنه يوفر عليه الوقت ليشتغل فيما هو أنفع له وأجدى، وحتى لا تضيع منه أزمنة مديدة وهو يتنقل بين الأحكام المختلفة لعله يصل إلى الصواب في شيء منها[1].

---

(١) انظر لما سبق : أعلام النبوة ؛ الماوردي: ٣٧. و: شرح الأصول الخمسة: ٥٦٥. و: غاية المرام في علم الكلام؛ الآمدي: ١/٣٢٦. و: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين؛ الرازي: ١٥٦،١٥٧. و: مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢/ ٣١٢، ١٩/ ٩٣- ٩٦. و: مفتاح دار السعادة؛ ابن قيم الجوزية: ٢/ ٢، ١١٥-١٢١. و: زاد المعاد؛ ابن قيم الجوزية: ١/ ٦٩. و: شرح العقائد النسفية؛ سعد الدين التفتازاني: ٨٥- ٨٦. و: لوامع الأنوار البهية؛ السفاريني: ٢/ ٢٥٦، ٢٥٩-٢٦٣. و: عصمة الأنبياء؛ محمد أبو النور الحديدي: ١٥- ٢٥. و: الرسل والرسالات؛ عمر سليمان الأشقر: ٣٤ - ٣٧.

الفصل الثالث : حقيقة الوحي

ويشتمل على :

المبحث الأول : الوحي لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني : طرق وصور الوحي.

المبحث الثالث : الوحي وكلام الله عز وجل.

المبحث الأول: الوحي لغة واصطلاحاً.

الوحي لغة:

جاء في كتب اللغة أن من معاني الوحي:

الإشارةَ والكتابةَ والرسالةَ والإلهامَ والكلامَ الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليَعْلَمَه يقال: وحيت إليه الكلام، وأوحيت. ووحى وحيا وأوحى أيضاً، أي: كتب. والوَحْي: المكتوب والكتاب أيضاً. وعلى ذلك جمعوا فقالوا: وُحِيّ، مثل: حَلْيٍ وحُلِيّ، ويقال: وَحَيْت الكتاب وَحْياً، فأنَا واح.

وأوحى إليه: بعثه. وأوحى إليه. ألهمه.

قيل : وتأتي وَحَى بمعنى: كتب، ووحى إليه وأوحى: كَلَّمة بكلام يُخفيه عنْ غَيْره، ووَحَى إليه وأَوْحَىُ: أَوْمأَ، ومنه قوله تعالى:

﴿ ... فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا(١١) ﴾ مريم.

قيل: أشار إليهم.

قيل: والعرب تقول: أوحى ووحى، وأومى وومى، بمعنى واحد، ووحى يحي، وومى يمي.

يقال: وحيت إليه بالكلام أحي إليه، وأوحيته إليه، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه عن غيره.

ويقال: أوحى الرجل: إذا بعث برسول ثقة إلى عبد من عبيده ثقة.

وأوحى أيضاً: إذا كلم عبده بلا رسول.

وذكر أهل اللغة الوحي بمعناه الشرعي، ومما قالوه في شأنه:

إنه ما يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام، قيل: سمي وحياً: لأن الملك أسره على الخلق، وخص به النبي المبعوث إليه، عليه السلام.

وقول الله عز وجل:

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١١٢) ﴾ الأنعام.

معناه: يسر بعضهم إلى بعض.

وقد ذكروا أن الوحي يكون للإلهام، وللأمر، وللإشارة.

ومن الإلهام قوله تعالى:

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون(١١١)﴾ المائدة.

قيل معناه: ألهمتُهم، وقيل هذا كقوله تعالى:

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨)﴾ النحل.

وقيل في معنى قوله :

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ... ﴾.

أمرتهم، وقيل غير ذلك.

وقد ذكر أن أصل الوحي في اللغة: إعلام في خفاء، ولذلك صار الإلهام يسمى، وحيا، وكذا الإشارة والإيماء والكتابة والرسالة.

يقال: وحيت لك بخبر كذا، أي: أشرت وصَوَّت به رويداً.

ويقال:وحيت إلى فلان أَحِي إليه وَحْيا، وأَوْحَيْت إليه أُوحي إيحاءً، إذا أشرت إليه وأومأت.

وقد ورد في هذه المادة أيضاً: الوَحَى: وهو بمعنى العجلة، يقولون: الوَحَى الوَحَى، والوَحَاء الوَحَاء، يعني: البدار البدار، أي: الإسراع.

يقال: توح يا هذا في شأنك: أي: أسرع، ووحاه توحية: أي: عجله. وقد وحى وتوحى بالشيء: أي: أسرع، وشيء وحي: عجلَ مسرع.

وقد غلب استعمال الوحي فيما يلقى إلى الأنبياء عليهم السلام من عند ا لله تعالى[1].

ومن أجل وجود السرعة في مادة هذه الكلمة؛ فقد ذكر الراغب الأصفهاني أن أصل الوحي هو: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام، على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة.

---

(١) انظر: الصحاح: (وحي)/ ٢٥١٩/٦-٢٥٢٠. و: ترتيب القاموس المحيط: (وحى)/ ٥٨٥/٤. و: لسان العرب، (وحى)/ ٢٥٧/٢٠-٢٦٠. و: المصباح المنير؛ الرافعي: (وحى)/ ٦٥١/٢-٦٥٢. و: مفردات ألفاظ القرآن؛ الراغب الأصفهاني: (وحى)/ ٨٥٨ - ٨٦٠. و: عمدة الحفاظ: (وحى)/ ٦٢٢-٦٢٣. و: بصائر ذوي التمييز ؛ الفيروز أبادي: (بصيرة في: وحي)/ ١٧٧/٥-١٨٢. و: تفسير الطبري: ٢٦٦/٣. و: تفسير الرازي: ٤٨/٨. و: تفسير البحر المحيط: ٤٥٤/٢. و: المحرر الوجيز:١١٦/٣-١١٧ ، ٢٩٣/٤ ، ١٠/٨، ٤٦٠ ، ٨٥/١٤. و: فتح القدير ٣٣٨/١، ٥٣٨، ١٠٦/٥. و: تفسير التحرير والتنوير: ٣١/٦، ٢٠٤/١٤، ٢٥٠/٢٤. و: فتح الباري: ٩/١. و: مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٩٧/١٢، ٣٤٢/١٣. و: مدارج السالكين: ٣٩/١.

وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا عليه السلام:

﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا (١١﴾ مريم.

فقد قيل: رمز، وقيل: أشار، وقيل: كتب[١].

وحول عبارة: إلقاء المعنى (أو: الإعلام) في خفاءٍ؛ دار كلام المفسرين عند تناولهم لكلمة (الوحي)[٢].

الوحي في الاصطلاح الشرعي:

إن الوحي في الاصلاح الشرعي لا يختلف عن المذكور في اللغة إلا في تحديد مبتدئه ومنتهاه وواسطته، إذا كانت له واسطة.

والذي يعنينا هنا من الإطلاقات الشرعية لكلمة الوحي؛ هو أهمها وأعظمها على الإطلاق، وهو وحي الله تبارك اسمه إلى أنبيائه عليهم السلام ، والذي بوساطته نستطيع أن نعرف دين الله وشرعه جل جلاله وشرعه، إذ يبلغناه نبيه عليه السلام، بعد أن يكون قد تلقاه هو عن طريق هذا الوحي.

ومما عُرِفَ به هذا الوحي أنه:

كلمة الله التي تلقى إلى أنبيائه عليهم السلام. وله أضرب، حسبما دل عليه قوله تعالى:

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أومن وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم (٥١) ﴾ الشورى[٣].

وهذا تعريف للموحى به، وإن كان يجوز إطلاق الوحي عليه، كما يطلق على القرآن والسنة، من باب إطلاق المصدر على المفعول[٤].

وعرف الوحي كذلك:

بأنه إعلام الله تعالى أنبياءه عليهم السلام الشيء إما بكتاب أو برسالة ملك أو منام أو إلهام[٥].

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن؛ الراغب الأصفهاني: (مادة : وحى)/ ٨٥٩ - ٨٦٠.

(٢) انظر: المراجع المشار إليها، في: ١١١، هـ: ١.

(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن: (مادة: وحى)/ ٨٥٩-٨٦٠. و: عمدة الحفاظ: (وحى)/ ٦٢٣. و: التوقيف على مهمات التعاريف؛ محمد عبد الرؤوف المناوي؛ المحقق:محمد رضوان الداية؛ ط: أولى:دار الفكر المعاصر؛ دمشق: /٧٢١-٧٢٢.

(٤) انظر: تحفة الأحوذي؛ المباركفوري (محمد عبد الرحمن عبد الرحيم): ١٠/٧٨.

(٥) انظر: المصدر السابق، الموضع نفسه .

وعُرِفَ أيضاً بأنه:

إعلام ا لله تعالى أنبياءه عليهم السلام؛ بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب، بواسطة أو بغير واسطة[١].

وهذه التعاريف لم يذكر فيها صفات الوحي الأساسية، التي تفرق بينه وبين سائر صور الإعلام.

وعرف الوحي أيضاً بأنه:

إخبار وإعلام ا لله جل جلاله من اصطفاه من عباده؛ كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر[٢].

أو أنه :

إلقاء ا لله عز وجل الكلام أو المعنى في نفس الرسول عليه السلام بخفاء وسرعة، بملك أو بدون ملك[٣].

فالأساس في وحي ا لله جل ذكره إلى أنبيائه عليهم السلام: أنه عبارة عن إعلامه تبارك اسمه لهم بأمر ما ، وأهم ما يتميز به هذا الإعلام أنه بصورة خفية وسريعة، وغير معتادة بالنسبة إلى عامة البشر.

---

(١) انظر: عصمة الأنبياء؛ محمد أبو النور الحديدي: ٣٥.

(٢) انظر: الرسل والرسالات؛ عمر سليمان الأشقر: ٦١.

(٣) انظر: وحي الله؛ حسن ضياء الدين عتر: ٩٠.

المبحث الثاني : طرق وصور الوحي

إن الدليل الأساس في بيان طرق إعلام ا لله جل جلاله من اصطفاه بما شاء هو قوله جل سبحانه :

﴿وما كان لبشر أن يكلمه ا لله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم (٥١) ﴾ الشورى.

فأوجهُ إيصال الكلمة الربانية إلى من اصطفاه من عباده لا تخرج عن أحد هذه الأوجه المذكورة في الآية السابقة.

الوجه الأول:

وهو الذي أطلق عليه في الآية اسم: (الوحي)، مع أن اسم الوحي يشمل جميع الوجوه، وقد يرجع هذا إلى أن: سبيل إيصال ما يريده ا لله تبارك اسمه إلى العبد في هذا الوجه أعظم خفاء وسرعة من الوجوه التالية، ولذلك قالوا:

(إن ا لله تعالى قد خصص هذا القسم باسم الوحي لأنه يقع في القلب دفعة واحدة، فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى)[١].

وقد بُين هذا الوجه بأنه:

ما يصل إلى العبد المصطفى من ربه جل جلاله لا بواسطة شخص آخر، ومن غير أن يسمع هذا العبد كلام ا لله جل ذكره[٢].

وهو إما أن يكون بالإلهام أو النفث في القلب ، أو أن يكون من خلال ما يراه المصطفى عليه السلام في المنام، ويحصل للنبي عليه السلام علم ضروري بأن هذا الذي جاءه هو وحي من ا لله تعالى[٣].

ومن وقائع هذا النوع رؤيا إبراهيم عليه السلام، ومنها ما ذكره الرسول صلى ا لله عليه وسلم في قوله:

"إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها"[٤].

---

(١) انظر: تفسير الرازي: ٢٧/١٨٦-١٨٧. و: البحر المحيط: ٧/٥٢٦.

(٢) انظر: تفسير الرازي: ٢٧/١٨٦-١٨٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٢٥/٤٥. و: الكشاف: ٣/ ٤٠٩. و: تفسير الرازي: ٢٧/ ١٨٦-١٨٧. و: البحر المحيط: ٧/٥٢٦ . و: تفسير ابن كثير: ٤/ ١٢١-١٢٢. و: فتح لقدير: ٤/ ٥٤٤- ٥٤٥. و: التحرير والتنوير: ٢٥/١٤٠-١٤٥.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء: ١٠/٢٦، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وصحح الألباني روايته هذه في صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١/٤١٩-٤٢٠/ح: ٢٠٨٥. ورواه عن أبي أمامة أيضاً: الطبراني في: المعجم الكبير: ٨/١٦٦/ ح: ٧٦٩٤. و: ابن عبد البر في: التمهيد، من طريق ابن أبي الدنيا: ٢٤/٤٣٤-٤٣٥. وأبو الفيض محمد ياسين بن محمد عيسى الفاداني المكي في: العجالة في الأحاديث المسلسلة: ١/١١٣.

وهذا الحديث يدل على أن الإلهام لا يختص بأن يكون من الله جل جلاله مباشرة، بل قد يلقيه الملك بأمر من الله تبارك اسمه. ولذلك فإنه يمكن أن يقال في بيان هذا الوجه:

أنه: ما يصل إلى العبد المصطفى من ربه عز وجل بواسطة أو بغير واسطة، دفعة واحدة، ومن غير أن يسمع العبد عين كلام الله جل ذكره، والله أعلم.

الوجه الثاني:

وهو الذي بينه جل جلاله بقوله:

﴿ أو من وراء حجاب ﴾.

أي أن هذا الوجه يكون بتكليم الرب جل جلاله عبده المصطفى عليه السلام، ولكن من غير أن يرى المصطفى عليه السلام ربه جل شأنه. وذلك كما كلم سبحانه موسى عليه السلام.

قال تعالى:

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً (١٦٣) ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما (١٦٤)﴾ النساء.

وقال تبارك اسمه:

﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات... (٢٥٣)﴾ البقرة.

وكما أن الوحي في القسم الأول أخص من الوحي الشامل لجميع الأقسام.فإن هذا التكليم -كتكليم الرب جل جلاله الذي خص به موسى عليه السلام حتى سمي الكليم، وخص به محمد صلى الله عليه وسلم أيضاً-؛ هو كذلك أخص من التكليم العام الوارد في صدر آية الشورى السابقة:

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً... (٥١)﴾.

فإن هذه الآية تبين -كما يدل عليه سياقها- جميع درجات تكليم الله جل شأنه لعباده[١]، والذي قد يكون بواسطة أو بغير واسطة، وقد يكون وحياً للفظ والمعنى، أو للمعنى فقط. فالتكليم هنا يراد به إيصال المعنى، الذي يتم بطرق متعددة[٢].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٩٧/١٢.
(٢) انظر: مدارج السالكين: ٣٨/١.

الوجه الثالث:

وهو الذي بينه جل جلاله بقوله:

﴿... أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ...﴾.

ووحي الرب تبارك اسمه إلى أنبيائه عليهم السلام بهذا الطريق هو الوحي الغالب، وهو يكون بإيصال ما يريد الله جل ذكره إعلام عبده المجتبي عليه السلام به؛ عن طريق رسول من الملائكة عليهم السلام.

وهذا الرسول الملكي عليه السلام يوحي إلى العبد المصطفى عليه السلام ما شاء الله تبارك اسمه، أي إنه يوصل إليه ما حَمَّلَهُ الرب جل ذكره بطريق خفي وسريع أيضاً.

ولهذا الوجه صور متعددة:

١- فإما أن يرى الرسول البشري عليه السلام الرسول الملكي عليه السلام على هيئته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما أمره الرب جل جلاله، كما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام، ويدل عليه الحديث الذي روته أم المؤمنين عائشة[١] رضي الله عنها، أنها سألت الرسول صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى:

﴿ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣)﴾ التكوير.

وقوله جل جلاله:

﴿ولقد رآه نزلة أخرى (١٣)﴾ النجم.

فقال صلى الله عليه وسلم:

" إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض " الحديث[٢].

---

(١) أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ؛ الصديقة بنت أبي بكر الصديق ؛ عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشية التيمية. وأمها: أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية. ولدت بعد المبعث بأربع أوخمس سنين، وتزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم، ودخل بها في المدينة وهي بنت تسع سنين، ولم ينكح بكراً غيرها، وقبض عنها صلى الله عليه وسلم وهي بنت ١٨ سنة، تكنى بأم عبد الله، من المكثرات في الرواية، وبلغت في العلم مبلغاً كبيراً. توفيت سنة ٥٨هـ، وقيل: ٥٧هـ، ودفنت بالبقيع: رضي الله عنها.

انظر: الطبقات الكبرى: ٥٨/٨-٨١. و: الاستيعاب: ١٣٥٦/٤-١٣٦١. و: أسد الغابة: ١٨٨/٧-١٩٢، تر: ٧٠٨٥. و: سير أعلام النبلاء: ١٣٥/٢-٢٠١، تر: ١٩. و: البداية والنهاية: ٩٥/٨-٩٧. و: العقد الثمين: ٢٦٢/٨-٢٦٥، تر: ٣٤٠٢. و: وفيات الأعيان: ١٦/٣-١٩، تر: ٣١٨. و: الإصابة: ٣٥٩/٤-٣٦١، تر: ٧٠٤. و: تهذيب التهذيب: ٤٣٣/١٢-٤٣٦. و: شذرات الذهب: ٦١/١-٦٣.

(٢) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ لمسلم: صحيح مسلم: ١٥٩/١/ح:١٧٧. وانظر: صحيح البخاري: ١٨٤٠/٤/ح: ٤٥٧٤.

٢- وإما أن يدخل الملك عليه السلام في النبي عليه السلام، ويوحي إليه ما يوحي، ثم يفصم عنه، وهو الذي بينه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن كيفية مجيء الوحي إليه فقال:

"أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول"(١).

٣- وإما أن يتمثل الرسول الملكي عليه السلام للرسول البشري عليه السلام رجلاً، يراه عياناً ويخاطبه، وهو الذي بينه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث السابق:

"... وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول"(٢).

والله أعلم كيف كان يكلم الملك الرسول عليهما السلام في هذه الحالة(٣).

---

(١) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها؛ أن الحارث بن هشام سأل الرسول صلى الله عليه وسلم. واللفظ للبخاري: ٤/١/ح:٢، وانظر: ١١٧٦/٣:ح :٣٠٤٣. و: مسلم: ١٨١٦/٤/ح:٢٣٣٣. وانظر شرح مفردات هذا الحديث في: ٣٥٩.

(٢) انظر: التخريج السابق.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٤٥/٢٥. و: الكشاف: ٤٠٩/٣. و: تفسير الرازي: ١٨٦/٢٧-١٨٧. و: مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٩٦/١٢-٤٠٤. و: مدارج السالكين: ٣٧/١-٣٩. و: البحر المحيط ٥٢٦/٧. و: تفسير ابن كثير: ١٢١/٤-١٢٢. و: فتح القدير: ٥٤٤/٤-٥٤٥. و: تفسير التحرير والتنوير: ١٤٠/٢٥-١٤٥. و: عصمة الأنبياء: ٣٤-٣٧.

المبحث الثالث: الوحي وكلام الله عز وجل.

لقد مر في المبحث السابق أن من طرق الوحي: أن يسمع الرسول عليه السلام كلام الله عز وجل، كما جاء مصرحاً به في صدر آية الشورى. وهو ما جاء القرآن الكريم بإثباته صريحاً بالنسبة إلى موسى عليه السلام، قال جل ذكره:

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً (١٦٣) ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما(١٦٤)﴾النساء.

ففي صدر الآية الأولى ذكر تبارك اسمه إيحاءه إلى النبيين عليهم السلام وعدد فريقا منهم، ثم خص موسى عليه السلام من بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في صدر الآية الأولى. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنه جل شأنه قد أكد الفعل (كلّم) بمصدره الحقيقي وهو: (التكليم)، رفعاً لما قد يتوهم من أن المراد به إلهام أو إشارة أو تعريف للمعنى النفسي، أوأي شيء غير التكليم، فذلك التأكيد (بالمصدر) يفيد تحقيق النسبة، ويرفع أي توهم للمجاز[١].

وحقيقة تكليم الرب جل جلاله لموسى عليه السلام قد جاء تأكيدها في الكتاب العزيز في مواضع متعددة، وبصور متنوعة، فمنها ما سبق، ومنها قوله تعالى:

﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين (١٤٤)﴾ الأعراف.

قال ابن قيم الجوزية: أي : بتكليمي لك، بإجماع السلف[٢].

ومن صور تأكيد هذه الحقيقة؛ أنه تعالى قد أخبرنا بأنه ناداه وناجاه، والنداء من بعد، والمناجاة من قرب، قال تبارك اسمه:

﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً (٥١) وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا (٥٢)﴾ مريم .

---

(١) انظر: مدارج السالكين: ٣٧/١.

(٢) انظر: المرجع السابق: الموضع نفسه.

فلو كان هذا التكليم الذي حصل لموسى عليه السلام من نوع ما حصل لغيره من الأنبياء عليهم السلام؛ لما كان لجميع تلك المخصصات والمؤيدات معنى، ولا كان موسى عليه السلام قد سُمِّي كليم الرحمن(١).

وبالإضافة إلى تكليم الرب جل شأنه لبعض رسله عليهم السلام ، فإن الملك عليه السلام قد يوحى إلى الرسول عليه السلام كلام الله تبارك اسمه ، وهو ما تحقق في القرآن الكريم، الذي هو كما قال الله جل ذكره:

﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون (٦)﴾ التوبة.

فالقرآن العظيم لفظه ومعناه من عند الله تبارك اسمه، وقد لخص ابن تيمية معتقد السلف في هذه المسألة، بقوله:

(والصواب الذي عليه سلف الأمة هو: أن القرآن جميعه كلام الله، حروفه ومعانيه، ليس شيء من ذلك كلاماً لغيره، وقد أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم. وليس القرآن اسما لمجرد المعنى، ولا لمجرد الحرف، بل لمجموعهما. وكذلك سائر الكلام، ليس هو الحروف فقط، ولا المعاني فقط. كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح، ولا مجرد الجسد، بل مجموعهما...)(٢).

---

(١) انظر: المرجع السابق: ١/٣٧-٣٨. و: مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٢/٣٩٦، ٤٠١.

(٢) انظر: التسعينية؛ ابن تيمية: ٢/٥٤١.

الفصل الرابع: الآيات الدالات على صدق الأنبياء عليهم السلام (المعجزات).

ويشتمل على :

المبحث الأول : المعجزة لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: الحكمة من وجود الآيات الربانية المؤيدة لرسله وأنبيائه عليهم السلام.

المبحث الثالث: وجه دلالة الآيات (المعجزات) على صدق الأنبياء والرسل عليهم السلام.

المبحث الرابع: شروط وصفات الآيات الدالات على صدق الأنبياء عليهم السلام (المعجزات).

المبحث الخامس: الصفات التي لا يجب إثباتها لكل آية معجزة.

المبحث السادس: الفرق بين المعجزة والكرامة، وبين المعجزة والسحر.

المبحث السابع: الأدلة الموضوعية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

المبحث الأول : المعجزة لغة واصطلاحاً.

المُعْجِزَةُ لغة:

جاء في كتب اللغة:

عَجَزَ عن الأمر يَعْجُزُ، وعَجِزَ، عَجْزاً.

والعَجْزُ والمَعْجِزُ، والمَعْجَزُ، والمَعْجِزَة، والمَعْجَزَةُ، والعَجَزان، والعُجُوزُ: الضعف، وعدم القدرة.

تقول: عَجَزْتُ عن كذا أَعْجِزُ.

ورجل عَجِزٌ وعَجُزٌ: عاجز، أي: ضعيف.

وامرأة عاجزٌ: عاجِزَةٌ عن الشيء.

وأَعْجَزَه الشيءُ: عَجَزَ عنه.

وأَعْجَزَه الشيءُ: فاته.

ومعنى الإعجاز: الفَوْتُ والسَّبْقُ. يقال: أعجزني فلان، أي: فاتني، وعَجِزْتُ عن طلبه وإدراكِه.

ويقال: عَجَّزَ الرجلُ، وعاجز: ذَهَبَ أو هَرَبَ فلم يُوصل إليه.

ويقال: عاجَزَ فلاناً: سابَقَه فَعَجَزَه، فسبقه.

ويقال: عَجَزَ عن الأمر يُعْجِزُ : إذا قصر عنه.

والتعجيز: التَّثْبيطُ، وكلك إذا نَسْبتَه إلى العَجْزِ.

ويقال: أَعْجَزَ فُلاناً: وَجَدَهُ عاجِزاً، وصَيَّرَهُ عاجِزاً. وكذلك: عَجَّزْتُهُ تَعْجيزاً.

والمُعْجِزة : واحدةُ مُعْجِزات الأنبياء عليهم السلام، وهي: ما أَعْجَزَ به النَّبي -عليه السلام- الخَصْمَ عندَ التحدي. والهاء للمبالغة[1].

---

(١) انظر: العين؛ الخليل بن أحمد: (باب: العين والجيم والزاي معهما): ٢١٥/١. و: الصحاح؛ الجوهري: (عجز): ٨٨٣/٣- ٨٨٤. و: ترتيب القاموس المحيط: (عجز)/ ١٦٠/٣-١٦٢. و: لسان العرب: (عجز)/ ٢٣٦/٧-٢٣٧. و: المصباح المنير: (عجز)/ ٣٩٣/٣-٣٩٤.

فالمُعجزُ: اسم فاعل من أعجز ، وأضيفت له الهاء للمبالغة[١].

ومما سبق يمكن القول: إن مما لوحظ عند استخدام كلمة المعجزة:

١- أن النبي عليه السلام قد أعجز قومه بما قام به، أي: فاتهم وسبقهم، فلم يستطع أحد منهم إدراكه.

٢- وأن القوم قد عَجَزوا عنه، أي : قَصَّروا وضعفوا ، ولم يقدروا على إدراكه والإتيان بمثل ما أتى به، أو بقريب منه[٢].

المُعْجِزَة اصطلاحاً:

تنوعت الأساليب في بيان معنى المُعْجِزة اصطلاحاً، فمما عرّفَتْ به:

أولاً: المعجزات: أمور خارقة للعادة مقرونة بدعوى النبوة، على وجه يجعلها مبينة لصدق النبي عليه السلام فيما يدعيه عن الله تعالى[٣].

ثانياً: المُعْجِزَةُ: أمرٌ خارق للعادةِ مَقْرونٌ بالتَّحَدي مع عَدَمِ المعارضة[٤].

ثالثاً: حقيقة المعجزة: ما قُصِدَ به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله[٥].

رابعاً: المعجزة: أمر يظهر بخلاف العادة ، على يد من يدّعي النبوة، عند تحدي المنكرين، على وجه يعجز المنكرين عن الإتيان بمثله[٦].

خامساً: المعجز هو: الفعل الذي يدل على صدق مدعي النبوة[٧].

سادساً: حجج الأنبياء عليهم السلام على أقوامهم هي: المُعْجِزُ الدال على صدقهم، والمُعْجِزُ: ما خرق عادة البشر من خصال لا تستطاع إلا بقدرة ربانية، تدل على أن الله تعالى خصه

---

(١) وقيل للنقل من الوصفية إلى الاسمية، كما في الحقيقة.
وذُكر: أن المُعجزَ في الحقيقة هو الله جل جلاله ، ولكن إسناد الإعجاز إلى الشيء الذي جاء به النبي عليه السلام ؛ هو من باب إسناد الشيء إلى سببه الظاهري ، وهذا من باب التوسع والتجوز . انظر : شرح مقاصد الطالبين ؛ سعد الدين التفتازاني : ١٧٥ . و : غاية المرام في علم الكلام ؛ الآمدي : ٣٣٣ . و : والإرشاد ؛ الجويني : ٣٠٨ . و : أصول الدين ؛ البغدادي : ١٧٠ . و : العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية ؛ إمام الحرمين الجويني : ٦٥ . وقال ابن تيمية : ومن لا يثبت فعلاً إلا لله يقول : المعجز هو الله ، وإنما سمي غيره معجزاً مجازاً . انظر : الجواب الصحيح : ٤١٩/٥ .

(٢) انظر : أصول الدين ؛ البغدادي : ١٧٠ .

(٣) انظر : المسايرة مع المسامرة ؛ الكمال ابن الهمام والكمال ابن الشريف : ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٤) انظر : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، الرازي : ١٥١ .

(٥) انظر : المواقف علم الكلام ؛ الإيجي : ٣٣٩ .

(٦) انظر : شرح العقائد النسفية ؛ التفتازاني : ١٦٦ .

(٧) انظر : شرح الأصول الخمسة ؛ القاضي عبد الجبار : ٥٦٨ .

بهـا، تصديقاً على اختصاصه برسالته ، فيصير دليلاً على صدقه في ادعاء نبوته، إذا وصل ذلك منـه في زمن التكليف[(١)].

سابعاً: المعجزات هي: أعلام الرسل عليهم السلام، وحقيقة المعجزة على طريـق المتكلمـين: ظهور أمر خلاف العادة، في دار التكليف، لإظهار صدق ذي نبوة مـن الأنبيـاء، أو ذي كرامـة مـن الأولياء، مع نكول من يُتَحَدّى به عن معارضة مثله[(٢)].

وتوجد اعتراضات متعددة على إطلاق عبـارات : خـارق للعـادة، والاقـتران بـالتحدّي، أو بدعوى النبوة، وعدم المعارضة، دون تفسير أو بيان لما يريده قائلها، أو مع تفسير خاطئ[(٣)].

وقد ألف ابن تيمية كتابا في النبوات، وكان الموضوع الأساس الذي تناوله فيـه هـو: آيـات الأنبياء عليهم السلام. ومما ذكره في بيانها:

أنها التي يُعْلَمُ اختصاصها بالأنبياء عليهم السلام، واستلزامها لصدقهـم، فهـي لا تكـون إلا مع صدقهم، وهي لابد أن تكون خارقة للعادة، خارجة عن قدرة الإنس والجن ، ولا يمكن لأحد أن يعارضها.

ونبه على أن كونها خارقة للعادة، وأنها لا تمكن معارضتها؛ هـو مـن لوازمهـا، وليـس هـو حداً مطابقاً لها[(٤)].

وذكر أيضاً أن آيات الأنبياء عليهم السـلام وبراهينهـم هـي: الأدلـة والعلامـات المسـتلزمة لصدقهم[(٥)]. فحد الدليل والعلامة والآية هو: أنها ما دلت على المطلـوب، فآيـات الأنبيـاء هـي: مـا دلت على صدقهم[(٦)].

وبين أن آيات الأنبياء عليهم السلام هـي: علامـات وأدلـة وبراهـين مـن الله تعـالى تتضمـن إعلامـه تعـالى عبـادَه : صـدقَ الرسـول عليـه السـلام في دعـواه الرسـالة، وإخبـارهم الدليـل علـى صدقـه[(٧)]. فكمـا أن الدليـل والبرهـان مسـتلزم لمطلوبـه، فكـذا آيـة النـبي عليـه السـلام مسـتلزمة لصدقه[(٨)].

---

(١) انظر : أعلام النبوة ؛ الماوردي : ٤٢ .

(٢) انظر : أصول الدين ؛ البغدادي : ١٧٠-١٧١ .

(٣) انظر : النبوات؛ ابن تيمية ، الطبعة القديمة ، تصوير : دار الفكر : ١٣٩ - ١٤٣ ، ١٨٩ - ١٩٠ . وانظر : الطبعة المحققة ، تحقيق : عبد العزيز بن صالح الطويان ، مكتبة أضواء السلف: ١٧٠ وما بعدها ، ٢١٥ - ٢١٩ ، ٤٨٦ وما بعدها ، ٥٩٩ ، ٧٧٣ وما بعدها ، ٧٩٣ - ٧٩٦ ، ٨٥٣ ، ٨٦٠ ، ٨٦٧ ، ١٠٦٤ .

(٤) انظر : النبوات ، الطبعة القديمة : ١٩٥ . وانظر : المحققة : من خصائص المعجزات : عدم إمكان معارضتها : ١٩٥ .

(٥) انظر : المرجع السابق ، المحققة : ٢١٣ ، ٧٧٣ .

(٦) انظر : المرجع السابق ، المحققة : ٧٧٥ .

(٧) انظر : المرجع السابق ، المحققة : ٧٧٨ .

(٨) انظر : المرجع السابق ، المحققة : ٧٨٢ .

ونظراً لكثرة الاعتراضات الواردة على تعريف آية الرسول عليه السلام (المعجزة)، فإنه يمكن أن يُذكر في بيانها بصفة عامة:

أنها أعلام ودلائل يؤيِّد بها الله تبارك اسمه عباده الأنبياء عليهم السلام، ليدل بها على صدقهم. ولا يمكن لأحد من المكلفين أن يعارضها معارضة حقيقية، أو أن يأتي بمثلها عن طريق التعلم والتدرب للوصول إلى ذلك، إذ هي أمور خارقة تفوق قدرة المكلفين.

وقد تقترن الآيات (المعجزات) بالتحدّي اللفظي، وأما التحدي المعنوي -الذي يدل عليه عدم إمكان معارضتها- فهو موجود في جميع الآيات. والله أعلم.

ومما نبه ابن تيمية عليه: أن نصوص الكتاب والسنة لم تستخدم لفظة المعجزات ، وإنما جاء فيها ألفاظ : الآيات والبراهين والبينات ، للدلالة على مجموع الأمور التي تثبت صدق الأنبياء عليهم السلام، والتي من ضمنها تلك الأمور الخارقة.

فقد ورد (البرهان) في مثل قوله جل شأنه:

﴿ ...اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ القصص.

وورد لفظ (البينة) في مثل قوله تبارك اسمه عن ناقة صالح عليه السلام:

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾الأعراف.

وفي مثل قوله جل ذكره ذاكراً منته على عبده عيسى عليه السلام:

﴿...وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠)﴾ المائدة.

وورد لفظ (الآية) في مثل قوله جل جلاله حاكياً مقالة عيسى عليه السلام:

﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩)﴾ آل عمران[1].

---

(١) انظر: المرجع السابق ، المحققة : ٢١٥ ، ٦٥٩ - ٦٦٠ ، ٧٨٥ ، ٧٨٩ ، ٨٢٨ - ٨٢٩ ، ٨٤٨ ، ٨٥١ . و: ط : القديمة : ٦٧ - ٧١ . و : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ٥/٤١٢-٤١٨ .

وذكر ابن تيمية أن اسم الآيات والبراهين اسم مطابق لمسماه مُطَّرِد لا ينتقض، فلا تكون قط إلا آيات لهم وبراهين[١].

ثم إن مجموع تلك الآيات والبراهين هي ما أطلق عليه فريق من العلماء دلائل النبوة أو أعلام النبوة[٢].

(١) انظر : النبوات : الطبعة المحققة ، ٧٨٥ .

(٢) ككتاب : دلائل النبوة للبيهقي ، وأعلام النبوة للماوردي .

المبحث الثاني: الحكمة من وجود الآيات الربانية المؤيدة للرسل والأنبياء عليهم السلام

إن الرب جل جلاله لما كان له المثل الأعلى، ولما كان تبارك اسمه متصفاً بصفات الكمال على أحسن الوجوه ، ومنها صفة الحكمة ، التي تقتضي وضع كل شيء في محله المناسب له[1]، ولما كان جل شأنه غيباً عن عباده ، وقد اقتضت حكمته تعالى أن يرسل رسلاً يبلغون خلقه منهاج الهداية والفلاح والسعادة الدنيوية والأخروية ؛ لما كان ذلك كله فإن المتدبر يستنبط أن صفة الحكمة الربانية – الآنفة الذكر – تستلزم أن يرسل آيات وعلامات يدل بها على صدق من أرسلهم لعباده، لإزاحة أي شك يمكن أن يطرأ على قلب العباد تجاه رسلهم عليهم السلام .

فمن الطبعي أن يرتاب كثير من الناس في مدى صدق من يأتيهم ويقول لهم: إنه رسول الله تعالى إليهم ، فإذا جاءت الآيات – التي يتيقن المكلفون أنها لا يمكن أن تكون إلا من عند الله عز وجل – وأيدت من ادعى النبوة وصدقته ؛ فإن من شأن أي شك طبعي أن يزول مع تلك الآيات فلا يبقى له أثر ما .

وإن كان ذلك لا يعني وجوب إيمان كل من يرى تلك الآيات ، فإن للكفر أسباباً عديدة، يرجع معظمها إما إلى العناد والاستكبار ، وإما إلى التفريط في طلب العلم ، وإما إلى اتباع الأهواء والشهوات ورغبات الفجور في الأرض .

ويمكن القول إن الآيات التي يُصَدّقُ بها الله جل ذكره أنبياءه عليهم السلام هي: الفَيْصَلُ والفارق بين النبي الصادق عليه السلام والمتنبئ الكاذب .

وبعد، فقد بين ابن تيمية كثرة الاختلاف حول مسألة: تفريق الرب جل ذكره بين الصادق والكاذب، وأنه ما كان ينبغي في شأنها مثل ذلك الاختلاف . ومما يدل على أن الرب العليم الحكيم القدير جل جلاله لا يكون منه إلا التفريق بينهما :

أولاً : أن ما ينبغي للمخلوق أن يتصف به – على قدره – من صفات الكمال التي لا نقص فيها بوجه ، ولا تدل على نقص في صاحبها ؛ فالخالق جل وعلا أولى بالاتصاف بها .

ومن المعلوم عند عقلاء البشر أنه إذا أرسل أحدهم رسولاً ، لم يعهد من قبل أنه رسوله ، ولم يسبق في علم أحد منهم أن هذا – من دون غيره – رسول لذلك المُرْسِلِ ؛ فإنه لابد أن يبعث معه علامة تجعل المُرْسَلِ إليهم يوقنون بصدقه، وإن لم يسبق بينهم وبين المرسِلِ مواطأه على تلك العلامة.

ثم إن العاقل صاحب القدرة لا يرسل علامة مع رسوله ؛ يمكن أن يأتي بها الصادق والكاذب ، وإلا دل هذا على نقص في عقله أو قدرته ، بل ما دام ذا قدرة حسنة وعقل تام ؛ فإنه

---

(١) انظر : النبوات ، المحققة : ٩١٧ ، ٩٢١ .

لا يرسل معه إلا علامة تدل دلالة ظاهرة على أنه مُرْسَلٌ من عنده ، وتفرق بينه وبين يدعي ذلك كذباً؛ تفريقاً لا يلتبس فيه الصادق بالكاذب ، بل يتميز كل منهما عن الآخر تميزاً بيناً .

وذلك من الكمال الذي لا نقص فيه، والذي ينبغي للبشر أن يفعلوه، والله تبارك اسمه هو من هدى عبادة لذلك الكمال ، فهو جل شأنه أولى وأحق بأن يُنزلَ مع رسوله ما يدل على صدقه في دعواه، ويفرق بينه وبين الكاذبين[1].

ثانياً : ثم إن حكمة الرب البالغة تقتضي عدم التسوية بين جنس الصادق والكاذب والعادل والظالم، والعالم والجاهل، والمصلح والمفسد، بل يفرق بين هذه الأنواع بما يناسب الصادق العالم المصلح من الكرامة، وما يناسب الكاذب الظالم الجاهل المفسد من الهوان.

فهو تبارك اسمه يظهر من الآيات والبراهين ما يدل على صدق خيار الخلق، وينصرهم ويؤيدهم ويعزهم ، ويفعل مثل هذا مع من اتبعهم على الحق والهدى ، ويظهر في مقابل هذا من الآيات ما يدل على كذب شرار الخلق، ويذلهم ويخزيهم، ويفعل ذلك بمن اتبعهم. قال تبارك اسمه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ الروم.

وقال جل جلاله:

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾ المجادلة.

في هاتين الآيتين بيان واضح لحقيقة أنه سبحانه قد كتب على نفسه وأحق وأوجب نصرَ عباده المؤمنين بوجوه النصر المتعددة.

وكذلك فقد بيّن عز وجل أنه لا يجوز أن ينسب إلى حكمته إمكان أن يسوي بين المؤمنين والمفسدين، وبين المتقين والفجار، قال تبارك اسمه:

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ(٢٨)﴾ ص.

وقال جل ذكره:

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥)﴾ القلم.

وهذا استفهام إنكار على من ظن ذلك، وهو يتضمن تقرير المخاطبين بأن هذا لا يجوز عليه، وأن ذلك بيّن معروف، يجب اعترافهم به، وإقرارهم به...، فالتسوية ممتنعة في حقه جل ذكره، ولا

---

(١) انظر : النبوات ، الطبعة المحققة : ٦٧٧ - ٦٨٧ ، ٨٨٩ - ٨٩٠ ، ٨٩٥ - ٨٩٦ ، ٩٢٦ - ٩٣٢ .

يجوز لأحد أن يظن به سبحانه مثل هذا الظن السيء، فكيف بمن يُجَوّز إمكان نصر الظالم الكاذب المفسد في الدنيا والآخرة، وخذلان المؤمن الصادق الصالح؟![1].

ولا شك أن من أعظم ما يشمله ما سبق: تأييد الأنبياء والرسل عليهم السلام، على الوجه الذي يفرق بينهم وبين الكاذبين بفروق واضحة ظاهرة.

ثالثاً : وأيضاً فإنه إذا كانت رحمة الله تبارك اسمه بعباده ، وحكمته البالغة ؛ قد اقتضتا أن يكون الرسول إلى البشر منهم ليمكنهم الأخذ والاقتداء به ، فكيف بالأمور التي تميز الصادق في دعواه الرسالة من الكاذب ؟! .

إنه مما لا شك فيه أن رحمة الله جل ذكره وحكمته البالغتين تقتضيان إيجاد أمور متعددة تميز بينهما، ولا سيما في العجائب التي يظهرها كل واحد منهما لتكون دليل صدقه.

وقدرة الله تعالى التامة لا يمكن أبداً أن يعجزها شيء قد اقتضته رحمته وحكمته تعالى[2].

رابعاً : وقد صحح ابن تيمية الاستدلال بقدرة الله عز وجل على ما سبق ، فالله تبارك وتعالى قادر على أن يهدي عباده ويُعَرِّفَهُم طريق الحق ، ولا يكون هذا إلا بتخصيص الصادق بما يدل على صدقه ، ويفرق بينه وبين الكاذب. ولا شك أن من آمن بكمال صفات الرب عز وجل؛ فإنه يوقن بأنه تعالى ييسر لخلقه كل ما يدلهم على طريق الخير ويجنبهم طريق الشر ، ومن هذا: الدلائل التي يفرقون بها بين الصادقين والكاذبين في دعواهم النبوة والرسالة[3].

خامساً : وكذلك صحح ابن تيمية الاستدلال بسنة الله جل جلاله وعادته.

ومن المعلوم أن سنة الله تبارك اسمه مقتضية لنصر أنبيائه ورسله عليهم السلام، وأتباعهم وتأييدهم ، وإهلاك وخذلان أعدائهم. قال جل ذكره:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ غافر.

والاستدلال بسنة الله جل جلاله وعادته يقتضي اعتبار الشيء بنظيره، وقياس الشاهد على الغائب، فيسوي بين المتماثلين، ويفرق بين المختلفين.

فإذا كان الله عز وجل قد نصر أنبياءه -عليهم السلام- السابقين وأتباعهم بأنواع النصر المختلفة، وخذل أعداءهم ، فإن هذا يعني أن مثل هذا النصر والخذلان مستمران على هذا النحو إلى يوم الدين[4].

---

(١) انظر: النبوات ، الطبعة المحققة : ٩٠٦ - ٩٠٧ ، ٩١٧ - ٩٢١ ، ٩٢٦ - ٩٢٧ ، ٩٤٦.

(٢) انظر: المرجع السابق : ٦٧٧ - ٦٨٧.

(٣) انظر: المرجع السابق : ٩٣١ - ٩٥٠.

(٤) انظر: النبوات : ٩٥٨ - ٩٦٧ ، ٩٧٦ - ٩٧٨ .

سادساً : وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أن الله عز وجل لا يؤيد من يكذب عليه سبحانه، بل لابد أن يظهر كذبه ، وأن ينتقم منه ، قال تبارك اسمه :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ الحاقة .

فالأخذ من المتقوّل الكاذب باليمين يقتضي إهانته وإذلاله، وقطع الوتين[1] يقتضي إهلاكه، فهذا فعله عز وجل فيمن تَقوَّلَ عليه بعض الأقاويل، فكيف الحال فيمن يَتَقَوَّل الرسالة كلها، ويدعي أن الله جل شأنه أرسله، وهو -في الواقع- كذاب مفترٍ، أو يدعي أنه هو الهادي إلى طريق الله جل جلاله، وهو -في الواقع- لا يهدي إلا إلى سبل الغواية والضلال؟!.

وقال تبارك اسمه:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤)﴾ الشورى.

فإحقاق الرب جل ذكره للحق، ومحوه للباطل؛ أمر لابد أن يفعله تعالى. وهو جل جلاله يحق الحق ويمحو الباطل بكلماته التي ينزلها على رسوله صلى الله عليه وسلم، ويتبين منها صدقه عليه السلام، ويتبين منها الحق من الباطل. وهو تبارك اسمه يحق الحق ويمحو الباطل بكلماته التكوينية، وذلك بما يظهره من الآيات التي ينصر بها رسله وأنبياءه عليهم السلام وأتباعهم، ويؤيدهم بها ويصدقهم بها، وكذلك يبين بها كذب أعدائهم، ويذلهم ويخزيهم بها، كما قال جل شأنه:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ الصافات.

وكما قال عن قوم إبراهيم عليه السلام عندما أرادوا حرقه فنجاه الله جل ذكره من نارهم:

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾ الأنبياء.

وقال تعالى أيضاً:

﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)﴾[2] الصافات.

سابعاً : الاستدلال بعدل الله جل شأنه:

قال تبارك اسمه :

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾ الأنعام.

---

(١) الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه . انظر لسان العرب : (وتن)/ ٣٣٢/١٧ .

(٢) انظر : النبوات : ٨٩٧ – ٩٧٨.

والعدل : إعطاء كل ذي حق حقه ، أو إعطاء كل شيء المقدار الملائم له بدقة تامة.

فمن عدله تعالى: أن يؤيد الصادق بالآيات التي تبين صدقه ويعزه وينصره، وأن يذل الكاذب ويهينه. قال جل ذكره:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)﴾ الأعراف.

ولا شك أن ادعاء الرسالة أو النبوة كذباً وزوراً هو من أعظم الافتراء على الله سبحانه، كما قال جل جلاله:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ...(٩٣)﴾ الأنعام.

فالمفتري على الله سبحانه مستحق للذلة في الحياة الدنيا، إذ تكشف الأدلة والبراهين كذبه وفجوره، مع ما هو مدخر له من العقاب الأخروي الأبدي[١].

---

(١) انظر : النبوات : ٩٠ - ٩١.

المبحث الثالث: وجه دلالة الآيات (المعجزات) على صدق الأنبياء والرسل عليهم السلام.

لما اختص ا لله عز وجل أنبياءه ورسله عليهم السلام بالآيات (المعجزات)؛ فقد أصبحت نوعاً من التصديق بالفعل من ا لله تبارك اسمه لهم عليهم السلام، وهي تنزل منزلة التصديق بالقول، إذ هي بمثابة قول الرب جل جلاله لعباده: صَدَقَ عبدي هذا في دَعْواه أني أرسلته لكم، أو بمثابة قوله جل ذكره: إن عبدي هذا رسول من عندي، صادق فيما يدعيه من الرسالة فآمنوا به.

وقد بين العلماء أن التصديق بالفعل قد يكون أقوى من التصديق بالقول.

وضربوا لذلك التصديق مثلاً: بملك جلس على كرسيه، واجتمعت إليه الرعية في أَمْرٍ حزبهم، فقام من وسطهم رجل، وقال لهم: إن الملك كلفه بإبلاغ أوامره إلى الرعية، ثم وجه كلامه للملك وقال: إذا كُنْتُ صادقاً في ادعائي أني رسولك ومبلغ عنك أوامرك، فقم واقعد على كرسيك وعلى غير عادتك ثلاث مرات، لا تريد بذلك إلا تصديقي في دعواي هذه.

فإذا فعل الملك ما طلبه الرجل منه، فإن فعله يعتبر تصديقاً منه للرجل فيما ادّعاه، وهو فعل ذو دلالة قطعية، ما دام الملك عالماً قادراً حكيماً في تصرفه لا يريد إلا الخير للرعية.

و لله جل جلاله المثل الأعلى، فهو تبارك اسمه قادر على أن يرسل من الآيات ما يؤيد به أنبياءه عليهم السلام، فتكون شهادةً لهم من ا لله جل شأنه على صدقهم في دعواهم النبوة أو الرسالة.

فالرب جل جلاله إذا خرق العادة لمدَّعي الرسالة عقب مطالبته بآية من قومه، وخلقها له على الوجه الذي ذكره، أو على الوجه الذي طولب به، وظهر أنها لا يمكن أن تكون إلا من قبله سبحانه، فلا شك أن مثل هذا الأمر يعتبر من أظهر أنواع التصديق وأعظمها بياناً ووضوحاً؛ من ا لله جل ذكره لأنبيائه ورسله عليهم السلام[1]. وحتى لو لم يوجد طلب من القوم فإن تأييد النبي عليه السلام بالآيات المعجزات فيه تصديق ظاهر له.

ومن رأى مثل تلك الآيات وتدبر دلالتها؛ فإنه لا يملك إلا أن يؤمن إيماناً جازماً بصدق النبي أو الرسول الذي جاء بها، إذا كان مستعداً لقبول الحق. قال تبارك اسمه حاكياً ما قاله موسى عليه السلام لفرعون وقومه:

---

(١) انظر: أصول الدين؛ البغدادي: ١٧٨-١٧٩. و: شرح الأصول الخمسة؛ القاضي عبد الجبار: ٥٧٠-٥٧١. و: العقيدة النظامية؛ إمام الحرمين: ٦٨-٦٩. و: الإرشاد؛ له: ٣٠٨، ٣١٣، ٣٢٥. و: غاية المرام: ١/ ٣٢٧-٣٢٨. و: الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام؛ القرطبي: ١/٢٤٠. و: معالم أصول الدين؛ الرازي: ٩٢-٩٣. و: النبوات؛ شيخ الإسلام ابن تيمية، الطبعة المحققة: ٥٣٧-٥٣٨، ٦٦٩، ٦٨٤: وذكر فيها طرق دلالة المعجزة على صدق الرسول عليه السلام وهي: طريق الحكمة، وطريق القدرة، وطريق العلم والضرورة، وطريق سنته وعادته تعالى، وطريق العدل، وطريق الرحمة، وذكر أنها طرق صحيحة، وانظر أيضاً: ٧٧٨-٧٧٩، ٧٨٣، ٧٩٤، ٨٠٩-٨١٠، ٨٤٩، ٩٣١: وذكر فيها دليل القدرة والضرورة، ٩٣٢، ٩٤٧، ٩٨٤. و: المواقف: ٣٤١. و: شرح العقائد النسفية؛ التفتازاني: ١٦٦.

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)﴾ الأعراف.

فقول موسى عليه السلام: إنه جاء ببينة من الله تعالى؛ يراد به والله أعلم: آية بينة منه تعالى، بدليل ما قاله فرعون له بعد هذا، قال تبارك اسمه:

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾ الأعراف.

فأراه موسى عليه السلام آيتي: اليد والعصا . فهاتان الآيتان دليل من الله جل جلاله وبرهان وعلامة لتصديقه عليه السلام(١).

وقد صوَّب شيخ الإسلام ابن تيمية كلا القولين المتعلقين بوجه دلالة آيات الأنبياء عليهم السلام (المعجزات) على نبوتهم، والقولان هما:

الأول: أن دلالة الآية (المعجزة) على التصديق تعلم بالضرورة، كانشقاق القمر.

والثاني: أن دلالة الآية (المعجزة) على التصديق تعلم بالنظر والاستدلال.

وذكر أن ذلك يختلف باختلاف حال من يرى تلك الآيات ، فبعض الناس يدرك ما تستلزمه تلك الآيات من اللوازم -والتي منها: التصديق- بالضرورة، وبعضهم يحتاج إلى دليل يبين له أن هذه الآية تستلزم التصديق، أو أن حكم التصديق لازم لها(٢).

سبب عدم الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام مع وجود الآيات:

إنه مع ظهور دلالة الآيات (المعجزات) على صدق الأنبياء والرسل عليهم السلام؛ يبرز سؤال عن سبب عدم الإيمان بالأنبياء عليهم السلام على الرغم من وجود تلك الآيات المصدقات لهم.

لقد بين العلماء أن تلك الآيات تدل دلالة ظاهرة بينة على صدق من جاء بها من الأنبياء والرسل عليهم السلام، ولكن العامل الأساسي الداعي إلى رفض الانصياع لموجبها هو: اتباع الهوى، قال جل شأنه:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ(١٤)﴾النمل.

وقال تعالى حاكياً ما قاله موسى عليه السلام لفرعون:

---

(١) انظر : النبوات، المحققة: ٦٥٥ .

(٢) انظر: النبوات ، المحققة : ٧٧٥ ، ٧٧٩ - ٧٨١ ، ٨٨٤ - ٨٨٨ ، ٩٣١ ، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن كون الآيات دليلاً على النبوة إما أن يعلم ضرورة ، أو بما ينتهي إلى الضرورة : ٧٧٣ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً (١٠٣)﴾ الإسراء.

وقال جل وعلا:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ الأنعام.

وأيضاً فإن من أهم أسباب عدم الإيمان، ولا سيما مع ظهور الآيات: الغفلة، قال جل جلاله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ﴾ يونس.

والغفلة قد تكون بعدم رؤية الآيات أصلاً، على الرغم من ظهورها ووضوحها، تفريطاً وتقصيراً. وقد تكون بعد رؤية الآيات، لكن يَغْفُلُ ذلك المُشاهِدُ عن تدبر ما تدل عليه وينشغل بمتاع الدنيا الزائل[١].

(١) انظر : المرجع السابق ، المحققة : ٦٥٨ – ٦٥٩ ، ٨٨٨ – ٨٨٩ .

المبحث الرابع: شروط وصفات الآيات الدالات على صدق الأنبياء عليهم السلام (المعجزات).

توجد صفات متعددة تميز آيات الأنبياء عليهم السلام (المعجزات) عن غيرها من الأمور التي ليست مألوفة ، ليتم الاستدلال بالآيات ولا تختلط بغيرها ، فيقع الالتباس، ومن هذه الصفات أو الشروط:

الصفة الأولى: التلازم بين الآية ومدلولها:

إن الدليل والآية والبرهان القاطع على أية قضية يجب أن يكون مطرداً ومستلزماً لمدلوله دواماً، أي: إنه كلما وجد ذلك الدليل أو البرهان أو الآية فإنه يجب أن يوجد مَدْلولُهُ، وأن تكون الآية والبرهان والدليل مستلزمة له دالة عليه.

وأما إن دلت تلك الأمور على مدلولها أحياناً وعلى نقيض مدلوها أحياناً أُخَر ، فإنه لا يمكن أن تكون أدلة أو براهين أو آيات صحيحة. فالدليل إما أن يكون مساوياً للمدلول عليه ، وإما أخص منه، ولا يكون أعم من المدلول.

ولذلك فإن الأمور المعتادة لا يوجد فيها دلالة على ما هو أخص، كطلوع الشمس، أو القمر، أو الكواكب، فمثل هذه الأمور المخلوقة المعتادة ليست فيها دلالة على قضية خاصة وهي: صدق بعض المخلوقين أو كذبهم، لأنها توجد عند صدق الصادق وكذب الكاذب، ولكنها تدل على أمرٍ أعم، وهو أنه: ما دام قد ثبت خلقها ووجودها بعد عدم؛ فلابد لها من خالق، فهي دليل على وجود الخالق الرب جل وعلا، وعلى قدرته ومشيئته وحكمته، وهو جل جلاله موجود وصفاته ثابتة، سواء كانت تلك المخلوقات موجودة أم لم تكن كذلك.

وعليه فإن آيات الأنبياء عليهم السلام (معجزاتهم) التي هي أدلة وبراهين صدقهم؛ تختص بكونها مستلزمة لذلك الصدق، فمتى وجدت دلت على صدق من وُجِدَت من أجله وهو: النبي عليه السلام، وهذا يعني: أنها يمتنع أن يوجدها الرب سبحانه من أجل مُدَّعٍ للنبوة كاذب، إذ ينتقض عندئذ اختصاصها بالأنبياء عليهم السلام، وهو منتفٍ أصلاً في حقها.

وأما ما يوجد من المخاريق مع أعداء الأنبياء عليهم السلام، فهي لا يمكن أن تكون دليلاً لنبوة نبي أصلاً، وإنما هي تدل على كفر وفجور من ظهرت على يديه ، أو هي لا تزيد عن كونها لا تحمل أي دليل لا على الصدق ولا على الكذب.

ولو تشابهت بعض تلك المخاريق مع بعض آيات الأنبياء عليهم السلام، فإن التشابه إنما ينحصر في الشكل الظاهر، ولو أمعن فيها الناظر لوجدها تحمل أدلة عديدة على كذب صاحبها وفجوره[١].

---

(١) انظر : النبوات، المحققة: ١٤٤، ١٦٣، ٤٩١، ٥٠٠، ٥٠٨، ٥١٢، ٧٢٣-٧٢٥، ٧٧٣، ٧٨٢-٧٨٤، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٢٥، ٨٦٥.

ويترتب على ما سبق؛ ما ذكره ابن تيمية من أن دليل النبوة حقاً هو دليل عليها ولو لم يَذْكُرْ ذلك النبي عليه السلام ويعلنه[(١)].

الصفة الثانية: عدم وجود الآية مع ما يناقض النبوة:

لقد دلت الصفة الأولى لآيات الأنبياء عليهم السلام على صفة ثانية وهي: أنها لا يمكن أن توجد مع ما يناقض النبوة.

فآيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن يشاركهم فيها من يكذب بنبوتهم، ولا من يدعي النبوة كاذباً، وإلا كان الدليل يدل على وجود الشيء وعلى عدمه، وهذا جمع بين النقيضين[(٢)].

بالإضافة إلى أن حكمة الرب جل جلاله وعدله يقتضيان امتناع ظهور آيات الأنبياء عليهم السلام على يد أعدائهم ، إذ فيه التسوية بين دلائل صدق الصالح المصلح، وبين دلائل كذب الضّال المضلّ، وهذا مُنتفٍ في حق الرب جل ذكره، ولا يجوز تصور نسبته إليه سبحانه[(٣)].

وقد عمم ابن تيمية هذه الصفة التي اعتبرها شرط آيات النبوة الأساسي، فقال: (بل شرطها أن لا يكون لها نظير في العالم لغير الأنبياء، ومن يشهد بالنبوة)[(٤)].

الصفة الثالثة: أن تكون الآية خارقة للعادة:

إن آيات الأنبياء عليهم السلام لابد أن تكون خارقة وناقضة للعادة، أي : إنها لا توجد إلا للنبوة[(٥)]، لا مرةً، ولا أكثر من مرة، إذ العادة هنا تثبت بمرة[(٦)].وقد سبق بيان سبب هذا عند الكلام عن استلزام الدليل لمدلوله دواماً، وأن الأفعال المعتادة ليس فيها دليل على التصديق ولا على التكذيب[(٧)].

وإذا اعتبرت كرامة الولي الصالح من جملة آيات النبي عليه السلام اللاحقة؛ فيمكن القول: إن آيات الأنبياء عليهم السلام ينبغي أن تكون خارقة لعادة جميع المكذبين وغير المؤمنين بالأنبياء عليهم السلام، فهي مختصة بهم عليهم السلام، ولا توجد إلا معهم أو مع المؤمنين بهم المخبرين

(١) انظر : المرجع السابق ، المحققة : ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٦٠٥ ، ٧٩٦.

(٢) انظر : المرجع السابق : ٨١٢ – ٨١٣ ، ٩٨٣ ، ٩٨٥ ، ٩٨٩.

(٣) انظر : المرجع السابق: ٥٥١–٥٥٥. وما سبق: ١٢٧–١٢٨.

(٤) النبوات: ٨٥٩، وقوله: (ومن يشهد بالنبوة) يريد به: الكرامة، لأنها من أدلة وبراهين وآيات النبوة.

(٥) هذا من جملة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد اختار كلمة النبوة بدل الأنبياء لئلا تخرج الكرامة، والتي تظهر على يد الولي الصالح ولكنها في حقيقتها دليل للنبي عليه السلام.

(٦) انظر : النبوات: ٨٠٠. و: شرح الأصول الخمسة: ٥٧١. و: أصول الدين؛ البغدادي: ١٧٠، ١٧١. و: الإرشاد؛ الجويني ٣٠٩. و: العقيدة النظامية : ٦٥. و: المواقف: ٣٣٩.

(٧) انظر : ما سبق: ١٣٤.

بنبوتهم، وأما المعارضون للأنبياء عليهم السلام فلا يمكن أن يوجد معهم نظير للآيات التي يؤيد الله تعالى بها رسله عليهم السلام، ويصدقهم بها[١].

وقد يقال : إن آيات الأنبياء عليهم السلام خارقة لعادات غيرهم مطلقاً ، وأما الولي فإنه إذا وجد في حقه شيء من جنس آيات الأنبياء عليهم السلام ؛ فهذا لم يتحقق له إلا ببركة اتباعه للرسول عليه السلام ، وهو مقر بذلك معترف به ومعلن له ، فتلك الآية – في واقع الأمر – هي من آيات نبيه عليه السلام، كما سيأتي بيانه، والله أعلم.

وكذلك لا يمتنع أن يقال: إن الآيات التي يوجدها الرب جل ذكره لتصديق أنبيائه ورسله عليهم السلام هي خارقة لعادة جميع المكلفين[٢] ، وإذا دخل في ذلك الأنبياء عليهم السلام فهو على معنى: أنهم عليهم السلام لا يأتون بها من قبل أنفسهم، بل الله جل جلاله يوجدها لهم، ولا يقدر أحد من المكلفين على الإتيان بها أو بمثلها عن طريق الكسب أو التعلم أو نحو ذلك.

وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية على أن خرق العادة هو من جملة صفات آيات (معجزات) الأنبياء عليهم السلام ، وشرط فيها ، وهو من لوازمها ، إلا أن شرط الشيء قد يكون أعم منه. وهذا يعني أن خرق العادة ليس حداً مطابقاً للآيات (المعجزات) طرداً وعكساً. وسبب ذلك كماذكر ابن تيمية:

١- أن كون الشيء معتاداً أو غير معتاد هو أمر نسبي إضافي، وليس هو بمجرده وصفاً مضبوطاً تتميز به الآية. ولا سيما إن أطلق ولم يقيد.

٢- أن مجرد خرق العادة مشترك بين الأنبياء عليهم السلام وغيرهم، إذ يوجد ما هو خرق للعادة لكنه ليس دليلاً للأنبياء عليهم السلام أو غيرهم، بل قد يكون من الآيات التخويفية العامة التي ينزلها الرب جل جلاله[٣].

وبناء على ما سبق فقد ذكر ابن تيمية أنه إذا أراد أحد أن يجعل خرق العادة وصفاً ضابطاً للآية؛ فلابد أن يقيد فيقال : خوارق العادات التي تختص بالأنبياء عليهم السلام . أو خوارق عادات المكلفين جميعاً غير الأنبياء عليهم السلام[٤]، ويشمل هذا الإنس والجن ، فلابد أن تخرق الآيات عادة كل أمةٍ من الأمم ، وكل طائفة من الطوائف، فلا تختص آية النبي عليه السلام بخرق

---

(١) انظر : النبوات : ٥١٨ ، ٨٢٦ .

(٢) يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الآيات (المعجزات) لا يمتنع أن يقال : إنها معتادة للأنبياء عليهم السلام . انظر : النبوات: ٥٠٢.

(٣) انظر : النبوات: ١٧٠-١٧٤، ٨٢٨-٨٢٩.

(٤) على اعتبار أن كرامات الأولياء إنما هي في حقيقتها آيات لأنبيائهم عليهم السلام .

عادة بلد معين، ولا يخرق عادة من أرسل إليهم[١] . وبهذا لا يقع الخلط بين آيات الأنبياء عليهم السلام؛ وبين ما قد يصدر من بعض السحرة ونحوهم من الأفعال الخارقة لعادات بعض الخلق، أو حتى كثير منهم[٢].

وبالنسبة إلى الأنبياء عليهم السلام؛ فيجوز أن يشترك أكثر من نبي في آية معينة ، وقد تكون الآية مختصة بالنبي عليه السلام، دون سائر الأنبياء عليهم السلام ، فتكون خارقة لعاداتهم، وقد أشار ابن تيمية إلى أن أكثر الآيات من هذا النوع، والله أعلم[٣].

وقد نبه ابن تيمية على: أن إطلاق عبارة خرق العادة إنما يصح في حق المخلوق ، وأما الرب جل جلاله فلا يخرق عادته التي هي سنته، فمن سنته التفريق بين المختلفين، وتمييز كل واحد منهما عن الآخر، ومن هذا تمييز الأنبياء عليهم السلام بالآيات التي تفرق بينهم وبين مخالفيهم[٤].

كرامات الأولياء آيات لأنبيائهم عليهم السلام:

أبان العلماء: أن الله تبارك اسمه قد يظهر مثل بعض آيات الأنبياء عليهم السلام على يد من يصدقهم ويدعو إلى الإيمان بهم، وهو ما يعرف باسم: الكرامة.

وذلك لأن تأييد الولي المؤمن بالنبي عليه السلام ببعض تلك الآيات يتضمن تصديقه، وما دام أنه ولي صالح فلا شك أن أشرف ما يُصَدَّق به هو ما يدعو إليه من الإيمان بالله تعالى وبأنبيائه عليهم السلام وبالنبي عليه السلام المتبع له، ولو لم تكن دعوته دعوة مباشرة.

وعليه؛ فإن تلك الآيات التي يؤيد بها الله تبارك اسمه الولي إنما يقصد بها في المقام الأول تأييد وتصديق نبيه عليه السلام. ولذلك فإنه يمكن القول : إن الآيات المستلزمة لثبوت النبوة؛ لا توجد إلا مع الشهادة للرسول بأنه رسول، أو بعبارة أخرى: لا تأتي إلا لتأييد صادق في خبره عن النبوة، سواء كان مخبراً عن نبوة نفسه ، أم كان صالحا يخبر عن نبوة نبي ويدعو إلى الإيمان به[٥].

وعلى الرغم من ذلك فإنه توجد آيات عظمى قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية: إنه بها (ثبتت نبوة الأنبياء عليهم السلام ، وبها وجب على الناس الإيمان بهم – أي : كالقرآن الكريم وانشقاق القمر –، فتلك الآيات تختص بالأنبياء عليهم السلام ، ولا تكون للأولياء ولا لغيرهم،

(١) انظر : النبوات : ٥٠١ ، ٨٤٨ – ٨٤٩ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ١٧٠ – ١٧٤ ، ٨٢٨ – ٨٢٩ .

(٣) انظر : المرجع السابق : ٥١٧ – ٥٢٠ ، ٧٧٦ ، ٨٠٧ – ٨٠٨ ، ٨٤٩ – ٨٥٢ ، ٨٦٣ .

(٤) انظر : المرجع السابق ٧٦٧ – ٧٦٨ .

(٥) انظر: شرح الأصول الخمسة: ٥٧١. و: أصول الدين؛ البغدادي: ١٧٠. و: النبوات: ١٦٣-١٦٤، ٥٠٠-٥٠٢، ٥١٧-٥٢٠، ٧٧٥-٧٧٦، ٨٠٧-٨٠٨، ٨٤٩-٨٥٢، ٨٦٣، والتعبيرات السابقة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية.

فآيات التابع لا يمكن أن تصل إلى درجة آيات المتبوع ، والله جل جلاله قد فضل الأنبياء عليهم السلام على غيرهم ، فلابد أن يمتاز الفاضل بما لا يقدر المفضول على مثله ، إذ لو أتى المفضول بمثل ما أتى به الفاضل ؛ لكان مثله لا دونه)(١).

وإذا كانت آيات الأولياء آيات لأنبيائهم عليهم السلام، فقد ذكر ابن تيمية أن آيات كل نبي هي آيات لسائرهم عليهم السلام، إذ هم يُصَدّقُ بعضهم بعضاً، وإذا بَشَّرَ النبي السابق بنبي لاحق؛ فإن كل آية للسابق هي آية له ولمن بَشَّرَ به ، وكذلك فإن كل آية للنبي اللاحق تدل على نبوته ونبوة من تقدم من الأنبياء عليهم السلام ، لتصديقه لهم ودعوته إلى الإيمان بهم .

وبناء على ما سبق : فإن آيات موسى وعيسى عليهما السلام آيات لمحمد صلى الله عليه وسلم لإخبارهم بنبوته ، وفي المقابل فإن آيات محمد صلى الله عليه وسلم تدل على إثبات جنس الأنبياء عليهم السلام ، وعلى نبوته صلى الله عليه وسلم ، ونبوة من نص عليهم(٢).

الآيات خارجة عن المقدور:

وقد يعبر عن كون الآيات خارقة للعادة بتعبير آخر وهو (٣) : أن تكون آيات الأنبياء عليهم السلام خارجة عن مقدور المكلفين من الجن والإنس(٤)، فلا يقدر أحد منهم على معارضتها، أو حتى على الإتيان بمثلها، إن كان من غير المؤمنين بالأنبياء والرسل عليهم السلام، فهم عاجزون

---

(١) انظر: النبوات: ٨٦٤-٨٦٦.

(٢) انظر: المرجع السابق: ٥١٨-٥١٩، ٨٠٩. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن من أعظم آيات محمد صلى الله عليه وسلم إخبار غيره من الأنبياء بنبوته عليهم السلام.

(٣) هذا ما ترجح عندي أن مؤدى الصفتين واحد، والله أعلم.

(٤) انظر: المرجع السابق: ١٤٤، ١٦٩-١٧٠، ٥٠٢-٥٠٣، ٦٦٣، ٧٧٥-٧٧٦، ٨٢٨، ٨٦٣-٨٦٤، ١٠٦٥، ١٠٧٠، ١٠٧٣. و: شرح الأصول الخمسة: ٥٦٩. و: أصول الدين؛ البغدادي: ١٧١. و: المواقف: ٣٣٩. و: العقيدة النظامية: ٦٧.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: أن الآيات خارجة حتى عن مقدور جنس الحيوان، انظر: النبوات: ١٤. أما الملائكة عليهم السلام؛ فقد ذكر أنه لا يشترط عدم قدرتهم، وذلك لأنهم غير مكلفين، ثم هم لا ينزلون ولا يؤيدون إلا الأنبياء عليهم السلام ، ومن بعدهم لا يؤيدون إلا المؤمنين الصالحين، ولا تنزل أبداً – نزول تأييد ونصرة – على السحرة والكهان والكفار والفجار . ومن المعلوم أن بعض الآيات هي بسبب الملائكة عليهم السلام مثل : نصرتهم للنبي عليه السلام وأتباعه على أعدائهم، أو إخبارهم النبي عليه السلام بالغيب ونحو هذا . انظر : النبوات : ٥٠٢ – ٥٠٣ ، ٨٦٤. ويلاحظ هنا أن أهل السنة يؤمنون بأن الله جل جلالة خالق كل شيء، ولكن مقدورات الرب جل ذكره على قسمين، فمنها ما يفعله بواسطة قدرة العباد، كأفعال العباد وما يصنعونه، ومنها ما يفعله بدون ذلك، كخلق السموات، انظر: النبوات: ٦٦٣، ١٠٦٥.

وذكر ابن تيمية أن من أراد بقوله : إن المعجزات خارجة عن مقدورات الخلق ؛ أنها خارجة عن مقدورات الملائكة عليهم السلام حتماً، كما هي بالنسبة إلى الإنس والجن ، أو أن الله تعالى يفعلها بلا بسبب ، فهذا قول باطل. إذ لا دليل على أن الله جل شأنه يخلق تلك الآيات بلا سبب ، أو أنه يخلقها بدون واسطة الملائكة عليهم السلام ، فهو تعالى قد أخبر أن جبريل عليه السلام هو الذي نفخ في مريم فحملت بالمسيح عليه السلام ، ولا شك أن خلقه بلا أب من أعظم الآيات، ولا مانع من أن تكون الملائكة عليهم السلام سبباً في بعض الآيات ، كما هي سبب في كثير من خلقه جل وعلا . انظر: النبوات: ١٠٦٥ – ١٠٧٢.

عنها، وليست لهم أية حيلة للإتيان بمثلها، وإلا لانتفت دلالتها على التصديق[١]، قال تعالى في شأن آية القرآن الكريم العظمى:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) ﴾ الإسراء.

ويمكن القول إن آيات الأنبياء عليهم السلام (المعجزات) هي في حقيقتها خارجة عن مقدور المكلفين من الإنس والجن جميعاً، وحتى الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وهم عندما يأتون بها يعلنون بأن الله جل جلاله هو الذي أوجدها لتصديقهم فيما يقولون، وليست هي من عند أنفسهم، قال تعالى حاكياً ما قاله لموسى عليه السلام:

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ القصص.

عدم معارضة الآيات (المعجزات):

وهذه نتيجة طبعية لكون الآيات خارقة للعادة وخارجة عن حدود المقدور. وبين ابن تيمية أن عدم معارضة الآيات هو من بعض صفات آيات الأنبياء (المعجزات) وشرط فيها ومن لوازمها، ولكنه ليس حداً مطابقاً لها، فشرط الشيء ولازمه قد يكون أعم منه[٢]، وكذلك لا يصح أن يقال: إن خاصة المعجز: عدم المعارضة، فإن هذا العدم لا يُعْلَم ، إذ قد يأتي فاجر بمخاريق ويقول إنه لم يُعارَضْ، لأنه لم يجد من ينتهض لمعارضته في منطقته ، وإن كان يوجد من تُمْكِنهُ معارضته في مناطق أخرى، وقد وجد من الكذابين من ادعى النبوة وأتى بمخاريق ولم يعارض[٣].

إلا أن هذا الوصف إذا قُيِّد فيمكن أن يكون دالاً على الآيات (المعجزات)، وعلى سبيل المثال يقال: إن الآيات هي: العجائب التي أتى بها الأنبياء عليهم السلام ، ولا يقدر عليها مكلفٌ بأية حيلة أو اكتساب، لكن يوجد في الناس من يقدرون على معارضة السحر والكهانة[٤]. أو يقال إنها: ما لا يمكن للمكلفين أن يعارضوه مطلقاً. والله أعلم.

---

(١) انظر: ما سبق عند الكلام عن استلزام الدليل لمدلوله : ١٣٤، وما بعدها.

(٢) انظر: النبوات: ٨٢٩.

(٣) انظر: المرجع السابق: ٧٩٤-٧٩٥، وقد ضرب على ما ذكر مثالاً بمسيلمة الكذاب.

(٤) انظر: المرجع السابق: ٨٢٩. وقد عبر القاضي عبد الجبار عن هذا الشرط بقوله : أن يكون -المعجز- من جهة الله تعالى، أو في الحكم كأنه من جهته عز وجل، أي: إنه لا يدخل تحت مقدور الخلق، ولا يمكن أن يتوصلوا إليه بأية حيلة، انظر: شرح الأصول الخمسة: ٥٦٩. وأما البغدادي فقد جعلها ثلاثة شروط، وهي: (١) أن تكون المعجزة من فعل الله جل جلاله ، (٢) أن تكون ناقضة للعادة، (٣) أن يتعذر على المتحدى به فعل مثله في الجنس ، أو على الوجه الذي وقع التحدي عليه، أصول الدين: ١٧١. وكذلك جعلها صاحب المواقف: ٣٣٩. وإمام الحرمين الجويني، انظر: العقيدة النظامية: ٦٥، و: الإرشاد: ٣٠٨.

الصفة الرابعة: ألاّ تكون الآية مُكذِّبة لمن أتى بها:

ومن شروط وأوصاف آيات الأنبياء (المعجزات) أنها لا تكون مكذبة لمن أتى بها أو في حكم المكذبة له.

وعلى سبيل المثال: فلو قال مدعٍ: إن آيتي أن ينطق هذا الضب، فنطق بإذن الله تعالى وكذبه وحذر الناس منه، فهذه آية، عليه لا له، ونحوها: كأن يتفل في بئر ليَعْذُبَ ماؤه؛ فيحصل نقيض مقصوده ويزداد الماء سوءاً[1].

وقد يعبر عن هذا الشرط فيقال: أن تكون الآية موافقة لدعوى مدعي النبوة، فلا تكون مكذبة له[2].

الصفة الخامسة: وجود نبي تؤيده الآية:

وهذه الصفة ظاهرة وطبعية، فلابد من وجود نبي، لتوجد مثل تلك الآيات المصدقات للأنبياء عليهم السلام.

إلا أنه لا يشترط في وجوده أن يكون مقترناً بالآية، بل يجوز أن تكون الآية سابقة لوجوده[3]، أو لاحقة له، أو مقترنة به، وعلى كل حال فلابد من وجود أمورٍ تدل على أن هذه الآيات الخارقات لها تعلق وارتباط بهذا الذي سيعلن نبوته للناس يوماً ما، أو بهذا الذي هو معلن لها، أو بذلك الذي قد أعلنها. ولابد كذلك من وجود ما يدل على أن ذلك الارتباط لا يقصد به إلا تصديقه فيما ادعاه. وتلك الأمور يمكن أن تدرك عن طريق التدبر والتفكر في الآيات، وفي حال من يظهر أنها متعلقة به لتصديقه.

وقد تصل بعض الآيات التي تسبق إعلان النبي نبوته؛ إلى درجة يجزم معها الناظر أنها لم توجد إلا لتكون مصدقة له فيما سيدعيه، وهذا كأن ينطق من سيصبح نبياً في مهده، ويعلن على الملأ أن الله جل ذكره جعله نبياً ، والزمان زمان إمكان النبوة ، وهذا كما حدث لعيسى عليه السلام، قال تبارك اسمه:

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة : ٥٧٠. و: أصول الدين ؛ البغدادي : ١٧١. و: العقيدة النظامية: ٦٧. و: الإرشاد: ٣١٥. و : المواقف في علم الكلام: ٣٣٩.

(٢) وقد ذكر الإيجي من صور عدم الموافقة أن يقول من يدعي النبوة معجزتي كذا ثم يظهر خارقاً آخر، انظر: المواقف: ٣٣٩. وقد فَصَلَ الإيجي هذا الشرط عن شرط أن لا تكون الآية مكذبة له. فإن أراد الإيجي أنه يشترط أن يذكر النبي عليه السلام لقومه أنه سيريهم آية كذا، قبل أن يريهموها ، ثم تظهر الآية على حسب ما قال ، فهذا شرط لا يكاد يوجد إلا في النادر من الآيات ، وهو إن أريد به هذا المعنى يؤدي إلى إبطال كثير من الآيات ، فهو شرط باطل .

وقد اشترط نحو هذا الشرط: إمام الحرمين الجويني في كتابه: العقيدة النظامية : ٦٧، إذ ذكر أن من شروط المعجزة: أن تقع على حسب إيثاره في وقت اختياره مطابقة لدعواه. وانظر: أصول الدين؛ البغدادي: ١٧٣-١٧٤.

(٣) وهي التي تسمى بالإرهاص.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً (٣٠)﴾ مريم.

وقد تعطي الآيات المصدقات ظناً راجحاً بأن من ظهرت لأجله سيكون له شأن ، فإذا كان الزمان زمان إمكان النبوات، وأعلن هذا الإنسان نبوته، فتلك الآيات السابقات التي لا يمكن أن تكون إلا قبل الله عز وجل؛ لا شك أنها ستؤيد دعواه النبوة.

ومن الآيات ما يكون بعد وفاة النبي عليه السلام، وعلى الرغم من هذا فإنها تعتبر من آيات تصديقه، ومنها: إخبار النبي عليه السلام بأمور ستحدث في المستقبل ، ولاسيما بعد موته، فتحدث كما أخبر.

ومنها: ما يظهره الله جل جلاله في حق مؤمن بالنبي عليه السلام صالح تقي، يدعو إلى الإيمان بالله جل جلاله وبالنبي عليه السلام، فإن أيده الله تبارك اسمه بآيات التصديق، فتلك آيات لاحقة لنبيه عليه السلام.

فآيات تصديق الخبر بالنبوة لا يشترط أن تختص بمكان أو بزمان بالنسبة إلى النبي الذي تصدقه، عليه السلام[1].

الصفة السادسة: وجود ما يدل على ارتباط الآية بالنبي عليه السلام:

إن من الصفات والشروط الطبعية لآيات التصديق (المعجزات) أن يوجد ما يدل على ارتباطها بالذي يستدل بها علىصدقه في دعواه النبوة ، وقد سبقت الإشارة إلى هذه الصفة عند بيان الصفة السابقة.

ومن الوجوه التي تدل على ذلك الارتباط؛ أن تظهر الآية على يد النبي عليه السلام، أو بطلبه، أو بدعائه ربه عز وجل، أو بأن يذكر أنه سيأتي بآية كذا، ونحو هذا من وجوه عديدة.

واشترط هذا الأمر لئلا يأتي متنبئ كاذب وينتهز حدوث آية ربانية في مكان ما لحكمة لا علاقة لها به، ثم يدعي أن هذه الآية قد كانت لتصديقه في دعواه[2].

---

(١) انظر: النبوات: ٧٩٤، ٨٥٣، ٩٨٣-٩٨٦. و: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح؛ له: ٢٥٠/٤. ومسألة اشتراط اقتران المعجزة بدعوى النبوة؛ من المسائل التي انتقدها شيخ الإسلام ابن تيمية وحمل على من قال بها من المتكلمين، بل ورفضها. انظر: النبوات: ٦٠٤، ٦٠٥، وذكر أن الدليل يدل سواء جاء من يعلن أنه يستدل بهذا الدليل أم لم يأت، ما دام أن الدليل موجود وظاهر. فمن ادعى أن دليل النبوة لا يكون دليلاً إلا إذا استدل به النبي عليه السلام عند إعلانه نبوته، وكذلك اشتراط: إعلان النبي عليه السلام مطالبته بالمعارضة، أو إعلانه التحدي، أو تقريعه بالعجز عن المعارضة، كل تلك الاشتراطات قال عنها ابن تيمية: إنها غلط عظيم، وذكر أن السكوت عن مثل تلك الأمور أبلغ في الدليل. وفي ص: ٨٥٣، ذكر أن اشتراط اقتران المعجزة بدعوى النبوة غلط عظيم. وفي ص: ٩٨٤، ذكر أن هذا الاشتراط في غاية الفساد والتناقض، ولا سيما أن الآيات قد تكون مخلوقة نائية عن النبي عليه السلام، وعن مكانه وعن زمانه، وانظر: ص: ٩٨٥. وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر انظر: المبحث التالي.

(٢) انظر: رسالة المعجزة؛ زمزم رجال: ١٤، (رسالة ماجستير)، وذكرت أنه باشتراط ذكر التحدي يبطل مثل هذا الافتراء.

الصفة السابعة: ظهور الآية:

ومما يشترط في الآيات (المعجزات) التي يستدل بها على صدق النبي عليه السلام في دعواه النبوة، ويجب على المكلفين الإيمان به بسببها : أن تكون ظاهرة مشاهدة لمن يستدل بها . إذ من غير المعقول أن يأتي -على سبيل المثال- نبي حق ويقول للناس: إن آيتي التي تدل على صدقي في دعواي ما قد حصل لي من أمر لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، وإنه لم يره أو يشاهده أو يعلم به أحد منكم[1]!!.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٠/١١.

المبحث الخامس: الصفات التي لا يجب إثباتها لكل آية معجزة.

١- الاقتران بدعوى النبوة، وقد بين ابن تيمية أن الصحيح عدم وجوب اقتران الآية (المعجزة) بدعوى النبوة، على معنى أنها لا تعتبر آية (معجزة) للنبي عليه السلام إلا بعد ادعائه النبوة، وأما إن أريد بذلك الاقتران أن الآية (المعجزة) لا توجد إلا لنبوة ثابتة فهذا معنى صحيح.

ويمكن أن يقال أيضاً: إنه من خلال استقراء آيات الأنبياء (المعجزات) فإننا نجد أن الرب الرحيم الحكيم جل جلاله إذا أيد رسله عليهم السلام بآيات (معجزات) غير الرسالة نفسها؛ فإنه يؤيدهم بآيات مقترنات مع دعوتهم، مع ما قد يؤيدهم به من آيات سابقات أو لاحقات، وذلك لأن هذا أقطع للعذر وأعظم في إقامة الحجة على العباد[1].

هذا مع العلم بأن الرسالة نفسها التي ينزلها الله عز وجل على رسوله عليه السلام ويأمره بتبليغها تحمل معنى الإعجاز، إذ هي في حقيقتها لا يمكن أن تكون منزلة إلا من الرب الحكيم العليم جل جلاله[2].

---

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح؛ ابن تيمية: ٤/ ٢٥٠-٢٥٤، وقد ذكر أنه: لابد من آيات في حياة النبي عليه السلام، تدل على صدقه، تقوم بها الحجة، وتظهر بها المحجة، واستدل على هذا بأدلة.

(٢) انظر: النبوات: ٩٨٣-٩٨٤. وانظر في اشتراط هذا الاقتران: شرح الأصول الخمسة: ٥٦٩-٥٧٠، فقد قال القاضي عبد الجبار، ضمن كلامه عن شروط المعجز: أن يكون واقعاً عقيب دعوى المدعي النبوة، لأنه لو تقدم الدعوى لم تتعلق به، وذكر أن شيخه أبا القاسم قد جوز التقدم، وكذلك فقد ذكر القاضي أنه يجب ألا يتراخى المعجز عن دعوى النبوة، إلا في حالة ثبوت النبوة بمعجز، وتراخي معجز آخر عن دعواه، كإخبار النبي عليه السلام عن غيب سيحدث في المستقبل، وقد يكون بعد موته عليه السلام.

وانظر: الإرشاد؛ إمام الحرمين الجويني: ٣١٤، فقد ذكر أنه لا ينبغي أن تتقدم المعجزة على الدعوى، فلا يصح أن تحدث آية، ثم يأتي من يقول إن تلك الآية التي حدثت قبل دعواي هذه؛ هي دليل لي على صحة ما أدعيه الآن.

أقول: قد سبق بيان أنه لابد أن يوجد ما يدل على ارتباط الآية السابقة بالنبي الذي سيعلن نبوته، فهي وإن أعطت ظناً في البداية، فلا شك أنها ستؤيد دعواه النبوة فيما لو أدعاها، وكان هذا ممكناً.

وأما التأخر فقد ذكر إمام الحرمين أن هذا يجوز في حالة وجود ما يدل على ارتباط هذه الآية المتأخرة به، كإخباره عن غيب سيحصل. وانظر: الإرشاد؛ له: ٦٧، حيث ذكر من شروط الآيات (المعجزات): أن يدعي النبوة ثم تظهر المعجزة مع دعواه لها، وتحديه الخلائق بها، فتقع على حسب إيثاره في وقت اختياره مطابقة لدعواه. وانظر: المواقف؛ الإيجي: ٣٤٠-٣٤١، فقد ذكر من الشروط: ألا يكون المعجز متقدماً على الدعوى بل مقارناً لها، لأن التصديق قبل الدعوى لا يعقل، فلو قال معجزتي ما قد ظهر على يدي قبل، لم يدل على صدقه، ويطالب به بعد، فلو عجز كان كاذباً قطعاً.

أقول: وهذا الاحتمال الذي ذكره هو الذي شدد النكير عليه شيخ الإسلام ابن تيمية، في كتابه: النبوات، بصفة عامة، إذ تجويز مثل هذه الصورة يعني أن آيات الأنبياء عليهم السلام يمكن أن يأتي بها الكذبة، وهذا كما يقول شيخ الإسلام باطل قطعاً، فدليل النبوة لا يمكن أن يدل على النبوة وعلى نقيضها، وقد سبق بيان هذا في الصفة الأولى.

وأما ما ذكره الإيجي من أن آيات النبوة إن ظهرت على يد إنسان، ثم ادعى النبوة، وذكر أن آيته هي ما سبق أن ظهر على يده؛ فإنه لا يقبل منه لتقدمه على الدعوى، فهذا الحكم الذي ذكره الإيجي قد أبطله أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية، إذ الآية قبل دعوى النبوة ما دام قد ظهر وبان ارتباطها بهذا الشخص على وجه يحمل معنى تصديقه فيما سيقوله ويدعيه، فإنه عندما يعلن نبوته لقومه ويكون هذا ممكنا، فلا شك أن تلك الآيات السابقات هي من أدلة وبراهين صدقه فيما أعلنه.

والإيجي لم ينف الآيات السابقات مطلقاً (الإرهاصات)، بل جعلها من قبيل الكرامات، ولا حاجة لهذا بعدما سبق بيانه.

٢- اقتران الآية (المعجزة) بالتحدي: أي بأن يعلن النبي عليه السلام تحديه لمن بعث بينهم بأنهم لا يقدرون على الإتيان بمثل آيته، أو لا يقدرون على معارضتها.

وقد بين ابن تيمية بطلان دعوى وجوب اقتران الآية بالتحدي المعلن ، وذكر أن الآيات التي ظهرت على يد النبي صلى الله عليه وسلم كثيرة، ولكنه لم يكن صلى الله عليه وسلم كلما ظهرت على يديه آية تحدي الناس أن يأتوا بمثلها، بل إنه لم ينقل عنه التحدي إلا في القرآن الكريم خاصة.

فلو كان مثل ذلك الشرط واجباً؛ لأدى إلى أن تلك الآيات والبراهين التي ظهرت على يديه صلى الله عليه وسلم؛ ليست من قبيل الآيات المعجزات، ولا شك في بطلان هذه النتيجة، فيبطل الشرط الذي أدى إليها.

وأيضاً فإنه لا يوجد ما يدعو إلى اشتراط إعلان التحدي، فالدليل الصحيح يستلزم مدلوله، والآية (المعجزة) حقاً تستلزم وجود النبوة الحقة، سواء قال النبي عليه السلام: ائتوا بمثله، أو قال: إنكم لا تقدرون على الإتيان بمثله، أو : أتحداكم أن تأتوا بمثله، فذكر مثل هذا الأمر لا تصيّر الدليل دليلاً، وكذلك لا تنتفي دلالة الدليل بعدم ذكرها.

فالآية المعجزة حقاً لن يقدر أحد من المعارضين على الإتيان بمثلها ، سواء تحداهم المستدل أم لم يتحداهم.

ولذلك ذكر ابن تيمية أن جعل التحدي جزءاً من الدليل من الغلط العظيم، ونحوه جعل دعوى النبوة نفسها، أو الاستدلال بالدليل، أو التقريع بالعجز، أو نحو هذا جزءاً من الدليل، فهذا كله من الغلط، والسكوت عن ذلك كله أبلغ في الدلالة، والنطق بمثل تلك الأمور لا يقوي الدليل[(١)].

(١) انظر: النبوات: ٥٤١-٥٤٢، ٦٠٤-٦٠٥، ٧٩٤. وقد ذكر الإيجي وهو من متأخري علماء الكلام أن الحق أنه لا يشترط التصريح بالتحدي، بل يكفي قرائن الأحوال، انظر: المواقف: ٣٣٩. وأما إمام الحرمين الجويني فقد ذكر في كتابه: العقيدة النظامية: ٦٧: في الشرط الرابع من شرائط المعجزات: أن يدعي النبوة ثم تظهر المعجزة مع دعواه لها، وتحديه الخلائق بها. وذكر في كتابه: الإرشاد: ٣١٣: ضمن وجوه الشرط الثالث، أن يتحدى النبي -عليه السلام- بالمعجزة، وتظهر على وفق دعواه، وذكر أنه يكفي في التحدي أن يقول: آية صدقي أنه يحيي الله -تعالى- هذا الميت، وليس من الشرط أن يقول: هذه آيتي ولا يأتي بها أحد. اهـ. أقول : وحتى هذا الذي اشترطه لا يوجد في كثير من الآيات، فالآية الحقة تحمل معنى التحدي، ولكن لا يشترط ذكر هذا التحدي وإعلانه؛ وإن كان قد يوجد في بعض الآيات.

المبحث السادس: الفرق بين المعجزة والكرامة، وبين المعجزة والسحر.

أولاً: الفرق بين المعجزة والكرامة:

الكرامة لغة:

الكرامة لغة مأخوذة من: الكرم، ومن معاني الكريم أنه: الكثير الخير، الذي يجود بعطائه فوق المعتاد، وهو أيضاً الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل.

ومما جاء في كتب اللغة:

كَرُمَ الرجلُ كَرَماً وكرامة فهو كريم وكريمة.

والكرامة: اسم يوضع للإكرام، والمُكَرَّم: الرجل الكريم على كل أحد. ويقال: كرم فلان علينا كرامة، والمَكْرُمَة والمَكْرَم: فعل الكرم.

ومما سمع من العرب أنها تقول البقعة الطيبة التربة والجيدة النبات: هذه بقعة مَكْرَمَة.

ويقال للرجل الكريم: مَكْرمان؛ إذا وصفوه بالسخاء وسعة الصدر.

ويقال: هذه البلدة إنما هي كَرْمَة ونَخْلة، يعني بذلك الكثرة.

وإذا جاءت السماء بالقطر قيل : كَرَّمَتْ . ويقال للسحاب إذا جاد بمائه: كُرِّمَ. وكَرَّمَ المطر وكُرِّمَ: كَثُرَ ماؤه.

ويقال: حمل إليه الكرامة، وهو مثل النُّزُل.

ويقال: كَرُمَت أرض فلان: إذا زكا نباتها.

والكرامة: اسم للإكرام.

وقد وصف القرآن بأنه كريم:

﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) ﴾ الواقعة.

وذلك لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

والكريم في قوله جل شأنه:

﴿ ... وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً (٣١) ﴾ الأحزاب.

يأتي بمعنى: الكثير[1].

---

(١) انظر: العين ؛ الخليل بن أحمد: ٥/٣٦٨-٣٦٩. و: لسان العرب: (كرم)/ ١٥/ ٤١٤-٤١٩. و: ترتيب القاموس المحيط: (كرم)/٤/ ٤١-٤٣. و: مختار الصحاح: (كرم)/ ٢٧٣.

الكرامة اصطلاحاً:

وأما الكرامة في الاصطلاح فقد عرفت بأنها:

أمر خارق للعادة يظهره الله جل جلاله على يد ولي غير مدعٍ للنبوة [١].

ففي التعريف اشتراط كون الكرامة تصل إلى حد أن تكون أمراً خارقاً للعادة ، وهي من هذا الوجه تشارك المعجزة . ومؤدى هذا أن الكرامة لا تكون كرامة إلا إذا وصلت إلى حد خرق العادات، وخروجها عن قدرة الخلق المكلفين.

والظاهر أن بعض صور الكرامات وإن وصلت إلى حد خرق العادات؛ إلا أن اشتراط كونها كذلك يخرج ما لا يحصى من الأمور التي يُكرِم بها الله جل ذكره كثيراً من أوليائه الصالحين ؛ عن أن تكون من باب الكرامات.

ولذلك فإنه يمكن بيان الكرامة على أنها:

أمر غير مألوف يجريه الله جل جلاله على يد عبد مؤمن تقي من غير الأنبياء عليهم السلام، أو من أجله . وهو مما لا صُنْعَ له فيه ، ولا قدرة له عليه. وقد يكون بسبب دعاء، أو أعمال صالحة متقدمة[٢]. وقد يكون ذلك الأمر لمعونته في مسألة خاصة، أو لنصرته على عدو له ظالم، أو لتأييده في دعوته إلى الحق. وقد يصل ذلك الأمر إلى حد كونه خارقاً للعادة، ولكن لا يُشْتَرط. والولي الحق لا ينشر خبر كرامته في الخلق ، ويعتبرها حجة عليهم ، فإن فعل هذا، فإنه يطعن في حقيقة ما ظهر على يديه[٣].

وإن لم تصل الكرامة إلى حد كونها خارقة للعادة، فإن الفارق بينها وبين مخاريق الكاذبين والفاجرين تكون بدراسة حال من ظهرت على يديه، ومدى التزامه بأحكام الشرع الظاهرة والباطنة، وكذلك التفكر في هذا الذي ظهر على يديه أو من أجله ، وكيفية ظهوره، وهل يمكن أن يكون بالحِيَلِ، أو معونة أحد من الخلق الفاسقين ولو كان من الجن.

فالولي الصالح يقر ويعترف ويعلن أنه لولا إيمانه الصحيح بالرسول عليه السلام؛ وبما جاء به، واتباعه له، لما حصل له شيء من الكرامات والآيات الربانية. فذلك الإيمان والاتباع هما السبب الحقيقي لما حصل له .

---

(١) انظر : التعريفات: ٢٣٥. و: شرح العقيدة الطحاوية: ٥٥٨. و: التعاريف؛ المناوي: ٦٠١ - ٦٠٢. و: قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر: ١٠٠. و : أصول الدين؛ البغدادي: ١٧٤. و: العقيدة النظامية: الجويني: ٧٠-٧١. و: الإرشاد؛ له: ٣١٦.

(٢) انظر : تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد؛ لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: ٣٦١/١.

(٣) انظر : المرجع السابق ، الموضع نفسه. وانظر: تفسير القرطبي: ٣٠/١١. وعن كتمان الكرامة، انظر: اعتقاد الإمام أحمد، عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمي : ٣٠٦. و : العقيدة، روايات متعددة عن عقيدة الإمام أحمد، رواية: أحمد بن جعفر بن يعقوب الإصطخري: ١٢٦.

وكذلك فإن الولي الصالح لا يطلب حصول الكرامات ابتداء، ولا يفني عمره بحثاً عن الكرامات، إذ هو يعلم أنه آية الولي (الكرامة) كآية النبي عليه السلام ليست أمراً يطلبه المؤمن لذاته، أو لظنه أنه ينال بسببه مرتبة لم تكن له، وإنما الأساس في الآيات جميعاً : أنها لا تنزل إلا بقضاء من الله جل جلاله، وقضاؤه مرتبط بحكمته تبارك اسمه.

وإذا طلب الولي من الله جل ذكره أمراً هو من قبيل الآيات (الكرامات) فهو يطلبه إما لمعونته في أمر حل به ولم يجد منه مخرجاً، وإما لمصلحة عامة.

وقد سبق بيان أن الكرامة بصفة عامة تعتبر من أدلة إثبات النبوة ، فإن ظهرت على يد مؤمن صالح تقي، وكانت لأمرٍ خاص به؛ فهي تقوي إيمانه بربه جل ذكره وبنبيه عليه السلام وبسائر أركان الإيمان، مع ما فيها من مساعدة له.

وأما إذا أكرم الله تبارك اسمه وليه بشيء من تلك الكرامات أمام ملأ من الناس -ولاسيما إذا كان أمام مخالفين له ومنكرين لدعوته إلى الحق- فإن الكرامة (الآية) تعتبر عندئذ مصدقة له فيما يدعو إليه من الحق.

ومن المعلوم أن الحق الذي يدعو إليه الولي الصالح هو الذي جاء به النبي عليه السلام، فتصديق الولي هو في حقيقته تصديق للنبي عليه السلام، كما سبق بيانه(١).

ومن الحق الذي يدعو إليه الولي الصالح: الإيمان بالرسول عليه السلام، فإذا صدق بآية من الآيات، فإن هذا يدل على صدق الرسول -عليه السلام- الذي يدعو الولي إلى الإيمان به.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن دلالةِ الآية التي يصدق بها الله عز وجل الولي الصالح الداعي إلى الإيمان به تعالى وبنبيه عليه السلام ؛ قد تكون أبلغ -في المعنى- مما لو ظهرت على يد النبي نفسه عليه السلام.

وبناء على أن الكرامات هي من آيات تصديق الأنبياء ، فقد عمم ابن تيمية القول في الآيات (المعجزات)، فذكر أنها آيات لتصديق الخبر عن النبوة، سواء كانت نبوة المخبر نفسه، أم نبوة غيره. وهي من ثم لا تظهر إلا على يد صادق في إخباره عن النبوة(٢)، لما سبق بيانه(٣).

وعلى الرغم مما سبق فإنه توجد فوارق عدة بين الآية (المعجزة) التي تظهر على يد الأنبياء عليهم السلام، وبين الآية التي قد يكرم الله تعالى بها بعض خلقه الصالحين، ومن هذه الفوارق:

---

(١) انظر: ما سبق: ١٣٧.

(٢) انظر: تفسير الرازي: ٩٣/٢١. و: تفسير القرطبي: ٢٠٦/١٣. و: النبوات: ١٣٣، ١٤١-١٤٣، ٤٩٢-٤٩٣، ٦٠٣-٦٠٤، ٨٠١-٨٠٢، ٨٠٧-٨٠٩، ٨٢٠-٨٢١، ٨٢٣-٨٢٥، ٨٤٩-٨٥٠، ٩٨٩-٩٩٠، و : شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه صلى الله عليه وسلم؛ ابن كثير: ٣٢١. وذكر البغدادي في كتابه: أصول الدين: ١٨٥ : أن الناقض للعادة يدل على الصدق.

(٣) انظر: ما سبق : ١٣٤.

ثانياً: الفرق بين المعجزة ومخاريق السحرة والكهان وغيرهم من الكاذبين:

إنه مما لا شك فيه أن السحرة ونحوهم قد يأتون بعجائب ومخاريق ليست معتادة لكثير من البشر، وفي كثير من الأحيان فإن لهذه المخاريق أسباباً لطيفة يصعب إدراكها لمن لم يكن منهم، أو لمن لم يتعلم طريقتهم، إذ قد تكون بمعونة الجن من الكفرة أو الفاسقين.

ومثل هذا قد يدفع إلى الظن بأن مخاريق السحرة تشبه آيات الأنبياء (المعجزات) وأنه لا فرق بينهما إلا في دعوى النبوة، وقد خصص ابن تيمية معظم كتابه النبوات للرد على هذا الظن الخاطئ، وبين العديد من الفوارق بين ما جاء به الأنبياء عليهم السلام، وبين ما جاء به أضدادهم من السحرة والكهنة والكذابين، وقد سبق قريباً بيان استدلالاته المتعددة على إثبات حقيقة وجود تلك الفوارق الظاهرة، والتي تتضمن الاستدلال بصفات كمال الرب جل ذكره وحكمته وعدله وقدرته ورحمته وسنته، وغير هذا من الاستدلالات[١].

وبناء على تلك الاستدلالات؛ فقد ذكر ابن تيمية عدة أمور تبين إذا كان ما يُرى مما هو غير مألوف؛ آية من الله تبارك اسمه لتصديقه نبيه عليه السلام؛ أو هو من قبيل المخاريق والشعبذات البشرية وأنواع الدجل، ومن هذه الأمور:

الأول: أن أخبار الأنبياء عليهم السلام عن الله تعالى كلها صدق، ولا يوجد فيها كذب مطلقاً، لا عمداً ولا خطأ، وأما من يخالفهم ويضادهم من الكهان وأضرابهم فإنهم إن أخبروا عن أمور مغيبة فلابد أن يوجد في كلامهم من الكذب ما هو أضعافُ أضعافِ الصدق، قال جل ذكره:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)﴾ الشعراء.

الثاني: أن الأنبياء عليهم السلام لا تأمر ولا تفعل إلا ما هو حق أو خيرٌ، كعبادة الله عز وجل وحده، والإخلاص له تعالى، وطلب الآخرة، والقيام بأعمال البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والشرك والكذب والظلم . وأما مخالفوا الأنبياء -عليهم السلام- فلابد أن يأمروا بما هو خلاف الحق والخير، كالظلم والشرك، والقول على الله سبحانه بلا علم، وفعل الفواحش، والأمر بالإثم والعدوان، وتعظيم أمر الدنيا.

الثالث: أن آيات الأنبياء عليهم السلام ليست معتادة للبشر فلا يمكن أن يأتي بها إلا الأنبياء عليهم السلام، وقد يجريها الله تبارك اسمه على يد بعض أتباعهم الصالحين الصادقين. وأما مخاريق مخالفيهم من السحرة والكهنة ؛ فهي أمور معتادة معروفة يدركها كل من مارس شيئاً من هذه الشعوذات.

الرابع: أن آيات النبوة والتصديق لا تنال بتعلم واكتساب، بعكس ما قد يظهر على أيدي السحرة والكهان، فيمكن أن يناله الإنسان بتعلمه وسعيه واكتسابه.

---

(١) انظر ما سبق: ١٢٦-١٣٠.

الخامس : أن آيات الأنبياء عليهم السلام لا يقدر عليها إنس ولا جن [١] ، مقدرة ذاتية . وأما ما يأتي به الكهان والسحرة فلا يخرج عن كونه مقدوراً للجن والإنس، بصفة عامة.

السادس: أن آيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن يعارضها أحدٌ، بخلاف مخاريق مخالفيهم، فيمكن أن تعارض بمثلها.

السابع : أن الملائكة عليهم السلام هم الذين يرسلهم الله تبارك اسمه لتأييد أنبيائه عليهم السلام، والملائكة لا تأمر إلا بالحق والخير، ولا تخالف أمر الله جل شأنه، ولا تنزل على العصاة نزول تأييد . ولهذا فإن مؤيدي الكهنة والسحرة ونحوهم من مخالفي الأنبياء عليهم السلام ليسوا إلا أمثالهم من فسقة الجن وكفرتهم وفجرتهم، فلابد أن تظهر آثار صفاتهم الذميمة على أوليائهم من الإنس.

الثامن : أن أمر آيات الأنبياء عليهم السلام إلى الله جل شأنه لا إلى المخلوق ، بعكس مخالفي الأنبياء عليهم السلام فهم يطلبون المخاريق ويسعون إليها[٢].

فإدراك أن هذا الأمر غير المألوف هل هوآية نبي حقاً؛ أم هو من المخاريق التي يأتي بها مخالفو الأنبياء عليهم السلام؟؛ يمكن الوصول إليه من خلال معرفة صفات الذي أتى بذلك الأمر، وأفعاله، وأقواله، وأوامره، ومن خلال التفكر والتدبر في هذا الأمر غير المألوف نفسه[٣].

وبعد ، فإن آيات النبي محمد صلى الله عليه وسلم المادية كثيرة جداً ومتنوعة، ولعل من أشهرها انشقاق القمر، الذي جاء بإثباته القرآن العزيز، قال تعالى:

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) ﴾ القمر.

وقد قام فريق من العلماء بجمع الكثير من الآيات المادية له صلى الله عليه وسلم، مع بيان أدلتها، والحكم عليها[٤]. وقد بلغ مجموع ما ورد منها في السنة حد التواتر، فلا يستطيع عاقل أن ينكرها بالكلية[٥]، مع ادعائه الإيمان بهذا الدين.

---

(١) وأما الملائكة عليهم السلام فقد تكون سبباً في بعض الآيات. انظر: النبوات: ٥٥٩، ١٠٨٤، وانظر: ما سبق: ١٣٨، هـ: ٤.

(٢) انظر: النبوات ٥٥٨-٥٦٠، ٨٣٠-٨٣١، ٨٣٥-٨٣٧، ١٠٧٤ إلى آخر الكتاب، وتوجد وجوه أخرى: ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المواضع، وفي مواضع متفرقة من كتابه هذا.

(٣) انظر: النبوات: ١٥٢.

(٤) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ٤/١٦١-٢٢٩. و: كتاب : شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ابن كثير: ١٥٨- ٣٥٤. و : أعلام النبوة؛ علي بن محمد الماوردي: ١١١- ١٢٠. وانظر كتب: دلائل النبوة لكل من: جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي، وإسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، والبيهقي.

(٥) انظر: أعلام النبوة؛ الماوردي: ١١٩-١٢٠.

المبحث السابع: الأدلة الموضوعية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

إن المتبادر إلى الذهن عند ذكر الآيات (المعجزات) الدالة على صدق الرسول عليه السلام هو: حدوث أمر مادي خارق للعادة، كانقلاب الحية عصا، وانفلاق البحر، وإحياء الموتى، ونحوها من الأمور.

والحق أنه توجد من الأمور المعنوية أدلة وبراهين كثيرة تدل على صدق الرسول عليه السلام في دعواه الرسالة ، وتدل على صحة الرسالة التي جاء بها ، وكذا تدل على صدق النبي عليه السلام في دعواه النبوة.

وقد تصل بعض هذه الأمور إلى درجة يتقين معها المتدبر أنها لا يمكن أن تكون إلا من قبل الله جل ذكره، ولا يمكن أن تكون من صنع المكلفين، ولو اجتمعوا عليها، وكان بعضهم لبعض ظهيراً.

ومن أمثلة هذا النوع: الرسالة التي جاء بها الرسول عليه السلام، والقرآن الكريم وغير هذا.

إلا أن الإقرار بما تستلزمه تلك الأدلة لا يتأتى إلا ممن يتدبرها بحق، ولا يكون همه إلا الوصول إلى الحق والإيمان به ، إذ استنباط دلالة تلك البراهين يحتاج إلى نظر وتفكر وتدبر، ومن كان عنده رفض سابق لقبول الحق فإنه لا يصعب عليه أن يراوغ في هذه البراهين، ويجادل بالزور والبهتان في دلالاتها، ويقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً.

وإذا كان مثل هذا يحصل في الآيات المادية فحصوله في الآيات المعنوية أحرى، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾ الحجر.

وقال تبارك اسمه:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾ الأنعام.

وما أتى نبي من الأنبياء عليهم السلام قومه بآية إلا اتهمه الملأ بالسحر والكذب على الله سبحانه.

وبصفة عامة؛ فإن تلك الأدلة والبراهين ترجع إلى النبي عليه السلام نفسه، وذلك في: ذاته ونسبه وسيرته قبل أن يصير نبياً ، وكذلك فإنها توجد في جميع أقواله وأفعاله وصفاته وأخلاقه وجميع أحواله بعد أن صار نبياً -عليه السلام- ، وكذلك في سيرته في الدعوة وجهاده وتعامله مع الخلق جميعاً -عليه السلام-، ومن بعده في مسيرة دعوته التي بَلَّغَها للمكلفين، وسيرة أتباعه، وأمته -عليه السلام-[١].

وممن استدل ببعض تلك الأدلة الموضوعية:

١- أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وذلك عندما أتاها النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أنزل عليه الوحي في حراء، وقال لها: "لقد خشيت على نفسي"، فقالت رضي الله عنها: (كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)[٢].

فاستدلت خديجة رضي الله عنها بسابق سيرته صلى الله عليه وسلم التي بلغت أعلى درجات الحسن من جميع جوانبها؛ على أن الله عز وجل لن يخزيه أو يضره، إذ من سنته تعالى ألا يخزي ولا يضر من كانت سيرته على ذلك الوجه الرفيع[٣].

٢- وكذلك ورقة بن نوفل[٤]، فعندما انطلقت خديجة رضي الله عنها بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى ورقة، سأل النبي صلى الله عليه وسلم عما رآه وسمعه ، فأخبره صلى الله عليه وسلم، ومن خلال هذا الخبر: استدل ورقة على أن ما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون إلا نبوة حقة من عند الله عز وجل، فقال: (هذا الناموس الذي نَزَّلَ الله على موسى، ياليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً إذ يُخْرِجُكَ قومك)[٥].

فورقة قارن بين ما حصل لمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاءه وما أخبره به ؛ وبين ما يعرفه من أخبار الأنبياء عليهم السلام، فوجد ما جرى لمحمد صلى الله عليه وسلم نظيراً لما حصل لموسى عليه السلام، فاستنتج أن ما جاء محمداً صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون إلا وحياً صادقاً من عند الله تبارك اسمه[٦].

---

(١) انظر: النبوات: ٩٨٥.

(٢) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ للبخاري. وقد سبق تخريج الحديث، انظر: ٥٣.

(٣) انظر: شرح العقيدة الأصفهانية؛ ابن تيمية: ٩٣.

(٤) ستأتي ترجمته انظر: ٣٥٣، هـ: ٢.

(٥) وكلام ورقة هذا تتمة للحديث السابق؛ حديث خديجة رضي الله عنها. والناموس: هو جبريل عليه السلام، والناموس صاحب سر الملك أو الرجل، وقيل: الناموس: صاحب سر الخير. انظر: لسان العرب: (نمس)/ ٨/ ١٣٠.

(٦) وقد سمى ابن تيمية هذا المسلك من الاستدلال بـ : المسلك النوعي، ويعني به : مقارنة ما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم بما جرى لمن قبله من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام. انظر: شرح العقيدة الأصفهانية؛ له: ٩٣.

٣- ويقرب من استدلال ورقة استدلال النجاشي[1] رحمه الله؛ على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا عندما رأى أن الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم مطابق للحق الذي جاء به موسى عليه السلام، فقال بعدما سمع بعض العقائد والأحكام التي بلغها صلى الله عليه وسلم، وآمن بها وطبقها صحابته رضوان الله عليهم، وبعدما سمع ما سمعه من آيات القرآن الكريم:

(إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة)[2].

٤- وأما هرقل[3]؛ فإنه عندما بلغه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه فيه إلى الإسلام، سأل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أحواله قبل الدعوة وبعدها، وعن دعوته نفسها، وأتباعه رضي الله عنهم ، واستنتج من خلال ما سمعه من أجوبة على أسئلته: صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأن دعوته ستنتشر حتماً.

فعن أبي سفيان[4] رضي الله عنه أنه كان في الشام عندما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم كتابه إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وذلك في المدة التي كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش، وقد أراد هرقل -قيصر الروم يومئذ- رجلاً من قوم النبي صلى الله عليه وسلم ليسأل عن

---

(١) النجاشي هو : لقب لمن ملك الحبشة، والمقصود به هنا: أصحمة، وهو الذي هاجر إليه طائفة من المسلمين، عندما اشتد عليهم ظلم قريش، وقد كان هذا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلم رضي الله عنه، قال الذهبي: وهو معدود في الصحابة من وجه، وفي التابعين من وجه آخر، وقد توفي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فصلى عليه.
انظر : سير أعلام النبلاء ؛ الذهبي : ١/٤٢٨-٤٤٣. و: الإصابة: ١/٢٠٥-٢٠٦. و: فتح الباري: ٣/١٨٧. و: لسان العرب: (نجش)/ ٨/٢٤٤.

(٢) رواه أحمد في المسند عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها . المسند : ١/٢٠١-٢٠٢، وانظر: ٥/٢٩٠-٢٩١. وانظر: مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد: ٣/٢٦٢-٢٦٨، وقد حسن المحقق إسناده، وقال: رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق ، فقد روى له مسلم متابعة، وهو صدوق حسن الحديث، إلا أنه مدلس، لكنه هنا صرح بالتحديث، فانتفت شبهة تدليسه. وانظر : المغازي؛ ابن اسحاق : ٢/١٩٦-١٩٩. و: سيرة ابن هشام؛ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد: ١/٣٥٧-٣٦٤. والحديث أورده الهيثمي في: مجمع الزوائد: ٦/٢٧، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق، وقد صرح بالسماع. وصحح سند هذا الحديث أيضاً: محققا كتاب زاد المعاد : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط: ٣/٢٩/هـ:١. وحسن كذلك إسناد الحديث إلى أم سلمة رضي الله عنها: أكرم ضياء العمري في كتابه: السيرة النبوية الصحيحة: ١/١٧٤/هـ: ١. وانظر: شرح العقيدة الأصفهانية؛ ابن تيمية: ٩٣.

(٣) هرقل ملك الروم، ولقبه: قيصر، وهو الذي دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، وروي أنه أحسن التعامل مع كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ثبت الله ملكه)، وقد عرف هرقل صدق النبي صلى الله وعليه وسلم إلا أنه آثر الملك، وهو الذي حارب المسلمين في وقته مؤتة. وهو الذي أجلاه المسلمون عن الشام. وروي أنه حاول إقناع الأساقفة والبطارقة بالإسلام فرفضوا وتراجع. وذكر ابن حجر أنه يحتمل في شأنه أن يكون قد كتم إيمانه من باب الخوف على نفسه وملكه ، وأما محاربته للمسلمين فكانت من باب المعاصي، ويحتمل أنه مات على الشك، وروي أنه أرسل للنبي صلى الله عليه وسلم يخبره بإسلامه فكذبه، والله أعلم. والظاهر أنه مات على دين أهل ملته.
انظر : فتح الباري: ٣٣-٤٤. و: تهذيب الأسماء واللغات؛ النووي: ٢/٣٧٥. وانظر: الاحتمال الذي ذكره الذهبي في: سير أعلام النبلاء: ٢/١٥. و: الإصابة: ٣/٥٠٠ (ترجمة ضغاطر).

(٤) أبو سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي. أسلم عام الفتح ، وشهد حنيناً والطائف، وكان من المؤلفة. وثبت يوم اليرموك، ودعا المسلمين إلى الثبات. ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه، على خلاف في سنة موته، وقيل، كان أسن من الرسول صلى الله عليه وسلم بعشر سنين.
انظر: الإصابة: ٣/٤١٢. و: سير أعلام النبلاء: ٢/١٠٥-١٠٧. و: تهذيب التهذيب: ٤/٣٦١.

حاله صلى الله عليه وسلم، فوجدوا أبا سفيان رضي الله عنه -وكان حينئذ مشركاً- ومن معه من تجار قريش ، فأحضروهم بين يدي هرقل ، فسألهم عن أقربهم نسباً بالنبي صلى الله عليه وسلم، فأخبرهم أبو سفيان أنه هو أقربهم نسباً به، صلى الله عليه وسلم. فأخذ هرقل يسأله -عن طريق ترجمانه-، وطلب من أصحاب أبي سفيان أن يكذبوه، إن كذب في شيء مما يجيب به عن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال أبو سفيان:

(والله لولا الحياء يومئذ من أن يأثر أصحابي عن الكذب لكذبته حين سألني عنه، ولكني استحييت أن يأثروا الكذب عني ، فصدقته . ثم قال لترجمانه: قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم؟، قلت: هو فينا ذو نسب. قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟، قلت: لا. فقال: كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟، قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟، قلت : بل ضعفاؤهم . قال : فيزيدون أو ينقصون؟، قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟، قلت: لا. قال: فهل يغدر؟، قلت: لا، ونحن الآن منه في مدة، نحن نخاف أن يغدر. قال أبو سفيان: ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئاً أنتقصه به، لا أخاف أن تؤثر عني؛ غيرها . قال : فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟، قلت: نعم. قال: فيكف كانت حربه وحربكم؟، قلت: كانت دولاً وسجالاً، يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى. قال: فماذا يأمركم؟، قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. فقال لترجمانه حين قلت ذلك له: قل له: إني سألتك عن نسبه فيكم، فزعمت أنه ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟، فزعمت أن لا ، فقلت : لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله؛ قلت: رجل يأتم بقول قد قيل قبله. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟، فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟، فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك؛ قلت: يطلب ملك آبائه. وسألتك: أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟، فزعمت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون؟، فزعمت: أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟، فزعمت أن لا ، فكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وسألتك : هل يغدر؟، فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون. وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟، فزعمت أن قد فعل، وأن حربكم وحربه تكون دولاً، ويدال عليكم المرة، وتدالون عليه الأخرى ، وكذلك الرسل تبتلى، وتكون لها العاقبة، وسألتك: بماذا يأمركم؟، فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة

النبي. قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه منكم ، وإن يك ما قلت حقاً فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه...)[١].

فهرقل سأل أولاً عن نسب النبي صلى الله عليه وسلم فوجده ذا نسب في قومه، وهذا يقارن به ما يعلمه هرقل عن الأنبياء عليهم السلام، فهم ذوو أحساب في أقوامهم، وهذا يدل على كرم أصلهم، فهم عليهم السلام ليسوا من الوضيعين الذين يبحثون عن الرفعة بأية طريقة.

وسأل كذلك: إن كان قد وجد فيهم من ادعى النبوة قبله، إذ لو وجد مثل هذا سابقاً؛ لأمكن أن يوجد من يدعيها كاذباً، فهو يقتدي بذلك السابق ، وهذا ما حصل لدى بعض العرب بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وانتشار دعوته.

وسأل أيضاً صراحةً: إن كان قد أثر عنه صلى الله عليه وسلم قبل دعواه النبوة: كذب على البشر، فأخبر بأنه لم يعهد منه إلا الصدق -صلى الله عليه وسلم- فاستنتج أنه لا يمكن أن يَدَعَ النبي صلى الله عليه وسلم الكذب على البشر المدة الطويلة ، ويترفع عنه، ثم فجأة يكذب على الله سبحانه أعظم الكذب وأقبحه، فإن من يتورع عن الكذب على الناس؛ يكون ورعه عن الكذب على الله تعالى أعظم وأجل.

وكذلك سأل عن آبائه: إن كان فيهم من ملك، فهو يطلب ملك آبائه بأية طريقة. وبهذا يكون هرقل قد سأل أولاً عن أسباب الكذب وعلاماته فرآها منتفية، وسأل عن علامات الصدق فوجدها ثابتة. وقد تبين لهرقل أنه صلى الله عليه وسلم قد ابتدأ دعوى لم تكن معهودة من قبل في قومه، ومثل هذا الابتداء لا يكون إلا من صادق عادة، بخلاف من يقلد من سبقه.

ثم سأل هرقل عن مسيرة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وعن حال أتباعه، أسئلة تفرق بين دعوة الحق ودعوة الباطل، وتؤكد في نتيجتها صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فسأل عن أتباعه، فوجدهم الضعفاء، وهم أتباع الرسل عليهم السلام عادة . قال تبارك اسمه حاكياً ما ذكره قوم نوح عليه السلام له:

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾ هود.

وسأل عن مدى إنتشار دعوته صلى الله عليه وسلم بين الناس، فأخبر بأن أتباعه يزيدون ولا ينقصون، وهذا من علامات صدق الداعي، ولاسيما بعد مرور مدة على دعوته، إذ الكاذب لابد أن ينكشف أمره ويفتضح حاله، ومن ثم يتوقف من لم يؤمن به عن قبول دعوته.

---

(١) متفق عليه عن ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهم، واللفظ للبخاري. البخاري: ١٠٧٤/٣/ح: ٢٧٨٢. وانظر: ٧/١/ح: ٧، و: ١٦٥٧/٤/ ح: ٤٢٧٨. و: مسلم: ١٣٩٣/٣/ ح: ١٧٧٣.

وسأل كذلك عن مدى ثبات من آمن بدعوته صلى الله عليه وسلم على إيمانه وتمسكه به، فأخبر بأنهم متمسكون به لا يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له، وهذا من علامات صدق الدعوة، فإن الإيمان الحق إذا دخل قلب المؤمن لم ينفك عنه.

ثم سأل عن حال تعامله مع أعدائه صلى الله عليه وسلم، إذ هي تحتوي على أظهر العلامات التي تفرق بين الصادق والكاذب في ادعاء النبوة، فإن من يتجرأ على الكذب على الله سبحانه أعظم الكذب بادعاء النبوة، لا يمكن أن يكون حسن التعامل مع أعدائه دواماً، ولو حاول جهده، فإن طبيعته لابد أن تغلبه، والتعامل مع الأعداء يكشف الإنسان سريعاً، بعكس التعامل مع الأتباع والأصدقاء، إذ هم قد يغضون النظر عن كثير من أخطائه، أو يحاولون تأويلها وتبريرها.

فهرقل عندما سأل عن وفائه صلى الله عليه وسلم بالعهد مع أعدائه وجده صادق العهد لا يغدر، وهذه سمة بارزة تؤكد صدقه صلى الله عليه وسلم في دعواه.

ثم سأل هرقل عن أمر لا يدركه إلا من كان عنده علم من رسالة ربانية سابقة؛ وهو يتعلق بحكمة الرب جل ذكره في التشديد على أنبيائه ورسله عليهم السلام في الابتلاء، لينالوا الدرجات الرفيعات عنده تبارك اسمه، ويدخل في هذا حرب النبي عليه السلام وأتباعه مع أعدائهم.

فليس من الشرط دواماً أن ينتصر النبي عليه السلام وأتباعه على أعدائهم في كل حرب يخوضونها معهم، بل قد يبتليهم الله جل ذكره –لحكمة بالغة[1]– بأن يجعل الدولة لأعدائهم عليهم في بعض المرات[2]، لينال بعضهم الشهادة، ولينالوا أجر الصبر على المكاره[3]، وإن كانت العاقبة الحسنة لعباده المؤمنين. قال تبارك اسمه في بيان ذلك:

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)﴾ آل عمران.

وقال جل ذكره:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾ آل عمران.

---

(١) ويدخل في هذا تربية المؤمنين إن صدرت معهم بعض المخالفات، وتربيتهم على تحمل المصائب.

(٢) وهذا لا يعني أن الأعداء يقضون على النبي عليه السلام وأتباعه قضاء تاما ، وإنما هي دولة لمدة معينة، حتى تتحقق الحكمة من هذه التربية، ثم يعود النصر للمؤمنين.

(٣) ولغير ذلك من الحكم العديدة.

وقال جل جلاله:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ البقرة.

فهرقل كان عنده علم بهذه الأمور من خلال البقايا الصحيحة التي وصلته ، سواء من رسالة موسى؛ أم عيسى عليهما السلام، ولذلك سأل عن حاله صلى الله عليه وسلم في حربه مع أعدائه فأخبر أنها دول.

ثم سأل أخيراً عما تشمله دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فعندما أخبر وجد أنها تتوافق مع ما جاء به الأنبياء عليهم السلام.

وبعد تلك الأسئلة عن النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته وأتباعه عرف هرقل صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، ولاسيما أن الذين عندهم علم من الرسالات السابقة كرسالة موسى وعيسى عليهما السلام؛ كانوا يتوقعون في ذلك الزمان ظهور النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم[١].

ثم إن من يريد تفصيل القول فيما أشار إليه هرقل؛ فإنه يحتاج إلى مجلدات عديدات، يبين فيها دلائل وآيات نبوته صلى الله عليه وسلم من خلال الأمور التي ذكرها.

وقد ذكر العلماء مفردات كثيرات لتلك الأمور ولغيرها ، مستدلين بها على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وصدق دعوته، فيما يمكن أن يسمى بالأدلة الموضوعية.

ومن المعلوم أن أكثر تلك الأمور يمكن تعميم حكمها ليشمل جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وإن كان المؤمنون – بعد نزول الإسلام – يكتفون في إثبات نبوتهم بما ورد في الكتاب العزيز والسنة المطهرة .

وينبغي أن يعلم أن كثيراً من المفردات التي يذكرها العلماء لتلك الأمور الكلية التي ذكرها هرقل ولغيرها من الأمور؛ إن لم تدل بمفردها فبانضمامها إلى مفردات أخرى من نوعها، على وجه يعطي دلالة ظاهرة على أن من اجتمعت فيه هو ممن اصطفاهم الله عز وجل للنبوة.

وفيما يلي بيان يسير للأمور التي يمكن أن تسمى بالأدلة الموضوعية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم:

أولاً: سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل دعوته:

وهذا الأمر يشمل نقاطاً متعددة، منها:

أ- شرف نسبه صلى الله عليه وسلم الذي يدل على كونه من أصل كريم كابراً عن كابر، فآباؤه عليه السلام كانوا أشياخ قومهم ومن أهل الأمر والنهي فيهم، وهذا يدل على عظيم

---

(١) وقد سمى ابن تيمية استدلالات هرقل هذه بالمسلك الشخصي، انظر: شرح العقيدة الأصفهانية؛ له: ٩٣-١٠٥.

اهتمامهم بالمحافظة على التقاليد الموروثة التي تثبت لهم مكانتهم المرموقة في مجتمعهم، وعلى أنهم لا يعقل أن يخرجوا عن تلك التقاليد من قبل أنفسهم، وإلا لزالت مكانتهم المتوارثة، قال صلى الله عليه وسلم:

"إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"(١).

وقال عليه الصلاة والسلام :

" أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم فرقة(٢)، ثم جعلهم فرقتين، فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نسباً"(٣).

ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تجتمع فيه من الصفات ما يؤهله لأن يتبوّأ مكانة آبائه في قومه، من غير أن يخرج عن الموروث من العقائد والأحكام.

ب- ثم إن شرف النسب والأصل يدل على كثير من الأخلاق الحسنة المتوارثة، التي كانت موجودة في آباء النبي صلى الله عليه وسلم، إلى أن اكتملت فيه عليه السلام بتقدير من الله جل ذكره، فليس يوجد في أخلاقهم أو تصرفاتهم الاجتماعية مغمز أو عيب ، وهذا يدل على التربية الحسنة التي كانوا يحرصون عليها.

جـ- وقد ثبت في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحي إليه أنه كان على جانب عظيم من حسن الخلق وجميل الصفات، التي أقر له بها كل من عرفه صلى الله عليه وسلم(٤)، قال ابن تيمية:

(وكان -صلى الله عليه وسلم- من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل، ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم، وكل وصف مذموم، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة(٥)، وممن آمن به وكفر بعد النبوة، لا يعرف له شيء يعاب به، لا في

---

(١) رواه مسلم عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه. صحيح مسلم: ١٧٨٢/٤.

(٢) عند أحمد: "فجعلني في خير خلقه".

(٣) رواه الترمذي عن المطلب بن أبي وداعة عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، واللفظ له ، سنن الترمذي : ٥٤٣/٥/ ح: ٣٥٣٢، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، ووافقه الألباني في صحيح سنن الترمذي . ورواه أحمد في المسند : ٢١٠/١ ، وانظر : الموسوعة الحديثية ، مسند أحمد : ٣ / ٣٠٧ / ح : ١٧٨٨ ، وذكر المحقق أن إسناد الحديث : حسن لغيره .

(٤) انظر ما قالته له صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها عندما جاءها فزعاً مما حدث له في غار حراء: ٥٢-٥٣. وقد ذكر ابن تيمية عدة آثار تدل على هذا، انظر: الجواب الصحيح: ٤/٤٠-٥٠. ٪

(٥) من المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم كان يلقب في قومه قبل أن يوحى إليه بالأمين، لصدقه وأمانته، انظر: المستدرك؛ الحاكم: ٦٢٨/١ /ح: ١٦٨٣، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

أقواله، ولا في أفعاله، ولا في أخلاقه، ولا جرت عليه كذبة قط، ولا ظلم ولا فاحشة، وكان خلقه وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله[١].

فهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم نشأ نشأة حسنة سويّ النفس كريم الشمائل، حسن التعامل مع الخلق، محبوباً منهم. وقد دلت الأحداث المروية على أنه صلى الله عليه وسلم كانت له مكانة في قلوب كثير منهم[٢]. ومن المؤكد أن استمراره صلى الله عليه وسلم على صفاته الحسنة هذه كان سيؤدي به إلى أن يكون من أشياخ قومه المقدمين، كما كان آباؤه صلى الله عليه وسلم، فما الذي يجعله يرفض كل هذا، ويأتي بما يجعل قومه ينقلبون عليه، ويحاربونه ويعادونه أشد العدواة، حتى اضطروه إلى الخروج والهجرة من دياره؟!.

د- وأما الكمالات الخلقية : فإن حسن الصورة والبنية والهيئة والمظهر له صلى الله عليه وسلم وإن لم يدل بمجرده على النبوة؛ إلا أنه يشتمل على كمالات تؤهله صلى الله عليه وسلم لهذه المهمة العظيمة، وقد ذكر الماوردي[٣]:

أن الكمال المعتبر في البشر يكون من أربعة أوجه: أحدها: كمال الخَلق، والثاني: كمال الخُلق، والثالث: فضائل الأقوال، والرابع: فضائل الأعمال، ثم ذكر أن من كمال الخَلق الذي اجتمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

١- هيبة المنظر التي حباها الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم، فكل من لم يعرفه ورآه للمرة الأولى كان يهابه صلى الله عليه وسلم ، وحتى صحابته رضوان الله عليهم كانوا يجمعون بين المهابة له صلى الله عليه وسلم ومحبته.

٢- طلاقة المحيّا له صلى الله عليه وسلم التي تجلب محبته إلى نفوس من حوله، وتجعلها مستحكمة ثابتة، وهذا يستدعي إخلاص أولئك المحبين له واتباعهم أوامره ونواهيه.

٣- حسن المنظر، فلا تنفر الأبصار من رؤيته، بل إن حسن منظره يدعو إلى الاستماع منه[٤].

٤- اعتدال البنية الذي يساعد على أداء مهمات الرسالة على أكمل وجه.

---

(١) الجواب بصحيح لمن بدل دين المسيح: ٤/٨٠.

(٢) كما ورد في قصة وضع الحجر الأسود عندما أعيد بناء الكعبة، انظر حديث الحاكم السابق.

(٣) الماوردي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي، إمام محدث علامة صاحب تصانيف، وفقيه كبير من فقهاء الشافعية، وكان بصيراً بالعربية، وولي القضاء في بلدان شتى، وتصانيفه في الفقه والتفسير وأصول الفقه والأدب. له تفسير القرآن سماه: النكت، وله: الحاوي في الفقه، وأدب الدنيا والدين، والأحكام السلطانية، وأعلام (دلائل) النبوة، وغير هذا. توفي ببغداد سنة ٤٥٠هـ، وقد بلغ: ٨٦ سنة.
انظر: طبقات الفقهاء؛ أبو إسحاق الشيرازي: ١٣٨. و: سير أعلام النبلاء: ١٨/٦٤-٦٧. و: طبقات الشافعية الكبرى؛ عبد الوهاب السبكي: ٥/٢٦٧-٢٨٥. و: البداية والنهاية؛ ابن كثير: ١٢/٨٠. و: طبقات الشافعية؛ ابن قاضي شهبة: ٢/٢٣٠-٢٣٢. و: طبقات المفسرين؛ السيوطي: ٨٣-٨٤. و: شذرات الذهب: ٢/٢٨٥-٢٨٧.

(٤) انظر: أعلام النبوة؛ الماوردي: ٢٥٥-٢٥٦. وانظر في تفصيل شيء من صفاته الخلقية صلى الله عليه وسلم: مختصر الشمائل المحمدية؛ الترمذي؛ اختصره: الألباني: ١٣-٤١. و: شمائل الرسول -صلى الله عليه وسلم-؛ ابن كثير: ١٨-٧٠. و: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٤/ ٧٧-٨٨.

هـ- وأما يتمه صلى الله عليه وسلم: فقد كان لله تعالى حكمة بالغة في تنشئة عبده محمد صلى الله عليه وسلم يتيماً، إذ كان ذلك اليتم، الذي أحيط معه صلى الله عليه وسلم بالعطف والحنان ممن حوله؛ من الأسباب التي جعلته صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عطوفاً على المحتاجين -على اختلاف أنواعهم-، رحيماً بهم، حريصاً على إيصال الخير إليهم، بل وكان صلى الله عليه وسلم السبّاق إلى البحث عن المحتاج -إلى أمر معنوي أو مادي-، ومن ثم سد حاجته وإعطائه سؤله.

فيتمه صلى الله عليه وسلم يعطي أنموذجاً مثاليّاً لليتيم الذي يربى تربية حسنة، ويراعيه من حوله بصنوف الرعاية والاهتمام، فيكون يتمه من أسباب تخلقه بالأخلاق الفاضلة، وحسن تعامله مع الخلق.

وأيضاً فإن ما ناله صلى الله عليه وسلم من المقام الرفيع رغم يتمه وقلة ما عنده؛ يعطي دافعاً قوياً لكل مؤمن ليجد ويثابر ويتجاوز الصعاب، فما دام أن غايته رضى ربه عز وجل، وسار على المنهج الذي يرضيه؛ فلابد أن ينال كرامته تعالى.

ويتمه صلى الله عليه وسلم من العلامات التي يعرفها أهل الكتاب السابق، ليستدلوا بها على النبي الخاتم عندما يبعث -صلى الله عليه وسلم-[1].

و- وكذلك فإن الأعمال التي مارسها قبل إعلام الله تبارك اسمه له بنبوته؛ قد كان لها -بتقدير من الله عز وجل- أثر في الشخصية التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد دعوته[2].

ز- ثم إنه من المعلوم أنه كانت توجد فيه صلى الله عليه وسلم صفات خَلقية، وكانت مذكورة في الكتب السابقة كعلامات يستدل بها على النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، فهذا أيضاً من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، عندما يتطابق ما ورد له من علامات صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة مع ما كان عليه صلى الله عليه وسلم.

ح- وأما أميته صلى الله عليه وسلم: فهي من الأدلة على أنه لم يتلق ما جاء به من الحق من خلال كتب سابقة، أو نحو هذا، إذ لم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه درس على يد أحد، لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم.

ط- وكذلك الأمور التي حصلت قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم كقصة الفيل وغيرها: فكلها إرهاصات لنبوته عليه السلام.

---

(١) كما ورد في بعض روايات قصة بحيرا الراهب، عند من يثبتها، انظر: فوائد حديثية؛ ابن قيم الجوزية: ٢٩-٣٢، وانظر: ما ذكره المحقق: هـ: ١، ص: ٣٦-٤٩.

(٢) كرعي الغنم والتجارة.

ي- وأيضاً فإن جميع ما حصل له صلى الله عليه وسلم في صغره -حين إرضاعه- من إرهاصات وآيات فيها دلالات واضحات على أنه صلى الله عليه وسلم سيكون له شأن عظيم، وفيها تهيئة له صلى الله عليه وسلم من صغره لأداء أعظم مهمة يتحملها بشر على الإطلاق.

ك- وكذلك ما حصل له صلى الله عليه وسلم قرب مبعثه: من تحبيب الخلاء إليه، ليبتعد ابتعاداً كلياً عن البيئة التي عم وطغى فيها الجهل والضلال في الدين ، ولتتهيأ نفسه الشريفة صلى الله عليه وسلم لنزول الوحي الرباني عليها.

الفوائد المبنية على ما سبق ذكره من امور:

أ- فكل ذلك فيه دلالات على صدقه صلى الله عليه وسلم ، إذ لا يوجد فيها ما ينقص من مكانته صلى الله عليه وسلم، بل جلّ ما فيها : إما أن يدل على حسن صفاته وكريم شمائله صلى الله عليه وسلم؛ وإما أن يدل على التربية الربانية له صلى الله عليه وسلم لتحمل مهام النبوة على أكمل وجه.

ب- ثم إن تلك الأمور فيها تعليم للمؤمنين على ألا يختاروا لكل مهمة إلا من هو أهل لها من كل وجه، على قدر ما يستطيعونه، وعلى أن يعملوا على تهيئة المناسب لكل مهمة منذ صغره، وتربيته التربية الحسنة.

ج- وكذلك فإن في ذكر تلك الدلالات تقوية محبة المؤمنين لنبيهم صلى الله عليه وسلم، الذي يجب عليهم أن يؤمنوا به على وجه يقيني راسخ.

د- وفيها أيضاً مثال للمؤمنين ليقتدوا به ، فيكونوا على كريم الشمائل والصفات، ولا يتعللوا بطغيان الفساد. فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم، على تلك الصفات المرويّة، وليس ثمة دعوة؛ أفلا ينبغي أن يكونوا هم عليها مع وجود الدعوة والرغبة والرهبة[١].

ثانياً: إخبار النبي السابق بالنبي اللاحق عليهم السلام:

ومن هذا إخبار الأنبياء السابقين عليهم السلام، بخاتمهم صلى الله عليه وسلم، قال تبارك اسمه:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ(٦)﴾ الصف.

وغيرها من الآيات.

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٤/٤١، ٨٠، ٢٦٥-٢٦٦، ثم إن الاستدلال بسيرة النبي عليه السلام قبل نزول الوحي عليه على صدقه فيما أعلنه؛ أمر يوجد عند جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، ومن هذا سيرة موسى عليه السلام منذ صغره، وحماية الله جل ذكره له حتى نشأته وبلوغه مبلغ الرجال، وما تقلب فيه من الفتن إلى أن كلمه ربه عز وجل. وكذلك سيرة عيسى عليه السلام منذ الحمل به وتكلمه في المهد ثم نشأته.

وذكر ابن تيمية أن من وجوه العلم بخبر الأنبياء السابقين عليهم السلام -ولا سيما أنبياء بني إسرائيل- بالنبي صلى الله عليه وسلم:

أ- ما في كتب أهل الكتاب الموجودة بين أيدينا من إشارات تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو من الحجج على أهل الكتاب، فمن المعلوم أنه لم يظهر من تتحقق فيه البشارات الواردات في الكتب السابقة غير محمد صلى الله عليه وسلم.

ب- إخبار من وقف على تلك الكتب ممن أسلم أو لم يسلم بما فيها من الأخبار عنه صلى الله عليه وسلم.

جـ- ما جاء في القرآن الكريم من الإخبار بذلك أكثر من مرة، واستشهاده بأهل الكتاب، وإخباره بأنه صلى الله عليه وسلم مذكور في كتبهم.

ومن باب محاجة الخصم المبطل فقد ذكر ابن تيمية: أن كل عاقل يعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم عنده من المعرفة والعلم والحذق والعقل ما مكّنه من أن يقيم هذا الدين العظيم الذي جاء به، والذي لم يحصل لأحد قبله مثله، ولن يحصل لأحد بعده مثله، فلا يمكن أن يخبر أنه موجود في الكتب السابقة ويستشهد بأهل الكتاب وهو غير موجود عندهم أصلاً، وما دام أنه صلى الله عليه وسلم أمي لم يطلع ولم يقرأ شيئاً من الكتب السابقة، فلابد أن يكون الذي أيده بكل ذلك وأخبره بالحق هو الوحي الرباني المنزل.

و- أن ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم وانتشاره في مشارق الأرض ومغاربها وبين جميع الأمم والأقوام، واستمراره المدة الطويلة؛ هو أعظم حوادث الأرض، فلو كان صلى الله عليه وسلم كاذباً -حاشاه- لكان الأنبياء السابقون عليهم السلام حذروا منه(١)، فلما لم يكن ذلك، بل وجدت البشرى بوجود من يَعُمّ الخيرُ الذي يأتي به الأرضَ كلها؛ دل هذا على صدقه عليه السلام في دعواه النبوة، وأنه هو الذي بُشّر به.

وقد ذكر ابن تيمية وغيره الكثيرَ من الأخبار والآثار المستنبطة من كتب أهل الكتاب، والدالة على البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد اعتمد في ذلك على الأخبار المنقولة، وعلى ما هو موجود لدى أهل الكتاب(٢).

ثالثاً: الرسالة التي جاء بها النبي عليه السلام:

فهي من أعظم الحجج على صدقه وصدق ما جاء به عليه السلام، وهذا لمن تدبرها وتدبر ماجاءت به من عقائد وشرائع تدبراً منصفاً، وأدرك الحق الذي جاءت به على أحسن وجه

---

(١) كما هو الحال بالنسبة للدجال عليه اللعنة.

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٣/٢٨٢-٣٣٢، ٤/ ٣-٢٢. و: شمائل الرسول عليه السلام؛ ابن كثير: ٣٧٤-٣٨٣. وانظر كتاب: محمد نبي الإسلام -صلى الله عليه وسلم- في التوراة والإنجيل والقرآن؛ محمد عزت الطهطاوي.

يستطيعه، وعلم ما فيها من العدل والرحمة والصواب والحكمة، وتوافق ذلك كله مع ميزان العقل السليم. واستنبط مدى ملاءمة الشرع الذي جاءت به لحاجات البشر في هذه الحياة.

فكل ما أخبر به صلى الله عليه وسلم من العقائد حق يوافقه العقل الصريح ويؤمن به، وما أمر صلى الله عليه وسلم إلا بالحسن ، وما نهى إلا عن القبيح ، وما أحل إلا الطيبات وما حرم إلا الخبائث، وقد جاء من عند ربه عز وجل بالشريعة التامة الكاملة. وعلى سبيل المثال: فأية مقارنة تعقد بين العبادات التي جاء بها صلى الله عليه وسلم -من عند ربه عز وجل- وبين عبادات سائر الأمم؛ يتبين للمنصف -الذي يبتغي الحق- أنه لا وجه مطلقا للمقارنة بين العبادات المشروعة والعبادات الوضعية، وكذلك الحال بالنسبة إلى الحدود والأحكام وسائر الشرائع . ومعلوم أن الأدلة القطعية قد دلت على أنه صلى الله عليه وسلم لم يتلق شيئاً من ذلك عن بشر ، ولا من دراسة أو تعلم، وقد ورد في الكتاب الذي جاء به تكذيب لفرية تعلمه صلي الله عليه وسلم على يد بشر:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ النحل[1].

قال ابن تيمية :

(إن من تأمل ما جاء به الرسل عليهم السلام فيما أخبرت به وما أمرت به ؛ علم بالضرورة أن مثل هذا لا يصدر إلا عن أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم ، وأن مثل هذا يمتنع صدوره عن كاذب متعمد للكذب مفتر على الله يخبر عنه بالكذب الصريح ، أو مخطئ جاهل ضال يظن أن الله تعالى أرسله . وذلك لأن فيما أخبروا به وما أمروا به من الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدي الخلائق، وبيان ما يعلمه العقل جملة ويعجز عن معرفته تفصيلاً؛ ما يبين أنهم من العلم والمعرفة والخبرة في الغاية التي باينوا بها أعلم الخلق ممن سواهم ، فيمتنع أن يصدر مثل ذلك عن جاهل ضال. وفيها: من الرحمة والمصلحة، والهدى والخير، ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم؛ ما يبين أن ذلك صدر عن راحم بار، يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق . وإذا كان ذلك يدل على كمال علمهم، وكمال حُسْن قصدهم، فمن تمّ علمه وتمّ حسن قصده؛ امتنع أن يكون كاذباً على الله يدعي عليه هذه الدعوى العظيمة، التي لا يكون أفجر من صاحبها إذا كان كاذباً متعمداً، ولا أجهل منه إن كان مخطئاً)[2].

وقد يقال: إن ما سبق لا يخرج عن كونه كلاماً خطابياً، لا يعسر على كل صاحب معتقد أو نظام أن يدعيه لنفسه، ولما يؤمن به.

---

(١) انظر : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ٤/٨٠-٨١ ، ٨٢-٨٣ . و : شرح العقيدة الأصفهانية ؛ ابن تيمية : ١٠٥-١٠٦ . و : شرح ا لعقائد النسفية ؛ التفتازاني : ٨٨ .

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية: ١٠٥.

ويجاب عن هذا: بأن ما سبق ذكره إنما هو دعوة إلى التدبر الواعي والمنصف لجميع حقائق الدين الرباني، ابتداءً من الأسس العقدية الأولى، ثم الأخلاق والفضائل التي بنيت عليها، ثم العبادات والأحكام والتشريعات، فمن تدبر ذلك حقاً؛ علم أنه لا يوجد، ولا يمكن أن يوجد؛ بناء بشري وضعي يمكن أن يحقق شيئاً من الكمال الذي جاء في الدين الرباني المنزل.

رابعاً: وينبني على الوجه السابق وجه آخر وهو:

أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من العقائد ؛ موافق لما قرره الأنبياء السابقون عليهم السلام ، مع زيادة تفصيل وبيان واستدلال ، فإذا انضم إلى هذا ما سبق من أنه صلى الله عليه وسلم لم يتلق ما جاء به من البشر؛ علم بأن مصدر تلك الحقائق إنما هو من عند الله عز وجل، قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(٤٨)﴾ العنكبوت.

ويضاف إلى هذا أن العرب -قوم النبي صلى الله عليه وسلم- كانوا من أشد الناس جهلاً وشركاً وتبديلاً وتكذيباً بالحقائق الدينية.

ودليل موافقة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء به الأنبياء السابقون عليهم السلام هو: الذي استدل به النجاشي رحمه الله -كما سبق- على صدقه صلى الله عليه وسلم.

ثم إن هذا الدليل يصح أن يستدل به لكل نبي من الأنبياء عليهم السلام، إذ يستحيل -بحسب صفات البشر- أن يأتي إنسان ويدعو إلى جميع الحقائق التي جاءت بها النبوات، وإلى كل كمال وفضيلة، ويدعي مع هذا أنه نبي، ويكون كاذباً في دعواه هذه. فكذبه هذا من أعظم أنواع الكذب ولابد أن يظهر أثره فيما يدعو إليه عاجلاً أم آجلاً[١].

وبعد، فإن إخبار كل نبي بالحقائق التي أخبر بها الأنبياء الآخرون عليهم السلام، من غير مواطأة فيما بين الكثير منهم؛ يدل على صدقهم جميعاً فيما جاؤوا به من عند الله عز وجل[٢].

خامساً: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة:

وذلك منذ بدايتها في مكة ، وصبره صلى الله عليه وسلم على أذى قومه، وثباته وعدم مداهنته في الحق، وتحمله للشدائد والصعاب ، وعدم يأسه ، وحرصه على هداية قومه، وحزنه عليهم، ودعاؤه لهم.

ثم دعوته القبائل ومثابرته على هذا على الرغم من كثرة الصدود الذي لاقاه.

ثم سيرته صلى الله عليه وسلم بين من آمن به من قومه أولاً، ثم من أهل المدينة، وتعامله معهم كواحد منهم، وتواضعه لهم، ومراعاته أحوالهم، وتفقده الدائم لكل فرد منهم مهما كان

(١) انظر: شرح العقيدة الأصفهانية: ١٥٠-١٥٣.

(٢) وقد أسهب ابن تيمية في تقرير هذا الدليل وإيراد الحجج والأدلة له في كتابه: الجواب الصحيح: ٤/٢٢-٦٣.

ضعيفاً، وحرصه على تحصيل كل خير لهم، وإبعادهم عن كل شر، وشفقته عليهم، ورحمته بهم، وصفحه عنهم، وحلمه الواسع صلى الله عليه وسلم. واختياره للأسهل والأيسر للمؤمنين ما لم يخالف أمراً ربانياً.

وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم في تعامله مع أعداء الدين ، عندما أصبحت للإسلام دولة، وبثه الدعاة وإرساله الكتب والرسائل، ثم جهاده من أصر على الكفر والشقاق منهم، ووفاؤه بالعهد، وعدم غدره. وتعليمه من آمن منهم أمور دينهم بالتدرج واللين والرفق. وكذلك تعامله صلى الله عليه وسلم مع قومه عند غلبته وانتصاره عليهم، وعفوه وصفحه عمن ظلمه منهم. فهو صلى الله عليه وسلم لم يكن ينتقم لنفسه، بل كان انتقامه لله وحده عز وجل.

فقد كان صلى الله عليه وسلم أعظم الناس خلقاً، وكان أصدق الناس وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال، وكان أوصل الناس لرحمه ، وأجودهم فيما يملك، وكان أزهد الناس في الدنيا مع أنه لو أراد أن يكون من أغنى الناس لتحقق له ذلك، حتى مات صلى الله عليه وسلم ولم يخلف ديناراً ولا درهماً(١).

وقد ذكر الماوردي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اجتمعت فيه فضائل الأخلاق والأقوال والأعمال، فأما فضائل الأخلاق فتظهر من خلال ثباته صلى الله عليه وسلم في الشدائد، وزهده في الدنيا، وتواضعه وحلمه ووقاره، وحفظه للعهد صلى الله عليه وسلم.

وأما فضائل أقواله صلى الله عليه وسلم فيعتبر بثماني خصال:

إحداهن: ما أوتي من الحكمة البالغة، وأعطي من العلوم الجمة.

والخصلة الثانية: حفظه لما أطلعه الله تعالى عليه من قصص السابقين.

والخصلة الثالثة: إحكامه لما شرع بأظهر دليل.

والخصلة الرابعة: ما أمر به من محاسن الأخلاق.

والخصلة الخامسة: وضوح جوابه إذا سُئِل، وظهور حجاجه إذا جودل.

والخصلة السادسة: أنه محفوظ اللسان من تحريف في القول.

والخصلة السابعة: تحرير كلامه والاقتصار منه على قدر الحاجة.

والخصلة الثامنة: أنه أفصح الناس لساناً وأوضحهم بياناً وأجزلهم ألفاظاً وأصحهم معاني، صلى الله عليه وسلم.

---

(١) انظر : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ؛ ابن تيمية: ٤/٨١-٨٢، ٨٨-٩٦، وقد ذكر شيئاً من الأدلة على ما سبق. وكذلك: مختصر الشمائل المحمدية؛ الترمذي؛ اختصره وحققه: الألباني. وانظر: شرح العقائد النسفية؛ التفتازاني: ٨٧-٨٨. وانظر: شيئاً من الأدلة على بعض ما سبق: ٣٣٥-٣٣٨.

وأما فضائل الأفعال فمعتبر بثماني خصال:

إحداهن: حسن سيرته وصحة سياسته.

والخصلة الثانية: أنه جمع بين رغبة من استمال، ورهبة فريق آخر، حتى اجتمع الفريقان على نصرته .

والخصلة الثالثة: أن الشرع الذي جاء به وسط بين الغلو والتقصير.

والخصلة الرابعة: أنه أمر أصحابه بالاعتدال في طلبهم الدنيا.

والخصلة الخامسة: أنه بلغ شرعاً كاملاً، وقد أعطي فيه أصولاً تدل على ما يستجد من حوادث.

والخصلة السادسة: انتصابه لجهاد الأعداء.

والخصلة السابعة: ما خص به من الشجاعة.

والخصلة الثامنة: ما منح من السخاء والجود. صلى الله عليه وسلم(١).

ولا شك أن جميع تلك الأمور مع كونها أدلة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في دعواه ، فهي تشكل جانباً كبيراً من جوانب السنة النبوية التي يجب تطبيقها واتباعها، بالإضافة إلى أنها تجعل من يقرؤها من المؤمنين بمثابة من يعايش عصر المصطفى صلى الله عليه وسلم لحظة فلحظة، وهذا من أهم أسباب تقوية إيمان المؤمنين وترسيخة في النفوس، وتدفق آثاره العملية والسلوكية تدفقاً حسناً، مع تفاضل الأفراد فيما يحصل لديهم من آثار.

سادساً: الصفات الواجبة لكل نبي من الأنبياء عليهم السلام:

وقد خص فريق من العلماء بعض الصفات الواجبات للأنبياء عليهم السلام بالذكر، وبينوا أن من أسباب وجوب اتصافهم عليهم السلام بها ما يلي:

١- أن النبي عليه السلام قد اصطفاه الله تبارك اسمه بالوحي إليه، وصدقه بالآيات والبراهين المتعددة.

٢- وأن الرسول عليه السلام يبلغ شريعة الله ودينه جل جلاله إلى البشر.

٣- وأن الأنبياء والرسل عليهم السلام مكلفون أن يؤدوا مهمة الدعوة إلى الله تعالى، وإلى التمسك بدينه المنزل.

٤- وأن الأنبياء والرسل عليهم السلام قدوة حسنة لأقوامهم ، فينبغي لهم أن يتأسوا بهم على الوجه المستطاع.

---

(١) انظر: أعلام النبوة؛ الماوردي: ٢٥٦-٢٧٤. وقد ذكر بعض الأدلة لما سبق.

٥- وأن الرب جل ذكره قد أمر بطاعتهم واتباعهم فيما أمروا به.

٦- وأن النبي عليه السلام قائد لأمته جميعها، ومدبر لشؤونها، إما من خلال ما قام به قياما مباشرا، أو من خلال ما يستنبط من سيرته وسنته مِن قبل مَن هم أهل لذلك.

ولذلك كله، فإن من الصفات الواجبات للأنبياء عليهم السلام، التي بينها العلماء:

أ- صفة الصدق، وهي صفة تجب على كل مؤمن، ولكنها بالنسبة إلى الأنبياء عليهم السلام تعتبر صفة ملازمة لهم لا يمكن أن تنفك عنهم، فالله تبارك اسمه قد اختارهم لتبليغ دينه للبشر، فكيف يثق الناس بهم إن كان يجوز عليهم الكذب؟!.

ب- صفة الأمانة، وهي صفة ملازمة لصفة الصدق، ولو خان النبي عليه السلام في شيء في الأمور الدنيوية لكان مثل هذا سبباً للشك في مدى أمانته في تحمله رسالة الله تبارك اسمه.

جـ- صفة التبليغ. وهذه صفة طبعية ظاهرة لمن حملهم الله تبارك اسمه رسالته، وطلب منهم إيصالها إلى البشر، وأيدهم على عدوهم ، فلابد أن يقوموا بتبليغ ما حملوه إلى البشر على أكمل وجه. قال جل ذكره:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)﴾ المائدة.

وقال جل جلاله:

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨) ﴾ الجن.

فلا يمكن للرسول عليه السلام أن يكتم شيئاً مما أمر بتبليغه، وإلا لناله -حاشاه عليه السلام- الذم والنقص، كالذي نال بني إسرائيل عندما كتموا بعض ما أنزل الله جل ذكره.

د- صفة الفطانة والنباهة وكمال العقل والرشد، قال تبارك اسمه:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١)﴾ الأنبياء.

والإنسان إذا كان عالما أو قائداً ؛ فلابد له من أن يتحلى بقدر كبير من رجاحة العقل ووفور الذكاء، فكيف بالرسول عليه السلام، وهو الذي يوحى إليه من ربه عز وجل ويكلف بالتبليغ وقيادة الأمة كلها من جميع جوانب الحياة؟!.

هـ- السلامة من العيوب والأمراض المنفرة، إذ هذا من دواعي تأليف الناس عليهم وعدم نفرتهم منهم.

و- أنه من الذكور ، فالذكر أقدر على تحمل أعباء الرسالة والقيام بنشرها بين البشر ومخالطتهم، قال جل وعلا:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧)﴾ الأنبياء[١].

ز- صفة العصمة:

أصل معنى العصمة في كلام العرب : المنع، عصمه يعصمه عصماً: منعه ووقاه. واعتصم فلان بالله -تعالى- إذا امتنع به، والعصمة: الحفظ...، واعتصم به، واستعصم: امتنع وأبى[٢].

ويمكن أن تعرف العصمة اصطلاحاً بأنها: حفظ الله تعالى أنبياءه ورسله عليهم السلام عما يناقض المهمة التي كلفهم بها، على وجه لا يبطل اختيارهم وتكليفهم[٣].

وتوجد مباحث مطولة حول: مسألة عصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام قبل الوحي إليهم، وتوجيه ما ورد في شأن بعضهم مما يوهم بطلان العصمة، والمهم في هذا البحث هو: اتفاق العلماء على أن الأنبياء والرسل عليهم السلام معصومون فيما يبلغونه عن الله عز وجل، فلا يقع منهم كذب أو زيادة أونقصان أو تناقض أو كتمان، وبالنسبة إلى التبليغ الأول للرسالة فإنه لا يقع منهم خطأ أو نسيان ، ولكن عند التنفيذ العملي فقد يقع أحياناً خطأ غير مقصود ، أو نسيان، ولكن سرعان ما يأتي التصويب، إما عن طريق الوحي، أو تذكير بعض المؤمنين. ولمثل هذه العوارض حكمة لله عز وجل، وهي تعليم المؤمنين كيفية التصرف إن وقع منهم مثل ذلك الخطأ والنسيان.

وأما إن وقع من النبي خطأ في اجتهاد مأذون له به؛ فإن الوحي سرعان ما يصوب ذلك الخطأ ويبين الحق، كما في قصة أسرى بدر.

وقد ينسى النبي صلى الله عليه وسلم آية ما ويكون هذا بتقدير من الله عز وجل ، فهو جزء من التبليغ، إلا أنه من التبليغ الذي لا تعلق للإرادة المسؤولة به ، ومما يدل على ذلك النسيان المقدر؛ قوله تعالى:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)﴾ البقرة[٤].

---

(١) انظر لما سبق: عصمة الأنبياء؛ محمد أبو النور الحديدي: ٥٥-٦١. و: العقيدة الإسلامية وأسسها ؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ٣٣٤-٣٤٦. و: النبوة والأنبياء؛ محمد علي الصابوني: ٤٠-٤٨.

(٢) انظر: لسان العرب: (عصم)/ ١٥/ ٢٩٧. و: العين؛ الخليل بن أحمد: (عصم)/ ١/ ٣١٣. و: النهاية في غريب الأثر : ٣/ ٢٤٩. و: ترتيب القاموس المحيط: (عصم)/٣/ ٢٤١.

(٣) انظر: عصمة الأنبياء -عليهم السلام- بين المسلمين وأهل الكتاب؛ أحمد عبد اللطيف بن عبد الله العبد اللطيف؛ رسالة ماجستير، إشراف: محيي الدين الصافي: ١٥-٢٤. و: عصمة الأنبياء -عليهم السلام-؛ محمد أبو النور الحديدي: ٦٣. و: التعريفات؛ الجرجاني: (العصمة)/ ١٩٥. و: النبوة والأنبياء -عليهم السلام-؛ محمد علي الصابوني: ٥٠.

(٤) هذا بالنسبة إلى قراءة : ﴿ننسها﴾ من النسيان، وعلى حسب ما ذكره ابن كثير في معنى هذه القراءة. انظر: تفسيره: ١/ ١٥٠-١٥١.

وكذلك فقد اتفق السلف على عصمة الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر والفواحش وأمراض القلوب والنفوس وصغائر الخسة.

وأما إن وقع من بعضهم شيء من الصغائر أو ما هو من خلاف الأولى؛ فإنهم معصومون من الإقرار عليه، إذ سرعان ما ينزل الوحي بالتنبيه على ما هو الواجب والأفضل. وهذا كله لأنهم قدوة لأممهم، والله جل ذكره قد أمر باتباعهم، فلو كانت تقع منهم الكبائر، أو لو كانوا يقرون على الصغائر لكان في هذا أمر للأمم بعمل المعاصي، مع أنهم منهيون عنها، وهذا تناقض[١].

وبعد، فإن لبيان تلك الصفات السابقات أهمية كبرى، إذ هي تدل على:

١- صدق الرسول والنبي عليهما السلام في دعواهما، إذ لا يمكن أن تجتمع تلك الصفات عند كاذب أو جاهل.

٢- أن على المؤمن أن يتصف منها بما يمكنه وعلى قدر مستطاعه.

٣- أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون أكثر حرصاً على الاتصاف بتلك الصفات ضمن حدود استطاعته، وذلك لأنه محل قدوة بين سائر المؤمنين، ولأن أفعاله وأقواله تحسب على الدين وأهله.

٤- ثم إن المؤمنين عندما يقرؤون مدى ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الثبات على تلك الصفات الحسنة ؛ فإنه سيزداد -حتماً- حبهم له عليه السلام ، الذي لا يتم إيمانهم إلا به، وسيزداد حرصهم على اتباعه صلى الله عليه وسلم في جميع شؤون حياتهم.

سابعاً: ومن أدلة صدق النبي صلى الله عليه وسلم حال أمته في حياته ومن بعده عليه السلام:

فالذين اتبعوه أولاً إنما هم ضعفاء الناس، الذين هم أتباع الأنبياء عليهم السلام ، وكذبه الملأ وحاربوه، وكادوا يقتلونه صلى الله عليه وسلم لولا أن نجاه الله تعالى منهم.

ومعلوم أن الذين اتبعوه أولاً لم يتبعوه لرغبة أو رهبة دنيوية، إذ لم يكن عنده مال يعطيهم، ولا وِلايات يوليهم إياها، وجل ما كان يعدهم به الفوز في الدار الآخرة بعد الموت ، وكذلك ما كان معه صلى الله عليه وسلم سيف يرهبهم به، بل كان السيف والمال والجاه والسلطان مع أعدائه، وقد آذوا أتباعه صلى الله عليه وسلم بكل ما أوتوا، وهم صابرون محتسبون ، حتى استشهد بعضهم -رضوان الله عليهم- وهم يعذبون.

---

(١) انظر: رسالة: عصمة الانبياء -عليهم السلام- بين المسلمين وأهل الكتاب؛ أحمد عبد اللطيف: ٢٤، ٤٢-١٠٤. و: عصمة الأنبياء -عليهم السلام-؛ محمد أبو النور الحديدي: ٦٢ وما بعدها. و: العقيدة الإسلامية وأسسها؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ٣٣٦-٣٤٠. و: النبوة والأنبياء -عليهم السلام-؛ محمد علي الصابوني: ٤٩-٩٧ . و: الرسل والرسالات؛ عمر سليمان الأشقر: ٩٧-١١١.

ثم آمن الأنصار بالحق كذلك دون رغبة أو رهبة دنيوية، بل مع تيقنهم بأنهم سيكونون أعداء للعرب كافة، وسيناهم من الأذى ما يناهم، فصبروا مع الرسول صلى الله عليه وسلم أكمل الصبر، وآثروه والمهاجرين إليهم على أنفسهم أعظم الإيثار.

ولما كتب الجهاد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم سباقين إليه، وإلى التضحية بالمال والنفس في سبيل الله تعالى وحده.

وكانوا رضوان الله تبارك اسمه عليهم مع جهادهم من أحرص الناس على تعلم ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من العلم والهدى والبيان والنور، وفهمه وحفظه وتطبيقه على أحسن وجه، وكانوا رضي الله عنهم مسارعين إلى الخيرات وإلى أداء العبادات، والاتصاف بالفضائل وأداء ما وجب عليهم، فتحقق فيهم قول الله تبارك اسمه:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٢٩) ﴾ الفتح.

فصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم -رضي الله تعالى عنهم- كانوا بمجموعهم أكمل المؤمنين -من غير الأنبياء والمرسلين عليهم السلام- في كل فضيلة : في العلم والدين والعبادات والطاعات والشجاعة والجهاد والصبر على المكارة والسخاء بالنفس والمال والزهد في الدنيا.

ثم استمرت أمة سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم على ذلك المنهج، متبعين صراط الله تعالى ، وإن وجد فيهم المقصر أو الغالي ، فإنه لا تزال طائفة من أمته صلى الله عليه وسلم ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ، ولا يستحلون أن يأخذوا من الدين إلا ما شرعه صلى الله عليه وسلم، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله تعالى بها من سلطان[1].

وأما العلوم الدنيوية النافعة فقد كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم سباقة إلى تحصيلها، والتأخر الذي نالهم في هذا العصر إنما كان بسبب تقصير الكثير منهم في طلب ما ينفعهم، وبسبب بعدهم عن منهج الحق والهداية، ومع هذا فهم بمجموعهم لا يخرجون عن قوله جل ذكره:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ آل عمران.

---

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٨١/٤ -٨٦ ، ١٠٤-١١٧، ١٢١-١٢٢.

ثامناً: ومن آيات صدق النبي صلى الله عليه وسلم أن العاقبة الحسنة له وللدين الذي جاء به من عند ربه عز وجل:

فقد كتب الله جل جلاله له الغلبة على أعدائه، وأقر عينه بدخول الناس في دين الله تبارك اسمه أفواجاً. ومن بعده عليه السلام: فقد كتب جل شأنه العاقبة الحسنى لأمته وكتب لهم النصر على أعدائهم، والتمكين لهم في الأرض، ما داموا متمسكين بشرعه، ومقيمين له على الوجه الذي يرضيه تعالى. قال تبارك اسمه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ النور.

وذلك النصر قد كتبه الله سبحانه للأنبياء السابقين عليهم السلام على أقوامهم الكافرين، بإهلاكهم وتنجية المؤمنين. كإغراق الله جل جلاله قوم نوح عليه السلام لما كذبوه، وإهلاك قوم شعيب عليه السلام، وقوم لوط عليه السلام بقلب مدائنهم ورجمهم بالحجارة، وقوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم.

وذكر ابن تيمية أن الله عز وجل قد أورد قصص إهلاك السابقين في مواضع متعددة من كتابه العزيز، وبين جل جلاله أن تلك القصص هي من آيات الأنبياء عليهم السلام الدالة على صدقهم، كما قال في سورة الشعراء لما أورد قصة موسى عليه السلام، وكذا سائر القصص فيها:

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨)﴾ الشعراء.

وقال جل شأنه في بيان أن العاقبة للمتقين:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾ هود.

وقال جل جلاله في بيان أنه ينصر من ينصره:

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)﴾ الحج.

وقد حث تبارك اسمه على تدبر عاقبة المكذبين السابقين ، وأخذ العبرة والعظة مما حصل لهم، قال تعالى:

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)﴾ الروم.

ولما ذكر تبارك اسمه قصة لوط عليه السلام وقومه قال:

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ الصافات.

وقال تبارك اسمه أيضاً:

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾ الحجر.

فنصر الله جل شأنه لرسله عليهم السلام وأتباعهم من عباده المؤمنين، وانتقامه من الكافرين؛ من الآيات الدالات على صدق الأنبياء عليهم السلام.

وما تمسكت هذه الأمة بدين الله تعالى المنزل؛ إلا كتب الله جل ذكره لها العاقبة الحسنة، والنصر والتمكين في الأرض، وإن ابتليت قبل ذلك بشدائد، قال تبارك اسمه:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١)﴾ غافر.

وقال جل ذكره:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ الصافات.

وأما الهزيمة فإنها لا تنزل بهذه الأمة إلا بسبب بعدها عن دين ربها، وضعف تمسكها به، وكثرة ذنوبها[1].

تاسعاً: ومن أدلة صدق النبي صلى الله عليه وسلم وقوع ما أخبر به من الأمور الغيبية المستقبلية على الوجه الذي أخبر به:

وهذا باب كبير جداً، ومنه أحاديث الفتن والملاحم، وفتح الله جل جلاله البلدان لعباده المؤمنين، وأشراط الساعة، وغير ذلك من أمور كثيرة، وهي تعتبر من آيات صدق النبي صلى الله عليه وسلم عند حدوثها، لمن لم يؤمن به، وهي تقوي إيمان المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقد يكون فيها بشارة أو تثبيت أو توجيه أو إنذار وتحذير، ونحو هذا مما لا يستغنى عنه[2].

---

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٤/ ٢٥٤-٢٥٧، ٢٦٥-٢٦٦. و: النبوات: ٤٩٤، ٥٠٨-٥١٢.

(٢) ذكر ابن تيمية وغيره أمثلة كثيرة لهذا النوع: انظر: الجواب الصحيح: ٤/١٣٣-١٦١. و: شمائل الرسول -عليه السلام-؛ ابن كثير: ٣٨٥ وما بعدها. وكون أشراط الساعة من آيات الأنبياء، انظر: النبوات: ٨٥٤-٨٥٦، ٨٥٩.

عاشراً : ومن أدلة صدق الرسل عليهم السلام : الكتب الربانية التي قد تنزل على بعضهم:

والحق أن كل ما أنزله الله تعالى على رسله عليهم السلام فهو معجز، كالتوراة والإنجيل والزبور، وهذا لما فيها من العلوم التي لا يمكن أن يقدر عليها بشر، كالإخبار عن الغيبيات المستقبلية، وكالشرائع التي فيها، المتناسبة مع حال أهل العصر الذي أنزلت فيه على أكمل وجه، ونحو هذا. وقد استدل ابن تيمية على ذلك بقوله جل ذكره:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غمرات الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ(٩٣)﴾ الأنعام.

فقوله: ﴿ سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ يقتضي أن كل ما أنزل الله تبارك اسمه على أنبيائه عليهم السلام فهو معجز لا يقدر عليه إلا الله تعالى[١].

إعجاز القرآن الكريم:

أولاً : من النصوص الدالة على كون القرآن الكريم هو الآية العظمى لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

لقد جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أدلة متعددة على أن هذا الكتاب العزيز هو الآية الكبرى على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما ادعاه:

أ- فمن هذا قوله تبارك اسمه:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١)﴾العنكبوت.

ففي هاتين الآيتين يخبر جل جلاله عن مقالة تعنّتيّة للمشركين؛ يطلبون فيها من الرسول صلى الله عليه وسلم آيات مادية، وقد أمر جل شأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيب عليهم بأن هذا الأمر موكول إلى الله تعالى وحده، فهو ينزل ما يشاء من الآيات على من يشاء من عباده في الوقت الذي تقتضيه حكمته جل ذكره.

---

(١) انظر: النبوات: ٥١٧، ٥١٩-٥٢٠، ٩٠٢، ٩٠٢-٩٠٣، وأما من جهة اللفظ والنظم؛ فالأصوب بالنسبة إلى الكتب السابقة هو التوقف وعدم القطع، والله أعلم، وانظر: المرجع نفسه: ٥١٩.

وقد بينت آيات أخر أن المشركين عندما يطلبون مثل هذه الآيات إنما يطلبونها تعنتاً ، وظناً منهم أنهم يعجزون الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبينت أنه تبارك اسمه لو أنزل على مثل هؤلاء شيئاً من الآيات التي طالبوا بها لما آمنوا، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم، وفي مثل هذه الحالة فإنهم يستحقون -بحسب سنة الله تبارك اسمه- العذاب الأليم . ولكن لما كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم هي خاتمة الدعوات، وهو عليه السلام لم يرسل إلا رحمة للعالمين؛ فإن العذاب الاستئصالي الكامل -كعذاب الأقوام السابقة- لم تقتضيه حكمة رب العالمين تبارك اسمه.

ثم إنه تعالى طلب من رسوله صلى الله عليه وسلم في الآيتين السابقتين أن يبين لقومه والناس أجمعين؛ أن ما هو مطلوب منه إنما ينحصر في تبليغ ما أنزله إليه ربه جل شأنه، بأحسن بيان وأوضحه. ولم يطلب منه أن يحول الناس من الكفر إلى الإيمان ، حتى يوصل مقترحاتهم التعنتية حول الآيات إلى ربه تبارك اسمه.

ثم إن مقتضى كونه صلى الله عليه وسلم نذيراً مبيناً -أي ينذر الناس من أن تحل بهم العقوبة الربانية- يستلزم أن يبلغ الناس منهج الرب تعالى، الذي إذا اتبعوه نجوا من ذلك العذاب الأليم، وبما أنه لا دار في الآخرة إلا دار عذاب أو دار نعيم، ولا يوجد فيها موت ولا فناء للمكلفين، فإن الذي ينجو من العذاب لابد أن ينال -بفضل الله تعالى- الثواب المقيم.

ثم جاء في الآية الثانية استفهام تعجبي إنكاري، فهو تبارك اسمه ينكر على المشركين إصرارهم على طلب المزيد من الآيات، مع وجود أعظمها قدراً وأظهرها بياناً بين أيديهم، وذلك هو كتاب الله العزيز، الذي يحتوي على وجوه إعجازية كثيرة يدركها كل عاقل لبيب، أفلا تكفي أي طالب للحق هذه الآية الكبرى التي لا انقضاء لها، بل كلما جاء عصر جديد اكتشف الناس وجوهاً وصوراً متعددة لإعجاز تلك الآية؟!.

وقد أشار تعالى بقوله: ﴿ يتلى عليهم ﴾ إلى ميزة للقرآن الكريم لا توجد في غيره من الآيات، فإن كونه مما يتلى أرفع من كون الآيات الأخرى أحوالاً مرئية، لأن إدراك المتلوّ إدراك عقلي فكري، وهو أعلى من المدركات الحسية، فكانت آية القرآن الكريم أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيأت لها الإنسانية، وهذا كله يدل على انتشار إعجازه، وعمومه في المجامع والآفاق والأزمنة المختلفة، بحيث لا يختص بإدراك إعجازه فريق خاص في زمن خاص، شأن الآيات المشهورة، مثل عصا موسى عليه السلام، وناقة صالح عليه السلام، ونحو هذا.

ثم أشار تعالى إلى خاصية أخرى فضلت بها آية القرآن على سائر الآيات، وهي أن آية القرآن العزيز بالإضافة إلى كونها آية تدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فإنها تشتمل

على رسالة تشريعية، هي في حقيقتها رحمة وصلاح الناس في الدنيا، وتذكير وموعظة لمن يؤمن بها، ليستقيم على منهج الله جل شأنه، فيفوز بالسعادة الأخروية، فهو الآية وهو الرسالة في آن واحد[١].

ب- ومن أظهر الأدلة على أن القرآن الكريم هو آية الرسول صلى الله عليه وسلم الكبرى؛ ورود التحدي فيه للإنس والجن مجتمعين أو متفرقين للإتيان بمثله أو بمثل بعضه، وقد جاء هذا التحدي على مراحل:

المرحلة الأولى: الإتيان بمثل القرآن الكريم، قال جل ذكره:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ(٣٣)فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ(٣٤)﴾الطور.

ففي الآية الأولى استفهام يحمل معنى الإنكار على الكفار الذين يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اختلق هذا القرآن من عند نفسه، وافتراه على الله سبحانه، وقد أبطل تعالى زعمهم هذا وبين حقيقة حالهم وهي: أن ما دفعهم إلى تلك المقالة الكاذبة ليس هو النظر والفكر السليمين، بل هو المكابرة والرغبة بالفجور، وعدم الإيمان بالحق المنزل من عند الله جل جلاله، ومن ثم الانصياع لمقتضاه.

وزيادة في تقريع الكفار والمعاندين ولبيان كذبهم وفجورهم، فقد جاء في الآية الثانية تحديهم بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم. فلو كان هذا الكتاب مفترى من عند الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فهو بشر مثلهم، قد نشأ بينهم ، ولم يتلق من العلوم -قبل أن يوحي إليه- شيئاً زائداً عنهم، والقرآن الذي جاء به إنما هو كلام عربي مبين، وهم رؤوس العرب في الفصاحة والبيان، فإن كان الأمر على هذا الحال فليأتوا بمثل هذا القرآن في معانيه وأحكامه وفصاحته وبيانه وبديع أسلوبه.

ولا شك أن الكفار قد شعروا بعجزهم في قرارة أنفسهم عندما دعوا إلى معارضة القرآن الكريم والإتيان بمثله، بدليل أنه لم يصدر من عقلائهم أية محاولة حقيقية للمعارضة، على الرغم من إلهاب عزيمتهم، وترتيب عدم صدقهم وأنهم كاذبون في دعواهم؛ إن لم يستطيعوا الإتيان بمثل هذا القرآن[٢].

ثم إنه قد جاء في القرآن الكريم بيان عجز الإنس والجن ولو اجتمعوا وأيد بعضهم بعضاً عن الإتيان بمثل الكتاب العزيز، وهذا يحمل أقوى آيات التحدي، مع استمراره إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، قال تبارك اسمه:

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ؛ ابن كثير : ٤١٨/٣. و: تفسير فتح القدير؛ الشوكاني: ٢٠٧/٤-٢٠٨. و: تفسير التحرير والتنوير؛ محمد الطاهر بن عاشور: ٢١/ ١٣-١٩.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٢٤٣/٤. و: تفسير فتح القدير؛ الشوكاني: ٥/ ٩٩-١٠٠. و: تفسير التحرير والتنوير: ٢٧/ ٦٥-٦٧. و: مباحث في إعجاز القرآن؛ مصطفى مسلم: ٣٢.

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨)﴾ الإسراء[١].

وهذا هو المقام الأول للتحدي كما ذكر هذا جمهور العلماء[٢].

المرحلة الثانية: الإتيان بعشر سور مثل سور القرآن الكريم:

ثم إنه في المقام الثاني تنزل تحدي الكافرين إلى درجة مطالبتهم بالإتيان بمثل عشر سور من سور القرآن، قال تبارك اسمه:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾ هود.

أي: إذا كان الكافرون مازالوا مصرين على دعواهم الكاذبة مع ما سبق من تحديهم ومطالبتهم بالإتيان بمثله، وعجزهم عن ذلك؛ فإمعاناً في بيان عجزهم وقصورهم عن معارضة الكتاب العزيز ، وإظهاراً لمدى كذبهم في دعواهم الداحضة، فقد أمر الله جلت قدرته نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم: أن تحديهم قد قصر على الإتيان بمثل عشر سور من مثل سور القرآن الكريم. وزيادة في التحدي فقد أمروا -إذا وجدوا العجز من أنفسهم عن معارضة هذا الكتاب- أن يستعينوا بمن شاؤوا لتحقيق هذه المعارضة، وهذا تعميم للتحدي ليشمل الإنس والجن جميعهم[٣].

وكان يجب عليهم لو كانوا صادقين في دعواهم افتراء الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك الكتاب؛ أن يهبوا للمعارضة، إسكاتا لهذا الذي يتحداهم في أغلى ما يعتزّون ويتباهون به، وهو لغتهم وبيانهم، فكيف إذا ضيف إلى هذا مدى ما عليه العربي من إباء وعزة نفس.

المرحلة الثالثة: الإتيان بمثل سورة من سور القرآن المجيد:

ثم بلغ التحدي في مقامه الثالث درجته القصوى عندما اكتفي فيه بأن يأتي الكافرون بمثل سورة من سور القرآن الكريم، لقطع أي عذر يمكن أن يعتذر به الكافرون، من أنهم لا يملكون

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٦٢/٣. و: تفسير فتح القدير: ٢٥٧/٣.

(٢) انظر: دلائل النبوة؛ البيهقي؛ تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان: ١٣/١-١٤. و: البرهان في علوم القرآن؛ بدر الدين الزركشي: ١١٠/٢-١١١. و : تفسير الرازي: هود/ آية: ١٣/ جـ: ١٩٤/١٧-١٩٥، يونس/ آية: ٣٨/جـ: ٩٧/١٧، والبقرة/ آية:٢٣/جـ: ١١٧/٢. و : الجامع لأحكام القرآن؛ القرطبي: ٧٧/١. : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح؛ ابن تيمية: ٧١/٤-٧٢. و : تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: يونس/ آية: ٣٨/ جـ: ٤١٧/٢. و: الإتقان في علوم القرآن؛ السيوطي: ١١٧/٢. و: تفسير التحرير والتنوير؛ محمد الطاهر ابن عاشور: ٣٣٧/١، ١٢/ ١٩-٢٠. و: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية؛ مصطفى صادق الرافعي : ١٦٩-١٧٠. و : القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين: ١٤٣.

(٣) انظر: تفسير فتح القدير؛ الشوكاني: ٤٨٦/٢. و: تفسير التحرير والتنوير؛ محمد الطاهر بن عاشور: ١٢/ ١٩-٢١. بينات المعجزة الخالدة؛ حسن ضياء الدين العتر: ١٥٤-١٥٧. و: مباحث في إعجاز القرآن؛ مصطفى مسلم: ٣٣-٣٤.

الوقت للإتيان بمثل عشر سور، فلم يطالبوا بأكثر من سورة واحدة، ولم يحدد لهم نوعية السورة، فإن شاؤوا من السور الطويلة، وإن شاؤوا من القصيرة، فلهم ذلك، قال تعالى:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ يونس.

وعلى الرغم من أنهم لم يطالبوا إلا بسورة واحدة فإنه لم ينقل عن كفار قريش محاولة المعارضة، بل عدلوا عن هذا إلى السباب وإلقاء التهم الباطلة، مما يدل دلالة قطعية على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس من كلام البشر، ولا مما يدخل في استطاعتهم، بل إنه فوق قدرتهم لأنه من كلام رب العالمين[١].

ثم إن هذا التحدي مستمر إلى يوم القيامة لكل من توسوس إليه نفسه من شياطين الإنس والجن بأن هذا القرآن ليس من كلام الله سبحانه، فليجرب نفسه وليستعن بمن شاء، ولينظر بعد هذا إلى سفه رأيه وهوان نفسه عليه؛ عندما يظن إمكان معارضة هذا الكتاب العزيز.

وأعيد التحدي بالإتيان بسورة واحدة في أول سورة نزلت في العهد المدني ، وكان هذا قطعاً لدابر وساوس الشيطان ونزغات أهل الباطل المرجفين، ولكي لا يقال: إن محمداً صلى الله عليه وسلم تحدى أهل مكة والأمية فاشية فيهم، ولا علم لهم بعلوم الكتب والرسالات السابقة، ولو أنه تحدى غيرهم لأمكنهم أن يأتوا بمثل القرآن؛ فلهذا كرر ذلك التحدي بين ظهراني أهل الكتاب، من اليهود الذين حاربوا هذه الرسالة الخاتمة حسداً من عند أنفسهم، ولم يسجل التاريخ أية محاولة حقيقية منهم لمعارضة الكتاب الحكيم.

ولا يزال هذا التحدي مستمراً إلى يوم القيامة، مبرهناً على خلود الرسالة الإسلامية، وصدق صاحبها صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ البقرة.

وقد يراد بالشهداء في الآية الكريمة نصراء المشركين ومعاونوهم على الكفر، في أي زمان أو مكان، وفي هذا تعجيز للعامة والخاصة، ويكون عندئذ معنى ﴿من دون الله﴾ أي: من دون أولياء الله تعالى الذين هم حزبه.

وقد يراد بالشهداء من ادُّعي في حقهم الإلهية الباطلة ، كالأوثان وكل من عُبد من دون الله سبحانه، فإن كانوا آلهة حقا فادعوهم إلى نصرتكم في هذا الأمر، وفي هذا إثبات لإعجاز القرآن،

(١) انظر: تفسير فتح القدير: ٢/٤٤٦. و : تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٢ / ٤١٧ -٤١٨. و: مباحث في إعجاز القرآن: ٣٤ .

وإبطال لإلهية تلك الأوثان وكل ما عبد من دون الله تعالى، إذ لو كانوا آلهة حقا لنصروا أولياءهم في وضع مثل تلك السورة .

وزيادة على ما سبق فقد بنى تبارك اسمه على عدم المجيء بمثل سورة من القرآن المجيد؛ التهديد والوعيد الشديد لهم، وهذا أدْعى لحفز همم الكفار على المعارضة. :

وأيضاً فإن الآية الثانية قد صدرت بصيغة: ﴿فإن لم تفعلوا﴾ والأصل في (إن) عدم القطع، مع أنه لا يتوقع أن تقع منهم المعارضة، كما قال تعالى: ﴿ولن تفعلوا﴾ وهذا من باب توفير الدواعي على المعارضة، بطريق الملاينة والتحريض واستنفار الهمم ، حتى يتأكد المنكرون من أنه لا يمكن أن تقع منهم المعارضة. ثم عقّب على هذا بتحريض آخر لهم فيه نوع من المخاشنة، وهو: الإخبار بأن المعارضة لن تقع منهم جزماً وقطعاً.

ثم إن هذا التحدي للبشر كافة بصوره المتعددة مستمر إلى يوم الدين ، وفي هذا دلالة أخرى على إعجاز هذا الكتاب العزيز، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ لو كان ذلك الكتاب من عنده لما تحدى مثل هذا التحدي العظيم، ولاحتاط لنفسه ووجل من مغبة أن يأتي أحد ولو في المستقبل فيعارض هذا الكتاب فتنهدم حجيته، ولكن الإخبار قد جاء في الآية الكريمة إخباراً جازماً قاطعاً بأن ذلك القرآن لا يعارض أبد الآبدين، وهكذا كان إلى يومنا هذا وهكذا سوف يكون(١).

فعجز البشر عن أيّة معارضة حقيقية للكتاب العزيز مع ما سبق من التنزلات في عدد السور، ومع ما سبق من حفز الهمم والتهديد والوعيد إن لم تتم المعارضة ؛ يتضمن آية وبرهاناً قاطعاً على إعجاز ذلك الكتاب وكونه من كلام رب العالمين، ومن ثم فإن في تلك الآية دليلاً على صدق من جاء بها وبلغها إلى البشر كافة صلى الله عليه وسلم(٢).

جـ- ومما جاء به في السنة المطهرة دالاً على عظم آية الكتاب العزيز؛ قوله صلى الله عليه وسلم:

"ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله أومن -أو- آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة"(٣).

---

(١) انظر: تفسير الرازي: ٢/١١٥-١٢٢. و: النبوات؛ ابن تيمية: ٨٦٠-٨٦٢. و: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ١/٥٩-٦١. و : تفسير فتح القدير: ١/٥٢-٥٣. و: تفسير التحرير والتنوير: ١/٣٣٥-٣٤٥. و: مباحث في إعجاز القرآن: ٣٤.

(٢) انظر: النبوات؛ ابن تيمية: ٥١٥-٥١٧.

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. صحيح البخاري: ٦/٢٦٥٤/ ح: ٦٨٤٦، وانظر: ٤/١٩٠٥/ح: ٤٦٩٦. و: صحيح مسلم: ١/١٣٤/ح: ١٥٢.

فهذا الحديث أصل في بيان أنه ما من نبي من الأنبياء عليهم السلام إلا قد أيده الله جل ذكره بالآيات الخارقات، ثم إنه صلى الله عليه وسلم بيّن أن الآية التي أرسل بها وأيده الله تبارك اسمه بها هي في حقيقتها وحي أنزله الله جل شأنه إليه صلى الله عليه وسلم، والمراد به هنا القرآن الكريم، ولكن ليس المراد من الحديث الحصر، أو أنه صلى الله عليه وسلم لم يؤت من الآيات غير الكتاب الحكيم، بل المراد أن القرآن المجيد هو الآية العظمى التي اختص بها صلى الله عليه وسلم دون غيره.

ومما ذكره العلماء في بيان معنى الحديث:

١) أن القرآن الكريم هو الآية الكبرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ليس له مثيل لمن كان قبله صلى الله عليه وسلم من الأنبياء عليهم السلام ، ولهذا أتبعه بقوله: "فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة".

٢) أن آيات الأنبياء السابقين عليهم السلام قد انقرضت بانقراض أعصارهم، ولم يشاهدها إلا من حضرها، وأما آية نبينا صلى الله عليه وسلم فهي آية مستمرة إلى يوم القيامة، مع خرقها العادة في كل وجه من وجوه إعجازها، وعجز الإنس والجن من المنكرين لها، سواء مجتمعين أم متفرقين، وفي جميع الأعصار، عن معارضتها، مع وجود الداعي عندهم إلى هذا.

بل إنه لا يمر عصر إلا ويظهر في تلك الآية الكبرى وجه من وجوه إعجازها، يزيد من قوة دلالتها ورسوخها.

٣) أن الآيات الماضيات كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح عليه السلام ، وعصا موسى عليه السلام، وآية القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه صلى الله عليه وسلم لأجلها أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد العصر الأول ، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض. ولو ثبتت بعض الآيات المادية عن طريق الأخبار المتواترة والصحيحة؛ فإن رؤية الآية وتدبرها أكبر أثرا من مجرد سماعها.

٤) ثم إنه صلى الله عليه وسلم قد رتب رجاء أن يكون أكثر الأنبياء عليهم السلام تابعاً يوم القيام على الآية التي جاء بها، وهذا لأن آية القرآن الكريم العظمى هي أعظم الآيات، وأبقاها، كما سبق وأنفعها، لاشتمالها على الدعوة والحجة في آن واحد ، فعم نفع هذه الآية من حضر ومن غاب، ومن وجد ومن سيوجد[1].

ثانياً: من أهم ميزات آية الرسول صلى الله عليه وسلم العظمى (القرآن الكريم):

مما سبق بيانه فإنه يمكن القول: إن من أهم ميزات آية الكتاب العزيز:

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم: ٢ / ١٨٨. و: فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ ابن حجر: ٦/٩-٧. و: عمدة القاري شرح صحيح البخاري؛ بدر الدين العيني: ٢٠ / ١٣.

١) إنها عقلية فكرية تلائم المستوى الفكري والحضاري الذي وصلت إليه الإنسانية.

٢) إنها عامة شاملة فهي لا تقتصر دلالتها على من حضرها ورآها، بل كل إنسان يمكن أن يعمل عقله المنصف، ويستنبط ما فيها من إعجاز بقدر استطاعته.

٣) أنها باقية خالدة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وهذا لأنها محفوظة عن التبديل والتغيير والزيادة والنقصان، بحفظ الله تبارك اسمه لها، قال جل جلاله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ الحجر.

٤) أن لها وجوها متعددة من الإعجاز تناسب البشر جميعاً على اختلاف فئاتهم، وتقيم عليهم الحجة على أكمل وجه.

٥) أنها تدل على صدق كون هذا الكتاب من عند الله عز وجل، وصدق من جاء به صلى الله عليه وسلم.

٦) أنها تجمع بين كونها آية كبرى على الصدق، ورسالة ترشد للحق وتوضحه وتبينه بأحسن بيان وأتمه وأكمله[1].

ثالثاً: بعض أوجه الإعجاز القرآني:

الوجه الأول: الإعجاز البياني:

وهذا الوجه من أبرز أوجه الإعجاز القرآني التي تحدث عنها العلماء قديماً وحديثاً، وأفردوه بمصنفات خاصة، بل إن هذا الوجه كان هو السبب لنشوء علم البلاغة، الذي لم يوضع إلا لفهم إعجاز القرآن البياني الرفيع.

وسبب بروز هذا الوجه أن الدارسين الأقدمين رأوا أن القرآن قد جاء متحدياً العرب في أعز ما كانوا يفتخرون به ويتنافسون فيه، وهو البيان والفصاحة، فقد كانوا هم أربابها ومقدميها، فجاءهم القرآن الكريم بكلام فصيح بليغ أدركوا روعته وسموه، وأدركوا عجزهم أمامه.

ومن أبرز مظاهر الإعجاز البياني:

١) ألفاظ القرآن الكريم ومميزاتها، ومن هذه المميزات:

أ- أن كل كلمة من كلمات القرآن الكريم متسقة ومتناسبة مع المعنى الذي وردت من أجله تماماً[2].

---

(١) انظر: أصول الدين؛ عبد القاهر البغدادي: ١٨٣. و: الشفا بتعريف حقوق المصطفى؛ القاضي عياض اليحصبي: ٢٧٩/١. و: الجامع لأحكام القرآن؛ القرطبي: ٧٧/١-٧٨. و: مناهل العرفان في علوم القرآن؛ الزرقاني: ٣٣٦/٢. و: القرآن الكريم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين؛ محمد الصادق إبراهيم عرجون: ١٤١. و: التبيان في علوم القرآن؛ محمد علي الصابوني: ٨٧-٨٩. و: مباحث في علوم القرآن؛ مناع القطان: ٢٥٧-٢٥٨. و: بينات المعجزة الخالدة؛ حسن العتر: ١٥٠-١٥٢. و: مباحث في إعجاز القرآن: ٢٢-٢٦.

(٢) انظر: بيان إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن؛ الخطابي: ٢٧، ٢٩. و: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز -تفسير ابن عطية-: ٦٠/١. و : أحسن الحديث؛ محمد سعيد رمضان البوطي: ١٢١-١٢٩. و: إعجاز القرآن البياني؛ حفني محمد شرف: ٢٢٣-٢٢٦.

ب- موافقة اللفظة القرآنية للأحكام والتكاليف الشرعية المستحدثة ، كوضع لفظة الصلاة للعبادة المعروفة[١].

جـ- استحالة تبديل اللفظة القرآنية بلفظة أخرى[٢].

د- جمال وقع أحرف الكلمات القرآنية على السمع مع مراعاة مقتضى حال النص[٣].

٢) أساليب القرآن، ومميزاتها:

ويقصد بأساليب القرآن: الطريقة الخاصة التي انفرد بها في الألفاظ المختارة، وفي تراكيبه المحكمة، وفي طريقة تأليف كلامه[٤].

ومن مميزات إعجاز الأساليب القرآنية:

أ) انفراد الأسلوب القرآني عن أساليب البشر جميعاً ، واختصاصه بوجه رفيع خرج به عن المعهود والمألوف من الأساليب العربية. وهذا بوجه عام، ثم إن في الكتاب العزيز الكثير من الأساليب الجزئية التي تعتبر مبتكرة تماماً لم تكن معهودة لدى العرب بتاتاً وقد بلغت نهاية الإعجاز[٥].

ب) إحكام سبك القرآن العظيم وترابط أجزائه ترابطاً قوياً[٦].

ج) القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى[٧].

د) خطاب العقل والعاطفة في آن واحد[٨].

هـ) صياغةُ معانيه صياغةً تصلح لأن يخاطب به الناس كلهم[٩].

---

(١) انظر: بينات المعجزة الخالدة: ٢٤٥.

(٢) انظر لتوضيح هذا : بيان الإعجاز؛ الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٢٩-٣٠. و: القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين: ١٧٧، فقد ذكر أن المحققين من العلماء كابن تيمية وغيره ذهبوا إلى منع الترادف في القرآن، واستحالة أن يعبر بلفظ واحد عن لفظ واحد يؤدي جميع معناه، وضرب لذلك أمثلة، وانظر: أحسن الحديث: ١٢٤-١٢٥.

(٣) راجع بيان هذه الأمثلة: النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز: ٩٦. و: إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق؛ حفني محمد شرف: ٢٢٣-٢٢٩. و: بينات المعجزة الخالدة: ٢٥١. و: مباحث في إعجاز القرآن: ١٢٩.

(٤) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ٣٠٣. و: بينات المعجزة الخالدة: ٢٤٠.

(٥) انظر : إعجاز القرآن؛ الباقلاني: ٣٥. و: الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١/ ٢٦٤. و: إعجاز القرآن؛ عبد الكريم الخطيب، الكتاب الثاني: ٢٠٤-٢٠٥. و : بينات المعجزة الخالدة: ٣٠٠-٣٠٢.

(٦) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ٣١٥-٣١٨.

(٧) انظر: النبأ العظيم: ١٠٢-١٠٦. و: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/٣٢٤-٣٢٥. و: أحسن الحديث: ١٣١.

(٨) انظر: النبأ العظيم: ١٠٧-١١٠. و : مناهل العرفان : ٢/٣١٣-٣١٥ . و : بينات المعجزة الخالدة : ٣٠٥ - ٣٠٧ .

(٩) انظر: النبأ العظيم : ١٠٦ . و: مناهل العرفان: ٢/٣١٥-١١٣. و: أحسن الحديث: ١٠١-١٠٣.

و) سمو التعبير القرآني في جميع ما تطرقه من موضوعات مختلفة. وحتى ما يتعلق منها بالموضوعات التشريعية والفكرية البحتة[١].

ز) النظام الصوتي البديع ، ويراد به : اتساق القرآن المجيد وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغناته، واتصالاته وانفصالاته، اتساقاً عجيباً، وائتلافاً رائعاً يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس، بالإضافة إلى الطريقة البديعة التي رصفت فيها حروف القرآن الكريم، ورتبت على أساسها كلماته، مما يشعر السامع بلذة لا يشعر بها عند سماع أي كلام آخر[٢].

٣) البلاغة في القرآن الحكيم:

يقصد بالبلاغة في الاصطلاح: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[٣].

والفصاحة تكون في اللفظ المفرد وفي الكلام وفي المتكلم.

والفصاحة في اللفظ المفرد: خلوصه من تنافر الحروف، ومن الغرابة، ومن مخالفة القياس، ومن مخالفة ما ثبت عن الواضع.

ومن شرط الفصاحة في الكلام: خلوصه من ضعف التأليف، وخلوصه من تنافر الكلمات، وعدم تعقيد الكلام لئلا يؤدي ذلك إلى غموض المعنى وعدم إدراكه.

والفصاحة في المتكلم: ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح[٤].

ومن تأمل الشروط السابقة، وتدبر كتاب الله جل ذكره دراسة وتحليلاً؛ وقر في نفسه إعجاز هذا الكتاب العزيز في بلاغته وبيانه وفصاحته، بل إن العلماء قد استنبطوا فنون البلاغة المختلفة منه[٥].

الوجه الثاني: إعجاز القرآن المتمثل في صدق إخباره عن الأمور الغيبية:

لقد اشتمل القرآن الكريم على أخبار غيبية كثيرة دلت الأحداث والتواريخ على صدقها الصدق الكامل في جميع جزئياتها.

ومن المعلوم المتيقن أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا علم له بتلك الأمور المغيبة من قبل نفسه، ولا وسيلة له إليها إلا بالتلقي والتعلم، وما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم تلقى علماً من

---

(١) انظر: إعجاز القرآن؛ الباقلاني: ٣٦-٣٨. و: الشفا بتعريف حقوق المصطفى - صلى الله عليه وسلم -: ١/٢٧٩-٢٨٠. و: تفسير الرازي: ٢/١١٦. و: أحسن الحديث: ١٠٠.

(٢) انظر: النبأ العظيم: ٩٤-٩٧. و: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ٣٠٩-٣١٣.

(٣) انظر: التلخيص في علوم البلاغة؛ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب: ٣٣.

(٤) انظر: المرجع السابق: ٢٤-٣٦.

(٥) انظر: النكت في إعجاز القرآن؛ أبو الحسن الرماني، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٧٥. و: التلخيص في علوم البلاغة، مقدمة الشارح : ٢، ٦. وانظر أمثلة من الكتاب العزيز على سمو بلاغته وإعجازه في هذا المجال: مباحث في إعجاز القرآن: ١١٤-١١٥. و: بينات المعجزة الخالدة: ٢٦٥-٢٦٧.

بشر، وسيرته صلى الله عليه وسلم أكبر شاهد على هذا، فهذا كله مما يعطي دلالة قطعية على أن ذلك الكتاب المجيد لا يمكن أن يكون إلا من كلام علام الغيوب جل شأنه.

وقد نبه كثير من العلماء الأقدمين على هذا الوجه، وكان يلي في الأهمية عند معظمهم وجه الإعجاز البيائي السابق[١]، وقد قسم العلماء هذا الوجه إلى:

أ- الإخبار عن الغيب الماضي، وهو في القرآن المجيد كثير، ويتمثل في القصص الرائع عن سير المرسلين عليهم السلام مع أقوامهم، وأساليب دعوتهم، وما قابلهم به قومهم، وما انتهى إليه أمر الرسل عليهم السلام مع أقوامهم، وهذا كله بأسلوب العبرة والعظة، وإثارة المشاعر والوجدانات وحث العقل والفكر على التبصر بعاقبة السابقين. وشحذ همم المؤمنين للثبات، وطمأنة قلوبهم ونفوسهم بأن العاقبة للمتقين، وتحذير المعاندين والجاحدين وتخويفهم، لعلهم يتداركون أنفسهم قبل فوات الأوان.

وقد جاء في الكتاب العزيز قصص متعددة من التي وردت في الكتب السابقة، وهذا ليتأكد أهل الكتاب من صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنهم في قرارة أنفسهم متيقنون من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتلق ما جاء به من عند بشر، ثم إن في القصص القرآني زيادات على ما جاء في قصص السابقين، وفيها أيضاً تصحيح لكثير من التحريفات والتخريفات التي أدخلتها أيدي البشر العابثين في الكتب الربانية السابقة. قال تبارك اسمه:

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾ هود[٢].

ب- الإخبار عن الغيب الحاضر، ويقصد به ما جرى في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم من حوادث لم يحضرها أو لم يعلم بها، ثم نزل القرآن الكريم متضمنا لها ومخبراً بحقيقة ما جرى[٣].

ومثل هذه الأمور لا يمكن أن يعتمد فيها على مجرد الحدس والظن، إذ كثيراً ما يخالف الظن واقع الحال، والقرآن قد جاء بأخبار مؤكدة في هذا المجال، لا احتمال فيها ولا شك.

---

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ٣٦٧. و: بينات المعجزة الخالدة: ٣٢١. و: مباحث في إعجاز القرآن: ٢٦٢-٢٦٤.

(٢) ممن ذكر هذا الوجه من الإعجاز: البيهقي في: دلائل النبوة: ١/ ١٧-١٨. و: القرطبي في: الجامع لأحكام القرآن: ٧٤/١. و: الباقلاني في: إعجاز القرآن: ٣٤. و: القاضي عياض في: الشفا: ١/ ٢٦٩-٢٧٢. و: الزركشي في: البرهان في علوم القرآن: ٩٦/٢. و : السيوطي في معترك الأقران في إعجاز القرآن : ١/٢٤٠-٢٤٢. وغيرهم. وانظر: مباحث في إعجاز القرآن: ٢٤٨-٢٥١. و: بينات المعجزة الخالدة: ٣٢١-٣٢٧.

(٣) انظر: مباحث في إعجاز القرآن: ٢٥٢.

وصدق ما جاء في الكتاب العزيز في هذا المجال دليل أكيد على صدق من جاء به صلى الله عليه وسلم. بالإضافة إلى أنه توجد حكم أخرى للإخبار بمثل هذه الأمور، كتحذير المؤمنين من أعدائهم، وبيان ما يخططونه لهم، ليكونوا على بينة من أمرهم، وليحتاطوا لأنفسهم. وفي هذه النصوص تحذير وتهديد لمن يمكرون المكر السيء بالمؤمنين، ولمن يضمرون لهم الحقد والكراهية، بل إن في بعض النصوص تربيةً لنفوس بعض المؤمنين، الذين قد يوجد في قلوبهم ما لا يليق بالمؤمن الحق. ومن أمثلة هذه النصوص: الإخبار عن مكايد المنافقين واليهود وعموم المشركين، وبيان أساليبهم الدنية لمحاربة دعوة الحق وأتباعها، وهذا باب واسع. قال جل شأنه:

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ آل عمران[١].

جـ- الإخبار عن الغيب المستقبل، ويراد به ما جاء في القرآن المجيد من الإخبار بوقوع أحداث مستقبلية، وقد وقع بعضها مصدقاً لما جاء في الكتاب العزيز، والبعض الآخر مازال ينتظر وقوعه، ولا شك أن تصديق الواقع لكل خبر مستقبلي ورد في القرآن الكريم؛ من الأدلة القاطعة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ التخمين والحدس إن صدق مرة فلا يمكن أن يصدق دواماً. ومن الأخبار المستقبلية الواردة في القرآن الكريم:

١- الإخبار بانتصار الإسلام وظهوره على الدين كله واستخلاف المسلمين في الأرض[٢].

٢- الإخبار بانتصار الروم على الفرس في مدة زمنية يسيرة، بعد أن كانوا قد انهزموا أمامهم هزيمة منكرة[٣].

٣- الإخبار بأن اليهود لن يتمنوا الموت أبداً [٤].

---

(١) أمثلة هذا النوع كثيرة ، انظر على سبيل المثال: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٤/ ٣٢٣، في تفسير سورة المجادلة، حول بعض مكر اليهود السيء في المناجاة والتلاعب بالألفاظ. والمرجع نفسه: ١/٤٢٤-٤٢٥، حول حقيقة حال المنافقين عندما خذلوا المسلمين في غزوة أحد. و: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز؛ الفيروز آبادي : ١/٢٢٧، حول سورة التوبة وأنها تسمى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين وكشفت خفايا نفوسهم، وكثيراً من مكائدهم. وانظر على سبيل المثال تفسير مواضع متعددة من هذه السورة: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٢/٣٦١-٣٦٢. و: تفسير فتح القدير؛ الشوكاني: ٢/٣٦٦-٣٦٩. و: تفسير التحرير والتنوير؛ ابن عاشور: ١٠/٢١٦-٢٢٢. وممن نبه على وجه الإخبار عن الضمائر في الكتاب العزيز: الزركشي في: البرهان في علوم القرآن: ٢/٩٦. و: السيوطي في: الإتقان في علوم القرآن: ٢/١١٨. وانظر: مباحث في اعجاز القرآن: ٢٥٢-٢٥٨.

(٢) انظر في الأدلة على هذا الأمر وبيان ما فيه من الإعجاز: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/٣٧٣-٣٧٥. و: بينات المعجزة الخالدة: ٣٣٢-٣٣٥، ٣٦٢.

(٣) انظر في شرح هذا الأمر: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٣/٤٢٢-٤٢٦. و: مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/٣٦٩-٣٧٠. و: بينات المعجزة الخالدة: ٣٤٠-٣٤٤.

(٤) انظر في بيان هذا الأمر: مناهل العرفان: ٢/٣٧٨-٣٨٠.

٤- الإخبار بأن أحداً لن يستطيع أبداً أن يعارض ولو سورة واحدة من سور القرآن الكريم، فيأتي بمثلها من عنده، ولو كان الجن والإنس بعضهم لبعض ظهيراً[١].

٥- الإخبار بفتح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم مكة المكرمة ودخولهم المسجد الحرام آمنين[٢].

الوجه الثالث: إعجاز القرآن في مضامينه الاعتقادية والتشريعية والخلقية:

سيتم بإذن الله تعالى في مبحث قادم الحديث عن المضامين الاعتقادية والتشريعية والأخلاقية، ولكن لابد هنا من الإشارة إلى بعض ما ذكره العلماء من مزايا الإعجاز القرآني المتعلقة بتلك المضامين:

١- مجيء الكتاب العزيز منجماً، تيسيراً لتلقيه وقبوله وفهمه وتطبيقه، وليتدرج في تربية نفوس متلقيه شيئاً فشيئاً، رجاء أن يصل بهم إلى أسمى الفضائل وأرفع الدرجات.

٢- مجيئه بديعاً رائعاً محبباً إلى النفوس، دافعاً إلى الإقبال عليه والاستئناس بما جاء من تعاليمه، ولو خالفت المألوف.

٣- مجيئة على غير المعهود في تأليف القوانين والعلوم والفنون والآداب، من تقسيم وتبويب واختصاص كل باب بموضوع، وكل فصل... وهكذا.

ففي كثير من سور الكتاب العزيز يوجد مزيج من المقاصد والموضوعات، على وجه يدفع السأم والملل عن قارئ ذلك الكتاب، ويجعله متيقظاً دواماً إلى الموضوع المتجدد الذي سيقابله كلما تنقل بين الآيات . ثم إن المتدبر يجد أن بين موضوعات السورة المتنوعة وحدة فكرية رائعة تشهد لهذا الكتاب بأنه لا يمكن أن يكون من وضع المخلوق، إذ مهما بلغت قدرة المخلوقين فإنهم لن يستطيعوا أبداً سبك موضوعات مختلفات في كلمات معدودات وآيات محدودات، على وجه يجعل تلك الموضوعات وكأنها وحدة فكرية متكاملة لا تنافر بينها ولا تضاد.

وفي المقابل: فإنه في الغالب يوجد الموضوع الواحد مبثوثاً في سور متعددة من الكتاب العزيز، على وجه تتحقق فيه الأمور التالية:

---

(١) انظر ما سبق: ١٧٥-١٧٨.

(٢) انظر : بيان البشريات حول فتح مكة في سورة الفتح: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٤/ ٢٠١. و: الصيام ورمضان في السنة والقرآن؛ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : ٤٤٠-٤٤١. وممن نبه على هذا الوجه الإعجازي بالنسبة إلى الأخبار الغيبية المستقبلية: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني في رسالته: النكت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ١١٠-١١١. و: الباقلاني في كتابه: إعجاز القرآن: ٣٣-٣٤. و: البيهقي في كتابه: دلائل النبوة : ١/ ١٧. و : الزركشي في كتابه: البرهان في علوم القرآن: ٢/٩٥-٩٦. و: القرطبي في تفسيره: الجامع لأحكام القرآن: ١/٧٤-٧٥. و: السيوطي في كتابه: معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/٢٣٩-٢٤٠.

- ملاءمة المقدار المنزل من الموضوع في السورة مع باقي موضوعات السورة، وكونه وافياً بالغرض من غير نقصان.
- ملاءمة المقدار المنزل من الموضوع مع الحال التي وصل إليها المدعوون من المؤمنين وغيرهم.
- أن الموضوع الواحد وإن كانت أجزاؤه مثبوته في العديد من السور؛ فإنه عندما تجمع أطرافه من تلك السور؛ يجد المتدبر بين تلك الأطراف تكاملاً عجيباً في البناء الفكري المتدرج، الذي لا تضاد فيه ولا اختلاف ولا تناقض، بل يجد توافقاً وائتلافاً، وصولاً إلى استيفاء الموضوع حقه من جيمع جوانبه، واكتماله على وجه لا يحتاج معه إلى زيادة.

٤- تكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة ، حتى يجد سبيله إلى النفوس النافرة والطباع العصية.

٥- مخاطبة العقول والأفكار ، ودعوته إلى إعمال النظر، وطلب الدليل والبرهان، ونعيه على الذين أهملوا العقول واستمرؤوا التقليد الأعمى، وركنوا إلى الجمود.

٦- استغلاله الغرائز النفسية استغلالاً صالحاً بعد أن يهذبها ويصقلها.

٧- مجيء القرآن الكريم بمطالب الروح والجسد معاً دون طغيان أحدها على الآخر[١].

الوجه الرابع: الإعجاز العلمي في القرآن المجيد:

إن التعبير بالإعجاز العلمي قد أخذ عند المعاصرين اصطلاحاً ومفهوماً خاصاً ، وهو: ما ورد في القرآن من إشارات إلى أمور متعلقة بخلق الإنسان وببعض خصائص الكون من حوله، مما توصل إليه علم الإنسان بعد نزول القرآن بخمسة عشر قرناً، وهي أمور لم تكن معروفة قبلاً، بل جاءت نتيجة البحث والتطور العلمي الذي اكتشف أموراً وافقت ما جاء في القرآن الكريم.

أما الأقدمون فكان مما ذكره بعضهم من وجوه الإعجاز؛ الوجه الذي يرى اشتمال القرآن على مبادئ العلوم كلها وأمثلة عليها، مع بيان علم الشرائع والعقائد، والحجج والبراهين العقلية، والسير والقصص والحكم والمواعظ والأخلاق الفاضلة، ومصير الإنسان والدار الآخرة، واللغة والبلاغة والأدب، بل قيل إنه احتوى على مبادئ في علوم الطب والهيئة والهندسة والحساب وأصول الصنائع وأسماء الآلات[٢].

والمراد هنا هو الإعجاز العلمي بحسب اصطلاح المتأخرين.

---

(١) انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ٣٦١-٣٦٦. وانظر أمثلة من إعجاز القرآن في المضامين الفكرية التي اشتمل عليها: مباحث في إعجاز القرآن: ٢٢٣-٢٣٣، ٢٤٠-٢٤٤. و : بينات المعجزة الخالدة: ٣٦٦-٣٦٨. وممن نبه على هذا الوجه من العلماء الأقدمين: القرطبي في تفسيره: الجامع لأحكام القرآن: ١/٧٥.

(٢) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ١/ ٢٧٧. و: معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/١٤-٢٣.

إن الدارس لإعجاز القرآن الكريم العلمي عليه أن يضع نصب عينيه القاعدتين التاليتين:

القاعدة الأولى: أن القرآن المجيد هو كتاب هداية للبشرية كلها:

وذلك فيما يتعلق بالخالق عز وجل وما يجب على البشر تجاهه، وفيما يتعلق بالأسس العامة التي يجب عليهم أن يطبقوها في حياتهم الدنيوية، والأحكام الشرعية التي يجب أن يسيروا وفق هديها للفوز بالسعادتين الدنيوية والأخروية.

وأما طرق انتفاع الإنسان من الكون المسخر له من حوله والاستفادة منه، واكتشاف ما فيه، فقد ترك للإنسان ليصل إليه بتجاربه وفكره.

ولكن ومع هذا فإنه لما كان القرآن المجيد هو الرسالة وهو أيضاً الآية والحجة والبرهان ، ولما كان لكل طائفة من البشر صنف من الأدلة والبراهين تستطيع أن تدركها وتدرك أبعادها أكثر من غيرها من الأصناف، ولما كانت طائفة كبيرة من البشر قد تخصصت في العلوم والمعارف الكونية، والحجة على أمثال هؤلاء إذا توافقت مع صميم علمهم وبحثهم كانت أقطع للعذر وأظهر للدلالة؛ لذلك كله فإنه تبارك اسمه الحكيم العليم لم يترك هذه الفئة الكبيرة من البشر دون أن يبين لها الآيات التي تساعدها على إعلان إيمانها بهذا الدين الحق وكتابه الكريم[١]. قال جل شأنه:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾ فصلت.

وبناء على ما سبق فإن ما يرد في الكتاب العزيز من آيات كونية إنما يقصد به الهداية لمن يستطيع إدراك حقائق تلك الآيات للوصول إلى الإيمان بالحق والانقياد له، وعليه: فإن المتدبر للقرآن الكريم يجب ألا يخرج عن ذلك المنهج ، فلا ينبغي له أن يرفض اشتمال القرآن المجيد على بعض الدلائل الكونية، فإن هذا مكابرة ومخالفة للواقع، وفي المقابل: فإنه لا تصح المغالاة في هذا المجال وتجاوز الحد فيه، وجعل الكتاب الحكيم وكأنه كتاب من كتب العلوم الطبعية، فتحمل آياته ما لا تحتمل، ويتعسف في تأويل دلالاته تعسفاً قسرياً، يبعدها عن دلالاتها الحقيقية، لتوافق ما ظنه المتأول صاحب العلم الكوني.

القاعدة الثانية: استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية:

فالقرآن الكريم كلام الله جل ذكره ، وهو تبارك اسمه خالق هذا الكون وواضع النواميس فيه، فلا يمكن أن يتعارض كلام الله سبحانه مع حقائق خلقه جل جلاله، قال تعالى:

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (٦)﴾ الفرقان.

---

(١) انظر: مباحث في إعجاز القرآن: ١٤٩-١٥٧. و: التبيان في علوم القرآن: ١٢٦-١٢٧.

ولكن ينبغي أن يلاحظ في هذا المجال الأمور التالية:

الأمر الأول: أنه قد يدعى في بعض النظريات أو الفرضيات الكونية أنها أصبحت حقائق علمية قطعية، والحق بخلاف هذا ، إذ هي إما أن تكون في مرحلة التجريب والتطوير ، وإما أن تكون قد أثبتت بطلانها دلائل كثيرة، وإنما يتمسك بها أصحابها الملحدون لأنها هي البديل الوحيد للإيمان بالخالق الحكيم، كفرضية النشوء والتطور والارتقاء الذاتي في الكائنات الحية، وصولاً إلى الإنسان.

ولهذا فإنه لا يلتفت إلى ما قد يثار من التصادم بين هذه الفرضية الساقطة ؛ والحقائق التي جاءت في الكتب المنزلة من عند الله سبحانه عن خلق الإنسان.

الأمر الثاني: أنه قد توجد بعض التفسيرات الخاطئات لبعض النصوص التي تتناول حقائق كونية، ويكون التعارض بين تلك التفسيرات الخاطئات وبين ما قد يصل إليه العلم الكوني من حقائق عن طريق البحث والدراسة، ولكن بالتدبر الصحيح للنص الرباني المنزل يمكن إدراك كمال التوافق بينه وبين الحقيقة العلمية الثابتة[1].

الأمر الثالث: أنه يجب عند تفسير آيات الكتاب العزيز التي تتناول شيئاً من الحقائق الكونية الاقتصار على ما ثبت بالدليل الصحيحِ القاطعِ كونُه حقيقةً علمية غير قابلة للنقض ، وعدم الجري وراء كل فرضية أو نظرية علمية مستحدثة وتفسير آيات الكتاب العزيز بها، لأنها لا يؤمن عليها أن تتبدل وتتغير، ويؤدي هذا عند قاصري العقول إلى القدح في الكتاب المجيد ، دون أن يشير إلى خطأ التفسير والتأويل . ثم إنه غالباً ما يقع في مثل هذه التفسيرات الكثير من التعسف في التأويل لجَعْل الآية الكريمة وكأنها ناطقة بتلك الفرضية العلمية[2].

وبعد ، فإن شأن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم كشأن غيره من أنواع الإعجاز الأخرى، قد جاء في القرآن المجيد بأسلوب بياني رائع، مبثوثاً في ثنايا السور الكريمة، ومرشداً إلى مقصد الهداية القرآنية من إقامة الدلائل على الإيمان بالله جل جلاله وكتبه ورسله عليهم السلام، وسائر أركان الإيمان، ومن ثم تثبيت ذلك الإيمان، بطريقة عجيبة رائعة، كل موضع منها مناسب للمقام الذي تدور حوله الآيات السابقة واللاحقة، وكأنها حبات عقد منسّق فريد[3].

---

(١) انظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ١٧٩.

(٢) انظر: مباحث في إعجاز القرآن: ١٥٣-١٥٤.

(٣) انظر بعض صور هذا الإعجاز: الإعجاز حول الصلب والسرائب، في: خلق الإنسان بين الطب والقرآن؛ محمد علي البار: ١١٦. و: الرياح لواقع السحاب، في كتاب: الله -جل جلاله- والعلم الحديث؛ عبد الرزاق نوفل: ١٣٤-١٣٦. و: السماء السقف المحفوظ، في: الإسلام والنظر في آيات الله الكونية؛ محمد عبد الله الشرقاوي: ١٥٧-١٥٩، ١٦١-١٦٢. و: لماذا أنا مؤمن؛ محمد جمال الدين الفندي: ١٤٧-١٤٩.

الفصل الخامس: مضامين الرسالات الربانية بصفة عامة، والرسالة الخاتمة بصفة خاصة، ومميزاتها، ومصادر مضامين الرسالة الخاتمة.

ويشتمل على:

مقدمة.

المبحث الأول: المضمون العقدي ومميزاته.

المبحث الثاني: المضمون الخلقي ومميزاته.

المبحث الثالث: المضمون التشريعي ومميزاته.

المبحث الرابع: مصدرا مضامين الرسالة الخاتمة.

مقدمة :

إن من أعظم مميزات المنهج الرباني المنزل أنه منهج متكامل وشامل وعادل ، فلم يهتم بجانب على حساب جوانب أخرى ، ولم يهتم بالفرعيات دون إرساء القواعد والأسس ، ولم يهتم بالظواهر تاركاً البواطن دون ضبط وتشريع ، أو العكس .

ومن المعلوم أن غاية المنهج الرباني تهدف إلى أن يتحقق الإنسان بعبوديته لربه جل شأنه على الوجه الصحيح والأكمل ، قال تبارك اسمه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ الذاريات.

وكذلك فإن المنهج الرباني يهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان بصورتها المثلى والكاملة . قال جل ذكره :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) ﴾ النحل.

ومن الحقائق الثابتة أن عبودية المرء لربه جل شأنه لا تعني أن يلغي الإنسان عقله ووجدانه، بل المطلوب منه –إذا أراد أن يكون عبداً لله تعالى حقاً– أن يُعْمِلَ عقله وتفكيره ، ولا يكون كالأنعام[١].

وبناء على ما سبق فإن من الطبعي أن يبتدئ المنهج الرباني بإرساء القواعد العقدية الصحيحة، التي تنبثق منها جميع السلوكيات الباطنة والظاهرة ، وهذا بالأدلة والحجج والبراهين القاطعة ، ثم يتبع ذلك الإرساء ببناء السلوك النفسي (الأخلاقي) على الوجه الذي يتلاءم مع تلك العقائد الإيمانية ، ويضع لها التشريعات والضوابط والتوجيهات ويتابعها دواماً بالنصح والإرشاد والمواعظ .

ثم يتبع هذا البناء ببناء السلوك الظاهر العملي على ما يتلاءم مع العقائد والأخلاق التي أسسها ، فيضع منهجاً تشريعياً متكاملاً ومفصلاً وعادلاً ، يشمل به جميع أنشطة المرء العملية الخاصة والعامة ، التي تتعلق بتعامله مع ربه عز وجل ، ومع نفسه ، ومع الناس من حوله على اختلاف أصنافهم وفئاتهم وبعدهم وقربهم عنه ، ومع الكون كله . ويحتوي ذلك المنهج بالإضافة إلى التشريعات والأحكام المفصلة؛ على أحكامٍ وتشريعاتٍ تعتبر قواعد كلية يمكن أن تضبط أي

---

(١) انظر: ٧٨–٨٠.

سلوك أو نشاط يقوم به الإنسان ، وبذلك كلّه يصبح بناء الإنسان المسلم بناء كاملاً غير منقوص.

ومن هذه المقدمة يستنتج أن مضامين الرسالات الربانية تشمل ثلاث كليات أساسية:

الكلية الأولى : المضمون العقدي .

الكلية الثانية : المضمون الأخلاقي .

الكلية الثالثة : المضمون التشريعي العملي .

وبالنسبة إلى الرسالة الخاتمة، ومن أجل الحفاظ على تلك المضامين فيها، فقد تميزت بفضل الله جل شأنه بأمرين أساسيين:

الأمر الأول : تكفل الله جل ثناؤه بحفظ أصلها الذي تستنبط منه تلك المضامين ، قال تبارك اسمه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ الحجر .

والذكر وإن كان المراد الأساسي فيه هو القرآن الكريم ، والمحفوظ بحفظ الله تعالى لفظاً ومعنى ، إلا أنه يشمل بمفهومه العام السنة النبوية المطهرة المبينة له ، التي قيض الله تبارك اسمه لها على مر العصور من يحفظها وينقيها من الشوائب ، ومن حفظه جل جلاله للأصلين توفيقه في كل زمان علماء ليقوموا ببيان وشرح ما ورد فيهما ، واستنباط الأحكام والعلوم منهما .

الأمر الثاني : أنه لا يوجد عصر يمر على أمة الرسالة الخاتمة – مهما بلغت من الضعف والتفكك – إلا وفيها طائفة ظاهرة على الحق، لا يضرهم من خالفهم، وهذا هو ما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم به أمته بقوله :

" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك"[1].

وبعد بيان هذين الأمرين ؛ فإنه لابد من بيان بعض ما يتعلق بمضامين الرسالات السماوية .

---

(١) رواه مسلم عن ثوبان رضي الله عنه . صحيح مسلم : ١٥٢٣/٣ / ح : ١٩٢٠ .

المبحث الأول : المضمون العقدي ومميزاته.

إن الأساس الأول الذي ابتدأت به دعوة جميع الرسل عليهم السلام : دعوةُ الناس إلى توحيد العبادة لله جل شأنه، واجتناب عبادة أي شيء سواه، وهذا لا يكون إلا بعد توحيده تبارك اسمه في ربوبيته التوحيد الكامل ، قال جل شأنه :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(٣٦)﴾ النحل.

وقد كان الكثير من جدليات الرسل عليهم السلام لأقوامهم -ولا سيما المعاندون منهم- تركز على إثبات هذه الحقيقة، وإقامة الحجج والبراهين عليها ، وهكذا كان الأمر في الرسالة الخاتمة.

ثم تتوسع الرسالات الربانية لبيان الكمالات التي يجب على المؤمن اعتقادها بالنسبة إلى الله جل شأنه ، والنقائص التي لا يجوز أن تنسب إلى الرب جل جلاله .

وهذه القاعدة الإيمانية الأساس هي المدخل الأوحد لمن يريد أن يكون من المؤمنين الفائزين بسعادة الدنيا والآخرة .

وأيضاً فإن لإرساء هذه القاعدة الإيمانية أهمية كبرى لتوحيد وتقوية جهود الإنسان وتصرفاته وأفعاله ، فجميع هذه الأمور لا يَقْصِدُ بها المؤمن حقاً ؛ إلا رضا الله تبارك اسمه ، وبهذا يتم توحيد إراداته وقوته لجهة واحدة ، فلا تكون مشتتة مبعثرة ، وفوق هذا فإن الله جل ذكره سيمده دواماً بقوة من لدنه يستطيع بها أن يجابه الصعاب مهما بلغت .

وبعد إرساء الرسالات الربانية القاعدة الأساس ؛ فإنها تبني عليها سائر القواعد والأركان الإيمانية ، كالإيمان باليوم الآخر ، المرتبط بالإيمان بالله عز وجل ارتباطاً وثيقاً ، إذ هو مقتضى جملة من صفات الرب جل ثناؤه ، كالحكمة والعدل والعلم والقدرة والرحمة ، وأنه تبارك اسمه له الحمد كله ، وأنه الحق جل جلاله ، وغير ذلك من الصفات [(١)] . والإيمان بالله تعالى واليوم الآخر حقاً يجعل المرء يتسامى بإرادته ، فهو لا يريد إلا وجه الله جل شأنه والفوز بالدار الآخرة ، وحتى إن أراد أمراً دنيوياً فهو يربطه دواماً بمراده الأكبر ، والمرء إذا بلغ هذا الحد فإنه يكون قد ترقى إلى أسمى درجات الكمال .

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره، مع الإيمان بحكمة الرب جل ذكره وعدله ورحمته ، إذ يعطي المرء الراحة والطمأنينة لمواجهة كل ما يلاقيه ، وأيضاً فإن الإيمان الحق بالقضاء والقدر يدفع الإنسان إلى القيام بالعمل على أحسن الوجوه .

---

(١) انظر: الجزاء الأخروي، دراسة تحليلية نقدية في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، رسالة ماجستير، إعداد الباحث: ٥٧-٧١.

وكذلك الإيمان بالملائكة عليهم السلام وبأنبياء الله تعالى ورسله عليهم السلام وبالكتب المنزلة، إذ هي الوسائل الأفضل التي اقتضتها حكمة الرب جل ذكره لإيصال رسالته إلى عباده المكلفين ، ولتكون أسباباً لأمورٍ أُخَرٍ كثيرةٍ ، ولاسيما بالنسبة إلى الملائكة عليهم السلام .

فإذا رسخت تلك الأركان الإيمانية بُني عليها قضايا إيمانية متعددة، يستطيع المتدبر أن يرى لها حكماً كثيرةً في حياة الإنسان المؤمن، ولو كان الأمر متعلقاً باختبار مدى صدقه في إيمانه بالغيب الذي يأتيه خبره من عند الله تبارك اسمه.

ومن تلك القضايا الإيمان بكثير من الموجودات المغيّبة كالجن ونحوهم، وليقوم الإنسان بما ينبغي عليه تجاه بعض تلك الأمور ، كالاستعاذة من شر شياطين الجن، والحذر من وسوساتهم، وغير ذلك.

وأيضاً الإيمان بما جاء في الرسالة من الأخبار عن الأمور الماضية، لتكون عبرة وعظة تنير درب المؤمن، أو عن الأمور المستقبلة، لتكون بشرى أو تحذيراً أو نحو هذا[١].

وبعد ؛ فإنه يمكن القول : إن من أهم مميزات المضمون العقدي الذي تأتي به الرسالات الربانية ما يلي:

أولاً: إنها شاملة لجميع المجالات التي تُهِم الإنسان ويتساءل عنها.

ثانياً: أنها تعطي الإجابة الشافية عن كل سؤال، وهذا يمنح الإنسان اليقين والطمأنينة القلبية.

ثالثاً: أنها تخاطب العقل والعاطفة معاً.

رابعاً: أنها تعطي الإنسان الأدلة الواضحة، والبراهين والحجج القاطعة لكل قضية إيمانية.

خامساً: أنها لا تتصادم مع العقل ، ولا تُلْغيه ، بل هي تُطالِبُ الإنسان بأن يُعْمِل عقله دواماً على الوجه الصحيح.

سادساً: أنها تتدرج في بناء الأساس العقدي في الإنسان شيئاً فشيئاً ليصل إلى ذروة الكمال.

سابعاً: أنها واضحة بينة لا خطأ فيها ولا تعقيد ولا غموض، وإذا وجدت أمور يحتار العقل بشأنها ابتداء، فلا يحكم فيها بنفي أو إثبات؛ فإنها تأتي وتوضح له الحق كاملاً.

ثامناً: أنها تعطي الإنسان قيمته الحقيقية ، فلا هي تلغيها مطلقاً وتجعله كالريشة في مهب الهواء، ولا هي تعطي الإنسان قدراً فوق حجمه الحقيقي؛ يجعله يتيه في عُجْبٍ وكبر لا يوردانه إلا

---

(١) انظر : ٦٠٨- ٦١٠، ٧١٤.

إلى الهلكة والضياع.

تاسعاً: أنها الطريق الوحيد لسعادة الإنسان الحقيقية والكاملة في الدنيا والآخرة.

عاشراً: أنها تعطي كل عقيدة إيمانية قدرها الذي تستحقه، فيتحقق فيها التعادل والشمول على أكمل وجه.

حادي عشر: أنها تربط المؤمن بربه تعالى مباشرة دون وسائط من المخلوقين.

ثاني عشر : أنها تجعل الإنسان يتعامل مع كل ما هو موجود دون الله تبارك اسمه على الوجه الذي يستحقه، وعموماً فإنها تجعله لا يخضع لأي مخلوق خضوع العبد لربه عز وجل، فالكل عبيد لله تعالى وحده، وتنهاه عن أن يطغى على أي مخلوق بَشَيٍ من الطغيان.

المبحث الثاني: المضمون الخُلقي ومميزاته.

بعد تثبيت الأركان الإيمانية الأساسية في قلب المؤمن، تقوم الرسالات الربانية بتهذيب نفسه وخلقه ، ليتصف بالكمالات والفضائل التي تليق به ، وليبتعد عن الرذائل والنقائص التي تحط من قيمته إلى أسفل سافلين ، وتدس نفسه في الدنايا ، وقد يتم مثل هذا التهذيب مع بدايات الدعوة، ولا سيما بالنسبة إلى أمهات المكارم الخُلقية ، كالصدق والأمانة ، وهذا لأن مثل هذه المكارم وأمثالها هي من الأمور التي يتفق عليها عقلاء البشر على اختلاف مشاربهم ، ثم لأنها تعين الداعي إلى الله كثيراً، وذلك على غرس العقائد الإيمانية في نفس طالب الحق، إذ كل منهما مرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً، بل إن كلاً منهما يقتضي الآخر ويستلزمه علىوجه ظاهر بيّن.

وعموماً فإن أهمية غرس تلك الكمالات الخُلقية ترجع إلى:

أولاً: أنها تقوي وترسخ العقائد الإيمانية في نفس المؤمن.

ثانياً: ثم إنه بصلاح القلب وطهارة النفس تصلح الأعمال والسلوكيات الظاهرة، فما من عمل أو سلوك ظاهر، إلا هو نابع من أساس قلبي ونفسي.

ثالثاً: وأيضاً فإن الأعمال القلبية أعظم درجة في الثواب من الأعمال الظاهرة، وإن كان أحدهما لا يستغني عن الآخر ، ولكن شخصين قد يعملان العمل نفسه، ويثابان عليه، إلا أن أحدهما قد يبلغ بعمله هذا إلى أعلى الدرجات، لما رافق عمله الظاهر من خشية لله تعالى أومحبةٍ له، أو حضور فكر، وغير هذا من أعمال القلوب والنفوس، وقد لا ينال الآخر إلا أدنى درجات الثواب لخلوه من تلك الأمور(١).

رابعاً: وكذلك فإن أعمال القلوب مستمرة مع المرء لا تنقطع، فيجب عليه أن يراقبها دواماً، بخلاف الأعمال الظاهرة، التي قد تَجِبُ في حال دون حال.

من أجل ذلك كله وغيره نجد –من خلال ما بلغنا عن الرسالات السابقات ومن خلال نصوص الرسالة الخاتمة– أن الله تبارك اسمه قد أولى الأخلاق عناية كبيرة، فحث على التمسك بمكارمها، وحذر من ارتكاب مرذولها. وقد كان هذا بشتى الطرق والأساليب المحببة للنفوس والمؤثرة فيها، مع بيان فضائل الأخلاق الحسنة وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع، إذ إن التزامها يؤدي إلى إنشاء مجتمع متكامل متكافل، يسوده الود والتعاون، مجتمع يشد بعضه بعضاً ، ويكوّن بناءً واحداً متماسكاً، وجسداً واحداً سليماً، فهي من الأسباب الرئيسة لتحقيق السعادة الدنيوية الكاملة للمجتمع المؤمن، مع السعادة الأخروية التي ينتظرها.

---

(١) لمزيد من البيان انظر: الجزاء الأخروي دراسة تحليلية نقدية في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة؛ رسالة ماجستير، إعداد: الباحث: ٣٤٦-٣٥٥.

وأيضاً فإن النصوص الشرعية قد بينت مساوئ الأخلاق الدنيئة، ومدى إفسادها للفرد والمجتمع، وهذا يجعله مجتمعاً مفككاً متناحراً متباغضاً.

وبعد، فإن من أهم مميزات الأخلاق التي دعت إليها الرسالات الربانية ما يلي:

١- شمولها لجميع جوانب النفس البشرية دون طغيان أو نقص، قال تبارك اسمه:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ الشمس.

٢- أن مقياس الأخلاق المشروعة مقياس رباني ثابت، وهو لا يعتمد على المقاييس البشرية، التي لابد أن تحيف وتجانب الصواب وتخطئ، تمشياً مع النقص الملازم للجنس البشري عموماً، ونظراً لتأثر النفوس بالأهواء والشهوات، ومطالبها الآنيّة والأنانية.

٣- أن الأخلاق المشروعة تضبط جميع تصرفات الإنسان العملية.

٤- أنها تعطي المؤمن الملتزم بها التوازن والتعادل النفسي؛ الذي يجعله ينشأ إنساناً سوياً[١].

---

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ١/ ٢٢-٦٢.

المبحث الثالث: المضمون التشريعي ومميزاته.

إنه بعد بناء القاعدة الإيمانية الراسخة، وتقوية أركان تلك القاعدة بالأخلاق الكريمة الفاضلة؛ تقتضي الحكمة السامية تكميل بناء الإنسان المؤمن بالشريعة، التي يبعث بها الرب جل شأنه رسله عليهم السلام، ويأمرهم بتبليغها للمكلفين، ويمكن القول: إن من أهم مميزات المضمون التشريعي، ولا سيما في الرسالة الخاتمة:

١) كون الشريعة الإسلامية ربانية:

أي: إن مصدرها من عند الله عز وجل. وهذا يعني أنها لا تخضع لأهواء البشر ولا لمصالح الفئات ، وإن حاول بعض مدعي العلم تغيير شيء من الأحكام الشرعية اتباعاً للهوى فإن أمرهم لا يخفى على أحد، ويتصدى لهم من العلماء الربانيين من يبين خطأهم، أو يكشف عن حقيقة فساد حالهم.

أما الرب الحكيم القدير جل جلاله فإنه منزه عن الهوى والظلم ، وهو تبارك اسمه خالق جميع الناس، ورب العالمين جميعاً ، وكلهم في الأصل بالنسبة إليه سواء ، فهو لا يراعي مصالح قوم منهم أو شعب أو سلالة أو عرق أو أهل لغة ضد مصالح الآخرين. بل إن تشريعاته جل ثناؤه قواعد تتناول الأعمال والمكتسبات الإرادية، ولا تختص بالأشخاص ولا بالسلالات أو الأعراق أو الألوان، حتى إن الشريعة الربانية لا تسمح للمؤمنين بها بمحاباة النفس أو الأقربين ضد حقوق الأبعدين ، ولا بمحاباة الفقراء ضد حقوق الأغنياء دون وجه حق، ولا حتى بمحاباة أهل الملة إن كانوا قد ظلموا أحداً من أهل الملل الأخرى، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِياًّ أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٣٥)﴾ النساء.

وقال جل ذكره:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)﴾ المائدة.

وكون الشريعة الإسلامية ربانية يعطيها صفة الثبات والاستمرار ، فالرب عز وجل هو خالق العباد، وهو العليم بما يصلحهم ويحقق لهم السعادة إلى يوم الدين، وهو جل شأنه الحكيم

القدير الخبير بصفات عباده النفسية والفكرية والجسدية، وبحاجاتهم وأهوائهم وغرائزهم، وبطباعهم التي طبعهم عليها، وبما سينتج عن علاقاتهم الاجتماعية المختلفة، فلن ينزل تبارك اسمه مع ذلك كله إلا شرعاً يتوافق مع احتياجات عباده، إلى أن يرث جل جلاله الأرض ومن عليها.

٢) عالمية أحكام الشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم:

وهذا يعني أنها عامة للناس أجمعين ، في كل الأزمنة والأمكنة ، وعلى اختلاف أصناف البشر واحتياجاتهم وإلى قيام الساعة، قال جل جلاله خطابا لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٢٨)﴾ سبأ.

رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عامة تشمل الجن مع الإنس:

تعريف الجن:

المعاني اللغوية لمادة: (جنن)؛ تعود إلى معنى أساس هو السّتر، يقال: فلان جنّ الشيءَ، إذا ستره، وجُنَّ عنك الشيء إذا سُتِرَ ، والجنين في بطن أمه سمّي كذلك لاستتاره، والمِجَنُّ هو التّرس، سمّي به لأنه يستر صاحبه من ضربات الأعداء، وسمّي القلب جناناً لاستتاره.

والجنّ جنسٌ من خلق الله جل شأنه سمّوا جنّاً لاستتارهم عن أعين الناس[١].

وقيل في تعريف الجنّ مايلي:

(١)- (أمّةٌ عاقلةٌ مميّزة متعبّدة ، موعوده متوعّدة ، متناسلة يموتون)[٢].

(٢)- (أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة)[٣].

وهذان التعريفان ينقصهما بيان أنهم خلق غير الإنس ، مستورون عن أعينهم، لأن التعريفين ينطبقان على الإنس أيضاً.

نشأتهم:

أصل مادّتهم التي خلقوا منها النّار، وقد كان خلق نوعهم سابقاً لخلق الإنس، قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾ الحجر.

وجمهور الناس من المسلمين وغيرهم -ولا سيما أهل الملل[٤]- يثبتون وجودهم أمّةً ذات تكوين خاص بها منفصل عن بقيّة الأمم ، فليسوا صفات ولا أعراضاً قائمةً بالإنسان أو غيره ، بل هم خلقٌ من خلق الله ، لهم صفاتهم الخاصة ، وذواتهم المستقلة عن غيرهم من المخلوقات[٥].

---

(١) انظر: لسان العرب؛ ابن منظور: مادة: (جنن)/ ١٦/ ٢٤٤-٢٥٤.

(٢) هذا تعريف ابن حزم لهم في: الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٥/ ١٢.

(٣) هذا تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية في: إيضاح الدلالة في عموم الرسالة والتعريف بأحوال الجن ، ويليه شرح: حديث بدأ الإسلام غريباً. خرّج أحاديثه وعلق عليه: محمد شاكر الشريف: ٥.

(٤) وهذا بالطبع قبل العصر المتأخر، الذي انتشرت فيه المادية، وإنكار الغيبيات حتى ضمن كثير من المنتسبين إلى الملل، التي لها أصول منزلة.

(٥) انظر: إيضاح الدلالة؛ ابن تيمية: ٥-٦.

تكليفهم:

يدلّ قول الله عز وجل:

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (٨٨)﴾ الإسراء.

على أن الجنّ يفهمون هذا الخطاب ويعقلون دلالاته، نظير الإنس، إذ الخطاب لا يوجّه إلاّ لمن يفهمه ويعقله ، وقد جُمع الجنّ مع الإنس بالتحدّي بأن يأتوا بمثل هذا القرآن .

ويدلّ أيضاً على أنّ للجنّ إرادة حرّة توجّه أفعالهم كالإنس، إذ لو كانوا فاعلين بالاضطرار، ولا إرادة لهم؛ لما اتضح معنى التحدّي الوارد في الآية، إذ من مقتضى التحدي أن يخلى بين المتحدَّى وبين الأمر المتحدّى به ، فإذا عجز عنه وقد خلّي بينه وبين القيام به ، ولم يُمنع منه بقوّة قاهرة خارجة عنه، تحقّق المراد من التحدّي ، ومعلوم أنّ المراد من التحدّي في هذه الآية بيان أن القرآن لا يمكن أن يصدر عن الإنس ولا عن الجن مجتمعين ولا منفردين، وهذا يثبت أنّه كلام منزل من عند الله عز وجلّ، إذ لا أحد من غير الإنس والجنّ يُتصوّر أن يدّعي قدرته على أن يأتي بمثله[١].

والجنّ مكلفون عموماً ، وعلى تعاقب أجيالهم عند جماهير علماء المسلمين[٢]. والأدلة على ذلك التكليف كثيرة، من أهمها ما يلي:

(١) قوله تعالى:

﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون (٥٦)﴾ الذاريات.

فالجنّ والإنس خلقوا ليؤمروا بعبادة الله وحده، وهذا هو التكليف، إذ التكليف أمر أو نهي، وإلزام بتشريع محدد، والغاية من الأمر والنهي وتشريع الشرائع؛ اختبار المكلّف في الطاعة أو المعصية، وبالطاعة والتزام الشريعة تتحقّق العبادة[٣].

(٢) وقول الله تعالى:

﴿ يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدّنيا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين(١٣٠)﴾ الأنعام.

فهذه الآية واضحة الدّلالة على كون الجنّ متعبّدين بشرائع الرّسل الذين أرسلهم الله جلّ شأنه قبل محمد صلى الله عليه وسلم كما هم متعبدون برسالته.

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها؛ عبد الرحمن الميداني: ٢٨٥.

(٢) انظر : تحرير المقال؛ القضاعي: ٢ / ٦٩٣. و:فتح الباري: ٦ / ٣٤٤. و:لقط المرجان في أحكام الجان؛ السيوطي: ٤١. و: لوامع الأنوار البهيّة؛ السفاريني: ٢/ ٢٢٢-٢٢٣. و: العقود الجوهرية (الأسئلة المحيّرة)؛ الزرقاني: ٨٤. و: عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة؛ عبد الكريم عبيدات: ١٧٥-١٧٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٤/ ٢٣٨. و: عالم الجنّ في ضوء الكتاب والسنة:١٧٧. و: العقيدة الإسلامية وأسسها: ٢٨٥.

وقد جاء قبل هذه الآية قول الله تعالى:

﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس ...(١٢٨)﴾ الأنعام.

فالجنَّ قد جاءتهم الرّسل كما جاءت الإنس ، فقامت عليهم الحجّة، فمن كفر منهم استحق العذاب. وإذا ثبت تكليفهم لزم أن يكونوا متصفين بالصفات التي تؤهلهم لأن يكونوا مكلفين[١].

(٣) وقول الله تعالى يخبر عن مقالات الجنّ الذين استمعوا القرآن من الرسول:

﴿وأنّا منّا المسلمون ومنّا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً (١٤) وأمّا القاسطون فكانوا لجهنم حطباً (١٥)﴾ الجن.

القاسط: هو الجائر عن الحقّ، الناكب عن طريق الهدى.

فدلّ هذا النصّ على أن الجنّ منهم المتّبعون لرسل الله المؤمنون بهم وبما جاءوا به من عند الله، وهؤلاء هم المسلمون، ومنهم من هم بخلاف ذلك وهؤلاء هم القاسطون، والمسلمون منهم ناجون، والقاسطون لهم عذابٌ عند ربهم. وهذا يدلُّ على كونهم مكلّفين مأمورين منهيّين[٢].

(٤) ومما يدلُّ على كون الجنّ مكلفين؛ وجود أمورٍ من أحوال البرزخ والآخرة قد غيّبت عنهم كما غيّبت عن الإنس ، ليتحقّق فيهم امتحانهم التامُّ بالإيمان بالغيب كالإنس، فقد ثبت أنّهم لا يسمعون أصوات المعذّبين في قبورهم كما لا يسمعها الإنس، قال صلى الله عليه وسلم بشأن المعذّب في قبره:

"...ثمّ يُضْرَبُ بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلاّ الثقلين"[٣].

الثقلان : هما الإنس والجنّ[٤].

(٥) وكذلك فإن النصوص التي ورد فيها ما سيناله الجن من الجزاء ثواباً أو عقاباً؛ فيها دلالةٌ على كونهم مكلفين ، إذ الجزاء ولاسيما العقوبة لا يترتّب بمقتضى عدل الله إلاّ على من استحقّ العقوبة بعمله الذي خالف مقتضى التكليف الربّاني.

قال ابن قيم الجوزية:

(ولولم يكن في هذا إلاّ قول الله تعالى:

﴿ ... وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً(١٥)﴾ -الإسراء-.

وقد أخبر أنه يعذّب كفرة الجنّ لكفى به حجة على أنهم مكلّفون باتّباع الرسل)[٥].

---

(١) انظر تحرير المقال؛ القضاعي: ٦٩٨-٦٩٩. و: إيضاح الدلالة:٢٤. و: طريق الهجرتين ؛ ابن قيم الجوزية : ٧٢٩. و: العقيدة الإسلامية وأسسها: ٢٨٥. و: عالم الجن: ١٨٠-١٨١.

(٢) انظر: إيضاح الدلالة: ٢٤. و: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٤ / ٤٣٠.

(٣) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه . انظر: صحيح البخاري: ٣/ ١٤٤/ ح: ١٢٧٣، وأول الحديث: "العبد إذا وضع في قبره...". وانظر: تحرير المقال: ٢/ ٧١٠.

(٤) انظر: فتح الباري: ٣/ ٢٤٠.

(٥) طريق الهجرتين: ٧٢٩.

هذا في كون الجنّ مكلفين على وجه العموم، أمّا بعد مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم فـ (الصوابُ الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنّهم مأمورون منهيّون مكلّفون بالشريعة الإسلامية)[١]؛ على وجه العموم.

وقد نقل إجماع علماء المسلمين على هذا[٢].

فالجنّ جميعهم مكلّفون أن يتّبعوا شرعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فكما أُرسِلَ عليه السلام إلى الإنس كافة فقد أُرسل إلى الجنّ كافة[٣].

أدلة كون الجنّ مكلفين أن يتبعوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم:

أمّا أدلّة كون الجنّ مكلفين أن يتبعوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فمتعدّدة، ومنها ما يلي:

الدليل الأول: قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن فلمّا حضروه قالوا أنصتوا فلمّا قضي ولّوْا إلى قومهم منذرين(٢٩) قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم(٣٠) يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم(٣١) ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجزٍ في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلالٍ مبين(٣٢)﴾ الأحقاف.

في هذه الآيات عدّة دلالات متظاهرات على كون الجنّ مكلّفين أن يتّبعوا ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند الله[٤]:

الدلالة الأولى:

كون الله عزّ وجلّ صرف هؤلاء النفر من الجنّ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليستمعوا منه القرآن، وهذا يُشعر بأنّ الغاية من هذا الصّرف تبليغهم دعوة القرآن إلى الإيمان بالله ورسوله، والعمل بما يجب عليهم أن يعملوا به، واجتناب ما يجب عليهم أن ينتهوا عنه، وهذا يدُلُّ بوجهٍ عامّ على أنهم مكلّفون أن يعملوا بأحكام الإسلام، ويسلكوا صراطه المستقيم.

الدلالة الثانية:

أنّ هؤلاء النفر من الجنّ بعد أن استمعوا القرآن وفهموا معاني ما استمعوه منه ولوا إلى قومهم منذرين، والإنذار هو الإعلام بما يخاف منه لدى وجود ما يقتضيه، وظاهر أن هؤلاء النفر قد أنذروا قومهم المصير إلى عذاب النار إذا كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم وكذبوا بما جاء به .

وإنذار هؤلاء النفر قومهم يدل على أن ذوي التمييز والعقل من الجنّ مكلّفون أن يؤمنوا

---

(١) طريق الهجرتين: ٧٢٤. وانظر: ٧٢٢، فقد قال فيها رحمه الله: (فأمّا شريعتنا فأجمع المسلمون على أنّ محمّداً صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجنّ والإنس، وأنّه يجب على الجنّ طاعته كما يجب على الإنس). وانظر: إيضاح الدلالة: ٤-٥.

(٢) انظر: تحرير المقال: ٧٢٠.

(٣) انظر: طريق الهجرتين: ٧٢٩.

(٤) انظر: فيما سيأتي ذكره من دلالات: طريق الهجرتين: ٧٢٧-٧٢٩. و: تحرير المقال: ٢ / ٧٠٢-٧٠٣.

بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به عن ربّه تعالى، وأن يعملوا بالأوامر والنواهي الّتي اشتمل عليها الإسلام، في كلّ ما يشاركون الإنس به من الصفات والأعمال وفيما يختصون به، وإلاّ كانوا معرّضين لعقاب الله عزّ وجل.

الدلالة الثالثة:

دلالة ما جاء في النصّ من قولهم:

﴿...إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم (٣٠) يا قومنا أجيبوا داعي الله ...(٣١)﴾.

فهذا القول منهم دلّ على أنهم قد استكملوا شروط التكليف في ظروف حياتهم وتكوينهم، فلديهم أدوات إدراك نصوص التكليف، وإدراك الحق والباطل والخير والشر، ولديهم الاستطاعة التي بها يستجيبون لما جاء في القرآن من دعوة إلى الإيمان بالحق وطاعة أوامره ونواهيه، أو يرفضون الاستجابة لذلك.

فقد سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وعرفوا ما فيه من التصديق لما بين يديه من الكتب الرّبانيّة السابقة، ومنها التوراة.

ودلّ قولهم: ﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله ﴾ على أنهم يشعرون بأنّهم يملكون إجابة داعي الله فيما يخصهم، ومن يملك الإجابة يملك أن يأبى، فهم مأمورون باتّباع أحكام الشريعة الإسلامية على ما يخصُّهم منها.

وعبارة: ﴿داعي الله﴾ تدلُّ على وجود داع يدعو إلى الله، أي: إلى الإيمان به، والعمل بالدّين الذي أنزله لعباده، والداعي هنا هو الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم. ويدل أيضا على وجود مدعوّين وهم هنا الجنّ، ووجود دعوة ذاتِ مضمون، ومضمون دعوة الرّسول ما جاء به من عند ربّه.

الدلالة الرابعة:

دلالة ما جاء في النصّ من قولهم: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾، فمن المعلوم أنّ الذنب هو مخالفة الأمر والنهي، وهذا يدلُّ على أنّهم مكلفون، يحسنون ويسيئون، فإذا التزموا بما جاء من عند الله تعالى على لسان رسوله محمّد صلى الله عليه وسلم؛ كان التزامهم به سبباً لمغفرة ما سبق من ذنوبهم.

الدلالة الخامسة:

دلالة ما جاء في النص من قولهم: ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾، حيث يدلُّ قولهم هذا على أنّهم إن لم يتوبوا ويتّبعوا ما جاء به داعي الله (وهو الرسول صلى الله عليه وسلم)؛ فإنّ الله لا يجيرهم من عذاب أليم، وهذا واضح الدّلالة على كونهم مكلّفين، وملزمين باتباع ما جاء به

الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم ممّا يخصّهم أو يشاركون به الإنس .

الدلالة السادسة:

دلالة ما جاء في النّص من قولـهم:

﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين (٣١)﴾.

ففي هذا القـول منهـم تـأكيد علـى تعرّضهـم لعقـاب الله إذا لم يجيبـوا داعـي الله ، وتهديـد لقومهم باحتمال أن ينزل الله بهم في الدنيا عذابـاً مهلكـاً، وأنّهـم لا يعجـزون الله في الأرض، مهمـا كانت لديهم قدرات على التهـرّب مـن نـوازل الهـلاك إذا أراد الله عقـابهم، فهـم مـلزمون بشـريعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

الدليل الثاني: ما جاء في سورة (الجنّ)[1]:

* فقد جاء في أولها بيان استماع نفر من الجـنّ للقـرآن مـن الرسـول محمّـد صلـى الله عليـه وسلم، وإيمانهم به، وبأنهم لن يشركوا بربهم أحداً.

* وجاء فيها إخبارهم قومهم بأن من آمن بربّه وبما جاء من عنده على لسـان رسـوله محمـد صلى الله عليه وسلم، متّبعاً رسالته ؛ فلن يخاف بخساً ولا رهقاً ، إذ قد اختار طريق النجاة والفلاح، بسبب إيمانه وإسلامه. وأمّا مـن كفـر بـالله وبرسـوله وتنكّـب صـراط الله المسـتقيم ؛ فسـوف ينـال العذاب الشديد في نار جهنم، كحال الكافر من بنى آدم.

وفي هذا دلالة واضحة على وجوب إيمانهم بالرسول محمّد صلى الله عليه وسـلم، واتّبـاعهم ما جاءهم به من عند الله عزّ وجلّ.

قال الله تعالى في سورة (الجنّ) يحكي مقالة النفر من الجِنّ بين قومهم:

﴿وأنّا لما سمعنا الهدى آمنّا به فمـن يؤمـن بربـه فـلا يخـاف بخسـاً ولا رهقـاً(١٣) وأنّـا منّـا المسلمون ومنّا القاسـطون فمـن أسـلم فـأولئك تحـرّوا رشـداً(١٤) وأمّـا القاسـطون فكـانوا لجهنـم حطباً(١٥)﴾.

﴿بخساً﴾: أي: نقصاً من حسناته ومن أجره عند ربّه.

﴿رهقاً﴾: أي: أن يُحمل عليه من سيئات غيره، ويعاقب بما لا مسؤولية له عنه.

﴿القاسطون﴾: أي: الجائرون، الذين يعدلون عن الحقّ وعن الصراط المستقيم[2].

---

(١) انظر فيما سيأتي ذكره: تحرير المقال؛ القضاعي: ٧٠٤/٢. و: طريق الهجرتين: ٧٢٩. و: عالم الجن: ١٧٩-١٨٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٤ / ٤٣٠.

الدليل الثالث: ما جاء في سورة (الرحمن)[1]:

* فقد جاء فيها خطاب الله للإنس والجنّ بما يدلُّ دلالة واضحة على شمول تكليف الجنّ اتّباع الرسالة المحمدية .

* جاء فيها أولاً: بيان أنّ الله علّم القرآن من يُكلّفه الإيمان به واتباع ما جاء فيه، فقال تعالى:

﴿ الرحمن (١) علم القرآن (٢)﴾.

* وذكر فيها خلق نوعي الإنس والجنّ، فقال تعالى:

﴿ خَلَقَ الإنْسان منْ صلصال كالفخار (١٤) وخلق الجانَّ من مارج من نار (١٥)﴾.

* ثم خاطب فيها النوعين خطاباً يتضمن مطالبتهما معاً بالإيمان، واستنكار أن يكذبا بآية من آياته في كونه.

* وجاء فيها تحديهما معاً بأنهم لا يستطيعون الخروج عن قيود سلطانه في كونه.

* وجاء فيها تهديدهما معاً بأنّ من كان ذا ذنب منهما فإنه لا يسأل عن ذنبه، إذ يجد صورة ذنبه شاهدة عليه، وأنّ المجرمين منهما يعرفون بسيماهم.

* وجاء فيها وعيد كفارهما بعذاب جهنم، ووعد مؤمنيهما بنعيم الجنان.

وهذا يدل صراحة على أنّ كلاًّ من النوعين مكلّفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون. وقد يكون هذا فيهما حصراً من دون سائر خلق الله، والله أعلم.

الدليل الرابع: ما جاء في السنة من ذهاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الجن:

فقد ثبت أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى وفد من الجنّ وأسمعهم القرآن قصداً، وهو يدلّ على أنهم مكلّفون أن يؤمنوا بالقرآن وبما فيه، وإيمانهم بالقرآن هو ما أوضحته سورة الجنّ كما سبق بيانه.

ولو لم يكونوا مكلفين فلماذا قصد الرسول لقاء وفدهم، وإسماعهم القرآن[2]؟!، قال صلى الله عليه وسلم:

[" أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن"...، وسألوه الزاد، فقال: "لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكلُّ بعرة علفٌ لدوابّكم"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم"][3].

---

(١) انظر فيما سيأتي: طريق الهجرتين: ٧٢٩-٧٣٠. و: تحرير المقال: ٢/ ٧٠٤-٧٠٩.

(٢) انظر: تحرير المقال؛ القضاعي: ٢/ ٧١١-٧١٤. و: طريق الهجرتين: ٧٢٩.

(٣) رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه. صحيح مسلم: ١/ ٣٣٢/ ح: ٤٥٠.

٣) شمول الشريعة التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم لجميع الأحكام المتعلقة بالمكلفين، ولما سيستجد منها:

وذلك إما بالنص الصريح، وإما بنصوص تشتمل على كليات عامة، وإما بالاستنباط من مجموع نصوص متعددة وأصول شرعية عامة، وهذا لا يكون إلا من قبل أهل الاجتهاد، وقد يكون بالقياس أو نحوه. وهو من المجال الذي ترك للعقل المستنير بهدي النبوة أن يجتهد في استنباط الحكم له، بشرط أن يستجمع الأمور التي تؤهله لمثل هذا الاستنباط.

ومثل هذا الأمر لابد منه إذ ستستجد في حياة الناس أحوال ما كانت موجودة عند السابقين، ولكن أهل الاجتهاد يستطيعون أن يستنبطوا حكمها من الكليات العامة التي جاءت بها الشريعة الربانية. فما من عمل أو سلوك ظاهر أو باطن للفرد أو المجتمع إلا له في الشريعة الإسلامية حكم من الأحكام الشرعية الخمسة: (الوجوب– الندب– الإباحة– الكراهة– التحريم).

ومن شمول أحكام الشريعة الربانية أنها تتناول:

أ- تصرف الإنسان تجاه خالقه جل وعلا ، وما يجب عليه نحوه ، ويدخل في هذا: العبادات الخاصة ، وما تشتمل عليه من أحكام كثيرة .

ب- تصرف الإنسان تجاه نفسه.

جـ- تصرف الإنسان مع المجتمع من حوله، ابتداء من تعامل الفرد مع أسرته، وانتهاء بتعامل المجتمع المسلم مع المجتمعات المحاربة غير المسلمة، وحتى تعامل المسلم مع أخيه المسلم المتوفي.

د- تعامل الإنسان مع الكون المسخر له من حوله.

<u>ختم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للرسالات الربانية:</u>

إن عالمية الرسالة المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم، وشمولها للمكلفين جميعاً وإلى قيام الساعة، وشمولها للأحكام على اختلاف أنواعها، مع حفظ الله تبارك اسمه لأصلها الذي تستنبط منه الاحكام؛ كل هذا من أظهر الدلائل على أن الرسالة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم هي الرسالة الخاتمة للرسالات الربانية المنزلة، فلم تعد البشرية بحاجة إلى رسالة جديدة، تنسخ ما جاءت به الرسالة الخاتمة، أو تعدل شيئاً منه، أو تضيف إليه شيئاً ليس منه، قال جل شأنه:

﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً...(٣)﴾المائدة.

فإكمال الدين يدل على أن البشر لم يعودوا بحاجة إلى رسالة أخرى غير هذه الرسالة، ولا إلى نبي آخر غير محمد صلى الله عليه وسلم[١].

وهنا يأتي الدور الهام للعقل في الرسالة الخاتمة ، فالمطلوب منه هو أن يتلقى ما جاءت به هذه الرسالة على أحسن وجه، وأن يتدبره بحق ليصل إلى الإيمان الجازم به ، ثم يتدبر ما جاء فيها من أحكام، ويطبقها على الوجه المطلوب فيها، مع بذل الوسع في الاجتهاد المأمور به شرعاً، وعلى الوجه المشروع، وليس يوجد للعقل -في الحقيقة- دور أعظم من هذا الذي أمر به.

وعقيدة ختم الرسالة التي أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم للرسالات الربانية، وكونها آخر تلك الرسالات، وأنه لا رسول ولا نبي بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم؛ قد جاء النص عليها صريحاً في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ففي القرآن المجيد قال جل شأنه:

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٤٠)﴾ الأحزاب.

و﴿ خاتم النبيين ﴾ أي: آخرهم، أو هو صلى الله عليه وسلم الذي ختم النبوة، فطبع عليها، فلا تفتح لأحد بعده[٢].

وفي السنة النبوية المطهرة وردت أحاديث كثيرة جداً للدلالة على كون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده، وهي أحاديث قد بلغت حد التواتر، كما بين هذا العلماء[٣].

ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم:

"إن مَثَلِي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي ؛ كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة" قال: "فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين"[٤].

وأيضاً قوله صلى الله عليه وسلم:

"...فإني آخر الأنبياء، وإن مسجدي آخر المساجد"[٥].

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه:

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٢ / ١٢.

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن؛ تفسير الطبري: ٢٢/ ١٦. و: الجامع لأحكام القرآن؛ القرطبي: ١٤/ ١٩٦. و: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٣/٤٩٣.

(٣) انظر: أصول الدين؛ البغدادي: ١٦٣. و: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٣/٤٩٣.

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. صحيح البخاري: ٣/ ١٣٠٠/ ح: ٣٣٤٢. وانظر: صحيح مسلم: ٤/١٧٩٠-١٧٩١/ ح: ٢٢٨٦ (عدة روايات).

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه. صحيح مسلم: ٢/١٠١٢ / ح: ١٣٩٤.

"ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي."(١).

فهذه الأدلة -وغيرها كثير جداً- تدل دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء والرسل عليهم السلام، وأنه لا نبي بعده، وأن رسالته صلى الله عليه وسلم هي الرسالة الخاتمة.

٤) قيام الشريعة الربانية على الحق والعدل:

فأحكامها تعطي كل ذي حق حقه بالعدل والقسطاس، دون شطط ولا قصور.

وأيضاً فهي تعطي كل حكم حقه دون غلو ولا تقصير، ففيها الواجب والمندوب بدرجاتهما، وفيها المكروه والمحرم بدركاتهما، وفيها المباح بأنواعه.

فالواجب -على سبيل المثال-: فيه ما هو فرض عين ، وفيه ما هو فرض كفاية. و المحرم: فيه ما هو كبائر، وما هو صغائر. وكل أمر فيها له حكمه بالقدر الذي يناسبه.

٥) يُسْرُ التكاليف والأحكام في شريعة الرسالة الخاتمة:

فهي مبنية على رفع الحرج عن المكلفين، وملاءمة الطاقة الإنسانية المعتادة، والحكمة من هذا: كون الشريعة الخاتمة عامة شاملة للمخلوقين إلى قيام الساعة، فاقتضت حكمة العليم الخبير جل جلاله عدم وضع الآصار والأغلال التي كان يضعها تبارك اسمه على بعض الأقوام السابقة، عقوبة وتربية وتهذيبا، ولاسيما مع وجود الأعداد الكثيرة جداً التي ستتبع هذه الشريعة وتؤمن بها، وتطبقها، قال جل ثناؤه:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ(١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٥٧)﴾ الأعراف.

---

(١) متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. صحيح البخاري: ٤/١٦٠٢/ ح: ٤١٥٤. وانظر: صحيح مسلم: ٤/١٨٧٠/ ح: ٢٤٠٤. وانظر: عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، رسالة ماجستير؛ إعداد: أحمد سعد حمدان الغامدي: ١٤-٦٥، فقد توسع الباحث في إيراد الأدلة على عقيدة ختم النبوة، وجعلها على أصناف متعددة.

وعلي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، أبو الحسن، رضي الله عنه، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنها، وأبو سبطي الرسول صلى الله عليه وسلم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ورابع الخلفاء الراشدين، استشهد مظلوماً، سنة: ٤٠ هـ، وله: ٦٣ سنة. رضي الله عنه.

انظر: أسد الغابة: ٤/ ٩١-١٢٥/ تر: ٣٧٨٣. و: الإصابة: ٢/٥٠٧-٥١٠/ تر: ٥٦٨٨. و: الاستيعاب: ٣/٢٦-٦٨.

ومن ظواهر هذا اليسر:

أ- أن التكاليف بمجملها تدخل ضمن حدود الطاقة الإنسانية المعتادة.

ب- رفع المسؤولية في أحوال النسيان والخطأ والإكراه الملجئ.

جـ- مراعاة أحوال العجزة وأهل المرض والعاهات، والمعرضين للمشقات، كالمسافرين ونحوهم، وكل من يفقد قدرة على أداء أي تكليف[١].

د- مراعاة حال الضعف البشري العامة، وكثرة وقوع الإنسان في الخطأ، وذلك بفتح باب التوبة والغفران للعبد المؤمن، وتيسير أسباب التخلص من أثقال الأوزار والآثام.

٦) مراعاة أحكام الشريعة الربانية للجانبين النفسي والجسدي في الإنسان:

فقد أشبعت كل جانب بما يلائمه على أحسن وجه ، دون أن تميل إلى أحد الجانبين ميلاً يخل بالتوازن الواجب في حياة البشر، كما هو موجود في جميع الشرائع الوضعية أو المحرفة.

٧) أنها تحقق عبودية المؤمن لربه جل جلاله:

فهي تجعل تلك العبودية كاملة تامة، ولهذا كانت واجباتها ومحرماتها واجبة التطبيق، فليس المؤمنون مخيرين في تطبيقها أو عدمه، قال جل ذكره:

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥)﴾ النساء.

وقال عز وجل:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ المائدة[٢].

وغير هذا من أدلة نصية كثيرة.

ووجوب تحكيم شرع الله تعالى هو أمر أجمع عليه كافة المسلمين حقاً، ومن الأدلة العقلية النصية عليه:

---

(١) انظر في بيان حكم من فقد شرطاً من شروط أهلية التكليف، بالشرح والأدلة: الجزاء الأخروي، دراسة تحليلية نقدية في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة؛ رسالة ماجستير، إعداد: الباحث: ٤٦٠-٥٤٦.

(٢) والآيات قبل هذا تتحدث عن وجوب تحكيم أهل الكتاب السابق لما جاء فيه من أحكام شرعية، وأن من لم يحكم بها منهم فهو من الكافرين، وهو من الظالمين، وهو من الفاسقين.

أولاً: أن الكون كله مخلوق لله جل شأنه ومملوك له، فليس لأحد غيره تعالى أن يتصرف بشيء منه إلا بإذنه، وعلى الوجه الذي يرضيه جل ثناؤه.

ثانياً: أنه تبارك اسمه هو الذي خلقنا وهو الذي يمدنا بعطائه دواماً، وله الفضل والمنة وحده، فهو تبارك اسمه الذي له الحق في التشريع الذي ينبغي أن نسير عليه ، لأن العبد يجب عليه أن يشكره تعالى على نعمه عليه وآلائه التي لا تحصي، وشكره إنما يتم بالقيام بما يحبه جل شأنه من فعل أو ترك، ولا يمكن أن يدرك هذا إلا باتباع ما شرعه عز وجل.

ثالثاً: أن الله تعالى لما كان هو المتفرد بالخلق والتدبير، فهو عقلاً يجب أن يكون المتفرد بالتشريع، لأن حق التشريع إنما يختص به من كان إلها حقا ، فلا يجوز أن يشرع إلا هو جل جلاله أو من يأذن له، وليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله سبحانه، وإلا كان ممن جعل نفسه إلها من دونه تعالى، قال جل جلاله:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)﴾ الشورى.

وقد بين تبارك اسمه أنه وحده صاحب الحق في الحكم ، من خلال إقراره ما قاله يوسف عليه السلام:

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ يوسف –عليه السلام–.

وفي بيان أن طاعة الضالين في شيء من أمور التشريع هو نوع من الشرك؛ قال عز وجل:

﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) ﴾ الأنعام .

واعتبر جل شأنه حكم من سواه حكم جاهلية:

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾ المائدة.

رابعاً: أنه إذا كان الكون كله خاضعاً لله تعالى في جانب القوانين والسنن الكونية، بما في هذا الإنسان؛ أفلا ينبغي لهذا المخلوق المكلف أن يخضع لربه عز وجل في الجانب الذي أعطاه فيه حرية الإرادة، وأن يدرك أنه ما منح هذا الأمر إلا ابتلاءً واختباراً لمدى طاعته لربه الحكيم جل جلاله، الذي سوف يحاسبه ويسأله ويجازيه، لأنه ما خلق كونه عبثاً، وهو تعالى الحق، وقوله وفعله كله حق. قال جل شأنه:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٨٣) ﴾ آل عمران.

خامساً: وإذا كان الرب جل ثناؤه هو وحده الخالق، وهو العليم الحكيم القدير جل جلاله؛ فإن هذا يعني أنه وحده تعالى العالم بما يَصْلُحْ لمن خلقهم على أكمل وجه. قال عز وجل:

﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ (١٤)﴾ الملك[١].

والحق أنه لا رفعة للإنسان إلا بتحققه بعبودية الله تعالى، لأنه إن لم يتحقق بها؛ فسيستعبد البشر بعضهم بعضاً، وستستعبدهم أهواؤهم وشهواتهم، ومن وراء هذا شياطين الإنس والجن.

٨) أن الشريعة الربانية نابعة من أساس خلقي:

فهي تهدف من ثم إلى تربية المؤمن المطبق لها تربية خلقية رفيعة، وتدربه على الالتزام بالسلوك الخلقي. كالصلاة التي تطهر النفس من كثير من الرذائل الخلقية، وتدربها على الالتزام بمحاسن الأخلاق. وكالزكاة التي تطهر النفس من الشح والبخل[٢].

٩) أن الشريعة الربانية تتدرج في بناء الأحكام الشرعية:

فهي تبدأ من الأركان الأساسية إلى أن يصل الإنسان إلى التزين بالفضائل والكمالات الشرعية في مأكله ومشربه وملبسه وجميع شؤون حياته. قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أرسله إلى اليمن:

"إنك تَقْدَم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله. فإذا عرفوا الله؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم. فإذا فعلوا؛ فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم، وترد على فقرائهم. فإذا أطاعوا بها؛ فَخُذْ منهم، وَتَوقَّ كرائم أموال الناس"[٣].

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية وأسسها: ٢٢٣-٢٣٠.

(٢) انظر : ٤٤٨، وما بعدها، ٤٧٤، وما بعدها.

(٣) متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري: ٢/ ٥٢٩/ ح: ١٣٨٩، وانظر: ٢/٥٠٥/ ح: ١٣٣١، ٢/٥٤٤/ ح: ١٤٢٥، ٦/٢٦٨٥/ ح: ٦٩٣٧. و: صحيح مسلم: ١/٥١/ ح:(١٩)، (عدة روايات).

ومعاذ رضي الله عنه هو: ابن جبل بن عمرو بن أوس؛ أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي المدني، صحابي جليل، إمام مقدم في معرفة الحلال والحرام، وأحد من حفظ القرآن كله في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأحد كبار علماء الصحابة، شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها. خلفه الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة بعد أن فتحها يقرئهم القرآن ويفقههم.وأرسله إلى اليمن قاضيا. وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم رجع إلى المدينة، ثم ذهب إلى الشام وأقام فيها. واستعمله عمر رضي الله عنه بعد وفاة أبي عبيدة رضي الله عنه. توفي بالشام شهيداً في طاعون عمواس، سنة: ١٧، أو: ١٨هـ، وهو في حدود: ٣٣ سنة من عمره تقريباً.

انظر : الطبقات الكبرى؛ ابن سعد: ٢/ ٣٤٧-٣٥٠. و: الاستيعاب: ٣/ ٣٣٥-٤٤١. و: أسد الغابة: ٤/٣٧٦-٣٧٨. و: سير أعلام النبلاء: ١/٤٤٣-٤٦١/تر: ٨٦. و: البداية والنهاية: ٧/٩٧. و: الإصابة؛ ابن حجر: ٣/٤٠٦- ٤٠٧/ تر: ٨٠٣٩.

١٠) أن الشريعة الربانية متوافقة مع حاجات البشر أفراداً ومجتمعات:

فهي لا تميل لجانب تحقيق مصلحة الفرد على حساب الجماعة، كما تفعله الأنظمة الرأسمالية، فتدمر المجتمعات، إذ تجعلها مجتمعات تسودها مشاعر الأنانية والفردية.

ولا تميل أيضا لتحقيق مصالح الجماعة بقتل الفرد ، وهذا بالقضاء على جميع مصالحه الفطرية الخاصة وطموحاته، كما فعلته الشيوعية.

ولكنها وازنت في تشريعاتها بين مصالح الأفراد والمجتمعات، فأعطت كل جانب حقه بالعدل والقسطاس.

١١) أن الشريعة الربانية تحقق السعادة الحقيقية لجميع أفراد المجتمع في الحياة الدنيا:

فهي تحقق مصالح البشر في هذه الحياة على وجه متكامل متعادل، لا يطغى فيه أحد على أحد، وبهذا يتحقق الأمن والطمأنينة في المجتمع، وتسود حياته كلها الرضى والسكينة.

١٢) أن قلوب المؤمنين بالشريعة الربانية أعظم طواعية للاستجابة لأحكامها وتنفيذها:

إذ إنها قائمة على أساس عقدي متين وراسخ، ولأن محبة المؤمنين لربهم عز وجل لا تعادلها أية محبة أخرى، قال تبارك اسمه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العَذَابِ (١٦٥)﴾البقرة.

وهذا بخلاف الأحكام الوضعية، التي يحاول الناس جاهدين التهرب من مقتضياتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولا يطبقونها إلا إذا شعروا بوجود مصلحة عاجلة تتحقق لهم بأشخاصهم، دون وجود أية غاية أخروية عظمى يريدونها وتطمح إليها نفوسهم[١]، وإلا إذا خافوا من عقاب السلطة الحاكمة.

---

(١) انظر فيما سبق من المميزات للشريعة الربانية: تاريخ الفقه الإسلامي؛ محمد علي السايس: ٢٥-٢٨. و: تاريخ التشريع الإسلامي وأحكام الملكية والشفعة؛ عبد العظيم شرف الدين: ٥٥-٦٢. و: المدخل لدراسة الشريعة؛ عبد الكريم زيدان: ٣٩-٥٩، ١١٣. و: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/٣٥١-٣٥٢. و: مباحث في إعجاز القرآن: ٢٢١-٢٤٥. و: فلسفة التشريع الإسلامي؛ فتحي رضوان: ٤٦-٥٨، ١٤٩-١٥٢. و: ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ٣٧٥-٤١٥. و: القرآن الكريم هدايته وإعجازه؛ محمد الصادق العرجون: ٢٠-٣٢. و: أصول الشريعة الإسلامية، مضمونها-خصائصها؛ علي جريشة: ٩٣-١٠٦.

١٣) ومما يلاحظ على الأحكام الشرعية في الرسالات الربانية المتتابعة أنها كانت في بعض الأمور تتطور شيئاً فشيئاً:

وهذا إما بالتوسع في الأحكام المفروضة لتشمل جانباً أكبر من جوانب الحياة البشرية، على حسب ما كانت تقتضيه المرحلة الزمنية لكل رسالة. وإما بالاختلاف في الحكم نفسه بالنسبة إلى قضية معينة.

فقد لا تكون بعض الأمم السابقة مهيأة للحكم الرباني الأكمل، فتقتضي حكمة الرب العليم جل جلاله أن ينزل عليهم الحكم الذي يلائم حالهم(١).

ومثل هذا التطور بين الرسالات المتعددة يعتبر أمراً معقولاً بالنسبة إلى المضمون التشريعي، وأما بالنسبة إلى المضمون العقدي فإنه لا يقبل إلا على معنى أن بعض الرسالات قد تزيد في بيان تفصيلات في الأمور العقدية لا توجد عند رسالات سابقات(٢).

وأما التطور بمعنى تغيير بعض العقائد التي نزلت بها رسالات سابقات، وإحلال عقائد جديدة محلها، فهذا تطور باطل، إذ العقائد لا تحتمل إلا أن تكون حقاً أو باطلاً، ولا يمكن أن تأتي رسالة ربانية بما هو باطل، وتطلب من الناس أن يؤمنوا به، فدين الله تعالى حق، ولا يدعو إلا إلى الحق.

وإذا كانت عقول بعض البشر في الأمم السابقة لا تحتمل بعض التفصيلات في أمور العقائد؛ فإن الحكمة تقضي بالسكوت عن هذه التفصيلات، إلى أن تتحملها عقول أمم تالية، ولا يمكن أن تقضي بالكذب على الناس، وإعطائهم عقائد باطلة حول تلك التفصيلات لتتقبلها عقولهم. وكذا الحال بالنسبة إلى الأخلاق، فلا يمكن أن يكون خلق حسناً في شريعة، وسيئاً في شريعة أخرى، فالأخلاق من الأسس التي لا تتحمل إلا الحسن أو القبح(٣).

التطور في الأحكام الشرعية بالنسبة إلى الرسالة الخاتمة:

لقد اقتضت حكمة الرب جل جلاله أن تتطور بعض الأحكام الشرعية في الرسالة الخاتمة،

---

(١) كما هو الحال في اختلاف الحكم بالنسبة إلى من يحرم على الرجل أن يتزوجها، تحريماً مؤقتاً أو دائماً.

(٢) وقد بين عدد من العلماء وجود مثل هذا الأمر بالنسبة إلى كثير من التفصيلات المتعلقة بالدار الآخرة، وحتى بالنسبة إلى بيان العديد من صفات الرب عز وجل، وغير هذا. انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام؛ أبو عبدالله بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي: ٤٣٦. و: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح؛ ابن تيمية، تحقيق: علي حسن ناصر وآخرون: ٥/٢٩٢-٢٩٧. و: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى؛ ابن قيم الجوزية: ٥٨-٥٩. و: العقيدة الإسلامية وأسسها: ٤٤٩-٤٥٣.

(٣) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/٢١١-٢١٤، وقد اعتبر الزرقاني كذلك أن أصول العبادات والمعاملات لا نسخ فيها، وإنما النسخ في الفروع.

التي أنزلها على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ليتدرج بالبشر الذين كانوا في جاهلية مطبقة شيئاً فشيئاً في درجات الكمال، ليصل بهم عند تمام النعمة واكتمال الرسالة إلى الحكم الشرعي الأكمل، الذي سبق في علم الله تبارك اسمه أن استقرار الشريعة سيكون عليه. وهذا التطور هو الذي عرف باسم: النسخ.

والنسخ لغة : إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه، وقيل هو تبديل الشيء من الشيء، وهو غيره، والنسخ أيضاً نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هو.

والنسخ: الإزالة. تقول العرب: نسخت الشمس الظل وانتسخته: أزالته، والمعنى: أذهبت الظل وحلت محله. ونسخت الريح آثار الديار: غيرتها(١).

والنسخ اصطلاحاً: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي(٢).

والنسخ لا مانع منه عقلاً، بل قد تقتضيه الحكمة، ولهذا فقد وقع في الأحكام الشرعية في الرسالة الخاتمة، وقد ثبت في نصوصها الصحيحة(٣).

ومن أشهر أمثلة النسخ والتدرج في ارتقاء الحكم الشرعي ؛ ما ورد في الكتاب العزيز بشأن الخمر، التي كان لها تمكنها القوي جداً من نفس العربي الجاهلي، وفي الحياة الاجتماعية الجاهلية، حتى إن كثيراً من الشعر العربي الجاهلي كان يدور حولها وحول أوصافها ، ولهذا فإن انتزاعها فجأة من تلك النفوس لربما أدى إلى نفور معظمها من الدخول في هذا الدين، وهو ما يزال في بدايات الدعوة، ولم تترسخ بعد جميع القضايا الإيمانية في نفوس أصحابه ، بالإضافة إلى أنه لا دولة لأهله ، بل هم في ضعف شديد وعدوهم متسلط عليهم، وبيده ما يطلق عليه في أيامنا: الدعاية المضادة، فبإمكانهم ستر الأحكام التي تسارع إليها النفوس بصفة عامة وتعجب بها ، وإبراز الأحكام التي تنفر منها تلك النفوس الجاهلية، ولا سيما في الأمور التي تتعلق بشهواتها وهي متأصلة فيها. ومثل هذا الأمر له أثره السيء على نشر الدعوة وهي ما تزال في مهدها، ولذلك كله فقد كان من الحكمة: التدرج في انتزاع الخمر من تلك النفوس شيئاً فشيئاً ، إلى أن يصل الأمر إلى تحريمها تحريماً قاطعاً، بل وجعلها من كبائر الذنوب، وهذا بعد أن ترسخت معظم القضايا الإيمانية والأخلاقية في النفوس، وأصبحت للمسلمين دولة يستطيعون من خلالها بث دعوتهم كاملة غير منقوصة.

أ- فمن أوائل ما نزل بشأن عموم الأشربة والأطعمة في العهد المكي قوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ

---

(١) انظر: لسان العرب: (نسخ)/ ٢/٤/٢٨-٢٩.

(٢) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/١٧٦.

(٣) توسع عبدالعظيم الزرقاني في ذكر مباحث النسخ ، وليس هنا محل الإطالة بها ، ولكن تراجع في كتب أصول الفقه، وانظر: مناهل العرفان: ٢/ ١٧٣- ٢٧٠.

يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ الأعراف.

ففي هذه الآية بيان ظاهر لوجود طيبات حلال وخبائث حرام في المطاعم والمشارب وغيرهما، ولا شك أنه ستوجد نفوس تتساءل عما هو من الطيبات أو ما هو من الخبائث.

ب- ثم نزل بعد هذه الآية قوله تعالى:

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ النحل.

فقد وصف الرزق بأنه حسن، وأخرج منه السكر، وفي هذا إشارة إلى أنه ليس حسناً، وإذ لم يكن حسناً فهو من الخبائث، ولكن ليس في النص تصريح بالتحريم، وقد يفهم على وجه آخر.

جـ- ثم جاء البيان واضحاً في العهد المدني، إذ نص تبارك اسمه على أن الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع، قال جل جلاله:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)﴾ البقرة.

د- ثم نزل تحريم جزئي واضح للخمر في أوقات الصلاة، ومعلوم أن أوقات الصلاة والاستعداد لها بحضور الذهن يشمل معظم اليوم، وفي هذا تضييق كبير لزمن إمكان شرب الخمر، قال جل شأنه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً(٤٣)﴾ النساء.

هـ- ثم جاء النص الختامي في شأن الخمر بالتحريم القطعي التام، فقال عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ المائدة[١].

ومن النصوص الظاهرة في النسخ قوله تعالى:

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ؛ أبوجعفر النحاس: ١٤٨-١٨٧، وانظر فيه أمثلة كثيرة. و: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ١٥٥-١٥٧. وانظر مثالين آخرين فيه عن الربا والجهاد: ١٥٧-١٦٢.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)﴾ المجادلة[١].

ومن النصوص أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم:

"نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكراً"[٢].

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ؛ النحاس: ٧٠٠-٧٠٢.

(٢) رواه مسلم عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه . صحيح مسلم: ٦٧٢/٢/ح: ٩٧٧، وانظر: ١٥٦٤/٣/ح: ١٩٧٧. وانظر: الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار؛ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الهمذاني: ١٣١- ١٣٢، ١٥٥-١٥٨، ٢٢٧-٢٣٠، وانظر فيه أمثلة كثيرة.

المبحث الرابع: مصدرا مضامين الرسالة الخاتمة.

إن مصدري الرسالة الخاتمة هما: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أولاً: القرآن الكريم:

وهو أشهر من أن يعرف بألفاظ محددة، ولكن ذكر بعض العلماء أنه:

كلام الله تعالى المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف ، والمنقول إلينا كل لفظ منه بالتواتر، والمتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختتم بسورة الناس[١].

ثبوته:

إن مما أجمع عليه العلماء وأثبتته حقائق السيرة والتاريخ أن كثيراً من الصحابة قد حفظوا القرآن الكريم عن ظهر قلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم، بل إنه ما من آية من آياته إلا قد كانت مكتوبة في عهده صلى الله عليه وسلم، إذ كان عنده عدد من الصحابة رضوان الله عليهم يُعْرَفون بكُتّاب الوحي، وكان صلى الله عليه وسلم كلما نزل عليه الوحي بآيات من الكتاب العزيز، أمرهم بوضع الآيات في مكانها من السورة التابعة لها. وإن لم يكن القرآن الكريم مجموعاً بين دفتي مصحف واحد في عهده صلى الله عليه وسلم؛ وهذا لأن الوحي لم ينقطع، واحتمال نزول آيات ما زال قائماً.

ثم بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى سرعان ما تم جمع القرآن الكريم بين دفتي مصحف واحد، وهذا في عهد الخليفة الراشد الأول أبي بكر رضي الله عنه ، وقد كان لعدد من الصحابة مصاحف خاصة بهم ، وهذه المصاحف لا تختلف إلا فيما يتعلق بترتيب السور، أو في الحرف الذي اعتمد عليه كاتب المصحف.

ثم في عهد عثمان[٢] رضي الله عنه الخليفة الراشد الثالث، وبعد أن كبرت رقعة الدولة الإسلامية؛ ارتأى وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم أن يُجمع المسلمون على مصحف إمام واحد، ومنه تُنْسَخ سائر المصاحف، وقد كان هذا بموافقة كبار الصحابة إما عاجلاً وإما آجلاً.

---

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن؛ مناع القطان: ٢١. و: التبيان في علوم القرآن: ١٠.

(٢) عثمان هو: ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، رضي الله عنه، الخليفة الراشد الثالث، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد السابقين الأولين إلى الإسلام، وزوج ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد توسعت الفتوحات في عهده كثيراً. وتوفي شهيداً مظلوماً سنة: ٣٥ هـ، وعمره تقريباً: ٨٢ سنة.
انظر أسد الغابة: ٣/ ٥٨٤-٥٩٦ / تر: ٣٥٨٣. و: الاستيعاب: ٣/ ٦٩-٨٥. و: الإصابة: ٢/ ٤٦٢-٤٦٣/ تر: ٥٤٤٨. و: البداية والنهاية: ٧/١٧٨-٢٣٠.

وعلى الرغم من هذا فإن الأساس في نقل القرآن المجيد من جيل إلى جيل كان يتم عن طريق السماع والمشافهة، لأعداد لا يحدها حصر، واستمر الأمر على هذا الحال إلى يومنا هذا، والقرآن الكريم بقراءاته المتواترة منقول إلينا بالتواتر، وحتى إن كثيراً من القراءات الشاذة أو المنسوخة قد نقلت إلينا، وجميعها لا يؤدي إلى أي اختلاف جوهري في المعنى[١].

ومن رام أن يكذب بشيء من تلك الحقائق الثابتة بالأدلة والبراهين؛ فهو كمن يقف تحت أشعة الشمس الحارقة، ويزعم بأنه لا شمس، وأن الظلام حالك!.

ولا يوجد كتاب في الدنيا نقل بالتواتر نقلاً لفظياً حرفياً كما نقل الكتاب العزيز، ولا يستطيع أحد أن يأتي بنسخة حقيقية للمصحف تخالف ما عليه سائر المصاحف.

مكانة الكتاب العزيز:

إن القرآن المجيد هو المصدر الأول للرسالة الربانية المنزلة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فمنه تستقى العقائد التي أمر الله تعالى عباده أن يؤمنوا بها، وكذلك الأدلة عليها.

وهي أيضاً معين الأخلاق الفاضلة التي يجب على العباد أن يتصفوا بها ، والأخلاق التي يجب أن يتجنبوها، وفي ذلك الكتاب أسس الأحكام الشرعية ، والعبادات التي فرضها الله جل جلاله على عباده. قال تبارك اسمه:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾ النحل.

وقال جل ثناؤه:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ يوسف –عليه السلام–.

وقال عز وجل:

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾ آل عمران.

وقال تعالى :

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ...(٤٨)﴾ المائدة.

وغير هذا من آيات كثيرات.

---

(١) انظر التفصيل مع ذكر الأدلة: مباحث في علوم القرآن؛ صبحي الصالح: ٦٥-٨٩. و: مباحث في علوم القرآن؛ مناع القطان: ١١٨-١٣٤. و: التبيان في علوم القرآن: ٥٥-٦٨.

وذلك هو ما أجمع عليه المسلمون حقاً ، منذ عصر نبيهم صلى الله عليه وسلم إلى يومهم هذا ، وإلى أن يرث الله جل شأنه الأرض ومن عليها .

المحكم والمتشابه في القرآن الكريم:

جاء في سورة آل عمران قوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ(٧)﴾ آل عمران.

وقد ذكر في معنى قوله : ﴿ آيات محكمات ﴾، وقوله: ﴿ وأخر متشابهات ﴾؛ أقوال كثيرة، ولعل من أقربها وأجمعها لكثير من المعاني الجزئية أن يقال:

إن المحكم: هو ما كان واضح الدلالة غير متردد بين احتمالات متقاربة.

وأما المتشابه: فهو ما كان متردداً بين احتمالين فأكثر، دون ظهور رجحان أحدهما. أو كان غامض الدلالة، كالحروف المقطعة في أوائل السور(١).

وقد يتبادر سؤال مفاده: هل يؤثر وجود المتشابه على استنباط تلك المضامين السابقة من القرآن الكريم؟!.

والحق أن وجود المتشابهات –مهما كان المعنى الذي تُحْمَلَ عليه– لا يؤثر مطلقاً في كون القرآن المجيد هو: المصدر الأساسي لجميع تلك المضامين ، وهذا لأنه عز وجل قد بين في الآية الكريمة أن الآيات المحكمات هن: أم الكتاب، أي: هن الأصل الذي يعتمد عليه ويرد ما خالفه إليه(٢).

فالآيات المحكمات الواضحات هن اللاتي يؤخذ منهن جميع تلك المضامين، وأما المتشابهات فإما أن ترد إلى المحكمات، وإما أن يوكل علمها إلى الله جل جلاله، والله أعلم.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٣/ ٢٧٥. و: تفسير القرآن العظيم؛ ابن كثير: ٣٤٥/١. و: تفسير فتح القدير؛ الشوكاني: ٣١٤/١. و: تفسير التحرير والتنوير؛ ابن عاشور: ٣/ ١٥٥–١٦١. و: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢٧٠/٢–٢٨٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٤٥. و: تفسير فتح القدير: ٣١٥/١. و: تفسير التحرير والتنوير؛ ابن عاشور: ٣/ ١٥٥.

ثانياً: السنة النبوية المطهرة:

المراد بالسنة في اصطلاح علماء الأصول هي: كل ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، مما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعي[١].

مكانتها وحجيتها وصحة ثبوتها:

لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ لرسالة الله تعالى الخاتمة للبشر، وهو المبلغ للقرآن المجيد المصدر الأول لتلك الرسالة، ولما كان صلى الله عليه وسلم مُؤيداً بالوحي دواماً، ومأموراً بأن يهدي الناس إلى صراط الله تعالى القويم؛ فإنه من الطبعي -بناء على ذلك كله- أن تكون أقواله وأفعاله وتقريراته صلى الله عليه وسلم إما هي: عبارة عن شرح وبيان للمصدر الأول للرسالة، وإما هي تكميل لتفصيلات وفروع لم ينص عليها في ذلك المصدر.

وهذا هو ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما التزم به المسلمون المؤمنون حقاً، منذ العصر الأول للرسالة، وإلى يومنا هذا، ولم يجادل أحد أو يشك أحد من المسلمين حقاً في اعتبار السنة أصلاً ثانياً للتشريع[٢].

أ- الأدلة من القرآن الكريم:

فأما أدلة الكتاب العزيز فهي متنوعة وكثيرة، ومنها قوله جل جلاله:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٤٤)﴾ النحل.

ذكر العلماء أن الذكر في الآية الثانية هو : السنة النبوية المطهرة، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو المبين لما نزل في الكتاب من خلال أقواله وأفعاله وتقريراته المؤيَّدة بالوحي[٣].

وقد امتن الله عز وجل على المؤمنين بأنه أرسل إليهم رسوله صلى الله عليه وسلم ليعلمهم الكتاب والحكمة، كما في قوله تبارك اسمه:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾ البقرة.

وبين جل ثناؤه أن الحكمة منزلة مثلها مثل الكتاب، كما في قوله عز وجل:

---

(١) انظر: تدريب الراوي شرح تقريب النواوي؛ السيوطي: ١/ ١٩٤. و: إرشاد الفحول؛ الشوكاني: ٦٨. و: السنة قبل التدوين؛ محمد عجاج الخطيب: ١٦، وقد بين أن السنة في اصطلاح المحدثين أوسع، إذ تشمل ما ثبت للرسول صلى الله عليه وسلم من صفة خَلْقِيَّة أو خُلُقية أو سيرة. وانظر: حجية السنة؛ عبد الغني عبد الخالق: ٦٨-٨٤.

(٢) ناقش عبد الغني عبد الخالق كل من حاول أن ينسب إلى أية طائفة أو فرقة من فرق المسلمين أنها أنكرت أن تكون السنة مصدراً للتشريع أساساً، انظر: حجية السنة: ٢٥٥ وما بعدها.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٥٧١/٢. و: تفسير فتح القدير: ٣/ ١٦٥.

﴿ ... وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)﴾ البقرة.

وقوله جل جلاله:

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣)﴾ النساء.

وكل ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم إما هو من القرآن أو من السنة، فالحكمة هي: السنة الشريفة[١].

ومن أجل ذلك جاء الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وجَعْلها كطاعة الله جل شأنه، قال تعالى:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ(٩٢)﴾ المائدة.

وقال تبارك اسمه:

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (٨٠)﴾ النساء.

وقال جل ذكره:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ آل عمران.

وقد وصف الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وصفاً عاماً في قوله:

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ الأعراف.

والنص شامل لما يحله ويحرمه صلى الله عليه وسلم سواء بالكتاب أو السنة.

وقد بين تبارك اسمه أن رسوله صلى الله عليه وسلم ما ينطق عن الهوى، فقال تعالى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) ﴾ النجم.

فالآية تدل على أن السنة وحي من الله عز وجل، سواء أكانت وحياً ابتداءً، أم بالتقرير والتأييد لما قضى به صلى الله عليه وسلم .

وأيضاً فقد أمر جل شأنه بالتأسي برسوله صلى الله عليه وسلم، قال جل ذكره:

---

(١) انظر: الرسالة؛ الشافعي: ٧٨.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)﴾ الأحزاب.

وأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يحكم بين الناس بما أنزل، وحذر من مخالفته، قال عز وجل:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ المائدة.

فحكم الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو مأخوذ مما أنزله الله تعالى.

وأيضاً فقد أمر تبارك اسمه بأخذ ما أتي الرسول صلى الله عليه وسلم أمته من الأحكام والتمسك بها، واجتناب ما نهى عنه صلى الله عليه وسلم، قال جل جلاله:

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ (٧) ﴾ الحشر.

وكذلك فقد جاء الأمر بتحكيمه صلى الله عليه وسلم في مسائل الخلاف، وأنه لا يعتبر مؤمناً مَن لم يحكّمه صلى الله عليه وسلم ويرضى بحكمه، قال جل شأنه:

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥)﴾ النساء.

وبين جل ثناؤه أن المؤمنين ليسوا مخيرين في اتباع أقضية الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هم ملزمون بها، كما هم ملزمون باتباع أحكام الله تعالى المنزلة، قال عز وجل:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً (٣٦)﴾ الأحزاب.

وقال تبارك اسمه في بيان ما يجب على المؤمنين إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ(٥٢)﴾النور.

وفي المقابل فقد بين جل ذكره فعل المنافقين عندما يُدعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم، قال تبارك اسمه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً (٦١)﴾ النساء.

وقال جل ثناؤه:

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ(٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾ النور.

ب- الأدلة من السنة المطهرة:

وأما الأدلة من السنة نفسها فهي أيضاً متنوعة وعديدة، فقد حذر الرسول صلى الله عليه من رفض اتّباع شيء من سنته الثابتة، وهذا في قوله:

"لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به، أو نهيت عنه؛ فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه"[1].

وقال صلى الله عليه وسلم:

"ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني، وهو متكئ على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله"[2].

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال:

" ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، لا يوشك رجل شبعان على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع..." الحديث[3].

---

(١) رواه أبو داود عن أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنه، واللفظ له. سنن أبي داود: ٤/ ٢٠٠/ ح: ٤٦٠٥، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود. ورواه أيضاً: الترمذي في سننه عن أبي رافع رضي الله عنه وغيره، انظر: سنن الترمذي: ٥/٣٧/ ح: ٢٦٦٣، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني. و: ابن ماجه في سننه: ١/٦/ح:١٣، وصححه الألباني. و: أحمد في: المسند: ٦/٨. و: ابن حبان في صحيحه: بترتيب ابن بلبان: ١/١٩٠/ح: ١٣، وقال المحقق: شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. و: الحاكم في: المستدرك: ١/١٩٠/ح: ٣٦٨، وقال: وهو صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأيضاً رواه في: ١/١٩١/ ح: ٣٦٩، ٣٧٠. و: الطبراني في: المعجم الكبير: ١/٣١٦/ح: ٩٣٤، ١/٣٢٧/ ح: ٩٧٥. و: الحميدي في: مسنده: ١/٢٥٢/ح: ٥٥١. و: الشافعي، انظر: مسند الشافعي: ١٥١، ٢٣٣. و: الرسالة؛ له: ٤٠٣. و: الطحاوي في: شرح معاني الآثار: ٤/٢٠٩ (روايتان). و: الخطيب البغدادي في: الكفاية في علم الرواية : ١٠، وقد روى عن جابر وابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا الحديث، انظر: المرجع نفسه: ١٠-١١. والحديث صححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٢/١٢٠٤/ ح: ٧١٧٢.

(٢) رواه الترمذي عن المقدام بن معد يكرب، واللفظ له. سنن الترمذي: ٥/٣٨ /ح: ٢٦٦٤، وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي. ورواه ايضاً أبو داود في: سننه: ٤/٢٠٠/ح: ٤٦٠٤، وصححه الألباني. و: ابن ماجه في: سننه: ١/٦/ح:١٢، وصححه الألباني. و: أحمد في: المسند: ٤/١٣٠. و: ابن حبان في: صحيحه: ١/١٨٩/ ح:١٢، وقال المحقق: شعيب الأرناؤوط: إسناد قوي. و: الطبراني في: مسند الشاميين: ٢/١٣٧/ ح: ١٠٦١. و: الدارقطني في: سننه: ٤/٢٨٦-٢٨٧/ ح: ٥٨، ٥٩. و : الخطيب البغدادي في: الكفاية في علم الرواية: ٨-١٠، (عدة روايات). و: البيهقي في : السنن الكبرى: ٩/٣٣١، وبيّن قصة الحديث وهي: أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما حرم لحوم الحمير الأهلية؛ قال هذا الكلام. و: المزي في: تهذيب الكمال: ١٧/٣٣١/ تر: ٣٩٢٤. والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيارته: ١/٥١٦/ ح: ٢٦٤٣، ١/٥١٨/ح: ٢٦٥٧.

(٣) هي رواية أبي داود وغيره، والمخرجة في الحديث السابق، واللفظ لأبي داود.

وقد أمر صلى الله عليه وسلم بالتمسك بكتاب الله تعالى وسنته في العديد من الأحاديث، فمنها: قوله صلى الله عليه وسلم:

" إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض"(١).

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم:

"...فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"(٢).

ومنها: أنه صلى الله عليه وسلم حث المؤمنين على أن يبلغوا ما سمعوه منه إلى من لم يسمع مقالته، وإلى من بعدهم، فقال صلى الله عليه وسلم:

" نضّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه..." الحديث(٣).

وغير هذا من أحاديث عدة في الأمر بتبليغ ما قاله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين كافة.

وعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما سأل الرسول صلى الله عليه وسلم هل يكتب كل مايسمعه منه صلى الله عليه وسلم؟، فقال:

---

(١) رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ له. المستدرك: ١٧٢/١/ح : ٣١٩. و: الدار قطني في: سننه: ٢٤٥/٤/ح: ١٤٩. و: البيهقي في: السنن الكبرى: ١١٤/١٠. والحديث صححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٥٦٦/١/ح: ٢٩٣٧.

(٢) رواه أبوداود عن: العرباض بن سارية رضي الله عنه، واللفظ له. سنن أبي داود: ٢٠٠/٤/ ح: ٤٦٠٧، وصححه الألباني. ورواه أيضاً أحمد في: المسند : ١٢٦/٤، (عدة روايات). و: ابن حبان في: صحيحه: ١٧٨/١/ ح: ٥، وقال المحقق: شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح. و: الترمذي في: سننه: ٤٤/٥/ ح : ٢٦٧٦، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح،ووافقه الألباني. و: ابن ماجه في: سننه: ١٥/١/ ح: ٤٢، وصححه الألباني، وفي: ١٦/١/ح: ٤٣، وصححه أيضاً الألباني. و: الدرامي في: سننه: ٥٧/١/ ح: ٩٥. و: الحاكم في المستدرك:١٧٤/١/ح: ٣٢٩، وقال: هذا حديث صحيح ليس له علة، ووافقه الذهبي، وفي: ١٧٥/١-١٧٧/ ح: ٣٣١- ٣٣٣. و: البيهقي في: السنن الكبرى: ١١٤/١٠. و: الطبراني في: المعجم الأوسط: ٧٨/١/ ح: ٦٦. وفي: المعجم الكبير: ٢٤٥/١٨-٢٤٩/ ح: ٦١٧-٦٢٤، ٢٥٧/١٨/ح: ٦٤٢. وفي: مسند الشاميين: ٢٥٤/١/ ح: ٤٣٧-٤٣٨، ٤٠٢/١/ح: ٦٩٧، ٤٤٦/١/ح: ٧٨٦، ١٩٧/٢/ح: ١١٨٠، ٢٩٨/٢/ح:١٣٧٩. و: المزي في: تهذيب الكمال: ٤٧٢/٥-٤٧٣/ تر: ١٢٠٠، ٣٠٥/١٧-٣٠٦/ تر: ٣٩١٧، ٣١/ ٥٣٩/ تر: ٦٩٢٤. و: ابن حبان في: مقدمة كتابه: الثقات: ٤/١- ٥. والحديث صححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٤٤٩/١/ ح: ٢٥٤٩.

(٣) رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، واللفظ له. سنن الترمذي: ٣٤/٥/ح: ٢٦٥٨، وانظر: ٢٦٥٧، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني. وروى نحوه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: ٣٣/٥/ح: ٢٦٥٦، وصححه الألباني. والحديث رواه: أبو داود عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، في: سننه: ٣٢٢/٣/ ح: ٣٦٦٠، وصححه الألباني. و: ابن ماجه عن زيد في: سننه: ٨٤/١/ح: ٢٣٠، وصححه الألباني، وفي: ١٣٧٥/٢/ح: ٤١٠٥، وصححه الألباني. ورواه عن: جبير بن مطعم رضي الله عنه: ٨٥/١/ح: ٢٣١، وصححه الألباني، وفي: ١٠١٥/٢ / ح: ٣٠٥٦، وصححه الألباني. ورواه عن: أنس بن مالك رضي الله عنه: ٨٦/١/ح: ٢٣٦. وصححه الألباني، ورواه عن: ابن مسعود رضي الله عنه: ٢٣٢/٨٥/١، وصححه الألباني. و: ابن حبان في: صحيحه، عن ابن مسعود رضي الله عنه: ٢٦٨/١/ ح: ٦٦، وحسّن إسناده محقق الكتاب: شعيب الأرناؤوط، وفي: ٢٧١/١/ح: ٦٨-٦٩، وأيضاً حسن إسناد كل منهما المحقق. ورواه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه: ٢٧٠/١/ح: ٦٧، وصحح المحقق إسناده، وفي: ٤٥٤/٢/ح:٦٨٠، وصحح المحقق إسناده. ورواه الحاكم في: المستدرك عن: جبير بن مطعم رضي الله عنه: ١٦٢/١/٢٩٤-٢٩٦، وقال عن الرواية الأولى: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. ورواه عن: النعمان بن بشير رضي الله عنه: ١٦٤/١/ ح: ٢٩٧، وقد اعتبره صحيحاً على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وروى الحديث: أبو يعلى في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه: ٩/ ٦٢/ ح: ٥١٢٦ ، وقال محقق الكتاب: حسين أسد: إسناده حسن. ورواه غيرهم كثير عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً.

"اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق"(١).

فلماذا يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما بكتابة كل ما يسمعه منه، إن لم يكن حكمه واجباً على الأمة كلها؟!.

وإذا لم يكن يخرج من الرسول صلى الله عليه وسلم إلا الحق، فهل يسع أحداً مخالفته، وعدم اتباعه؟!.

جـ- إجماع المسلمين:

إن أحداث التاريخ تعتبر أكبر شاهد على عظيم اهتمام المسلمين منذ عصرهم الأول بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، تلقياً وقبولاً، وفهماً وتدبراً، واستدلالاً واستنباطاً للأحكام، وتنقيحاً وشرحاً وبياناً...

فأما الصحابة رضي الله عنهم فقد كانوا يتلقون ما يسمعون منه صلى الله عليه وسلم بكل حرص واهتمام، ويبلغ بعضهم بعضا ، وينوب بعضهم عن بعض في الأعمال ، ليسمع بعضهم ويعمل آخرون، ويبلغ السامع من لم يسمع، وكانوا يحتجون دواماً -في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته- على بعضهم؛ بأقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم، فإذا احتج أحدهم بقول له صلى الله عليه وسلم توقفوا عنده ولم يخالفوه ، وكانوا رضي الله عنهم يحذرون أشد الحذر من ابتداع أمر لم يشرعه الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى إن بعضهم توقف في ابتداء الأمر عندما عرض عليه جمع الكتاب العزيز بين دفتي مصحف واحد، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفعله، فيكون من الأمور المبتدعة!.

وقد كانوا رضي الله عنهم عندما نشبت الفتن يأمرون من يناقش المخالفين بأن يحتج عليهم بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ هي المحك والمرجع عند جميعهم ، وهي ظاهرة البيان لا يمكن تأويلها -في كثير من الأحيان- بما يخالف ظاهرها.

---

(١) رواه أبو داود عنه، واللفظ له. سنن أبي داود: ٣١٨/٣/ح: ٣٦٤٦، وصححه الألباني. ورواه عنه أيضاً: الدارمي في: سننه: ١٣٦/١/ح: ٤٨٤. و: أحمد في: المسند: ١٦٢/٢، ١٩٢، ٢٠٧، ٢١٥. و: الحاكم في المستدرك: ١٨٧/١/ح: ٣٥٩، واعتبره على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. و: الطبراني في: المعجم الأوسط: ٣٣٢/٢/ ح:١٥٧٦.
و: عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب، السهمي القرشي، أبو محمد، رضي الله عنه وعن أبيه ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إمام حبر عابد، له مقام راسخ في العلم والعمل والعبادة، وحمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علما جما، وهو أحد المكثرين من الرواية عنه صلى الله عليه وسلم، ويقال إنه أسلم قبل أبيه، وهاجر بعد سنة سبع، وشهد بعض المغازي، وشهد مع أبيه فتح الشام. ورجحت وفاته في سنة: ٦٣هـ.
انظر: الطبقات الكبرى؛ ابن سعد: ٣٧٣/٢، ٢٦١/٤-٢٦٨. و: الاستيعاب: ٣٤٦/٢-٣٤٩. و: أسد الغابة: ٣٤٩/٣-٣٥١/ تر: ٣٠٩٠. و: سير أعلام النبلاء: ٧٩/٣-٩٤/ تر: ١٧. و: الإصابة: ٣٥١/٢-٣٥٢/ تر: ٤٨٤٧.

وكان بعضهم -رضي الله عنهم- يرحل إلى بعضٍ في طلب الحديث الواحد، والتأكد من صحته ، وكانوا يسألون أمهات المؤمنين رضي الله عنهن عن أدق تفاصيل حياته صلى الله عليه وسلم ليطبقوها.

وإن لم تدون السنة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة رضي الله عنهم على وجه جامع كتدوين القرآن، إلا أن أدلة كثيرةً تدل على تدوين عدد من الصحابة رضي الله عنهم للكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأحياناً كان يتم هذا بأمره صلى الله عليه وسلم.

وأما في عهد التابعين ومن بعدهم؛ فقد ساروا على نهج الصحابة رضي الله عنهم في الاهتمام الشديد بطلب الحديث، والرحلة في سبيل هذ الأمر الجليل، وفهم الحديث، واحتجاج بعضهم به على بعض، وتوسعوا توسعاً كبيراً متزايداً على الدوام في كتابة الحديث، وشرحه وبيانه، والتدقيق في رواته، وكيفية روايتهم، والحكم عليها، والتصنيف في كل أمر من تلك الأمور، حتى نشأ من هذا علم جليل خاص بهذه الأمة، وهو علم مصطلح الحديث. وهو علم ذو فروع كثيرة، تدل على كبير اهتمام المسلمين بكل جزئية تمس بشكل ما سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولعل من أهم فروعه: علم الرجال، وجرحهم وتعديلهم ، الذي تناول -بتفصيل دقيق يعجب منه كل ناظر- حال كل راو، وولادته وحياته، وزمن طلبه للعلم، وسيرته في طلبه العلم، حتى يعرف إمكان ملاقاته لمن فوقه من الرواة، أو ملاقاة من دونه له، وسيرته العامة، وصفاته، وما كان يتميز به من الأمور الحسنة أو السيئة، وما يمكن أن يقدح في روايته، ورتبته في هذا الأمر، وزمن وفاته، وما له من أحاديث وآثار، وشيوخه وتلاميذه ، والأقوال في تعديله أو جرحه، وأسباب الجرح، ورتبته من حيث القبول أو الرد، أو القبول بشرط أن يعضده غيره . ومن العلوم الهامة كل ما يتعلق بإبراز ما في السند من علل ظاهرة أوخفية، وطرق تحمل الرواية وشروطها، وشروط قبول رواية الراوي، وآداب الرواية، وأقسام الحديث من حيث القبول أو الرد، ودرجاتهما، وما في الأسانيد من زيادة أو نقصان وحكمها، وغير ذلك مما يتعلق بعلم السند.

وأما أنواع علوم الحديث التي تتعلق بالمتن فكثيرة، كالتصحيف والغلط، والإدراج، والناسخ والمنسوخ، وحكم الزيادة في المتن، من حيث إمكان صدورها عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عدمه، وأيضاً ما يمكن أن يقع في المتن من شذوذ رغم صحة السند، بل وقد أُلّفَ في كثيرٍ من العلل مصنفات عدة خاصة بكل واحدة منها.

ولم يمض القرن الأول الهجري حتى بدأت تظهر المصنفات الجامعة للحديث، وبعضها كان يرتب حسب الرواة، وبعضها كان يرتب على أبواب العلم، أو تختص بعلم معين، وكان يحتج أصحابها بما يوردونه من أحاديث على ما يستنبطونه منها من أحكام.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن نقل الحديث في القرون الأولى كان يعتمد في الأساس على المشافهة ، وكان يوجد نقاد للحديث يضبطون مدى حفظ كل راوٍ، وربما اختبروه ، وكانوا يقارنون روايته برواية أقرانه ليعلم مدى ضبطه وحفظه.

ثم ظهرت كتب شروح الحديث الموسعة، التي تبين معنى كل لفظة حديثية، وتضبطها، وتذكر الروايات المتعددة حولها ، وربما توسعت في دراسة السند، ثم تبين الأحكام المستفادة من الحديث، وكل ما يتعلق به، وما قد يشهد له من أحاديث أخر، والجمع بينه وبين سائر الأدلة، إن كان الأمر يحتاج إلى هذا، وغير ذلك.

وقد كثرت الكتب والمصنفات في كل فنٍ من فنون علم الحديث حتى لم يعد بالإمكان حصرها أو عدها، وهو أمر يدل على أنه لا يمكن أن يكون إلا بتوفيق من الله تعالى لهذه الأمة، لتحفظ حديث نبيها صلى الله عليه وسلم، وتنقيه من الشوائب، حتى يكون دواماً هو المنبع الثاني لها بعد كتاب الله تعالى للعقائد التي تؤمن بها، والأخلاق التي تتحلى بها، والأحكام الشرعية التي تطبقها في حياتها.

وبعد ، فإن الأدلة السابقة النصية والتاريخية تدل دلالة قاطعة على أن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم هي: كالقرآن الكريم، في وجوب الاعتماد على ما جاء فيها من أحكام، وأوامر ونواهي، وما سنته من شرائع. فالسنة في حقيقة الأمر تبين وتشرح ما جاء في الكتاب العزيز من أحكام وعبادات، وتفصل المجمل وتقيد المطلق، وتبين أحكام العبادات والشرائع وحدودها، فهي الأصل الثاني بعد كتاب الله عز وجل[1].

والحق أنه لا حظّ في الدين أبداً لمن يرفض بإطلاق اعتبار السنة أصلاً ثانياً، بعد كتاب الله جل ثناؤه ، إذ هو عندئذ مكذب للنصوص المتواترة والآمرة بتحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته، التي سبق بيان شيء منها.

وأمر آخر وهو: كيف سيؤدي –على سبيل المثال– هذا الرافض أية عبادة مشروعة، إن كان ما يزال مصراً على زعمه بأنه مسلم؟!.

أم إنه سيخترع هيئات لكل عبادة على حسب هواه، ويدعي أنها ترضي ربه عز وجل؟!، وما الفرق عندئذ بينه وبين أصحاب الأديان الوضعية؟!.

فما قضى به صلى الله عليه وسلم ولم يأت عنه ما يعدّله أو يغيره؛ فهو حكم ثابت على الوجه الذي حكم به صلى الله عليه وسلم من الإيجاب أو الندب أو الإباحة أو الكراهية أو التحريم.

---

(١) ما ذكر هنا ملخص مما أورده: عبد الغني عبد الخالق في كتابه: حجية السنة، فقد توسع في إيراد الحجج والأدلة، ورد الشبهات. وكذلك: محمد محمد أبو شهبة في كتابه: دفاع عن السنة. و: مصطفى السباعي في كتابه: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي. و: محمد عجاج الخطيب في كتابه: السنة قبل التدوين. وقد ذكر كل منهم الأدلة مفصلة على كل جزئية، وبينوا جهود العلماء في خدمة السنة النبوية المطهرة، مع ضرب الأمثلة والتوسع في هذا. وانظر في تلخيص وبيان فروع علم مصطلح الحديث: تيسير مصطلح الحديث، محمود الطحان.

الباب الثاني

الرد على شبهات وأباطيل علمانيين، تتناول النبوة وموضوعاتها

ويشتمل على:

تمهيد: العلمانية، وتسللها في ديار المسلمين.

القسم الأول: مقالات افترائية علمانية تتضمن شبهات حول مواضيع في النبوة متعددة، والرد عليها.

القسم الثاني: إبطال الشبهات الواردات حول موضوعات ومسائل خاصة تتعلق بالنبوة.

تمهيد: العلمانية وتسللها في ديار المسلمين

لقد صدع الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر ربه جل شأنه، وأعلن دعوته على الملأ، وأعلن أنه صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم لجميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وأنه يجب على الناس جميعاً أن يؤمنوا بدين الإسلام الذي أُنْزِل إليه من الله تبارك اسمه، ويلتزموا بشريعة هذا الدين، ويطبقوها في حياتهم. وأبان للناس أن الله عز وجل لن يقبل ديناً آخر غير الإسلام، وأن من أصر على دين آخر بعد بلوغ الدعوة إليه فإن مصيره إلى الهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

وظهر لهذا الدين أعداء، ثم تفاقم العداء إلى حرب ضده وضد أهله، واستمرت هذه الحرب ما بين استعلان واستخفاء بحسب حال المؤمنين بهذا الدين من الضعف أو القوة.

العوامل التي مهدت لانتشار الوافدات الفكرية الضالة بين المسلمين، ولعل من أهمها:

أولاً: الضعف العام الذي حل بالعالم الإسلامي في القرنين الأخيرين، الثالث عشر والرابع عشر من الهجرة النبوية، ومن مظاهره:

١- حالة الجهل المطبق التي مر بها المسلمون في العصور المتأخرة في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية.

أما الدين فقد أصبح عبارة عن أشكال ومظاهر تتناقلها الأجيال تقليداً، دون أدنى إدراك لعظم أهمية حقائق هذا الدين العقدية والتشريعية ، ولما فيها من حِكَمٍ لا تُحصى، وكان هذا موجوداً عند كثير ممن لهم مظهر التزام بالدين وآدابه، دون أن تكون معانيه راسخة في عقولهم ونفوسهم.

ولكن كان يوجد بالإضافة إلى أولئك أعداد كثيرة ممن ليست لهم من الدين إلا النسبة المتوارثة، والأسماء دون تطبيق حقيقي لشيء من شعائر الدين، ولو من باب التطبيق الظاهري، فسلوكهم العملي لم يكن له أدنى صلة بالإسلام الحق، في جميع مناحي حياتهم الخاصة والعامة، وعباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم الفردي والاجتماعي، ومن هذا انتشار الكثير من مظاهر الفسق والفجور.

وينضم إلى ما سبق الانتشار الكبير للانحرافات العقدية، وللشركيات، والبدع والخرافات، فتلك الأمور قد عمت في العالم الإسلامي ، حتى لم يخل منها بلد أو مجتمع ، بل إنها أصبحت في كثير من البلاد هي الأساس والقاعدة؛ التي من خالفها فكأنه قد ارتد عن الدين، أما مخالفة حقائق

الدين الأساسية والأصيلة؛ فلم يكن الكثيرون يعبؤون بها، أو يحاربون أصحابها أو يقاومونهم.

وأما العلوم الدنيوية والكونية فلم تكن بأحسن حالاً من العلوم الشرعية، فقد تأخر فيها المسلمون -بعد أن كانوا روّادها- تأخراً كبيراً، ودخلوا في سبات عميق، بينما كان أعداؤهم يتسابقون فيما بينهم لاكتشاف المزيد من سنن الكون التي خلقها الله جل ثناؤه، للاستفادة منها في مخترعاتهم وتقدمهم العلمي بعد أن أخذوا مبادئها وأسسها من مدارس المسلمين وجامعاتهم ومؤسساتهم في الأندلس وصقلية وغيرها أيام أوج حضارتهم.

وإن وجد بين المسلمين من يهتم بشيء من الكونيات؛ فقد كان جل اعتماده على آراء أصبحت من مخلفات الزمن الماضي، ولا قيمة لها بعد التقدم العلمي الذي وصل إليه البشر. أو على شعوذات وخرافات لا تروج إلا على الجهال والبسطاء.

٢- قلة العلماء والفقهاء، بل ندرتهم، وإذا قل هؤلاء فلابد أن يتخذ الناس رؤوساً جهالاً، ضالين مضلين.

ولولا تكفل الله عز وجل بوجود طائفة داعية إلى الحق، ظاهرة معلنة؛ لانعدم أمثال أولئك العلماء والفقهاء انعداماً كلياً أمام تلك الكثرة الجماهيرية الجاهلة والضالة.

٣- ندرة التعليم النظامي وشحه الشديد في بعض بلاد المسلمين. وأما غير النظامي فلم يكن يوجد إلا حلقات قليلة في بعض المساجد الكبيرة في العالم الإسلامي، وكان التعليم فيها قاصراً، ومقتصراً على قلة من الناس، وبأسلوب قديم ومعقد[1].

٤- موت روح الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نفوس عامة الجماهير الإسلامية، وتبلد حسهم تجاه ما يرونه من انتشار الكفريات والمنكرات والآثام، ولو علموا أنها منكر وحرام، ويجب العمل على تغييرها، فقد كان معظمهم لا يحرك ساكناً، ولا تتحرك فيه غيرة.

٥- تَرَدّي الحالة الاقتصادية في جميع الشعوب الإسلامية، وانتشار الفقر، واضطرار الكثيرين لصرف معظم أوقاتهم في طلب أي عمل لتحصيل ما يقيتهم ومن يعولونهم، وكذلك انتشار الأمراض في كثير من البلدان.

٦- بلوغ الحكم والقضاء في كثير من بلدان العالم الإسلامي الغاية في الظلم، وتعطيل أحكام الشريعة، وتسلل الأحكام الوضعية شيئاً فشيئاً. وانتشار صور كثيرة للاستعباد وللاستبداد

---

(١) يستثنى الأزهر من هذا، وإن كان قد وجهت إليه طعنات كثيرة.

في معظم أرجاء العالم الإسلامي.

٧- غلق باب الاجتهاد في الفقه الإسلامي، الأمر الذي ساعد على استيراد الأحكام الوضعية، بعد أن وجدت أحوال كثيرة ومعاملات؛ لم يرد في شأنها نص خاص، ولم توجد في زمن الفقهاء الأقدمين ليستنبطوا لها حكماً.

ثانياً: وجود الفرق الضالة في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي:

تلك الفرق التي كان لنشوئها ظروف عدة كان من أشدها خطراً ما نشأ بتأثير من أعداء الإسلام الصرحاء وتدبيرهم ومكرهم.

وقد كان لهذه الفرق أثر كبير في مساندة أي عدو خارجي، أو في نشر الأفكار والآراء الضالة بين صفوف المسلمين، واستمالة الجهلة وضعفاء الإيمان والسذج إليهم.

وكثير من هذه الفرق كانوا ينتهجون النفاق أسلوباً عاماً لهم، فيظهرون لعموم المسلمين أنهم مثلهم ويبطنون كفرهم وإلحادهم ولا يظهرونه إلا لمن يثقون به بعد أن يستدرجوه شيئاً فشيئاً إلى باطلهم.

وقريب من هذه الفرق جماعات دخلت في الإسلام نفاقاً وخداعاً لتكيد له ولأهله، بعد أن تكون قد وصلت إلى مراكز القوة، لتكون عوناً للعدو الخارجي المعلن[١].

ثالثاً: وجود جماعات في مناطق متعددة من العالم الإسلامي بقيت على دينها السابق ولم تدخل في الإسلام:

وهؤلاء كان يتنامى مع مرور الزمن حقدهم على الإسلام وأهله، إذ كانوا ينظرون إليهم على أنهم قد أزالوا ملكهم ودولتهم. وهؤلاء مثل الفرق الضالة قد كان لهما دور كبير في مساندة أعداء الإسلام الخارجين، ونشر باطلهم بين المسلمين، وكانوا يدلونهم على عورات المسلمين ومناطق الضعف فيهم، ولربما وصلوا مع غفلة بعض حكام المسلمين أو جهلهم إلى مناصب عليا في الدولة، فإذا وصلوا إلى مثل هذه المناصب لم يألوا جهداً في نشر الفساد العريض في الأرض، وإضعاف المسلمين، وتقوية غير المسلمين والمنحرفين والضالين.

---

(١) كما هو المعروف عن يهود الدونمة الذي تظاهروا بالدخول في الإسلام، ثم كان لهم دور كبير في تفويض الخلافة العثمانية.

وقد كان لكثير من اليهود والنصارى اليد الطولى في إطلاق دعوات المذاهب والآراء الضالة بين المسلمين، تلك المذاهب التي نشأت في الغرب، ثم صُدِّرَت إلى العالم الإسلامي، وأُدْخِلَت بين أبنائه -في بداية الأمر- عن طريق مواطني الدول الإسلامية من غير المسلمين.

رابعاً: كثرة الفتن الداخلية التي كان يذكي نارها أعداء الإسلام عن طريق أجرائهم:

فكثيراً ما كانوا يمدون الجماعات العرقية أو الدينية بالمال والسلاح لكي تقوم على الدولة الإسلامية، في حروبٍ طويلة، تكلف الدولة مالاً طائلاً، وجهداً كبيراً، وتضعف من قواها، وتذهب بجندها في حروبٍ طائفية متكررة، ولا شك أن هذه الفتن كان لها الدور الكبير في إضعاف الدولة الإسلامية بصفة عامة.

خامساً: استدراج الدولة الإسلامية إلى حروب خارجية خاسرة:

فقد كانت تستجر الدولة الإسلامية إلى تلك الحروب المفتعلة وهي غير مستعدة لها، مما يذهب بالبقية الباقية من القوة التي عندها.

سادساً: إيقاع الدولة الإسلامية في المزيد من الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ونحوها:

وهذا إما بجعلها تنفق الأموال الطائلة فيما لا يعود عليها بالنفع حقيقة، أو بعقد صفقات معها، وهي بالنسبة إلى الدولة الإسلامية خاسرة حتماً، إلا أنه لا يوجد عندها من يدرك ألاعيب شياطين الاقتصاد الدوليين.

وقد تنشأ تلك الأزمات بسب إيصال من ليس كفؤاً إلى مناصب هامة في الدولة، بتأثير غير مباشر من عدوها الخارجي، ليجرها إلى الخيبة بعد الخيبة، والنكبة بعد النكبة. وأيضاً بتقديم مشورات سياسية لا تورد الدولة الإسلامية إلا إلى الهلاك.

سابعاً: حجب الدول غير الإسلامية ما عندها من العلم الدنيوي النافع عن وصول المسلمين إليه أو تعلمه:

وذلك على النقيض مما كان عليه المسلمون عندما كانوا هم رواد المعرفة الكونية، ويعلمونها لغيرهم من غير المسلمين. وأما تلك الدول فإنهم كانوا ولا يزالون يحجبون النافع حقيقة، ولا يصدّرون إلا المذاهب والآراء الضالة الفاسدة، وأنواع الفسق والفجور.

ثامناً: نشوء منظمات وحركات وأحزاب مشبوهة[١]:

فقد نشأت بتأثير من أعداء الإسلام منظمات وأحزاب مشبوهة؛ لم يكن لها همّ إلا العمل على تقويض الخلافة الإسلامية، وتفتيت الشعوب الإسلامية، وجعلها شعوباً متناحرة متصارعة.

تاسعاً: نشر المدارس التبشيرية في بلاد المسلمين:

فقد قام أعداء الإسلام بنشر تلك المدارس في مختلف بقاع العالم الإسلامي بكثرة، أو التي تتظاهر بأنها لا تدرس الدين ولا تعاديه المسماة (اللاييك)، وقد كان لهذه المدارس دور كبير في سلخ كثير من أبناء المسلمين من دينهم بالكلية، أو إضعاف أثره في قلوبهم إلى أقصى حدٍ ممكن.

وقد سبقت هذه المدارس الغزو المادي أحياناً، وقارنته، واستمرت بعد خروجه إلى يومنا هذا، بل وتطور الأمر في بعض البلاد إلى إنشاء جامعات وكليات بأموال ومناهج أجنبية.

عاشراً: إرسال أبناء المسلمين إلى ديار الكفر:

ولم تقف الغفلة لدى كثير من المسلمين عند حد إرسال أبنائهم ليدرسوا في مدارس أعدائهم التي أنشؤوها في بلاد المسلمين، بل تجاوزوا الحد وتسارعوا وتنافسوا في إرسال أبنائهم إلى ديار الكفر لينالوا العلم بزعمهم، ويعودوا قادة مصلحين!.

وهذا الأمر قد حصل بعد افتتانهم بالتقدم المادي الذي وصلت إليه تلك الديار، فظن الجهلة أنه يشمل جميع مناحي الفكر والحياة. بالإضافة إلى مشاعر الدونيّة والنقص التي نشأت عند ضعاف الإيمان من المسلمين تجاه الغرب.

وليت الأمر توقف عند حد إرسال الأبناء لتعلم العلوم الكونية التي نبغ فيها الغرب، وتأخر عنها المسلمون؛ بل إن معظم البعثات الأولى كانت تتجه لدراسة العلوم السياسية والقضائية والاجتماعية والنفسية والأدبية والفلسفية ونحوها من العلوم الإنسانية التي لم تجلب لأهلها إلا الخراب والدمار الديني والنفسي والاجتماعي والخلقي والسلوكي.

فكأن فريقاً من المسلمين لم يكتف بحالة الضياع التي وصل إليها العالم الإسلامي؛ بل أراد –ولو من غير قصد– أن يزيد في تكسير قواعد سفينة الأمة ليسرع في غرقها بمن فيها، وهذا عندما

---

(١) كالماسونية، وتركيا الفتاة، ونحوهما.

لم يرسل أبناءه إلا لتحصيل العلوم الفاسدة المفسدة، والإعراض عن العلوم الدنيوية المادية والتقنية، التي تجلب نفعا ما، ويمكن أن تعين المسلمين على أن يعتمدوا على أنفسهم، في شتى ضروب الحياة. ولا يتصور أحد ما جلبه أولئك الأبناء لدينهم وأمتهم ووطنهم وأهليهم من شر كبير، وفساد عريض.

حادي عشر: غزو الدول النصرانية العالم الإسلامي غزواً مباشراً:

فقد تنافست تلك الدول على غزو العالم الإسلامي والاستيلاء على بلدانه، وتقطيعها، ونهب ثرواتها، والقضاء على ما تبقى عندها من قوة، وفرض الكثير من مناهجها التعليمية بالقوة في مدارس المسلمين وجامعاتهم، وهي مناهج ماكانت تنشر إلا الضلالات والانحرافات. مع ما يبثونه عن طريق وسائل الإعلام والثقافة والفنون، التي أصبحت طوع يد المستعمر يسيّرها كيف شاء.

فتلك الأمور -وغيرها- كان لها الدور الأكبر في نشر كثير من تلك الضلالات المستوردة من الغرب بين أبناء المسلمين، وافتتانهم بها، واستحواذها على قلوبهم ونفوسهم وأفكارهم وعقولهم، ومن ثم القيام بالدعوة إليها وإكمال مسيرة نشرها بين المسلمين.

انتشار المذاهب والأفكار الضالة بين أبناء المسلمين وأثره فيهم وفي أمتهم:

سبقت الإشارة إلى أن كثيراً من المسلمين -من أوائل القرن الثالث عشر الهجري- أرسلوا أبناءهم إلى المدارس التي أنشأتها الدول الغربية في بلاد المسلمين، وكذلك أرسلوهم إلى ديار تلك الدول لينالوا درجات العلم العالية!.

وقد ازداد هذا الأمر واتسع عندما كانت معظم الدول الإسلامية واقعة تحت الاحتلال الغربي في القرن الرابع عشر الهجري، فقد كان هذا الاحتلال يتصيد من أبناء المسلمين من يجد عنده الاستعداد للانسلاخ من دينه، فيتبناه ويبتعثه إلى بلاده، ليُعاد بناؤه وصياغته على الوجه الذي يريده العدو. ثم يعاد إلى بلاده، بعد أن يتأكد العدو من ولائه له، ليكون حرباً لدينه وأمته، وعوناً للعدو الحقيقي الخارجي.

وأيضاً، فإن كثيراً من المسلمين نما عندهم شعور الانهزامية والتبعية تجاه الغرب، وانبهروا بحضارته المادية، وغفلوا عن التردي في الفكر والأخلاق والسلوك لدى تلك البلاد، ولهذا فإنه -بعد الاحتلال- ازدادات الأسر التي كانت ترسل أبناءها -على نفقتهم الخاصة- إلى بلاد أعدائهم،

حتى يتلقوا العلم بظنهم. والحق أن العدو كان يعيد بناءهم الفكري والسلوكي بما يوافق ضلالاته، دون أن يزودهم من العلم المادي والكوني إلا بالنذر اليسير الذي لا يفيد شيئاً[١]، والأهل مع هذا يظنون أنهم يحسنون صنعاً، وربما قتَّروا على أنفسهم في المطعم والمشرب والملبس والمسكن من أجل أن يتلقى ابنهم العلم المزعوم في تلك الديار!.

ولما كانت العلوم الفلسفية والفكرية والنفسية والاجتماعية والسياسية والقضائية ونحوها؛ قد أسست في الغرب في القرون المتأخرة على مبادئ إلحادية ترفض الدين رفضاً تاماً بجميع حقائقه، بل وتحاربه وجميع أسسه ومبادئه، التي منها: الأخلاق الفاضلة والسلوك القويم، وتسعى لنشر وترسيخ الأفكار والنظريات التي تنشر الفساد وعوامل الدمار بين شعوب الأرض، نتيجة أسباب وظروف خاصة بهم.

ولما كان أكثر أبناء المسلمين المبتعثين للغرب –في ذلك الزمن– لتلقي العلوم؛ لم يتلقوا إلا تلك المعارف الضالة؛ فقد كان من الطبعي –نتيجة ذلك كله– أن يعود الكثير من أولئك الأبناء وقد تشربوا وتضلعوا من المذاهب والأفكار الضالة.

ولما كانت السيطرة لا تزال للعدو في بلاد المسلمين فقد هيؤوا لأولئك الأبناء الضالين مراكز مرموقة في ديارهم، وهي مراكز تمكنهم من توجيه السياسة والتعليم والقانون وجميع مناحي الحياة الوجهة التي يريدها عدو الأمة.

وبالنسبة إلى جماهير الأمة فإن أولئك الأبناء قد نالوا العلم من بلاد التقدم والحضارة!، فلن يستطيع أحد أن يشكك في مدى استحقاقهم لتقلد تلك المناصب الرفيعة، هذا إن كانت له قدرة أصلاً على المجادلة والمعارضة، وإن ظهرت أصوات خافتة للمعارضة؛ فقد كان للعدو أساليب عديدة لجعلها هباءً منثوراً.

وزيادة في المكر والكيد فإن العدو نفسه قد يفتعل لمثل هؤلاء الأجراء أحداثاً، تظهرهم من المجاهدين المناضلين، الذين قاوموا العدو وحاربوه وتعرضوا لأذاه. كل هذا ليعطوهم مجداً كاذباً، وليجعلوا الكثير من جماهير المسلمين الساذجة في تفكيرها وإدراكها لمكر أعدائها، تتقبل أولئك المناضلين، وتسلمهم مقاليد أمورهم كلها، وتسير وراءهم دون وعيٍ ولا إدراك للنهاية التي

---

(١) أما إن تلقى أحد من أبناء المسلمين علما كونياً نافعاً؛ على الحقيقة فقد كان للعدو أساليب متعددة للتعامل معه، إما بإغرائه للبقاء عندهم، والاستفادة من براعته، أو التخلص منه، أو التوجيه الخفي ليوضع في بلده –إن عاد– في مجال لا يستفاد من علمه الذي حصل عليه.

يقودونهم إليها. وأما أهل الوعي؛ فقد كانت توجد أساليب كثيرة لإسكاتهم، وصم الآذان عند سماع تحذيراتهم، وتحجيمهم، بل وجعلهم نماذج يُسْخَرُ منها ويستهزأ بها.

وبناء على ذلك فقد قام أولئك الأجراء بالمهمة التي كلفهم إياها أعداء الإسلام، على الوجه الذي يرضيهم، ومن خلال وسائل واتجاهات متعددة.

وقد كان من أبرز هذه الوسائل: أن المذاهب والفلسفات الهدامة الضالة التي تشربها أولئك الأجراء من سادتهم، أعداء الدين الصرحاء؛ قد قاموا بدورهم ببثها بين الجماهير المسلمة المغلوبة على أمرها، وأخذوا يستدرجون لكل مذهب أو فلسفة: إما مظلومين ناقمين على أوضاعهم السيئة، وإما سذجاً، وإما منتفعين، وكل من كان عنده اتباع للهوى، ونفور من الالتزام بأحكام وشرائع الدين القويمة، وساعدهم في هذا المنافقون الأقدمون الموجودون في العالم الإسلامي، سواء من الفرق الضالة، أو من الجماعات غير المسلمة، التي كانت موجودة في كثير من المناطق الإسلامية.

وعندما انتهى زمن الاحتلال الظاهري لم يخرج الأعداء إلا بعد أن اطمأنوا إلى أن أجراءهم من أبناء المسلمين وغيرهم قد رسخت أقدامهم في المناصب التوجيهية للتعليم والاقتصاد والجيش والقضاء والتربية والإعلام ونحوها، وأنهم قادرون على الاستمرار في المهمة حتى بعد خروج العدو.

وزيادة في الاطمئنان فقد أنشؤوا لهم في بعض البلاد الإسلامية أحزاباً مشبوهة ليكون عملهم ضد دينهم وأمتهم عملاً منظماً مدروساً. ويمكن أن يتلقى الدعم مباشرة من العدو الحقيقي بأساليب مباشرة وغير مباشرة. كالأحزاب الشيوعية والاشتراكية التي زُرِعَت في بلاد المسلمين، لكي تعمل على خرابها وفسادها بأيدي أبناء جلدتها.

وقد قام هؤلاء الأجراء المسلوخون من دينهم وأمتهم، والممسوخون إلى ذئاب ترتدي جلود الضأن؛ بدورهم في نهش جسد الأمة، والعمل على هدم دينها، وتفتيت وحدتها، ومساعدة أعدائها على استنزاف جميع خيراتها. وهم مع هذا كله يتظاهرون بالغيرة على الأمة، والعمل على مصلحتها، ومحاربة كل من يعمل على إشاعة الفوضى والفساد فيها، وهم إن صارعوا لم يصارعوا إلا الدعاة المخلصين الغيورين الذي يريدون لهذه الأمة أن تعود إلى دينها، وإلى سابق عزها ومجدها[1].

(١) انظر: العلمانية: نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة؛ سفر الحوالي: ٥٠٧-٦٤٤. و: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ٩١-١٠٠. و: واقعنا المعاصر؛ محمد قطب: ١١٣- ٣٦٣.

سقوط المذاهب التخصصية وانضواء أصحابها تحت مظلة العلمانية:

لقد كانت بعض المذاهب والفلسفات الهدامة، التي تبناها دعاة الضلال في بلاد المسلمين، لها فكر واضح، وآراء محددة، ومناهج مبينة، وبعضها الآخر ليس أكثر من مجرد شعارات يتستر بها كل من أراد النيل من الدين، مهما كان مشربه واتجاهه الفكري المنحرف، ولو لم يكن له أي رأي معين أو منهاج محدد، سوى القضاء على الإسلام وشريعته.

فأما الفلسفات والمذاهب ذات الفكر الواضح والآراء المحددة فقد تهاوت واحدة تلو الأخرى، واكتشفت الجماهير المسلمة المخدوعة أو المغلوبة على أمرها -بعد النكبات التي أصابتها- ما فيها من زيغ وزيف وكفر وضلال، وما تؤدي إليه من خيبة وخسران عاجلين وآجلين[1].

إلا أن كثيراً من أتباع تلك المذاهب والفلسفات التي تهاوت؛ والذين انسلخوا من دينهم بالكلية، وأصبحوا للعدو مركبا ذلولاً؛ لم يعد بإمكانهم أن يستمروا في الدفاع عن تلك المذاهب بعد أن سقطت في عقر دارها، وليسوا مستعدين أبداً للعودة الصحيحة إلى هذا الدين، فكان لابد والحال هذه من أن ينضووا تحت شعار عام مخادع ليكملوا رسالتهم الهدامة والمخربة من خلاله.

ولم يجد هؤلاء الأجراء أفضل من شعار قديم مستورد من الغرب كذلك، وكثيراً ما تستر به العديد ممن راموا النيل من دين الإسلام وشرائعه، فأراد الذين سقطت مذاهبهم الفاسدة أن يجعلوا من هذا الشعار -القديم الجديد-؛ مظلة تتسع لهم جميعاً، ليوحدوا صفوفهم في سبيل العمل السريع لهدم أركان هذا الدين، وزيادة الفرقة بين أشلاء أمته، لأنهم رأوا أن دين الإسلام استعصى عليهم ولم ينالوا منه الذي كانوا يحلمون به، رغم كل ما وجه له منهم ومن قبيلهم السابقين خلال عشرات السنين، فكلما هدموا جانباً أعاد الله تعالى بناءه من حيث لا يحتسبون.

ويمكن من خلال تتبع الأحداث وتطور أساليب الهجوم على الإسلام وشريعته؛ استنتاج: أن أهل الهجوم الفاجر؛ قد أدركوا أولاً عدم جدوى العمل على هدم الإسلام من خلال مذاهب متفرقة، ولا من خلال مذاهب محددة، لها معالم واضحة ثانياً، لأنه سيؤدي إلى نقيض مقصودهم، إذ سيزيده قوة، والسبب في هذا يرجع إلى:

- تفرقهم الذي يشتت قواهم التي يحشدونها من أجل غايتهم القصوى.
- ولأن أية مقارنة يسيرة بين حقائق الإسلام، وسخافات تلك المذاهب الموضوعة، ستبين الفارق الكبير بين كل منهما، ولن تقنع -في حقيقتها- العدو الكافر المعاند ، فضلاً عن المؤمن

---

(١) هذا مع العلم بأن شياطين الإنس لا يفترون عن اختراع المذاهب والشعارات والأفكار الضالة ، وبثها بين الناس، فلا يكاد البشر يخرجون من غي حتى يوقعوهم في آخر، وهكذا دواماً، ولو كان هذا باجترار مذاهب قديمة، ولكن بألفاظ جديدة.

المتمسك بدينه. وأيضاً فإن التطبيق العملي سيظهر سريعاً فساد مناهج وآراء وأفكار تلك المذاهب الموضوعة.

وبناء على ما سبق فقد ظهر لأولئك الأجراء أنه من الأفضل لهم أن يوجهوا سهامهم إلى الإسلام وأهله من خلال شعارات براقة، لا منهاج لها، ولا أفكار محددة، ولا آراء واضحة، وإنما مجرد عبارات رنانة، يتحدثون من خلالها عن الإنسان وحقوقه وحريته ونصرة عقله وتجاربه، وعدم تقييده، والاستفادة من كامل مواهبه، ونحو هذه العبارات، ليخدعوا بها السذج وأهل الغفلة. دون أن يتعرضوا لذكر مناهج محددة، ذاقوا مرارة خيبتها، ونفرة الناس منها ومن أهلها، فأصبحوا لا يريدون أن ينسب إليهم فشل وخيبة مذاهب محددة، لئلا يعوق غايتهم الحقيقية هدم دين الإسلام بالكلية عائق.

وأقصى ما يمكن أن يجيب به الكثير منهم إن سئل عن منهج محدد هوأن يزعم بأن على الناس أن يأخذوا بأي مذهب وضعي بشري، وليتنقلوا بين المذاهب، فالبشر لهم عقول وتجارب، ولابد أن يصلوا يوماً ما إلى منهج!.

فهم في الحقيقة يطلبون من المؤمنين أن يتركوا منهج الله -تبارك اسمه- ذا المعالم الواضحة، والحدود البينة والحقائق الثابتة، لينطلقوا في ظلمات لا نهاية لها.

وفي واقع الأمر فإنهم من هذه الزاوية أضل بكثير من أصحاب المناهج الفاسدة، التي لها حدود ومعالم واضحة، إذ هي على أي حال تخدع الناس بأسلوب محدد، ولو إلى مدة قصيرة حتى يكتشفوا فسادها، وأصحاب هذه المذاهب على شدة سوء حالهم هم أقل سوءاً من أناس لا يملكون شيئاً، سوى طبول ومزامير شيطانية، ويريدون أن يكون الجميع مثلهم.

وكان شعار العلمانية المطروح على الساحة الفكرية أصلاً هو الشعار الذي اختاره أعداء الإسلام وأجراؤهم، ظناً منهم بأنهم سيحققون من خلال انضمامهم جميعاً تحت رايته؛ ما عجزوا عن تحقيقه عن طريق المذاهب الوضعية الباطلة، ولهذا فقد ازدادت في العقدين الأخيرين رقعة المنتسبين إليه من أهل الضلال الفكري والمذهبي[1].

العلمانية: معناها، ونشأتها، والغاية منها:

إن العلمانية في حقيقة أمرها ليست أكثر من شعار، إذ لا يوجد عند أصحابها منهج واضح محدد يشمل شؤون الحياة، ويلتزم به كل من ينتسب إلى هذا الشعار.

(١) وقد يضمون إلى هذا الشعار -أو يستبدلون به- شعار التجديد في الدين، وهذا عند الذين يريدون هدم الإسلام، باسم الإسلام.

وشعار العلمانية كأهله يحمل معنى التلبيس والتضليل، ابتداء من الاسم الذي اختير له.

وسبب التدليس: أن هذا الشعار -في أصله- ترجمة لشعار مقابل له نشأ في الغرب، أو بعبارة أخرى: حركة نشأت عندهم لمحاربة الكنيسة بصفة عامة، وقد أطلق عليها اسم: (Secularism)، والترجمة الحرفية لهذه الكلمة هي: الدنيوية، أو: اللادينية.

وقد بينت كتب دوائر المعارف الأجنبية أن حركة الـ (Secularism) قد نشأت لتكون مضادة للدين وللمسيحية ولعقيدة الاهتمام باليوم الآخر، وأنها على النقيض من هذا توجه الناس للاهتمام بهذه الدنيا، وتعليق مطامحهم وغاياتهم بها.

وقد انقسمت هذه الحركة عند الغرب إلى: معتدلة، تسمح بوجود الدين في أضيق مجال، ولكن دون أن يكون له أي حق في حياة الناس العامة. وإلى: متطرفة مضادة للدين كلية، فهي لا تسمح بوجوده في أي شكل من الأشكال.

ووجود العلمانية المعتدلة في الغرب أمر معقول، بسبب أن المسيحية التي كان يؤمن بها نصارى الغرب ليست لها شريعة متكاملة تحكم الحياة ويجب تطبيقها، وأما الشريعة الربانية فقد حُرِّفَت وبدلت وطمست أكثر معالمها، ولم يبق إلا أشكال وضعية، اخترعها من زعموا أنهم رجال الدين!، وهم في حقيقة حالهم: من أفسق الناس وأفجرهم، ولا همّ لهم إلا سلب خيرات الناس والاعتداء على حقوقهم، تحت ستار أنهم رجال الدين، وأنهم القديسون المطهرون!. وكانوا كثيراً ما يساندون الحكام الظلمة، ويضعون لهم -باسم الدين- الأحكام التي تُرَسِّخُ ظلمهم، وتجعله مشروعاً، وتسكت أهل التظلم والشكوى.

ولهذا فإذا جاءت حركة وطالبت بحصر الدين في طقوس تؤدى للإنسان عند ولادته ووفاته، أو يؤديها في مراسم زواجه، أو في كنيسته، فإن مثل هذا الأمر سيلاقي حتماً رضى الكثيرين من المنتسبين إلى ذلك الدين، وهم يعلمون عدم صلاحيته ليحكم الحياة بأي شكل، بل إن هذا الأمر سيحررهم من ظلم من يزعمون أنهم رجالات ذلك الدين[1].

فهذا هو المراد بذلك الشعار أو تلك الحركة عند أصحابها الأصليين، ولكن نظراً لإدراك المستوردين لهذا الشعار أو المصدرين له أو كليهما؛ خطورة الترجمة الصحيحة لذلك الشعار بين المسلمين، وأنها ستجعلهم يقاومونها ويحاربون أهلها حرباً لا هوادة فيها، لهذا فقد ارتأى أتباع هذا

---

(١) عن أسباب نشوء العلماينة (وغيرها من المذاهب الضالة) في الغرب؛ انظر: العلمانية: نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة؛ سفر بن عبد الرحمن الحوالي: ٢١-٢٤. و: الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه؛ يوسف القرضاوي:٤٧-٥٣. وبالطبع يجب ألا يغفل دور شياطين الإنس من اليهود وغيرهم؛ في إيجاد كثير من تلك المذاهب أو الاستفادة من سائرها، ونشرها بين المجتمعات الغربية.

الشعار أن يدعوا إليه المسلمين العرب، ويستدرجوهم إلى تطبيق مضمونه المعادي لدين الإسلام[١]، ولكن تحت اسم تضليلي ليخدعوا من يستطيعون خداعه، وليلتبس أمرهم على من ليست عندهم الخبرة الكافية بمكر وكيد أعداء الإسلام والمسلمين، وقد وقع اختيارهم على اسم (العلمانية)[٢].

والنسبة في هذا اللفظ تعتمد على نسبة غير قياسية في اللغة العربية (أي بإضافة الألف والنون إلى العلم)، ولكنها جاءت سماعاً في بعض الكلمات كـ (الرباني)، وانتشرت عند المتأخرين، كقولهم: (روحاني، وجسماني، ونوراني، وعقلاني)[٣].

وعلى هذا فإن أصحاب هذا الشعار يريدون بهذه الكلمة الانتساب إلى العلم، فكأنهم هم المناصرون للعلم، وأما أضدادهم من الدعاة إلى التمسك بالإسلام وتطبيقه، فهم مناصرون للجهل والظلام!. وعلى هذا فالكيد في اختيار هذا اللفظ (أو الحرص عليه) ظاهر[٤].

وذهب بعض اللغويين إلى أن (العَلْمانية) بفتح العين وتسكين اللام، نسبة إلى (العَلْم) وهو بمعنى العالم[٥].

ولكن الواضح أن العلمانيين يفضلون نطق الكلمة بكسر العين لما فيها من التلبيس والخداع.

وعلى الرغم من أن العلمانية مجرد شعار فإن الأمر الأساسي الذي يجتمع عليه العلمانيون هو: عزل الدين (الإسلام) عن الدولة، وعن حياة المجتمع بصفة عامة.

وبعد هذا فإما أن يسمح للإنسان بأن يمارسه بينه وبين ربه عز وجل في عبادات خاصة، لا علاقة لها بالمجتمع أو بالحياة، وإما أن يمنع حتى من هذا الحق الشخصي لئلا يكون له آثاره على تصرفاته الاجتماعية[٦].

وأما قوانين الحياة والمجتمع فينبغي أن يأخذها البشر مما تمليه عقول وأهواء فئة يسيرة منهم، وهي -مهما بلغت- محدودة من كل جانب. أو من خلال طرح تلك القضايا على البشر كلهم، وأكثر الناس -كما هو مشاهد ومعلوم- أصحاب شهوات ومصالح خاصة، وكثير منهم من أهل

---

(١) سيأتي -بإذن الله تعالى- قريباً بيان أنه لا يمكن وجود علمانية معتدلة بالنسبة إلى الإسلام.

(٢) لم أجد فيما وقع تحت يدي من مصادر من تتبع هذا اللفظ تاريخياً ليعرف أول من أطلقه.

(٣) انظر في تحليل لفظ العلمانية وبيان أصلها الأجنبي، والمراد بها عند أهلها الأصليين، والنقول عن المصادر الأجنبية: العلمانية: نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة: ٢١-٢٤. و: الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه: ٤٢-٤٦. و: أفاعي العلمانية وأحاديث الإفك؛ سامي نجيب: ١٨-١٩، ٤٩. و: مذاهب فكرية معاصرة؛ محمد قطب: ٤٤٥. و: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ١٦٢-١٦٦.

(٤) انظر: الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه: ٥٧.

(٥) انظر: المعجم الوسيط: (العلم) و(العلمانية)/ ٦٢٤/٢. و: أفاعي العلمانية وأحاديث الإفك: ٤٩.

(٦) انظر: العلمانية؛ نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة: ٢٣-٢٤.و: الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه: ٤٥.

الفسق والفجور والظلم والاعتداء.

وإذا كانت العلمانية التي تسمح بممارسة الدين على وجه شخصي ؛ تعتبر علمانية معتدلة في الغرب، فإن مثل هذه العلمانية المعتدلة لا وجود لها مع وجود الإسلام وشريعته الكاملة.

وسبب هذا أنه في الغرب لم تكن توجد أصلاً شريعة ربانية صحيحة تحكم البشر، كما سبقت الإشارة إليه، وأما الإسلام فإن شريعته الربانية المنزلة ما تزال أصولها محفوظة من التغيير والتبديل، وهي شريعة تامة كاملة، وشاملة لجميع مناحي الحياة على أكمل وجه، وهي واجبة التطبيق، ولا يعتبر المرء مؤمناً بربه جل ثناؤه حقاً إن لم يعتقد وجوب تطبيقها، فلا يمكن مع هذا كله وجود فصلٍ للإسلام عن الحياة معتدلٍ أو متطرفٍ، بل أي اعتقاد بفصل له عن الحياة هو فصل متطرف لأنه سيؤدي إلى الكفر به[1].

أساليب العلمانيين المعاصرين في إبطال حقائق الإسلام:

إن رموز العلمانية في العالم الإسلامي والعربي يرجعون إلى أواسط القرن الثالث عشر الهجري، وأوائل القرن الرابع عشر. ثم بعد هذا أخذوا يكثرون وينتشرون. واستمر عون العدو الخارجي المستتر لهم دواماً، وبشتى صنوف العون، حتى أصبحت لهم أقدام راسخة في المجتمعات الإسلامية، وحتى أصبحت لهم جمعيات ومنابر وصحف، بل قد طوعت لهم أكثر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.

ومع هذا كله فإن العدو المدبر لم يرتض أن تسلك العلمانية سبيلاً واحدة للقضاء على الإسلام، واجتثاث جذوره من قلوب المؤمنين به ، بل وجههم إلى أن يكونوا أصنافاً متعددة، يتخذون مسالك عدةً للوصول إلى الغاية التي يحلمون بها. فإن لم يؤثر مسلك فلعل مسلكاً آخر يكون أشد تأثيراً. ومن هذه المسالك أو الأساليب ما يلي:

الأسلوب الأول: التصريح بالعداوة للإسلام ولتاريخ المسلمين بصفة عامة، وتناول هذا كله بالهجوم الكاسح، والسب والشتم والجرح والقذف، فهذا فريق ملحد، لا يخفي إلحاده، ولكن الذي يحاول أن يخفيه هو أنه ليس إلا مجرد معول في أيد أجنبية، هدفها تحطيم هذه الأمة بعد هدم البناء الحافظ لها وهو: الإسلام.

---

(١) انظر: الإسلام والعلمانية وجها لوجه: ٤٧ - ٥٦، ٦٧.

ولا شك أن الجماهير المسلمة -بصفة عامة- لا يمكن أن تؤثر فيها كلمات أمثال أولئك الملحدين الموتورين والحاقدين، بل قد تكون سبباً لنفرتهم ومعاداتهم للاتجاه العلماني أجمعه.

الأسلوب الثاني: تظاهر بعض العلمانيين بعدم العداوة للإسلام، ولكنهم يدعون أن الإسلام ليس أكثر من مجرد دين يعتقده الإنسان بقلبه ، وربما ذكروا العبادات الخاصة، ويرفضون أن يكون الإسلام مشتملاً على شريعة تحكم شؤون الحياة كلها وتنظمها وفق أوامر الله جل شأنه.

ثم إن عبارات هذا الفريق من العلمانيين اختلفت في تعليل الأحكام والشرائع الواردة في الأصلين الكتاب والسنة، فبعضهم يدعي أن ما ورد في الأصلين من أحكام وشرائع إنما يصف تاريخاً قد مضى وانقضى، وليس المراد به تشريعاً يجب على المسلمين تطبيقه دواماً، وبعضهم يزعم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن مشرعاً إلا لمن كان بينهم، بحكم أنه قائدهم، ولكن ليس معنى هذا أن ما شرعه حكم ثابت لا يجوز نسخه!.

وكثيراً ما يحمل هذا الفريق من العلمانيين (الدنيويين) على علماء المسلمين ، بدعوى أنهم أو بعضهم هم الذين ادعوا وجوب تحكيم المؤمنين جميعاً للشريعة التي جاءت في القرآن أو في السنة، لغرضٍ في أنفسهم!، وأما القرآن والسنة فليس فيهما -بزعمهم- ما يفيد ذلك!.

ولكن أولئك العلماء أرادوا أن يكبلوا المسلمين!، وكان المطلوب -بزعم هؤلاء العلمانيين (الدنيويين)- أن يكون الناس بلا ضابط يحكم تصرفاتهم فتنتشر الفوضى ويعم الفساد.

وقد يتهمون العلماء بوضع بعض الأحكام ونسبتها إلى الأصْلَيْن، أو بعدم فهمهم وفقههم لنصوص الشريعة، حتى في الأمور التي أجمعوا على أنها من أحكام الشريعة الثابتة، ويتهم بعض العلمانيين (الدنيويين) علماء المسلمين بأنهم اعتمدوا على الأسلوب الكهنوتي النصراني للسيطرة على المسلمين!. وكَأَنَّ طلب العلم كان محجوراً على فئة دون فئة، أو كَأَنَّ علماء المسلمين كانوا يرفضون المناقشة والمجادلة!.

فهذا الفريق من العلمانيين (الدنيويين) على اختلاف صور كلامهم يدورون حول مسألة عدم صلاحية أحكام الشريعة الإسلامية لكي تطبق في عصرنا الحاضر.

الأسلوب الثالث: الاعتماد على تجربة تاريخية قد كان لها أثر سيء في العالم الإسلامي، وهي تجربة الباطنية، التي كانت تتظاهر بالإسلام وتبطن الكفر المحض، وتدعي أن لكل حقيقة دينية تأويلاً لا علاقة له مطلقاً بالمعنى الأصلي، وأن أئمتهم هم المؤهلون وحدهم لإدراك ذلك التأويل وإعطائه للخواص!.

وبناء على هذه التجربة التي كان لأعداء الإسلام الأقدمين دور كبير في نشأة أصحابها،

والدعوة إلى باطلها؛ فقد ارتأى أعداء الإسلام المعاصرون إيجاد فريق من العلمانيين (الدنيويين) في ديار المسلمين، يرتدون شعار الإسلام جنباً إلى جنب مع شعار العلمانية[1].

فهم يدعون أنهم وحدهم القادرون على فهم هذا الدين الفهم الصحيح والمطابق لواقع حال الأمة المعاصر، وأما ما فهمه علماء المسلمين وفقهاؤهم الذين لا حصر لهم، في خلال خمسة عشر قرناً، وما بذلوا فيه جهدهم لإدراكه واستنباط ما فيه من أحكام، وما أصّلوه وأبانوه بالحجة والدليل والبرهان؛ كل هذا عند من يُحَسّنِ العبارة ظاهرياً -من هذا الفريق من العلمانيين (الدنيويين)-؛ إنما كان ينفع لعصرهم، ولا قيمة له في عصرنا هذا!. وبعضهم لا يستحي من أن يصرح بأن علماء المسلمين قد كانوا مخطئين فيما أجمعوا على فهمه وإدراكه.

وعليه، فهم يرون أنه ينبغي علينا أن نفهم هذا الدين فهماً جديداً ليطابق واقعهم الفاسد، وبالطبع فإن ذلك لا يتم إلا بأسلوب فهم هذا الفريق من العلمانيين (الدنيويين).

فكأن المطلوب من الإسلام أن يتوافق مع ما وصلت إليه المجتمعات، ولو كانت قد انحدرت إلى دركات الرذيلة والفساد، لا أن المطلوب أن يترقى المجتمع ليصل إلى قريب من الصورة المثالية التي بينتها الشريعة الربانية، إن لم يطبقها كاملة.

الأسلوب الرابع: تعميم بعض العلمانيين (الدنيويين) كلامهم حول الإسلام كله، ليشمله عقيدة وشريعة. وقد يختص بعضهم بالكلام على طائفة من قضايا الإسلام، سواء منها العقدية أو التشريعية. وإن كان التخصص في الكلام على القضايا الشرعية أو طائفة منها هو الغالب على كلام العلمانيين الدنيويين.

الموضوعات التي تناولها العلمانيون (الدنيويون) في كلامهم وكتاباتهم:

تنوعت الموضوعات التي تناولها العلمانيون (الدنيويون) في سبيل وصولهم إلى هدفهم الأكبر، بالقضاء على الإسلام بالكلية، واجتثاثه من صدور المؤمنين به:

١- معظم كتابات العلمانيين تتجه نحو إبطال تحكيم الشريعة، وأنها لم تعد ملائمة لهذا العصر، وهذا إما بالهجوم الصريح، وإما بالاستهزاء والسخرية من أحكام الشريعة الإسلامية، وإما بادعاء إعادة فهم أحكام الشريعة على وجه يبطلها.

٢- وقد خصص فريق من العلمانيين كتاباته ببعض قضايا الشريعة، ليستبدل بها أحكاماً وضعية.

---

(١) وقد يسترون شعار العلمانية، ولكن يفضحه أقوالهم وأفعالهم.

أ- فبعضهم خصص كتاباته حول المرأة، وهي عموماً قد صب عليها العدو الخارجي والداخلي جهده الأكبر لإخراجها من عفتها وطهارتها وعرين أسرتها بدعوى تحريرها، ومن ثم جعلها وسيلة لإفساد المجتمع، وهذا من وجهين:

الوجه الأول: هدم الأسرة، فالمرأة هي عماد الأسرة وخط دفاعها الأول، فإذا كسر، انهدم بناء الأسرة، وآذن هذا بهدم المجتمع كله.

الوجه الثاني: نشر الفساد العريض في الأرض، عن طريق الدعوة إلى السفور والتبرج والاختلاط والتبذل.

ب- وبعضهم خصص كتاباته حول أحكام الشريعة في مسائل الاقتصاد، للوصول إلى إباحة كثير مما حرمه الله تبارك اسمه، ولو كان تحريماً قاطعاً بالنص الذي لا يحتمل أي تأويل كالربا، ونحوه من الأمور التي لا يبتغى بها إلا نهب أموال الناس بالحيلة والخداع، وهذا من فريقٍ ليس لجشعهم وطمعهم حد ولا غاية.

جـ- وبعضهم خصص كتاباته أو معظمها حول الحدود في الإسلام، وادعى أنها تتنافى مع حقوق الإنسان، وأنها وحشية لا تليق بالحضارة الإنسانية الراقية!.

والحق أن إلغاء الحدود سيؤدي حتماً إلى الوصول إلى الدركة التي وصل إليها العالم الغربي، إذ انتشرت فيه الجريمة على نطاق منظم وواسع، حتى أصبحت له منظمات دولية (كالمافيا)، وجميع المجرمين في أمان من أن تنالهم عقوبة زاجرة رادعة، ولو أفنت الشرطة وقوات الأمن حياتها في سبيل القبض عليهم، إذ النتيجة عبارة عن أحكام لا يلقي لها الكثير من كبراء المجرمين بالاً، وأشدها: سجن يعتبر في كثير من البلدان أعظم رفاهية من البيوت الخاصة. وبعض المجرمين يهربون منه متى شاؤوا ويعودون إليه وقت الراحة!.

إلى غير ذلك من موضوعات متفرقة تتناولها أيدي العلمانيين (الدنيويين) بخبث ودهاء ومكر بالغ، فإن أعيتهم الحيلة انتقلوا إلى الشتم والقذف، ووسائل الإعلام وهي -إلا ما ندر منها- مطوعة لهم، إما تطويعاً مباشراً أو غير مباشر.

٣- ورغم ذلك كله فإن عتاة العلمانيين قد أدركوا أن أسلوب سابقيهم وإن دعمه من دعمه؛ فإنه سرعان ما ستنقلب عليه الجماهير المسلمة، وتطالب بعودة تحكيم الشريعة، لأن القاعدة الإيمانية ما تزال راسخة في قلوبها، رغم ما أصابها من ضعف، وهي تستلزم تطبيق الشريعة النابعة منها، ولهذا فقد اتجه بعض أكابر العلمانيين (الدنيويين) إلى نقض العقيدة الإسلامية من جذورها، فإلى جميع أركانها وفروعها، متبعين أسلوب الهجوم الصريح، أو أسلوب ارتداء عباءة الإسلام زوراً وبهتاناً، وادعاء تجديد فهم العقيدة الإسلامية، وأركانها، والثورة على كل ما هو قديم، وصولاً إلى

إعادة صياغة العقيدة الإسلامية على وجه يبطل جميع حقائقها، ويجعلها متوافقة مع العقائد الإلحادية والكفرية المستوردة[1].

حكم العلمانية في ضوء حقائق الإسلام العقدية والتشريعية:

إن الأمر الأساس الذي اتفق عليه العلمانيون -كما سبق بيانه- هو وجوب فصل الحياة عن الشريعة الربانية المنزلة، أو عدم الاعتراف بوجودها أصلاً.

فليست المسألة عند العلمانيين أن المؤمنين مخيرون بين تطبيق الشريعة المنزلة أو عدم تطبيقها، وهذا وحده كافٍ في الحكم على صاحبه بالكفر، لأنه إنكار لمعلومٍ من الدين بالضرورة، ولكن المسألة عند العلمانيين أعمق من هذا، فهم يرون وجوب عدم تحكيم الشريعة المنزلة، وأما الأحكام الشرعية الموجودة فهي من مخلفات الزمن الماضي، ويجب أن يستعاض عنها بما توصلت إليه آراء البشر الضالة المضلة، من الذين لم يجلبوا

---

(١) والذي تولى كبر هذا الدور على أوسع نطاق: (حسن حنفي)، فهو لم يدع أمراً من أمور العقيدة مهما دق إلا نقضه. بدعوى إعادة فهمه، حتى جعل العقيدة الإسلامية لا تختلف عن أية عقيدة أو مذهب إلحادي منكر لله سبحانه، واليوم الآخر والملائكة والأنبياء عليهم السلام، وجميع الحقائق الغيبية، ولا يؤمن إلا بالحياة الدنيوية، وأنها الغاية القصوى التي لا ينبغي للفكر البشري أن يتجاوزها، وقد أودع ثورته وتجديده الكفري الإلحادي في سلسلته من العقيدة إلى الثورة، وهي مجلدات خمسة كبيرة، استعرض فيها آراء الفرق الإسلامية على وجه مبتور. وربما ضم إليهم من وجدوا في تاريخ المسلمين دون أن تكون لهم أية رابطة حقيقية بهم، كالباطنية المنافقة، والفلاسفة الملحدين - بالمعنى العام للإلحاد-، وهذا ليوهم القارئ الساذج أو الجاهل؛ أن الضلالات التي يدعو إليها هي أمور لها جذورها في التاريخ الإسلامي، وأنها جزء لا يتجزأ من الفكر الإسلامي، وأن حال الفرق الباطنية وأضرابها مع بقية المسلمين؛ كحال المذاهب الفقهية الإسلامية التي تختلف فيما بينها على حسب ما يؤدي إليه اجتهاد كل عالم!!..، بل إنه يضم في بعض الأحيان إلى الفكر الإسلامي آراء جماعات غير مسلمة أصلاً، ممن كانوا يوجهون شبهاتهم إلى الإسلام وعقائده، فيرد عليهم علماء المسلمين الأقدمون ، وأما هو فإنه يعتبر أولئك المردود عليهم -من الذين لم يدينوا أصلاً بالإسلام- أنهم من الفرق الإسلامية، وأن آراءهم وشبهاتهم في درجة متساوية مع آراء الفرق الإسلامية الأصيلة ، كما فعل هذا عندما تكلم عن مدعي استحالة النبوة. ثم إن له سلسلة أخرى من ثماني مجلدات بعنوان من الدين إلى الثورة. ورغم ضخامة ما كتبه وأصّله لنقض الدين باسم الدين، فلم أجد من الاهتمام بالرد عليه وتفنيد آرائه الكفرية، كما هو موجه لغيره من المعاصرين له، ممن هم -في الحقيقة- أقل خطراً منه، إن لم يكن بعضهم صنيعة من صنائعه، وقد يكون مرجع هذا إلى أن حسن حنفي لم يختر لنفسه - أو لم يختر له صانعوه - أسلوب الدعاية والإعلان في وسائل الإعلام الجماهيرية، بل لجؤوا إلى أسلوب أمكر وأخطر إذ جعلوه يقوم بتأليف الكتب ليدرس فيها أباطيله وضلالاته، وبالتالي ليقوم بتنشئة جيل متحلل من الإسلام عقيدة وشريعة، وبثه في المجتمع، لينوب عنه في الإعلان والإظهار، واكتفى أيضاً ببعض المراكز التي تمكنه من توجيه فكر المجتمع، ولاسيما فكر المثقفين فيه، محبذاً الاختفاء والاستتار ما استطاع إلى هذا سبيلاً، إذ وجد فيه السبيل الأنجح لبث سمومه دون إعاقة حقيقية.

ومن أجل هذا كله فقد جَعَلْتُ مادة الرد الأولى والكبرى على ما كتبه هذا الجندي من جنود الكفر والضلال، ولأنه لا يوجد -على حسب علمي واطلاعي- في الوقت الحاضر -ممن لهم أسماء إسلامية- من تناول مسائل العقائد، مسألة فمسألة، إبطالاً وتحريفاً، لا مثيل له ولا نظير، بالشكل الذي تناوله هذا الشخص ، والتتبع الذي سار عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين(٣٠)﴾الأنفال.

لأقوامهم - على الحقيقة - إلا الانهيار الاجتماعي، والتفسخ الأخلاقي، والتحلل السلوكي، والانذار بالدمار.

ولكن بغض النظر عن مدى انحطاط الأحكام البشرية؛ فإن اعتقاد أن البشر لهم الحق في أن يشرعوا ويحللوا ويحرموا؛ هو اعتقاد يجعل صاحبه من المشركين الكافرين، إذ حق التشريع - كما سبق - خالص لله عز وجل، ولا يكون الإنسان مؤمناً بربه تعالى الإيمان الحق وبربوبيته وإلهيته إن لم يؤمن بوجوب تحكيم ما شرعه جل شأنه، ورفض ما عداه. قال الله تبارك اسمه:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾ التوبة.

وبالنسبة إلى اليهود والنصارى فإنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان إلا على معنى طاعتهم فيما حرموه أو أحلوه، مما يخالف شرع الله عز وجل المُنْزَل(١).

فالعلمانية (الدنيوية) ترفض الإقرار بوجوب تحكيم شريعة الإسلام، بل وتدعي أنه

---

(١) سبق بيان وجوب تحكيم شريعة الله تبارك اسمه، انظر: ٢٠٨-٢١٠. ثم إن من تناقضات العلمانيين (الدنيويين) الظاهرة أنهم -أو على أقل تقدير: معظمهم- لا يؤمنون بأن شريعة الإسلام منزلة من عند الله عز وجل، وهي -في زعمهم الكاذب- ليست أكثر من وضع بشري؛ وإذا جادلوا الدعاة إلى تحكيم شريعة الله جل ثناؤه؛ ثاروا عليهم بأن هذا حجر للعقل البشري، وجعله عاجزاً طالباً للعون، ويتبجحون بأنهم مناصرون للعقل البشري ويريدون أن يطلقوه من القيود الخارجية، فهو -في زعمهم- قادر على وضع التشريع المناسب للبشر، وليس هو بحاجة لأي عون!. ولكن أين هذا التقييد إذا كان العقل هو واضع التشريع في كلا الحالين كما يزعمون؟!. ولماذا لا يدعون النفاق ويبدون رأيهم صراحة حتى لا يقعوا في مثل هذه التناقضات التي لا يليق أن تصدر من عاقل. وبعد، وتنزلا مع العلمانيين في المناقشة ؛ أليست شريعة الإسلام قد نبعت من خلال حاجات البشر المحكومين بها؟. ألم تكن ملائمة لهم على مدى قرون طويلة، اختلفت فيها الظروف والأحوال كثيراً؟. ثم هي بدون شك قد وضعت دون وجود أية مؤثرات خارجية، قد لا تراعي إلا ظروف وأحوال أصحابها، وقد يقصد أصحاب تلك المؤثرات من الأحكام التي يصدرونها أن يبقوا الآخرين تحت سيطرتهم، وهذا هو الواقع فعلاً. إن أحكام الشريعة هي بدون شك -سواء أقر المعارض بمصدرها الرباني أم لم يقر- هي مطابقة لحال مجتمعاتها على أكمل وجه، ولا يشوبها أدنى شك في أن تكون مفروضة من عدو خارجي ليس له همّ إلا تثبيت سيطرته على بلاد المسلمين، وجعلهم تابعين له، أجراء يحققون له أكبر قدر من شهواته الخاصة، والظاهر أن العلمانيين (الدنيويين) يريدون أن يثبتوا دواما ولاءهم لسادتهم الحقيقيين!.
وبعد فإن أي متدبر لأحكام شريعة الإسلام تدبراً منصفاً وواعياً، فلا شك أنه سيدرك حقيقة كونها منزلة من العليم الخبير الحكيم جل شأنه، إذ هو لن يجد فيها إلا كل موافقة لجميع مستجدات الحياة، وكل ملاءمة لظروف البشر جميعاً على اختلاف أصنافهم، وهي إن تعارضت فلن تتعارض إلا مع الضلال العقدي والانحلال الخلقي والسلوكي، ومع أطماع الذين يريدون أن يزدادوا ثراء على الدوام، ولو كان هذا على حساب الفقراء والمستضعفين، ولو أدى هذا إلى إبادتهم، مع التظاهر بالتباكي عليهم، وستتعارض أيضاً مع أطماع كل من يريد أن يعتدي على غيره ظلماً وعدواناً. ولكن شريعة الله تبارك اسمه لن تعارض حتماً أي نشاط بشري نافع يهدي إلى خير الناس، إلا أنها قد تهذبه، لتنقيه من الشوائب التي تضر بالبشر ولا تجلب لهم نفعاً حقيقياً.

لا توجد أصلاً شريعة يجب تطبيقها، وأن حق التشريع حق بشري خالص، والإسلام على النقيض من ذلك لا يقبل إلا بالإقرار بتحكيم شرع الله المنزل، لأن التشريع حق خالص لله عز وجل، وإلا فإن من لم يقر بهذا فليس له من الإسلام نصيب، وليس هو من المسلمين في شيء.

فالإسلام والعلمانية (الدنيوية) نقيضان لا يجتمعان أبداً، ولهذا فإن كلاً منهما يرفض الآخر رفضاً قاطعاً، ويناصبه العداء دواماً، وإن تظاهر بعض العلمانيين بعدم صحة هذا التناقض، فإن تظاهرهم هذا مبني على ما أَصَّلوه من عدم وجوب تحكيم الشريعة، وهو تأصيل باطل. فالعلمانية خروج عن الإسلام بالكلية، وهو حكم يسري على من آمن بها وأدرك مرادها.

بعض خصائص أساليب العلمانيين في كتاباتهم حول القضايا الإسلامية ومناقشاتهم:

إن القارئ لكتابات العلمانيين (الدنيويين) -من حاملي الأسماء الإسلامية- حول القضايا الإسلامية ومناقشاتهم لخصومهم؛ يتبين له مباشرة ما فيها من مظاهر كثيرة تدل على مدى الانحراف الكبير عن منهج الحق والصواب، وعن الاتزان في مناقشة القضايا الفكرية، وأسباب هذا الانحراف ظاهرة، ومن أهمها:

أولاً: أنهم إنما يجادلون في أمر هو الحق من جميع الوجوه، لأنهم إما أن يناقشوا في مسألة تطبيق شريعة الإسلام جملة، أو في تطبيق حكم معلوم منها ضرورة، وكلا الأمرين لا مجال فيهما إلا للحق الصريح، أو الباطل الصريح، وقد اختاروا ألا يكونوا مع الحق، فلا شك أنهم سيضطرون إلى أشد وسائل الباطل انحطاطاً والتواءً، وهم يحاولون بهذا إطفاء الحق بأفواههم وكلماتهم، وجعل باطلهم هو الحق. ولكن الله سبحانه غالب على أمره.

ثانياً: أن الإسلام لم يتعرض إلى تحريف تضيع معه معالمه الأصلية، بخلاف حال النصرانية -على سبيل المثال- أو غيرها. ولهذا فإنه لا يوجد فيما يدعو إليه الإسلام حقاً ما يمكن أن يكون مطعناً لعدو، أو مغمزاً لمنافق.

ثالثاً: أنهم في قرارة أنفسهم يشعرون بأن جنايتهم على دينهم وأمتهم جناية مكشوفة أو شبه مكشوفة للكثير من المسلمين، وأنهم لا يخفى عليهم أسباب تمكن

العلمانيين، وظهور صوتهم على الساحة الإسلامية، ولهذا فإنهم غالباً ما يضطرون إلى التخبط، وإلى الدجل وانتحال الأكاذيب والافتراءات، وإلى الأساليب الملتوية، كل هذا لستر شيء من حقيقتهم الظاهرة، بل ومحاولة إلصاقها بخصومهم.

ومظاهر ذلك الانحراف في كتابات العلمانيين الدنيويين، يمكن استنباط العديد منها من خلال كتاباتهم، وهي في حقيقتها كثيرة، ولعل من أهمها -اختصاراً-:

١- اتباع أسلوب المغالطات وتحريف الحقائق.

٢- استخدام عبارات فضفاضة لها مدلول واسع النطاق، ليستطيعوا التهرب عندما يُضيق عليهم الخناق.

٣- اتهام خصومهم من أهل الحق، بالصفات المتأصلة في العلمانيين، منها سوء الطوية، وفساد المسلك.

٤- إساءة فهم كلام أهل الحق، وتحميل كلامهم ما لا يحتمل، والافتراء عليهم، دون بينة أو دليل.

٥- ادعاؤهم أموراً باطلة بأسلوب تقريري، وكأنها أحكام لا تقبل النقاش، ولا تحتاج إلى أي دليل، ويكفي أنهم هم الذين ادعوها.

٦- اعتمادهم -في كثير من الأحيان- على المصادر الثانوية، أو المصادر غير الأصلية، أو المتهمة والمشكوك في أمرها وأمر مؤلفها، وهذا لتأييد باطلهم.

٧- تمجيد الفلسفات الغربية الضالة، ونعتها بالألفاظ الفخمة، كتسميتها بفلسفة الأنوار ونحو هذا. وتمجيد أصحاب المذاهب والآراء الضالة من أهل الغرب، أو أجرائهم من المسلمين، وتسميتهم بالنورانيين أو العقلانيين، أو نحو هذا.

٨- الهجوم الكاسح على الدين وأهله، ولو بمجرد الألفاظ النابية، والسب والشتم، أو الكذب والافتراء.

٩- اعتمادهم -في كثير من الأحيان- على الألفاظ الفلسفية الأجنبية، إما لستر باطل، وإما لتعظيم صورة أصحابها الغربيين عند من لديهم عقدة نقص تجاه الغرب.

١٠- الافتراء على الأحداث التاريخية، وتزييف حقائقها، أو الاعتماد في شأنها على المصادر المشبوهة.

١١- رفض كثير من الحقائق الشرعية والدينية رفضاً مجرداً، والاكتفاء بمجرد حشد الألفاظ والافتراءات، كزعمهم عن بعض الحقائق أنها قد عفا عليها الزمن، وأصبحت لا قيمة لها، ولم تعد تلائم الحياة العصرية، أو أنها رجعية وتخلفية...، ولهم في هذا قاموس كبير من الكلمات، ولا تمر مدة إلا ويستحدثون تعبيرات كثيرة، يعتمدون فيها على التهويل والتفخيم الكاذب للألفاظ والاشتقاقات الغريبة!.

١٢- الهجوم على الجماهير المسلمة التي تختار الإسلام وتطبقه في حياتها، وتسفيه أحلامها.

١٣- تقربهم إلى أصحاب الديانات الأخرى، وجعلها مساوية للإسلام بل وتباكيهم على أوضاع غير المسلمين في ديار المسلمين، مع تشفيهم وسعادتهم بالشدائد التي تنزل على المسلمين حقاً، ونسبتها إلى تمسكهم بالإسلام.

١٤- عدم تمييز القضايا بعضها عن بعض، والحديث عن كل قضية بمفردها، بل كثيراً ما يخلطون القضايا بعضها ببعض، للوصول إلى تلبيس الحق بالباطل.

١٥- إعلان فريق منهم بأنه يجب الانفصال الكلي عن نقيضهم المخالف (المتمسكين بالإسلام)، وأنه لا واسطة معهم، وفي المقابل فإن الذين يطلقون مثل هذه العبارات يتظلمون ويتشكون من تكفير أهل الحق لمن يستحق هذا منهم.

١٦- تسميتهم ما يقومون به من محاربة شعائر الإسلام ومحاربة أهله: حرية رأي، وأما دفاع أهل الحق عن حقهم فهو حَجْرٌ على الرأي وجمود وتخلف ورجعية!!.

١٧- تناقضاتهم الفكرية العديدة التي يقعون فيها أثناء تخبطهم في الرد على أهل الحق.

١٨- تعظيم الإنسان والطبيعة والعقل البشري والقدرات الإنسانية تعظيماً هائلاً، إلى درجة تأليهها، وإن لم يقولوا هذا صراحة.

١٩- تصريحهم برفض كثير من حقائق العقيدة الإسلامية، مهما كانت أدلتها العقلية ظاهرة بينة، أو كانت أدلتها النصية ثابتة قاطعة الدلالة، وقد انتشر مثل هذا الأمر عند العلمانيين المتأخرين، وفاق ما كان عند سابقيهم، وقد وصل الحال ببعضهم إلى أن ادعى في حق بعض حقائق العقيدة أنها أسطورية يجب تأويلها، ولا يجوز التمسك بحرفيتها!، كتصور الرب سبحانه والعقاب ومشاهد القيامة!، فهل يوجد كفر بعد هذا أشد من هذا الكفر؟!.

٢٠- الهجوم على علماء المسلمين الأقدمين واعتبارهم سبب التخلف. فلم يكتفوا بإغضاء النظر عن جهودهم العظمى، التي أقر بها كثير من الأعداء، وهي لا تخفى

إلا على من أعمى الله سبحانه بصره وبصيرته، بل تجاوز كثير منهم الحد إلى اعتبار أولئك العلماء نقمة على الأمة، وأن حالهم كحال رجال الكهنوت، والإنسان إذا وصل إلى مثل هذا الحد يكون قد بلغ إلى دركات قاصية من الجحود والنكران، وهو يدل على مدى الحقد الدفين في نفوس أولئك العلمانيين وقلوبهم على علماء المسلمين.

٢١- الافتراء على لغة القرآن الكريم، كادّعاء أنها لغة قديمة، قد تجاوزها الواقع، ولا يمكن تحكيمها، كما هو الحال في شأن الربا.

أو ادعاء أنها لغة تاريخية كانت تصف واقعاً أكثر مما تضع تشريعات. وغير ذلك من افتراءات يعجب المتفكر من صدورها عن عاقل، فضلاً عن من يدعي بلوغ درجات العلم الرفيعة!.

٢٢- الحديث عن أعظم المقدسات الإسلامية بعبارات تُهوِّن من شأنها، وتجعل هذه المقدسات مثل غيرها من أنواع التراث، ومثل هذه العبارات تؤدي بصاحبها إلى الكفر. كالتحدث عن القرآن الكريم بأنه منتج ثقافي، أو بأنه قد صيغ (!) منذ خمسة عشر قرناً، فكيف تُحكِّمُه في كل ما يستجد. وبأن ما جاء فيه قد تأثر بما كان موجوداً في البيئة الثقافية. وبأن الحدث عما في القرآن الكريم من إعجاز علمي يهدر كونه نصاً دينياً لا علمياً. وأن فيه نصوصاً إيحائية شعرية خيالية!، وغير ذلك من كفريات لا تحصى!.

٢٣- تمجيد الفرق الضالة -بل والخارجة عن الإسلام كلية- القديمة، واعتبارها حركات تجديدية وتحريرية كالباطنية، وكذا إعادة إحياء وتمجيد الآراء والأفكار الضالة كالقول بخلق القرآن.

٢٤- اختراع مفاهيم تلصق بالدين، ثم استخدامها لإبطال حقائقه، كزعم أن الذين يقولون بوجود حقائق يقينية واضحة في الدين؛ يدعون أن فهمهم مطابق للقصد الإلهي!، للوصول إلى إبطال أية حقيقة في الدين، مع التغافل عن أن الرسالة الربانية ما أنزلت أصلاً إلا لهداية البشر، وإفهامهم المراد إفهاماً كافياً، وهو ما أوضحته نصوص الرسالة إيضاحاً بيناً.

٢٥- توسيع دلالات بعض النصوص لتدل على باطلهم، وتضييق دلالات نصوص أخرى لا تحصى؛ تدل على فساد ما ذهبوا إليه وأن الحق بخلافه، فيضيقون دلالاتها لئلا تنقض عليهم باطلهم الذي يؤصلونه بالكذب والبهتان.

٢٦- المطالبة بالتبعية للغرب في جميع شؤون الحياة، ورفض الاستفادة منهم فيما وصلوا إليه من العلوم الكونية النافعة، مع تجنب ضلالاتهم في الأمور الفلسفية والاجتماعية والنفسية والتشريعية، إذ يزعم العلمانيون أن كلا الأمرين مرتبطان لا ينفكان.

٢٧- التشويه المتعمد للتاريخ الفكري الإسلامي، كالادعاء الكاذب أن التراث الفكري الديني لا يعتمد على العقل والفكر، وإنما على الوجدان فقط.

٢٨- التشويه الكاذب المتعمد للحركات الإسلامية الإصلاحية، كادعّاء أنها تقف مع اللامعقول وتعيد إنتاجه.

٢٩- الإساءة المتعمدة لمقام الرب جل جلاله عند الحديث عنه، إما تصريحاً، وإما بحيل وأساليب ماكره، ولاسيما عندما يرفضون ما دلت عليه النصوص بالنسبة إلى العلاقة بين الخالق الرب جل جلاله، والعبد المخلوق المربوب.

ويدخل في هذا أيضاً الإساءة إلى مقام الأنبياء عليهم السلام، كما يظهر هذا عند كلامهم عن العلاقة بين الرسول عليه الصلاة والسلام والمرسل إليهم.

٣٠- التستر وراء بعض العبارات المقبولة كلفظة التجديد، لتبرير ما يدعون إليه من ضلالات وزيوف، بدعوى أنها تجديد في الدين!.

٣١- تأويل النصوص الشرعية تأويلاً باطلاً لا يقره عقل ولا شرع ولا تقره اللغة، لتدل هذه التأويلات على باطلهم.

٣٢- جهل كثير منهم بحقائق شرعية وتاريخية لا ينبغي أن يجهلها من يتصدى للتجديد والثورة!، كحديث بعضهم عن الإمام محمد بن جرير الطبري، وأنه كان صاحب التاريخ المشهور: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)[١]!!.

٣٣- تعطيل مصدري الرسالة الخاتمة الثابتين، إما بتعطيل مدلولات النصوص، من خلال حيل متعددة، وإما بادعاء استحالة تحكيمها، بزعم أن النصوص المنزلة تنطق بالدلالة ونقيضها.

ومن هذا الهجوم الكبير على السنة إما بإبطالها من أساسها، وإما بإبطال نصوصها الصحيحة دونما دليل حقيقي، وإما بادعاء أنها لم تكن مصدراً للتشريع في العصر الأول!، وإنما أصبحت مصدراً للتشريع بعد ذلك!، وغير هذا مما فيه افتراء على السنة والتاريخ والنصوص الشرعية، القرآنية والنبوية.

---

(١) وعند مجابهتهم بمثل هذه المضحكات، فإنهم يرفضون الاعتراف بالخطأ، ويصرون بوقاحة على أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد خطأ طباعي!. انظر: النص، السلطة، الحقيقة؛ نصر أبو زيد: ٧٧. وانظر: الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية؛ له: ٣٧، حول تبريره لأحد أخطائه التاريخية الفاحشة.

٣٤- إنكار وجود ثوابت إسلامية، وادعاء أن ما يظنه المسلمون من ثوابت فهو في حقيقته -بزعمهم- آراء جمعت من هنا وهناك ثم فرضت بقوة السلطة!. وفي هذا تمهيد لإنكار الدين من أصله.

٣٥- الافتراء الواسع على اللغة العربية، بغية الوصول إلى تدميرها، ومن ثم إبطال النصوص القائمة عليها.

٣٦- التركيز على دعوى التصادم بين الحقائق الشرعية المنزلة، وبين الحقائق التي يتوصل إليها البشر، للتشكيك في الدين جملة.

٣٧- محاولة ستر كل حقيقة تؤيد صحة ما جاء من عند الله عز وجل، أو تشويهها، ومن هذا أساليبهم في إبطال أنواع الإعجاز التي بهرت عقول المؤمنين وغير المؤمنين.

٣٨- تصيد أخطاء بعض المسلمين في التاريخ الإسلامي وتضخيمها وتسليط الأضواء عليها، وجعلها هي الأساس، لتشويه التاريخ، وجعل المسلمين كغيرهم من الفَسَقَة والفجرة، وطمس الحقائق التاريخية الكبرى الناصعة.

٣٩- قلب الحقائق وتشويهها، وعلى سبيل المثال: فإن مما أثبتته حقائق التاريخ أن إيمان المسلمين بربهم عز وجل الإيمان الصحيح، وخضوعهم له وحده، واعترافهم بذلك وتطبيقهم لمقتضاه في حياتهم؛ قد كان هو سبب عزتهم ونصرتهم على عدوهم، وأنهم عندما ابتعدوا عن ذلك الإيمان أصابهم الذل والهوان. لكن العلمانيين الدنيويين لا يكتفون بإنكار هذه الحقيقة، بل يقلبون الحق ويدعون بكل وقاحة أن تلك العقيدة كانت هي السبب في خنوع المسلمين وخضوعهم لعدوهم!.

القسم الأول:

مقالات افترائية علمانية، تتضمن شبهات حول مواضيع في النبوة متعددة، والرد عليها.

ويشتمل على:

الفصل الأول : المقالة الافترائية الأولى، وبيان ما فيها من أباطيل ومغالطات. (وهي تدور حول مناقشة (العلماني) لمن قالوا بوجوب النبوة، وما دسه من افتراءات وأباطيل تتناول كثيراً من قضايا النبوة.

الفصل الثاني: المقالة الافترائية الثانية، وبيان ما فيها من أباطيل ومغالطات. (وهي تدور حول تظاهر (العلماني) بمناقشته لمن ادعوا استحالة النبوة، وما دسه من افتراءات وأباطيل متنوعة).

الفصل الثالث: المقالة الافترائية الثالثة، وبيان ما فيها من أباطيل ومغالطات (وهي تدور حول تظاهر (العلماني) بادعاء إمكان النبوة، وما افتراه من زيوف تبطل النبوة وحقائقها).

الفصل الأول

المقالة الافترائية الأولى وبيان ما فيها من أباطيل ومغالطات

(وهي تدور حول مناقشة (العلماني) لمن قالوا بوجوب النبوة، وما دسه من افتراءات وأباطيل تتناول كثيراً من قضايا النبوة).

مقدمة : حول ذكر المقالة الافترائية.

في أثناء مناقشة لأصحاب القول بوجوب النبوة عقلاً، بناء على ما ذهب إليه المعتزلة، قال (العلماني):

(وتكون الصعوبة حينئذ في كيفية الجمع بين الحسن والقبح العقليين، وقدرة العقل على إدراكهما كصفات موضوعية في الأفعال، وفي نفس الوقت احتياجه إلى النبوة كَعْونٍ له على التكاليف، فمادامت التكاليف واجبةً عقلاً فإنّها لا تحتاج إلى وجوب ثان بالنبوة.

وإذا كان التكليف عقليّاً، واستحقاق الثواب والعقاب عقليّاً، والتنبيه والتحذير تأكيداً لما في العقول، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد الأصول العقلية الخمسة، فكيف تجب النبوة بناء على هذا الوجوب الْعَقْلي المكتفي بذاتِه، وإلاّ كان الوجوب وجوبين: وجوباً عقلياً ضرورياً، ووجوباً شرعياً إضافياً زائداً لا حكم له؟!.

وإذا كانت الحياة امتحاناً واختباراً، وجهداً ومعاناة؛ فإن ذلك إنّما هو نتاج لممارسة الحرية، وهي من العقليات، وليست من السمعيات كالنبوّة.

ليست النبوة إذن من الواجبات العقليةّ إلا بناءً على الصلاح واللُّطُفِ باعتبارهما واجبين عقليين. فإذا ما حكم العقل إنَّ النبوة بها صَلاحَ العِبادِ ولُطْفٌ من الله بهم تكون واجبة على هذا الأساس، كحكم عقلي بالصلاح واللطف، وليست كحاجةٍ وعْونٍ ومَدِدٍ نتيجة لقصور العقل وحَاجَتِهِ إلَى وِصَايَةَ أو هِدَايَة. وما العمل لو حَكَمَ العَقْل باستغنائه عما سواه وبقدرته على معرفة الصلاح والأصْلحِ دونما حاجة إلى نبوة؟).

ثم ينتقد صاحب هذه المقالة من زعم أنهم يحاولون تبرير وجوب النبوة بهدم العقل والعلم والاجتماع والسياسة، أي هدم أسس الدين ذاته، فقال: (فهل تجب النبوة لأنها تعطي مجموعة من المعارف النظرية التي لا يستطيع العقل الوصول إليها؟، هل تعطي معرفة الصانع وصفاته؟، والعقلُ قادِرُ على الوصول إليها بإجماع نظار الأمة متكلمين وحكماء؟، هل حاجة البشر إلى الرسالة هي حاجتهم إلى معرفة الغيبيات، وفي مقدمتها حياة النفس بعد مفارقتها البدن، وقد أجمع الحكماء على إثباتها بالعقل؟. ولم تمنع النبوة في كل دين ولدى كل ملّة من منع فريق من إنكار خلود النفس ووجود حياة أخرى بعد الموت.

إن التوحيد كله يمكن إدراكه بالعقل بما في ذلك الصفات السمعية..، وكيف تكون النبوة طريق العلم بالتوحيد؛ والسمعيات لا تؤدي إلى العقليات؟، فالسمعيات ظن والعقليات يقين، على ما هو معروف في نظرية العلم في المقدمات النظرية الأولى. والصفات كلها مُثُلُ الإنسان، الإنسان الكامل، وليس الإنسان المتعين. الإنسان كما ينبغي أن يكون، وليس الإنسان كما هو كائن. وفيم

الحسن والقبح العقليان؟، أليست هناك معارف عقلية، حسن عقلي وقبح عقلي؟، فالتوحيد حسن عقلي، والشرك قبح عقلي. وإذا خاف الإنسان الخطأ النظري وقع في التردد والشك وفي الظن والجهل، أي في كل مضادات العلم، فإن العقل قادر على بث الطمأنينة فيه، وتحويل التردد والشك إلى قطع والظن إلى يقين والعلم إلى جهل[١]).

(وإذا كانت الحاجة إلى النبوة هي أنها تشير على العقل بطرق الاستدلال، أليس العقل قادراً على ذلك، وهو واضع منطق البرهان؟، وهل النبوة منطق صوري أم منهاج عملي للناس؟، وهل تعطي النبوة هذا المنطق الاستدلالي عن طريق النص أم أنها في حاجة إلى العقل لاستخراج هذا المنطق، وبالتالي يكون من عمل العقل في النبوة وليس من عمل النبوة وحدها؟. فإذا ما اكتفت النبوة في منطق الاستدلال بالنص وحده فإنه يظل ظنياً لاعتماده على النص، ولا يتحول إلى يقين إلا بالعقل على ما هو معروف في باب الأدلة في نظرية العلم في المقدمات النظرية الأولى.

إن العقل قادر على صياغة منطق للبرهان، يقوم على أوليّات العقل وبداهات الحِس وشهادة الوجدان، كما أنه قادر على وضع نظرية في الصدق يمكن بها التحقق من صحة نتائجه وصدق براهينه، في حين يظل البرهان على صدق النبوة خارجياً محضا إذا كان هو المعجزة، أو ذاتياً خالصاً إذا كان مجرد الإيمان).

ثم يتحدث عن الحركة الإصلاحية الحديثة -دون تحديد- ويزعم أنها ما تزال تجد في الوحي أنه فقط نظرية في النبوة، يعني: الوحي الرأسي، مصدر المعارف النظرية. في حين أن الوحي هو كذلك -كما يزعم- نظرية في التاريخ: أي الوحي الأفقي، مصدر التشريع العملي والأساس النظري للعمل الفردي والجماعي. ولذلك فإن نظرية النبوة -كوحي رأسي-، في الحركة الإصلاحية الحديثة؛ تحولت إلى نظرية إشراقية صوفية، وتحول النبي من منظر وقائد إلى صوفي وولي.

ويعود إلى الحديث عن العقل، وأن تفاوت العقول في إدراكها لا يعني نقصاً فيها وإنما خطأ في استعمالها، ولكن بمنطق البرهان وبنظرية الصدق وبالمراجعة والاستدلال المشترك يمكن تجاوز اختلاف العقول والوصول إلى الاتفاق بينها، واتفاق العقلاء أولى من اختلافهم، وبداهات العقول وأولياتها واحدة، عامة وشاملة، لا اختلاف عليها بين العقلاء.

ثم ذكر أن النبوة لا أسرار فيها ولا غموض بل أفكار واضحة تدرك بالعقل السليم، ويُتحقق من صدقها بالبرهان، ثم رد على من اعتبر أن من فوائد النبوة إفادتها للعلوم التجريبية، وبعض مما يتعلق بالعلوم الكونية، ذاكراً أن تلك العلوم علومٌ إنسانية يصل إليها الإنسان بالتجربة والتعلم. ومما قاله: (والمعروف تاريخياً أن العلوم النبوية كانت أقرب إلى العلوم الإشراقية الصوفية منها إلى العلوم العقلية التجريبية).

---

(١) هكذا هي ولعلها خطأ مطبعي أو سبق قلم.ولكنه وافق واقع عقل صاحب هذا الكلام. والصواب: والجهل إلى علم.

ثم يأتي إلى إحدى الفوائد التي يذكرها المؤمنون بالنبوة وهي أنها تأتي بسنّ القوانين وتأسيس الشرائع وإقامة الدولة أو تجنيد الجماهير وتوجيه الأمم وفتح البلدان، باعتبار أن الإنسان غير قادر على هذا، ويعترض على ذلك:

بأن العقل قادر على قيادة المجتمعات مثل قيادة الإمام لها، وأن هناك العقل الاجتماعي والسياسي والتاريخي لوضع القوانين وسن الشرائع ، والنبوة وإن كان فيها تشريع ، ولكنه عبارة عن توجيهات عامة في حاجة إلى تفصيلات ، واستنتاجات من العقل وواقع المجتمع وحوادث التاريخ، وكذلك في النبوة بعض التوجيهات الخلقية والإرشادات العملية، ولكن الدعوة إلى المحبة والتعاون –مثلاً– لا يكفي أن يكون أساساً لتكوين المجتمع الإنساني. قال (وهل النبوة في نهاية الأمر نظرية في التأليف الاجتماعي، أم في الصراع الاجتماعي؟، وهل وظيفة النبوة حل الصراع الاجتماعي أم حسمه، إن المجتمع في حاجة لفهم تركيبه وقوانين حركته وصراعه، أكثر من حاجته إلى المحبة والعدل والمبادئ العامة والقيم النظرية). ثم ما ورد في النبوة من الحاجة إلى التعاون وتأسيس المجتمعات وإقامة الدول؛ يكشف عن الأساس الاجتماعي للوحي والبعد الأفقي فيه، كما تكشف المعارف النظرية عن البعد الرأسي فيه، ولكن لا يعني ذلك قصور الإنسان عن إدراك الحقائق الاجتماعية، وعجزه عن توجيه الأمور العملية، وتأسيس الدول وتدبير الملك. فعلوم السياسة والاجتماع والقانون والتاريخ هي كذلك من وضع الإنسان، كسائر العلوم العقلية والتجريبية. ولماذا هدم القوانين الإنسانية وتبيين مفاسدها وعيوبها من أجل إثبات وجوب الشرائع النبوية؟. فهل النبوة لا تثبت إلا على أنقاض البشرية؟. وتغير القوانين البشرية ليس عيباً فيها بل تطور واجتهاد، كما هو الحال في الفقه، وكذلك: فإن اختلاف الطبائع والشعوب وارد في القوانين البشرية والشرائع الإلهية على حد سواء.

ثم إن هذا التضارب بين القانون البشري والقانون السماوي هو أساس الثنائية في وجداننا المعاصر، وأحد أسباب مصائب عصرنا في الصراع بين الاتجاه العلماني والحركة السلفية.

ووظيفة الرسل في قيادة الأمم هي نفسها وظيفة القادة والأبطال، ولم تخل البشرية من كليهما معاً دون أن يكون أحد الفريقين بديلاً عن الآخر أو سبباً لإيجاده.

ولكن يلاحظ أن رئاسة الأنبياء تقوم على تصور هرمي للعالم، النبي في القمة والناس في القاعدة، وبينهما الوزراء والقواد والعمال، فالنبوة عند القدماء نظام رئاسي هرمي بالضرورة، وذلك طبقاً لنظرية الفيض وترتيب العقول، وكما هو واضح في المدينة الفاضلة، فعلاقة النبي بالناس علاقة الرئيس بالمرؤوس، علاقة القمة بالقاعدة، وكأنّ سلطة النبي سلطة مركزية قاهرة ومسيطرة، وكأنّ السلطان لا يكون إلا أعلى عليين والناس أسفل سافلين!.

هكذا يستمر في مزاعمه لنقض فوائد بعثة الرسل عليهم السلام، التي منها: العبادات، التي لا يستطيع العقل أو الوجدان الوصول إليها. ويتساءل: ولماذا تكون العبادات ضد العقل والطبيعة

ومفروضة عليهما، دون أن تكون تعبيراً عنهما. وينقل قول بعض الأقدمين: إن العقل عادة، والشرع عبادة، والعادة لا تكون عبادة[1]. ويردّ بأن وضع العقل في مقابل العبادة يجعل العبادة: لا عقلية، غير مفهومة وغير معللة بحكمة، مع أن العلة أساس التشريع يمكن إدراكها بالعقل والتجريب، ولا توجد عبادة واحدة، وكل ملة تعبد بشرائعها، وترى فيها أنسب تعبير عن إيمانها وعقائدها. وإذا كان العمل عبادة؛ فإن العقل قادر على أن يصل إليه، دون أشكال ورموز وصور، لا تعبر عن جوهر الإيمان وقصد العقيدة.

إن النبوة لا يمكن أن تثبت كضرورة نظرية وعملية على حساب العقل، بهدمه. وعلى حساب إرادة الإنسان، بإعلان عجزه. ولا يمكنها الاستغناء عن القدرات البشرية وعلومها وصناعاتها وسياساتها وشرائعها.

وإذا كان الوحي لا يستغني عن العقل لفهمه واستنباطه؛ فإن كل ما يمكن التوجه به ضد العقل الإنساني والقدرة البشرية يمكن التوجه به أيضاً إلى تفسير النبوة وتأويل الوحي. فيقال إن ذلك التفسير والتأويل تتدخل فيه الأهواء الفردية والمصالح الاجتماعية المتضاربة حين التطبيق، وبالتالي يقضي ذلك على حسن تلك الشرائع النبوية، ولا يسلم الإيمان من التعصب والجهل. (إن الشهوة والغفلة والنسيان وكل مظاهر النقص الإنساني تعم العقل، سواء عمل بمفرده، أم فسر النبوة وأوّل الوحي). ولم تستطع النبوة أن تخفف من نقائص الإنسان وهي أول من يعترف بها.

وإذا قيل إن من فوائد البعثة: بيان أمور المعاد، فإن العقل قادر على أن يصل إليها، كما توصلت مجتمعات بأكملها إلى خلود النفس دون نبوة. وكذلك فالعقل قادر على أن يصل بمفرده إلى قانون الاستحقاق، وأن الجزاء على قدر الأعمال، عقاباً وثواباً، فلا يوجد فعل إلا وله أثر، (ولا يوجد أثر إلا في العالم سواء كان في الحال أو في المآل، مباشراً أو غير مباشر).

فالوحي لا يثبت عن طريق قهر الإنسان وإحساسه بالضآلة والعجز أمام قوة عظمى تعرف أفضل منه وتقدر على ما لا يقدر عليه. وهل استطاعت النبوة أن تمنع الإنسان من أن يُعْمِلَ عقله أويمارس حريته، أو أن تجعله أكثر عقلانية وأعظم قدرة؟!. والنبوة لم تمنع الإنسان من إنكار وجود الله أو إنكار النبوة أو إنكار الشرائع..، أو إهمال التطبيق،كما هو الحال الآن، أو إسقاط فاعلية الجانب الأخروي، أو نشوب القتال والفتن.

إن العقل ليس بحاجة إلى عون، وليس هناك ما يندّ عنه، فهو يحسّنُ ويقبّح، ويقدر أن يدرك الحسن والقبح في الأشياء، كما أن الحس قادر على الإدراك والمشاهدة والتجريب. ولا طريق للصانع إلا العقل والحس..، والأخلاق يمكن معرفتها بالفطرة. والاستحقاق واجب عقلي. وكمال

---

(١) هو الرازي في المحصل ١٥٧. كما نقل هو عنه ذلك. وعبارة الرازي: إن الذي يفعله الإنسان بمقتضى عقله يكون كفعل المعتاد، والعادة لا تكون عبادة. وهناك فرق بين هذه العبارة، وبين المذكور أعلاه.

النفس بـالنظر والعمـل. وذلـك هـو موقـف الفقهـاء، دون مزايـدة في الإيمـان، أو هـدم للمعرفـة الإنسانيـة[1]. اهـ.

إن من يؤمن أو يقر بأمر ويـجد من تناوله أو تناول بعض ما يتعلق بشـأنه تنـاولاً خاطئـاً – ولو حسب نظره– فإنه ينبغي لـه إذا أراد الـرد علـى الـرأي المخـالف أن يحدد الجـانب الـذي يـراه خاطئاً، ويخص كلامه في الرد عليه، ويبين ما يراه صحيحاً مِنْ قولٍ يكون وسـطا عـدلاً كمـا يـراه، دون طغيان في الرد ولا اعتداء، وهذا ما يفرضه المنهج العلمي السليم. وأما أن يطغـى في رده علـى المخالف إلى الحد الذي ينسف ما يدعي إيمانه به؛ فهذا مما لا يقبله أحد ممن يريد الحق، ويكون صادقاً مع نفسه والآخرين فيما يدعيه.

وصاحب الكلام السابق –المليء بالأغاليط والشبهات– لا يعلن أنـه منكـر للنبـوة بـل هـو على حسب دعواه مثبت لها، وله استدلاله على ذلك، سيأتي بإذن الله الكلام عنـه[2]، وأيضـا فإنـه ذكر للنبوة بعض الأدوار التي قد تؤديها[3]، وهي عبارة عن ذكر لبعض الحِكَم بعـد تخفيـف أثـر مـا دلت عليه من فوائد إلى أقصى حد أمكنه. ولكنه إذ ذهب إلى القول بعدم وجـوب حصـول النبـوة؛ فإنه عند رده على من قـال بوجوبها طغى وعمم رده ليشـمل جميع الحِكَم المستنبطة لبعثة الرسل والأنبياء عليهم السلام، بحيث لم يثبت أية فائدة لهذا الركن الإيماني، الذي لا يكـون المرء مـن أهـل ملة الإسلام إن لم يكن مؤمناً به إيماناً صحيحاً ثابتاً. فذلك الطغيان في الرد لا يتفق مطلقاً مع دعـوى الإيمان بهذا الركن، ولا مع المنهج العلمي السليم في الرد على القول الـذي يُظن أن فيـه شيئاً مـن الغلط.

إن أحداً لا يُقبل منه أن يأتي إلى علم من العلوم المعتبرة إنسانية كانت أو كونية فيجـد عنـد بعض من تناولها شيئاً من الأغاليط، فيردَّ عليها، ويتجـاوز الحـد في رده إلى أن يشـمل إبطـال فوائـد ذلك العلم لدرجة لا يصبح معها له أيةّ قيمة.

إن المقالة السابقة هدفها الأساسي هو إبطال القـول بوجـوب النبـوة، ولكـن صـاحب هـذه المقـالة قد تجاوز حدود هذا الهدف، وصار يثير الشبهات. ويطلق الأباطيل والأكاذيب، للوصـول إلى هدفه الحقيقي، الذي تبين من خلال مناقشاته وافتراءاته؛ ألا وهو: إبطـال النبوة أصلاً. ولهذا فإن مـا أورده ذلك المفتري في مقالته السـابقة قد تنـاول موضوعـات متعـددة في النبـوة، فمنهـا: مـا يتعلـق بأصل النبوة، ومنها: ما يتعلق بحِكَمها وفوائدها، ومنها ما يتعلق بالوحي، ومنها مـا يتعلـق بمضـامين النبوة، وغير ذلك من المواضيع التي وردت في الفصول السابقة.

---

(١) انظر: النبوة؛ حنفي: ٢٨– ٣٨.

(٢) انظر: ما سيأتي: ٥٢١، هـ: (١). عند الكلام عن استدلال: حسن حنفي على إمكان النبوة. وانظر: النبـوة: ٥٧–٦٤.

(٣) انظر: النبوة: ص: ٦٢–٦٤.

وللرد التفصيلي على ما في المقالة السابقة من شبهات وأباطيل فإنه لا بدّ من تقسيم افتراءاته، والرد عليها من خلال قضايا تفصيلية، بلغت لدى التحليل: (ثلاثاً وثلاثين قضية)، أذكرها أولاً بصورة إجمالية، ثم أتابع بيانها والرد عليها واحدة فواحدة بالتفصيل.

وفيما يلي بيان هذه القضايا بصورة إجمالية:

القضية الأولى:

زعمه أن العقل الإنساني كافٍ في الوصول إلى جميع الحقائق التي تأتي بها النبوة.

القضية الثانية:

اتكاؤه على مقالة المعتزلة إذ يرون وجوب النبوة عقلاً، لينسِفَ قضية الحاجة إلى النبوة بصفة عامة.

القضية الثالثة:

تمجيده حرية الإنسان تمجيداً عظيماً، بغية التوصل إلى الإقناع بعدم حاجة البشرية إلى النبوات.

القضية الرابعة:

زعمه أن ما ذكره المعتزلة من وجوب النبوات عقلاً مبني على الصلاح واللطف، وهذا مشروط بأن يحكم العقل بأن النبوة فيها صلاح ولطف، واتخذ ذلك ذريعة لإنكار حاجة البشر إلى النبوات، وأنهم مستغنون عنها بالعقل.

القضية الخامسة:

زعمه أن الذين يبينون حاجة البشر إلى الرسالة الربانية يهدمون العقل والعلم والاجتماع والسياسة.

القضية السادسة:

زعمه أن تفصيل العقائد التي لا يستطيع العقل الوصول إليها، إنما هي معارف نظرية، ولا حاجة إلى النبوة من أجلها، متجاهلاً أن قاعدة الدين الأولى إيمان بحقائق غيبية عقلية نظرية، ذوات تأثيرات في السلوك الإنساني.

القضية السابعة:

محاولته التزييفية ببيان أن النبوة لم تمنع وجود من ينكر حقائق الدين في الواقع البشري، وموهماً أن الغاية من النبوات -عند من يؤمن بها- تحويل الناس إلى مؤمنين، ومتعامياً عن أن القوانين الوضعية البشرية كلها لم تمنع وجود مجرمين يخالفونها ويجحدونها.

القضية الثامنة:

إتخاذه فكرة إمكان إدراك التوحيد بالعقل للإيهام بعدم حاجة البشر إلى النبوات.

القضية التاسعة:

ادعاؤه أن أدلة النبوات أدلة سمعية فقط لا تعتمد على العقل، ليتذرع به إلى الإيهام بأن البشر لا يحتاجون إلى النبوة وتعليماتها المنزلات من رب العالمين، باعتبار أن أدلتها ظنية لا قطعية فيما زعم.

القضية العاشرة:

زعمه أن الصفات الربانية ليست في حقيقتها إلا مُثُلاً للإنسان الكامل، للإيهام بأن العقل البشري اخترعها من عنده ونسبها إلى الله تعالى، وهو يتمنى أن تكون له، ليصل بهذا إلى إبطال فائدة النبوة في إثبات الصفات الربانية. بل وللوصول إلى الإلحاد الكامل بالله سبحانه.

القضية الحادية عشر:

زعمه أن معرفة العقل البشري للحسن والقبيح كاف لحياته، فهو لا يحتاج إلى النبوات ولا إلى تعليمات ينزلها الله تعالى ليعمل بها عباده الذين وضعهم في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

القضية الثانية عشرة:

ادعاؤه أن العقل قادر على بث الطمأنينة في الإنسان، وتحويل ما قد يقع فيه من التردد والشك والظن والجهل إلى قطع ويقين وعلم.

القضية الثالثة عشرة:

محاولته إبطال إحدى فوائد النبوة الثابتة؛ إذ تجمع أدلتها بين كونها شرعية من عند الله تبارك اسمه، وكونها عقلية تدل على الحق الذي يجب على الإنسان أن يؤمن به، ويعمل بمقتضاه.

القضية الرابعة عشرة:

محاولته الهزيلة لإبطال فائدة النبوة في إثبات العقائد، بادعاء أن النبوة إنما جاءت بمنهاج عملي للناس، لا لإثبات حقائق اعتقادية.

القضية الخامسة عشرة:

إيهامه بأن النبوة تحتاج إلى العقل لاستنباط الأحكام، ومن ثم فالعقل يكفي عن النبوة.

القضية السادسة عشرة:

ادعاؤه أن النبوة لا تعمل وحدها دون العقل، ذريعة لتمجيد العقل، وادعاء الاستغناء به عن النبوات.

القضية السابعة عشرة:

زعمه أن العقل هو الذي يحوّل أدلة النبوة إلى يقين.

القضية الثامنة عشرة:

ما ذكره من أن العقل قادر على صياغة منطق للبرهان، للإيهام التمويهي بعدم الحاجة إلى النبوات.

القضية التاسعة عشرة:

محاولته جعل برهان النبوة منحصراً بين المعجزات والمشاعر الوجدانية للمؤمنين بالنبوة.

القضية العشرون:

مزاعمه عن الحركة الإصلاحية الحديثة القائمة على التعميمات، والتمويهات الغامضات.

القضية الحادية والعشرون:

ادعاؤه أن الأخطاء التي تقع فيها العقول ترجع إلى الخطأ في استعمالها، لا إلى نقص في ذاتها.

القضية الثانية والعشرون:

إيهامه بأن ما جاء في النبوات من بيانات تتعلق: ببعض العلوم التجريبيه أو الكونية ؛ لا لزوم لها، لأن الإنسان قادر على دراسة الكون ومعرفة سننه، وتعاميه عن أنها بمثابة أدلة على صدق البيانات الدينية، إذ أنزلت في زمن لم تكن البشرية تعرف عنها شيئاً.

القضية الثالثة والعشرون:

زعمه بأن العلوم النبوية أقرب إلى العلوم الإشراقية الصوفيه منها إلى العلوم العقلية والتجريبية.

القضية الرابعة والعشرون:

مزاعمه حول ما أسماهُ (الوحي الأفقي). فقد ادعى أنه: (مصدر التشريع العملي، والأساس النظري للعمل الفردي والجماعي).

القضية الخامسة والعشرون:

زعمه أن العقل قادر على وضع القوانين، وسنّ الشرائع.

القضية السادسة والعشرون:

اتخاذه أسلوب التساؤلات التهكمية والاستنكارية عن النبوة، محاولاً بها الاستهانة بالتشريعات الربانية والتقليل من أهميتها.

القضية السابعة والعشرون:

ما ذكره من أن البشر هم الذين وضعوا علوم السياسة والاجتماع والقانون والتاريخ، وأنهم قادرون على تأسيس السياسة وتدبير الملك، فلا حاجة إلى النبوات.

القضية الثامنة والعشرون:

دفاعه عن القوانين البشرية الوضعية وأن التغيير فيها يشبه التغيير في الاجتهاد الحاصل في الفقه الشرعي.

القضية التاسعة والعشرون:

إعلان حزنه على البلاد الإسلامية إذ لم تحلّ القوانين الوضعية البشرية محل أحكام الشريعة الإسلامية الربانية.

القضية الثلاثون:

ادعاؤه أن العقل يقود الأمة كالإمام؛ وكأن الإمام في الإسلام لا يشترط لإمامته العقل!.

القضية الحادية والثلاثون:

انتقاصه قدر الأنبياء عليهم السلام في قيادتهم للأمم، واستهانته بهم وبإدارتهم، إذ جعلها لا تختلف عن قيادة غيرهم، بل ربما تكون قيادة غيرهم أفضل.

القضية الثانية والثلاثون:

زعمه أن البشر قادرون على أن يضعوا لأنفسهم ما يروق لهم من عبادات ، دون أن تفرض عليهم. فلا توجد عبادة واحدة، فكل أمة تعبد ا لله بشرائعها، وترى فيها أنسب تعبير عن إيمانها وعقائدها.

القضية الثالثة والثلاثون:

تسويته بين النبوة وعلومها وحقائقها وبين ما يخترعه البشر. من عقائد ومفهومات وتشريعات باطلات.

وفيما يلي شرح هذه القضايا والرد عليها.

القضية الأولى:

زعمه أن العقل الإنساني كافٍ في الوصول إلى جميع الحقائق التي تأتي بها النبوة.

إن كلام (العلماني) السابق يقوم على أساس: أن العقل الإنساني كاف في الوصول إلى جميع الحقائق التي تأتي بها النبوة، وهو ليس عاجزاً عن شيء منها، ولو أخذ وقتاً للوصول إليها، فما من أمر يمكن أن تفيده النبوة للبشر إلا ويمكن للعقل الوصول إليه بدون معونتها، إما عن طريق النظر الفكري أو التجربة المتكررة، فالإنسان بعقله وحواسه يمكنه الاستغناء عن المعرفة التي تجيئه عن طريق النبوة.

ثم إن تلك الفوائد المثبتة للنبوة بالصورة التي ذكرها العلماء تؤدي في زعمه إلى هدم عقل الإنسان وحريته ومقدرته على التفكير، وتجعله عاجزاً ينتظر المواهب من غيره، وقد يستحضر في هذا المجال بعض عبارات المؤمنين بالنبوات، مثل: إن العقل -مثلاً- غير كاف في تحصيل بعض المعارف، أو إنه عاجز عن بعضها، أو قد يخطئ السبيل بسبب أهواء وشهوات صاحبه، أو بسبب وجودالمضلّلين ونحو ذلك، فلذلك لابد له من معلم وناصح ومرشد ومعين يدلُّه على الحق ويعينه في سبيل الوصول إليه[1]. ولذلك فإن صاحب الكلام السابق تثور ثورته انتصاراً منه -بزعمه- للإنسان وعقله؛ فيرفض جميع ذلك وينتقل إلى النقيض المقابل، دون أن يكون منه عند مناقشته للمسألة في هذا الموضع أية محاولة لإظهار الاعتدال، بين هذا الذي يرى فيه هدماً لكيان الإنسان وبين النقيض الذي ارتمى إليه.

والرد على مزاعمه الباطلة حول هذه القضية يتبين من خلال ما يلي:

أ- إن ا لله جل شأنه قد وهب الإنسان العقل، والمقدرة على التعلم والتفكير، وكرمه بذلك وحثه على استخدامه وإعماله فيما يعود عليه بالنفع، ونعى على الذين لا يُعملون عقولهم فيما يفيدهم حقاً، فيعطلونها عن التفكير حتى يكونوا كالذين لم ينالوا هذه الهبة من ا لله تعالى في أصل خلقهم، أي يصبحوا كالأنعام، بل هم أضل إذ يملكون الأداة ويعطلون استخدامها.

وفي الكتاب العزيز آيات كثيرة جداً تدل على ما سبق من المعاني، وما من مؤمن إلا وهو مطلع على تلك الآيات، قد علم ما فيها، وأدرك ما دلت عليه، فشكر ربه بالقول والعمل، وذلك باستفادته مما وهبه عز وجل الاستفادة الكاملة النافعة.

فعن التكريم، وبيان ثبوته للجنس البشري، قال تبارك اسمه:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)﴾ الإسراء.

---

(١) انظر الهوامش التي يذكرها حسن حنفي للكلام الذي سبق نقله؛ النبوة: ٢٨ - ٣٨.

ويكفي أنه جل شأنه قد أسجد لأصل هذا الجنس ملائكته جميعا، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)﴾ الحجر.

وعلّم سبحانه أبا البشر آدم عليه السلام الأسماء كلها، واستعمر البشر في الأرض وطلب منهم أن يمشوا في مناكبها ابتغاء للرزق، وطلب منهم النظر في آيات الأنفس والأرض. قال جل شأنه:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١)﴾ البقرة.

وقال تبارك اسمه، حاكياً عن صالح عليه السلام مقالته لقومه:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)﴾ هود.

(واستعمركم فيها): أمركم بعمارتها[١].

وقال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ(١٥)﴾ الملك.

وقال جل شأنه:

﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)﴾ الذاريات.

وقال جل جلاله حاثّا البشر على أن يستخدموا عقولهم فيما يعود عليهم بالنفع، فيستفيدوا من هذه الهبة الربانية:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧)﴾ غافر.

وقال جل ذكره:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾ المؤمنون.

وبيّن تبارك اسمه أن الآيات التي بثها في الكون إنما يتدبرها الذين يعقلون، قال تعالى:

---

(١) انظر: فتح القدير: ٥٠٧/٢، وهذا أحد معاني هذه الآية.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ البقرة[1].

وقد جاء في القرآن الكريم استخدام القلب واللب لهذا الجهاز الذي يدرك به الإنسان الأمور ويتفكر فيها، والمسمى العقل. قال جل شأنه:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾الحج.

ففي هذا حث على عدم تعطيل فائدة هذه النعمة التي منحها الله للإنسان، وبيان لكون عمى البصيرة أشد خطراً وأعظم أثراً سيئاً على الإنسان من عمى البصر.

وكثيراً ما مدح جل شأنه أولي الألباب، وبين أنهم هم الذين يستفيدون من الآيات والعبر المبثوثة في الكون وفي آيات الكتاب الحكيم، قال سبحانه:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ آل عمران.

وقال تبارك اسمه:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)﴾ ص.

﴿أولو الألباب﴾ أي: ذوو العقول، وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل[2].

وقال تعالى:

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ(١٩)﴾ الرعد.

وقال جل جلاله مبيناً أن الآيات التي في الكون يتدبرها ويعلم ما فيها من الحكم والدلائل؛ الذين يعلمون والذين يفقهون:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)﴾ الأنعام.

وكذلك الذين يتفكرون، قال سبحانه:

---

(١) وانظر الآيات: (٤-الرعد)، (١٢، ٦٧-النحل)، (٢٤-الروم)، (٥-الجاثية).

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٣٤/٤.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ (٣)﴾ الرعد.

وطالب جل شأنه الناس بالتفكر في آياته المنزلات في كتابه وعلى لسان رسوله صلى ا لله عليه وسلم، ولم يطالبهم بإيمان مجرد خال عن التفكر والتدبر، قال تعالى:

﴿...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتفكَّرُونَ (٤٤)﴾ النحل.

كذلك طالبهم بالتدبر في آيات الكتاب الحكيم، قال تبارك اسمه:

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً(٨٢)﴾ النساء.

وقال جل جلاله:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)﴾ ص.

وتدبر الشيء: إذا تأمل الشيء، وتفكر في عاقبته[1]، فكأن المراد بلوغ الغاية في التأمل والتفكر في آيات ا لله تعالى.

وكما أمر ا لله تعالى بالتدبر في القرآن، فقد أمر بالتدبر والنظر في حال مَن جاء به من قبل ا لله جل ذكره، وهو الرسول صلى ا لله عليه وسلم، وكذلك في آيات صدقه، حتى يكون الإيمان به عن يقين، لا بمجرد التقليد، أو بمجرد عاطفة وجدانية لا يفقه معها صاحبها ما يقوم به، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتفكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ سبأ.

هذا في جانب التوجيه. وأما في جانب التحذير والتنفير، فقد ذم جل ذكره الذين لا يستفيدون مما وهبهم إياه من نعمة العقل أو الحواس الاستفادة النافعة، قال جل شأنه:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ(١٧٩)﴾الأعراف.

وقال تبارك اسمه:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾ الأنفال.

ففي هذه الآيات يبين جل شأنه أن الذين لا يُعملون ما وهبهم ا لله من نعمة العقل والسمع

---

(١) انظر: تفسير فتح القدير: ١/ ٤٩١.

والبصر فيما يعود عليهم بالنفع الحقيقي والكامل؛ أن مثلهم كمثل من لم يرزقها أصلاً[1]، فهم صم بكم وهم لا يعقلون، وهم عمي، كما قال جل شأنه:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾ البقرة.

فليس المهم هو وجود الأداة فقط، بل لابد أيضاً من إحسان استخدامها لتعود على صاحبها بالنفع الحقيقي المطلوب منها.

والذين كفروا وإن كانوا قد يستفيدون مما وهبهم الله تعالى فيما يعود عليهم بالنفع العاجل، ولكنه نفع قليل سريع الزوال لا يقاس بالنفع الأخروي العظيم الدائم، فالذين كفروا وأضاعوا آخرتهم لم يعملوا ما وهبهم الله تعالى من نعمة العقل والسمع والبصر..؛ على الوجه الأتم والأكمل، ليعود عليهم ذلك بالنفع العاجل والآجل، بل كان إعمالهم ناقصاً مبتوراً مقصوراً عند حدود المنافع الآنية السريعة الزوال. ولذلك كان مثل أولئك الكافرين كمثل الأنعام، التي لها سمع ولها بصر وقد يكون لها شيء من التفكير الغرزي إلا أن استفادتها من جميع ذلك استفادة مقتصرة على اللحظة التي تعيش فيها، دون تفكير وتخطيط للمستقبل، ولذلك فإن حياة أول جمل كحياة آخر جمل يعيش نفس ظروفه. والواقع أن أولئك الكافرين أضل من الأنعام، فالأنعام لا قدرة لها على أكثر مما تقوم به، أما الكافر فإن الله جل شأنه قد وهبه ما يقدر به على أن يحاول أن يكون على أحسن حال في جميع شؤونه عاجلاً أم آجلاً، ولكنه قصر نظره وتفكيره عند حدود الحياة الدنيا وأضاع آخرته. قال جل جلاله:

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٤)﴾ الفرقان.

وقال جل ثناؤه:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ (٤٣)﴾ يونس.

ب- إن ما سبق يدل على أن الله تعالى يطلب من العباد أن يصلوا إلى حقائق الإيمان بالتفكير المتبصر، والمستفيد من رؤية آيات الله الكونية، ومن سماع آياته المنزلات على ألسنة رسله عليهم السلام، ولم يطلب منهم مجرد تسليم أعمى خالٍ عن التدبر، فقد خلق لمثل هذا التسليم بهائم، وخلق جل جلاله بشراً فضلهم على البهائم بالعقول، فهو جل ذكره يطلب منهم إيماناً يناسب ما وهبهم إياه وفضلهم به.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٩/١٣١-١٣٢.

جـ- ثم إن التكليف قد نيط في الشرع بالعقل، فإذا وُجد عند المكلف العقل مع القدرة على القيام بالعمل ترتب عليه التكليف، ولو زال العقل -أو لم يوجد- بسبب الصغر أو الجنون أو النوم ونحو هذا سقط معه التكليف.

قال صلى ا لله عليه وسلم:

"رُفع القلم عن ثلاث، عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل -أو: يفيق-"[١].

فرسالة ا لله تبارك اسمه وشرعه إنما هما موجهان أساساً إلى العقلاء، فالعقل شرط لابد منه لفهم التكليف، وشرط لابد منه عند تنفيذ التكليف[٢].

د- وكون ا لله جل شأنه يطلب من عباده أن يستفيدوا مما وهبهم ليصلوا إلى حقائق الإيمان، ومن ثم يوصلهم ذلك إلى نيل النعيم الأخروي؛ فإن هذا لا يعني إهمال الاهتمام بالجانب الدنيوي العاجل، فإن تحليل ما أحله ا لله تعالى قولاً وعملاً، وتحريم ما حرمه عز وجل قولاً وعملاً؛ هو كله مما طلبه الرب جل ذكره من عباده وأمرهم به. وقد بين تبارك اسمه أنه لم يحرم على عباده الزينة الدنيوية، بل أباحها لهم على الوجه الذي يعود عليهم بالنفع، قال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾ الأعراف.

وقال تبارك اسمه:

---

(١) رواه النسائي عن عائشة رضي ا لله عنها: ١٥٦/٦/ح: ٣٤٣٢، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: ٧٢٣/٢/ح: ٣٢١٠. ورواه أيضاً في السنن الكبرى: ٣٦٠/٣/ح: ٥٦٢٥.ورواه: أبو داود: ١٣٩/٤/ح: ٤٣٩٨، وذكر بدل "المجنون حتى يعقل": "المبتلى حتى يبرأ"، ويبدو أن الرواية بالمعنى، والمقصود بالمبتلى: المصاب في عقله. وصحح رواية أبي داود كذلك الألباني في صحيح سنن أبي داود. ورواه: ابن ماجه في سننه: ٦٥٨/١/ ح: ٢٠٤١، وذكر اللفظين، وصحح روايته الألباني في: صحيح سنن ابن ماجه: ١٧٧/٢-١٧٨/ح: ١٦٧٣ (٢٠٧١). ورواه الدرامي في سننه: ٢٢٥/٢/ ح:٢٢٩٦. ورواه أحمد في المسند: ١٠٠/٦، ١٠١، ١٤٤. وابن حبان في صحيحه: ٣٥٥/١/ ح:١٤٢، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في مستدركه: ٦٧/٢/ ح: ٢٣٥٠، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه أبو يعلى في مسنده: ٣٦٦/٧/ح:٤٤٠٠، وقال محقق المسند حسين أسد: إسناده جيد. ورواه ابن الجارود في المنتقى من السنن المسندة: ص:٤٦/ح:١٤٨، ص: ٢٠٥/ ح: ٨٠٨. والبيهقي في سننه الكبرى: ٨٤/٦، ٦/ ٢٠٢، ٨/ ٤١، ٣١٧/١٠. وقال القاضي ابن العربي المالكي عن حديث عائشة رضي ا لله عنها هذا: (وهذا صحيح من غير كلام)، انظر: عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي: ١٩٦/٦. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة رضي ا لله عنهما، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول)، مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٩١/١١.

(٢) انظر: تحرير المقال في موازنة الأعمال؛ أبو طالب القضاعي -رسالة دكتوراة-: ٣٦٣/٢. و: مجموع فتاوى ابن تيمية: ٤٣١/١٠-٤٣٢، ٤٣٥-٤٣٧، ٤٣٩-٤٤٤، ١٩١/١١-١٩٢. والمستصفى؛ الغزالي: ٨٣/١-٨٤. و: فواتح الرحموت: ١٤٣/١. و: شرح الكوكب المنير: ٤٩٩/١. و: حاشية البناني على شرح المحلي على متن جمع الجوامع؛ السبكي: ٧٠/١.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)﴾ المائدة.

وليس المطلوب من المؤمن أن ينسى نصيبه من الحياة الدنيا بالكلية، بل الشأن كما قال جل جلاله:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ القصص.

ثم إنه من باب إعداد القوة التي أُمِرت بها الأمة الإسلامية لإرهاب عدو الله وعدوها؛ فإنه ما من أمر من أمور الحياة الدنيا النافعة إلا ومجموع المسلمين مطالبون أن يصلوا به إلى تلك الدرجة، تحقيقاً لواجب القيام بالدعوة إلى دين الله والجهاد في سبيله وتكوين الجماعة الإسلامية المتماسكة، قال تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾ الأنفال.

هـ- ولو ذهب الباحث يستعرض النصوص المتعلقة بالعقل ويبين دلالاتها، مستنبطاً من خلال ذلك أهمية إعمال العقل في الوجوه النافعة، وكيف أن ذلك يعتبر من رؤوس الواجبات الشرعية؛ لاحتاج ذلك منه إلى بحث مستقل، وفيما سبق استعراضه بيان كاف لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وجمهور علماء المسلمين قد علموا ذلك وأعطوا العقل قيمته ومكانته اللائقة به، واستخدموه في المجالات التي ينبغي أن يُعمل فيها العقل، ولذلك وجد هذا التراث الضخم في مجال علم العقيدة والتوحيد والكلام، وعلم الفقه، وعلم الأخلاق.. إلى غير ذلك من العلوم الشرعية والاجتماعية، مما لا يوجد له نظير عند أمة من الأمم السابقة. وحتى العلوم الكونية لم يهملها علماء الشرع، فكان لهم اطلاع عليها وعلى كتب من سبقهم من الأمم. ومن كانت له معرفة بكتب علماء المسلمين علم ذلك حق العلم، ومنهم من ضَمَّن كتاباته الشرعية كثيراً من المسائل الكونية والطبية، واستفاد مما ذكره المختصون بهذا الشأن من مسلمين وغير مسلمين. ومن علماء المسلمين من ألفّ في مجال إثبات موافقة التفكير العقلي الصحيح لما ثبت في النصوص الشرعية[١].

و- فذلك هو موقف النصوص الشرعية من عقل الإنسان وتفكيره ، وهذا هو موقف جمهور علماء المسلمين، فهل يقال بعد ذلك كله إن إثبات الفوائد للنبوة على الوجه الذي ذكره علماء المسلمين يؤدي إلى هدم عقل الإنسان ومقدرته على التفكير، والله جل شأنه قد نعى على

---

(١) يذكر في هذا المجال كتاب الإمام ابن تيمية: موافقة العقل للنقل.

الذين لا يعقلون ولا يفقهون؟!. وهل أثبت علماء المسلمين حقائق الإيمان وجادلوا عنها إلا بعد أن عقلوا ما جاء في النصوص الشرعية، وعلموا معانيها وحقائقها، وتدبروا أدلتها، فكان إيمانهم وكان كلامهم في هذه المسائل عن فقه ومعرفة بها.

ز- وأما ما ذكره علماء المسلمين من وجوه حاجة البشر للرسالة الإلهية؛ فإنهم لم يقصدوا من ذلك هدم كيان الإنسان وعقله، وإنما هم -رحمهم الله- قد أعطوا كل ذي حق حقه على القدر الملائم له.

إن الحقائق التي جاءت بها النبوات -كما سبق بيانه[1]- إما هي:

١- من الأمور التي لا يستقل العقل بمعرفتها، كبعض الصفات الإلهية، وكثير مما يتعلق بالجزاء الأخروي، وتفصيلات القضاء والقدر، وصفات الرسل، وما يتعلق بالمخلوقات غير المحسوسة للبشر، وكتفصيلات العبادات وغير ذلك، فيأتي بيانها من الله تعالى واضحاً ليؤمن به البشر، ولا يكون فيما يأتي من عند الله في هذا المجال شيء مما يتعارض مع فطر العقول السليمة. ولو تُرِك هذا المجال للبشر لما حصل الاتفاق على قضية من قضاياه، ولاحتار مريد الحق فيمن يتبع، وليس يوجد دليل حق يرجّح قولا على آخر، ولَما أمكن لأحد أن يصل إلى الحق في جميع تلك المسائل، إذ هي ذات أوجه متعددة متساوية الاحتمالات، وقد تغيب بعض الاحتمالات عند التفكير، ويكون الحق فيها، فإذا جاء بيان من عند الله تعالى في شأنها فإن ذلك ليس فيه إهانة للعقل البشري، إذ لا سبيل إليها عن طريق ما وهب الله الإنسان من أدوات يتعرف بها على ما حوله، والاحتمالات العقلية كثيرة ولا مرجح لأحدها. ولو صنع صانع شيئاً لا يمكن معرفة تركيبه عن طريق فكّه ونحو ذلك، ثم بيّن طريقة تركيبه واستعماله، وجاء من قال له لسنا بحاجة إلى بياناتك إذ فيها احتقار لمقدرتنا على المعرفة والتفكير والاستنباط، لكان هو المتهم في عقله، الساقط من عداد العلماء، وحتى لو لم يكن منه إلا التقليل من أهمية تلك البيانات.

٢- وإما أن يكون ما تأتي به الأنبياء عليهم السلام مما يمكن للعقول والفطر السليمة أن تصل إليه، كتوحيد الخالق جل شأنه بالعبادة -لا توحيد العبادة لغيره-، ولكن بسبب وجود المضللين، وأهل الأهواء والشهوات والمنافع، من الذين يتخذون من أنفسهم آلهة، أو المستفيدين من وجود آلهة الضلال، وبسبب التعصب والتقليد الأعمى للأقدمين، وبسبب وجود الداعي إلى الضلال، الذي يوسوس للإنسان بالشر من داخله ، وبسبب وجود المستكبرين في الأرض بغير الحق، وغير ذلك[2]؛ فإن مثل هذه الحقيقة العظمى وغيرها كثير؛ تغيب عن عقول جمهور البشر الأعظم،

---

(١) انظر: ٧٠-٧١.

(٢) وإغفال دور هذه الأشياء في إفساد البشر فيه تجنّ على الحقائق، تكذبه الوقائع.

حتى إنه قد لا تطرأ على فكر أحد إلا أفراداً معدودين، وهؤلاء وإن لامسوا شيئاً من الحق؛ فإنه إن لم تكن هنالك أثارة من نبوة، فإن ما يصلوا إليه لا تكون له صفة الوضوح والظهور والاكتمال كما يكون للحق الذي يأتي به الأنبياء عليهم السلام، ولو قام أمثال هؤلاء بأية دعوة؛ فإن دعوتهم سرعان مَاتُوأدُ فِي مهدها. ويؤيد هذا أحداث التاريخ السابقة، فكثيراً ما كانت البشرية في جهل تام ومطبق، في قضية التوحيد، والجزاء الأخروي وغير ذلك، وهذا في الفترات التي يبتعد فيها الناس عن هدي الرسالات الربانية المنزلة، وحتى لو تنبه لمثل هذا بعض الأفراد، فإما أن يبقوا مثل هذه المعرفة ضمن ذواتهم، وإما أن يصرحوا بها، ولكن لم ينقل أن أحداً من هؤلاء قد كانت له دعوة لها ثباتها واستقرارها في الأرض[1]، ولاسيما إن لم يكن مستنداً في كلامه إلى دعوة رسول من رسل ا لله تعالى، وأما الدعوات الراسخات التي آتت ثمارها وكان لها استمرارها في التاريخ؛ فهذه لم تكن - في هذا المجال- إلا للأنبياء والرسل عليهم السلام المؤيدين من عند ا لله جل شأنه.

٣- وقد يكون بعض ما تصل إليه العقول مما له وجود بين الأمم ، أو بعضها، وذلك كبعض مفردات الأخلاق، وربما شيء من العقائد، فهذه تأتي الأنبياء عليهم السلام وتقرها، وتبين أنها -مع الإيمان الصحيح والإخلاص لله تعالى- مما يثاب عليه المرء عند ربه عز وجل[2].

٤- وإذا أتى الأنبياء ببعض الأمور الكونية ، كشيء من الأمور الطبية أو نحوها، مما يمكن أن يصل إليه الناس عن طريق التجريب ؛ فإن هذا قد يكون لحكمة تيسير أمور الحياة، في عصر النبي عليه السلام وما بعده، فقد لا يصل البشر إلى هذا الأمر إلا بعد أجيال عدة، وقد يكون فيما يأتي به بعض الأنبياء مما يتعلق ببعض الأمور الطبية -مثلاً- من الأدلة على صدقهم في دعواهم، إذ يأتون بما لم ليس في مقدور البشر أبدا أن يأتوا بمثل ما جاؤوا به، وبالكيفية التي حصلت على أيديهم، وهذا لا يكون إلا بتأييد رباني. وقد يكون بعض ما يأتون به مما ليس في مقدور البشر أن

---

(١) يذكر في هذا المجال قصة: قس بن ساعدة الإيادي. الذي كان يدعو إلى التوحيد والإيمان باليوم الآخر، وإن كان معتمداً في ذلك على بقايا دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وكذا غيره من موحدي الجزيرة العربية كزيد بن عمرو بن نفيل. انظر: تحرير المقال في موازنة الأعمال؛ القضاعي: ٢/٣٨١ - ٣٩٢.

(٢) يذكر في هذا المجال ما رواه أبو هريرة عن النبي أنه قال: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" رواه أحمد وغيره، واللفظ لأحمد. المسند: ٢/ ٣٨١. ورواه الحاكم في المستدرك: ٢/٦٧٠، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. ورواه البخاري في الأدب المفرد، انظر صحيح الأدب المفرد: ١١٨/ ح:٢٠٧، وصححه الألباني. ورواه ابن سعد في: الطبقات الكبرى: ١/ ١٩٢. و: الشهاب القضاعي في مسنده:٢/ ١٩٢. و: ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق: ٢١/ح:١٣. و: البيهقي في السنن:١٠/١٩١. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد:٩/ ١٥، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: كشف الخفاء؛ العجلوني: ١/٢٤٤- ٢٤٥. والحديث صححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١/٤٦٤/ ح:٢٣٤٠. وقد روى الحديث مالك في الموطأ بلاغاً: ٢/٩٠٤/ ح: ١٦٠٩.

يأتوا به أبداً، وذلك كآيات عيسى عليه السلام الطبية وإحيائه الموتى. ويدخل في هذا ما جاء في القرآن من الآيات المتعلقة بالأمور الكونية، التي لم يتم اكتشافها إلا بعد قرون كثيرة من نزول القرآن الكريم، وبعضها قد لا يكتشف إلا في أزمان لاحقة.

وعلى ذلك فإن ما بينه علماء الإسلام -رحمهم الله تعالى- من فوائد وحكم لبعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام؛ ليس فيه ما ينقص من قيمة العقل البشري، أو مقدرة الإنسان على المعرفة والاستنباط، بل هو متوافق مع هذه الحقيقة، يؤيدها ويدعمها بما يجعلها تسير الوجهة التي تعود عليها بالخير والنفع، ويهديها السبيل الأقوم، كما أن المعلم الصالح الناصح أو الكتاب النافع يرشدان الناس إلى الصواب في كثير من الأمور، ولا ينكر أهمية ذلك إلا جاهل أو مكابر للحقائق مغالط.

ح- بعد ما سبق يكون التساؤل عن من الذي يريد الخير للعقل: أهو الذي يريد أن يهديه سواء السبيل، وينير له الطريق ويبصره ويعينه على الخير، أم هو الذي يريده أن يتيه في بيداء الجهالة، يتخبط فيها، كمن مثله في الظلمات وليس بخارج منها، إذ يبعد عنه كل معين أو مساعد؟!.

وأين هذه القوة المخلوقة في هذا الوجود التي تستطيع بذاتها عمل كل شيء والوصول إلى كل شيء دون معونة؟، وهل اخترع الإنسان ما اخترعه إلا ليعينه على مواجهة ظروف هذه الحياة؟!، ولماذا لم يرض أن يجابهها بمفرده وأن يبقى على حاله الأول؟.

وقد يقول قائل: إن تلك المخترعات قد وصل إليها الإنسان بمجهوده، ولكن هل هو الذي وضع القوانين الكونية وسنّها على الحقيقة، أم إنه درس الكون واستنبطها من خلال ملاحظاته وتجاربه، وإذا كان الأمر كذلك فما الفارق بين آيات الله المبثوثة في الكون المخلوق له ، وآياته التي أنزلها على رسله؟!، إلا أن يكون المعلم في الحالة الأولى كائناً جامداً لا حياة فيه وليس من جنس البشر، وفي الحالة الثانية كائناً عاقلاً حياً هو من جنس البشر، يتكلم بكلامهم ويعيش حياتهم، ولا يفضل الجامد الصامت إلا من كان فيه شيء من صفاته.

القضية الثانية:

اتكاؤه على مقالة المعتزلة، إذ يرون وجوب النبوة عقلاً، لينسف قضية الحاجة إلى النبوة بصفة عامة.

لقد ابتدأ مقالته الافترائية السابقة بالرد على المعتزلة، إذ حاول أن يجادلهم في معنى وجوب النبوة عندهم عقلاً وفائدته، فمادامت الأسس الخمسة عندهم وأساس التكليف؛ كل ذلك أوجبوه بالعقل -أي حتى قبل ورود النبوة-، وما دام التحسين والتقبيح عقليين عندهم؛ فما فائدة إثبات وجوب النبوة؟، إن كانت من أجل إيجاب نفس هذه الأمور فهو إيجاب لا جديد فيه، وهو تكرار للإيجاب العقلي الأول.

وبغض النظر على مدى صحة ما ذهب إليه المعتزلة؛ فإنه يظهر من خلال اعتراض (العلماني) عليهم:

١- أنه لم يقم أي اعتبار لكثير من تفصيلات جوهرية لتلك الأسس، إذ هي تفصيلات لابد من معرفتها، ولا تستطيع العقول أن تصل إليها، أو تصل إلى الصواب منها، وإن وصل بعضها إلى شيء ناقضه الآخرون بتفصيلات مخالفة، ويتشبث كل فريق برأيه، دون أن يوجد لدى أي منهم مستند قاطع، يؤيد ما ذهب إليه. ومن أراد الحق وما كان عنده هدي رباني؛ وقع في الحيرة من كثرة ما يورده عليه كل فريق لتأييد مزاعمه. وحتى المعتزلة لا يزعمون أنهم بالعقول وحدها يستطيعون الوصول إلى جميع ما جاء به الوحي من تفصيلات، كتلك المتعلقة بالعبادات على سبيل المثال.

٢- ويمكن القول: إنه حتى مع ما ذهب إليه المعتزلة من الإيجاب العقلي -لما أوجبوه من الأمور- فإنه لابد من الدليل الشرعي، المؤيّد للدليل العقلي[1]، فالدليل العقلي بمجرده إن لم يؤيده شرع لا يكفي لأن يلتف حوله أتباع كثيرون يؤمنون به، فالنبوة لها براهين داخلية وخارجية ظاهرة، يدركها العقلاء، ومن ثم يؤمن بها من كان حريصاً على طلب الحق، جادا في السعي إليه. وهو بعد ذلك يؤمن بكل ما تثبته نصوص هذه النبوة، مما قد لا يصل إليه عقله، ولكنه قطعاً لن يعارض ما لديه من أسس ومبادئ عقلية فطرية.

٣- ومن أجل ما سبق فإنه ما من فرقة من الفرق -حتى التي تزعم انتسابها إلى الإسلام- إلا وقد تأيدت فيما ذهبت إليه بنصوص شرعية، وذلك في كثير من الأحيان، ولو أنها -إن كانت من الفرق الضالة- حاولت أن تحرف في معانيها لتتطابق وما ذهبت إليه من الباطل.

---

(١) انظر: الإرشاد، الجويني: ٣٠٣.

وهذه حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها أو يتغافل عنها، ولو أنكرها أحد فقطع الجدال مع أمثاله أولى وأحرى. ومن ينكر فائدة النبوة من هذه الزاوية يكون هو الذي لا يعلم شيئاً عن طبيعة البشر وفطرتهم وما جبلوا عليه .

٤- وما سبق لا يعني عدم وجود من ينكر النبوات، ولا يؤمن بما جاءت به، ولكن مثل هذا لن يكون منه إنكار للنبوات ثم يأتي -على سبيل المثال- إلى ما أثبته المعتزلة عقلاً فيؤمن به. إنَّ من قد يوجد عنده إيمان بشيء من الحقائق التي أتت بها النبوات؛ لابد أن نجده يتساءل أو يبحث عن دليل قد جاء من عند الله تعالى يؤيد هذا الذي رجحه عقله، وهذه فطرة لا يشذ عنها إلا القليل النادر، حتى إن بعض أهل الأديان الوضعية الذين نقل عنهم إنكارهم النبوة[1]؛ نراهم قد أثبتوا ما هو أكثر من ذلك، فهم يثبتون تجسداً لله على هيئة البشر، وينسبون إليه كتاباً يقدسونه ويتبعون ما فيه من أحكام. فكأنهم لبوا بهذا المعتقد تلك الفطرة الداخلية التي تجعلهم لا يقبلون مؤيداً لما يعتقدونه إلا نصوصاً منسوبة إلى الخالق جل وعلا[2].

وأما ما يوجد في العصر الحاضر من إلحاد طاغ؛ فهو غير مختص بالنبوات بل شمل جميع ما يتعلق بالأسس الدينية العقلية، ابتداء من الإيمان بالخالق جل شأنه. وهذا إلحاد طارئ، قد بدأت تتبين مظاهر زواله[3].

٥- وخلاصة القول: إن الله جل شأنه خالقُ كل شيء ومدبر كل شيء وصاحب الحق الأوحد جل جلاله في إقرار تلك الحقائق على ما تقتضيه حكمته، وهذا ما يقر به كل مؤمن حقاً بالله تعالى، ومن ثم فإنه يبحث بفطرته لكل حقيقة دينية -ولو أمكنه الوصول إليها بعقله- عن دليل شرعي متصل بالرب جل جلاله، فإما أن يكون ذلك عن طريق الإيمان بالنبوات، أو عن طريق الإيمان ببدائل وضعية.

٦- فالدليل المنسوب إلى الله جل شأنه له من القوة في نفوس المؤمنين بالله حقاً أضعاف ما للدليل العقلي المجرد مهما بلغت قوته ووضوحه، فهي إن ساورها شك وحيرة تجاه أمر توصل إليه العقل، فإن الدليل الرباني عندما يأتي ويبين لها الحق واضحا جلياً؛ ينتفي عنها ذاك الشك وتلك الحيرة، ومن ثم تشعر معه بالطمأنينة واليقين. ولو بقي عند أحد شك بعده فهو أقل بكثير من الذي كان عنده قبل وروده.

---

(١) كما تذكره كتب العقائد والفرق عن البراهمة، انظر: الإرشاد؛ الجويني: ٣٠٢.

(٢) انظر ما يأتي: ٢٨١.

(٣) تطالعنا الأخبار عن عودة كثير من الذين ألحدوا من الغربيين إلى دينهم، أو بحثهم عن دين جديد، للدخول فيه، حتى إن بعضهم يتبع المشعوذين وأهل الآراء المنحرفة، وهم يفعلون كل ذلك هروباً من الخواء الديني الذي عاشوه، ودمر نفوسهم وحياتهم.

ولمثل هذا الشك أسباب تعود غالباً على الإنسان نفسه، كرسوخ سوابق الأفكار في عقله، وعدم استطاعته التخلص منها مرة واحدة، ولو كانت باطلة.

فلا يقال بعد ذلك إن الدليل الشرعي -حتى في الأمور الدينية العقلية- إضافي زائد لا حكم له[1]، إذ أهميته وقوته وتأثيره في النفوس أقوى من الدليل العقلي المجرد. مع ملاحظة أن الدليل الشرعي يتضمن الدليل العقلي، فهو ينبه عليه ويوضحه بأحسن عبارة. فلا ينكر حاجة البشر إليه إلا جاهل أو متجاهل مستكبر معاند.

٧- ثم إن صياغة البشر الخالصة للدليل العقلي؛ غالباً ما يتخللها كثير من الأخطاء الفاحشة، وإذا لم يهتدوا بالحق الرباني المنزل فإنهم لا يكادون يتنبهون إليها، وهذا سيؤدي حتما إلى أمور لا يرضاها الرب جل شأنه، وقد تكون من الكفر البواح. أما الدليل الشرعي فإنه عندما يبين الدليل العقلي؛ يبيّنه على الوجه الذي يكون خالياً من أي خطأ، أو على الوجه الذي لا يؤدي إلى أي خطأ عقدي.

٨- وربما تكافأت في نظر الناس الأدلة العقلية المتقابلة، فيأتي الدليل الشرعي ويبين رجحان أحدها على الآخر.

(١) كما ادعى صاحب هذه المقالة، انظر: ٢٥٤.

القضية الثالثة:

تمجيده حرية الإنسان بغية التوصل إلى الإقناع بعدم حاجة البشرية إلى النبوات.

لقد تدرّع في مقالته بأن الحياة امتحان واختبار...، وأن هذا نتيجة لممارسة الحرية التي هي من العقليات، بينما النبوة -بزعمه- من السمعيات، فكأنه يريد أن يقول: إن النبوة لا ينبغي أن تقيد الحرية المطلقة بوجه، لأنها أقل عنها رتبة. ومما يرد به على هذا الافتراء:

١- إن الامتحان والاختبار في هذه الحياة؛ هما الأساس لإثبات الحرية، وبعبارة أخرى فإن الحرية -المحدودة- لم تثبت إلا لثبوت كون الإنسان مختبراً ومبتلى في هذه الحياة. وهذا الاختبار لا تتم الحكمة منه إلا بأن يُسْتَتْبَعَ بالجزاء.

٢- ومن هنا كان إثبات الامتحان والجزاء بالدليل العقلي، وكذلك إثبات نوع من الحرية تلائم كون الإنسان ممتحناً في هذه الحياة الدنيا. ولولا ذلك الامتحان المستتبع بالجزاء لما كان للإنسان حرية في فعل الخير أو الشر، ولكان مخلوقاً لا يأتي منه إلا الخير، فإن الله جل شأنه حكيم في فعله كما هو حكيم في قوله.

٣- فالحرية ليست مطلقة بل هي محدودة، ضمن الأمور التي هي محل امتحان الإنسان، ثم إن هذه الحرية سيعقبها الجزاء الأوفى، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولكن من آمن فله الحسنى، ومن كفر فله السوأى. قال جل شأنه:

﴿ وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً(٣١)﴾ الكهف.

٤- وإذا كان الإنسان مبتلى ابتلاءً يعقبه جزاء، وكانت له حرية ضمن نطاق ابتلائه؛ فهو في حاجة إلى من يبلغه ويبين له الأمور التي تكون سبباً لنجاته، والأمور التي تكون سبباً للخسارة والعاقبة السيئة. وتصور أن ذلك متروك للإنسان بالكلية تصور باطل، إذ سيمضي عندئذ عمر البشرية كاملاً دون أن تصل إلى الحق في كثير من الأمور، التي هي موضع اختبارها وامتحانها، إما لعدم قدرة العقل على الوصول إليها، وإما لأسباب أخر. وأما الأمور التي يقدر أنها قد تصل إليها؛ فإنه ستمضي أجيال دون أن تعرف الحق -عن طريق التجربة- في تلك المسائل، التي هي من عناصر امتحان الإنسان. هذا مع عدم اعتبار وجود الأمور التي تضل الناس وتبعدهم عن طريق الهدى، فأما

إذا اعتبر هذا بصُوَرِه المختلفة؛ فلربما ما عرف طريق الصواب في شيء من الأمور الدينية أحد من البشر. ومع وجود الأنبياء والمرسلين عليهم السلام لم يؤمن أكثر الناس بالحق ، فكيف مع انتفائهم؟!.

٥- وما سبق يدل على أن دليل إثبات النبوة ليس سمعياً فحسب؛ بل للدليل العقلي نصيب في ذلك الإثبات، فالنبوة من العقليات.

٦- وبعد، أفلا يوجد ألوف الملايين من البشر حتى عصرنا الحاضر لم يتوصلوا إلى ما جاء به الأنبياء عليهم السلام، على الرغم من وجود عقول مبدعة عندهم، وتوسعهم في العلوم الكونية، والإبداعات التقنية؟!. أليس ما أورده في مزاعمه هو من ألاعيب السفسطات الساقطات؟!، إذ أوهم أن العقل الإنساني يكفي للتوصل إلى ما جاء به الأنبياء عليهم السلام، مع أن الواقع البشري يكذب مزاعمه.

٧- والحق أن نظرته تلك للحقائق الدينية، ودعواه أنه يمكن الوصول إليها ولو بعد التجارب والتنقل بين الآراء الضالة، ومرور الأجيال المتعاقبة؛ يدل دلالة قاطعة على أنه غير مؤمن بها أصلاً، لأنه لو كان مؤمنا بها حقاً؛ لعلم أهمية تلك الحقائق والعقائد الدينية لكل جيل من الأجيال، وأنه ما من جيل بشري إلا واحتياجه إليها أعظم من حاجته لأية ضرورة دنيوية، وأنه لا يمكن أن ينال المرء السعادة الحقيقية إلا بالإيمان بها واتّباع مقتضاها.

وعلى سبيل المثال: فإنه بزعمه الباطل ذلك يدل دلالة قطعية على أنه غير مؤمن بالدار الآخرة، وما فيها من جزاء رباني عادل. ومعلوم أن الدار الآخرة تعتبر من كبرى الحقائق الدينية، وكل مؤمن بها وبما فيها من جزاء؛ يعلم قطعاً أنه لا يمكن لأي إنسان -فضلاً عن جيل أو أجيال بشرية متعاقبة- أن ينال الفوز فيها إلا باتباع ما أنزل الله جل جلاله. وأما من ادعى أنه يمكن للبشر أن يتنقلوا بين الأفكار والآراء الضالات جيلاً بعد جيل، عسى أن يصلوا إلى الحق يوماً ما؛ فإن دعواه هذه تدل على أنه لا قيمة للدار الآخرة عنده مطلقاً. إذ ما مصير تلك الأجيال الضالة من البشرية جمعاء في الدار الآخرة؟!، ومعلوم أن الله تبارك اسمه قد جعل الفوز في الدار الآخرة خاص بالمتقين[1].

---

(١) بالنسبة إلى أهل الفترة، فإنهم يعتبرون حالات استثنائية، وأما ما ذهب إليه حسن حنفي فإنه يجعل الاستثناء هو القاعدة، بل وهو الذي ينبغي أن يكون دواماً!.

القضية الرابعة:

زعمه أن ما ذكره المعتزلة من وجوب النبوات عقلاً، مبني على الصلاح واللطف، وهذا مشروط بأن يحكم العقل بأن النبوة فيها صلاح ولطف، واتخاذ ذلك ذريعة لإنكار حاجة البشر إلى النبوات، وأنهم مستغنون عنها بالعقل.

إنه بناء على أصول المعتزلة ذكر (العلماني) أن النبوة لا يمكن اعتبارها من الواجبات العقلية إلاّ بناء على الصَّلاح واللُّطْف، اللذان هما بعض الواجبات العقلية عند المعتزلة، ولكن بشرط أن يحكم العقل -ولم يحدد عقل مَن- بأن النبوة فيها صلاح ولطف، لا على أساس أنها عون ومدد للعقل، وعلى ذلك فمن الممكن أن يحكم العقل باستغنائه عن النبوة، ومن الرد على هذا الافتراء:

١- إنه بغض النظر عن مسألة الصلاح واللطف والنقاش حولهما، وتنزلاً في المجادلة فإنه يقال: لو حكم العقل بأن النبوة فيها صلاح للعباد ولطف من الله تعالى بهم، فما الذي يعنيه هذا؟.

إن إثبات أن النبوة فيها صلاح للعباد -لجميعهم وليس لبعضهم- يستلزم أن ما تتضمنه فيه أعظم الخير لهم، وهي لا تتضمن إلا الدعوة إلى كل خير والتحذير من جميع الشرور والآثام، ومجموع هذه الخيرات والآثام إما أن تكون معلومة للعقول على ما هي عليه قبل نزول النبوة، أو أن بعضها معلوم وبعضها غير معلوم، وهنا يفترض أحد أمرين: إما أن تظل بعض الأمور خافية على العقول المجردة عن هداية النبوة، أو يفترض أن العقول -ولو طال الزمن- فإنها ستصل إلى الحق في جميع تلك الأمور.

وافتراض أن جميع الخيرات والشرور والآثام معلومة للعقول قبل نزول النبوة وحال نزولها؛ هو افتراض يكذبه الواقع، فالناس قبل نزول النبوة على جهل مطبق في كثير من الأمور التي بينتها النبوات، ودعت إليها أو حذرت منها. وكون العقول قبل نزول النبوة قد تعلم شيئاً من الخيرات والآثام على ما هي عليه، ويطبق أصحابها ذلك أو بعضه في مسيرة حياتهم؛ هو أمر غير مستبعد[1]، ولكن هناك الكثير جداً مما يغيب عنها، حتى ولو كان مما يمكن أن تصل إليه، ولكنها ضلت عنه لسبب من الأسباب، وهنا فلابد لها ممن يرشدها إلى الحق في جميع تلك الأمور، وينبهها على ما هو مستقر فيها من الدلائل الفطرية المرشدة إلى الحق.

٢-والقول بأن تلك الأمور يمكن أن تصل إليها العقول طال الزمن أو قصر قول يغفل عن:

---

(١) يلاحظ هنا أن المؤمنين بالنبوات حقا، يعودون بها إلى آدم أبي البشر عليه السلام، ومن ثم فإنه ما من حق موجود في زمن من الأزمان، إلا ويمكن القول بأنه مما بقي من آثار نبوة من النبوات السابقة، مع ما فيه من ملاءمة للفطرة التي فطر الله الناس عليها.

- أن هناك أموراً تفصيلية في العقائد والعبادات لا يمكن أن تصل إليها العقول، كما سبق بيانه[1].

- أن هناك مضَلِّلين يحرصون على جعل وإبقاء جماهير الناس ضمن حدود كثير من أنواع الباطل، ومن أولئك شياطين الجن، ومنهم شياطين الإنس، ويدخل في هذا أهواء الإنسان وشهواته، ونحو هذا مما يغشي على بصر الناس، فيحسبون الحق باطلاً والباطل حقا. ومنكر هؤلاء المضللين جاحد لما هو معلوم مشاهد لكل من له أدنى بصيرة.

- أنه لم ينقل التاريخ لنا صورة واحدة عن أناس كانوا في جهل مطبق في شأن الحقائق التي تأتي بها النبوات، ثم اهتدوا إلى الحق دون الاعتماد على هداية نبوة سابقة، أو هداية نبوة خاصة بهم[2].

- أنه من باب افتراض المستحيل؛ حتى يصل البشر إلى الحق في كثير من الحقائق التي يأتي بها الأنبياء عليهم السلام، عن طريق التجربة، والخطأ والصواب، دون أدنى هداية من النبوات؛ فإن معنى ذلك هلاك أجيال كثيرة من الناس على الباطل، الذي يجر على الناس أنواعاً من الشقاء الدنيوي قبل الأخروي، فأيهما أولى: افتراض أن الله جل شأنه قد بيّن للناس طريق سعادتهم الدنيوية والأخروية، وخيّرهم بين سلوك هذا الطريق، أو سلوك غيره من سبل الباطل، تحقيقاً لمبدأ الابتلاء. أو افتراض أن الله جل شأنه قد ترك البشر سُدى، ولم يبيّن لهم خيراً ولا شراً؟!، فادعاء أن البشر يستطيعون الوصول إلى ذلك الخير مع مرور الزمن، هو بالإضافة إلى كونه من باب فرض المحال؛ فإنه لا يصدر إلا من ضال مضل لا يبغي الخير والسعادة لمجموع البشر، أو جاهل مطبق لا يدري شيئا عن صفاتهم، إذ متى سيصل البشر إلى الحق في نظر ذلك المدعي؟!، وكم من الزمن الذي سيمضي عليهم وهم في الشقاء والضنك؟!. والبشر مع الهداية المنزلة عليهم قد ضل أكثرهم، فعاشوا أزمنة طويلة في ضلال وشقاء، فكيف يكون الحال مع هذا الفرض؟!، وهل يغيب عن عاقل أن البشر ليسوا فقط عقولاً، بل لهم مع العقول أهواء وشهوات ونوازغ تنزع بهم نحو الفساد والبعد عن الحق؟!، فأي الافتراضين يتلاءم مع طبيعة البشر وأحوالهم وصفاتهم وما دلت عليه دراسة مسيرة حياتهم الدنيوية؟!.

٣- وعلى ذلك يبطل ظن من يظن بأن العقل يمكن أن يحكم باستغنائه عما سواه، أي باستغنائه عن النبوة، فهو في حاجة إليها حتى فيما يقدر أن يصل إليه، لو حكّم مبادئه الفطرية التي أودعها الله فيه، دون أن يتأثر بأهواء وشهوات صاحبه، أو ضلالات المضلّين.

---

(١) انظر ما سبق: ٧٠، ٢٧١.

(٢) انظر ما سبق: ٢٧١- ٢٧٢.

٤- ثم إن البشر عندما كانوا يبتعدون عن الهدي الرباني المنزل؛ فإنهم في قرارة أنفسهم كانوا يشعرون بحاجة ملحة إلى بيانات منسوبة إلى إلههم الذي يعبدونه، وتكون لهم دستوراً يسيرون بمقتضاه.

فمنهم من تشبث بشيء من ميراث نبوة سابقة، ولكنه دخله تحريف وتبديل وتغيير وزيادة ونقص، وقد يكون مثل هذا التبديل حصل من بعض المنحرفين، إلا أن الجماهير الكثيرة والمتبعة لهذا الكتاب المبدل كانت تظن أن هذا الذي بين يديها هو المنزل من عند الله سبحانه.

ومنهم من بلغ به الانحراف إلى دركةٍ أَلّه فيها بشراً، وصار يدعي أن كلماته كلمات إلهية منزلة. وغير ذلك من صور متعددة. ومن الناس فريق كان يوجد في فترات انقطاع النبوات وآثارها، وكان يتلهف إلى بيان رباني منزل وصحيح، فإن وجده آمن به.

ولذلك سارع أمثال هؤلاء إلى الإيمان بالأنبياء عليهم السلام عندما جاؤوهم بالحق، وقد يتأخر باللحاق في ركب المؤمنين من كانت غشاوة الباطل على عقله كثيفة، وذلك حتى تنجلي شيئاً فشيئاً ويتبين له الحق واضحاً ظاهراً فتخبت له نفسه.

فهل عقول هؤلاء مرفوضة غير مقبولة؟، وهل عقل من زعم استغناءه عن النبوة يكون هو وحده المقبول في مثل هذه المسألة؟. إن من يتصور هذا يكون هو المستهين بعقول البشر والمنتقص منها، وذلك إذ يرفض ما اجتمع عليه جماهيرهم.

٥- ما معنى القول بإمكان أن يحكم العقل باستغنائه عما سواه، أي عن النبوة؟؛ فهل الله جل جلاله سينتظر أحكام الناس ثم ينظر هل يرسل رسولاً من عنده أو لا يرسل؟!، وهل يتصور عاقل أن فعل الله جل شأنه متوقف على أحكام عقول البشر؟!. ثم ماذا لو اختلفت أحكام عقول البشر؟!، فهل يأتي الرسول عليه السلام فيستأذن من أرسل بينهم واحداً فواحداً، فيقول له: ماذا حكم عقلك بشأن بعثتي؟!. هل هذا هو المنهج العلمي السليم للمناقشة في سبيل الوصول إلى الحق؟!، أم إنه أسلوب لم يرق بعد إلى الأسلوب الخطابي[1]، بل هل أسلوب المغالطين الذين لا يهمهم الوصول إلى الحق، بل إنما غايتهم إغراق الحق في ركام هائل من أغاليط الجدل، وأباطيل الملاحاة.

٦- وعلى ذلك فإنه إذا قيل بأن النبوة فيها صَلاحٌ ولُطْفٌ، فليس ذلك كما سبق إلا لأنها تهدي العقل إلى الحق فيما يحتار فيه، أو تعينه على الوصول إليه، وتحميه من الشرور المحيطة به

(١) كثيراً ما يتهم حسن حنفي أدلة المتكلمين لإثبات الحقائق التي أتت بها النبوات بأنها خطابية أو عاطفية، انظر: مناقشته لأدلة وجود الله تعالى: المجلد الثاني: التوحيد: ١١، ١٢، ٤٨، ومواضع متعددة أخرى.

والصادة له عن الوصول إلى الحق، فالعقل بناءً على هذا محتاج إلى النبوة، وهي معينة وهادية له. وهذا هو الذي يُقبل في معنى الصلاح واللطف في النبوة .

٧- ومما ينبغي التنبية عليه أن: قصور العقل عن معرفة كثير من الغيبيات ليس عيباً فيه، إذ لا سبيل له إلى الوصول إليها بمجرده، أو من خلال أدوات المعرفة عند صاحبه، فلابد له من سبيل للوصول إلى ما يهمه أن يعرفه من الحقائق الغيبية، وهذا السبيل كان عن طريق هاد هو النبي عليه السلام، كما أن العقل في بداية نشأته في حاجة إلى من يصقله ويهذبه ويوصل له المعلومات الكونية شيئاً فشيئاً، ويدله على سبل المعرفة شيئاً فشيئاً، إلى أن تتكامل قواه عن طريق التربية، فيبني على ما تعلمه. والنبي عليه السلام بشر من البشر ومعلّم ناصح، يهدي العقول إلى الخير، فمن يرفض هذا أنفةً واستكباراً؛ كان كمن يرفض ذاك، ومَنْ قَبِلَ التربية والتهذيب والصقل والمعونة والمدد في مجال العلوم الكونية ومعارف الإنسان الدنيوية؛ كان عليه أن يقبلها في مجال العلوم الدينية، والحقائق المنزلة من عند ا لله جل شأنه.

القضية الخامسة:

زعم (العلماني) أن الذين يبينون حاجة البشر إلى الرسالة الربانية يهدمون العقل والعلم والاجتماع والسياسة.

وادعى أن في ذلك البيان قهر للإنسان، وهو يجعله يشعر بالضآلة والعجز أمام قوة عظمى تعرف أفضل منه، وتقدر على ما لا يقدر عليه!، بل وفيه هدم للنبوة، إذ هي لا تستغني عن العقل لفهمها، فما يوجه للعقل المستغني عن النبوة؛ يوجه كذلك للعقل الذي يفهم النبوة ويتّبعها...، والمنتسبون إلى النبوة لا يخلون من الأهواء الفردية، والتعصب، والاختلاف فيما بينهم والنقائص. والنبوة لم تمنع من وجود من يرفضها أو يرفض تطبيق ما جاء فيها. أو يصل إلى دركة الإلحاد. اهـ.

إن فرية (العلماني) هذه تشتمل على العديد من الأباطيل والمغالطات والكفريات. ومن وجوه إبطالها:

١- إنه إذا كان أولئك العلماء في نظر (العلماني) يهدمون العقول بسبب بيانهم لما فيها من القصور، أو لما تقع فيه حتما من الخطأ، وأنها بحاجة إلى النبوة لتجبر لها النقص، وتقوّم لها الخطأ؛ فإنه وعلى حسب منهجه هذا هادم للنبوة بالكلية، أي إنه منكر لها، جاحد بها. فمن انتقدهم لم يصلوا في بيان ما في العقول البشرية من عيوب ونقص وأخطاء؛ إلى معشار ما وجهه هو من نقد إلى النبوة، وإبطاله ما فيها من الفوائد التي يجنيها الناس منها.

٢- ثم إن أسلوب التعميم في الحكم -الذي يكاد يكون سمة بارزة لدى العلمانيين- أسلوب لا يعتمده من يبغي الحق ويبحث عنه، والعلماء الذين بينوا حاجة الناس إلى النبوة؛ لم يبطلوا بالكلية جهود البشر في العلوم الكونية والإنسانية، ولم يهدموا العقل البشري، لأنهم يعلمون أن العقل شرط في التكليف، وأنه بفقدانه يسقط التكليف. ولكن غاية ما بينوه أن تلك العلوم، والعقل البشري كذلك؛ بحاجة إلى تقويم وتصحيح، لم تستطع البشرية -رغم ما مر عليها من زمن طويل- أن تصل إليه من غير هداية ربانية، فالبشر وإن وصلوا إلى شيء من الحق في بعض تلك العلوم، وإلى مناهج عقلية في التفكير، ولكن ذلك قد خالطه من الخطأ ما يفوق الصواب بأضعاف مضاعفة، وداخله ما لا يحصى من الزيف والضلال، والذي احتاج معه إلى هداية تأتيه من عند الله تقوم له خطأه ذلك، ولا سيما فيما يتعلق بأمور العقائد والعلوم النفسية والاجتماعية ونحوها.

٣- إن البشر حتى يومنا هذا لم يؤمن أكثرهم بالحق المنزل من عند الله تعالى، وعندهم في الأمور التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام أخطاء وضلالات لا تعد ولا تحصى، وكثير من تلك

الأخطاء والضلالات لا يتصور أن ينفكوا عنها، لما تجلب من مصالح لبعضهم، وإن كانت على حساب بعض آخر. فالبشر مع الهداية الربانية قد ظلموا وطغوا، وبغى الكثير منهم، وأخطؤوا سبيل سعادتهم الدنيوية الشاملة لهم جميعاً، فضلاً عن سعادتهم الأخروية، فكيف يتصور الحال من دون تلك الهداية؟!.

٤- ففرق كبير بين الهدم وبين التقويم والتصحيح، ولا يصح من صاحب المنهج العلمي السليم أن يخلط بينهما، ولا أن يجهل الفرق بين هدم العقل والفعل الإنساني؛ وبين بيان نقصه وحاجته إلى التكميل. فالعقل الإنساني لكي يصل إلى الحقيقة الكاملة لابد له إما أن يباشر معرفتها عن طريق ما وهب الله تعالى صاحبه من الحواس، وهذا ما يحدث بالنسبة إلى العلوم الطبعية المادية، فعلى الرغم من أن العقل قد يمكنه عن طريق التفكير أن يصل إلى شيء من الحقائق فيما يتعلق بالقوانين الكونية، إلا أنه لا يستغني أبداً أن يقوم صاحبه بدراسة ظواهر الكون دراسة مباشرة عن طريق الملاحظة والتجربة وغير ذلك، لتكون معرفته أصح وأتم وأكمل.

وذلك فيما يتعلق بمسائل الكون وقوانينه مما يمكن للإنسان أن يباشر دراسته بنفسه، وأما الأمور التي لا يقدر الإنسان أن يباشر دراستها بحواسه أو عن طريق التجربة؛ فإنه ما من طريق لمعرفتها إلا عن طريق الخبر الصادق، والآتي من المطّلع عليها والعليم بها والخبير بتفصيلاتها. والحقائق الغيبية التي أتت بها النبوات هي من هذا القبيل، وقد جاءت من العليم الخبير الحق جل شأنه، فالعقل لا يمكنه إلا الوصول إلى شيء يسير من تلك الحقائق،وهو بهذا لا يستغني عن العلم الآتي عن طريق الأنبياء عليهم السلام، وذلك في سبيل الوصول إلى الحق الكامل الذي لا ريب فيه.

٥- إن من يدعى أن العقل يمكنه الاستغناء عن هداية النبوة في هذا المجال؛ هو كمن يدعي أن العقل يمكنه الاستغناء عن مباشرة الأمور الكونية للوصول إلى الحقيقة، والنبي عليه السلام ناصح وهاد إلى الحق، كما أن الأمور الكونية يمكن اعتبارها معلم غير ناطق للإنسان. وفي كلا الحالين لابد من وجود العقل الذي يفهم به الإنسان الحقائق.

٦- إنه يستغرب ممن يزعم اتباعه للمنهج العلمي تسويته بين العقل الذي يفهم الحقيقة المكتوبة أمامه، أو المنقولة له على وجه صحيح قطعي لا ريب فيه، وبين العقل الذي يحاول أن يصل إلى الحقيقة عن طريق التفكير المجرد، دون اهتداء بدين منزل منقول على الوجه الصحيح.

إن التسوية بين هذين العقلين هي كالتسوية بين العقل الذي يفكر في مسائل الكون دون اهتداء بدراستها دراسة مباشرة؛ بالعقل المهتدي بذلك. ولا يسوي بين العقلين في كلا الأمرين إلا من لم يقدر الأمور حق قدرها.

٧- وما ذكره العلماني من أن الاختلاف موجود عند المهتدين بالنبوة، كما هو موجود عند غيرهم[١]، فإنه بدعواه هذه يتعامى عن كون الحق موجوداً بصفة كاملة عند طائفة من المؤمنين، ولا اختلاف بينهم في أسسه وقضاياه الرئيسية، وهؤلاء هم الذين كَمُل اهتداؤهم بنور النبوة. وأنه بمقدار ما ينقص الاهتداء بنورها؛ يزداد الباطل، إلى أن يطغي بالكلية على ما قد يوجد عند غير المهتدين بها.

وإذا كان الاختلاف بين المهتدين بنور النبوة حول قضايا أذن الشارع فيها بالاجتهاد، إذا تكاملت شروطه؛ فليس هو بحد ذاته اختلافا مذموماً، وهو مثل الاختلاف الموجود بين العلماء في الأمور الكونية، فحتى مع دراسة تلك الأمور دراسة مباشرة عن طريق التجربة وغيرها؛ فإنه توجد مدارس واختلافات بينهم، ولكن لا يزعم عاقل أن مثل هذه الاختلافات تدل على عدم عظم فائدة تلك الدراسة المباشرة.

٨- وكذا الحال بالنسبة إلى ما ذكره من وجود الأهواء الفردية أو التعصب والجهل لدى بعض المنتسبين إلى الدين، فإن الكثير منهم قد خلوا من ذلك التعصب والهوى والجهل، وأما من داخلهم شيء من التعصب والجهل؛ فإن ذلك راجع إما إلى ضعف إيمانهم بالنبوات وما جاءت به، وإما إلى خلل في ذلك الإيمان.

٩- ودعواه وجود من لم يستفد من النبوة على الوجه الأكمل؛ يبطلها وجود من استفاد منها على أتم وجه وأحسنه. وحال المسلمين عبر عصورهم أفضل بكثير من حال غيرهم، باستثناء العصر الحاضر، الذي ابتعد فيه المسلمون بوجه كبير عن دينهم، وعن تطبيقه في واقع حالهم، وما دخل النقص على المسلمين في عصر من العصور إلا من هذا الباب.

وكذلك الحال بالنسبة إلى وجود الإلحاد أو الكفر، فالنبوة كما تبين ليست أداة جبر ولا قهر، وإنما هي دعوة هداية وإرشاد مقرونة بالحجة والبرهان، فمن أراد الحق؛ آمن بما جاءت به النبوة من الهداية، ومن شاء أن يكفر فله ذلك، والجزاء الحق سيلقي كلاً منهما.

ومن الفروق الأساسية بين المؤمن بالنبوات وغير المؤمن؛ أن المؤمن حقا إذا ظلم أو خالف الحق فإنه في قرارة نفسه يعلم أنه مخطئ، ويشعر دواما بأن عقاب الله تعالى الشديد قد يناله إذا لم يتب، ولا يوجد عند غير المؤمنين أي اعتقاد يشابه -ولو من بعيد- اعتقاد المؤمنين؛ ويدفعهم إلى التوبة والإنابة. والعصر الحاضر أكبر دليل على هذا، فالمؤمنون قد ضعف إيمانهم فقلت توبتهم، وغيرهم لاتكاد توجد عندهم توبة، يندفعون إليها بذواتهم، من غير أن يجبروا عليها .

١٠- ودعواه: وجود النقص لدى بعض عقول من ينتسبون إلى الدين؛ يدحضها أن ذلك النقص يرجع أساساً إلى أن اهتداءهم بما جاء به الوحي لم يكن على الوجه الأكمل، ثم هو مع هذا

---

(١) سيأتي مزيد رد لما ادعاه حسن حنفي من أن النبوة لم تمنع من وجود الكفرة والملحدين، انظر: ٢٩٠- ٢٩١.

أقل بكثير من النقص لدى العقل غير المهتدي. كما أن الإنسان ما زال عاجزاً عن فعل أمور كثيرة في هذا الكون، ولا يعني ذلك عدم فائدة ما توصل إليه من الآلات المعينة له على التصرف، وأداء ما يحتاجه من الأعمال، فعجزه معها أقل بكثير من عجزه بدونها، ومن الذي يزعم أنهما سواء؟.

١١- وما أراد أن يلمز به المؤمنين با لله تعالى حقاً من أنهم يشعرون بالخضوع والذلة... إلخ؛ أمام ا لله تبارك اسمه، وبعظم حاجتهم إليه، وإلى هدايته ومعونته وفضله جل ذكره؛ فإنما يدل على مدى الكفر والاستكبار الذي وصل إليه هذا (العلماني).

فإن كون المؤمن يشعر بأنه عبد خاضع لربه محتاج إليه في جميع شؤونه؛ هو أمر مجمع عليه بين المؤمنين با لله تعالى حقا، بل هو موجود عند جمهور من آمن با لله سبحانه على وجه ما، فهؤلاء هم الذين أقروا بذلك، وأحسوه من أنفسهم، واعترفوا به، فإن اغتر بعض الناس بما وصل إليه من معرفة بعض ظواهر الحياة الدنيا -وما جهله أعظم بكثير- فإن أولئك المؤمنين لم يغتروا بذلك. وهم الذين يعترفون ويقرون بما يشعرون به، ولم يجبرهم عليه أحد.

وهل يوجد من يؤمن با لله حقا، وهو لا يعلم مدى ضآلته أمام ربه جل وعلا، ومدى احتياجه له ولمعونته؟!.

إن مسألة الإيمان بأن الإنسان خاضع لربه جل جلاله محتاج له في كل لحظة، عاجز لا حيلة له ولا طول إلا من خلال ما يهبه ربه تبارك اسمه له؛ كل ذلك -وغيره كثير- لا علاقة له بإثبات وجوب النبوة أو عدمه، بل هو ركن إيماني قائم بذاته، وإن لم يتحقق فإنه لاحظ لصاحبه في الإيمان الحقيقي با لله جل ذكره، ولا في الدين المنزل من لدنه تبارك وتعالى.

وكذلك الحال بالنسبة لعقيدة أن ا لله جل جلاله عليم بكل شيء، وقدير كامل القدرة، وأنه لا نسبة مطلقا بين ما وهبه جل شأنه للإنسان من علم وقدرة، وبين ما يتصف به جل ذكره.

القضية السادسة:

زعم (العلماني) أن تفصيل العقائد التي لا يستطيع العقل الوصول إليها؛ إنما هي معارف نظرية، ولا حاجة إلى النبوة من أجلها.

فمن تضليلات (العلماني) أنه اعتبر أن تفصيل العقائد التي لا يستطيع العقل الوصول إليها؛ إنما هي معارف نظرية، وتساءل قائلا: فهل تجب النبوة من أجلها؟.

ومعلوم أن مثل هذا الأسلوب التهكمي؛ لا ينبغي أن يصدر ممن يتبع المنهج العلمي في مقارعة الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان. وهو بهذا الافتراء يتجاهل أن قاعدة الدين الأولى إيمان بحقائق غيبية عقلية نظرية ذوات تأثيرات في السلوك الإنساني. ومما يُردُّ به على هذا الأسلوب الغوغائي وما تبعه من افتراءات:

أ- إن اختبار الإنسان وابتلاءه في هذه الحياة قد تناول أمرين أساسين:

الأول: أمور يطالب بأن يعتقدها ويؤمن بها بعد إقامة الدليل، والصفة الأساسية التي تجمعها هي أنها غيبية. وهذه الصفة هي التي تفرق بين المؤمن والكافر، إذ لا أحد ينكر الأمر المشاهد المحسوس، ولكن الكثير قد ينكر الأمر الغيبي مهما كانت دلائله العقلية واضحة وظاهرة، وهذا هو المشاهد لدى الكثير من البشر، وأول صفة ذكرها الله للمتقين في سورة البقرة هي أنهم:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ... (٣)﴾ البقرة[(١)].

الثاني: منهج عملي يطالب البشر بأن يطبقوه في حياتهم. ويقوم دليلاً على صدقهم فيما اعتقدوه من الجانب الأول.

والبشر إذا حققوا هذين الأمرين نالوا السعادة الدنيوية، بالإضافة إلى السعادة الأخروية، والجزاء الأخروي هو الغاية الكبرى من وراء هذا الامتحان الدنيوي.

فمن آمن بالله تعالى ربا خالقاً إلهاً حكيما، وأنه جل شأنه قد خلق البشر ليمتحنهم في ظروف هذه الحياة الدنيا، كما قال جل جلاله:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (٣)﴾ الإنسان.

وأنه تعالى سيجزي البشر الجزاء العادل على ما قدموه في هذه الحياة، كما قال جل جلاله:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى (٤١)﴾ النجم.

---

(١) انظر ماسبق: ٩٦-٩٨.

وقال تبارك اسمه:

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥)﴾ الإنسان.

فمن آمن بذلك كله حقاً علم أهمية كل ما بينته النبوة من حقائق العقائد، وأنه يجب على المرء أن يؤمن بها جميعاً على الوجه الصحيح، كما يجب أن يطبق المنهج الرباني العملي، إذا أراد أن يسعد في دنياه وآخرته.

وأما الذي لا يرى أهمية للعقائد الصحيحة؛ فإنه في حقيقته مجرد عن الإيمان، خارج عن نطاقه، ومثل هذا لا ينبغي أن ينصِّب نفسه ليبين للناس الصواب من الخطأ في عامة الأمور، فضلاً عما يتصل بالنبوات.

ب- وأما معرفة الخالق جل شأنه ومعرفة وصفاته؛ فإنه وإن أمكن للعقل الوصول إلى العلم بوجود الله جل شأنه؛ لكن العقول ليست كلها كذلك، إذ قد وجدت طوائف قديمة وحديثة جحدت وجود الله عز وجل، وأما الذين آمنوا بوجود خالق أو بوجود رب أو إله، ولم يهتدوا بهدي النبوات؛ فقد كانت منهم ضلالات عدة، وهي كثيراً ما ترجع إلى ذات الخالق جل وعلا، إذ قد يتصورونه حالاً في شيء من مخلوقاته، كالشمس أو القمر، أو يشركون معه غيره. وقد يوجد الخطأ في الاستدلال نفسه، مما قد يؤدي إلى ضلالات اعتقادية تتعلق بالخالق جل وعلا؛ فتأتي النبوة وتقوّم ذلك.

وكذلك فإن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالله تعالى، ودعوة أتباعهم، قد أثمرت في التاريخ، وكان لها مسارها وطريقها الواضح، وأتباعها الكثيرون، وذلك لما يرافق دعوتهم من البراهين والأدلة، التي تلائم جميع مستويات البشر. ولأن دعوتهم عامة متكاملة، لم يكن منها الاهتمام بجانب وإهمال جوانب أخر. ولم يوجد مثيل لدعوتهم إلى الحق، قام به من لم يكن منهم، وكان له مثل آثارهم[1].

وأما الصفات فإنه وإن علم بعضها بالعقل؛ فإن بعضها الآخر لا يعلم بمجرد العقل، والضلالات التي وقع فيها البشر -قديماً وحديثاً- في شأن الصفات لا تكاد تحصى، وهي تشمل الصفات التي تعلم بالعقل، والتي لا تعلم به.

يدل على ذلك أن من لم يؤمنوا بالله تبارك اسمه حقاً؛ قد وصفوه سبحانه بما لا يليق به، وربما جردوه جل ذكره عن بعض ما يجب له، حتى وصل الحال ببعضهم إلى سلب النقيضين عنه سبحانه، وجعله كالعدم المطلق، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) انظر ما سبق: ٢٧١- ٢٧٢.

ومن المحزن أن بعض من أعلنوا إيمانهم با لله تعالى وأنبيائه عليهم السلام؛ قد آمنوا ببعض هذه الضلالات في صفات الرب سبحانه، عندما استجابوا فيها لعقولهم، وابتعدوا عن الهداية الربانية، ولم يثبت على الحق إلا المتبع لتلك الهداية كما أنزلت.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن فريقاً من غير المؤمنين قد خلعوا بعض ما يختص به الرب جل جلاله من الصفات على آلهتهم الباطلة.

جـ- وأما ما ذكره (العلماني) بالنسبة إلى حياة النفس بعد الموت، ووجود حياة أخرى تلي هذه الحياة؛ فإنه لا ينكر أن كثيرا من الحكماء قد أقروا بها على وجه من الوجوه، بالدليل العقلي، وهي -بصفة عامة- من الأمور الثابتة حقا بذلك الدليل، لا من أجل الوقوف عند إثباتها فحسب؛ بل لأجل ما تتضمه من إثبات الجزاء الأخروي الذي يتم من خلال هذه الحياة الثانية، على ما قدمه الإنسان من عمل في حياته الدنيوية، ثم إن هذا كله وإن كان ثابتاً إلا أن من اطلع على كلام من تناول هذه الأمور بعقله من غير اهتداء بالنصوص الشرعية -حتى بالنسبة للحكماء المنتسبين للإسلام-؛ وجد عندهم من الاختلافات والضلالات؛ ما يجعله يوقن بعظم أهمية وجود البيان الشافي والكامل للأمور المتعلقة بالجزاء الأخروي والحياة بعد الموت، حتى يتبين له الحق خالصاً من جميع الشوائب، التي قد تجعله يتشكك في هذه الحقيقة العظمى من حقائق الدين والوجود[1].

فمما سبق يتبين أنه يوجد فارق شاسع بين أن تأتي حقائق الدين من العليم الخبير جل جلاله، وحياً مقرراً، وبين أن يأتي بعضها استنباطاً واجتهاداً، إن أصاب في جزئية؛ فإنه يضل في أضعافها ضلالاً بعيداً.

علماً أن ثمة جانباً يجب اعتباره وهو: أن قضايا العقيدة وما يتصل بها؛ قضايا لا يجوز فيها الاجتهاد؛ لأنها متصلة با لله عز وجل وصفاته، والغيب الذي هو ملك له جل ذكره. فأين هو الخطأ في أن يبين ا لله تبارك اسمه لعباده الحق في تلك القضايا، وألا يجعلهم يتيهون في ضلالات الاستنباط والاجتهاد، التي لا حصر لها؟!.

(١) حسن حنفي نفسه يشكك في: جزء المعاد الذي كتبه؛ في: جميع الحقائق التي أتت في القرآن والسنة عن أمور الآخرة والجزاء فيها، ويحاول أن يؤول النصوص بالصورة التي تؤدي إلى إلغاء وجود أية حياة بعد الموت، وأي جزاء أخروي يقع على المرء فيها، فهذا مع وجود النبوة؛ فكيف الحال بدونها؟!.

القضية السابعة:

محاولة (العلماني) التزييفية لإبطال فائدة النبوة على اعتبار أنها لم تمنع من وجود من ينكر حقائق الدين في الواقع البشري. ولم تخفف من نقائص الإنسان، بل اعترفت بها.

(فالعلماني) يريد أن يوهم قارئه الجاهل أن المؤمنين بالنبوات يظنون أن الغاية منها تحويل الناس حتما إلى مؤمنين، ويتعامى عن أن القوانين الوضعية البشرية كلها لم تمنع وجود مجرمين يخالفونها ويجحدونها.

والحق أن دعواه السابقة لا تصدر إلا من مغالط أو جاهل بحكمة الرب جل جلاله، إذ جعل الناس مخيرين في هذه الحياة الدنيا في أن يتبعوا سبيل الهدى، أو سبل الضلال. ولو شاء تبارك وتعالى لسلب الناس حرياتهم، ولجعلهم أمة واحدة مجبورين على الهدى، ولكن تبطل بهذا حكمة الابتلاء والاختبار.

فليس من غايات النبوة ولا مما هو مطلوب من النبي عليه السلام حمل الناس كلهم على الهدى، ومنعهم من سلوك سبل الضلال، كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٩٩)﴾ يونس.

إن غاية ما هو مطلوب من النبي عليه السلام -كما هو معلوم لدى كل مؤمن-؛ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه إلى من بعث إليهم، ثم هم مخيرون بين الإيمان به واتباعه؛ أو تكذيبه واتباع غير سبيله.

وهذا يقتضي وجود فريق من المؤمنين وفريق من الكافرين[١]، فوجود من ينكر حياة النفس بعد الموت، أو أن هناك حياة أخرى بعده؛ هو أمر طبعي غير مستنكر لدى أحد، حتى مع وجود الهداية الربانية المنزلة.

وأيضاً فإن هذا الذي ذكره (العلماني) بالنسبة إلى النبوة إنما يدل على مدى الدركة التي ينحط إليها تفكير أولئك العلمانيين، إذ يغشي قصدهم الحقيقي والمبطن إلى محاربة الدين؛ على أبسط قواعد الفكر، ويجعلهم يتفوّهون بما لا يليق إلا بالسفهاء وأمثالهم.

وإلا فإن طرد الكلام السابق أن يقال: إن جميع التوجيهات والإرشادات والبرامج والتنظيمات والأجهزة والإدارات؛ لم تمنع الناس من الوقوع في المخدرات، أو في نحوها من المهلكات، فمن ثم لا يمكن القول: إن الناس بحاجة إلى مثل تلك الأمور، بل يمكن أن يستغنوا عنها. وهل يتصور صدور مثل هذا الهراء ممن لديه أدنى مسكة عقل؟!.

---

(١) انظر ما سبق: ٩٢-٩٣.

ويستمر المفتري (العلماني) في محاولة الهزيلة لإبطال فائدة النبوة، فيطلق دعوى: أن النبوة لم تستطع أن تخفف من نقائص الإنسان، وهي أول من يعترف بها. وهو إطلاق كاذب.

فصحيح أن الله جل شأنه قد بيّن في كتابه كثيراً من النقائص التي يتصف بها الإنسان، ولكنه بيّن مع هذا أن المؤمنين الإيمان الكامل، والملتزمين بمقتضياته؛ قد تخلصوا من تلك النقائص، قال تبارك اسمه:

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧)﴾ المعارج.

وكثير من النقائص سببها الشهوة، أو الشعور بالحاجة، فإذا جاءت النبوة بما فيها من الحقائق والأحكام، وآمن بها الإنسان الإيمان الكامل؛ استطاع أن يضبط شهوته وحاجاته؛ على وفق المعتقدات الإيمانية الراسخة لديه، وعلى ما يوافق الأحكام والحدود الشرعية.

والإيمان بالنبوة وحقائقها على الوجه الصحيح يعطي الإنسان المؤمن قدرة وقوة وعزيمة وإصراراً؛ على مواجهة ظروف حياته وامتحانه، فهو واثق من أن له عند ربه الحسنى، إذا هو التزم شرعه، وأنه مهما لاقى في هذه الدنيا فإنه جل شأنه لن يضيع عليه ذلك.

ثم إن المؤمن الحقيقي لا يخاف أحداً إلا الله جل شأنه، المالك لكل شيء والمتصرف فيه، فهذا يعطيه قوة يجابه بها أهل الشرور والطغيان جميعهم دونما تردد، في سبيل إحقاق الحق ونصرته.

وما دَخَلَ النقص والخذلان على المسلمين إلا عندما ضعف إيمانهم بحقائق ما جاءت به الرسالة الخاتمة، وعندما لم يطبقوا أحكامها على الوجه الأكمل.

القضية الثامنة:

اتخاذ (العلماني) فكرة إمكان الوصول إلى التوحيد بالعقل للإيهام بعدم حاجة البشر إلى النبوات.

أراد (العلماني) أن يؤيد زعمه الباطل: أن الإنسان يمكنه الاكتفاء بعقله، وأنه لا حاجة له إلى أية هداية ربانية، فذكر في مقالته التضليلية: أن التوحيد يمكن إدراكه بالعقل. اهـ.

صحيح أن التوحيد يمكن إدراكه بالعقل، إلا أن (العلماني) قد غفل أو تغافل عما يلي:

١- أنه على الرغم من ذلك لم نجد أمة من الأمم قد اهتدت إلى التوحيد الصحيح والكامل؛ من غير هداية نبوة منزلة من عند الله تعالى. فأكثر الناس مشركون، وقد نسبوا بعض أفعال الكون إلى غير الله تعالى، من ملك وأرواح ونحو هذا، وذلك شرك في الربوبية، وقد كان لكثير من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام منه نصيب كبير، فكم نسبوا إلى الكواكب والسيارات تدبير أمور الكون. هذا مع وجود الأدلة القرآنية الصحيحة الدالة على انفراد الله جل شأنه بتدبير الكون، كما هو منفرد بخلقه وصنعه ابتداء، فكيف الحال قبل نزول هذه الهداية؟!.

إن الدارس لأحوال الأمم قبل مجيء النبوات إليها؛ يرى مدى ما كانت عليه من الضلال في هذا الأمر.

٢- أن الشرك في العبادة هو الذي عم البشرية، حتى كادت تجمع عليه في بعض أحقابها، ولاسيما في الفترات التي تنقطع فيها الرسالات، ويطول فيها انقطاع النبوات، حتى اليهود والنصارى، فمعلوم أن شريعتيهما من أعظم شريعتين ربانيتين في أصلهما، وقد بقيتا حتى مجيء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم؛ إلا أننا نرى أن كثيراً من أتباعها قد وقعوا في هذا النوع من الشرك.

٣- أن توحيد الله في عبادته وإن كان يدل عليه العقل، كما يدل على قبح نقيضه وهو الشرك؛ إلا أن كثرة الشبهات في هذه المسألة قد أضلت كثيراً من الناس فأعمت بصائرهم عن الحق، ولما جاءهم الحق من ربهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعظم أمر استنكروه عليه جعله الآلهة إلها واحداً، كما حكى عنهم جل شأنه:

﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧)﴾ ص.

٤- أنه حتى بعد ظهور الإسلام وانتشاره بقي أقوام وأناس كثيرون جداً مصرين على ما هم فيه من الشرك، وهذا مما يدل على خطورة هذا المعتقد وتأثيره على كثير من النفوس، وأنه لولا

الهداية الربانية المنزلة؛ لما أمكن الحد من تأثيره، وإخراج ناس من محيطه إلى الإيمان با لله إلها رباً فرداً صمداً جل ثناؤه.

٥- أن ا لله جل شأنه عندما ناقش المشركين في كتابه لم يناقشهم بمجرد الدليل العقلي؛ بل تنزل معهم إلى أن أمر رسوله صلى ا لله عليه وسلم أن يطالبهم بما عندهم من أدلة منسوبة إلى ا لله جل شأنه، تأذن لهم أو تأمرهم بمثل هذا الشرك، قال تعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤)﴾ الأحقاف.

فالمعبود من دون ا لله سبحانه: إما أن يكون له خلق وتدبير، ونفع وضر في هذا الكون، فيعبد من أجل هذا، وإما أن يكون ا لله سبحانه قد أمر بمثل هذه العبادة، وإذ لم يكن أحد الأمرين؛ فهذه العبادة غير جائزة.

وكذلك فقد أمر جل شأنه رسوله محمداً صلى ا لله عليه وسلم أن يتنزّل مع من يجادلهم فيقول لهم:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ (٨١)﴾ الزخرف.

ولكن أين الدليل الصحيح على ذلك؟!، وقد قال جل شأنه:

﴿... إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١)﴾ النساء.

فما سبق يدل دلالة ظاهرة على أن الشرك في العبادة لا يمكن أن يطهّر أثره من نفوس الجماهير الكثيرة من الناس ليصلوا إلى التوحيد الخالص؛ إلا بنبوة منزلة من لدن الحكيم بمعالجة النفوس، الخبير بعباده سبحانه وتعالى. ومع ذلك، ونظراً لحرية الاختيار التي تركها ا لله تعالى لعباده في الدنيا ابتلاءً واختباراً؛ فإن كثيراً منهم لن يؤمنوا به تبارك اسمه إلا إيماناً مشوباً بالشرك، وهذا ما يؤكده واقع حال البشر، ويدل عليه قوله جل شأنه:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)﴾ يوسف (عليه السلام).

فلا يظن أحد أن البشر يمكن أن يصلوا بأنفسهم إلى التوحيد الخالص؛ إلا من لا يعلم شيئاً عن صفاتهم وأحوالهم وتاريخهم.

*

القضية التاسعة:

ادعاء (العلماني) أن أدلة النبوات أدلة سمعية فقط لا تعتمد على العقل.

لقد أراد (العلماني) أن يتذرع بدعوى أن أدلة النبوة سمعية فحسب؛ إلى الإيهام بأن البشر لا يحتاجون إلى النبوة وتعليماتها المنزلات من رب العالمين، لأن السمعيات ظن والعقليات يقين. وهذا ادعاء باطل:

١- فكم جاء في أدلة القرآن من أدلة سمعية عقلية على حقائق عديدة من حقائق النبوة، وقد استنبطها العلماء واستدلوا بها على مسائل العقائد، ومن ذلك الأدلة على وجود الله تعالى وتوحيده، والأدلة على صدق رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى حقيقة الجزاء الأخروي ووجوب حصوله، ونحو ذلك.

٢- ومن جانب آخر؛ فإن الأدلة الكثيرة المتنوعة على صدق النبوة، تجعل للأدلة السمعية المحضة؛ قوة الأدلة السمعية العقلية، فإذا آمن الإنسان بالنبي عليه السلام، وصدقه في جميع ما يأتي به من عند ربه تعالى، وعلم علماً يقينياً أنه معصوم من الكذب والخطأ فيما يبلغه عن ربه سبحانه، حكم حكماً عقلياً بأن كل خبر يبلغه النبي عليه السلام عن ربه هو خبر صادق لا شك فيه.

٣- فإن قيل: إن الظنية بالنسبة إلى الدليل السمعي إنما تتناول معناه؛ فإنه يجاب عنه: بأن مثل هذا الإطلاق العام الشامل لجميع الأدلة السمعية؛ إطلاق خاطئ ومردود، فإن النبوة إنما هدفها الأول إصلاح البشر، وهذا لا يتم إلا بالبيان الواضح، الذي لا لبس فيه، ولاسيما لمسائل العقائد. ومن الذي يقول: إن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من دعوة إلى الإيمان بالله الواحد ربا لا شريك له، وتوحيده جل شأنه، والإيمان بالجزاء الأخروي؛ كل ذلك ظني الدلالة، وهو يحتمل معاني أخر، غير المعاني الظاهرة من خلال الأدلة السمعية؟!، إن أحداً لم يدع ذلك إلا أولئك المنتسبين كذباً وزوراً إلى الإسلام، وهو وأهله منهم براء، كالباطنية وأضرابهم.

القضية العاشرة:

زعم (العلماني) أن الصفات الربانية ليست في حقيقتها إلا مُثُلاً للإنسان الكامل، ليصل بهذا إلى إبطال فائدة النبوة في إثبات الصفات الربانية.

أقول: إن من أخطر الافتراءات التي ادعاها هذا المبطل وهو يجمح إلى غايته الفاجرة لإلغاء أية فائدة للنبوة؛ زعمه: أن الصفات الربانية ليست في حقيقتها إلا مُثُلاً للإنسان الكامل. أي إنه يريد أن يقول: إنه لا وجود -في واقع الأمر- لصفات يتصف بها الرب جل وعلا. اهـ.

والحق أنه لا يجهل أحد عنده علم بشيء من اليقينيات الدينية؛ أن الصفات الربانية قد جاءت النبوات بإثباتها، وبيانها على أكمل وجه وأوضحه. فادعاء أنها ليست إلا مُثُلاً للإنسان الكامل؛ ادعاء خطير يخرج صاحبه من الملة:

١- فإنه إن قصد به أن الله جل شأنه ليس متصفاً على الحقيقة بشيء من تلك الصفات؛ فذلك ضلال مبين، وهو إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، وهو اعتقاد يدفع صاحبه إلى الكفر الصريح، والإلحاد البيّن!. فماذا يبقي من الإيمان عند من ينفي عن الله تعالى أية صفة؟!، إذ في هذا تشبيه له سبحانه بالمعدوم الذي لا وجود له أصلاً، فكأن صاحب هذا المعتقد يريد أن ينفي بزعمه وجود الحق تبارك وتعالى، وبدل أن يصرح بذلك يزعم أنه مؤمن بوجود ما لا صفة له على الإطلاق!. وقد ينفي عنه صفة الوجود كذلك!.

٢- والظاهر أن (العلماني) يعتقد أن الصفات الربانية ليست في حقيقتها -بزعمه- إلا الصفات التي يتمنى الإنسان أن يكون عليها، ليصل إلى درجة الكمال، فلما عجز عن ذلك، وعن تحقيق تلك الصفات على أرض الواقع، ولأنه متعلق بها، ويتمناها لنفسه ليكون كاملاً؛ فقد نسب الإنسان تلك الصفات إلى الله تبارك إسمه.

أي إنه -على حسب افترائه- ليست توجد على الحقيقة صفات كمال للرب جل جلاله، وإنما هي أمنيات ورغبات بشرية، سما بها الخيال البشري فنسبها إلى الله سبحانه.

وإذا كان حال الصفات كذلك، ليست إلا اختراعات وأوهاماً لا حقيقة لها؛ فمَن نُسِبت إليه هو كذلك اختراع من خيال البشر، إذ لابد من أن يتخيلوا موجوداً ينسبون إليه صفات الكمال تلك. وإلا فما فائدة موجود لا يوصف بأية صفة ولا يوجد له أي فعل؟-!. وليست توجد دركة للإلحاد وراء هذه الدركة[1].

---

(١) انظر: من العقيدة إلى الثورة، المجلد الثاني: التوحيد؛ حسن حنفي: ٩٣. وقد بين في هذا المجلد كثيراً من إلحاداته المتعلقة بوجود الخالق جل علا، أو صفاته، أو أفعاله.

٣- وإن قصد: أن صفات الرب جل ذكره ينبغي على الإنسان الكامل أن يتصف بها؛ فهذا أيضاً ضلال وزيغ وكفر بواح. إذ إنه توجد صفات لا يمكن للإنسان كاملاً كان أم ناقصاً أن يتصف بها، ولو من باب المشاركة في الاسم. فكيف يمكن أن يكون الإنسان رب كل شيء ومليكه، وخالقه وخالق كل شيء، وبيده ملكوت السموات والأرض، وكيف يكون محييا مميتا على الحقيقة؟![1]. وهل يستطيع الإنسان أن يحيي خلية حية واحدة فضلاً عن كائن حي متكامل الصفات؟!.

٤- كما أنه توجد صفات يختص بها ا لله جل شأنه لا ينبغي للإنسان أن يتصف بها، ولو من باب المشاركة في الاسم فقط، فا لله جل شأنه إله كل شيء، ولا يجوز للإنسان أن يجعل من نفسه إلها، وا لله تعالى له الكبرياء والجبروت دواماً وعلى كل حال، ولا يجوز ذلك للإنسان، ونحو هذا.

٥- ولو كانت الصفات الإلهية هي عبارة عن مثل للإنسان الكامل؛ لكانت كل صفة ينبغي أن يتصف بها هذا الإنسان؛ يمكن جعلها صفة إلهية، وهذا مستحيل، فالإنسان ينبغي له أن يخشى ا لله تعالى حق خشيته، وأن يعبده حق عبادته، ولا يمكن أن يوصف ا لله سبحانه وتعالى بأنه يخشى أحداً، أو أنه يعبد أحداً، تعالى ا لله عن ذلك علواً كبيراً.

٦- إن إطلاق القول بأن صفات الرب جل شأنه مُثُل للإنسان الكامل، وأنه ينبغي له الاتصاف بها؛ إطلاق خطير، إذ مؤداه رفع الإنسان إلى مقام الإلهية، عياذاً با لله تعالى، وذلك بإضفاء صفاتها عليه. وفي المقابل فإن ذلك الإطلاق ينزل بالإله -جل عن ذلك- إلى مصافّ الإنسانية؛ بجعله متصفا بصفات البشرية.

٧- والمؤمن با لله تعالى حقا يعلم يقينا أن جميع صفات الرب عز وجل لا يمكن أن يتصف بها المخلوقون، وأما الصفات التي قد تقع فيها المشاركة بين الرب جل ذكره وعبيدة؛ فإنما هي مشاركة في الاسم فقط، وأما حقيقة الصفة فلا تشابه فيها بين الخالق جل وعلا والمخلوقين. قال تعالى:

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ (١١)﴾ الشورى.

(١) لا على أسلوب الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه جل شأنه، البقرة: ٢٥٨.

القضية الحادية عشرة:

زعم (العلماني) أن معرفة العقل البشري للحسن والقبح كافٍ لحياته.

وقد بنى (العلماني) على ذلك الزعم الباطل: دعوى أن الإنسان لا يحتاج من ثم إلى النبوات، ولا إلى تعليمات ينزلها الله تعالى ليعمل بها عباده الذين وضعهم موضع الامتحان في الحياة الدنيا. اهـ.

والحق بالنسبة إلى قضية الحسن والقبح العقليين يتلخص بما يلي:

١- إنه لا ينكر أن الله جل شأنه قد وضع في العقل موازين يستطيع بها أن يعرف حسن بعض الأمور أو قبحها، ولكن مع ذلك فإن المعرفة العقلية المجردة غير كافية في أن تجعل الإنسان يلتزم الأمر الحسن، أو يبتعد عن القبيح، إذا لم يشعر بأن مصلحة له -عاجلة أو آجلة- تتحقق من وراء ذلك الالتزام، ولاسيما إن كان في المخالفة تحقيق شهوة عارمة، أو إشباع رغبة جامحة.

٢- وفي قضية التوحيد والشرك؛ فإن كثيراً من الناس قد وقعوا في الشرك لما ظنوه من تحقق مصالح لهم من ورائه، فيظنون في معبودهم قدرة على التأثير ولو على بعض الأمور، ومن ثم يتجهون له بالعبادة، ليحقق لهم مطلوبهم. ولذلك فإنه على الرغم من أن العقل يدرك حسن التوحيد وقبح الشرك، فإن الناس إلا من ندر منهم -قبل النبوات- قد خالفوا ذلك الحكم العقلي، بل وظنوا أن العقل يقضي بخلافه.

ولكن بعد النبوات -ولاسيما نبوة محمد صلى الله عليه وسلم المؤيدة بالبراهين الربانية- اختلف الأمر، فقد أوضحت أن أمر الشرك والتوحيد؛ ليس مجرد أمر حسن وقبح، بل إنه يتبعه نتائج لها خطورة عظمى، فمن آمن بالتوحيد الصحيح فإنه يضمن -بفضل الله تعالى- أن يكون من أهل النعيم المقيم أبداً، ومن مات على الشرك؛ فإن النبوات قد بينت له أنه سيكون من أهل العذاب الشديد المؤبد. هذا بالإضافة إلى السعادة النفسية التي تتحقق للمؤمن في حياته الدنيا، وغير ذلك مما يتفضل به الله جل شأنه عليه، وإلى الشقاء الدنيوي ذي الصور المختلفة، الذي يصيب من كفر بالله سبحانه ولم يؤمن به حقا.

فهذا الشعور بالمصلحة العاجلة والآجلة ، والمتحققة من وراء قضية التوحيد؛ وفي مقابل ذلك ما يؤدي إليه الشرك من الضرر العاجل والآجل ؛ كان أحد الأسباب التي جعلت أناساً كثيرين يستجيبون لهذا الحق ويذعنون له. ويقاس على هذا سائر قضايا الإيمان والأحكام الربانية المنزلة.

٣- ومثال آخر وهو أنه قد يقال: بأن العقل يمكن كذلك أن يحكم للموحد بأنه يستحق أن يكون من أهل النعيم، والمشرك يستحق أن يكون من أهل العذاب. ولكن مثل هذا القول لم يجمع عليه لا الحكماء من خارج أهل الملل، ولا من داخلهم، فكثير من الحكماء من يرى أن الحق والواجب يجب أن يفعل لأنه كذلك لا لشيء آخر، كرجاء ثواب ونحوه. والشر والإثم يجب أن

يترك، لأنه كذلك لا لشيء آخر، كالخوف من العقاب ونحوه[(١)]. حتى علماء الكلام يرى كثير منهم أن العقل بمجرده لا يستطيع أن يحكم لمن يتبع الحق؛ بالإثابة له من الله تعالى، وأن يحكم لمن يتبع الباطل؛ بالعقوبة له من الله جل شأنه[(٢)]، فإذا كان هذا هو الحال بعد ورود الشرائع من الله جل شأنه ووضوح بياناتها، فكيف يكون الحال قبل ورود الشرائع؟!. لا شك بأن الاختلاف عندئذ أشد وأعظم، والحيرة أكبر، ومن المعلوم أن البشر إنما يبحثون عن تحقيق مصالح لهم ثابتة ومتيقنة، سواء كانت عاجلة أم آجلة، وذلك من وراء ما يقومون به. فلو لم يكن عندهم من ربهم جل ذكره الدليل القطعي على تحقيق المصلحة الآجلة في الدار الآخرة؛ لاندفعوا جميعاً بكل حرص وجشع لتحصيل المنافع الدنيوية العاجلة، وهذا سيؤدي إلى أن يتضاعف تقاتلهم وتناحرهم أضعافاً كثيرة على ما هو موجود بين غير المؤمنين بالجزاء الأخروي، أو من كان في إيمانهم ذلك ضعف أو نقص أو خلل.

٤- فذلك هو الحال بالنسبة لما قد يمكن للعقل أن يدركه، ولكن ليست كل الأمور كذلك، إذ توجد:

- أمور لا يمكن للعقل إدراك ما فيها من حسن أو قبح.

- أمور يتحير فيها العقل، لاشتمالها على جوانب حسنة وأخرى قبيحة، ولكن لا يمكنه إدراك ما في تفصيلاتها من حسن أو قبح.

- أمور يدركها العقل على الجملة.

وفي جميع هذه الأقسام فإن العقل -كما في القسم الأول- لا غنى له عن الهدى والبيان الرباني، الذي يأتيه عن طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام.

- فما لا يمكن للعقل أن يدركه؛ فإن الشرائع التي يأتي بها الأنبياء عليهم السلام تبين له الحكم في شأنه وتؤصله.

- وما يتحير فيه العقل؛ تأتي الشرائع الربانية وتقطع الحيرة، وتبين الحكم الصواب.

- وما يدركه العقل على الجملة؛ تؤكد الشرائع الربانية المنزلة ما توصل إليه العقل من حكم صائب، ثم تفصل المجمل، وتبين أحكام ما فصلته.

ومع عدم وجود هداية ربانية منزلة فإن حال البشر بالنسبة إلى القسمين الأخيرين؛ لن يكون بأفضل من حالهم بالنسبة للقسم الأول، إذ سيوجد حتما أناس كثيرون يعارضون ما توصل إليه عقول بعض البشر من حكم صائب في الأمور المجملة، للأسباب التي سبق ذكرها، وقد يثيرون الشبهات، ويزينون باطلهم بزخارف يخدعون بها بشراً كثيراً، وعندئذ فلا غنى للبشر عن الهداية الربانية، التي تكشف زيوف هؤلاء، وتدحض باطلهم، وتبيّن الحق واضحاً جلياً.

(١) انظر: فلسفة كانط؛ إميل بوترو؛ ترجمة: عثمان أمين: ٣٠٦-٣١١، ٣١٤-٣٢٩، وما بعدها، فكرة الواجب الأخلاقي عند كانط....

(٢) انظر: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به؛ القاضي: أبو بكر بن الطيب الباقلاني: ٤٨-٤٩.

القضية الثانية عشرة:

ادعاء (العلماني) أن العقل قادر على بث الطمأنينة في الإنسان، وتحويل ما قد يقع فيه من التردد والشك والظن والجهل إلى قطع ويقين وعلم.

إن ادعاء (العلماني) أن العقل قادر على بث الطمأنينة في الإنسان، وتحويل ما قد يقع فيه من التردد والشك والظن والجهل؛ إلى قطع ويقين وعلم؛ يكفي في الرد عليه: أن العقلاء من غير المسلمين حتى يومنا هذا لم يتفقوا على كثير من القضايا التي جاء الحكم فيها واضحاً بيّنا في الإسلام، ومن أقْرَبِها قضية التوحيد والشرك، التي حاول (العلماني) نفسه الاستشهاد بها، وكذا مسألة طبيعة الجزاء، والكثير من صفات الله عز وجل ونحو هذا.

وكذلك فإن علماء الكلام من أهل الإسلام عندما تناولوا كثيراً من قضايا العقيدة والإيمان تناولاً عقلياً؛ اختلفوا فيما بينهم، وإن كانوا قد اتحدوا في العديد من نتائج تلك القضايا، اعتماداً على الدليل النصيّ، كمسألة استحقاق الجزاء مثلاً. وحتى الآن ما يزال هذا الاختلاف موجوداً عند الكثيرين.

فليس العقل وحده قادر على تلك المهمة، بناءً على الواقع التاريخي التجريبي.

القضية الثالثة عشرة:

محاولة (العلماني) إبطال فائدة الأدلة النبوية الشرعية العقلية، بدعوى أن العقل واضع منهج البرهان.

إن من سقطات (العلماني) الفاجرات؛ محاولته إبطال إحدى فوائد النبوة الثابتة؛ وهي ما فيها من أدلة تجمع بين كونها شرعية من عند الله تعالى؛ وكونها عقلية تدل على الحق بدليل عقلي، لا بدليل سمعي مجرد.

واعتراضه على هذه الأدلة اليقينية قد كان هنا مستندا على دعوى أن العقل قادر على ذلك، فهو واضع منهج البرهان.

واعتراضه هذا ساقط لا معنى له، إذ لم يبين ما وجه التعارض بين كون العقل قادراً على معرفة ذلك الدليل؛ وبين أن يأتي بيان ذلك الدليل من خلال النصوص الشرعية؟!.

أ- فالدليل العقلي إذا جاء في النصوص اكتسب قوة إضافية، إذ قد يجابهه قبل وروده في النص الشرعي بعض الشبهات، حتى من الذين يبحثون عن الحق، ولا تكون حقائقه واضحة عندهم، فإذا آمن هؤلاء برسالة النبي عليه السلام، لما لها من دلائل وبراهين عديدة، وجاء الدليل العقلي بيناً واضحاً، ضمن نصوص الرسالة؛ انقادوا له، واضمحلت تلك الشبهات التي كانت قائمة في أذهانهم، نظراً لما اجتمع عليها من دليل نصي، مؤيد ببراهين عديدة؛ ودليل عقلي.

ب- وقد يكون من حكمة مجيء الدليل العقلي في النصوص صياغته -كما سبق[1]- بصورة لا تشوبها شائبة، قد تؤدي إلى أخطاء عقدية. أو ترجيح دليل أو أكثر على دليل آخر، ربما يشتمل أو يؤدي إلى أمور غير صحيحة عقدياً.

جـ- ثم إن الدارس للأدلة العقلية النصية يجدها تتناسب مع مستوى عقول كل من يقرؤها، بداية من العالم المتمكن الذي قد يستنبط منها ما لا يستنبطه غيره، إلى الإنسان العادي، الذي يجد فيها ما يقنعه ويدله على الحق، بحسب مستواه الفكري.

أما الأدلة العقلية التي يضعها البشر فإنها تصاغ بمستوى يلائم واضعيها، فيكون في أدلة العلماء من التعقيد ما لا يستطيع معه الإنسان العادي أن يستفيد منها الفائدة الحقيقية. وهذا يوجد في جميع العلوم العقلية الفلسفية، فهي حتى الآن لم يستطع أصحابها أن يصوغها صياغة كاملة، بشكل يفهمه كل قارئ لها، مهما كان مستواه الفكري. وربما قيل: إن أمثال هؤلاء عليهم أن يتبعوا أولئك الذين يرونهم أعلى منهم في القدرة على التفكير العقلي، وعندئذ يقال: فما الفارق

---

(١) انظر ما سبق: ٢٧٤-٢٧٦.

بين أن يتبع جماهير البشر أمثال هؤلاء، وبين أن يتبعوا النبي عليه السلام وهو واحد من البشر، ولكنه عليه السلام معصوم من الخطأ، ومؤيد بالحق من قبل الله عز وجل، ولا يتكلم عن هوى أو رأي خاص. بل الوحي الرباني إما أن ينزل عليه بالحق ابتداء؛ وإما أن يؤيده ويقره على ما ذكره أو فعله من الحق، وإما أن يبين له ما هو أحسن وأفضل. ثم إن النبي عليه السلام يحدّث كل واحد من البشر بما يلائم مستواه؟!. وهذا بالطبع في المسائل التي هي موضوع النبوة. ويلاحظ هنا أن من يتبع العالم المؤمن بالنبي عليه السلام، والناشر لدعوته، والمبين لها، هو في نهاية الأمر متبع للنبي عليه السلام، إذ هذا العالم لا يخرج عن سنن النبي عليه السلام فيما يقوله أو يفعله.

د- وبعد، -وكما سبق[1]- فإنه حتى الأدلة النصية السمعية النبوية؛ يصبح لها قوة الأدلة العقلية لدى جماهير البشر، وذلك نظراً لما يرافق النبوة عموماً من مؤيدات وبراهين عديدة، تؤكد صدق النبي عليه السلام في كل ما ينقله عن ربه جل وعلا.

---

(١) انظر ما سبق: ٢٩٤.

القضية الرابعة عشرة:

محاولة (العلماني) الهزيلة لإبطال فائدة النبوة في إثبات العقائد بادعائه: أنها إنما جاءت بمنهاج عملي للناس، لا لإثبات حقائق اعتقادية.

أقول: إن من عجائب محاولات المفتري (العلماني) الهزيلة لإبطال فائدة النبوة في إثبات العقائد؛ ما ذكره من أنها إنما أتت بمنهاج عملي للناس[1]،وظاهر أن هذا كلام غوغائي لا يفيده شيئاً.

فإن كون النبوة قد أتت بمنهاج عملي للناس، لا يتعارض مع الشق الآخر الذي أتت به، وهو العقائد التي طالبت الناس بالإيمان بها، والتي هي في حقيقة أمرها الركيزة الأساسية لذلك المنهاج.

فبدون الإيمان لا يمكن لذلك المنهاج أن يطبق التطبيق الصحيح ، ولا أن يأتي بالثمار المرجوة منه. وهذه العقائد قد أتت النبوة بالبراهين الدالة عليها. فلا يستغرب شمول النبوة لتلك البراهين، ولا شمولها للأدلة على الحق الذي جاءت به.

القضية الخامسة عشرة:

إيهام (العلماني) أن النبوة تحتاج إلى العقل لاستنباط الأحكام ومن ثم فهو يغني عنها.

إن من غوغائيات (العلماني) أيضاً لإبطال فائدة النبوة وتعظيم العقل؛ ما ذكره من أن النبوة تحتاج إلى العقل لاستنباط الأدلة!. اهـ.

والحق أن كل مؤمن يعلم علماً ضروريا أن العقل شرط أساسي لاعتبار الإنسان مكلفاً في هذه الحياة، وليحاسب على عقائده وأعماله.

وطبعي أنه لابد من العقل لفهم الأدلة الواردة في النصوص الشرعية، ومن ثم الإيمان بما دلت عليه من الحقائق. وهذا في حقيقة أمره لا يزيد أمر النبوة إلا قوة، إذ يستبعد أن يوهب الإنسان مثل هذه النعمة العظيمة ثم تبقى معطلة عن الهداية والرحمة.

القضية السادسة عشرة:

ادعاء (العلماني) أن النبوة لا تعمل وحدها دون العقل، ذريعة لتمجيده، وادعاء الاستغناء به عن النبوات.

وأيضاً ؛ فإن من غوغائيات (العلماني) للوصول إلى الهدف السابق؛ ما ذكره من أن النبوة لا تعمل وحدها. اهـ.

وهذا كلام لا معنى له، إذ لا أحد يجهل أن النبوة ليست أداة تحمل الناس على الإيمان بالحق، شاؤوا أم أبوا. فأحكام النبوة موجهة إلى المكلفين، وهؤلاء قد أعطوا حرية الإيمان أو عدم الإيمان بما جاءت به النبوة، وقد أعطوا كذلك العقول للتبصر بها والتفكر، فليست النبوة تعمل وحدها، وليس من عاقل يقول ذلك. وإنما النبوة هادية إلى الحق ومنيرة للسبيل، فمن أعمل عقله على الوجه الصحيح، وتفكر بما جاءت به؛ آمن بها وانقاد لها. وانتفع بما جاءت به من الهدى، فسعد في الدنيا، ونجا في الآخرة.

---

(١) وهو أمر سينقض عليه أيضاً.

القضية السابعة عشرة:

زعم (العلماني) أن العقل هو الذي يحول أدلة النبوة إلى يقين.

وكذلك فإن من غوغائيات (العلماني) أيضاً للسبب نفسه؛ زعمه أن العقل هو الذي يحوّل أدلة النبوة إلى يقين. اهـ.

والحق أن الناظر إلى أدلة النبوة المبينة للحقائق يجدها:

أ- إما أن تكون قد سيقت على نحو يقنع العقول بالحجة والبرهان، فهي ليست مجرد أدلة سمعية تخبر عن أمور معينة؛ بل هي أدلة شرعية عقلية يقينية. بمعنى أنها أثبتت الحق بدليل يجعل العقل -بغض النظر عن مصدرها- يسلّم بها، فلا يقال إن العقل حوّلها إلى يقينية، أي إنه حوّلها إلى عقلية، ومن ثم أصبحت يقينية، فهذا غير صحيح. إذ هي عقلية لأنها صيغت على نحو يتوافق مع ما فطرت عليه العقول من طرق للاستدلال، فالعقل يدركها ويفهمها ويسلّم بما دلت عليه، وهذا لا يعني أن العقل هو الذي جعلها كذلك.

وهذا كما أن العقل قد يدرك بعض ما في الكون من نظام وإبداع عجيب، لا يدخله خلل، وذلك من خلال الموازين التي فطره الله جل شأنه عليها. وإدراك العقل لتلك العناية والحكمة البالغة، والنظام البديع والإتقان الباهر؛ لا يعني أن الكون كان على غير تلك الصورة، ثم جاء العقل فجعله عليها؛ فليس الأمر كذلك، إذ العقل أداة إدراك ليس أكثر، تدرك الأشياء على ما هي عليها، ثم تترجم ما أدركته وتبينه، وتستفيد منه في حدود ما تقدر عليه .

ب- وإما أن تكون أدلة النبوة قد سيقت على نحو خبري سمعي؛ فهي أدلة شرعية خبرية، ولكنها مع ذلك أدلة تقنع العقول على نحو يتوافق مع ما فطرت عليه من موازين لمعرفة الحق.

فإذا كان مصدر الخبر صادقاً فيما يخبر به، عالماً به تمام العلم، معصوماً من الخطأ والكذب في ذلك، وقد دلت البراهين العقلية على جميع ذلك، وصدقت به العقول وتيقنته؛ وجب على كافة العقول -الصالحة للإدراك- أن تسلّم من ثمّ بجميع ما يأتي به ذلك المصدر، وهذا يعتبر أحد الموازين الفطرية العقلية لمعرفة الحق، والانقياد له.

هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من تلك الأمور التي تثبت عن طريق الخبر السمعي؛ إنما هي تفصيلات لأمور تعتبر أساساً لها، وقد ثبتت هذه الأمور بالأدلة الشرعية العقلية، وذلك كالجزاء الأخروي الثابت بالدليل العقلي الشرعي، وكثير من تفصيلاته التي تقع في الدار الآخرة.

جـ- يبقى هنا مسألة دلالة النصوص؛ فقد يقال: إن دلالة النصوص السمعية العقلية لها صفة اليقينية، وأما دلالة النصوص السمعية الخبرية فهي ظنية.

وهذا في حقيقة الأمر تفريق غير صحيح ، فإن النصوص الصحيحة الثابتة ، لم تأت بما يناقض العقول، فهي إما أن تأتي بما تقضي به العقول السليمة، أو أنها تأتي بما تتوقف العقول في شأنه فلا تحكم له بنفي ولا إثبات، حتى يأتيها ما يدل على هذا أو ذاك. ومن ثم فإذا جاءها ما يدل على ثبوته، بالنص الصحيح الصريح، آمنت وصدقت به وتيقنته. ولا يجوز أن تجعله من باب الظن، لا من باب اليقين، لمجرد أنها لم تقض بحصوله ابتداءً.

القضية الثامنة عشرة:

ما ذكره (العلماني) من أن العقل قادر على صياغة منطق للبرهان، للإيهام التمويهي بعدم الحاجة إلى النبوات.

ومن يستمر (العلماني) في الدجل والتلبيس وصولاً للهدف ذاته، فيذكر أن العقل قادر على صياغة منطق للبرهان.. الخ. ومادام الأمر كذلك فلا حاجة بزعمه للأدلة التي تأتي بها النبوات.

وتلبيس (العلماني) في هذه الدعوى ظاهر بيِّن، إذ لا تعارض بين قدرة العقل تلك؛ وبين مجيء ذلك البرهان في النصوص الشرعية:

أ- فالله جل جلاله كما أنه هو الذي خلق العقول ووضع فيها الموازين، التي لو طبقتها لاستطاعت الوصول إلى وضع مناهج للبراهين، والتأكد من صحتها، فكذلك هو جل شأنه الذي أنزل تلك النصوص، ووضع فيها البراهين، المتوافقة مع الموازين التي فطر عليها العقول، فأي تعارض أو تصادم في هذا، ولماذا لا يكون التوافق والتآزر في سبيل إحقاق الحق وإبطال الباطل؟!.

ب- ثم إن الأمور التي لا يستطيع الإنسان الوصول إليها بحواسه ودراستها دراسة مباشرة؛ فإنه غالباً ما يقع التفكير العقلي المجرد تجاهها في أخطاء كثيرة، وكم اكتشف علماء الكون والحياة من أخطاء لا حصر لها، لأولئك العلماء الذين تناولوا أمور الكون والحياة المادية بمجرد التأملات العقلية، دون أن يستطيعوا مباشرة دراستها، والتفحص فيها، لعدم إمكان ذلك في عصرهم، ولما تقدمت العلوم وأمكن دراسة تلك الأمور بالأدوات والآلات دراسة مباشرة؛ تبين خطأُ كثير فيما كان يُظن أنه حقائق علمية.

فإذا كان هذا في الأمور الكونية والحياتية التي يعيشها الإنسان؛ فكيف يكون الحال فيما غاب عن الإنسان، ولم تكن له أية وسيلة تمكنه من التعرف إليه مباشرة؟!. إن الخطأ الذي يتوقع أن يصدر من العقل في هذا المجال؛ أكبر بكثير من الذي صدر عنه في المجال الذي يعيش فيه، ويرى كثيراً من مظاهره.

فالنبوة يشبهها مع الفارق الكبير دور الآلات التي تَمَكّن بها الإنسان من تصحيح أخطائه، فهي توصل إليه بالطريق الظاهر الواضح: المعلومات الصحيحة عما لا يستطيع أن يباشر دراسته ومعرفته بنفسه.

والإنسان العاقل حقاً هو الذي يعترف بحدوده التي أثبتها الواقع والتجربة، ويستفيد من كل ما يساعده على تنمية معرفته وعلومه على النحو الصحيح، ولا يعيش على مجرد أوهام وتمّنيات وظنون.

القضية التاسعة عشرة:

محاولته جعل برهان النبوة منحصراً بين المعجزات والمشاعر الوجدانية للمؤمنين بالنبوة.

ومن مزاعم (العلماني) الباطلة: محاولته جعل برهـان النبوة منحصراً بين المعجزات والمشاعر الوجدانية للمؤمنين بالنبوة.

والحق أن براهين النبـوة ليست منحصـرة في تلك المعجزات؛ أو المشاعر الوجدانية عند مـن لم تفسـد فطرتهم، بل هي كثيرة ومتعددة، وهي تشمـل النبي عليه السلام ودعوته، ومـا اسـتدل بـه استدلالاً مباشراً، وتشمل أيضا حال أمته من بعـده صلى ا لله عليه وسلم. ومما جـاء بـه أدلـة عقليـة لإثبات الحق الذي بينه، وهذا كله يدل على أن دعوته عليه السلام منزلة من عليـم خبـير، فمـا مـن قضية جاء بإثباتها أو دعا إليها، إلا وفيما فطـر ا لله عليـه العقـول مـا يـدل عليهـا، أو لا يعارضهـا، وذلك إن لم تفسد الموازين الربانية التي فطرت عليها تلك العقول[١].

(١) انظر ما سبق: ١٥١، وما بعدها.

القضية العشرون:

مزاعمه عن الحركة الإصلاحية الحديثة، القائمة على التعميمات، والتمويهات الغامضات.

لقد أراد (العلماني) أن يعمم افتراءاته لشمل بها الحركة الاصلاحية الحديثة، فإن مزاعمه عن هذه الحركة الإصلاحية الحديثة قد كانت دون تحديد، وفيها تعميم الحكم عليها بأنها لم تر إلا الوحي الرأسي لا الوحي الأفقي، وأن النبي -عليه السلام- تحول عندها إلى صوفي وولي.. الخ.

ومن الأباطيل والزيوف في تلك المزاعم:

أ- أن فيها تعميم الحكم عليها، دون تمييز بين الحركات الإصلاحية الحديثة المنتشرة في العالم الإسلامي، وهو غلط في المنهج العلمي، كثيراً ما يردده هو وأمثاله، مع زعمهم بأنهم هم الذين يريدون إصلاح ذلك المنهج!.

والحق أن الكثير من الحركات الإصلاحية الحديثة كما أنها دعت إلى الإيمان بالعقائد التي جاءت بها الرسالة الخاتمة؛ فإنها دعت كذلك إلى التمسك بالمنهج الذي بيّنته، والعودة إليه، وتطبيقه في واقع الحياة. فهي تدعو إلى تطبيق الدين كله، عقيدة وشريعة. وإن كان هنالك بقايا من حركات قديمة ما تزال تهتم بجانب دون آخر؛ فهؤلاء لا يصح أن يعمم الحكم من أجلهم على جميع الحركات، ولاسيما أنهم ليسوا هم اليوم إلا حركات ثانوية، ولم تعد لهم الصدارة في العالم الإسلامي.

ب- زعمه أن الحركات الإصلاحية ترى أن الوحي نظرية في النبوة؛ فإن مثل هذا التعبير والاصطلاح لا يرتضيه المؤمنون حقاً بالدين، والعاملون على إصلاح أحوال المسلمين، فإن مصطلح النظرية يقصد به ما لم يتأكد إثباته بعد، فهو وإن قد ترجح احتماله، إلا أنه قابل للنقض إن استجدت أدلة في موضوع تلك النظرية[1].

١- فمثل هذا المصطلح بمثل هذا المفهوم مرفوض عند المؤمنين حقاً بالنبوة، والذين هم أصحاب الحركة الإصلاحية الحديثة. إذ الوحي عندهم حق لا ريب فيه، كما أن النبوة حق لا ريب فيه، فإذا كان هو يرى أن الوحي نظرية في النبوة؛ فلا يصح أن يحكم بما يراه هو على غيره من المؤمنين حقاً.

٢- والحق أن مثل هذه التعبيرات لا يمكن أن تصدر من مؤمن بالنبوة حقا أبداً، فهي لا تصدر إلا من كافر غير مؤمن بها أصلاً. فإما أن يعلن ذلك ويظهره، وإما أن يبطنه فيكون من المنافقين، وهو أسوأ حالاً من الكافر المعلن.

---

(١) انظر ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ٢٠٦-٢١٠.

٣- فتلك التعبيرات تدل صراحة على حقيقة أولئك العلمانيين، وتدل كذلك على ما يعتمل في صدورهم ضد الإسلام وحقائقه، فهم عند من لا دين له؛ يصرحون له بالهجوم على الإسلام وشرائعه، وعند أهل الحق المستمسكين به؛ يحاولون أن يخترعوا لهم الألفاظ التي يتسترون بها، حتى لا يجابَهوا بالتكفير العلني، ولرجاء أن تُضْعِف مثل هذه التعبيرات المختلفة من أثر الدين في النفوس المؤمنة، وتزلزل مكانته في عقولهم وقلوبهم، وذلك إذ تجعل حقائقه ليست أكثر من مجرد نظريات تحتمل الخطأ والصواب، ثم فيما بعد يتدرجون شيئاً فشيئاً لإبطال هذه النظريات، وذلك بإثارة الشبهات الداحضة، وصولاً -في النهاية- إلى إنكار الدين بالكلية.

جـ- تعبيره بالوحي الرأسي والوحي الأفقي، فالأول مصدر المعارف النظرية، والثاني مصدر التشريع العملي، هو تعبير كذلك مرفوض:

١- فهذا التعبير هو في حقيقته مثل جميع تعبيرات ومصطلحات هذا المفتري -صاحب هذه المقالة- وأمثاله من العلمانيين، فهم يخترعون التعبيرات والمصطلحات التي يتوخون فيها مخالفتها للحق، ومناقضتها لحقائق الإسلام، وإساءتها إلى الدين، ومن ثم يوردون قضايا الدين ضمن قوالب مصطلحاتهم الباطلة.

٢- ويلاحظ أن هذه المصطلحات والتعبيرات التي يخترعها هذا المفتري وأمثاله، ويتكلمون من خلالها عن حقائق الدين؛ يضعونها بأسلوب تقريري، وكأنها مصطلحات لا نقاش فيها ولا جدال، وهي في حقيقتها لا تستند إلا إلى خيالاتهم وأوهامهم، وفي المقابل فإنهم ينتقدون علماء المسلمين لتسليمهم بحقائق الدين، ولو كانت مما أطبق عليه جميع المسلمين حقا!.

٣- إن مثل هذا التعبير يعطي: أن الوحي الرأسي إنما هي معارف يلزم الناس بالإيمان بها، دون أن يكون لها أثر في حياتهم؛ وأما الأفقي فهو ما له فائدة في حياتهم، أي التشريعات السلوكية، وهذا باطل، فالحق أنه كما أن للتشريعات العملية فائدة في حياة الناس الدنيوية، فكذلك للعقائد والقضايا الإيمانية ، بل إن كلاهما يتآزران لإصلاح حياة البشر في الدنيا ، وإعطائهم السعادة العظمى في الآخرة، ولا يمكن أن تصلح حياة البشر في هذه الأرض بواحد منهما دون الآخر، فإن التشريعات السلوكية دون أن تكون منبثقة عن جذر إيماني راسخ في النفوس، تكون مهلهلة عرضة للتلاعب بها والتحايل عليها، والهروب من الالتزام بمقتضياتها، ومن ثم لا يكون لها ذلك الأثر الكبير في نفوس البشر، بل قد تكون عرضة للنقض والإلغاء في أي وقت بسبب عدم قيامها على أسس ثابتة، فهي كالبناء الجميل الذي لا دعائم له فيكون عرضه للانهيار عند أول هزة.

وهذه القوانين الوضعية التي يفرضها أهلها بقوة السلطة، دون أن يكون التزام الناس بها نابع من أنفسهم، وناتج عن خوفهم من الله جل جلاله، وعقابه، و ناتج عن رجائهم المثوبة منه جل وعلا؛ فإننا نجد أنه مهما طور أهلها من أساليب لفرضها على الناس، ومعاقبة من يخالفونها، فإن المخالفين والمتحايلين يكونون قد سبقوا إلى أساليب أكثر التواء وتخفيا، وهذا محاولة منهم للتلاعب بتلك القوانين وتعطيل تطبيقها، وذلك خدمة لأهوائهم وشهواتهم.

إنه في الواقع لا يفيد أي منهج سلوكي دون أن ترافقه المراقبة الداخلية والنابعة من نفس كل فرد يطبق ذلك المنهج، فمثل تلك المراقبة هي التي تدفع حقا إلى الالتزام به وتطبيقه، وأفضل ما يحقق ذلك الإيمان بالله تعالى وبجزائه العادل إيماناً كاملاً، وتطبيق ما أنزله تطبيقاً تاماً.

وقد يظن البعض أن إحساس الناس بالمصلحة المترتبة لهم نتيجة ذلك الالتزام قد ينمي فيهم مثل ذلك الشعور والدافع، ولكن الواقع التجريبي يفيدنا أن جمهور الناس الأعظم إنما يحاول التهرب من تنفيذ تلك القوانين أو بعضها، ولاسيما إن وجدوا لهم مصلحة عاجلة تتحقق لهم عند عدم ذلك الالتزام، وذلك بالطبع دون أن يتنبه لهم أحد ممن يؤاخذهم على عملهم هذا. ويكون ذلك منهم أيضاً إن ظنوا أن تلك القوانين جائرة أو ضد مصالحهم، وقد تكون كذلك لأن واضعيها هم البشر، وهم ليسوا معصومين عن الخطأ واتباع الهوى.

٤- والحق أن هذا الأمر السابق لا يظن بأنه يوجد عاقل يجهله، سواء كان منتسبا للدين أم غير منتسب له، ولكن من لم يكن همه إلا إبطال الدين ونقض حقائقه؛ فإنه لا عجب أن يستسيغ التعامي عن أبسط ما اتفق عليه العقلاء.

٥- ثم إنه ينبغي أن يلاحظ أن كلاً من الوحيين الذين أسماهما الرأسي والأفقي؛ مصدرهما من الله تعالى، فهو منزلهما، وهو الذي طلب من الناس الإيمان بهما جميعا، وتطبيق المنهج العملي في حياتهم الدنيوية. فإن قصد بالوحي الأفقي غير ما سبق؛ كأن يكون قصده أن الوحي الأفقي مصدره بشري لا إلهي، فهذا باطل على باطل، فالوحي كله من الله تعالى.

٦- وأما ما يتعلق بالتنظيمات الحياتية والمعيشية التي يضعها البشر لييسروا أمورهم في هذه الحياة؛ فإنها إن كانت مستنبطة من عمومات النصوص الربانية، أو منضوية تحتها، أو كانت مما أباح الله جل شأنه للبشر أن ينظموه حسب ما يلائم ظروف حياتهم المتغيرة، ولكن ضمن قواعد عامة لا يجوز الخروج عنها؛ فهذه التنظيمات على اختلافها -مادامت لم تتعارض مع ما أوحاه الله جل ذكره- تعتبر مقبولة على وجه العموم، وقد يُلزم الناس باتباعها، طاعة لولي الأمر المسلم، ولكنها مع هذا كله لا يقال عنها إنها بنصها وحي من الله تبارك اسمه بالمعنى الاصطلاحي المعروف.

د- ثم إنه ادعى أن الوحي الرأسي في النبوة؛ أي ما فيها من معارف نظرية -على حسب تسميته- والاهتمام به فقط (الوحي نظرية في النبوة)؛ هو الذي جعل الحركة الإصلاحية الحديثة

تحوّل نظرية النبوة إلى نظرية إشراقية صوفية، والنبي -عليه السلام-من منظر وقائد إلى صوفي وولي.

وهذه الدعوى باطلة على حسب هذا الوجه العام الذي وردت به، فإن العقائد وقضايا الإيمان الحقة؛ تدفع من تدبرها حقا إلى أن يلتزم السبيل القويم في باطنه وظاهره، وفي سلوكه الشخصي وسلوكه العام، وفي جميع أخلاقه وتصرفاته، وإنه إن وجدت بعض الانحرافات لدى بعض الحركات فليس من جراء اهتمامها بالجانب العلمي النظري الذي جاءت به النبوة؛ وإنما هو نتيجة أمرين:

الأمر الأول: سوء فهم لبعض تلك العلوم والعقائد مما يؤدي إلى نتائج سيئة في السلوك العملي.

الأمر الثاني: دخول بعض المعارف الغريبة، من مصادر وضعية، إلى معتقدات أولئك المنحرفين، وجعلهم لها بمرتبة العلوم الآتية من عند الله تعالى عن طريق النبوة، وهي حتماً لها تأثيراتها السيئة في المنهج الذي يسيرون عليه.

هـ- وهو قد ادعى أن المعارف النظرية -الوحي الرأسي-: نظرية في النبوة، وادعى أن التشريعات العملية والأساس النظري للعمل الفردي والجماعي -الوحي الأفقي-: نظرية في التاريخ. وهاتان التسميتان والتفرقة بينهما مرفوضتان كلياً، فكل من المعارف النظرية (العقائد) والتشريعات العملية: مصدرهما النبوة، وهما الأساس الذي جاءت النبوات من أجل بيانه والدعوة إليه، فلماذا اعتبر أحدهما نظرية في النبوة، وفصل الآخر عنه واعتبره نظرية في التاريخ؟!.

قد يريد من ذلك أن ما أسماه الوحي الأفقي له تعلق بالتاريخ البشري، إذ هو يتنوع بتنوع الجماعات التي جاءتها النبوات، ولكن هذا لا يعني أن النبوة ليست هي المصدر الأساسي لكلا الموضوعين، فلا يصح فصل أحدهما عنها[1].

و- وثمة أمر خطير قد أورده هذا العلماني في مقالته عرضا إلا أنه يحمل في ثناياه ما يبطل النبوة الحقة بالكلية.

وهذا الأمر هو: حصره لمهمة النبي عليه السلام بين كونه منظّراً وقائداً، وزعمه أن الاهتمام بالجانب النظري من النبوة يجعل نظرتنا إليها وكأنها إشراقات صوفية، ونظرتنا إلى النبي عليه السلام وكأنه صوفي أو ولي.

١- فأما كون النبي صلى الله عليه وسلم قائداً لأمته؛ فهذا أمر قد أجمع عليه المؤمنون به حقاً، إلا أن هذا العلماني وأضرابه يرفضون قيادة الأنبياء عليهم السلام، ويفضلون عليها قيادة غير المؤمنين بالحق[2].

---

(١) ولا سيما أن حسن حنفي قد اعتبر التاريخ كله مغتربا في النبوة، والنبوة تطور الوحي في الماضي، والماضي هو التاريخ!. انظر: النبوة: ص: ٥.

(٢) انظر ما سبق نقله عن حسن حنفي: ٢٥٥.

٢- وأما ادعاؤه أن النبي صلى الله عليه وسلم منظّر؛ فهو ادعاء خطير، يريد منه قطع صلة النبوة بالله عز وجل، فليس يوجد -في زعمه- وحي حقيقي ينزل من الله تبارك اسمه إلى النبي عليه السلام، وعلى هذا فليس النبي عليه السلام مبلغاً للحقائق المنزلة إليه من ربه جل ذكره. وإنما غاية النبي عليه السلام -في زعمه الباطل- أنه مفكّر ومنظّر، حاله في هذا كحال غيره من المفكرين والمنظرين الماديين، فلا يعتمد إلا على نتاج عقله وتفكيره في حاله، وفي المجتمع من حوله.

فإذا كانت هذه هي حقيقة النبي عليه السلام -على حسب ما افتراه هذا (العلماني)- فإن دعواه أنه مبلغ عن ربه جل ذكره؛ دعوى كاذبة -حاشاه عليه السلام-.

فالنبي عليه السلام في نظر أولئك العلمانيين أسوأ حالاً من المنظّرين الماديين الدنيويين، إذ هم لم يدعوا مثل هذه النسبة الكاذبة.

فهل يبقى من النبوة الحقة شيء بعد ادعاء أن النبي عليه السلام إنما هو منظّر؟!.

٣- ويؤكد هذا العلماني زعمه الكاذب ذلك عندما يدعي أن اهتمامنا بالجانب النظري العلمي -العقائد-؛ يجعل نظرتنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكأنه صوفي أو ولي، ونظرتنا إلى النبوة وكأنها إشراقات صوفية.

فهذا العلماني وأضرابه يريدون أن يقولوا: إن حال النبي عليه السلام عندما يخبرنا بالحقائق العلمية الغيبية، كحال بعض الصوفيين الذين يتكلمون عن شيء من الغيبيات؛ من خلال ما يسمونه بالإشراقات أو الأذواق، ونحو هذا، دون أن يوجد لما يزعمونه أي مستند، من نص قطعي، قد أوحاه الله تبارك اسمه.

إن هذا العلماني وأضرابه بادعائهم الباطل هذا يؤكدون رفضهم المطلق لحقيقة الوحي، ولحقيقة كون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو منزل إليه من ربه تعالى.

فهذه هي نظرة أولئك العلمانيين للعقائد الحقة المنزلة من عند الله جل جلاله، فهي ليست أكثر من إشراقات وأذواق بشرية خالصة.

وأما الشريعة الربانية المنزلة فليست عندهم إلا نتيجة كون النبي عليه السلام منظراً، فهو الذي اخترعها من قبل نفسه، وزعم أنها من عند الله جل جلاله.

وبهذا كله تبطل النبوة من أساسها.

٤- وطبعي بعد ذلك أن لا يكون عند مثل هذا الجاحد المنكر أية قيمة لمعنى الولي، فهو عندما يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حُوّل إلى كونه صوفيّاً ووليّاً؛ لا يقصد من هذا إلا اعتبار أن الولي صفة نقص لا صفة كمال!.

القضية الحادية والعشرون:
ادعاء (العلماني) أن الأخطاء التي تقع فيها العقول ترجع إلى الخطأ في استعمالها، لا إلى نقص في ذاتها.

وفي محاولة من (العلماني) للتأكيد على باطله الدائر حول جعل العقل بديلاً عن النبوة؛ فقد تكلم عن الأخطاء التي تقع فيها العقول والتفاوت فيما بينها، وأرجع ذلك إلى الخطأ في استعمالها، لا أن هناك نقصاً فيها، وذكر أنه بالمراجعة والاستدلال المشترك يمكن تجاوز ذلك الاختلاف، ومن ثم الوصول إلى الاتفاق، إذ هو أولى، ولاسيما أن بداهات العقول وأولياتها واحدة.

ومما يدل على بطلان زعمه السابق:

١- أن صاحب هذا الزعم الباطل قد انتقد فيما سبق الحركات الإصلاحية التي اهتمت بالجانب النظري دون العملي، وهو هنا وبعد كلامه السابق مباشرة يقع فيما هو أشد، إذ هو يقع في أمر تخيّلي نظري يتمناه هو، ولكنه يُغفل الواقع التاريخي البشري، وكأنه لم يطّلع عليه. فالبشر وقد مر عليهم قرون متطاولة في التفكير؛ لم يكن منهم مثل ذلك الاتفاق، في أكثر القضايا الفكرية والسلوكية، حتى الذين آمنوا بدين واحد وآمنوا بمصدر علوم هذا الدين؛ قد وقعوا في سنة الاختلاف بين البشر. ومن يظن أن البشر يمكن أن يتفقوا في كثير من القضايا الفكرية،هو في حقيقة أمره يظن أن العقول البشرية كالآلات الحاسبة، إن وضعت لها برامج معينة سارت على حسبها ولم تبدله أو تغيره، ولكن العقل الإنساني ليس كذلك، فهو يحاول في كثير من الأحيان أن يتجاوز حدود ما لديه، من المعطيات في سبيل التطوير في المعرفة، وإن كان قد يقع في الضد من ذلك.

٢- ثم إن العقل كذلك مرتبط بالإنسان، الذي تؤثر فيه مجموعة من الأحاسيس والمشاعر والوجدانات والأهواء والرغبات، والتي تؤثر كلها على العقل وعلى أحكامه، وهي ليست متفقة بين البشر، فلكل إنسان منها نصيب. وكذلك يؤثر في الإنسان وفي تفكيره محيطه البيئي والاجتماعي، والتربية التي نُشّئ عليها، والمعلومات التي أعطيت له منذ الصغر، وأصبح يشعر أنها جزء من كيانه لا يمكنه التخلي عنه، وهذا كله له تأثيره الكبير على أحكامه العقلية تجاه الأمور، مما يجعله يخطئ الظن في كثير من الأحيان، فيرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وهو يحسب أنه على الهدى. وهذه الأمور مختلفة بين البشر ومن ثم تؤدي إلى أن يكون لدى كل مجموعة -وأحياناً كل فرد- مجموعة من الآراء النظرية، التي تختلف عما لدى الآخرين، ويتمسك بها ولا يستطيع أن يحيد عنها، إلا إن ظهر له الحق واضحاً جليا، وكان من الذين يتبعون الحق ولو خالف كل ما كان عليه سابقاً. وهذا لا يوجد في الكثير من البشر إلا إن ارتبط اتباعه للحق بمصالح عاجلة ظاهرة، وكان في عدم اتباعه للحق ضياع لتلك المصالح، فيكثر المتبعون للحق عندئذ. وهذا هو الحال في العلوم الكونية، إذ لن يستفيد الإنسان مما سخر الله تعالى له في هذا الكون، إلا إن اتّبع القوانين والسنن التي فطر الله جل شأنه عليها كل شيء بحسبه.

٣- أن العقل كسائر طاقات الإنسان له حدود معينة لا يمكنه تجاوزها، وأما ادعاء أنه لا حد له؛ فهو ادعاء لا دليل عليه، والواقع يبرهن عى خلافه، فكم هي الأمور التي يقف عندها الإنسان عاجزا محتاراً!.

القضية الثانية والعشرون:

ادعاء (العلماني) أن ما جاء في النبوات من بيانات تتعلق ببعض العلوم التجريبية أو الكونية لا لزوم لها، لأن الإنسان قادر على دراسة الكون ومعرفة سننه!.

إن من سقطات (العلماني) الفاحشات انتقاده ما جاء في بيانات النبوة مما يتعلق بشيء من العلوم التجريبية أو الكونية، لأن الإنسان قادر على دراسة الكون، ومعرفة سننه، أي إنه بزعمه لا حاجة له إلى النبوات في هذا المجال!. اهـ.

والحق أن ما يرد في النبوة من تلك الأمور له حكم كثيرة، ولعل من أهمها:

الأولى: إفادة المعاصرين للنبي عليه السلام، ومن بعده بما ييسّر لهم أمور حياتهم، وهذا فضل من الله تعالى على البشر، وليس هو مقصوداً أساسياً للنبوة. وليس معنى هذا أن يتوقف البشر دراستهم للكون وتجاربهم، بل يستمروا في ذلك، ويستفيدوا أثناء سيرهم العلمي بما أمدهم الله تعالى به من معونات، سواء كانت فكرية أم مادية. ولا يرفض عاقل منحة تأتيه من كريم متفضل لطيف لتعينه على مواجهة ظروف الحياة التي يعيشها، أو التي تعينه لاستمرار بحثه ودراسته.

الثانية: أن تأتي في النبوة أمور تتعلق بنظام الكون أو الحياة مما سيصل إليه البشر بعد بحثهم الطويل، وبعد أن يكون قد انقضى زمن بعيد على نزول النبوة، ليكون في هذا دليل على أن ما جاء في النبوة مما يتعلق بهذه الأمور، مما لا يقدر عليه البشر زمن نزول الوحي، فيوقنوا بأن هذه العلوم لابد أن تكون قد أتت من خالق هذا الكون العالم بكل ما فيه، ومن ثم يؤمنوا برسالة الرسول عليه السلام. فهذه الأمور تعتبر أحد الأدلة الظاهرة الدالة على صدق الرسول عليه السلام فيما جاء به من ربه تعالى. وهذا هو الحال مع ما يثبته العلم دواماً من معجزات قرآنية كونية ونفسية، فقد وردت في القرآن آيات متعددة تبين حقائق كثيرة تتعلق بخلق الإنسان وحياته وموته، والكون من حوله، وهي مما لم يستطع الإنسان الوصول إليها، عن طريق المعرفة المباشرة من خلال ما وهبه الله من حواس وقوى زمن نزوله الرسالة، وبعد نزول القرآن بزمن بعيد؛ تمكن الإنسان من الوصول إلى بعض تلك الحقائق، وهذا بعد تقدم الوسائل العلمية. وقد يتمكن من كشف حقائق أخرى في المستقبل، مع استمرار التقدم.

فإذا لم يكن في عصر نزول تلك الآيات أيّة إمكانية لمعرفة هذه الأمور معرفة مباشرة من قبل الإنسان بأي شكل أو صورة، فإن هذا يعطي دليلاً قوياً، لمن يحب اتباع الحق؛ أن ما جاء به الرسول

محمد صلى الله عليه وسلم هو حق كله، قد جاءه من ربه تعالى، خالق كل شيء، ومنزل الكتاب بعلمه جل شأنه.

ومثل هذا الحال ما كان مع عيسى عليه السلام من آيات تتعلق بإبراء بعض العاهات والأمراض بإذن الله تعالى، والتي لا سبيل للبشر -حتى مع تقدم العلم- لمعالجتها، كإبراء الأكمه والأبرص، بإذن الله جل شأنه، فضلاً عن إحيائه عليه السلام الموتى، بإذن ربه تبارك اسمه، وهو مما لا يمكن أن يدخل في حلم العلم البشري أصلاً.

فحصول مثل تلك الأمور على يد عيسى عليه السلام، مع عجز العلم -رغم تقدمه- حتى الآن عن علاجها؛ دليل قاطع على صدق دعواه عليه السلام في أنه مرسل من ربه تعالى.

القضية الثالثة والعشرون:

زعم (العلماني) أن العلوم النبوية أقرب إلى العلوم الإشراقية الصوفية منها إلى العلوم العقلية والتجريبية.

ومن التعميمات الكاذبة الباطلة زعم (العلماني) بأن العلوم النبوية أقرب إلى العلوم الإشراقية الصوفية منها إلى العلوم العقلية والتجريبية، وأن هذا هو ما يثبته التاريخ. اهـ.

وهذا زعم لا يخفى على أحد بطلانه، وصاحب تلك المقالة في حقيقة الأمر أبعد الناس عن معرفة حقائق التاريخ وسننه، وذلك كما تبين مما سبق في نقد أخطائه ومغالطاته وأباطيله، ومما يرد به على باطله هنا:

١- إن الشرائع التي لها مصادر باقية حتى اليوم، وأصولها ثابتة؛ هي: شريعة موسى وعيسى عليهما السلام، وشريعة الرسالة الخاتمة، فأما الشريعتين السابقتين فقد دخلهما من التحريف؛ ما يعلمه كل مؤمن، وكل ناقد للنصوص التاريخية، عالم بهذا الفن مريد للحق. ومع هذا فإن كلاً منهما يحتوي تشريعات كثيرة، بالإضافة إلى ما فيهما من العقائد. وإن كانت الشرائع فيما هو منسوب إلى شريعة موسى عليه السلام بشكل أكبر، ولكن الحق أن عيسى عليه السلام قد جاء بإثبات شريعة التوراة، مع شيء من التعديل، يتناول تحليل بعض ما حرم على اليهود بسبب ظلمهم، قال جل شأنه حاكياً عن عيسى عليه السلام:

﴿وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)﴾ آل عمران.

٢- فإن كان (العلماني) يعتبر العقائد -ظلما وجهلاً منه- من قبيل العلوم الإشراقية الصوفية، فلا يصح منه إغفال الجانب الآخر الذي جاءت به النبوات وهو التشريعات والأحكام، وهي منهج للحياة يطبق ويعمل به. وما يكاد يوجد من نبي قد حكى الله لنا شيئاً عن دعوته إلا وضمّن ذلك شيئاً من التشريع، قد بينه لقومه، ويتناول أمراً أساسياً -أو أكثر- من أمور حياتهم الخاصة، قد انحرفوا فيه. وهم بعد لم يسلموا بالقاعدة الإيمانية، التي هي الأساس لتلك التشريعات.

٣- على أن اعتباره للعقائد التي جاءت بها النبوات؛ أنها من قبيل العلوم الإشراقية الصوفية؛ يدل على مدى ظلمه وجهله وعدم إيمانه بالدين الرباني الحق أصلاً. وعبارته هذه ظاهرة الدلالة على مدى كفر صاحبها، ولا يمكن لأحد أن يؤوّلها، أو يلتمس لصاحبها عذراً. فالنبوات إنما جاءت أساساً بعقائد طالبت الإنسان بالإيمان بها، فمن لم يؤمن بها، ولم يقدرها حق قدرها؛ فليس له في الدين أدنى نصيب. وجاءت أيضاً بتشريعات طالبت الناس بتطبيقها، وقد بنيت هذه التشريعات

على تلك الأسس العقدية. فالإيمان بتلك العقائد على الوجه الصحيح والكامل؛ يلزم منه القيام بجميع ما جاءت به النبوة من الأحكام والشرائع على أتم وجه. وإن حصل خلل في أحدهما؛ فهو يدل على خلل ونقص في الطرف الآخر، فكلاهما مرتبطان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً.

فليست العقائد التي جاءت بها النبوات مجرد أفكار لا أثر لها في الواقع التطبيقي، كما هو الحال في العلوم الإشراقية الصوفية، بل إن تلك العقائد هي أسس إيجابية، قائمة على الحجة والبرهان، وترتكز في النفوس، ومن ثم يلزم عنها الالتزام الظاهري بما جاءت به النبوات من الأحكام والشرائع.

ولا يظن بأن أحداً يجهل مثل هذه الحقيقة، إلا أنه قد يوجد متجاهل -كصاحب هذه الفرية- ليس همه إلا إبطال الحق مهما كان واضحاً جلياً.

٤- ومما يزيد في الدلالة على عظم فريته وجرمه؛ أنه لا يوجد مؤمن حق بالنبوات يجهل -كما سبق بيانه- أنها لم تطالب الناس بإيمان مجرد عن إعمال للعقل والفكر فيما يؤمنون به، بل عرّفتهم بالحق على قدر طاقاتهم، وطالبتهم بالتفكير وإعمال العقل فيه، وجاءتهم بالحجج والبراهين على أسس قضايا الإيمان. وهذا يختلف اختلافاً جذرياً عن العلوم الإشرافية الصوفية التي هي عبارة عن تأملات وخواطر لا سند لها من الحجة العقلية، والبرهان الواضح، ولكن غايتها أن تكون مما لا دليل للعقل على نفيه وإثباته. على أنها صادرة عن غير معصوم، بل من شخص يجوز عليه الخطأ، ويجوز أن يكون من أهل الضلال. وربما أتى بعضهم بما يناقض فطرة العقول السليمة، وادعى أن الناس يجب أن يسلّموا بما جاء به، فإنه فوق مستوى عقولهم، ولا يمكنهم أن يعارضوا ما جاء به بموازينهم الفطرية. وأما النبوات فإنها تأتي بالأدلة أولا على صدق دعوى النبي عليه السلام في أنه مرسل من ربه تعالى، حتى لا يخالج المؤمنين شك في دعوته، وتأتي بعد ذلك بالأدلة على أسس القضايا الإيمانية، ثم إذا جاءت تفصيلات لبعض تلك القضايا لا يثبتها العقل بمجرده ولا ينفيها؛ كان الدليل العقلي على هذه القضايا مستمداً من خلال الأدلة العقلية الشرعية السابقة، فتسلم لها العقول السليمة وتطمئن لها النفوس المؤمنة.

القضية الرابعة والعشرون:

مزاعم (العلماني) حول ما أسماه (الوحي الأفقي).

لقد كان من تخايلات (العلماني) التضليلية تقسيمه ما جاء في الدين إلى ما أسماه: (الوحي الرأسي)، و(الوحي الأفقي)، والذي هو كما قال: (مصدر التشريع العملي والأساس النظري للعمل؛ الفردي والجماعي)، وكان ينتقد الحركة الإصلاحية الحديثة التي لم توجه اهتمامها لهذا الوحي الأفقي، ثم لم يطل عليه الوقت حتى نقض هذه الفائدة التي رأى وجوب العناية بها، والتركيز عليها، فإذا به ينتقد الذين يعتبرون أن من حكمة إرسال الأنبياء عليهم السلام وبعثتهم: سنّ الشرائع والقوانين، وإقامة الدول على الهدى والحق. وزعم أن تشريع النبوة لم يأت إلا بتوجيهات عامة.

ومما يرد به على تناقض (العلماني) وباطله:

١- إن وقوع أي إنسان في مثل هذا التناقض، ولاسيما إن كان من مدعي العلم والتجديد، وكلامه لم يبعد بعضه عن بعض؛ يسقط أية قيمة لكلامه هذا. فمن يريد أن يتكلم في قضية علمية فإنه يشترط عليه ألا يقع في التضاد أو التناقض أو التخالف، وإلا كان كلامه غير مقبول لدى العلماء، فكيف الحال فيمن يدعي أنه يريد تأسيس منهج جديد للمجتمع، يثور فيه على ما مضى، فينقد ويعدل، أو يهدم ويبدل؟!.

٢- إن الإنسان إما أن يكون مؤمناً بأهمية دور النبوة في بيان الشريعة والأحكام الربانية التي تنظم سير المجتمع البشري تنظيماً دقيقاً شاملاً لجميع جوانب حياتهم، أو أن يكون غير مؤمن بذلك، فيعتقد أنه لا يفيد البشر إلا منهج يضعونه لأنفسهم. أما أن يدعي مدع أهمية ما جاءت به النبوة من التشريع العملي للبشر؛ ثم يزعم أن ما جاءت به النبوات في ذلك إنما هو عبارة عن توجيهات عامة، لا تقوم بها المجتمعات ولا تأسس بها الدول، متغافلاً عن المنهج التفصيلي الذي جاءت به؛ فهذا هو الذي يرفضه كل عاقل يحترم نفسه وفكره[1].

٣- والحق أنه لا يمكن أن يصدر مثل هذا الادعاء من مؤمن عالمٍ بالتشريعات الربانية، بل حتى ممن لديه أدنى اطلاع عليها، ولو لم يؤمن بها، فلا يصدر مثل ذلك الادعاء إلا من جاهل مطبق، أو كافر يريد حجب الحق ولو بالافتراءات الساقطة. فإنه لا يكاد أحد يجهل أن التشريع في النبوة - والنبوة الخاتمة أظهر مثال على هذا- ليس كله توجيهات عامة، ومن كان له أدنى اطلاع على

---

(١) وسيأتي مزيد ردود على افتراءات العلمانيين حول الشريعة الربانية المنزلة.

الأحكـام الشرعية مع دلائلها النصيـة؛ يدرك أنه توجد تشريعات وتفصيلات؛ لأحكام كثيرة في أمور المعاملات. وتوجد أحكام عامة محددة وثابتة، ولكنها يمكن أن ينطوي تحتهـا جميـع الحـالات الـتي تجد وتستحدث على مر السنين، وتغير الأحداث، وهذه الصور أو الأحوال قد ترك تحديدها للبشـر علـى حسب ما يلائم متغيرات ظروفهم، بشرط ألا يخرجوا عن الحدود الشرعية الثابتـة. وهنا يمكن للعقـل أن يتدخل ويستنتج ويستنبط أكثر الصور ملاءمـة للظـروف الراهنـه، فيكـون عنـده إلمـام بالأحكـام الشرعية، ودراسة فاحصة لواقع المجتمع الحاضر، ومعرفة بأحوال المجتمعات السابقة، وما طُبق فيها مما يلائم ظروفها، بالإضافة إلى ما لديه من علـوم تتعلـق بكيفيـة اسـتنباط الأحكـام وصياغتهـا، وجعلهـا ملائمة للتطبيق، وغير ذلك من علوم نفسية واجتماعية صحيحـة، تسـاعد علـى أن تكـون الصـورة التطبيقيّة الراهنة للحكم الشرعي العام على أكمل الوجوه وأحسنها.

القضية الخامسة والعشرون:

زعم (العلماني) أن العقل قادر بمفرده على وضع القوانين وسن الشرائع، الملائمة للبشر.

لقد زعم (العلماني) مضللاً ومفترياً على الحق والواقع التاريخي، هادفاً إلى إبطال الأساس الثاني الذي جاءت به النبوات، وهو الشريعة الربانية التي تحكم حياة البشر، إلحاقاً له بالأساس الأول: أساس العقائد؛ أن العقل قادر على وضع القوانين وسن الشرائع.

١- إن كل مؤمن حق يعلم ضرورة أن إيمانه لن يقبل إلا إذا كان شاملاً لوجوب تحكيم شريعة الله تعالى، وأنه جل شأنه له الحكم وحده، وأن النبي عليه السلام هو الذي يبلغ شريعته سبحانه، قال جل شأنه:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما (٦٥)﴾ النساء.

وقال تبارك اسمه:

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون (٤٩) أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (٥٠)﴾ المائدة.

٢- إنه إذا كانت في الإنسان عيوب فإن من مقتضى الالتزام بالحق والعدل أن يعترف بها، ويحاول أن يجد السبيل الذي يجنبه مخاطرها. فإن وجد مثل هذا السبيل سار عليه، واستقام على منهجه. وأما المكابرة وإخفاء العيوب وادعاء الإنسان لنفسه ما ليس فيه؛ فإنه مناقض للحق والعدل، ثم هو لن يجلب له إلا الويلات والشرور.

وعقل الإنسان محدود مهما عظم، فهو محدود بحدود الزمان الذي عاشه، والذي عاشه من قبله، وذلك إن بلغته تجارب أولئك السابقين. وعقل الإنسان محدود بحدود مكانه، فهو إن وضع تشريعاً كان أقرب إلى ملاءمة أهل ذلك المكان الذين وضعوه. وعلى الرغم من أن الناس قد بلغوا في القدرة على الاتصال بعضهم مع بعض مبلغاً كبيراً، مهما تباعدت المسافات، وعلى الرغم من أن كثيراً مما يتعلق بالبشر وتجاربهم؛ قد أصبح متناقلاً معروفاً بينهم على اختلاف أجناسهم، وعلى الرغم من تقدم الدراسات النفسية والاجتماعية؛ على الرغم من ذلك كله إلا أن البشر حتى الآن لم يستطيعوا أن يضعوا تشريعاً متكاملاً يلائم ظروفهم وأحوالهم المختلفة، على وجه يحقق لمجموعهم السعادة والاستقرار. وشريعة الله جل شأنه لعباده ليس فيها إلا كل ما يحقق لهم المصلحة في هذه الحياة الدنيا، ويجلب لهم المنفعة والسعادة، ولا يكاد يوجد فيها حكم من الأحكام إلا ويستطيع العقل

أن يستنبط له حِكَماً متعددة، تعود على البشر بعظيم المصلحة والمنفعة الدنيوية والأخروية. فهل يأتي عاقل بعد هذا ويقول لا نريد حكم الله تعالى، ونريد نحن أن نضع القوانين ونسن الشرائع، على حسب ما تمليه علينا عقولنا. وإن تبين خطؤها، وعادت علينا بالضر، فإننا نظل نجرب ونغير، فلربما وصلنا إلى اليوم الذي نجد فيه شريعة تلائمنا جميعاً؟!. ومتى يأتي هذا اليوم، وقد مضى على الرافضين لشريعة الله تعالى قرون وقرون، ولم يأتوا حتى اليوم بما يحقق للبشر السعادة والاستقرار بوجه عام؟!. وهل من الضروري أن تعيش البشرية في شقاء الأحكام الوضعية قروناً طويلة، على أمل أن يأتي ذلك اليوم المنشود؟!. إن العاقل لو وجد عند عدوه أمراً نافعاً له أخذه واستفاد منه، ولم يرفضه لمجرد أنه من عند عدوه، فكيف بشريعة منزلة من الحكيم الخبير، خالق البشر، والعالم بأحوالهم وبما يصلحهم، جل وعلا؟!.

٣- وفي واقع الأمر فإن رفض تحكيم شريعة الله جل شأنه؛ يقود إلى الكفر به، إذ قد تكون علة الرافض لتحكيم شرع الله تعالى؛ اعتقاده أنه جل ثناؤه لم يوجب علينا شريعة نتبعها، أو أنه جل شأنه قد جعل هذا الأمر للبشر ليحكموا أنفسهم كيف شاؤوا. أو قد يعتقد ذلك الرافض عدم صحة نسبة الأحكام الشرعية لله تعالى، فيظن أنها مختلقة موضوعة عبر القرون، منسوبة كذباً وزوراً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مُبلّغ الأحكام عن ربه جل شأنه.

٤- وهنالك أمر آخر كثيراً ما يغفله أولئك الذين يعتقدون مقدرة العقل البشري على القيام بمجرده بكل ما يصلح حال البشر؛ وهو أن هذا العقل -كما سبق- محكوم بأهواء ومصالح صاحبه، وكذلك محكوم بما لدى صاحبه من معارف سابقة تلقاها أثناء نشأته، وقد تشتمل على باطل كثير. والناظر في حال البشر، والدارس لواقعهم قديما وحديثا؛ يجد أن هذه الأهواء والمصالح وسوابق الأفكار قد كانت سبباً مباشراً أو غير مباشر لكثير من الأحكام الجائرة، التي وضعها البشر لأنفسهم. ومن أراد التأكد فلينظر إلى النظريات الاقتصادية أو السياسية الموجودة في هذه الأيام، والتي كانت وما تزال سبباً لكثير من الويلات والشرور. هذا عدا عن الأحكام الوضعية المتعلقة بالنواحي الاجتماعية، والمتعلقة بمعاقبة المعتدين على حقوق الآخرين، والأحكام المتعلقة بالأسرة، التي وصلت إلى دركة من الانحطاط لم يكن يتصورها عقل بشري، وليس هذا إلا لأن الناس اعتمدوا عقولهم مشرعةً حاكمةً، وتركوا شرع الله سبحانه، وتنكبوا طريقه. وهذا سيجعلهم يلجؤون دواما إلى التغيير المستمر لهذه الأحكام، بحسب تغير أهوائهم ومصالحهم، مما لن يجلب للبشرية إلا الظلم والفساد العريض.

القضية السادسة والعشرون:
اتخاذ (العلماني) أسلوب التساؤلات التهكمية والاستنكارية عن النبوة، محاولاً بها الاستهانة بالتشريعات الربانية والتقليل من أهميتها.

إن (العلماني) على طريقة المستهزئين من المشركين الذين كانوا يلجؤون إلى وسيلة الاستهزاء والسخرية، كلما دمغتهم البراهين المنطقية العقلية، حاول أن يوجه التساؤلات الاستهزائية التهكمية، والتساؤلات الاستنكارية، لإغراء صغار العقول، وغلمان الأحلام، بغية تنفيرهم من التشريعات الربانية التي جاءت بها النبوات، ومن تساؤلاته الاستهزائية التهكمية عن النبوة قوله:

هل هي نظرية في التأليف الاجتماعي أو في الصراع الاجتماعي، وهل وظيفتها حل الصراع الاجتماعي أم حسمه؟. ثم إن النبوة لم تأت إلا بالمحبة والتعاون، وهما لا يكفيان لتكوين المجتمعات، لأن المجتمع في حاجة لفهم تركيبه، وقوانين حركته وصراعه؛ أكثر من حاجته إلى المحبة والعدل، والمبادئ العامة والقيم النظرية... الخ!. اهـ.

وأمثال هذه العبارات لا تدل -في حقيقتها- إلا على جهل صاحبها المطبق، أو تجاهله الفاضح لما جاءت به النبوات، ويقال له أو لمن قد يتأثر بشبهاته:

١- إن التطبيق الأمثل لهذه الأحكام الشرعية التي جاءت بها النبوة والشاملة لجميع ما يتعلق بجوانب الحياة البشرية، مع التزام الناس التوجيهات والإرشادات النفسية والخلقية والسلوكية التي أمر الله عز وجل بها عباده، والتي ما تركت جزئية إلا أعطتها الحكم المناسب لها، وقبل ذلك كله وجود الإيمان الكامل عند من يطبق هذه الأمور؛ كل ذلك يؤدي تحقيقه إلى تكوين مجتمع إنساني مترابط متكامل يؤازر ويشد بعضه بعضا، مجتمع تختفي فيه جميع أسباب الصراع بين أفراده، إذ لا مسبب لها مع ذلك التطبيق الكامل لشرع الله تعالى.

٢- إن الصراع لا ينبغي أن ينشأ بين أفراد مجتمع مؤمنين بالله تعالى ، وبأنه خلق الإنسان في هذه الحياة للابتلاء والاختبار، وليست الحياة الدنيا إلا جزأً يسيراً من عمر الإنسان، يمضيه لتحقيق ذلك الابتلاء، يتبعه بعد ذلك الجزاء الذي لا نهاية له. إن من يدرك هذه الحقيقة يعلم أن ما يمر به من نعمة أو بؤس إنما هو من أجل اختبار تصرفه حيال ذلك. وسرعان ما تنتهي هذه الحياة بآلامها وملذاتها ليعقبها الجزاء العادل.

٣- إن ما سبق لا يعني أن ينسى الغنيُّ الفقيرَ ولا يواسيه، أو أن يبقى الفقير على فقره، دون أن يحاول تحسين حاله، فهذه الأمور داخلة كذلك تحت ذلك الابتلاء العام، فالله جل شأنه قد شرع أحكاماً يكفّل من خلالها الغني القادر بالنفقة على من ليس مثله، ممن أوجب عليه نفقتهم من قرابته، وأوجب عليه جزأً من ماله يدفعه كمواساة عامة للمحتاجين، ممن لا تجب عليه نفقتهم، والدولة قبل

ذلك وبعده مكلفة بتحقيق الكفاية لأولئك المحتاجين، من خلال ما لديها من الموارد ضمن ما يعرف في التشريع الإسلامي بالتكافل الاجتماعي، بالإضافة إلى تهيئة سبل الكسب الحلال للقادرين عليه.

٤- وبالإضافة إلى ما سبق، فأي صراع ينشأ بين أفراد مجتمع تطبق فيه أحكام الله جل شأنه بالعدل والقسطاس، بين جميع أفراده دون تمييز أو محاباة؟!.

٥- وأي صراع ينشأ بين أفراد مجتمع لا يكنّ بعضهم لبعض إلا مشاعر الحب والمودة وإرادة الخير للآخرين، ويشعر كل فرد فيه بآلام من حوله واحتياجاتهم، وأنه يجب عليه أمام ربه جل شأنه أن يقوم بدوره للتخفيف من تلك الآلام، أو للعمل على إزالتها وإزالة مسبباتها، ضمن مبدأ الجسدية الواحدة؟!.

٦- وأي صراع ينشأ بين مجتمع تختفي فيه مشاعر الأنانية والأثرة وحب الذات، وتحل محلها مشاعر الإيثار والعطاء وإرادة إسعاد الآخرين؟!.

٧- وأي صراع ينشأ بين أفراد مجتمع يشعر بأن الرابطة الأساس بين جميع أفراده؛ إنما هي رابطة الإيمان، وأن جميع الروابط الأخرى محكومة بهذه الرابطة ومقيدة بها، بحيث لا تكون سبباً للتفريق بين جماعات المجتمع المسلم الكبير، بقدر ما تزيد تلك الرابطة الإيمانية قوة داخل كل جماعة؟!.

٨- وقد دلت نصوص شرعية لا حصر لها على ما سبق:

منها قوله جل شأنه:

﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون (١٠) يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (١١) يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم (١٢)﴾ الحجرات.

وقال تبارك اسمه:

﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم...(٢٢)﴾ المجادلة.

وقال جل جلاله:

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا... (١٠٣)﴾ آل عمران.

وقال صلى الله عليه وسلم:

"ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضواً؛ تداعى له سائر جسده[١] بالسهر والحمى"[٢].

وقال صلى الله عليه وسلم:

"المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته[٣]، ويحوطه من ورائه[٤]"[٥].

وقال صلى الله عليه وسلم:

" إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس"[٦].

وقال صلى الله عليه وسلم:

"المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه؛ اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه؛ اشتكى كله"[٧].

وقال صلى الله عليه وسلم:

"لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا

---

(١) معنى: "تداعى له سائر جسده": أي دعا بعضه بعضاً إلى المشاركة في الألم. انظر: فتح الباري: ٤٣٩/١٠. و: شرح النووي على مسلم: ١٤٠/١٦. و: لسان العرب، مادة: (دعا)/ ٢٨٧/١٨.

(٢) متفق عليه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. البخاري: ٥/ ٢٢٣٨/ح: ٥٦٦٥. وانظر: مسلم: ١٩٩٩/٤ - ٢٠٠٠/ ح: ٢٥٨٦، (عدة روايات).

(٣) معنى: "يكف عليه ضيعته": أي: يرد ويمنع عنه الضياع. انظر: لسان العرب: مادة: (كفف)/ ٢١٣/١١، و:مادة: (ضيع)/ ١٠٠/١٠.

(٤) معنى: "يحوطه من ورائه": أي يحفظه ويصونه ويذب عنه. انظر لسان العرب: مادة: (حوط)/ ١٤٨/٩-١٤٩.

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظهما متحد. الأدب المفرد: ٩٣، ٢٣٩. وقد صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد: ١٠٦-١٠٧/ ح: ١٧٨. و: أبو داود: ٢٨٠/٤/ ح: ٤١٩٨. وصحح الألباني الحديث من روايتهما في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١١٣٠/٢/ح: ٦٦٥٦. والحديث رواه كذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه: البيهقي في سننه الكبرى: ١٦٧/٨. وأورده الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة: ١٧٩/٦، وحسن سنده. وفي شرح المناوي في: فيض القدير: ٢٥٢/٦: نقل عن الزين العراقي: تحسين السند.

(٦) رواه أحمد عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، واللفظ له. المسند: ٣٤٠/٥، وحسن الألباني سنده في صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١١٣٠/٢/ح:٦٦٥٩. والحديث رواه عن سهل أيضاً: الطبراني في: المعجم الكبير: ١٣١/٦. و: في: الأوسط: ٦٩/٥/ح:٤٦٩٦. و: ابن أبي شيبة في: مصنفه: ٨٩/٧. و: الروياني في: مسنده: ٢٠٦/٢. و: البيهقي في: شعب الإيمان: ٥٠٥/٧. و: الشهاب القضاعي في: مسنده: ١١٣/١/ح:١٣٦. و: أبو نعيم في: حلية الأولياء: ١٩٠/٨. وقد أورد ابن كثير الحديث في تفسيره من رواية أحمد، وقال: (ولا بأس بإسناده): ٢١٣/٤. وكذا: الهيثمي في: مجمع الزوائد: ٨٧/٨، وقال: (ورجاله رجال الصحيح غير سوار بن عمارة الرملي وهو ثقة)، وفي: ١٨٧/٨، من رواية أحمد والطبراني في معجميه، وذكر أن رجال أحمد رجال الصحيح. ونقل المناوي عن الزين العراقي أنه قال عن رجال الحديث: (إنهم رجال الصحيح)، فيض القدير: ٢٥٥/٦.

(٧) رواه مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.مسلم: ٢٠٠٠/٤/ ح: ٢٥٨٦. ورواه كذلك أحمد، المسند: ٢٧١/٤، ٢٧٦.

عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره. التقوى ههنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات-. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه."[1].

وقال صلى الله عليه وسلم:

"المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام؛ عرضه وماله ودمه، التقوى ههنا. بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم"[2].

وقال صلى الله عليه وسلم:

"المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه[3]، ومن كان في حاجة أخيه؛ كان الله في حاجته. ومن فرج عن مسلم كربةً، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً؛ ستره الله يوم القيامة"[4].

وقال صلى الله عليه وسلم:

"المسلمون تتكافأ دماؤهم[5]، يسعى بذمتهم أدناهم[6]، ويجير عليهم أقصاهم[7]، وهم يد على[8] من سواهم، يرد مشدهم على مضعفهم[9]، ومتسريهم على

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: ١٩٨٦/٤/ ح: ٢٥٦٤.

(٢) رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للترمذي. سنن الترمذي: ٣٢٥/٤/ح: ١٩٢٧، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني في: صحيح سنن الترمذي: ١٨٠/٢/ ح:١٥٧٢، وفي: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١١٣٦/٢/ ح: ٦٧٠٦. وانظر: مسند أحمد: ٣١١/٢.

(٣) معنى "يُسلِمُه": أي يخذله ويلقيه في الهلكة ولا يحميه من عدوه، ويتركه مع من يؤذيه أو فيما يؤذيه. انظر: مادة (سلم) في: لسان العرب: ١٨٤/١٥،١٨٦. و: فتح الباري: ٩٧/٥.

(٤) متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري. البخاري: ٨٦٢/٢/ ح: ٢٣١٠. وانظره: ٥٥٥/٦/ ح: ٦٥٥١. و: مسلم: ١٩٩٦/٤/ح: ٢٥٨٠.

(٥) معنى: "تتكافأ دماؤهم": أي تتساوى في القصاص والديات، لا يفضل منهم شريف على وضيع، ولا كبير على صغير، ولا رجل على امرأة. انظر: شرح السيوطي وحاشية السندي على سنن النسائي: ٨/ ١٩-٢٠. و: معالم السنن: ٥٨/٤-٥٩، ٣٢٨/٦-٣٢٩.

(٦) معنى: "يسعى بذمتهم أدناهم": أي: إن أقل المسلمين عدداً وهو الواحد، رجلا كان أو امرأة، أو أقلهم رتبة، وهو العبد؛ إذا ما أعطى عهداً لجيش العدو، أو أجار كافراً؛ جاز ذلك على جميع المسلمين، فلا ينقض عهده، ويمضي جواره. انظر: شرح السيوطي وحاشية السندي على سنن النسائي: ٢٠/٨، ٥٩/٤، ٣٢٩/٦.

(٧) معنى: "يجير عليهم أقصاهم": أي إن بعض المسلمين وإن كان قاصي الدار؛ إذا عقد للكافر عقداً؛ لم يكن لأحد منهم أن ينقضه، وإن كان أقرب داراً من المعقود له. انظر: معالم السنن: ٥٩/٤.

(٨) معنى: "وهم يد على من سواهم": أي إن اللائق بحالهم أن يكونوا كاليد الواحدة، في التعاون والتعاضد على الأعداء. انظر: شرح السيوطي وحاشية السندي على سنن النسائي: ١٩/٨-٢٠، ٥٩/٤، ٣٢٩/٦.

(٩) معنى: "يرد مشدهم على مضعفهم": المشد: هو: ذو الدواب القوية الشديدة، والمضعف: هو: ذو الدواب الضعيفة؛ والمعنى: أن القوي من الغزاة يساهم الضعيف فيما يكسبه من الغنيمة. انظر: لسان العرب: مادة (شدد)/ ٢١٩/٤، مادة (ضعف)/ ١٠٩/١١. و: معالم السنن: ٥٩/٤.

قاعدهم..."[1][2].

وقال صلى الله عليه وسلم:

"لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا[3]، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام"[4].

وفي رواية:

" إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، وكونوا إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك"[5].

وفي رواية: "ولا تناجشوا"[6].

---

(١) جاء في عون المعبود: أن هذه العبارة وردت في بعض النسخ: "ومتسريهم على قاعدهم"، وفي نسخ أخرى: "ومتسرعهم على قاعدتهم"، وذكر أن السيوطي: غلط عبارة: (ومتسرعهم). ونقل عن الخطابي: أن المتسري هو: الذي يخرج في السرية. والمعنى أن الجيش إذا غزا بلداً، فانفصلت منه سرية وغنمت؛ فإن ما غنمته ترده على الجيش ليقسم عليهم جميعاً، لأن الجيش كان ردءاً لهم. انظر: عون المعبود: ٣٠٣/٧.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد والبيهقي وأبو داود الطيالسي وابن الجارود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، واللفظ لأبي داود. أبو داود: ٨٠/٣/ ح: ٢٧٥١، وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود : حسن صحيح. وانظر: ابن ماجه: ٨٩٥/٢/ ح: ٢٦٨٥، وقال الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: حسن صحيح. وفي صحيح الجامع الصغير وزيادته قال عن الحديث من خلال روايتهما إنه: حسن: ١١٣٧/٢/ح: ٦٣١٢. وقد روى أحمد الحديث مختصراً: المسند ١٩٢/٢، ٢١١. وكذلك رواه البيهقي مختصراً في سننه: ٢٨/٨، وكاملاً: ٢٩/٨. والطيالسي مختصراً: المسند: ٢٩٩/ح: ٢٢٥٨. وابن الجارود في المنتقى من السنن المسنده: ١٩٤/ح: ٧٧١، وكاملاً: ٢٦٩/٢/ح: ١٠٧٣. والحديث رواه كذلك: ابن أبي شيبة في مصنفه مختصراً: ٤٥٩/٥. و: عبد الرزاق في مصنفه مرسلاً: ٢٢٦/٥. وابن عبد البر في التمهيد: ١٨٨/٢٦-١٨٩. والحديث من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال الشوكاني في نيل الأوطار: ١٥٠/٧-١٥١: وحديث عمرو بن شعيب -أي هذا الحديث- سكت عنه أبو داود والمنذري وصاحب التلخيص، ورجاله رجال الصحيح إلى عمرو بن شعيب.

(٣) معنى: "تدابروا": ورد في معناها عدة تفاسير، منها:
١- أن معنى "لا تدابروا" أي: لا تتهاجروا، فيهجر أحدكم أخاه فيوليه دبره، لأن من أبغض وعادى أعرض، ومن أعرض ولى دبره.
٢- وقيل: إن معناه: لا يستأثر أحدكم على أخيه، وسمي المستأثر مستدبراً؛ لأنه يولي دبره حين يستأثر بشيء دون الآخر.
٣- وقيل: إن معناها: لا تجادلوا ولكن تعاونوا، وهذا تأويل بعيد.
انظر: فتح الباري: ١٠/ ٤٨٢-٤٨٣. و: معالم السنن: ٢٣٠/٧.

(٤) متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. البخاري: ٢٢٥٣/٥/ح: ٥٧١٨، وانظر: ٢٢٥٦/٥/ح: ٥٧٢٦. و: صحيح مسلم: ١٩٨٣/٤-١٩٨٤/ح: ٢٥٥٩، (روايات متعددة).

(٥) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. البخاري: ١٩٧٦/٥/ح: ٤٨٤٩، وانظر: ٢٢٥٣/٥/ ح: ٥٧١٧-٥٧١٩، و: ٢٤٧٤/٦/ح: ٦٣٤٥. و: مسلم ١٩٨٥/٤-١٩٨٦/ح: ٢٥٦٣، (عدة روايات).

(٦) متفق عليها كذلك. البخاري: الموضع السابق: ح: ٥٧١٩. و: صحيح مسلم: الموضع السابق. و: (النجش): أن يزيد في السلعة، وهو لا يريد شراءها، ليقع غيره فيها. فتح الباري: ٤٨٤/١٠.

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه نهى:

"أن يبيع حاضر لباد، ولا تناجشوا، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ ما في إنائها"(١).

وفي رواية أنه نهى:

"أن يستام الرجل على سوم أخيه"(٢)، و"عن التصرية"(٣).

والنصوص كثيرة في هذا المجال الذي يبين حقوق المسلم على أخيه، ويدعو إلى إزالة أي سبب للشحناء والبغضاء في قلوب المؤمنين بعضهم على بعض، ومن ثم لا يكون هناك أي سبب للصراع فيما بينهم، إلا عند مخالفة مقتضى تلك النصوص والأحكام الشرعية. ومن أراد استقصاء جمعها وبيانها؛ فإنه يحتاج في هذا إلى بحث مستقل.

٩- إن الصراع لا يوجد إلا عندما يوجد طرفان متقابلان متناقضان أو متضادان يريد أحدهما أن يحل محل الآخر، وأن يأخذ مكانه، فعندئذ يقع الصراع. ومن أمثلته: وجود مصالح متضادة ومتقابلة لأكثر من طرف فيقع بينهم الصراع. وفي المجتمع المسلم المؤمن الملتزم بأحكام شرع الله تعالى، سواء في معاملاته أم أخلاقه وتصرفاته، فإنه بسبب التزامه وتمسكه هذا؛ لا يوجد بين أفراده ولا بين مصالحهم تقابل تضاد أو تناقض، بل يكون بينهم التكامل والتعاون والتنافس الشريف في طلب الخير، دون إضرار بالآخرين.

١٠- وعلى ذلك فلا ينبغي أن يوجد الصراع إلا بين الحق والباطل، قال تعالى:

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون(١٨)﴾الأنبياء.

وعلى الرغم من وجود هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين فإن هناك أحكاماً شرعية تنظم العلاقة فيما بينهم في أوقات السلم، أو عندما يكون أهل الكتاب أهل ذمة، وفي هذه الحال فإن الشرع قد حرم الاعتداء عليهم بغير حق، قال جل شأنه:

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٨)﴾ الممتحنة.

وقال تعالى:

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. البخاري: ٧٥٢/٢/ح: ٢٠٣٣، ورواه في مواضع أخر. وانظر صحيح مسلم: ١٠٣٣/٢/ ح: ١٤١٣، (عدة روايات).

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. البخاري:٩٧١/٢/ح: ٢٥٧٧. و: صحيح مسلم: الموضع السابق.

(٣) متفق عليها عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. البخاري: الموضع السابق. و: مسلم: ١١٥٥/٣-١١٥٦/ ح: ١٥١٥، (عدة روايات). والتصرية: ربط أثداء الناقة أو الشاة حتى يجتمع لبنها فيكثر، فيظن المشتري أن ذلك عادتها، فيزيد من ثمنها لما يرى من كثرة لبنها. انظر: فتح الباري: ٣٦٢/٤.

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين(١٩٠)﴾ البقرة.

فهو جل شأنه ينهى المؤمنين أن يعتدوا عند مقاتلهم أعداءهم، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشاً يوصيه قائلاً:

"اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغُلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً"(١).

وقال صلى الله عليه وسلم:

"من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً"(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم:

"ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة."(٣).

١١- إن الإسلام بما جاء به من عقائد وأحكام وتوجيهات؛ لم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا وشمله بما يلائمه. فمن آمن به والتزم أحكامه وتوجيهاته؛ كان في حياته مع نفسه ومع من حوله في انسجام وتآلف وتآزر. فإزالة الصراع وأسبابه بين أفراد المجتمع وجعله متماسكاً، هو المظهر الأساسي للأمة التي آمنت بالإسلام، دين الله المنزل، حق الإيمان به، وطبقته في حياتها.

١٢- ولا يعني ذلك أنه لن يوجد في هذا المجتمع من تحدثه نفسه بالمخالفة والاعتداء على الآخرين، ولكنه سرعان ما سيجد حكم الله تعالى قد طبق في شأنه، ورجع الحق إلى أهله، وعاد إلى نصابه.

١٣- قد يمكن للدارس أن يستنبط من خلال نصوص الوحي الرباني، ومن خلال الواقع البشري أسباب وجود الصراع بين البشر، والسبل إلى حله، ولكن النبوة -وكما هو ظاهر في الرسالة الخاتمة- قد قدمت المنهج العملي الذي يؤدي إلى تلك النتيجة، وأهمية هذا أعظم وأشد من دراسات نظرية في علم النفس وعلم الاجتماع، يفترض فيها أحدهم فروضاً ويناقشه آخرون، ويمضي زمن طويل قبل الوصول إلى إقرار بعض تلك الفروض، أو نفيها، وافتراض غيرها، ويأتي بعد ذلك:

---

(١) رواه مسلم عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه. صحيح مسلم: ٣/١٣٧٥/ح: ١٧٣١. وانظر: تفسير ابن كثير: ١/٢٢٦.

(٢) رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. البخاري: ٣/١١٥/ح: ٢٩٩٥. وانظر: ٦/٢٥٣٣/ح: ٦٥١٦.

(٣) رواه أبو داود والبيهقي عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة رضي الله عنهم، (جاء عند البيهقي: عن ثلاثين من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم رضوان الله تعالى عليهم). واللفظ لأبي داود. سنن أبي داود: ٣/١٧٠/ح: ٣٠٥٢، وقد صحح الألباني هذا الحديث في صحيح سنن أبي داود. وانظر: سنن البيهقي: ٩/٢٠٥. وصحح الألباني هذا الحديث من خلال رواية أبي داود والبيهقي في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١/٥١٨/ح: ٢٦٥٥. وجاء في: كشف الخفاء، العجلوني: ٢/ ٢٨٥: (قال في المقاصد: وسنده لا بأس به، ولا يضر جهالة من لم يسم من أبناء الصحابة فإنهم عدد منجبر به جهالتهم، ولذا سكت عليه أبو داود، وهو عند البيهقي في سننه من هذا الوجه، وقال: عن ثلاثين من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم.) ا.هـ. وقال أيضاً في موضع آخر عن الحديث: ٢/٣٤٢: (رواه أبو داود بسند حسن).

النظريات في كيفية معالجة تلك الفرضيات، والنقاش حولها، وتمر مرحلة للتجريب، ثم يتبين خطأ تلك الفروض التي وضعت لتفسير المشكلة، ثم النظريات التي وضعت لعلاجها!.

وخطأ هذه الفروض، ومحاولات إصلاحها عن طريق الاجتهادات البشرية -بعيداً عن شرع الله تعالى- مفروغ منه ، وهو ضربة لازب... . وهذا الحكم بالفشل عليها ليس وليد نظر أو استنباط، بل هو الواقع المشاهد، والذي تكرر عشرات، ومئات المرات في قضايا متشابهة وغير متشابهة.

فكم هي المشكلات التي درسها خبراء النفس وعلماء الاجتماع، ثم فسروها بمقتضى نظرياتهم، ثم وضعوا لها الحلول...، فكانت النتيجة: ليس بطء العلاج، أو ضعفه، أو حتى عدم جدواه، بل كانت النتيجة أن العلاج يؤدي إلى تفاقم المشكلة وازديادها...!.

هذا على الرغم من مرور الشهور والسنين الطويلة، وبذل الكثير من الجهد والأموال، تحت الزعم بالعلاج البشري لمشكلات لا يمكن أن تحل بهذا الأسلوب.

ومع وجود هذه الدراسات النفسية والاجتماعية الكثيرة حتى يومنا هذا؛ فإنه لم توضع نظرية تشمل جوانب الحياة البشرية، وتفسر العلاقات بين أفراد المجتمع، وتقدم الحل المناسب لها، على الوجه الذي يكوّن مجتمعاً متلائماً متماسكاً، يعيش أفراده آمنين على أنفسهم وما يملكون. وكل ما أنتج في هذا المجال إما نظريات ثورية [(١)]، لم تجلب إلا التدمير لشعوب مجتمعاتها قبل المجتمعات الأخرى، أو نظريات تكرّس القوة وأسبابها [(٢)]، عند أفراد معينين، وتجعل الآخرين كالعبيد بين أيديهم، يسيرونهم كيف شاؤوا، وإن كان ذلك بالمكر والحيلة أحياناً كثيرة، وقد يكون بالقهر والغلبة، إن لم يفد الخداع.

١٤- وفي المقابل فإن الله سبحانه هو خالق البشر العالم بما يصلحهم، فمن آمن بذلك حقاً؛ آمن بأنه جل شأنه لن ينزل تشريعاً إلا وهو ملائم لمجموع البشر، على الوجه الأكمل. وهذا هو الذي كان عند نزول التشريعات الربانية على أنبيائه عليهم السلام، وأظهرها لنا تشريع الرسالة الخاتمة، رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

أفلا نرى أن مخترع الآلة الإلكترونية الدقيقة وصانعها؛ هو الأعلم بما يلائم تشغيلها وصيانتها وإصلاحها؟!.

١٥- فلم تأت النبوة بمجرد الدعوة إلى المحبة والعدل، ولم تأت بمجرد مبادئ عامة وقيم نظرية، بل أقرت أسساً عملية يعتمد عليها المرء ، ومنهجاً يسير وفقه، سواء في تعامله في نفسه أو مع مجتمعه. وبَنَت عليها أحكاماً وتشريعات، تضمن عند التزامها؛ سير الحياة على الوجه الأمثل.

١٦- وقد سبق الكلام عما زعمه صاحب هذه المقالة -زوراً وبطلاناً- حول مسألة البعد الرأسي والأفقي في النبوة[(٣)].

---

(١) كالنظرية الشيوعية.

(٢) كالنظرية الرأسمالية.

(٣) انظر ما سبق : ٣١٦-٣١٧.

القضية السابعة والعشرون:

ما ذكره (العلماني) من أن البشر هم الذين وضعوا علوم السياسة والاجتماع والقانون والتاريخ، وأنهم قادرون على تأسيس السياسة وتدبير الملك، فلا حاجة إلى النبوات.

إن (العلماني) على طريقته في استخدام الحيل الإغرائية للإقناع بعدم حاجة البشر إلى النبوات، تذرع ببيانه أن البشر هم الذين وضعوا علوم السياسة والاجتماع والقانون والتاريخ...، وأن الإنسان قادر على تأسيس الدول وتدبير الملك...، وهذا للوصول إلى إقرار باطله، الدائر حول إنكار حقيقة الحاجة إلى النبوات.

إن صاحب هذه الفرية قد جهل أو تجاهل وهو يذكر ما وضعه البشر بالنسبة إلى تلك المعارف الإنسانية، بعيداً عن الهداية الربانية المنزلة:

١- أن الباطل فيها هو الذي يغلب عليها، حتى أن ما قد يوجد فيها من حقائق متناثرة؛ تختفي أمام الأمواج العاتية لباطل أصحاب تلك المعارف.

٢- أن تلك المجالات هي من الدراسات الإنسانية -غير الكونية- المحكومة بالأفكار المسبقة لكل دارس لها. ومحكومة بالمصالح والأهواء التي لا يمكن أن ينفك عنها البشر، ولم ينفكوا عنها حتى الآن، ولذلك فإن دراستهم لها تنحرف عن الحق. كما أن هذه الدراسات محكومة باختلاف الطبائع والشعوب والأزمنة والأمكنة[1]، الأمر الذي يجعلها متصفة بالقصور والمحدودية.

٣- لذلك كله فإذا أراد البشر أن تسير حياتهم على الوجه الأكمل؛ فإنهم يحتاجون إلى منهج للحياة متكامل، يشمل الأسس التي تنبني عليها الحياة البشرية، موضوعة على الوجه الصحيح والأكمل. ومشتمل على موازين عادلة، يرجع إليها الدارسون والمستنبطون عند الاختلاف، ولا تكون عرضة للنقض والتغيير، ولكنها تصلح لتطبيقات مختلفة بحسب ما يلائم الحال.

وهذا المنهج بهذه الشروط ولتلك الأسباب لن يوجد إلا من خلال تشريع رباني منزل، يعين البشر في مسيرة حياتهم، ويكون منار هداية لهم، يستضيئون بنوره في كل دراسة نفسية أو اجتماعية، أو أية دراسة إنسانية يقومون بها.

---

(١) انظر ما سبق: ٣١٨-٣١٩.

٤- أن الواقع التاريخي والحاضر يثبت: أن ما لدى البشر من مناهج وضعية؛ معظمها فاسد مفسد. وليس الخطأ في بيان تلك المفاسد، وإنما الخطأ هو في إغفال رؤيتها، على الرغم من وضوحها، والإصرار على السير عليها، دون الاهتداء بما ينير السبيل. ولو أدى ذلك إلى شقاء البشرية وتعاستها.

٥- ومن ذلك يتبين أن عبارة: (فهل النبوة لا تثبت إلا على أنقاض البشرية)[1]؛ يستحيل أن تصدر عمن عنده أدنى مثقال ذرة من إيمان بالله عز وجل، وبالرحمة التي أنزلها، من خلال أنبيائه عليهم السلام. ولا من الذين يريدون الخير والسعادة للبشر في الدنيا والآخرة. إذ حتى الدراسات الكونية الصرفة عندما انطلقت في العصر الحاضر بعيداً عن الهدي الرباني؛ لم تجلب لأصحابها إلا الشقاء النفسي، والدمار الخلقي، والاجتماعي والسلوكي، وهذا كله سيؤدي حتما إلى تدمير البشرية كلها، وتدمير كل ما وصلوا إليه من تقدم مادي دنيوي. ولن تكون النجاة من هذا المصير الحتمي إلا بالعودة إلى الهدي الرباني المنزل، والتمسك به وتطبيقه. وهذا الأمر وإن لم يطبقه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإن آثاره وظلاله ستعمّ البشرية كلها، كما عمتها من قبل.

---

(١) انظر: ما سبق: ٢٦٦.

القضية الثامنة والعشرون:

دفاع (العلماني) عن القوانين البشرية الوضعية، وأن التغيير فيها يشبه التغيير في الاجتهاد الحاصل في الفقه الشرعي.

لم يغب عن (العلماني) أن القوانين الوضعية البشرية تتعرض دواماً للتغيير والتبديل، فأخذ يدافع عنها، ويحاول تبرير تغيرها الدائم والمستمر، والدال على قصور نظر أصحابها، أو سوء طويتهم، فهو يدعي أن هذا التغيير يشبه التغيير في الاجتهاد، الحاصل في الفقه الشرعي، والذي قد يكون من مسبباته اختلاف الطبائع والشعوب. ويدعي كذلك -زوراً وبهتاناً- أن ذلك التغيير في القوانين الوضعية؛ يشبه التغيير الحاصل في الأحكام بين الشرائع الربانية المتلاحقة.

وبطلان هذه المقارنات الجائرة يتبين من خلال ما يلي:

١- يوجد فرق كبير بين تغيير القوانين البشرية؛ والاجتهاد في الفقه، فالأحكام الربانية فيها أسس متفق عليها بين جميع العلماء، لا تقبل النقض ولا التغيير. وهذه الأسس قد بني عليها: إما أحكام تفصيلية محددة، ليست خاضعة لاختلاف العصور والأجناس والأمكنة، بل هي قابلة للتطبيق في جميع الأحوال. ولكن إذا وقع الخلاف فيها بين العلماء، فيكون بسبب الخلاف في صحة الدليل، أو كيفية الاستنباط منه، والحق في هذه الأحكام مع صاحب الدليل الأقوى. وإما أحكام عامة، قصد الشارع أن يترك تفصيلها، لأنها تختلف باختلاف العصور والأمكنة، فيضع البشر ما يلائم حالهم الخاص، ملتزمين بالحدود العامة التي بينها الشرع.

وأما القوانين البشرية، فإن التغيير ليس منحصراً بسبب واحد، وهو اختلاف الاجتهاد أو اختلاف العصور، بل قد يتم التغيير فيها لاكتشاف فسادها، أو لأنها تراعي مصالح فئة دون أخرى، أو لأنها غير منسجمة مع ما فطر الله عليه البشر من خصائص[1]، أو لجورها في الحكم أو لضعف الأحكام الواردة فيها، أو لكونها لم تدرس قبل التطبيق، على الوجه الذي يكتشف جميع آثارها، أو لغير ذلك من أسباب تتغير من أجلها القوانين البشرية المحضة من جذورها.

٢- ثم إن الإنسان مطالب في مرحلة امتحانه الدنيوية أن يكون متعبداً لربه جل ذكره من خلال جميع أحكامه ومعاملاته، وهذا لا يتم إلا إذا كانت جميع تلك المعاملات مستمدة أو مستندة إلى شرع الله جل جلاله المنزل.

---

(١) وعلى ذلك كثير من فقرات النظرية الشيوعية المصادمة للفطرة الإنسانية، والتي صدرت عمن ادعوا أنهم فهموا أسس تركيب المجتمعات البشرية، وقوانين حركتهم وصراعاتهم. وكذلك الحال بالنسبة إلى المقررات التي تتبناها الهيئات الدولية كالأمم المتحدة، في الوقت الحاضر، بالنسبة إلى الأسرة والمرأة والحرية الجنسية، تلك المقررات التي أفرزتها (مؤتمرات المرأة المعاصرة).

وقد يطبق شخصان الحكم نفسه، ويكون أحدهما متعبداً لربه جل شأنه، من خلال تطبيقه لذلك الحكم، لأنه استنبطه من شرع الله تبارك اسمه المنزل، أولاً. ولأنه ابتغى به رضاه تعالى، ثانياً. ولا يكون للآخر من هذا أدنى نصيب، لأنه في الأصل لم يرد به أن يكون مستَنبطاً من شرع الله تبارك وتعالى، ولم يرد به كذلك عند تطبيقه له مرضاته جل شأنه.

٣- وبالنسبة إلى الشرائع الإلهية فإنه لو وجد أن أمراً ما كان حلالاً لمن قبلنا ثم حُرِم، أو العكس؛ فإن لهذا التغيير حكمة لله جل شأنه، يمكن أن يقال في بيانها: إن البشرية في مهدها وصباها لها خصائص وطباع لأفرادها ومجموعاتها؛ تختلف عن تلك التي لها بعد أن بلغت مرحلة النضج الكامل، ولذلك وتمشياً مع سنة التدريج أرسل الله جل شأنه رسلاً يتلو بعضهم بعضاً، يبلغون لأقوامهم الذين أرسلوا إليهم أحكاماً تتمشى والوضع النفسي والاجتماعي الذي وصلوا إليه، حتى إذا علم الله تبارك اسمه -وهو العليم الذي لا يخفى عليه شيء- أن البشر قد وصلوا في مرحلة نضجهم إلى المستوى الأكمل؛ أنزل عليهم شريعته الخاتمة، الناسخة لما سواها، والتي لا تقبل النقض أو التبديل. على أن هناك أحكاماً شرعية كثيرة متفق عليها بين الشرائع الربانية المختلفة، تقبل التطبيق في كل حين وعلى كل فرد. فأحكام كل أمة كانت ملائمة لهم ولظروفهم على أحسن وجه.

٤- والله تبارك اسمه قد علم قبل أن يخلق الخلق: المراحل التي سيمرون بها، وما يلائم كل مرحلة من تشريعات، وما لا يلائمها، وما يلائم المرحلة الخاتمة، من تشريعات وأحكام كاملة، يُتِمّ بها دينه ونعمته على خلقه.

٥- وأما البشر فإنهم في أغلب أحكامهم المتغيرة لا يكونون قاصدين إلى التغيير المتدرج والواعي حسب المراحل، وما يلائم كل مرحلة، وإنما هي تجارب متعاقبة، يتنقلون فيها بين الآراء والفرضيات، دون علم مسبق بالنتيجة التي ستؤول إليها. وفرق كبير بين فعلهم هذا، وبين ما اقتضته حكمة الرب العليم سبحانه!.

ومثال هذا: الفرق بين الطبيب العالم، الذي يتدرج في العلاج بعلم ودراية، شيئاً فشيئاً؛ وبين مشعوذٍ يخبط خبط عشواء، فيتنقل بين العلاجات المختلفة من غير هدى ولا بصيرة، أو بشيء من المعرفة لا تؤهله لأن يتصدى لعلاج الناس وتطبيبهم.

٦- وبالإضافة إلى ذلك، فإن معظم أحكام البشر الوضعية إنما يتبين -لدى العقلاء- بعد تطبيقها: عظم فسادها، وأنها لن تؤدي في النهاية إلا إلى مزيد من الشقاء والتعاسة للبشرية، وأنها لم تكن ملائمة حتى للعصر الذي طبقت فيه، أو الجماعة التي طبقت عليهم. على أن بعض هذه الأحكام قد يتم تغييرها بسبب اختلاف مصالح الفئة الحاكمة، وتحقيقا لرغباتها!.

٧- وأيضاً، فإن البشر إذا تخلوا عن الهداية الربانية، وحكّموا أهواءهم الضالة وآراءهم الناقصة؛ فإن التغيير عندهم لن تكون له نهاية، فهم في تخبط دائم ومستمر بين الآراء المتضاربة، والأحكام الجائرة.

القضية التاسعة والعشرون:

إعلان (العلماني) حزنه على البلاد الإسلامية إذ لم تحلّ القوانين الوضعية البشرية، محلّ أحكام الشريعة الإسلامية الربانية.

إن (العلماني) إيغالاً منه في كفرياته الشنيعات؛ أخذ يذكر ما يدل على حزنة على البلاد الإسلامية، إذ لم يأخذ المسلمون سبلهم لاتباع دول الكفر، في وضع القوانين. زاعماً أن التضارب بين القانون البشري والقانون السماوي هو أساس الثنائية في وجداننا المعاصر، وأنه سبب الصراع بين العلمانيين والحركة السلفية. اهـ.

ومن الرد على مشاعر (العلماني) الفاجرة:

١- إن ادعاءه أن التضارب بين القانونين هو سبب للثنائية في الوجدان المعاصر؛ فمثل هذا لا يوجد إلا عند فريق من الناس لا يمتلكون سوى عاطفة نحو الدين، ولكنهم في الوقت ذاته مفتونون مبهورون بالمادية الغربية المعاصرة، وبكل مظاهرها، التي منها تحكيم القوانين البشرية الوضعية.

٢- وأما كونه سبباً للصراع بين العلمانيين والحركة السلفية (أو كل متمسك بصدق بالدين الرباني المنزل) فهذا حق، وسببه يعود إلى أساس عقدي، فالمؤمنون بالله جل ذكره حقاً يعتقدون أنه هو وحده صاحب الحق في التشريع، ومن ثم فإن كل من يعتقد بأن للإنسان حقاً بأن يشرع في أمر لم يأذن له به الله تعالى به سبحانه؛ يكون غير مؤمن به سبحانه، وعليه فلابد أن يقع الصراع بينه وبين المؤمنين به جل جلاله.

٣- وكلما زاحمت القوانين الوضعية البشرية الشريعة الإلهية في أحكامها الثابتة، كلما اشتد الصراع بين الحق والباطل، بين المؤمنين بوجوب تحكيم شرع الله المنزل، وبين غير المؤمنين بذلك.

٤- ولكن إذا وضعت الأمور مواضعها اللائقة بها؛ ارتفع التضارب والصراع. فإذا وضع المنهج الرباني وطُبّق، واستفيد من أفكار المؤهلين للنظر والاجتهاد وتجاربهم النافعة؛ فيما أذن الله تبارك اسمه به لهم[1]؛ عاش المجتمع المحقق لذلك في أمن وطمأنينة وسلام ورخاء.

---

(١) ذكر علماء الأصول الشروط الواجبة حتى يكون العالم مؤهلاً لأن يجتهد في استنباط أحكام الشريعة.

القضية الثلاثون:

ادعاء (العلماني) أن العقل يقود الأمة كالإمام، وكأن الإمام في الإسلام لا يشترط لإمامته العقل.

وإمعاناً من (العلماني) في تتبع قضايا نظام الإسلام الإداري، لإطلاق مزاعمه التضليلية؛ فقد حاول إبطال فائدة إرسال الأنبياء عليهم السلام أصلاً، متذرعاً بادعاءٍ حول قيادتهم وقيادة أتباعهم المؤمنين بهم، والمتمسكين بالشريعة الربانية التي جاؤوا بها؛ عن طريق مقارنتها بقيادة سواهم من غير المؤمنين . وقد قدم لهذه السبيل الضالة بمقدمة ماكرة، زعم فيها أن: (العقل قادر على قيادة المجتمعات مثل قيادة الإمام لها.)[1].

وكأنه يريد أن يقول:إن الإمام الحق والمتبع لشريعة الله جل ذكره إنسان لا عقل له، أو إنه يصادم العقل فيما يطبقه من أحكام ربانية، ولا شك أن هذا الافتراء لا يمكن أن يصدر عمن عنده أدنى مثقال ذرة من إيمان، أو حتى مجرد إنصاف للحق.

١- فهل يوجد عاقل يظن أن أحداً من أمثاله من العقلاء يقول: إن الإمام لا عقل له!، أو إنه لا يشترط له العقل؟!، وهل العقل شيء موجود بذاته، أم أنه لابد أن يقوم بشخص ما؟!.

٢- إن الإمامة العامة عند أهل السنة بالاختيار -في الأصل[2]-، فلا يختار لها إلا من كان أكثر الناس كفاءة لها، ولا شك أن التمسك بالدين، والعقل والفطانة وحسن التصرف والتدبير، والعلم بالشريعة وبمصالح الناس وأحوالهم؛ كل ذلك من أهم شروط الإمام. والشريعة لم تأت إلا بوجوب تنصيب الإمام الصالح، والمستكمل لشروط هذه المهمة، لتستقيم حياة الناس. ووجود قائد لكل مجموعة بشرية أمر متفق عليه بين البشر جميعاً. والإمام -عند أهل السنة- إن اتقى الله تعالى، واتبع شرعه، وأراد إقامة الحق والعدل؛ أعانه الله تبارك اسمه وسدده. ولكن ذلك لا يعني أنه معصوم عن الخطأ، وأنه يتكلم بوحي من الله جل ذكره، وأن حكمه كله هو عين حكم الله جل جلاله، فقد يخطئ الإمام ولا يصيب الحق في بعض الأمور، وإن كان من أهل العدل، وهذه سنة الله تعالى في البشر، ولم يعصم جل وعلا إلا أنبياءه ورسله عليهم السلام. فلا معنى مطلقاً للقول بأن العقل قادر على قيادة المجتمعات مثل قيادة الإمام لها، إذ هو من البشر، ليست له صفات تفوق صفات سائرهم، ولكنه مستجمع لصفات تجعله من أكثر المؤهلين لقيادتهم، وهذا إن كان إمام حق وهدى.

---

(١) انظر ما سبق: ٢٥٦.

(٢) في أبي بكر رضي الله عنه خلاف، والظاهر أنه بالنص عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد يكون هذا النص لم يعلمه بعض الصحابة فلا ضير في ذلك، إذ تحقق مراد الله تعالى، ثم مراد النبي صلى الله عليه وسلم. انظر شرح العقيدة الطحاوية: ٥٣٣ وما بعدها.

القضية الحادية والثلاثون:

انتقاص (العلماني) قدر الأنبياء عليهم السلام في قيادتهم الأمم، واستهانته بهم وبإدارتهم، إذ جعلها لا تختلف عن قيادة غيرهم، بل ربما تكون قيادة غيرهم أفضل من قيادتهم.

لقد ضاق صدر (العلماني) الكافر بالنبوة والأنبياء، مما قرأه من قصص الأنبياء والمرسلين، ومما أوتوا من سموّ في القيادة، وحكمة في الإدارة، وكمال خلقي عجيب، لم يتحل به غير الأنبياء من القادة والزعماء، فتفجر قلمه بالرجس، متوهما أنه باستطاعته أن يلطخ به صحائف الأنبياء البيضاء، المشرقة المتوهجة بالنور، فكذب على الحقيقة والواقع مدعياً ما ادعاه من إفك بشأنهم، ليتخذ ذلك ذريعة لزلزلة ركن الإيمان بالنبوات.

وفي هذا المجال توجد حقائق لا يستطيع إنكارها الذين يعلنون كفرهم بالأنبياء عليهم السلام، لظهورها ظهور الشمس في رائعة النهار. ومن الحقائق الواضحة ما يلي:

١- إن القادة والأبطال الذين أشار إليهم؛ إما أن يكونوا من المؤمنين بالله تعالى حقاً؛ فهؤلاء من أتباع الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهم يعلنون ذلك، ويعلنون أنهم إنما يحاولون الاقتداء بهم عليهم السلام، فيما يقومون به ويفعلونه.

وإما أن يكون أولئك القادة من غير المؤمنين بالله سبحانه، ورسله عليهم السلام؛ وأمثال هؤلاء يمكن لأي دارس للتاريخ أن يجد البون شاسعاً بين قيادتهم لشعبهم؛ وبين قيادة الأنبياء والرسل عليهم السلام لمن آمن بهم.

٢- ثم ألم يكن الرسل عليهم السلام هم من أعظم القادة والأبطال، ومن أعظم الناس شجاعة وحنكة في قيادة الشعوب في حالتي الحرب والسلم؟.

ألم يقرأ من يدعي إيمانه بالرسالة الخاتمة صفات الرسول صلى الله عليه وسلم من الحكمة وحسن التدبير، والإقدام والشجاعة، والقوة والهيبة في نفوس الناس، ومحبة المؤمنين إياه أعظم من محبتهم أنفسهم وأهليهم؟!.

وأية صفة من صفات القائد لم تكن موجودة فيه صلى الله عليه وسلم على أكمل الوجوه؟!. وهل كان هنالك قائد معه ، يقود الأمة في عصره صلى الله عليه وسلم؟!، وهل كانت الأمة تنقاد إلا لأمره، أو لمن يؤمّره عليهم لسبب ما؟، وهل وجدت أمة في التاريخ انقادت لأحد؛ كما انقاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له؟!. ألا يدل هذا على عظم ما كان يتصف به صلى الله عليه وسلم؛ من صفات أهلته لأن يقود أمة هي خير أمة أخرجت للناس، وهو الذي باشر إنشاءها منذ أول فرد فيها، دون أن يستفيد من أحد سبقه في التكوين والتجميع؟!. إن أدنى دراسة في كتب السيرة والشمائل والتاريخ والحديث تعطي صورة واضحة كاملة عما كان يتصف به صلى الله عليه

وسلم في هذا المجال، والتي هي في الوقت ذاته منهاج ينبغي على كل قائد مؤمن أن يتأسى به على قدر مستطاعه. فإن ادعى أحد عدم صحة جميع تلك المصادر؛ كان هو المستهتر حقيقة بالبشر وعلومهم ودراساتهم، الهادم لمجهوداتهم، الظان فيهم ظن السوء.

٣- قد لا يمتنع وجود نبي ووجود ملك غير نبي في عصر من العصور، ولأمة من الأمم السابقة، ولكن في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان نبياً رسولا، وإماماً قائداً، وقاضياً مصلحاً حكيما...، ولم يكن معه صلى الله عليه وسلم في زمنه مَن يشاركه قيادة الأمة الإسلامية.

٤- وأما كون القائد نبيا كان أم غير نبي هو في القمة؛ فهذا أمر طبعي تفرضه المهمة الملقاة على عاتق القائد، فكيف يقود المجتمع ويحكمه ويسير أموره دون أن تكون له سلطة الرئاسة على أفراده؟!، وهذه السلطة والمكانة تكليفية أكثر منها سلطة شرفية، فهي تفرض عليه مهام وأموراً أعظم بكثير مما تفرضه على غيره. وهذا أمر لا يختص به الأنبياء عليهم السلام بل موجود لدى أي نظام حاكم، إذ لابد له من أمير أو قائد أو ملك أو إمام أو رئيس أو أي اسم آخر، يكون في قمة النظام الحاكم.

٥- إنه ليس معنى ما سبق أن القائد في الإسلام ينفرد في الحكم، فلا يرجع فيه إلا لمجرد رأيه، بل هو في الإسلام خاضع أساساً لأحكام الله تعالى وشريعته، يتساوى في ذلك مع غيره من المحكومين، حتى النبي عليه السلام لا يستطيع الخروج على شريعة الله جل جلاله المنزلة عليه. وفوق ذلك فإن القائد -وكذا النبي عليه السلام- قد طولب بأن يراجع أهل الشورى في الأمور التي تُرك للبشر الحكم والفصل فيها، وليس للقائد أن ينفرد في الحكم فيها. قال جل شأنه مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿... فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر... (١٥٩)﴾ آل عمران.

وقال سبحانه مبيناً صفات عباده المؤمنين:

﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون(٣٨)﴾ الشورى.

٦- وإذا رجعنا إلى سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم لوجدناه على الرغم من عظيم مكانته في نفوس أتباعه، وعظيم اتباعهم إياه، إذا جاءهم غريب لم يكد يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بينهم، فقد كان كواحد منهم، لا يرضى صلى الله عليه وسلم أن يميز نفسه بشيء عنهم! . وكان ينهاهم أشد النهي عن القيام بين يديه وهوقاعد[1] ، حتى الصلاة التي يجب فيها القيام

(١) جاء عن أنس رضي الله عنه: [ما كان أحد من الناس أحب إليهم شخصاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا إذا رأوه لا يقوم له أحد منهم، لما يعلمون من كراهيته لذلك]. رواه: أحمد، واللفظ له. المسند: ٣/ ١٣٤. وانظر: ١٣٢،١٥١، ٢٥٠-٢٥١. ورواه كذلك: البخاري في: الأدب المفرد. انظر: صحيح الأدب المفرد: ٣٥٣/ح:٧٢٤، وصححه الألباني في الموضع نفسه. و: الترمذي في الشمائل المحمدية؛ انظر: مختصر الشمائل المحمدية؛ الألباني: ١٧٨/ح: ٢٨٩، وصححه الألباني في الموضع نفسه. وكذلك رواه في: السنن: ٥/٩٠/ح: ٢٧٥٤، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني.

أمرهم فيها بالقعود إذا صلى فيها قاعداً(١). وكان صلى الله عليه وسلم أشد أصحابه على نفسه شظفاً في العيش(٢)، مع أنه لو أراد أن يعيش كهيئة الملوك(٣) لأمكنه ذلك. وكان صلى الله عليه وسلم يذهب مع الأرملة والمسكين، ليقضي لهم حاجتهم (٤). ولا يأنف أن يستجيب لمشورة أحد حتى لو خالفت رأياً ارتآه من نفسه، وذلك إذا علم أفضلية اتباع مقتضى هذه المشورة(٥)، وكان صلى الله عليه وآله وسلم متواضعاً في شأنه كله(٦)، ومع

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً". متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ للبخاري. البخاري: ١/٢٤٤/ح:٦٥٦.وانظر: ١/٣٧٤/ح:١٠٦٢،و:١/٤١٥/ح:١١٧٩، و: ٥/٢١٤٢/ح:٥٣٣٤، ونقل البخاري عن الحميدي في هذا الموضع: أن هذا الحكم منسوخ، أي الصلاة خلف الإمام القاعد قعوداً، وفي المسألة خلاف. وانظر: مسلم: ١/٣٠٩/ح:٤١٢.

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاءً. قال: وكان عامة خبزهم خبز الشعير). رواه أحمد، واللفظ له. المسند: ١/٢٥٥. وقد صُحح الحديث في الموسوعة الحديثة لمسند أحمد، بتحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون: ٤/١٥٠/ ح:٢٣٠٣. وانظر: الترمذي: ٤/٥٨٠/ح: ٢٣٦٠، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني: حسن. و: ابن ماجه: ٢/١١١١/ ح: ٣٣٤٧، وقال الألباني: حسن. وحسن الألباني الحديث أيضاً في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٢/٨٨١/ح:٤٨٩٥.
ومعنى: (طاويا): من طوى البطن، أي: خمص من الجوع. يقال: طوى فلان، أي: جاع. المعجم الوسيط: مادة: (طوى)/ ٢/٥٧٢.
وأيضاً فقد روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت:[(إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار)، فقلت: يا خالة ما كان يعيشكم؟، قالت: الأسودان؛ التمر والماء...)]. متفق عليه، واللفظ للبخاري، البخاري: ٢/٩٠٧/ح: ٢٤٢٨. وانظر: ٥/٢٣٧٢/ح:٦٠٩٣-٦٠٩٤. و:مسلم: ٤/٢٢٨٢-٢٢٨٣/ ح:٢٩٧٢، (عدة روايات).

(٣) ورد عن عمر رضي الله عنه في حديث طويل قوله: (...فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش،قد أثر الرمال بجنبه، متكئاً على وسادة من أدم حشوها ليف...)، ثم قال عمر رضي الله عنه: (يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم قد وسع عليهم، وأعطوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وكان متكئاً، فقال: "أو في هذا أنت يا ابن الخطاب، إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا"). رواه البخاري: ٥/١٩٩١/ح: ٤٨٩٥. وانظر: ٢/٨٧١/ح:٢٣٣٦. والأدم: جمع أديم وهو الجلد، انظر المعجم الوسيط: مادة: (أدم)/ ٢/ ١٠.

(٤) عن عبدالله بن أبي أوفى أنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر...، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة). رواه النسائي، واللفظ له. سنن النسائي: ٣/١٠٨/ ح:١٤١٤. وقال الألباني: صحيح. و: رواه الدارمي في: سننه: ١/٤٨/ح: ٧٤. و: ابن حبان في: صحيحه: ١٤/٣٣٣-٣٣٤/ح: ٦٤٢٣، ٦٤٢٤، وقد صحح المحقق: شعيب الأرناؤط كلا من الروايتين على شرط مسلم. و: الحاكم في: المستدرك:٢/٦٧١/ ح:٤٢٢٥، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والحديث صححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته، انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٢/٨٩٣/ ح: ٥٠٥.
وأيضاً فقد: (كان النبي صلى الله عليه وسلم مما يقول للخادم:"ألك حاجة"). رواه أحمد عن أنس رضي الله عنه؛ المسند: ٣/٥٠٠. وقد صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٢/٨٧٥/ ح: ٤٨٣٦.

(٥) كما حدث في بدر عندما قال الحباب بن المنذر بن الجموح: (يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟، قال: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة")، فأشار الحباب الطبري: ٢/٢٩.

(٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير). رواه الطبراني في المعجم الكبير: ١٢/٦٧. وصحح الألباني الحديث في صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٢/٨٨٣/ح:٤٩١٥.
وعن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار، فيسلم على صبيانهم، ويمسح برؤوسهم، ويدعو لهم). رواه النسائي في: السنن الكبرى، واللفظ له. السنن الكبرى: ٦/٩٠، وانظر: ٥/٩٢. ورواه ابن حبان في: صحيحه: ٢/٢٠٥/ح:٤٥٩، وقال المحقق:شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح. وصحح الحديث الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٢/٨٨٧/ح: ٤٩٤٧.

أصحابه[١]. ولايأنف في بيته عن القيام بما يقوم به سائر الرجال في بيوتهم[٢]. ولا يأنف أن يجيب الدعوة من أي شخص كانت[٣]. وكان يراعي أحوال الضعفة وأهل الحاجات[٤]. وكان لا يمنع شيئاً يُسأله[٥]. وكان لا يعنف أحداً فيقول له: لم فعلت؟، أو: لَمَ لم تفعل؟[٦]، وذلك بالنسبة للأمور الدنيوية العادية . وكان من أحسن الناس خلقاً[٧]، بالمؤمنين رؤوف

---

(١) عن سهل بن حنيف رضي الله عنه: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم). رواه الحاكم في: المستدرك: ٥٠٦/٢، وقال:هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه الطبراني في: المعجم الكبير: ٨٤/٦. والحديث صححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٨٧٩/٢/ح: ٤٨٧٧.

(٢) فقد سئلت عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته؟، فقالت: (كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم). رواه أحمد، واللفظ له. المسند:١٢١/٦، وانظر:٢٦٠/٦. ورواه كذلك ابن حبان في: صحيحه: ٤٩٠/١٢/ح: ٥٦٧٧، وقال المحقق: شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وكذلك رواه في: ٣٥١/١٤/ح: ٦٤٤٠، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح. ورواه أبو يعلى في: مسنده: ٢٨٧/٨، وقال المحقق: حسين أسد: إسناده صحيح. وصحح الألباني الحديث في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٨٨٦/٢/ح: ٤٩٣٧.
وفي رواية عنها رضي الله عنها أنها قالت: (كان بشرا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه). رواه أحمد، واللفظ له. المسند: ٢٥٦/٦. ورواه ابن حبان في: صحيحه: ٤٨٨/١٢/ح:٥٦٧٥، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم. ورواه البخاري في: الأدب المفرد: ٢٠٤/ح: ٤٢٠، وصححه الألباني. ورواه الترمذي في الشمائل المحمدية، انظر: مختصر الشمائل المحمدية؛ الألباني: ١٧٩-١٨٠/ ح: ٢٩٣، وصححه الألباني. ورواه أبو يعلى في: مسنده: ٢٨٦/٨/ح: ٤٨٧٣، وقال المحقق: حسين أسد: إسناده صحيح.

(٣) عن أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعى إلى خبز الشعير، والإهالة السنخة، فيجيب). رواه الترمذي في: الشمائل المحمدية، واللفظ له. انظر: مختصر الشمائل المحمدية: ١٧٧/ح:٢٨٧، وصححه الألباني. ورواه أحمد في: المسند: ٢١٠/٣، ٢٣٨، ٢٧٠. و: أبو يعلى في: مسنده: ٨٣/٧. وصحح الألباني الحديث في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٨٨٦/٢/ح: ٤٩٣٩. و:الإهالة: كل شيء من الأدهان مما يؤتدم به، وقيل: دسم جامد. و: السنخة: المتغيرة الريح. انظر: النهاية في غريب الحديث: ٨٤/١.

(٤) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلف في المسير، فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم). رواه أبو داود في: سننه، واللفظ له. السنن:٤٤/٣/ ح:٢٦٣٩، وصححه الألباني. و: الحاكم في: مستدركه: ١٢٦/٢، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. و: البيهقي في: السنن الكبرى:٢٥٧/٥. وصححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٨٨٢/٢/ ح:٤٩٠١. والتزجية: دفع الشيء. انظر: لسان العرب: مادة: (زجا)/ ٧٣/١٩.
وكذلك كان صلى الله عليه وسلم في الصلاة، فعن أبي واقد البكري رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم أخف الناس صلاة على الناس، وأطول الناس صلاة لنفسه، صلى الله عليه وسلم). رواه أحمد في: المسند، واللفظ له. المسند: ٢١٨/٥-٢١٩. ورواه أيضا: أبو يعلى في: مسنده: ٣/ ٣١،٣٥،٣٦. والطبراني في: المعجم الكبير:٣/ ٢٥٠-٢٥١، (عدة روايات). والبيهقي في: السنن الكبرى: ١١٨/٣. والحديث صححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٨٤٩/٢/ح:٤٦٣٦.

(٥) عن أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه قال: (...وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمنع شيئاً يسأله). رواه أحمد في: المسند: ٤٩٧/٣. وصححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ٨٧٨/٢/ح:٨٤٧١..

(٦) عن أنس رضي الله عنه قال: (خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي أف، ولا لم صنعت، ولا ألا صنعت). متفق عليه، واللفظ للبخاري.البخاري:٢٢٤٥/٥/ح:٥٦٩١. وانظر: مسلم: ١٨٠٤/٤/ح:٢٣٠٩، (عدة روايات).

(٧) عن أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً...). متفق عليه، واللفظ للبخاري. البخاري:٥/ ٢٢٩١/ح:٥٨٥٠. و: صحيح مسلم:١٨٠٥/٤/ح:٢٣١٠، (عدة روايات).
وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم: (كان خلقه القرآن). رواه أحمد، واللفظ له. المسند: ٩١/٦. وانظر: ١٦٣/٦. ورواه مسلم ضمن حديث طويل: ٥١٣/٢-٥١٤/ح: ٧٤٦.
وقال عز وجل واصفاً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم (٤)﴾ القلم.

رحيم[١]. وكان أجود الناس. وكان أشجع الناس[٢].

ولو ذهب الدارس يستعرض شمائل المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولاسيما تلك المتعلقة بتواضعه وبتعامله مع الآخرين أخذا من كتب السيرة والشمائل والحديث؛ لاحتاج إلى عدة مجلدات. وإن أدنى اطلاع على تلك الكتب يبين عظيم ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من حسن العشرة والتواضع في التعامل مع الآخرين، في صفات لا توجد حتى عند من لم يبلغ إلى درجة القيادة والرئاسة، فضلاً عمن بلغها من البشر العاديين، إذ المعهود ممن يبلغ إلى هذه الرتبة، ولا سيما من غير المؤمنين؛ أن يكون على خلاف كثير من الصفات التي سبق ذكرها، وبصفة خاصة؛ تلك المتعلقة بالتعامل مع الآخرين. وتلك الصفات هي -في حقيقتها- صفات سائر رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، الذين أمر الله تعالى رسوله بالاقتداء بهم، قال جل شأنه:

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده... (٩٠)﴾ الأنعام.

٧- وكذلك فإن صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم -ولا سيما خلفاؤه الراشدون- قد اقتدوا به في هذه الصفات، فتخلقوا منها بما قدروا عليه. ومن أراد التأكد؛ فليرجع إلى كتب سير الصحابة، وكتب التاريخ، يجد فيها الكثير مما يؤكد ذلك المعنى.

٨- وأين هذا كله ممن يدعي -بدون سند حقيقي- أن علاقة الرسول عليه السلام بأتباعه علاقة مركزية، تتسم بالقهر والسيطرة!، ويستدل على هذا بنظرية خرافية للفلاسفة[٣]، ويترك كتب التاريخ والحديث والسير؟!. فهل هذا هو المنهج العلمي؟!، وهل هذا فعل من يحترم الحقيقة ويبحث عنها من مصادرها؟!.

أليس إغفال عمل الناقلين لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمدققين لها، الذين بذلوا جهدهم في إيصالها لنا على الوجه الصحيح؛ أليس فيه ازدراء بعملهم وجهدهم؟![٤]، ولا سيما إن قابل هذا بالاعتماد على أساطير وخرافات، وضعتها آراء سقيمة، لم تعتمد لا على عقل صحيح ولا على نقل صريح.

---

(١) قال جل شأنه: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم (١٢٨)﴾ التوبة.

(٢) عن أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، واشجع الناس، وأجود الناس...). متفق عليه، واللفظ للبخاري. البخاري: ١٠٣٨/٣/ح:٢٦٥٦، وانظر: ١٠٥٦/٣/ح:٢٧٥١، ١١٠٦/٣/ح:٢٨٧٥، ٢٢٤٤/٥/ح:٥٦٨٦. وانظر: صحيح مسلم: ١٨٠٢/٤/ح: ٢٣٠٧.

(٣) انظر ما سبق نقله عن حسن حنفي: ٢٦٦.

(٤) والعجيب: إصرار حسن حنفي على الهجوم على من يهتمون بدراسة سير الأنبياء عليهم السلام، بينما نراه هنا يترك ما نقل بالطرق الصحيحة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء عليهم السلام، ويعتمد على خرافات لبعض الفلاسفة، فما الذي يفهمه العاقل من هجومة ذلك، وصنيعه هنا؟!.

إن مدعي أن رئاسة الأنبياء عليهم السلام تقوم على أساس من المركزية والسيطرة والقهر؛ إن قال إنني لم أقصد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بالفعل كذلك، ولكن هذا هو تصور المؤمنين به، أجيب بطلب الدليل على ذلك، من الكتب الصحيحة والمعتمدة والناقلة لسيرة النبي عليه الصلاة والسلام، والتي علمها المؤمنون وعلموا ما دلت عليه من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم. وأما الاعتماد على رأي شاذ لبعض الفلاسفة غير مستند إلى دليل، فهذا لا يليق بالباحث العلمي، وإن ذكره عرضه كرأي من الآراء الباطلة، وأن الحق -ذا الدليل الصحيح- بخلافه، ولا يذكره كرأي وحيد في المسألة، دون بيان للحق.

وإن كان مدعي ذلك يقصد ما قاله فعلاً فهو بهذا يكون قد أنكر الحق في هذه المسألة من أركان الدين من غير دليل، وهذا مخرج لصاحبه من ملة أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إذ ما الذي يبقى من ركن الإيمان بالنبي -والأنبياء عموماً- عليهم السلام؛ إن كان ذلك الباطل هو المتصور في حقهم عليهم السلام.

القضية الثانية والثلاثون:

زعم (العلماني) أن البشر قادرون على أن يضعوا لأنفسهم ما يروق لهم من عبادات، دون أن تفرض عليهم.

وقد أكد (العلماني) باطله السابق عندما ادعى: أنه لا توجد عبادة واحدة، فكل أمة تعبد الله بشرائعها، وترى فيها أنسب تعبير عن إيمانها وعقائدها!!.

و(العلماني) يتعامى عن أن أصل معنى العبادة لا تكون إلا بطاعة المعبود، والمعبود الحق في الوجود كله هو الله عز وجل، فلا إله إلا هو. فكيف يسوغ في فكر غير مأفون، أن يضع العابد لله جل وعلا ما يرى هو من أعمال تعبدية ليعبده بها، دون أن يتلقي منه أوامره ونواهيه التي يثبت من خلالها صدق طاعته وعبادته له جل جلاله؟!.

ألا يمكن أن يعصيه زاعماً أنه يطيعه؟!. ألا يمكن أن يفعل ما يحلو له من الفواحش والجرائم والعدوان والظلم ويزعم أنه يعبد بهذا معبوده؟!. ألم تعبد طوائف من البشر الأحجار والأشجار والبهائم زاعمين أنها تقربهم إلى الله زلفى، وأنها ترضي معبودهم عنهم؟!.

إن مثل هذا الادعاء لا يدعيه إلا فاقد العقل، أو أنه يتصور أن من يخاطبهم لا عقول لهم.

هل لو ادعى عامل لدى إنسان أنه يريد أن يقوم بعمله على أحسن وجه؛ ولكنه لا يريد ممن استعمله أن يوجهه بشيء، أو أن يطلب منه شيئا، فهو الذي يريد أن يحدد ما الذي يقوم به، وما الذي لا يريد القيام به، دون التفات إلى مراد صاحب العمل الأصلي، بل العامل يريد أن يقوم بما يحلو له، ويكون متلائما مع رغباته، فهل يقبل مثل هذا الهراء عاقل، عاملا كان أم صاحب عمل؟!!.

إن مما يجمع عليه جميع المؤمنين بالنبوات ومن لديهم أدنى تصديق بها، ولو كان يشوبه ما يشوبه؛ أن الفائدة الرئيسية للنبوة هي بيان العبادات التي يحبها الله تعالى، وكيفية أدائها.

ولكن حتى هذه الفائدة المجمع عليها؛ لم يرق لهذا (العلماني) المنتقد للقائلين بحاجة الناس إلى النبوة؛ أن يرى فيها ما يؤكد قولهم ذلك، فذهب يقول كلاما لا يتصور صدوره إلا من كافر موغل في الكفر والطغيان، كما سبق نقله عنه[1]، والمتضمن أن البشر بإمكانهم أن يضعوا لأنفسهم ما يروق لهم من عبادات، دون أن تفرض عليهم، ودون أن تكون ضد العقل.

ومن الرد على هذا الهراء:

١ - إن العبادات تشمل في حقيقة أمرها القيام بكل أمر يحبه الله جل شأنه قولاً كان أم فعلاً، ظاهراً أم باطناً، وترك كل أمر لا يحبه جل شأنه، قولاً كان أم فعلاً، ظاهراً أم باطناً، فهي بهذا المفهوم

---

(١) انظر: ما سبق نقله عن حسن حنفي: ٢٥٦- ٢٥٧.

الواسع تشمل جوانب حياة الإنسان كلها، فكل حركة أو سكون يقوم به الإنسان، مريداً به مرضاة ربه، وقد أداه على الوجه الذي يرضاه جل شأنه فهو عبادة[1].

فالله تبارك اسمه قد ترك للإنسان مجالاً كبيراً يعبده من خلاله، دون أن يفرض عليه فيه هيئات مخصوصة، وإنما عليه فقط أن يلتزم بالأحكام الشرعية العامة، التي تتناول كل أمر يقوم به الإنسان، وكل ما طلبه منه في ذلك المجال -مع ذلك الالتزام العام- هو: أن تكون نيته؛ إرادة مرضاة ربه عز وجل، أثناء أدائه لهذا العمل. فهو يعبد ربه من خلال طعامه وشرابه ونومه وعمله ومعاملته زوجه وأبناءه وجيرانه وأهله ومعارفه وأصحابه...، وعموماً من خلال جميع الأنشطة المباحة التي يقوم بها.

٢- ولكن المقصود ابتداء هنا هو تلك الشعائر، ذات الصفة الخاصة، التي يتوجه بها الإنسان نحو ربه طلباً لرضاه، على وجه تتمحض فيه العبودية لله عز وجل.

فالإنسان يقصد بهذه الشعائر طلب رضا الله عز وجل، بأعمال ذات صفات مخصوصة، يعلم كل من رآها أن المقصود عبادة الله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبعي أن يكون المحدد لهذه الصفات، هو نفسه الذي يُتوجه إليه بالعبادة، ويُطلب رضاه من خلالها، أي الله جل شأنه.

٣- ومن خلال هذين المجالين يحصل التكامل في تحقيق عبودية المرء لربه عز وجل.

ولذلك فإنه في حقيقة الأمر لا يكفي أحد المجالين عن الآخر، فلا ينبغي من الإنسان أن يعبد ربه من خلال تلك العبادات ذات الهيئات المخصوصة دواماً، دون أن يقوم بما فُرض عليه من الأعمال التي يحقق بها الكفاية لنفسه ومن يعوله، بل ولمجتمعه كذلك. قال جل شأنه:

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور(١٥)﴾ الملك.

كذلك لا يكفي من الإنسان أن يجعل عبادته لربه جل شأنه مختصة فقط بالعبادات ذات الهيئات المخصوصة، وأما أعماله وأنشطته الأخرى فيجعلها على وفق هواه وشهوته، لا يلتزم فيها أي التزام، إذ لابد أن يكون عابداً لربه فيها جميعاً، وأقل ما يحقق تلك العبودية هو التزامه بالأحكام الشرعية التي تشمل الأنشطة والأعمال التي يقوم بها.

وفي المقابل فإنه لا يكفي أن يعبد الإنسان ربه من خلال أعماله وأنشطته العامة فقط، بل لابد أن يتوجه إليه بالعبادات المخصوصة، حتى يتحقق له كمال العبودية، إذ يجب عليه القيام بأمر يكون عبادة خالصة لا يريد منها الإنسان أمراً دنيوياً عاجلاً، وإنما يريد بها مرضاة ربه والفوز في الدار الآخرة فقط. وهذه العبادة تزيد الإيمان بالله واليوم الآخر قوة، فالمرء لا يقوم بعمل وإرادته من ورائه مختصة بأمر معين؛ إلا هو مؤمن بهذا الأمر أساساً. إذ الإيمان الصحيح بأمر، ترتبط به أعمال وتصرفات؛ يدفع صاحبه إلى القيام بتلك الأعمال. كالإيمان بالله عز وجل، الذي يقتضي أعمالاً

---

(١) انظر: الفتاوى الكبرى؛ ابن تيمية: ٣٦١/٢.

كثيرة، فإنه كلما قوي ذلك الإيمان في نفس صاحبه؛ ازداد اندفاعه نحو القيام بالأعمال التي يقتضيها. وفي المقابل فإن التزام أداء الأعمال الصالحة يزيد ذلك الإيمان قوة وثباتا، ومن هنا كان لابد في الإيمان من التصديق القلبي والقيام بالعمل الذي يستلزمه ذلك التصديق، ومن غير العمل يضعف الإيمان، بل ويخشى عليه من أن يموت كلية.

٤- وعلى الرغم من ذلك كله فإنه ما من عبادة من العبادات المحضة؛ إلا استطاع العلماء أن يستنبطوا لها الكثير من المصالح التي تعود على الإنسان في دنياه، وهذا فضل من الله جل شأنه، والأساس أن الإنسان يقوم بهذه العبادة ابتغاء مرضاة ربه تعالى.

وعموماً فإن العبادات المحضة في الإسلام تراعي الجانبين المادي والروحي (أو: المعنوي) في الإنسان، كما هو الحال في سائر أحكام الشريعة، فتشترك النفس مع البدن في أداء العبادة، كما تشترك الأمور المادية مع الأمور المعنوية، فما من عبادة من العبادات إلا هي متوافقة مع الطبيعة البشرية السوية؛ أكمل التوافق. كما أن العقل إذا تمعن في النظر وجد أنها تشتمل على الكثير من الحكم والمصالح.

٥- وبإجراء مقارنة بسيطة بين أية عبادة في الإسلام، كالصلاة مثلاً؛ وبين أية عبادة وضعية، يخترعها البشر، يجد المرء الفرق واسعاً والبون شاسعاً، بحيث لا يكون هناك مجال للمقارنة أصلاً. بل إنه يُستغرب كيف يقتنع بشر وهبهم الله عقولاً؛ بأداء حركات وتصرفات لا تتفق بأي شكل مع مقتضيات العبادة الحقة، ولا سيما إن لم تشتمل تلك العبادة الوضعية على أصول مستمدة من العبادات التي شرعها الله جل شأنه.

٦- وعلى ذلك: فليست العبادات الشرعية (ضد العقل والطبيعة ومفروضة عليهما)[١]؛ بل هي متوافقة معهما، وتلبي احتياجاتهما على أكمل وجه يلائم الفطرة البشرية من جهة، وعلى ما يرضي الرب جل شأنه من جهة أخرى. وما من عبادة شرعية ثابتة يمكن أن يجد فيها أحد ما يصادم العقل، أو تلك الفطرة، بل إنه بالتمعن فيها يمكن اكتشاف الكثير من وجوه الموافقة بين العبادة وبينهما.

٧- وما ذكره بعض الأقدمين عن العقل والفعل المعتاد والعبادة[٢]، فإنه قصد منه أن العبادة لابد أن تكون لها صورة غير الصورة التي اعتادها البشر في أعمالهم، ومهما فكر العقل فإنه لن يخرج عن الأعمال التي تدخل في باب ما اعتاد البشر أو بعضهم القيام به، وبذلك لن يكون هناك الفرق المطلوب بين تلك العبادة المحضة؛ وبين أعمال البشر العادية. بينما العبادات الشرعية بما حدد الله لها من أوصاف وهيئات يخرجها عن ذلك المعنى.

هذا بالإضافة إلى أن تلك الأوصاف والهيئات لابد أن تكون مما يرضى عنه الرب، لأنه هو المقصود من ورائها، وهو أمر لا يعلم إلا من جهته تعالى، إذ الاحتمالات لا حصر لها، ومن ثم فإنه

---

(١) كما ادعى كذباً وزوراً (العلماني) حسن حنفي صاحب هذه المقالة الافترائية: ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) انظر ما سبق أن نقله حسن حنفي عن الرازي على وجه فيه تلبيس وتضليل: ٢٥٧.

يستحيل أن يصل العقل إلى جميع العبادات، بصفاتها التي ترضي الله عز وجل. ولم يقصد الأقدمون رحمهم الله وضع العقل في مقابل العبادة[١].

٨- وعلى الرغم من كثرة العلماء الذين ذكروا حكم العبادات الشرعية، وما فيها مما يوافق العقل ويبهره؛ فإنه قد يقال: إن الأساس أن يؤدي الإنسان العبادة المحضة المشروعة التزاماً للأمر الإلهي، وهذا وحده كاف في بيان الحكمة من أية عبادة يأمر الله تبارك اسمه بها خلقه.

فلا يتوقف الإنسان عن أداء العبادة المشروعة حتى تتبين له الحكمة من ورائها، بل يلتزم ويمتثل للأمر الإلهي. ولكن ليس معنى هذا ألا يعمل عقله لاستنباط الحكم والعلل، من وراء العبادات الشرعية، فإن هذا أمر يمكن أن يدخل ضمن التفكر الذي أمر الله به خلقه[٢].

٩- وأما ما ذكره (العلماني) من أنه لا توجد عبادة واحدة، فكل أمة تعبد الله بشرائعها، وترى فيها أنسب تعبير عن إيمانها وعقائدها[٣].

فإن ادعى أنه يقصد بهذا الكلام: العبادات التي شرعها الله تبارك اسمه على عبيده في الرسالات السابقات، وهو قصد لا يدل عليه ظاهر كلامه؛ فمثل هذا لا يفيده شيئاً.

إذ إن مسألة العبادات في الشرائع المختلفة لا يمكن أن يقطع فيها بشيء، فلا يوجد تشريع كامل، من التشريعات التي أنزلها الله قبل أن ينزل الرسالة الخاتمة، وهو باق على كماله، دون أن يتعرض إلى التحريف والتغيير.

١٠- ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن أصول العبادات واحدة، وذلك في الشرائع التي جاء بها الرسل عليهم السلام، وقد يقع الاختلاف في بعض الأمور الفرعية، أو في الزيادة والنقص، على حسب ما يلائم حال القوم الذين نزل عليهم التشريع الرباني. على أن الصورة المثلى قد اكتملت في الرسالة الخاتمة.

ومما يمكن الاستدلال به على أن أصول العبادات واحدة؛ ما جاء في القرآن من بيان أوامر الله جل ذكره لبني إسرائيل بأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأن الصلاة عندهم فيها ركوع وسجود، وما جاء أيضاً من أن الصيام قد كتب علينا كما كتب على الذين من قبلنا، وأنه جل شأنه قد جعل لكل أمة منسكاً، يقدمون فيه الذبائح تقرباً إلى الله عز وجل. قال تبارك اسمه:

---

(١) يلاحظ هنا بتر الجملة التي نقلها: حسن حنفي عن الرازي، لكي يستنتج منها ما يوافق زعمه، بينما العبارة لو نقلت على الوجه الصحيح، وفهمت فهماً سليماً؛ ما أعطت هذا المعنى المزعوم. وقد سبق نقل العبارة على الوجه الصحيح، انظر: ٢٥٧، هـ: ١. وهذا من مميزات المنهج العبثي والتدليسي عند: حسن حنفي وأضرابه!.

(٢) انظر ما سبق: ٢٦٤-٢٧١.

(٣) انظر ما سبق: ٢٥٧.

﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون(٨٣)﴾ البقرة.

ومريم ابنة عمران، رضي الله عنها، وهي من بني إسرائيل، أمرتها الملائكة قائلة لها:

﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين (٤٣)﴾ آل عمران.

وأيضاً فعندما أمرنا جل شأنه بالصيام قال:

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (١٨٣)﴾ البقرة.

وعن تقديم الذبائح تقربا إلى الله تعالى، قال سبحانه:

﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين (٣٤)﴾الحج.

فليست الأمم السابقة المختلفة، والتي كانت على الحق؛ تعبده جل شأنه بشرائع تخترعها من عند أنفسها[(١)]، بل هي تعبد الله بما شرعه لها، وأصول شرعه جل شأنه -كما تبين- واحدة.

١١- وإن قصد (العلماني) الأمر الثاني، وهو ما يشمل العبادات التي اخترعها البشر من عند أنفسهم، وهو ما يدل عليه ظاهر كلامه؛ فإن مثل هذا القصد الباطل يستغرب صدوره ممن يدعي مناصرة العقل، وأنه من المؤمنين بدين الإسلام، إلا إذا كان قد وصل في مراده لإبطال الحق بأي افتراء إلى الدركة الدنيا، إذ كيف يُتصور أن يدعي من يزعم مناصرته للعقل وإيمانه بدين الإسلام؛ أنه يجوز للناس أن يضعوا من عند أنفسهم عبادات مخصوصة يتوجهون بها نحو خالقهم جل وعلا؟!، فهل هم عندما يعبدون الله تعالى يطلبون رضا أنفسهم، أم رضاه جل شأنه؟!.

فإن كانوا يطلبون رضا أنفسهم؛ فهؤلاء ليسوا عابدين لله جل ذكره أبداً، بل هم عابدون لأهوائهم وشهواتهم، قال تبارك اسمه:

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون (٢٣)﴾ الجاثية.

---

(١) فقد أراد: حسن حنفي أن يفهم قارئه وكأن الأمم هي وضعت عبادات تعبر فيها عن عبادتها لله جل جلاله، على حسب ما يلائم حالهم، وكأنه بهذا يخلط بين الأديان الوضعية، والشرائع السماوية. انظر ما سبق نقله عنه: ٢٥٧.

وإن كانوا يطلبون رضا الله جل جلاله، فإن رضاه تعالى إنما يكون باتباع ما يشرعه هو سبحانه. والمؤمن بالله جل شأنه حقا وبحكمته ورحمته؛ يعلم أنه تبارك اسمه لن يشرع لعباده إلا كل خير موافق لفطرهم واحتياجاتهم.

١٢- وأما ما ذكره من أن العمل عبادة، فإن هذا لا يلغي وجوب العبادات المحضة الأخرى، كما سبق بيانه.

١٣- وأما زعمه: أن هذه العبادات هي عبارة عن أشكال ورموز وصور؛ لا تعبر عن جوهر الإيمان وقصد العقيدة[١]؛ فهذا لا يصدق إلا على الأشكال التي وضعها البشر من قبل أنفسهم، وادعوا أنهم يعبدون الله جل شأنه من خلالها!. وأما العبادات الشرعية؛ فبشمولها الإنسان نفساً وجسداً، وبشمولها جوانب الحياة البشرية؛ معنوية ومادية، فهي تحقق الإيمان القلبي في الواقع العملي على أكمل وجه. فالله تبارك اسمه المعبود وحده بحق هو الذي شرعها، وأمر عباده بأن يتقربوا إليه من خلالها.

---

(١) انظر ما سبق نقله عن حسن حنفي في مقالته الافترائية هذه: ٢٥٧.

القضية الثالثة والثلاثون:

تسوية (العلماني) بين النبوة وعلومها وحقائقها، وبين ما يخترعه البشر من عقائد ومفهومات وتشريعات.

إن مقالة (العلماني) الافترائية السابقة تؤدي إلى نتيجة أساسية، وهي: تسويته بين علوم النبوة وحقائقها؛ وبين ما يخترعه البشر من عقائد وتشريعات، بل إنه يرجح مخترعات البشر الخرافية، على الحقائق النبوية القطعية!.

والحق أنه يكفي لإسقاط هذا الادعاء أن يقرأ أي مثقف ما عند طوائف الناس وفرقهم من عقائد ومذاهب، متعارضة ومتناقضة ولا يقبلها عقل سليم، ويقارن بينها وبين ما جاء من حق واضح وصريح، ولا يتناقض مع الموازين العقلية الفطرية السليمة؛ في الرسالة الربانية الخاتمة. وهو سيجد حتما أن التباين بينهما كالتباين بين الظلمات والنور، والوجود والعدم، والحق والباطل.

فكيف يصح في عقل ذي فكر ضحل أن يسوي بين الحق والباطل، والوجود والعدم، والظلمات والنور؟!!.

ودخولاً في بعض التفصيلات فإنه يقال: كيف تصح التسوية بين المعاد الذي جاءت به النبوات وبينته، وبين ما اخترعه بعض البشر من صور لذلك المعاد؟!:

١- أما وجوب المعاد والجزاء الأخروي؛ فإن هذا مما يدل عليه العقل، وقد يؤمن بأصله عن طريق العقل بعض الناس. ولكن ليس معنى ذلك أن يكون إيمانهم به صحيحاً، فكثير من الناس يؤمن بالله تعالى وبوجوده ، ولكنهم مع ذلك يشركون معه غيره، فهم في الحقيقة كافرون بالله سبحانه. وكذلك الشأن بالنسبة للمعاد والجزاء الأخروي ، فقد يؤمن بعض الناس بصورة من الصور الممكنة عقلاً له ، ولكن لا تكون هذه الصورة ولا هذا المعاد هو الذي سيحققه الله جل شأنه، فهم ليسوا مؤمنين به على الحقيقة . وقد يعتقد الكثير أن الذي سيتولى أمر المحاسبة والجزاء هو غير الله جل شأنه، من الآلهة التي يشركون بها، فيكون هذا كفراً بالله وبجزائه. ثم إن للمعاد الحق تفصيلات لا يمكن لأي عقل أن يصل إليها، ولا يمكن معرفتها إلا عن طرق الرسل المعصومين عليهم السلام.

٢- وقد يرتاب الكثير من الناس في شأن المعاد، ويحتاج إلى تأكيد شاف، يتحقق لديه أنه من عند الله جل شأنه؛ يثبت له حقيقة المعاد والجزاء الأخروي، بما لا يدع مجالاً للشك. فالمعاد والجزاء الأخروي كسائر القضايا العقدية التي يمكن إدراكها بالعقل، ولكنها لا تستغني عن بيانها البيان الكامل عن طريق النبوة[1].

---

(١) انظر ما سبق ص: ٢٧١-٢٧٢.

٣- ويبقى هنا ادعاء أن مجتمعات بأكملها قد توصلت إلى خلود النفس دون نبوة[1]، وهذا مما لا دليل عليه، ولماذا لا يكون ذلك لديها -إن وجد- من بقايا نبوة صحيحة وإن دخلها التحريف؟. وقد بين الله تعالى لنا أنه ما من أمة إلا قد خلا فيها نذير، بين لهم الحق واضحا جلياً، ودعاهم إلى الإيمان به. قال تبارك اسمه:

﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (٢٤)﴾ فاطر.

٤- ومن أباطيل (العلماني) الافترائية دعواه: أنه (لا يوجد أثر إلا في العالم، سواء كان في الحال أم في المآل، مباشراً أو غير مباشر)[2]، وهذا لا معنى له سوى أنه لا جزاء إلا ما كان في هذه الحياة. وهو كفر صريح بركن الإيمان باليوم الآخر، وهو الركن الذي يقرنه جل شأنه بالإيمان به، في الكثير من آيات الكتاب العزيز. ومعلوم لدى كل مسلم أنه لاحظ في الدين لمن لم يؤمن بأركان الإيمان الستة.

وكم خرج إنسان من هذه الحياة ولم ينل جزاءه على ما قدمه من عمل، لا عاجلاً ولا آجلاً، ولا مباشراً ولا غير مباشر؟!، والمتتبع لأحوال كثير من الظلمة في التاريخ يجد من ذلك أمثلة لا حصر لها. فأين هو الجزاء العادل؟!، وهل مجرد سمعة سيئة أو حسنة يعتبر جزاء أوفى على ما قدمه الإنسان من أعمال؟!. وهل يردع مثل هذا الجزاء الظالمين عن ظلمهم؟!، أم إنهم يزيدون ويطغون؟!.

إنه لو ظن الناس بمجموعهم أنه لا جزاء إلا هذا الجزاء لانقلبوا وحوشا، ولما أمكن العيش في هذه الحياة.

إنه على الرغم من وجود الكثير من الظلمة والفاسقين، فإن آخرين كثيرين قد ردعهم عن ممارسة الظلم أو عن الطغيان فيه؛ إيمان بجزاء أخروي. وما ضعف الإيمان بالجزاء الأخروي إلا وازداد الناس ظلماً وطغياناً واعتداء من بعضهم على بعض[3]. وإن ادعى أحد أن الإيمان بالجزاء لم يُفد في ردع طائفة كبيرة عن الظلم، أو التخفيف منه لديهم، فإنه يكون مكذبا بواقع قد عاشه المسلمون، وأمم من قبلهم ممن اهتدى بهدي النبوة، قرونا طويلة.

---

(١) انظر ما سبق: ٢٥٧.

(٢) انظر ما سبق: ٢٥٧.

(٣) الأدلة على الجزاء الأخروي العادل، والرد على منكريه، له بحثه المستقل. انظر: الجزاء الأخروي للباحث. والحق أن: حسن حنفي يدعي أنه لا جزاء إلا ما كان في هذه الحياة، ولا يوجد بعد الموت شيء، انظر: المعاد، له.

خاتمة بشأن هذه القضايا السابقة:

وفي الختام يلخص (العلماني) ما سبق أن سطره في مقالته؛ بعبارات يقرر فيها افتراءاته وكأنها قد أصبحت حقائق لا تقبل الجدال، فيدعي: أن العقل ليس بحاجة إلى العون. وأنه ليس يوجد ما يندّ عنه، فهو يحسّن ويقبّح، ويستطيع إدراك الحسن والقبح في الأشياء. والحس قادر على الإدراك والمشاهدة والتجريب. وأنه لا طريق للصانع إلا العقل والحس. والأخلاق يمكن معرفتها بالفطرة. والاستحقاق واجب عقلي. وكمال النفس بالنظر والعمل. وذكر أن ذلك موقف الفقهاء، دون مزايدة في الإيمان، أو هدم للمعرفة الإنسانية[١].

تفصيل الردود على هذه القضايا قد تبين فيما سبق، وملخصه:

١- إن ادعاء: أن العقل ليس بحاجة إلى عون تأتي به النبوات؛ ادعاء يكذبه التاريخ والواقع، من خلال الضلالات غير المتناهية، التي ما انفك عنها البشر، ما داموا غير مؤمنين بالنبوة الإيمان الصحيح. وما ندّ عن عقول كثير من البشر من الحق -في المسائل التي جاءت بها النبوات- أكبر بكثير جداً مما علموه وآمنوا به، رغم وضوح الحق في كثير من تلك الأمور.

٢- والعقول في التحسين والتقبيح تختلف كثيراً، والواقع يثبت ذلك. حتى الأخلاق قد ظهر كثير ممن يدعون نسبيتها، ليصلوا من وراء هذا إلى تحسين الأخلاق القبيحة[٢].

٣- والحس والعقل وإن كانا طريقين لمعرفة الخالق جل وعلا؛ إلا أنهما -بناء على ما أثبتته الوقائع قديماً وحديثاً- لم يفيدا في جعل أي جمهور بشري ذا عدد؛ يؤمن بالخالق جل شأنه، وبوحدانية إيماناً صحيحاً.

هذا بالإضافة إلى عدم مقدرتهما على إثبات كثير من الصفات الخبرية لله عز وجل، والتي يحتار العقل في شأنها، ولا يستطيع نفيها أو إثباتها. فلا غنى للبشر -إذا أرادوا إصابة الحق والفوز والنجاة- من اتباع الهداية الربانية، التي جاءتهم عن طريق أنبيائه عليهم السلام.

٤- وأي أمر يدل عليه العقل يحتاج فيه إلى ما يبيّنه له البيان الكامل، إذ إن هناك أموراً كثيرة تتعلق به يحتار العقل فيها، ولا يستغني عن بيان النبوة[٣].

٥- والنظر والعمل من غير اهتداء بالهدى الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام والشرائع والأحكام؛ لا يعطيان النفس الكمال الذي تبحث عنه.

---

(١) انظر ما سبق: ٢٥٧-٢٥٨.

(٢) الشيوعيون وكثير غيرهم من العلمانيين والماديين يقولون بنسبية الأخلاق. انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها؛ عبد الرحمن حبنكة الميداني: ١/٩٧-١٠٤.

(٣) انظر ما سبق: ٢٧١- ٢٧٢.

٦- الأمر في الهدى الذي جاءت به النبوة من جهة، والمعرفة الإنسانية من جهة أخرى؛ ليس أمر مزايدة في جانب، أو هدم لجانب آخر، وإنما هو وضع كل منهما موضعه الملائم له.

٧- والفقهاء هم أكثر الناس معرفة لعظيم أهمية ما جاءت به النبوة، وهم أحسن الناس استخداماً لما وهب الخالق جل جلاله البشر من نعمة العقل والفكر.

٨- وأما من استكبر في نفسه وأراد ألا يرى منّة لأحد عليه حتى ولو كان نبيا؛ فليرفض منن الله جل ذكره عليه، بما فيها العقل والحواس التي وهبه إياها. فإن جحد أن الله سبحانه هو الذي وهبه ذلك؛ فهو كافر ملحد بربه، ولا يكون النقاش معه في النبوة، وإنما لابد من البدء بالجذر الإيماني الأول، وهو الإيمان بالله تبارك اسمه رباً وإلهاً واحداً.

ومثل هذا الملحد يرفض أن ينسب تلك النعم إلى حي حكيم مريد جل جلاله، وفي المقابل فإنه ينسبها إلى جامد لا علم عنده، أي ينسبها إلى الطبيعة، وليس ذلك إلا من أجل ألا يعترف بحقوق ربه جل ذكره عليه. وإلا فهل يظن عاقل بأن الأمر المتقن لا يكون وراءه خالق مريد مختار حكيم عليم سبحانه وتعالى؟!.

الفصل الثاني

المقالة الافترائية الثانية وبيان ما فيها من أباطيل ومغالطات.

(وهي تدور حول تظاهر (العلماني) بمناقشته لمن ادعوا استحالة النبوة، وما دسه من افتراءات وأباطيل متنوعة).

ويشتمل على:

مقدمة: حول اتخاذ بعض العلمانيين حيلة الرد على القائلين باستحالة النبوة للوصول إلى باطلهم.

المبحث الأول: مناقشة (العلماني) لما أسماه: (الاستحالة المبدئية)، والرد على افتراءاته.

المبحث الثاني: مناقشة (العلماني) لما أسماه: (الاستحالة العقلية)، والرد على افتراءاته.

المبحث الثالث: مناقشة (العلماني) لما أسماه: (الاستحالة العملية)، والرد على افتراءاته.

مقدمة: حول اتخاذ بعض العلمانيين حيلة الرد على القائلين باستحالة النبوة للوصول إلى باطلهم.

اتخذ (العلماني) -صاحب المقولة التالية- حيلة الرد على القائلين باستحالة النبوة ليوهم أنه عقلاني ينهج منهج الحق، وينشد نصرة الحق أين وجده، لكنه في مثاني حيلته حاول جهده عرض أقوالهم بصورٍ مقبولة، وكانت مناقشته لهم مشوبة بالأغاليط والشبهات.

وقد قسم هذا (العلماني) مزاعم مدعي الاستحالة إلى أقسام، فالقسم الأول يتعلق بما أسماه: (الاستحالة المبدئية للنبوة)، والقسم الثاني يتعلق بما أسماه: (الاستحالة العقلية)، والقسم الثالث يتعلق بما أسماه: (الاستحالة العملية).

وفي المباحث التالية بيان ما في مناقشة (العلماني) لمدعي الاستحالة من زيوف وأباطيل، تشمل قضايا متعددة ترتبط بموضوعات النبوة المتعددة.

المبحث الأول: مناقشة (العلماني) لما أسماه (الاستحالة المبدئية)، والرد على افتراءاته.

أولاً: الرد التحايلي (للعلماني) على ما ذكر أنه الحجة الأولى من حجج أصحاب هذه الاستحالة المزعومة:

قال (العلماني): (تقوم الاستحالة المبدئية...على حجج ثلاث: الأولى: لابد أن يعرف المبعوث أن المرسِل له هو الله ، ولا طريق إلى معرفة ذلك، فلعل المرسِل هو الجن. والحقيقة أن هذه الحجة تجعل النبوة متوقفة على المرسِل، في حين أن النبوة واقعة تاريخية، وبرهان صدقها داخلي، ولا يتوقف على المرسِل، أو حتى على المعجزة كدليل على صدق النبي... لا يهم في النبوة مصدرها، أي ما قبل الإعلان، بل تبليغ الرسالة بعد الإعلان... وليس المطلوب في النبوة لمعرفة صدقها إمكانية التمييز بين كلام الله وكلام الإنسان، ما دام يأتي في صوت إنساني وبلغة إنسانية ولرسول إنساني ليبلغه للناس....

صحيح أنه لا يوجد اضطرار بأن ما تلقاه الرسول علم من الله، ولو أراد الله علماً لاضطره إليه. ومع ذلك فإن الإنسان قادر بمفرده عن طريق الاستبصار واستشراف الباطن على معرفة ما يدور في نفسه، وذلك بانعكاس نظرته إلى الداخل والتركيز على شعوره. كما يستطيع أن يستشرف شعور الآخرين ببصيرته، خاصة إذا كانت تربطه بهم علاقة حب. والحدس يقين لا ظن ، يمكن أن يتكرر، قد يخطئ مرة، ولكن لا يخطئ كل المرات، ولا يعني خطؤه عدم وقوعه أو استحالته.)[1].

الرد على افتراءات (العلماني):

لم يعجب (العلماني) الرد على ادعاء عجز المبعوث عن معرفة أن المرسل إليه هو الله تبارك اسمه؛ والذي له طرق ووجوه متعددة، منها: أنه من السهل على الأنبياء عليهم السلام، بل وعلى كثير غيرهم؛ التمييز بين كلام الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبين كلام غيره من إنس أو جن.

إنه لا يريد أصلاً إثبات الله المرسِل جل وعلا، وأن يأتي إلى الموضوع من طريق إثبات وجوده وصفاته، وإمكان وحيه إلى بعض عباده، بطريقة تفيد القطع، لأن هذا سيوصل إلى الإيمان بحقائق الدين حتماً، وبالنبوة على اعتبار أنها الطريق الوحيد للوصول إلى تلك الحقائق، على الوجه الصحيح.

---

(١) انظر: النبوة؛ حنفي: ٣٩-٤٠. وستستكمل فيما بعد، بقية كلام حسن حنفي، حول الحجتين الباقيتين، لمن قال: بالاستحالة المبدئية. وحول ما أسماه: بالاستحالة العقلية، والاستحالة العملية .

بل إنه يريد أن يجعل النبوة ظاهرةً من الظواهر البشرية، التي هي جزءٌ من قدرات الإنسان، ولو بالنسبة إلى بعض أفراده. وهي لا تعبّر عن وسيلة بيانٍ لخالق غيبي -جل شأنه- شاء أن يوصل إلى عبادة المخلوقين له؛ بلاغاً فيه حقائق يجب عليهم أن يؤمنوا بها، وفيه تكاليف يجب عليهم أن يعملوا بها.

وسَلَكَ النبوةَ في نظام ما أسماه: (الاستبصار والاستشراف الباطن)، كالحدس الذي يكون عند بعض الناس، ولاسيما الحدس الذي يكون ما بين محب نحو حبيبه، وزعم أن الحدس يقين لا ظن، على خلاف ما قرره العلماء، ودون أن يأتي لهذا الزعم بأي دليل.

وفي القضايا التاليات بيان الحق بشأن الوحي الرباني للأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وبيان ما في كلام (العلماني) من الزيف.

القضية الأولى: إفادة الوحي الرباني العلمَ اليقيني الضروري:

جرت سنة الله عز وجل؛ بأن يتدرج في أول الأمر مع الذين يصطفيهم للنبوة في درجات إعلامهم بوحيه، حتى يوصلهم إلى درجة يتلقون فيها وحيه بصورة تفيدهم علماً يقينياً، من أعلى درجات اليقين، ويكون لديهم علماً ضرورياً.

قد يأتي الوحي النبي عليه السلام لأول مرة فيحتار في شأنه، نظراً لهول المفاجأة، وقد وقع مثل هذا لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، عندما جاءه الوحي لأول مرة في غار حراء، إذ قال لخديجة رضي الله عنها، بعد أن أخبرها الخبر:

"لقد خشيت على نفسي"[(١)].

حتى ذكر القصة لورقة بن نوفل[(٢)]، واستدل من خلال ما ذكره له الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذا الذي جاءه هو جبريل عليه السلام مُبَلِّغ الوحي من الله جل شأنه لأنبيائه عليهم السلام[(٣)].

وكذلك استدلت خديجة رضي الله عنها من خلال قرائن أحوال النبي صلى الله عليه

---

(١) قال ابن حجر في فتح الباري: (اختلف العلماء في المراد بها -أي الخشية- على اثنى عشر قولاً: أولها: الجنون، وأن يكون ما رآه من جنس الكهانة، جاء مصرحاً به في عدة طرق. وأبطله أبو بكر بن العربي، وحق له أن يبطل، لكن حمله الإسماعيلي على أن ذلك حصل له قبل حصول العلم الضروري له أن الذي جاءه ملك وأنه من عند الله تعالى). ثم ذكر بقية الأقوال. ورجح هو من الأقوال أن المراد بالخشية: الموت من شدة الرعب أو المرض ودوامه.

(٢) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي بن قصي القرشي الأسدي، ابن عم خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها. اعتبره بعض العلماء من الصحابة، وذكر آخرون أنه لم يعرف عنه إعلانه الإسلام، والراجح أنه توفي بعد المبعث بقليل. ووردت في شأنه أحاديث مرسلة تدل على حسن العاقبة. والله أعلم. وقد أورد الأقوال في شأنه ابن حجر في الإصابة، بتفصيل وتوسع. انظر المنتظم؛ ابن الجوزي: ٢/٣٧٣. و: معجم الصحابة؛ ابن قانع: ٣/١٨١. و الإصابة؛ ابن حجر: ٦/ ٦٠٧.

(٣) الحديث متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها. وقد سبق تخريجه. انظر: ٥٣.

وسلم السابقة أنه لا يمكن أن يكون ممن يخزيهم الله جل شأنه، فيكونون من أتباع الشياطين وأهل الضلال[١].

ثم إن الحق الذي جاء به الوحي، وتتابعه، يعطي النبي عليه السلام علما يفيد الصدق واليقين أن هذا الذي يأتيه هو من ربه جل شأنه، وهو أمر يستدل به أيضا غير النبي عليه السلام على صدقه. وقد يدلّ الله عز وجل نبيه على أن ما يأتيه هو الحق بوجوه من الدلائل الخاصة به حتى لا يبقى عنده أدنى شك[٢].

القضية الثانية: حول حيلة (العلماني) عدم أهمية مصدر النبوة:

١- إن أجلّ ركن في النبوة؛ هوركن المُصْطَفِي لمن يقوم بها، وهو الله المرسِل جل جلاله، والنبوة بدون ركن المُصْطَفي لها لا تعتبر شيئاً. فهو الذي يختار النبي، وهو الذي يُنَزّلُ عليه الوحي، وهو من يكلفه بتأدية رسالاته إذا بعثه رسولاً، فلا معنى لقول (العلماني): (والحقيقة أن هذه الحجة تجعل النبوة متوقفة على المُرْسِلِ، في حين أن النبوة واقعة تاريخية).

إن هذا التحويل للنبوة احتيال تضليلي يُغَشّى به العلماني صراط الحق، ليضل من يتأثر به وبكلامه، ويبعده عن سلوك ذلك الصراط.

إنه لا يصح إيمان بالنبوة ولا يستقيم إذا لم يكن صاحبه مؤمناً بالله جل شأنه الإيمان الصحيح والكامل، وبأنه تعالى هو الذي بعث الأنبياء وأرسل الرسل عليهم السلام. ولا معنى للإيمان بالنبي عليه السلام؛ إذا لم يكن صاحبه مؤمناً بأن هذا النبي مُرسَل إلى البشر، من قِبل الله عز وجل؟!.

٢- وإن المعنى الأساسي للنبوة، هو أنها أنباء وأخبار وأحكام وشرائع أتت من قبل الله عز وجل إلى هذا الشخص الذي يقول عن نفسه إنه نبي من أنبياء الله عليهم البسلام، ورسول مبعوث من قبله ليبلغ الناس مطلوبات ربهم منهم، وليبين لهم ما أنزل إليهم، ويذكرهم ويحذرهم وينذرهم ويبشرهم، وهكذا إلى سائر وظائف رسالته إليهم.

والبشر إذا اتبعوه فإنما يتبعونه لاعتقادهم الجازم بأن ما جاء به هو من عند الله تعالى ربهم، فهم يطلبون رضا الله من خلال اتّباع رسوله، ويتجنبون سخطه فيما لو خالفوه، وهم يطلبون لأنفسهم تحقيق السعادتين الدنيوية والأخروية، ويعلمون أن ذلك لن يحصل لهم إلا باتباع المنهج

(١) وذلك إذ قالت له: (كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.). انظر: الهامش السابق، إذ هذا الكلام من ضمن الحديث السابق.

(٢) انظر: المواقف في علم الكلام؛ عبد الرحمن بن أحمد الإيجي: ٣٤٣.

المنزل إليهم من، خالق البشر، والعالم بما يصلحهم، ذلك المنهج الذي لم يأتهم إلا عن طريق الأنبياء عليهم السلام.

٣- من أجل ذلك كله فإنه من الطبعي والفطري طلب التأكد من كون هذا المدعي للنبوة وللرسالة صادقاً في دعواه أو غير صادق. فقد يدعي النبوة كاذب، وقد ادعاها الكثيرون. وربما يقرن ذلك بشيء من الحق، ليموه على الناس ويخدعهم.ولكن الذي يفصل حقاً، وعلى أكمل وجه بين الصادق والكاذب؛ هو كون كل ما جاء به الرسول حقاً، وهدىً إلى الصراط المستقيم، مع براهين الآيات المتنوعة التي يأتي بها النبي علبه السلام. فمن آمن بالله الإيمان الصحيح وعلم ما يصح أن ينسب إليه وما لا يصح؛ أمكنه بيسر ووضوح أن يرد دعوى الكاذب، باعتبار أن ما جاء به لا يمكن أن يكون من قبل الله عز وجل. ولهذا فإنه يروى أبا بكر[1] رضي الله عنه عندما نقل له شيء من كلام مسيلمة الكذاب[2]؛ قال: (إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ)[3].

٤- فهروب (العلماني) إلى ذكر أن النبوة واقعة تاريخية؛ تحايل يصرف به النظر عن كون النبوة اصطفاءً ربانياً.

نعم: قد يستشهد بالوقائع التاريخية المتكررة على أن الرسول اللاحق ليس بدعاً في التاريخ البشري، فقد سبقه رسل، إلا أنها لا تكفي لإثبات النبوة لكل من يدعيها.

٥- إن النبوة ليست مجرد آراء ومقترحات في جانب من جوانب حياة البشر، حتى يمكن التغاضي عن مصدرها، بل هي منهج متكامل للحياة يشمل جوانب الإنسان كلها، اعتقاداً

---

(١) عبد الله بن أبي قحافة وهو: عثمان بن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة القرشي التيمي، كان اسمه في الجاهلية: عبد الكعبة، فسماه الرسول صلى الله عليه وسلم: عبد الله، الصديق، الصحابي المشهور، ولد: بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، وهو أول من أسلم من الرجال. وأول خليفة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وتوفي سنة: ١٣هـ، رضي الله عنه. انظر: الاستيعاب ٢/٢٤٣-٢٥٧. و: الإصابة: ٢/ ٣٤١-٣٤٤/ تر: ٤٨١٧. و: أسد الغابة: ٣/٢٠٩-٣٣٥.

(٢) هو: مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي، أبو ثمامة. ولد ونشأ باليمامة. ادعى النبوة في آخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ أرسل أبو بكر رضي الله عنه جيشاً بقيادة خالد بن الوليد، وقضى عليه، وقتل في المعركة سنة: ١٢هـ. انظر: الكامل، ابن الأثير: ٢/١٣٧-١٤٠. و: شذرات الذهب: ١/٢٣. و: الأعلام: ٧/٢٢٦.

(٣) انظر: البداية والنهاية؛ ابن كثير: ٦/٣٣١. وفي معنى (إل) في أثر أبي بكر رضي الله عنه أقوال، ذكرها صاحب اللسان. فقيل: الإلّ: الله عز وجل، بالكسر. وقيل: الإلّ: الأصل الجيد، أي لم يجئ من الأصل الذي جاء منه القرآن. وقيل: الإلّ: النسب والقرابة، فيكون المعنى: إن هذا كلام غير صادر من مناسبة الحق... انظر: لسان العرب، مادة: (ألل)/ ١٣/٢٦-٢٧. وجاء في اللسان أيضاً أن: الإل: الربوبية، الموضع نفسه.

وسلوكاً، وكثيرٌ من الأمور الاعتقادية مما لا يمكن أن يحكم فيه العقل بنفي أو إثبات، ولهذا فلابد أن يكون عند من تبلغه الدعوة يقين بصدق النبي عليه السلام في دعواه النبوة، أي في دعواه أن ما جاء به إنما هو من عند الله عز وجل. ومن أجل هذا فإنه عندما جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له:

(...إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك. فقال: "سل عما بدا لك". فقال: أسألك...بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟، فقال: "اللهم نعم". قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟، قال: "اللهم نعم ". قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟، قال: "اللهم نعم". قال: أنشدك بالله؛ آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم نعم ". فقال الرجل: آمنت بما جئت به...)(١).

٦- كذلك فإنه ما من نقاش يقع بين أصحاب الدين الحق وأصحاب الديانات الأخرى إلا والأساس فيه هو: هل هذا الدين الذي بين أيدينا من عند الله عز وجل أم لا؟!.

وتَيَقُّن البشر بأن ما جاء به الرسول عليه السلام هو من عند الله تعالى لا يكون إلا بعد أن يكون الرسول عليه السلام هو نفسه متيقناً من ذلك.

٧- ثم إن الله جل شأنه كما أنه هو الذي أنزل الرسالة؛ فهو الذي جعل فيها وأحاطها بما يدل على صدقها وصدق من جاء بها، في دعواه الرسالة.

٨- فإذا كانت الرسالة منه تعالى، ومن يتبعها فإنما يبتغي مرضاة ربه، مع علمه بأن ربه الحكيم العليم جل شأنه لن يختار له إلا الأوفق والأحسن والأكمل، وإذا كان هو تبارك اسمه هو من أحاطها بدلائل وبراهين متنوعة على صدقها؛ فكيف يُظن بعد هذا كله أن برهان صدق الرسالة لا يتوقف على المُرسِل، كما ذكر (العلماني)؟!!. وأيّة قيمة للرسالة إن قطعت صلتها عن المُرسِل جل وعلا.

٩- أما الآية المعجزة فهي أحد الأدلة والبراهين على صدق الرسالة، وصدق الرسول عليه السلام الذي جاء بها، ولكنها ليست الدليل الوحيد على ذلك. والبراهين المتنوعة المستنبطة من

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن حبان وابن خزيمة والبيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. وروي أيضاً عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما. البخاري: ١/٣٥/ح: ٦٣. وانظر: مسلم: ١/٤١/ح: ١٢. و: النسائي في: المجتبى من السنن: ٤/١٢٢-١٢٣/ ح: ٢٠٩٢، ٢٠٩٣. وفي: السنن الكبرى: ٢/٦٢-٦٣/ ح: ٢٤٠٢، ٢٤٠٤. و: سنن ابن ماجه: ١/٤٤٩/ ح: ١٤٠٢. و: مسند أحمد: ٣/١٦٨، ٢٦٤. و: صحيح ابن حبان: ١/٣٦٧/ ح: ١٥٤. و: صحيح ابن خزيمة: ٤/١٣/ ح: ٢٣٥٨. و: سنن البيهقي الكبرى: ٧/٩. و: المعجم الكبير؛ الطبراني: ٨٠/٣٠٥/ ح: ٨١٤٩. و: تهذيب الكمال: ٢٦/ ٥٩٣-٥٩٥/ تر: ٥٦٧٥.

الرسالة نفسها، ومن صفات الرسول عليه السلام، ومن كيفيـة قيامه وأمته من بعده بالدعوة، ونحو هذا؛ قد تكون أعظم أثراً على المدى الطويل من الآيات المعجزات الحسية المادية، التي تنتهي في أزمانها.

ثم إنه ما الفرق بين الحقائق التي جاءت بها النبوات وبين كلام أي عالم أصاب في علم من العلوم إن كان (لا يهم في النبوة مصدرها)؟!.

١٠- إن الإصرار على قطع الصلة بين النبوة وبين مصدرها الرباني، أو ادعاء عدم أهمية إبرازه وتوضيحه؛ لا يفهم منه إلا أنه محاولة لإبطال النبوة بالكلية. إذ تُقْطَع صلتها بالله جل شأنه، فلا يعود لها في نفوس أتباعها والمؤمنين بها تلك المكانة الرفيعة، التي نشأت بسبب إيمانهم الراسخ بأن كل ما هو ثابت في النبوة فهو من عند الله جل شأنه. وأنهم بتنفيذه إنما ينالون رضاه تعالى. فإذا أتى من يدعي عدم أهمية صلة النبوة بالله تعالى؛ فإنه يجرد النبوة من أهم ركائزها وأسسها التي تقوم عليها، ويجعلها مجرد دعوى من الدعاوى التي لا تستند إلا إلى مدّعيها، ولا ترتكز إلا على مَن قال بها ودعا إليها. ومن ثم يستوي في ذلك المتنبئ الكاذب، والنبي الصادق، وتتعادل النظرة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ومسيلمة، ولا يكون فرق بين كل أنبياء الله تعالى، على مدى مسيرة النبوات، وكل دعاوى الكذبة عبر التاريخ.

إنه يريد أن يجعل النبوة ظاهرة إنسانية كسائر الظواهر الإنسانية، التي هي من صفات البشر النفسية، ليسهل إبطالها بالكلية، ولا سيما في نفوس الذين يلقون سمعهم للمضلين.

القضية الثالثة: حول حيلة (العلماني) التضليلية لصرف الأذهان عن التمييز بين كلام الله تبارك اسمه وكلام الناس:

لقد ادعى (العلماني) بمكر شيطاني أنه ليس المطلوب في النبوة لمعرفة صدقها إمكانية التمييز بين كلام الله وما يصدر عنه؛ وكلام الإنسان، وما يصدر عنه، ما دام يأتي بصوت إنساني وبلغة إنسانية ولرسول إنساني ليبلغه للناس[1].

وظاهرٌ أن هدفه من هذا الادعاء الباطل صرف أذهان الذين يتأثرون به؛ عن الحجة البرهانية القائمة على التمييز بين ما يصدر عن الله سبحانه من بيان لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وما يصدر عن الإنسان غير المهتدي بالهدي الرباني من أمور يختلط فيها الحق بالباطل، والخير بالشر، والهدى بالضلال. ومؤدى هذا في القرآن -على سبيل المثال- إسقاط أن ما جاء

---

(١) انظر ما سبق: ٣٥٢.

فيه من الحق، على الوجه الذي أُنزل؛ هو من الإعجاز الذي يحكم كل عاقل منصفٍ بأنه لا يمكن أن يكون قد صدر عن البشر، بل إن مُنزِلَهُ لابد أن يكون هو الخالق لكل شيء، العليم بكل شيء، الحكيم الخبير، الله جل شأنه.

ولا يرتاب مؤمن حق بأن الله جل ذكره قد أنزل القرآن بياناً معجزاً، ليميزه عن كل كلامٍ يأتي به الذين هم من دونه، ولهذا تحدى الناس بأن يأتوا بسورة من مثله، فقال عز وجل:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ البقرة.

وطلب من البشر أن يتدبّروا كتابه، حتى يعلموا الفرق بين كلامه جل ثناؤه وكلام البشر. فلو كان هذا الكتاب من عند غير الله سبحانه لوقع فيه الاختلاف والاضطراب:

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (٨٢)﴾ النساء.

القضية الرابعة: حول ادعاء (العلماني) بأنه لا يوجد اضطرار بأن ما تلقاه الرسول علم من الله -سبحانه-، ولو أراد -تعالى- علماً لاضطره إليه[1]:

إن هذه الدعوى كاذبة في حق الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي حق أتباعه، وكل من آمن بالحق وانقاد له أيضاً، لأنه سيجد من الأدلة والبراهين ما لا يحصى؛ مما يدل على أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون إلا من عند الله جل شأنه، فكيف بالرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، الذي يعلم الحق الذي أُنزل إليه على أكمل وجه وأتمه؟!.

وعبارة (العلماني): (لو أراد الله علما لاضطره إليه)؛ قد أوردها غطاءً تضليلياً لتحقيق هدفه، أوهم بها أنه من الذين يؤمنون بقدرة الله على خلق العلم الضروري في عباده، لكن النبوة لا يشترط فيها حصول هذا العلم، لأنها ظاهرة من الظواهر البشرية!. وهذا من تفتيت حقيقة النبوة واستبعاد عناصرها عنصراً فعنصراً.

إن كل مؤمن يعلم أن الله جل جلاله قادر على خلق العلم الضروري في عبده، وقد جاء في حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم:

---

(١) انظر ما سبق: ٣٥٢.

"فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة[١]، فقال: يا محمد، قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟، قلت لا أدري. قالها ثلاثا. قال: فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلى لي كل شيء، وعرفت..." الحديث[٢].

فهذه صورة قد ثبتت للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الوحي إليه لم يكن على هذه الصورة دواماً، بل إن أكثره ومعظمه، ولاسيما بالنسبة إلى الكتاب العزيز كله؛ كان عن طريق رسول الوحي جبريل عليه السلام، إذ كان ينزل إليه فيعلمه...

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاني من نزول الوحي إليه كثيراً، كما قال صلى الله عليه وسلم، عندما أجاب من سأله عن كيفية إتيان الوحي إليه:

"أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول". قالت عائشة رضي الله عنها: [ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً][٣].

وهذا يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم مكلف أكثر من سائر الناس، وذلك في الأمور التي تقتضيها رسالته وأعباؤها، ومنها المجاهدة في تحمل تنزلات العلم الرباني عليه، وما يلقاه من الجهد يكون سبباً لنيله صلى الله عليه وسلم عظيم الأجر عند ربه تبارك اسمه.

---

(١) هذه الرؤيا منامية كما قال العلماء. انظر: تفسير ابن كثير: ٢/١٥٠، ٤/٤٣.

(٢) روى الحديث الترمذي وأحمد والطبراني والمزي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. ورُوي أيضاً عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي وعن ابن عباس وأبي أمامة وأبي رافع وعن أم الطفيل زوجة أبي بن كعب وأبو عبيدة الجراح رضي الله عنهم، وقد روى هذه الروايات المختلفة الترمذي وأحمد وابن الجوزي وأبو يعلى والطبراني وعبد بن حميد. واللفظ أعلاه للترمذي. سنن الترمذي: ٥/ ٣٦٨/ ح: ٣٢٣٥. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني. وانظر: ٥/٣٦٦ -٣٦٧/ ح: ٣٢٣٣-٣٢٣٤. و: مسند أحمد: ٥/٢٤٣، ١/٣٦٨. و: المعجم الكبير: ٢٠/ ١٠٩/ ح:٢١٦، ١/٣١٧/ ح: ٩٣٨، ٨/٢٩٠/ ح: ٨١١٧. و: مسند الشاميين؛ الطبراني: ١/٣٣٩/ ح: ٥٩٧. و: الآحاد والمثاني؛ ابن أبي عاصم : ٥/٤٨- ٥٠/ ح: ٢٥٨٥-٢٥٨٦، ٦/١٥٨/ ح: ٣٣٨٥. و: تهذيب الكمال؛ المزي: ١٧/٢٠٢/ح:٣٨٦٤. و: المنتخب من مسند عبد بن حميد: ٢٢٨/ح: ٦٨٢. و: العلل المتناهية: ١/٣٠/ح:١٠. و: مسند أبي يعلى: ٤/٤٧٥/ ح: ٢١٠٨. و: سنن الدرامي: ٢/١٧٠/ ح: ٢١٤٩. والحديث صححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته: ١/٧٢/ح: ٥٩.

(٣) متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها. واللفظ للبخاري. وقد سبق تخريج الحديث. انظر: ١١٧. ومعنى: (صلصلة): صلصل الشيء: صوت صوتاً فيه: ترجيع، يقال: صلصل الجرس والرعد. انظر : المعجم الوسيط: مادة: (صلصل)/١/٥٢٠. ومعنى: (يفصم عنه): لغة: ينشق، وهو هنا بمعنى: يقلع وينجلي. انظر: المعجم الوسيط: مادة: (فصم)/. ٢/٦٩٢. و: فتح الباري: ١/٢٠. ومعنى: (يتفصد): أي: يسيل. انظر: المعجم الوسيط: مادة: (فصد)/ ٢/٦٩٠.

وأعباء النبوة والرسالة تستدعي مضاعفة البلاء، وقد أبان الرسول صلى الله عليه وسلم هذا بقوله: لمن سأله عن أشد الناس بلاءً:

"الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه..."[1].

القضية الخامسة: حول ادعاء (العلماني) أن الإنسان قادر على أن يتنبأ:

لقد ادعى (العلماني) أن الإنسان قادر بمفرده عن طريق الاستبصار واستشراف الباطن على معرفة ما يدور في نفسه، وذلك بانعكاس نظرته إلى الداخل، والتركيز على شعوره، كما يستطيع أن يستشرف شعور الآخرين ببصيرته، خاصة إذا كانت تربطه بهم علاقة حبٍ[2].

والحق: إن هذا الكلام لا علاقة له بالأساس الذي تقوم عليه النبوة، والذي هو تَلَقّي النبي عليه السلام للأخبار والأنباء عن الله عز وجل بإحدى وسائل الوحي.

فإن قضية الاستبصار –أو ما يسمى الكشف أو غير ذلك من أسماء– قضية لا صلة لها بالنبوة من قريب ولا من بعيد، ولكنها نوع من الرجم بالغيب، قد يصدق أحياناً، ولكنه يكذب غالباً. وهو حين يصدق فإنما يصدق من باب المصادفة، أو المقابلة بين الشيء ونقيضه. وهذا أمر بعيد تماماً عن النبوة ومناقض لها. فالنبوة لا تعتمد على الحدس والتخمين، أو المصادقة والاتفاق...، ولكنها تخبر عن يقين، وتنقل الحق عن الحق – سبحانه –... وكما أن ثمة فرقاً كبيرا بين النبوة والحدس؛ فهناك فارق بين المتعاطي لكل منهما. فالذي يتعاطى الحدس هو منجم أو عرّاف أو كاهن، أو من هذه الأصناف، وكلهم كذبة...، وهم ينسبون ما يجيئون به إلى أنفسهم... أما الأنبياء عليهم السلام فلا يزعمون أن ما يأتون به من عندهم، بل يرجعونه إلى الله سبحانه وتعالى، وهم صادقون في جميع أقوالهم.

---

(١) رواه الترمذي وأحمد والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن حبان والحاكم وأبو يعلى والطيالسي وابن أبي دنيا عن : سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، واللفظ للترمذي. سنن الترمذي: ٤/٦٠١/ ح: ٢٣٩٨، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وكذا قال الألباني في صحيح الترمذي. وانظر : مسند أحمد : ١/١٧٢، ١٧٣، ١٨٠، ١٨٥. و: سنن ابن ماجه : ٣/ ١٣٣٤/ ح: ٤٠٢٣، وقال الألباني : حسن صحيح، في صحيح ابن ماجه. و: سنن الدارمي: ٢/٤١٢/ ح: ٢٧٨٣. و: صحيح ابن حبان: ٧/١٦٠-١٦١/ ح: ٢٩٠٠-٢٩٠١، ٧/١٨٣-١٨٤/ح: ٢٩٢٠-٢٩٢٣، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن. و: المستدرك: ١/٩٩-١٠٠/ح: ١٢٠-١٢١، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وفي: ٣/٣٨٦/ ح: ٥٤٦٣. و: السنن الكبرى؛ النسائي: ٤/٣٥٢/ ح: ٧٤٨١، ٤/٣٧٩/ ح: ٧٦١٣. و: سنن البيهقي الكبرى: ٣/ ٣٧٢. و: مسند أبي يعلى: ٢/ ١٤٣/ ح: ٨٣، وقال المحقق: حسين أسد: حسن. و: مسند أبي داود الطيالسي: ٢٩/ ح: ٢١٥. و: المرض والكفارات؛ ابن أبي الدنيا: ١٧/ح: ٣. والحديث صححه الألباني في: صحيح الجامع الصغيروزيادته: ١/٢٣٠-٢٣١/ ح: ٩٩٢.

(٢) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية: ٩/١٤-١٦، (بطلان جعل علوم الأنبياء من الحدسيات).

القضية السادسة: حول ادعاء (العلماني) أن الحدس يقين لا ظن، وأنه يمكن أن يتكرر، وأن يخطئ:

بعد أن أوهم (العلماني) أن نبوءات الأنبياء عليهم السلام هي من قبيل الحدس الذي يكون لدى غيرهم؛ ادعى أن الحدس يقين لا ظن، مع تسليمه بأنه قد يخطئ، وهذا الادعاء فيه تناقض ظاهر، إذ من شرط الأمر اليقيني أن لا يحتمل الخطأ، فلو احتمله نزل عن رتبة اليقين إلى رتبه الظن، المتعدد الدرجات.

ولابد من التنبيه هنا على خطأ تسمية (العلماني) أباطيل المنكرين للنبوة بالحجج، فهي ليست أكثر من شبهات ساقطة، لا قيمة لها في ميزان النقد السليم. وظهور ضعفها كافٍ في الدلالة على مدى بطلانها، ولكن العلماء لم يتركوها من غير رد، إقامةً للحجة على أكمل وجه.

ثانياً: رد (العلماني) التحايلي على ما ذكر أنه الحجة الثانية، من الحجج الثلاث، لأصحاب الاستحالة المبدئية:

قال (العلماني): (والحجة الثانية: أن الرسول من الله[١] كمُرْسَلٍ إلى الرسول[٢]... إن كان جسمانياً فلابد أن يكون مرئياً، وبالتالي تستحيل النبوة لأن الرسول من الله إلى النبي جسماني لم يره أحدٌ. والحقيقة أنه[٣] لا يهم أيضاً كيفية وصول الوحي من الله إلى الرسول، فذلك أَدْخَلُ في نظرية النبوة في علوم الحكمة، وليس في علم أصول الدين. صِدق النبوة في صدق الكلام، ومطابقته للواقع، ومصالح الناس...)[٤].

وفيما يلي بيان ما في هذا الكلام من زيوف وأباطيل:

١- إن هذه الشبهة قد نقلها العلماء الأقدمون، وهي هنا قد أعيدت صياغتها إلى حد ما، وفي هذه الإعادة ضعف وتحايل، وهذه الشبهة كما نقلت: (أن من يلقِي إليه[٥] الوحي؛ إن كان جسمانياً وجب أن يكون مرئياً، وإلا كان ذلك منه مستحيلاً)[٦].

٢- وهذه الشبهة قد بين العلماء بطلانها[٧]، بأن من يأتي بالوحي لا يمتنع أن يكون مرئياً للرسول البشري عليه السلام، دون أن يكون مرئياً لغيره. أو تكون له قدرة على التعرف عليه دون غيره. ومثل هذا موجود عند البشر العاديين، فقد يتمتع بعضهم بقدرات وقوى خاصة، لا توجد عند الكثير من الناس. فغير ممتنع أن يكون لدى الأنبياء والرسل عليهم السلام مقدرة خاصة على الاتصال بالرسل من الملائكة عليهم السلام، وهذه المقدرة غير موجودة عند سائر البشر.

كذلك غير ممتنع أن تكون لدى الرسول مقدرة خاصة على رؤية ما لا يراه البشر العاديون من الملائكة عليهم السلام، والجن، والقدرة على التفريق بينهما . ونفي المقدرة على ذلك تحكّم من غير دليل. وحجج النبوة العامة -بجميع أنواعها- دالة على صدق الأنبياء عليهم السلام؛ فيما أخبروا به عن طريقة تلقيهم الوحي عن الله جل ذكره، وفيما أخبروا به عن وجود الملائكة عليهم السلام، وغيرهم ممن لا يراهم البشر عادة.

---

(١) أي: كجبريل عليه السلام.

(٢) أي الرسول البشري عليه السلام.

(٣) في الأصل: أن.

(٤) انظر: النبوة: ٤٠.

(٥) أي إلى الرسول البشري عليه السلام.

(٦) المواقف؛ الإيجي: ٣٤٣.

(٧) وقد نقل حسن حنفي. انظر: النبوة: ٤٠. وانظر المواقف؛ الإيجي: ٣٤٣.

٣- وادعاء (العلماني) أنه لا يهم كيفية وصول الوحي من الله تعالى إلى الرسول عليه السلام، وأن مكان هذه المسألة في علوم الحكمة، لا علم أصول الدين؛ هو ادعاء غير صحيح. فما دامت تلك الكيفيات قد جاء بيانها وتحديدها في النصوص الشرعية الواضحة، والصحيحة والقطعية[1]، فإنها تكون عندئذ من العقائد التي يجب العلم والإيمان بها. وعلم أصول الدين إنما يستمد قضاياه من نصوص الكتاب والسنة، فما جاء فيها من العقائد ثابتاً صحيحاً فهو من قضايا علم أصول الدين الأساسية. والإيمان بالوحي على الوجه الصحيح هو أحد أركان الإيمان بالنبوة، التي هي أحد أركان الإيمان الستة.

٤- ودعوى أن كيفية وصول الوحي من الله إلى الرسول عليه السلام (أدخل في نظرية النبوة في علوم الحكمة)؛ كأنها يفهم منها أن ما يتعلق بهذه المسألة خاضع لآراء الناس ونتاجهم الفكري، وهذا باطل. فإنه وإن كان بعض الفلاسفة قد تكلم بغير علم عن الوحي وكيفية حصوله؛ فإن هذا لا يعني أن هذه المسألة لم تأت واضحة صحيحة في بيانات الكتاب والسنة، على الوجه الذي يجب الإيمان به، ولا يجوز إنكاره بأية صورة. بل إن نزع هذه القضية من أصول الدين، ووضعها في إطار الفلسفة والفلاسفة؛ قلب للحقائق، ونقض للواقع، فإن القضية كلها مبنية على الغيب، وسبيل الغيب هو الوحي المنزل على الأنبياء عليهم السلام، فهو وحده السبيل الموثوق به في كل ما يتصل بالغيوب.. أما كلام الفلاسفة، وما أتوا به من فلسفات في هذا الجانب فهو مرفوض ومردود. وهم إنما يتكلمون رجماً بالغيب، وافتراء على الحق، فكل ما يأتون به ظن وتهريف، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

٥- وقد سبق انتقاد كلمة: النظرية، في مجال حقائق النبوة اليقينية[2].

---

(١) انظر ما سبق: ١١٤-١١٧.

(٢) انظر ما سبق: ٣٠٦.

ثالثاً: رد (العلماني) التلبيسي على ما ادعى أنه الحجة الثالثة، لمن زعم أنهم أصحاب القول بـ(الاستحالة المبدئية):

قال (العلماني): (والحجة الثالثة: أن التصديق بها -أي: بالنبوة- يتوقف على العلم بوجود المرسِل، وذلك لا يحصل إلا بغامض النظر، وغير مقدر بزمان. ولما كان للمكلف الاستمهال، ودعوى عدم العلم؛ فيلزم إفحام النبي، وعبث البعثة، وإلزام التكليف بما لا يطاق، وهو قبيح عقلاً!.

والحقيقة أن التصديق بالنبوة لا يتوقف على وجود المرسِل، بل على الصدق الداخلي، وبرهان العقل ومصالح العباد، بالإضافة إلى الصدق الخارجي عن طريق التواتر.. وقد يكون البرهان واضحاً بديهياً وليس غامضاً...)[(١)].

وفيما يلي بيان ما في هذا الكلام من زيوف وأباطيل:

١- إن هذه الشبهة المنسوبة إلى منكري النبوة، هي في حقيقة أمرها شبهة افتراضية، يفترضها العلماء ثم يردون عليها، إذ جَحْدُ وجود الخالق سبحانه بالكلية لم يكن معروفاً قبل الإسلام وبعده إلا لدى أفراد قليلين[(٢)].

وهؤلاء ولا سيما بعد انتشار الإسلام إنما هم من المكابرين للحقائق، التي لن يؤمنوا بها ولو كانت أشد ظهوراً من الشمس وهي بازغة. وهم إن ذكروا شبهات؛ فهم لا يذكرونها لأنها سبب حقيقي في عدم إيمانهم، وإنما لإخفاء حقيقة حالهم على أهل الحق. وقد يستدرجون ببعض تلك الشبهات ضعاف العقول، أو ضعاف النفوس ممن يتبعون أهواءهم وشهواتهم.

٢- ثم إن دعوى أن وجود المرسِل وصفاته -ولاسيما العقلية- لا يتم العلم بها إلا بغامض النظر؛ هي دعوى باطلة. فإن أدلة وجود الخالق وكثير من صفاته؛ أدلة عقلية واضحة وظاهرة، ولذلك فإن أكثر الناس مؤمنون بوجود خالق للكون.

والنبوة نفسها تحتوي على أدلة وجود الخالق جل وعلا، وتوحيده، وعلى إثبات صفاته، ومن يرفض هذه الأدلة، بدعوى عدم إيمانه بأصل النبوة مراوغ مخادع. إن المنطق العقلي الذي يزعمه المنكر؛ يوجب عليه أن يعتبرها كأي دليل يلقيه إليه مدعٍ ما، فيجب عليه أن ينظر إليه

---

(١) النبوة: ٤٠-٤١. وانظر الشبهة؛ في: المواقف: ٣٤٣. وقد أضاف إلى وجود المرسِل؛ معرفة ما يجوز عليه وما لا يجوز.

(٢) باستثناء العصر الحاضر، وإن كان كثير ممن سلكوا سبيل الإلحاد الكامل قد بدؤوا يعودون إلى الإيمان بوجود خالق للكون.

ويتفكر فيه، ومن ثم يؤمن بما دل عليه من الحق. فإن آمن بالله تعالى على الوجه الصحيح؛ فإن بيانات النبوة تتدرج معه شيئاً فشيئاً بالأدلة والبراهين إلى أن يؤمن بالحق كاملاً.

٣- يبقى هنا قول (العلماني) في الرد على هذه الشبهة: إن التصديق بالنبوة لا يتوقف على وجود المرسِل، وقد سبق مناقشته في مسألة العلاقة بين النبوة والمرسِل[1].

وأقول هنا مؤكداً أن الرسل عليهم السلام ما جاؤوا إلى البشر منذرين ومبشرين، إلا بعد أن أوحى الله إليهم وأمرهم بأن يبلغوا عنه رسالاته، وأول قضية دعوا إليها هي الإيمان بالله جل شأنه ووحدانيته، لأنها الأساس الذي ينبني عليه الإيمان بسائر الأركان الإيمانية. وكيف يكون إيمان بالنبوة إذا لم يسبقه إيمان صحيح بالمُرْسِل جل وعلا؟!.

---

(١) انظر ما سبق: ٣٥٤-٣٥٧.

رابعاً: حول رد (العلماني) التحايلي على القائلين برفض النبوة لأنها تستلزم تفضيل النبي -عليه السلام- مع أن البشر متساوون:

لقد ناقش (العلماني) من رفضوا النبوة بدعوى أنها تستلزم تفضيل النبي عليه السلام، واختياره، مع أن البشر متساوون، ورد عليهم رداً استخذائياً، يتضمن في الحقيقة مشاركته لمدعي هذه الاستحالة في دعواهم. للوصول إلى هدفه الذي يحاول إخفاءه؛ وهو إبطال النبوة ذات البلاغ عن الله رب العالمين.

جاء في قوله: (وقد يُعْتَرَض على وجوب النبوة بمسألة التفضيل أو الاختيار. فإذا كان البشر متساوين فكيف يفضل إنسان على آخر يُخْتار كي يكون نبيا؟.

لا يكفي لتبرير الاختيار الحر؛ مجرد إرادة المختار، لأنه تبرير لا عقلي!.

ولا يكفي أن يكون سبب الاختيار والتفضيل عمل النبي واجتهاده، فكثير هم العاملون المجتهدون.

ولا يكفي أن يقال إن سبب الاختيار هو قدرات طبيعية لدى الرسول، لأن القدرات خَلْقِيَّة، لا دخل فيها لمسؤولية الأفراد، واستحقاقهم الشخصي.

وبالتالي يظل سؤال الاختيار قائماً، خاصة وأن الرسول ينال أعظم أجر وأفضل منزلة. والحقيقة أنه لا رد على هذا السؤال الشخصي، وسيظل باستمرار وارداً في هذا الشخص أو ذاك. إنما الرد الوحيد هو ضرورة وجود الرسول كوسيلة لتلقي الوحي. ولما كان الشخص مجرد وسيلة فإن سبب التعيين يكون سؤالاً افتراضياً صرفاً...)(١).

وفيما يلي بيان ما في كلام (العلماني) السابق من زيوف وأباطيل:

١- إن اختيار الله جل شأنه لأنبيائه عليهم السلام واصطفاءه إياهم من بين سائر خلقه؛ لا شك أنه مبني على عظيم حكمته جل شأنه، وعلى واسع علمه؛ بأن هؤلاء الذين اختارهم هم أفضل من يتحمل مسؤولية النبوة والرسالة(٢).

ولكن ادعاء أنه لا يكفي لتبرير الاختيار الحر مجرد إرادة المختار؛ ادعاء باطل، لأنه لو فرض أن جميع البشر متساوون في جميع الخصائص المتعلقة بالقدرة على تحمل الرسالة، فلا مانع من

---

(١) النبوة: ٤٢.

(٢) انظر ما سبق حول أن لله حكمة في اختيار الأنبياء والرسل عليهم السلام: ٤٧-٥٤.

أن يقال إن المرسِل له أن يختار منهم من يريد لتحمل رسالته، وهو لابد أن يختار بعضهم، ولا يمكن أن يختارهم جميعاً، لئلا تنتفي حكمة الابتلاء، ولمن سيكون إرسالهم عندئذ؟!.

ومثل هذا الاختيار الحر ثابت للبشر، ولا يناقش فيه أحد مادام أن المطلوب بَعْضٌ من كثير متماثل في الصفات.

وكثير من الناس من يدافع عن حرية البشر، ولا يرضى بأن تُمَسَّ بسوء، فلماذا يعتبر تعليل اخيار الله تعالى لأنبيائه بناء على إرادته الحرة؛ تعليلاً غير عقلي؟!، وهل من العقلي والمنطقي أن نثبت للبشر حرية مطلقة، ونقيد حرية خالقهم وربهم وإلههم -سبحانه وتعالى-؟!.

٢- على أن افتراض تساوي جميع البشر في قدراتهم المؤهلة لتحمل الرسالة افتراض باطل. إذ كيف يصح هذا؛ ولا يكاد يوجد اثنان على قدر واحد في الإيمان أو الكفر، بل التفاوت بين المؤمنين أمر قائم، وكذلك في كفر الكافرين. ولا أدلّ على ذلك من صاحب هذه الشبهة، فإنه في باب الردة والكفر قبيلٌ وحده، فلماذا لم يكن له من شبيه أو مثيل في عصرنا، في اتباع الشيطان، وتزييف الحقائق بمكر بالغ؟!!.

٣- وأما العمل والاجتهاد فإنه لا مدخل لهما في اختيار الإنسان ليكون نبياً أو رسولاً[1].

٤- وأما القدرات والخصائص؛ فإن معرفة ذلك يرجع إلى الخالق العليم الحكيم جل شأنه، وفي مسألة القدرات والخصائص؛ فإن الزعم بأنها لا دخل لها في مسؤولية الأفراد؛ هو زعم ساقط مكشوف البطلان.

إن مسؤولية القادر على الجهاد المستطيع له؛ ليست كمسؤولية الأعمى والأعرج ونحوهما. ومسؤولية من وهبه الله مقدرة زائدة على الفهم والاستنباط والتعلم؛ ليست كمسؤولية من هو دونه في ذلك، وهكذا في سائر الخصائص وما يلائمها من الأعمال.

وحتى في أعمال البشر؛ فإن العاقل الحكيم يختار لكل عمل أحسن من يقدر عليه ويستطيعه، فقد يكون عمله يحتاج إلى مقدرات جسدية عالية، فهو يختار لعمله من وهبه الله تلك المقدرات، وقام هو بعد ذلك بتنميتها على الوجه الصحيح، وليس البشر متساويين فيما وهبهم الله من تلك المقدرات.

وكذا في الأمور العلمية، فإن البشر ليسوا متساويين في الخصائص الخَلقية المتعلقة بتلك الأمور، وحتى لو حرص الكثير على تنمية تلك الخصائص، فإن من عنده موهبة من الله الخالق يزيد

---

(١) انظر: ٤٧.

بها على غيره، وقام بتنميتها، فإنه يكون أفضل من غيره، والناس حريصون في اختيار الأفضل، ولا شك بأنه سينال -مقابل ما يقدمه- الكثير مما يتمناه غيره، وقد لا يستطيع ذلك الغير الحصول عليه.

فلماذا يجوز ذلك في حق البشر، ولا يجوز في حق الرب الحكيم جل وعلا؟!.

٥- والحق أن هذا السؤال لا معنى له إذ لابد من اختيار شخص، وأي شخص يُختار سيقال فيه مثل هذا السؤال. والله جل شأنه لم يساوِ بين خلقه فيما وهبهم إياه، ولكن العاقل الذي يستفيد مما عنده للوصول إلى أعلى الدرجات(١).

٦- وعبارة أن الشخص أي: الرسول أو النبي عليه السلام؛ مجرد وسيلة؛ لا يفهم منها إلا أنه: مجرد وسيلة لإيصال وحي الله تعالى إلى الناس، وهذا فهم فاسد باطل، بل هو عليه السلام قد اصطفاه الله تعالى لحمل رسالته لعباده، من جهة، ثم إنه يجب على الناس أن يؤمنوا به، ويجب توقيره ومحبته، واتباعه وطاعته عليه السلام...، إلى غير ذلك من أمور تجب في حق كل نبي من أنبياء الله عليهم السلام(٢).

---

(١) الجواب بأنه لا بد من اختيار شخص، وسيقال في كل مختار؛ لماذا هو دون غيره؟!؛ هو وحده الذي أشار إليه حسن حنفي، بعد أن أبطل من غير وجه حق سائر الأجوبة الصحيحة، انظر: ٣٦٦.

(٢) انظر الرد على الشبهات التي تنتقص من مكانة الرسل والأنبياء عليهم السلام: ٦١١- ٦٢٠.

المبحث الثاني: مناقشة (العلماني) لما أسماه (الاستحالة العقلية)، والرد على افتراءاته.

لقد تحايل (العلماني) للإقناع بصحة أن الأدلة العقلية تقتضي عدم الحاجة إلى النبوة، اكتفاء بالعقل. فمما جاء في كلامه:

(ولا يعني إنكار النبوة نظراً لاكتفاء العقل إنكار التوحيد، فالتوحيد من العقليات فلا تعارض إذن بين توحيد الصانع وإنكار النبوة، إثباتاً للعقليات دون السمعيات. يقوم التوحيد الفطري على العقل والطبيعة، وليس في حاجة إلى نُبُوّةٍ كأحد المعارف العقلية أو الواجبات العقلية.

وما دام العقل يستطيع أن يصل إلى كل ما يصل إليه الوحي في النظر والعقائد، وفي العمل والشرائع؛ فلا حاجة إلى النبوة كنظرية في المعرفة أو كنظرية في الأخلاق. إن إنكار النبوة على الإطلاق إنما يدل على الثقة بالعقل البشري، وإلى الاعتراف بالطبيعة والفطرة، فإذا كان العقل والطبيعة قادرين على هداية الإنسان؛ فما الحاجة إلى النبوة؟!.

وقد تقوم الاستحالة العقلية على تحسين العقل وتقبيحه، فما حَسَّنَهُ العقل يُفعل، وما قَبَّحَهُ العقل يُترك، وما لم يحكم فيه العقل بحسن أو بقبح؛ يفعل عند الحاجة، ويترك عند عدمها.

فالعقل والطبيعة هما أساس الحكم على الأشياء. بل إن العقل قادر على الوصول إلى التكليف، وإلى الواجبات العقلية، ومنها شكر المنعم.

وقد تستعمل قاعدة الحُسْنِ والقبح العقليين كحجة جدلية، لإثبات استحالة النبوة عقلاً. فإما أن يكون النبي مستدرَكاً بالعقل أم لا، فإن كان الأول فلا فائدة من انبعاثه، وإن كان ضد العقل، فلا يمكن قبوله. وقد أكمل الله العقول، وجعلها قادرة على إدراك الحُسْنِ والقبح والتمييز بينهما. وجعلها دليلاً على الخالق، ومرشداً لمصالح الخلق، منعاً للظلم ووسيلة للعلم. فلا حاجة للنبوة في وجود العقل. وإن أتت متفقة مع العقل فهي إضافة زائدة لا لزوم لها، ولا غاية. وإن أتت مخالفة له فلا يمكن قبولها لمّا كان العقل هو الأساس.

وإن كل ما يتوصل إليه بالسمع يمكن معرفته عقلاً، حتى الشرعيات والعبادات، إن لم تعرف بخواصها فإنها تعرف بغاياتها.

ويستحيل أن يكون السمع أساس العقل، لأن الأدلة والبراهين عقلية خالصة، لا سمع فيها. كما أن معرفة الحُسْنِ والقُبْح واردة قبل السمع. وقد أمكن إدراك التوحيد والعدل بالعقل وهما البابان الرئيسيان في العقليات، وهي الإلهيات.

بل إن الإنسان بعقله قادر على تحدي النبوة، مثل قدرة الشيطان، الذي طلب الاستمهال

فاستُمْهِل. ولما كانت النبوة ترتكز على العقل؛ فلا خوف من تحدي العقل للنبوة، وإلا كان العقل يتحدى نفسه، وهو البناء الذي تقوم النبوة عليه. والعقل مُكْتَفٍ بذاته دون ما حاجة إلى نبوة[١].

وفي كل عقل خاطران، خاطر للإقدام من الله، وخاطر للإحجام من (الشيطان). وللإنسان حرية الاختيار بين الخاطرين أو الباعثين. الخاطران في القلب، الأول يدعو للحق، والثاني يدعو للباطل. ويقع التكليف بوقوع هذين الخاطرين.. ولا يعني تعارض الخواطر الشك وتكافؤ الأدلة، بل تعني حرية الإنسان وضرورة اختياره بين الخير والشر....

وقد يكون خاطر الدعوة إلى الطاعة أمراً خفياً للطاعة من الله، يقابله أمر خفي للعصيان من الشيطان. وقد يكون الخاطر قولاً جلياً من الله بلا واسطة، أو بتوسط رسول، مقرون بمعجزة. وقد يكون الخاطران مجرد باعثين في القلب على الإقدام والإحجام، أحدهما للطاعة، والثاني للمعصية، من أجل الاختيار بينهما، دونما حاجةٍ إلى تجسيم أو تشخيص أو تشبيه، وإلا لزم في حال الشيطان تكليفه بخاطرين، واحد من الله والآخر من شيطان آخر، ويتسلسل الأمر إلى ما لا نهاية.

والحقيقة أن الخواطر إنما هي البواعث النفسية والمرجحات العقلية، التي تجعل الإنسان يختار بينها، وهي أقرب إلى طباع النفس وميولها ورغباتها، ما تميل إليه وما تنفر منه طباعاً، فالعقل والطبيعة صنوان.

قد يستطيع الإنسان معرفة الحُسْنِ والقُبح عن طريق التصفية، فالأفعال الإنسانية إن كانت خيّرة ترتفع نفس فاعلها، بحيث تكون أقرب إلى الملائكة، والنفوس المجردة، وبالتالي لا تحتاج إلى نبوة من خارجها، وإلى أنبياء يرشدونها، وكان ذلك ثوابها. أما إذا كانت أفعالها سيئة؛ هبطت إلى أسفل، واقتربت من عالم الحيوان، وكان في ذلك عقابها، وهي نظرية الاستنساخ.[٢]. فالعقل هنا هو تصفية القلب، العقل الباطني الذي لا يحتاج إلى نبوة، أسوة بالعقل الاستدلالي.

والحقيقة أن هذه النظرية لا تصدق إلا على الصفوة العاقلة، صاحبة الوعي المتميز. ولكنها لا تصدق على عامة الناس. هي ليست تكذيباً للأنبياء على الإطلاق، ولكنها تبين أن عقل الصفوة قادر على الاستغناء عنها.

---

(١) هذه العبارة ذكرت أثناء الكلام عن الخواطر، الذي تلا الكلام عن العقل وكفايته. ولكنني نقلتها إلى هنا، لأني اختصرت الكلام الذي ورت في أثنائه فلم أنقله كله.

(٢) الاستنساخ مأخوذ من التناسخ، ويراد به عند أهله: حلول الروح البشرية بعد خروجها من جسدها الأول إلى جسد ثان، في هذه الحياة. وقد يخصص بعضهم هذا الانتقال في الجنس البشري، وقد يعممونه إلى الحيوانات، ولهم في هذا ترهات كثيرة. وهم ينكرون القيامة والبعث. انظر: غاية المرام في علم الكلام؛ الآمدي: ٢٩٢. و: تلبيس إبليس: ٩٩-١٠٠. و: الفرق بين الفرق: ٢٥٣- ٢٦٠. و: الفصل في الملل: ١/٧٦- ٧٧. و: الملل والنحل: ٢/٢٥٥. و: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح؛ ابن تيمية: ٦/١١. و: شرح العقيدة الطحاوية: ٤٥٤. و: التعريفات؛ الجرجاني: ٩٣. و: التوقيف على مهمات التعاريف؛ المناوي: ١/ ٢٠.

فبالنسبة للعامة هناك أمور، خاصة العبادات وأشكالها؛ في حاجة إلى نبوة لبيانها، إذ لا يستطيع العقل الاهتداء إليها، وإن استطاع معرفة الحكمة منها وغايتها. ويظل الأمر بالنسبة للخاصة أن العبادات وأشكالها لا تُكوّن جوهر النبوة، التي هي في حقيقتها معارف نظرية، يستطيع العقل أن يصل إليها. قد تكون النبوة ضرورية لعامة الناس الذين لم يتعودوا على ممارسة النظر، وإعمال العقل، ولكنها ليست ضرورية للخاصة الذين تعودوا على النظر وعلى إعمال العقل...

ومع ذلك يمكن للعامة أيضاً بحسها الشعبي وببصيرتها التلقائية؛ أن تدرك حقائق النبوة، خاصة العملية منها، مثل المساواة والعدالة، وهي الحقائق التي تتوق إليها الجماهير الغفيرة، نظراً لما تعانيه من فقر وضنك.

فالخاصة بعقولها، والعامة بضنكها؛ يمكنها إدراك حقائق النبوة.

كما يمكن بواسطة نشر التعليم تحويل العامة إلى خاصة، فيصبح كل أفراد المجتمع من الخاصة. وإذا كان العقل يستطيع أن يعرف كل شيء، نظراً وعملاً، عقيدة وشريعة، فقد تظل ممكنة لإباحة بعض أشياء يحظرها العقل!.

وإذا كان العقل في غنى عن الرسل؛ فقد كان بإمكان الله اضطرار العقول إلى معرفته، دونما حاجة إلى اللف والدوران، وتأسيس الوحي على العقل، وجعل من يقدح في العقل؛ يقدح في النقل!. وإذا كان العقل هو الأساس ففيم النقل؟. وما الفائدة من الرسل إذا كان في العقل مندوحة؟. إذا كان العقل يُحسّن ويُقبّح فما فائدة الوحي؟. ليس القول باكتفاء العقل استبداداً بالرأي، ولكنه ثقة بالعقل، وإعلان لاستقلاله، وهو ما ترمي إليه النبوة. فالمدافع عن النبوة ضد العقل؛ إنما يتمثل النبوة في مراحلها الأولى، قبل اكتمالها . والمدافع عن العقل مكتفياً بذاته، دونما حاجة إلى نبوة؛ إنما يتمثل النبوة في آخر مراحلها، بعد اكتمالها. فالنبوة وسيلة لاكتمال العقل، وكمال العقل غاية النبوة[1].

هذا كلام (العلماني)، وفي القضايا التاليات بيان ما فيه من زيوف وأباطيل، وهي (اثنتا عشرة) قضية.

---

(١) انظر: النبوة؛ حنفي: ٤٢-٥١.

القضية الأولى: حول منهجية (العلماني) في رده، وتعظيمه للعقل البشري:

أولاً:

إن الذي ذكر ما سبق نقله، هو نفسه الذي أورد قول الموجبين للنبوة، وهجم عليهم الهجوم الكبير، الذي تناول -فيما تناول- إبطال فوائد النبوة كما ذكرها العلماء فائدة فائدة.

وقد سبق نقل قوله والرد عليه[١].

وهو هنا عندما ذكر قول من زعم استحالة النبوة؛ ذكر أقوالهم مقرراً لها، بل ودافع عنهم وعن أقوالهم بكل ما أمكنه من الوجوه، وفي نهاية الأمر وفي تعليقه الخاص به زعم أن المدافع عن العقل مكتفياً بذاته دونما حاجة للنبوة؛ إنما يتمثل النبوة في آخر أدوارها، وكأنها تعلن أن دورها قد انتهى وبدأ دور العقل[٢]، وهو مع هذا كله يدعي أنه مؤمن بالنبوة وبإمكانها!.

فأي إيمان هذا يجعل صاحبه يهاجم هذا الذي يؤمن به، ويدافع عمن يحاول إبطاله، وإنكاره بالكلية؟!.

وكما أنه لم يتوسط في الهجوم؛ فكذلك لم يتوسط في الدفاع عن هؤلاء المنكرين. وإن كان لا يتصور أن يكون هناك توسط بالنسبة إلى مدعي الاستحالة، ولكنه لم يحاول بيان غلوّهم، أو توجيه شيء من النقد المبطل لأقوالهم.

وهو إن بدرت منه بادرة للدفاع عن النبوة، وبيان دورٍ يسير لها في حياة الأمة، فإنه سرعان ما يأتي بما يبطل هذا الدور اليسير أيضاً.

ولو كان عنده أدنى إنصافٍ في البحث العلمي؛ لما كان منه هذا الهجوم الكامل على من يقول بوجوب أمرٍ، هو نفسه يدعي أنه مؤمن به، والدفاع الكامل -في الوقت نفسه- عن من يدعي استحالة هذا الأمر[٣]. ففعله هذا يتناقض مع مقتضيات المنهج السليم في البحث، ومع

---

(١) انظر ما سبق: ٢٥٤-٣٤٩.

(٢) انظر: المقدمات النظرية: (المجلد الأول: من سلسلة: من العقيدة إلى الثورة)؛ حسن حنفي: ص: ١٧، ١٩، ويقول في هذه الصفحة الأخيرة عن العقل: إنه وريث النبوة.

(٣) هذا مع العلم بأن حسن حنفي يدعي أن هدفه هو الدفاع عن اجتهادات الأمة كلها، ووضع العقائد كلها على قدم المساواة، المجلد الأول من سلسلته: من العقيدة إلى الثورة: المقدمات النظرية: ٣٤. فأين هذه المساواة في هذا الصنيع تجاه القائلين بالوجوب، والقائلين بالاستحالة؟!. هذا والقائلون بالاستحالة ليسوا من فرق الأمة، وإنما هي أقوال قد نسبت إلى أممٍ أخرى كالبراهمة والصابئة ونحوهم، وقد يمكن التشكيك في صحة هذه النسبة إليهم، ولا شك أن الدارس لو اختصهم بالبحث لوجد عندهم إيماناً بمصادر بديلة للنبوة، يتلقون فيها العلم عن معبودهم، بما يبطل دعاويهم عن العقل واستقلاله.

مقتضى الإيمان الحق بأي أمر، بل إن مثل هذا الفعل أظهر دليل على أن صاحبه إنما هو مؤمن بقول من يدافع عنهم إيماناً كاملاً، منكر لقول من يهاجمهم إنكاراً كلياً.

ثانياً:

١- كما كان محور الهجوم على القائلين بوجوب النبوة هو العقل، ودعوى مقدرته على الوصول إلى جميع الحقائق التي تأتي بها النبوة؛ فإن هذا المحور هو نفسه الذي يدور عليه الدفاع عن القائلين باستحالة النبوة على الإطلاق.

وقد سبق بيان مكانة العقل البشري في النصوص الشرعية، وعند علماء المسلمين، بما يغني من إعادته هنا[١]، فإعمال العقل على الوجه الصحيح هو في حقيقة الأمر واجب من الواجبات الشرعية، ما دام الإنسان قادراً على ذلك. وهذا الإعمال الصحيح هو الذي يؤدي بالإنسان إلى نيل السعادتين الدنيوية والأخروية، لأنه يجعله يؤمن بالحق الذي أنزله جل شأنه له، ويتبع المنهج الذي بينه له، على ألسنة رسله عليهم السلام، من جهة، ويستفيد مما سخره الله تعالى له في هذا الكون، من جهة أخرى.

٢- كذلك سبق بيان العلاقة بين الحقائق التي تأتي بها النبوات وبين العقل[٢]، وأن من تلك الحقائق ما قد يحتار العقل في شأنها، فتبين النبوة الحق للعقل جلياً واضحاً. ومنها أمور قد تصل إليها العقول، ولكن الحقائق التاريخية أكدت أن النبوة وحدها هي التي جعلت أمة كبيرة تؤمن بالحق في تلك المسائل، التي كان ينبغي لعقولهم أن تصل إليها، ولكن حال دون ذلك أسباب سبق بيان شيء منها[٣].

ومن الحقائق أمور قد يكون لها وجود بين الأمم، فتأتي النبوة وتؤكدها، وتجعل التزام الناس بها أتم وأكمل. وقد تأتي النبوات بما ييسر للناس أمور حياتهم، كالتوجيه للمشي في مناكب الأرض لتحصيل الرزق. وإن لم يكن مثل هذا مقصداً أساسياً لإنزال الوحي، وبعث الأنبياء عليهم السلام.

وبذلك تبين عدم صحة دعوى أن في العقل كفاية لكل أنواع المعارف، فكم غابت عن العقل حقائق؟!، ولم يَهْتَدِ إليها إلا بعد أن جاءته النبوات. بل إنها عندما جاءته دلته على أن لكثير من تلك الحقائق؛ دلائل مثبته في موازينه، التي فطره الله تعالى عليها، ولكنها كانت غائبة عنه بغشاوة الجهل والكفر.

---

(١) انظر: ٢٦٤-٢٦٩.

(٢) انظر: ٢٧١-٢٧٢.

(٣) انظر: الموضع نفسه.

٣- ولكن -ومن باب التنزل في المناقشة- فإنه لو فرض أن هناك عقولاً بإمكانها أن تصل إلى الحقائق التي تأتي بها النبوات -وإن كان هذا يستحيل وجوده في حقيقة الأمر-؛ فإن هذا الفرض لا يؤدي -لو صح- إلى استحالة النبوة. إذ قد تبين أن للدليل الرباني العقلي السمعي، أو حتى السمعي المجرد؛ من التأثير على نفوس الكثرة من الناس، ما لا يوجد معشار معشاره لدى الأدلة البشرية الخالصة، وذلك بالنسبة إلى الحقائق التي هي المقصد الأساس من إنزال النبوات.

فقضية كقضية التوحيد مثلاً، على الرغم من الأدلة العقلية عليها، وعلى الرغم من وجود بعض من آمن بها قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وقيام أولئك بمحاولة الدعوة إليها، إلا أن أحداً لم يكن له أتباع ذوو عدد في هذه القضية الواحدة. وهم بدون شك قد كانوا متأثرين بدعوات الرسل السابقين. فكيف يكون الحال إذا اجتمعت إلى هذه القضية؛ سائر الحقائق التي جاءت بها النبوات؟!.

إنه حتى فيما يمكن للعقل أن يصل إليه من حقائق الدين فإنه لا يستغني عن النبوة، التي تعطي البشر الدليل الرباني الذي تطمئن إليه نفوسهم، ويسلموا له، أكثر من أي دليل بشري خالص. وكذلك فإن النبوة بما يحيط بها من أدلة وبراهين متنوعة تجعل إيمان الناس بالحق الذي جاءت به، والذي له دليله الخاص به كذلك؛ أقوى من إيمانها به عن طريق الدليل العقلي المجرد[١].

---

(١) انظر: ٢٧٤-٢٧٦.

القضية الثانية: حول العلاقة بين التوحيد والنبوة:

يتعامى (العلماني) عن حقيقة لا تخفى على من له أدنى اطلاع على الكتاب العزيز، وهي: الارتباط التام بين الإيمان بالله جل ثناؤه حقاً؛ والإيمان بأنبيائه ورسله عليهم السلام، وأن الكفر بنبي واحد يعني الكفر بالله عز وجل، وهذا ما دل عليه قوله تبارك اسمه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً (١٥١)﴾ النساء.

فكيف الحال بمن يدعي إمكان إنكار النبوة من أساسها، والكفر بها، وأن هذا لا يعني إنكار التوحيد؟!.

إن (العلماني) يتعامى عن ذلك كله، ويدعي أنه: (لا يعني إنكار النبوة، نظراً لاكتفاء العقل؛ إنكار التوحيد، فالتوحيد من العقليات . فلا تعارض إذاً بين توحيد الصانع وإنكار النبوة، إثباتاً للعقليات دون السمعيات. يقوم التوحيد الفطري على العقل والطبيعة، وليس في حاجة إلى نبوة، كأحد المعارف العقلية أو الواجبات العقلية)[1].

ومن الردود على افتراء (العلماني) ذلك:

١- أن كلاً من التوحيد والإيمان بالنبوة من أركان الإيمان، ومعلوم في الدين أن أركان الإيمان مترابطة، مبني بعضها على بعض، وهي كل متكامل لا يصح الإيمان بشيء منها إلا إذا تحقق الإيمان بها كلها. كما أن الكفر بشيء منها؛ يعتبر كفر بها كلّها. والإيمان بأي ركن منها إذا كان صحيحاً؛ فهو مؤدٍ إلى الإيمان بسائر الأركان، أو هو نتيجة الإيمان الصحيح بركن؛ يعتبر هو الأساس له.

٢- ولا شك أن الإيمان الصحيح بالله جل شأنه هو الركن الأساسي لسائر الأركان الإيمانية، بل ولكل قضية ثابتة قد طولب الناس بالإيمان بها.

والإيمان بالله جل شأنه يعني الإيمان بوجوده تعالى أولاً، ثم الإيمان بكونه رباً واحداً لا شريك له، وبكل ما يستلزمه توحيد الربوبية لله جل شأنه. ومن ثم الإيمان بكونه تبارك اسمه إلهاً واحداً لا ندّ له، ولا شريك له، ويتضمن هذا كله إثبات الأسماء والصفات الحسنى له وحده على أكمل وجه.

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩.

وتوحيد الإلهية لله عز وجل يقتضي إفراده تعالى بالعبادة على الوجه الذي يرضيه جل شأنه، وهذا الوجه ليس له من سبيل صحيح يوصل إليه إلا سبيل الرسل عليهم السلام. فمن لم يؤمن بهم مطلقاً، لا يمكنه أن يعبد الله جل شأنه علي الوجه الصحيح، أي إنه لم يحقق توحيد الإلهية على الوجه الصحيح، وكيف يمكن أن يعتبر المرء موحداً حقاً، وهو لم يعبد ربه العبادة الحقة التي ترضيه جل ذكره؟!.

وكثير من الأسماء والصفات الحسنى الربانية لم تثبت إلا عن طريق النص، الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فمن لم يؤمن به؛ كيف يمكن أن يكون مؤمنا بربه على الوجه الأتم؟!، وكيف يمكن أن يكون موحداً له التوحيد المقبول لديه جل شأنه؟!.

٣- إن ادعاء (العلماني) عدم التعارض بين توحيد الله تعالى وإنكار النبوة؛ ادعاء لا يصدر إلا من مغالط كاذب، أو ممن لا يدرك معنى التوحيد على الحقيقة، وقد يكون ظنه في التوحيد أنه محصور في حدود إثبات كون الرب جل شأنه هو الخالق وحده لهذا الكون بما فيه. وهذا الظن غير صحيح، إذ هذا المعنى هو أحد جوانب التوحيد الكامل، الذي يشمل جوانب أخرى كثيرة، من أهمها توحيد الربوبية، بمعناه الشامل، وتوحيد العبادة لله تعالى.

وقد اعتبر جل جلاله عدم الإيمان بما أنزله من الوحي على رسله؛ قدحاً في الإيمان به تعالى، فقال تبارك اسمه:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ...(٩١)﴾ الأنعام.

فعدم الإيمان بالأنبياء عليهم السلام وبما أنزل الله تعالى عليهم؛ ناتج عن عدم تعظيمه جل شأنه حق عظمته، وهذا قدح في الإيمان به سبحانه. وكيف يكون موحداً التوحيد الصحيح من لم يؤمن بالإله الواحد الإيمان الحق؟!.

وسبب عدم التعظيم ذلك؛ هو أن إنكار أن يكون الله تعالى قد أنزل شيئاً على أحد من خلقه؛ إما أنه ناتج عن الظن بعدم قدرة الله سبحانه على ذلك؛ أو ناتج عن الشك في حكمته تبارك اسمه من ذلك، وكل من الأمرين يؤدي إلى عدم الإقرار بالتعظيم الواجب له جل شأنه، ومن ثم يؤدي إلى القدح في الإيمان به سبحانه.

٤- وقد يقول قائل: إنني مؤمن بحكمة الله تعالى، ولذلك قلت باستحالة النبوة. ويجاب بأن هناك من جاء وقال إنه نبي وإنه مرسل من الله جل ذكره، وإنه جل شأنه ناصره على عدوه،

ولم يكن في حقيقة الأمر إلا ما قاله، فإما أن تؤمن بأن الله تبارك اسمه مطلع عليه، عالم بعدم صدقه في قوله على حسب زعمك، ومع ذلك لم يكذبه[1]. أم أنه سبحانه غير مطلع على ذلك، وهذا لا يقوله مؤمن، وعليه فإما أن يكون الله جل شأنه قادراً على تكذيبه ولم يفعله، وترك الجماهير الكثيرة تضل بسببه، وهذا قدح ظاهر في حكمته تبارك اسمه، وإما أنه سبحانه غير قادر على ذلك، ومن ظن هذا كان كفره أظهر من أن يدلّل عليه. قال جل شأنه مُبَيْناً فِعْلَهُ بمن يتقول عليه زوراً:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ الحاقة.

٥- وبعد فإن حاكماً أو مجلس حكم لو أصدر قرارات تنظيمية، يريد أن يوجب على الناس أن يتبعوها، ثم أرسل من يبلغها للناس ، وأعطاهم ما يدل على أنهم مرسلون من عنده؛ فلو جاء من رفض قبول ما جاء به هؤلاء المبعوثون، وصار يقول لهم: إن عقلي بإمكانه الوصول إلى ما ستبلغونه، ولو عن طريق التجربة والخطأ المتكررين زمناً طويلاً، ومن ثم فلا فائدة لمجيئكم، وإن مجيئكم لهو استهانة بعقلي وقدرتي وحريتي، أفيقبل قول هذا عند العقلاء، أم هو يستحق العقوبة؟!!.

وفيما يتعلق بالأحكام البشرية، فقد يجوز للبعض أن يعترض على شيء منها لسبب يعود إليها، ولكن لا يقبل من أحدٍ أن يعترض على وجود مبلغين لتلك الأحكام.

٦- وأما دعوى أن في إثبات توحيد الصانع وإنكار النبوة؛ إثباتاً للعقليات دون السمعيات، فهي دعوى تقوم على أساس باطل، وهي أن النبوات لا تأتي إلا بالسمعيات المجردة، والحق أنها تأتي بالحقائق التي يمكن أن يدل عليها الدليل العقلي، وتأتي كذلك بالأدلة العقلية السمعية عليها، وتأتي بما يشعر العقل بحاجته إلى معرفته، ولكنه يحتار في شأنه، إذ الاحتمالات كثيرة، ولا مرجح لها، كأمور العبادات ونحوها، فتأتي النبوة وتهديه إلى الحق والخير في كل ما هو من قضاياها[2].

٧- ودعوى أن التوحيد إن كان يمكن التوصل إليه عقلاً فليس بحاجة إلى النبوة؛ غير صحيحة كذلك، إذ قد يتبين فيما سبق أن التوحيد مع أنه يمكن التوصل إليه بالدليل العقلي، إلا أن مسيرة البشرية عبر تاريخها الطويل كانت قائمة على الوثنيات والتعديد والشرك.

فلا غنى للناس عن النبوة، حتى فيما يمكنهم التوصل إليه بعقولهم، وهذا ما يثبته استقراء التاريخ الماضي والحاضر[3].

---

(١) وقد كذّب الله مدعي النبوة زوراً قديماً وحديثاً، وما أحوال مسيلمة وطاغوتا القاديانية والبهائية وغيرهم عنا ببعيد.

(٢) انظر: ٢٩٨.

(٣) انظر: ٢٧١-٢٧٢.

القضية الثالثة: حول ادعاء (العلماني) أن العقل يمكنه الوصول إلى جميع ما جاءت به النبوات:

أولاً: ادعى (العلماني):

(أن العقل يستطيع أن يصل إلى كل ما يصل إليه الوحي في النظر والعقائد، وفي العمل والشرائع، فلا حاجة إلى النبوة كنظرية في المعرفة، أو كنظرية في الأخلاق)[١].

وادعاؤه هذا، ونحوه ادعاؤه:

أن المعارف النظرية في النبوة يستطيع العقل (أن يصل إليها)[٢].

هما ادعاءان يحاول من خلالهما أن يجعل الزعم الباطل: حول إمكان أن يصل العقل إلى جميع ما جاءت به النبوات؛ وكأنه أصبح حقيقة لا ريب فيها!.

ومما يوجه لهذا (العلماني) المفتري ولزيوفه الساقطة:

١- إن الناس جميعاً في كل دول العالم لم يستطيعوا أن يصلوا إلى الحق الذي جاء به الوحي، وبلغه عنه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم منذ أكثر من (١٤ قرناً). ولم يستطيعوا أن يأتوا بتشريع يهدي إلى ما فيه سعادة البشرية؛ مماثل أو مقارب لما جاء به الوحي وبلغه عنه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. إن هذا الواقع لهو برهان قاطع على كذب ادعائه.

٢- وإلا فأين الدليل من الواقع على أن العقل الإنساني يستطيع أن يصل إلى كل ما يصل إليه الوحي، في النظر والعقائد، وفي العمل والشرائع؟!!.

٣- إن ما جاءت به النبوة حقائق لم يأتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، على مدى القرون، وصراط عملي سوي مستقيم، لا عوج فيه.

* أحكامه أكمل الأحكام وأقومها وأحسنها.
* وأخلاقه أفضل الأخلاق، وأحسنها وأكرمها.
* ونظامه أفضل النظم الكفيلة بسعادة الناس أجمعين.
* وعباداته أوفق العبادات الملائمات للفطرة الإنسانية.

فأين توجد نظائرها في الأوضاع البشرية، المحكومة بأهواء واضعيها، ومصالحهم الخاصة، وشهواتهم، دون النظر إلى مصالح سائر الناس، بالحق والعدل.

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩، ٣٧١.

(٢) انظر ما سبق: ٣٦٩.

٤- وأيضاً فأين كانت تلك العقول حين عكفت البشرية خلال تاريخها الطويل على عبادة الأوثان، والإذعان لغير الله الحق، من حجر، أو شجر، أو حيوان، أو إنسان ألَّهَ نفسه، استخفافاً بقومه الذين أطاعوه وعبدوه؟!.

٥- ثم كيف تستطيع العقول معرفة الحقائق الغيبية التي جاء بها الوحي، وهي مما لا بد من معرفته، لِتَوَقُّف استقامةِ مسيرةِ مَن يحرص على سعادته الأبدية على معرفتها، كالبعث والحساب وفصل القضاء، والجزاء في الجنة أو في النار. والإنسان لا يعلم إلا القليل من خصائص وسنن الوجود من حوله، فمتى يحيط بها علما، وأنى له أن يدرك حقائق على ما هي عليه، لينتقل من بعدها إلى الغيبيات؟!.

ثانياً: وقول (العلماني):

(إن إنكار النبوة على الإطلاق؛ إنما يدل على الثقة بالعقل البشري، وإلى الاعتراف بالطبيعة والفطرة، فإذا كان العقل والطبيعة قادرين على هداية الإنسان، فما الحاجة إلى النبوة)(١).

هو من قبيل الإمعان في ركوب مركب المغالطة والتلبيس والكذب، فهو يستمر يكرر افتراءاته ويعيدها، غير عابئ بمنطق الحق، وغير عابئ بالواقع المخالف لادعاءاته.

إن إنساناً لو اغتر بقوته العضلية المجردة، وأراد تحطيم جبل، دون الاستعانة بالآلات، لأودى بقوته، ولم يكد يؤثر في الجبل شيئاً. ومثله الذي يدعي أنه بعقله المجرد، وبالتأمل في الكون؛ يمكنه الوصول إلى معرفة الحقائق كلها، والله جل ثناؤه يقول لعباده:

﴿...وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ الاسراء.

إن الله جل شأنه كما أنه هو الذي وهب الإنسان القدرة على التفكير واختراع الآلات المعينة له على آداء الأعمال؛ أنزل إليه وحياً على ألسنة رسله عليهم السلام، ليبين من حقائق الدين الذي اصطفاه له؛ ما لا يستطيع الوصول إليه بنفسه، وليعينه على إصابة الحق، فيما قد يمكنه أن يصل إليه. فله الفضل جل شأنه وسمت حكمته. والإيمان بذلك على الوجه الصحيح؛ هو الإيمان الحق النافع المفيد، الذي يؤتي الثمرة الطيبة العاجلة والآجلة.

وليس معنى ذلك إهمال العقل والنظرِ في الكون واستنباطِ الآيات والسنن منه؛ فمن غير العقل؛ يستوي الإنسان مع المخلوقات غير المكلفة. ومن لم يستفد من نعمة العقل في التفكر النافع والمفيد في الآيات الكونية والمنزلة؛ كان حاله أسوأ من الذي لم توهب له هذه النعمة أصلاً.

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩.

ومثله حال الذي يرفض ما أنزله الله تعالى من وحي، لهداية البشر لما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية، زاعماً أنه يثق في العقل، وأن عقله قادر على الاستقلال في جميع الأمور، فإن زعمه هذا لن يجرّ عليه إلا الخيبة والخسارة، والندامة العاجلة والآجلة[1].

ثالثاً: وفي موضع آخر من هذه المقولة الافترائية يدعي (العلماني):

أن عقل الصفوة صاحبة الوعي المتميز هو القادر على الاستغناء عن النبوة، لأنه قد تعود على النظر وإعمال العقل[2].

والحق أن من يزعمون أنهم هم الصفوة ليسوا بأقل حاجة للنبوة من العامة:

١- فالصفوة -بعيداً عن النبوة- هم في حقيقة الأمر أكثر اختلافاً وتضاداً من العامة، وذلك لأن الكثيرين ممن يرون أنفسهم من الصفوة ينشأ عندهم كبر وغرور واستعلاء ، يمنعهم عن اتباع غيرهم، ولو كان الحق معه، إذ يحبّ واحدهم أن يكون متبوعاً لا تابعاً، ولو كان في قرارة نفسه يرى أن قول مخالفه أقرب إلى الحق والصواب، ولكنها عقدة العلو والاستكبار تعمي عن الحق.

٢- ويؤيد ذلك تاريخ الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- مع أممهم، فقد كان أتباع الأنبياء عليهم السلام من الفقراء الضعفاء، وكان على العكس منهم: الطغاة والكبراء والأغنياء، يعارضون الأنبياء عليهم السلام، ويرفضون ما جاؤوا به، ويقاتلون دون ذلك، مع علمهم بأنهم على الحق، قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في شأن طواغيت قريش:

﴿...فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ الأنعام.

٣- وإذا اقترنت عقدة الاستعلاء والاستكبار بدوافع أخرى كالهوى والشهوة ومشاعر الطغيان؛ فإنها تدفع صاحبها إلى مخالفة الحق مهما كان ظاهراً جلياً.

٤- ودعوى أن عقل الصفوة قادر على الاستغناء عن النبوة، وأن هذا ليس فيه تكذيب للأنبياء عليهم السلام؛ مع ما فيها من البطلان؛ فإن فيها أمراً آخر، وهو أنه -في الحقيقة- لا يوجد فرق بين من يرفض كلام النبي عليه السلام لأنه يكذبه؛ وبين من يرفضه بدعوى أنه مستغن عنه، وليس بحاجة إلى سماع شيء منه، إذ في استماعه إليه حطٌ من كبرياء ذاته، والنتيجة على كل حال اطراح الحق الملقى، وإلغاء فائدته وأهميته، اتباعا للهوى.

---

(١) انظر ما سبق بيانه: عند الكلام عن عدم كفاية العقل المجرد في هداية البشر لما يعود عليهم بالنفع، في جميع الأحكام التي تنظم شؤونهم في هذه الحياة، وكذا في العقائد: ٢٧١-٢٧٢، ٢٩٧-٢٩٨، ٣١٦- ٣١٧.

(٢) انظر ما سبق: ٣٧٠-٣٧١.

٥- ثم إن دعوى الاستغناء تلك؛ هي الدعوى ذاتها التي ذم الله عز وجل أصحابها، إذ قال قائلهم: سأنزل مثل ما أنزل الله تعالى، وتوعدهم عز وجل بالعذاب، ووسمهم سبحانه بأنهم من أظلم الناس، فقال تبارك اسمه:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غمرات الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾ الأنعام.

وقال جل جلاله عن الكافرين:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١)﴾ الأنفال.

٦- ثم إنه أين هي عقول أصحاب العلوم المادية الكونية من غير المسلمين في أيامنا هذه، وعندهم ما لا يحصى من الضلالات العقدية والتشريعية؟!. فهم في العقائد يدورون بين الإلحاد الكامل والوثنية والشرك، وغير ذلك من الأباطيل والسخافات، التي ما كان ينبغي أن يصغي عاقل سمعه إليها، فضلاً عن أن يتبعها، وهي في أحكامها الوضعية -والمترتبة علىتلك العقائد- لا تجلب إلا الظلم والجور، ولا يمكن أن تحقق العدل بصورته المثلى، إما لقصورها؛ وإما لميلها عن الحق قصداً. وهي إن وجد عندها شيءٌ يسيرٌ من الحق؛ فهو من بقايا أثر المنهج الرباني المنزل في الرسالات السابقات، وفي الرسالة الخاتمة.

٧- وهل يجدر بعاقل أن يرفض المنهج الرباني الذي بلغ الغاية في الكمال، ويظل لاهثاً خلف أماني كاذبة، تزعم أن البشر قد يتمكنون يوما ما من الوصول إلى قريب من ذلك المنهج؟!.

إن عقل الإنسان مهما بلغ فإنه لا غنى له عن النبوة، والتفريق بين عقل صفوة وغير صفوة تفريق باطل.

رابعاً: وذكر (العلماني) أنه توجد أمور تجعل العامة في حاجة إلى النبوة، خاصة ما يتعلق بالعبادات وأشكالها[1].

وهو بفريته هذه يحاول حصر احتياج العامة للنبوات في العبادات، مع أنه كغيره لا يغيب عنه -وإن تعامى عن رؤية الحق-:

١- أن العبادات وسائر الأحكام الشرعية لا تقبل إن لم تقم على الأساس العقدي الصحيح، الذي جاءت به النبوات.

---

(١) انظر ما سبق: ٣٧١.

٢- وأنه لا توجد أية دعوة وضعية بشرية دعت إلى مثل ما دعت إليه النبوات من الحق، أو حتى قريب منه. وقد سبق بيان هذين الأمرين[1].

خامساً: ثم استدرك (العلماني) ما سبق أن ذكره عن احتمال احتياج العامة للنبوة، فادعى أن العامة:

(بحسها الشعبي وببصيرتها التلقائية يمكن أن تدرك حقائق النبوة، ولاسيما العملية، كالمساواة والعدالة)[2]!.

إنه من خلال ما سبق بيانه قد اتضح مدى عظم احتياج البشر -مهما بلغت عقولهم- للاهتداء بالحق الذي جاءت به النبوات، وأنهم بدون ذلك لن ينفكوا عن الضلالات أبداً.

ومن ثم يتضح مدى الجرم والحمق الذي يصله (العلماني) عندما يدعي أن: العامة بحسها الشعبي وببصيرتها التلقائية يمكن أن تدرك حقائق النبوة!!.

١- فهل يقبل مثل هذا المفتري دعوى من يقول: إننا لسنا بحاجة إلى وجود أطباء، وحتى العامة فإنهم بحسهم الشعبي وببصيرتهم التلقائية (!!) يمكن أن يدركوا حقائق ما علمه الأطباء، وأفنوا حياتهم في تحصيله، ولاسيما الأمور العملية، كالوقاية من الأمور المضرة، والحصول على الغذاء الجيد؟!.

إن إنسانا لو ادعى مثل هذه الدعوى وأخذ ينشرها بين الناس؛ لأجمعوا أنه فاقد العقل، لا يدري ما يقول. هذا وعلم الطب وكل ما فيه لا يقاس أبداً بالنسبة إلى ما جاءت به النبوات، من الحقائق والهدى والنور.

٢- وعلى الرغم من ذلك كله؛ فمثل تلك الأمور الفطرية كالمساواة والعدالة؛ فإن البشر -حتى الخاصة منهم- بعيداً عن هدي النبوة، لابد أن يقعوا فيها بأخطاء، إما غلوّا فيها أو تفريطاً، أو سوءاً في فهمها، مما يعطل فائدتها، تعطيلاً كلياً أو جزئياً، ولربما انقلب الحال وصارت سبباً للشقاء والدمار.

فالمساواة مثلاً؛ قد يُخرج منها ظلما ما ينبغي أن تشمله، كأن تُجْعَل بين أفراد طبقة؛ دون أخرى، أو مجتمع دون آخر، من غير ما سبب حقيقي.

وقد يعمم مفهومها، حتى تشمل ما لا ينبغي أن تشمله، فيُسوّى العالم بالجاهل في الأمور

(١) انظر ما سبق: ٢٧١-٢٧٢، ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) انظر ما سبق: ٣٧١.

التي لا يجوز التسوية بينهما فيها[1]. ويُسَوّى العامل بالعاطل، والمجتهد بالكسلان، والخبير بمن لا خبرة عنده[2]، ونحو ذلك مما لن يؤدِ إلا إلى الشقاء والتعاسة.

سادساً: ثم إن (العلماني) زاد في إمكانية استغناء الأمة كلها عن النبوة، من خلال نشر التعليم، فيتحول المجتمع كله إلى خاصة، يمكنها الاستغناء عن خدمات النبوة![3]. اهـ.

إنه على الرغم من أن تلك الغاية المزعومة لن يصل في الواقع إليها البشر أبداً، فإن هذا المدعي:

١- لم يحدد نوعية ذلك التعليم ودرجته التي يمكن معها أن يصير المجتمع كله خاصة، وإن الواقع يثبت أن التعليم الذي يمكن نشره على الأمة كلها؛ إنما هو قدر معين من الثقافة والمعرفة، يتفاوت فيه وبعده البشر تفاوتاً كبيراً.

فهل مثل هذا القدر من التعليم والثقافة كاف في جعل الأمة كلها من الخاصة، في مسائل النبوة؟!.

وهل هناك امتهان للبشر ولعقولهم وحاجاتهم أكثر من هذا الامتهان؟!.

إن النبوة قد شملت جميع حاجيات البشر الباطنة والظاهرة، فهل يمكن لمن يزعم أنه يريد صالح البشر وسعادتهم؛ أن يدعي أن قدراً يسيراً أو كبيراً من العلم والمعرفة يستطيع أن يسد جميع تلك الحاجيات؟!. إن هذه الدعوى ليست أكثر من احتقار لعظم وأهمية متطلبات البشر، وما يحتاجونه في هذه الحياة.

٢- إن خاصة الخاصة والذين بلغوا من العلم شأناً كبيراً، وحتى المهتدي منهم بهدي النبوات، ليظلون أمداً طويلاً في البحث عن الحق في مسألة من المسائل الطارئة، والتي يمكن أن يشمل أمرها مجموع الأمة، أو مجموع البشر كلهم.

وهم بعد ذلك الأمد قد لا يصدرون عن رأي واحد، بل قد يكون لهم أكثر من رأي، ولكلٍّ وجهة نظره، وأسبابه في ذلك.

فكيف الحال بمن يدعي أن الأمة كلها يمكن جعلها من الخاصة، ويمكن لها -من ثم- أن

---

(١) هذا هو الموجود عند كثير من الديمقراطيات الحديثة -ولربما جميعها- في التسوية بين جميع آراء أفراد الأمة؛ وذلك لإقرار المسائل المصيرية الكبرى المتعلقة بمجموع الأمة!.

(٢) وهو ما فعلته الشيوعية عندما ألغت الملكيات الفردية، وادعت أن الملكية إنما هي للشعب كله، فقتلت دافع التنافس في النفوس، إذ يشعر كل إنسان أنه سواء اجتهد أو قدم أقل جهده؛ فلن ينال إلا ما قدّره له أرباب النظام.

(٣) انظر ما سبق: ٣٧١.

تصدر الأحكام والشرائع والقرارات والتنظيمات. التي تشمل جميع جوانب الحياة البشرية.

٣- إن أولئك الخاصة في كل زمان وفي كل مكان قد اختلفوا على أنفسهم في قضايا؛ هي أقل كثيراً في الخطر والأهمية من النبوة، وما تأتي به من عقائد وشرائع[١].

سابعاً: ويبلغ استخفاف (العلماني) بالنبوة حداً يدعي معه أنه قد تظل ممكنة، لإباحة بعض أشياء يحظرها العقل[٢]. اهـ.

وواضح أنه لا يريد بهذا الزور والبهتان إلا الاستخفاف بالنبوة، ومثل هذا الافتراء يعد أحد الأدلة الواضحة لكل من يصرون على تبرئه ساحة أمثال هذا (العلماني) من الكفر، وجعلهم ضمن دائرة المؤمنين بهذا الدين.

وهذا (العلماني) بدعواه تلك كأنه يريد القول: إن العقل بمثاليته المطلقة قد يكبل صاحبه، فيحظر عليه أموراً كثيرة، إلا أن النبوة تأتي فتطلب منه أن يخفف قليلاً من هذه المثالية، ومن تلك الأحكام الوضعية التي قيّدت الإنسان، فتضع عن هذا الإنسان بعض تلك القيود، وتبيح له المحظورات العقلية!.

وعلى ذلك فدور النبوة كدور من يشفع عند قاضٍ أصدر حكماً عادلاً ضد شخص، ارتكب ما يوجب ذلك الحكم، فيأتي الشفيع ويطلب من القاضي تخفيف الحكم الصادر، مراعاة للأحوال الصعبة التي يمر بها المحكوم عليه. فهل هذا هو دور النبوة؟!. وهل يتصور صدور هذا البهتان عمن سمع شيئاً مما جاءت به النبوات؟!.

إن مثل ذلك الكفر والاستهزاء بالنبوات لا يحتاج في الحقيقة إلى أي رد، سوى ما سيلقاه صاحبه من الجزاء العادل يوم الدين.

ثامناً: ومن تخايلات (العلماني) الماكرة الفاجرة؛ ادعاؤه:

(أنه كان بإمكان الله -سبحانه- اضطرار العقول إلى معرفته دونما حاجة إلى اللف والدوران، وتأسيس الوحي على العقل، وجعل من يقدح في العقل يقدح في النقل)[٢].

---

(١) فهناك من دعا إلى الديكتاتورية ويدعو إليها. وهناك من دعا إلى ما يسمى الديموقراطية ويدعو إليها. وهناك من دعا إلى الشيوعية وقاتل من أجلها. وهناك من دعا إلى الفاشية أو النازية وقتل في سبيل إشاعتها عشرات الملايين من البشر. وما تزال النظريات والمذاهب الفكرية تتضارب وتختلف، وليس بينها من تطابق أو تقارب.

أو ليس كل أصحابها ممن يزعم هذا الأخرق: خاصة، بل وخاصة الخاصة.

وفيما يتصل بالعقائد؛ أليس من بينهم من آمن بالنصرانية أو اليهودية أو الهندوكية؟!، ومن ألحد ورفض كل حقائق الدين.

(٢) انظر ما سبق: ٣٧١.

وفيما يلي الرد على تطاوله الخطير:

إن أول ما يمكن أن يقوله مَن عنده أدنى مثقال مِن إيمان بالحق؛ هو أن يستعيذ بالله من حكاية ذلك الافتراء الذي يتطاول به المراوغ الكذاب الضالّ المضلّ على ربه سبحانه، لقد تجاوز في تطاوله عليه تعالى ماكان من إبليس في عدم اعترافه بحق ربه عليه في طاعة أمره، تبارك اسمه.

إن هذا التطاول على الرب جل ذكره، ذا الأسلوب التضليلي الشيطاني؛ قد أبعد صاحبه عن تصوره الغايةَ من الخلق، وهو ابتلاء الإنس والجن في ظروف الحياة الدنيا، وأن الابتلاء يقتضي عقلاً أن لا يجعل الله جل جلاله المبتلى مجبوراً، ولا مضطراً.

وبحيلة خبيثة ماكرة وجه نظر من يفتتن بأقواله إلى أن الله -جلت حكمته- قد كان بإمكانه أن يجعل العقول تعرفه بالضرورة، دون أن يجعل النبوات وسطاء بيان وتبليغ، ووصف هذا العمل بأنه من قبيل: (اللف والدوران)، الذي يصنعه الأعداء والخصوم مكراً بخصومهم وأعدائهم.

١- ألم يعلم (العلماني) من أوليات الفكر الديني؛ أن الله عز وجل خلق الناس للابتلاء والاختبار، فترك لهم حرية الاختيار بين سبيلي الخير والشر، وبين لهم حدودهما، وبيّن لهم أن الجزاء العادل مترتب على حسب ما يقدمه الإنسان من عمل، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر؟!. قال تبارك اسمه:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (٣)﴾ الإنسان.

ألم يعلم أن سلب الناس حرياتهم، واضطرارهم وجبرهم مخالف لهذه الحكمة الربانية[١]؟!.

٢- وأما اللف والدوران فهو السمة البارزة التي تميز الأسلوب الاحتجاجي الذي يسلكه (العلماني)، وقبيله من المضللين أمثاله، الذين يدعون زوراً وبهتاناً أنهم يريدون إعادة فهم الدين، وذلك في جميع كتبهم، التي يتناولون فيها حقائق الدين؛ بأسلوب تضليلي، لا يخفى على من عنده أدنى بصيرة، وكذا في جميع مناقشاتهم ومحاوراتهم، التي تتناول تلك المواضيع.

تاسعاً: وقد ادعى (العلماني) ادعاءات لا يريد منها إلا تأكيد استغناء العقل عن النبوات، ولاحَظَ أنه سيُتَّهَمُ عندئذ بالكفر والفجور والطغيان، فأراد أن يجعل التهمة منحصرة: بالاستبداد بالرأي، ليهون الخطب، ومع هذا فقد سارع إلى نفي هذه التهمة عن نفسه، وعمن يسير في ركبه، فادعى: (أنه ليس القول باكتفاء العقل استبداداً بالرأي، ولكنه ثقة بالعقل، وإعلان لاستقلاله)[٢].

---

(١) حسن حنفي يصر كثيراً على مسألة إطلاق حرية الإنسان، ولست أدري لماذا أَمَرّ عبارة الاضطرار هذه دون أن يهجم عليها، هجومه على كل أمر لا يروق له، أم أن هناك سبباً آخر قد جعله يغض الطرف عما فيها مما يناقض رأيه؟!.

(٢) انظر ما سبق: ٣٧١.

وظاهر أن من يدعي تلك الأباطيل -التي سبق الرد عليها- لا يتهم بمجرد كونه مستبداً برأيه، بل إنه قد تجاوز الحد في الطغيان وبلغ دركاتٍ في الكفر سحيقة.

وهذا كمن يقتل فئاماً من البشر، ثم عند المحاكمة يحاول أن يجعل التهمة الموجهة إليه منحصرة في كونه سريع الغضب، وينسى الذين ذهبوا ضحية فجوره واعتداءاته.

نعم، إن الدافع الأصلي لذلك الكفر هو الاستكبار عن اتباع الحق، والإصرار على اتباع الهوى والشهوة، وإن كان هذا قد تم تحت ستار اتباع أحكام العقل. قال جل شأنه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾ غافر.

وأما الثقة المزعومة للعقل فإنها -كما تبين- إن زادت عن حدها؛ لم تجلب إلا الخيبة والخسران.

عاشراً: ولم يكتفِ (العلماني) بافتراءاته السابقات حول النبوة، بل أراد أن تعم افتراءاته النبوة ذاتها وما جاءت به، فادعى:

(أن استقلال العقل هو ما ترمي إليه النبوة)[1].

(وأن المدافع عن النبوة ضد العقل، إنما يتمثل النبوة في مراحلها الأولى، قبل اكتمالها، والمدافع عن العقل مكتفياً بذاته، دونما حاجة إلى النبوة، إنما يتمثل النبوة في آخر مراحلها، بعد اكتمالها. فالنبوة وسيلة لاكتمال العقل، وكمال العقل غاية النبوة)[1].

إن العاقل ليعجب من أمر هذا (العلماني) كيف يأتي بالمتضادات والمتناقضات، ويعتمد على كل واحد منها في موضع من مواضع تزييفاته، وتضليلاته، متوهماً أن قارئ افتراءاته وتلبيساته، سينسى ما سبق أن قرأ منها، حتى أن كل موضع منها منفك انفكاكاً كلياً، عن المواضع الأخرى. وهكذا يكون تهاتف المضلّين، ومما يوجه له:

١- لقد تبين من خلال كلام (العلماني) السابق ومن خلال مَن استشهد بأقوالهم؛ أنه لم يجعل العقل مستقلاً عن النبوة في المرحلة الأخيرة، بل هذا هو شأن العقل دواما، حسب زعمه. ثم هنا يُلَبِّسْ ويدعي أن هذا الاستقلال منحصر في الرسالة الخاتمة، وهذا من الأدلة على أنه لا يبغي إلا الفساد ما استطاع إليه سبيلاً، وبأية حيلة أو مكر، ولو تضاربت الأقوال، واختلفت الآراء، التي يتبنّاها، ويدعو إليها.

٢- إن النبوة -كما سبق بيانه- تأتي للإنسان بالخير كله باطناً وظاهراً، نفساً وجسداً،

عقلاً وفكراً، وعملاً، نظراً وتدبراً فيما يحيط به، وفيما يُنزَّلُ إليه... وعلى ذلك فإنها تأتي بالعدل التام بين جميع هذه الأمور، دون أن تُغَلِّبْ جانباً على آخر، على الوجه الذي يضر الإنسان، ولا ينفعه.

٣- إن النبوة في جميع مراحلها موقفها مع العقل موقف واحد، فهي تطلب إعماله وعدم تعطيله، ولكن على الوجه الذي يعود على الإنسان بالخير العظيم.

٤- والعقل في جميع مراحل النبوات السابقات، وفي مرحلة اكتمالها بالنبوة الخاتمة - نبوة محمد صلى الله عليه وسلم-؛ لم يكن قادراً على الاستقلال والاكتفاء بذاته، لمعرفة الحق والخير والعدل، وتطبيقه في الواقع. ولّما حاول ذلك العقل الاستقلال؛ لم يجلب للبشرية السعادة العامة في حياتهم الدنيوية، فضلاً عن الأخروية، والتي ربما يصل الحال ببعض العقول المريضة إلى إنكارها بالكلية، بل لم يجلب للبشرية إلا أنواعاً لا حصر لها من الضلال الفكري، والظلم الاجتماعي.

٥- وإذا كان الأمر كذلك؛ فكيف يُظَنُّ بالنبوة، ولا سيما النبوة الخاتمة، أنها ترمي إلى جعل العقل مكتفياً بذاته، مستقلاً غير مهتدٍ بهداية تعينه على الوصول إلى الحق والعدل؟!.

إن هذا يخالف مخالفة ظاهرة كون النبوة تريد الخير للناس، لأن مثل هذا الاكتفاء والاستقلال لم ولن يجلب الخير لهم.

٦- ثم لو كانت تريد النبوة ذلك؛ فلماذا هذه العقائد التي طالبت الناس بالإيمان بها؟!. ولماذا هذه الأحكام والشرائع والعبادات التي طالبتهم بالالتزام بها دواماً، إذا أرادوا السعادة الدنيوية والأخروية؟!. ولماذا كان الوعد بالثواب العظيم لمن آمن والتزم، والوعيد بالعقاب الشديد لمن كفر وعصى؟!.

قال جل شأنه بعد أن ذكر حكمه في توزيع ميراث الميت:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)﴾ النساء.

٧- إن المدافع الحقيقي عن العقل ليس هو الذي يجعله وحيداً دون معين، يتيه في ظلمات مُضِلاّت، وفي سبل كثيرة، كل سبيل منها كافٍ في جلب الهلاك للعقل ولصاحبه، كمن يجد إنساناً في وسط فلاة من الأرض؛ فلا يعطيه شيئاً يعينه، أو يساعده حتى على البقاء المؤقت، بل إنه يتركه

يتخبط في تيهه، دون أن يدله على سبيل النجاة الوحيد الذي يعلمه، ومهما أعمل ذلك التائه عقله فإنه لن يفيده شيئاً في هذه المفازة، التي تتساوي فيها كل الاحتمالات. فهل من يفعل هذا بإنسان يكون مدافعاً عنه، مريداً له الخير؟!، أم إنه يسوقه سوقاً نحو الهلاك المحتم؟!.

٨- إن المدافع الحقيقي عن ذلك الإنسان هو الذي يمده بكل ما يعينه ويهديه إلى الصراط الذي يخرجه من تلك الفلاة سليماً معافىً، وكذلك فإن المدافع الحقيقي عن العقل هو الذي يمده بكل ما يعينه على مواجهة ظروف هذه الحياة، على الوجه الذي يحقق له السعادة الحقيقية، والخير العظيم. وأعظم ما يعين العقل: المنهج الرباني المنزل، الظاهر والواضح المعالم، والكفيل بتحقيق السعادة والخير على الوجه الأكمل.

٩- وإذا قيل إن إحدى الحكم من بعث النبوات وصول العقل إلى درجة الكمال اللائقة به؛ فإن ذلك على معنى توجيهه الوجهة الصحيحة لمجال عمله وانتاجه، حتى تتحقق الفائدة الحقيقية والكاملة للإنسان من هذه النعمة الربانية.

القضية الرابعة: حول مسألة التحسين والتقبيح العقليين واستخدامها ذريعة لادعاء استحالة النبوة:

أولاً: نقل (العلماني) بعض مزاعم مدعي الاستحالة العقلية للنبوة مقرراً ومؤكداً لها، فقال:

(إنه قد تقوم الاستحالة العقلية على تحسين العقل وتقبيحه، فما حَسَّنَه العقل يُفعل، وما قَبَّحَه يُترك، وما لم يحكم فيه العقل بحسن أو قبح؛ يُفْعَل عند الحاجة، ويُترك عند عدمها)[١].

وقضية التحسين والتقبيح العقليين وعلاقتها بحقائق النبوة قد سبقت مناقشتها، ومما ينبغي أن يشار إليه هنا:

إن قضية التحسين والتقبيح العقليين قد اختلف البشر كثيراً في إثبات أصلها، والاختلاف أشد وأكثر فيما يُحَسَّنُ ويُقَبَّحُ عقلياً، وعلى فرض التسليم بهذا المبدأ على إطلاقه؛ فأكثر القضايا قد اختلفت العقول في الحكم عليها، حتى بالنسبة لأتباع الملل. فما يعده البعض حسناً بعقولهم، يعارضه آخرون، وقد يكونون من مذهبه، وتجري مناقشات، تؤكد لدى كل متبصر أن هذا الأمر لو ترك للعقول كلية لأدى إلى الضلال، وتنكب سبل الهداية، فوق ما يتمخض عنه من خلاف وفرقة وتباغض بين أصحاب الاتجاهات المختلفة، كما قد حدث فعلاً، لكن وجود الشرع الهادي قد قلل من ذلك كثيراً.

إن القضايا التي وُضِعَتْ بالاستناد إلى التحسين والتقبيح العقليين، قد وُضِعَتْ موضع الدراسة منذ زمن بعيد، وعلى الرغم من هذا فقد حصل فيها الاختلاف الكبير، الذي يشعر معه الإنسان بحاجته الأكيدة إلى مصدر رباني يرشده إلى الحق، الذي يقطع السبيل أمام الاحتمالات العقلية الكثيرة، التي تشتبه معها الأمور والحقائق.

فادعاء إدراك العقل للحُسْن والقبح في الأشياء منقوض بثلاثة أمور:

الأول: أن العقل لا يدرك الحُسْن والقبح في كل الأشياء، وإنما قد يدرك ذلك في بعضها، دون بعضها الآخر. فهذه معرفة للحُسْنِ والقبح قاصرة، وليست شاملة.

الثاني: أن إدراكه للحُسْنِ والقبح في البعض الذي أدرك ما فيه، هو إدراك ظني احتمالي، فهو ليس إدراكاً يقينيا، وكثيراً ما تدرك العقول بعض الأشياء على أنها حسنة، ثم يتضح لها في ظروف أخرى أنها قبيحة.

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩.

الثالث: أن العقول يقع بينها اختلاف في حُسْنِ الأشياء وقبحها، إن لم يكن في كل الأشياء المدركة؛ ففي جلها. وكثيراً ما يقع الاختلاف بين الناس حول قبح شيء وحسنه، فالبعض يراه حسناً غاية الحسن، والآخرون يرونه قبيحاً غاية القبح.

وهنا يأتي دور الدين الذي يختلف عن إدراك العقل في كل هذه الأمور.

فالدين يبين الحُسْنَ والقبح في كل ما يتصل بحياة الإنسان من أشياء وأمور، مادية كانت أو معنوية.

ثم إن معارف الدين في ذلك يقينية قطعية، والمؤمنون يأخذون وحي الله تعالى فيما يخبر عن الحسن والقبح في الأشياء؛ مأخذ التسليم والإذعان، فلا يختلفون ولا يتشككون.

ثانياً: ويستمر (العلماني) في نقله التأكيدي التقريري للمزاعم الباطلة، فيقول:

(إن العقل والطبيعة هما أساس الحكم على الأشياء)[1].

وهذا الباطل يذكره (العلماني) وكأنه مسلمة لا تحتاج إلى دليل، وهو في حقيقته ادعاء ساقط من وجوه:

١- أما الطبيعة فإنها بنفسها لا تفيد الإنسان شيئاً، في مسألة الحكم على الأشياء، ولكن الإنسان يستفيد منها، من خلال دراسته هذا الكون وما فيه، فيستنبط مافيه من دلالات توصله للإيمان بالحق جل جلاله، وببعض صفاته. بالإضافة إلى ما يستنبطه من قوانين وسنن، تعينه على الاستفادة مما حوله.

وبصفة عامة فإن الأساس بالنسبة إلى مسائل الدراسات الكونية المادية؛ أنها قد تركت للإنسان ليدرس ويستنبط، ويستفيد من هذا في حياته الدنيوية، وإن كانت هناك بعض توجيهات شرعية عامة، حتى تكون استفادته من الكون على وجه يجلب له ولغيره الخير، ولتقوي إيمانه بالنسبة إلى بعض الحقائق الدينية.

٢- ولكن قد يقصد بالطبيعة هنا، ما يشمل طبيعة الإنسان وما يلائمه وما يلائمه من الأحكام، وأن هذا مع إعمال العقل يفيد الإنسان في معرفة الحكم على الأشياء.

والواقع أن هذا الأمر مختص بالضوابط التي تحكم حياة البشر في هذه الحياة، ولكنه لا يفيد في معرفة كثير من حقائق العقائد[2].

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩.

(٢) قد يفيد ذلك في بعض العقائد على وجه عام، كما لو قيل إن الإيمان بالجزاء الأخروي، وبوجود المجازي الحكيم العدل، فإن ذلك يفيد في تهذيب النفس الإنسانية.

٣- وبالنسبة إلى الضوابط التي تحكم حياة البشر؛ فإن اجتماع العقل مع ما أطلق عليه اسم الطبيعة؛ لم يجعل الأحكام البشرية الوضعية تحقق للإنسان السعادة المنشودة في حياته الدنيوية، وما من أمة لا تطبق شرع الله، أو تنحرف عن تطبيقه؛ إلا ينال أكثر أفرادها من الشقاء؛ ما هو معلوم ومشاهد في بقاع الأرض المختلفة. وذلك بخلاف الشرع الذي اصطفاه الله الحكيم الخبير جل شأنه، والمجرد من مؤثرات الأهواء والشهوات الشخصية، والقائم على الحق والعدل والحكمة السامية[١]. والمقارنة والدراسة المنصفة تثبت عظم فضل الأحكام الربانية؛ على الأحكام التي هي من أوضاع البشر، وأنها هي التي تحقق السعادة للبشر في حياتهم الدنيوية، فضلاً عن الأخروية.

ثالثاً: وكذلك فقد نقل (العلماني) مقرراً ومؤكداً دعوى: (أن العقل قادر على الوصول إلى التكليف، وإلى الواجبات العقلية، ومنها شكر المنعم...)[٢].

١- فإن قصد بمقدرة العقل على الوصول إلى أصل التكليف؛ أي إلى أن الإنسان تجب عليه تكاليف يؤديها من أجل أن ينال مرضاة ربه عز وجل ؛ فإن هذه المسألة لو سُلّمَ بها؛ فإنها في حقيقة الأمر دليل على حاجة الناس إلى النبوة، لأن العقل قد يمكنه الحكم بأن الإنسان تجب عليه تكاليف يؤديها لربه عز وجل، ولكنه لا يستطيع الجزم بالكيفية التي يؤدي بها تلك التكاليف، ولا الصور ولا الهيئات التي يمكن أن ينال بها رضا الله تعالى. إذ إن هذه الأمور لا تُعْلَمُ إلا من قبله تبارك اسمه، وهو جل جلاله غَيْبٌ عنا، وهذا لحكمة كون المكلفين ممتحنين في هذه الحياة، امتحاناً يبتدئ من الإيمان بالله تعالى إلى سائر العقائد والأركان الإيمانية الغيبية، فإن آمن الممتحَن بذلك؛ التزم التكليف، أي التزم أن يكون في أعماله كلها على وفق ما يرضي ربه جل جلاله.

ولما كان الله تبارك وتعالى غيباً عنا؛ لم يكن هناك وسيلة لمعرفة تفاصيل التكاليف؛ إلا بأن يبلغها إلينا جل جلاله عن طريق رسول يختاره ويبعثه إلينا، وقد اقتضت حكمة الله تعالى؛ أن يكون هذا الرسول عليه السلام شخصاً قائماً بذاته من البشر أنفسهم[٣].

٢- وأما أن يصل العقل إلى تفاصيل التكاليف، فإن أحداً لا يستطيع أن يدّعي أن عقول البشر يمكن أن تصل في العبادات مثلاً إلى الكيفية المثلى التي أنزلها الله على رسله عليهم السلام وبلغوها إلينا.

---

(١) انظر ما سبق بيانه عن أسباب انحراف البشر عن الحق، فيما يتعلق بالأحكام المتعلقة بتنظيم شؤون حياتهم الدنيوية: ٣١٨-٣١٩، ٣٢٨- ٣٢٩.

(٢) انظر ما سبق: ٣٦٩.

(٣) انظر الحكمة من كون الرسول عليه السلام شخصاً قائماً بذاته من البشر: ١٠٣-١٠٤.

رابعاً: ولم يكتف (العلماني) بنقل القضايا التقريرية الباطلة وكأنها مسلمات لا تقبل النقاش، بل انتقل كذلك إلى نقل الشبهات التي تعتمد على المغالطة والتمويه والسفسطة العقلية، وادعاء أنها حجج جدلية، فقال: (إنه قد تستعمل قاعدة الحُسْن والقُبْح كحجة جدلية لإثبات استحالة النبوة عقلاً، فإما أن يكون النبي مُسْتَدْرَكاً بالعقل أم لا، فإن كان الأول فلا فائدة من انبعاثه، وإن كان ضد العقل فلا يمكن قبوله)[١].

ومن خلال الأمور التالية يتبين سقوط هذه السفسطة التي زعم (العلماني) أنها حجة جدلية:

١- أما ادعاؤه أن ما جاء به النبي إن كان مما يمكن إدراكه بالعقل[٢]؛ فلا فائدة من بعثه رسولاً، وإن كان ضد العقل فلا يمكن قبوله؛ ففيما سبق ذكره كفاية لبيان عظم أهمية بعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهو مما يدل على بطلان هذا الزيف[٣].

٢- وفي حصر ما تأتي به الرسل عليهم السلام؛ بأنه إما أن يوافق العقل أو يضاده؛ مغالطة ظاهرة. فالرسل عليهم السلام لا تأتي بما يضاد العقول، ولكنها تأتي بما قد لا تدركه العقول مستقلة، ككيفية المعاد الأخروي مثلاً، أو تأتي بما لا توجبه ولا تمنعه، كوجود مخلوقات لا نراها بأعيننا.

٣- فإن ادعى أنه حتى هذا الذي تأتي به الرسل عليهم السلام مما لا تصل إليهم العقول بقدراتها الخاصة؛ هو مما لا يمكن قبوله، وأنه مما يُضادُّ العقل:

فأما أنه يُضاد العقل فهو ادعاء كذب. إذ أين التضاد بين كون الصلوات خمساً -على سبيل المثال- وبين أحكام العقل؟!.

وأما إطلاق القول برفض قبول ما تأتي به الرسل عليهم السلام مما لا يستطيع العقل الوصول إليه بنفسه، فهو إطلاق لا يعتمد على أساس عقلي، بلْ هو راجع إلى مجرد التحكم الذي لا دليل عليه، وسببه يرجع غالباً إلى اتباع الأهواء والشهوات، الذي ينشأ عنه معاداة الرسل

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩.

(٢) في الكلام الذي سبق نقله؛ ذكر صاحبه: حسن حنفي: هذه الشبهة على النحو التالي: (فإما أن يكون النبي مستدركاً بالعقل أم لا)، وهذا النقل فيه نقص، إذ المقصود أن ما جاء به النبي عليه السلام. انظر على سبيل المثال: الإرشاد؛ الجويني: ٣٠٣.

(٣) العجيب أن حسن حنفي لم يقع نظره عند نقل هذه الشبهة إلا عليها، ولم ينظر إلى الردود الكثيرة والمفحمة، التي رد بها العلماء عليها، وكان المنهج العلمي السليم يقتضي منه أن يتأكد من صحة هذه النسبة إلى البراهمة، فضلاً عن أن يبين ردود العلماء عليها، ولكنها الثورة والتجديد!!. وانظر ما سبق: ٧٠-١٠٨.

ورفض ما يجيئون به. وأي مانع عقلي يحمل على عدم قبول قول العالم الصادق فيما يخبر به من أمور علمها، وهي ليست من التي يستطيع عقل البعض الوصول إليها بنفسه، وليست كذلك من التي يرفضها العقل؟!.

٤- وهذه الدعوى بإطلاقها -في حقيقة الأمر- هي التي يرفضها العقل، إذ هي تضاد الموازين الفطرية الموجودة فيه. وإلا فماذا لو عممت هذه الدعوى، وأصبح كل واحد لا يقبل من غيره علماً ولا خبراً إن لم يدل عليه عقله؟!، وما فائدة المعلمين والأطباء وأهل الخبرة في كل مجال مع هذا الزعم؟![1].

٥- إن الرسل عليهم السلام بشر مثلنا، قد أوحى الله تعالى إليهم بوحي يشتمل على عقائد وشرائع، وقاموا هم بإبلاغ ذلك إلى المخلوقين، فما الذي يناقض العقل في هذا؟!، إلا أن يكون السبب أن الخير الذي جاؤوا به إنما مصدره الخالق جل شأنه!. ومن وصل في حقيقة حاله إلى هذا الحد فإنه يقال له: ارفض إذاً كل أمرٍ وهبه الله لك، ومن ذلك العقل الذي تدعي أنك تستطيع به الوصول إلى كل شيء!.

والحق أنه لا يستبعد من هذا الملحد وأمثاله جحود نسبة هذه النعم إلى الله تعالى، وادعاء نِسْبَتِها إلى طبيعة جامدة ميتة تعمل بالمصادفة المزعومة. وكلٌّ ينتسب إلى ما يلائم حاله!.

خامساً: ويحاول (العلماني) في نقله الزيوف أن يلبس الحق بالباطل، فيقول: (وقد أكمل الله العقول، وجعلها قادرة على إدراك الحسن والقبح، والتمييز بينهما، وجعلها دليلا على الخالق، ومرشداً لمصالح الخلق، منعاً للظلم ووسيلة للعلم، فلا حاجة للنبوة في وجود العقل، وإن أتت متفقة مع العقل فهي إضافة زائدة لا لزوم لها ولا غاية، وإن أتت مخالفة له فلا يمكن قبولها، لما كان العقل هو الأساس...)[2].

والتلبيس والسفطسة في ذلك الباطل واضح لا خفاء فيه:

١- سبق بيان ما يرد على مسألة التحسين والتقبيح العقليين، وكذا بيان ملخصه قريبا[3].

٢- إن كمال كل شيء بحسبه، فالله تبارك اسمه قد خلق الإنسان على أحسن تقويم، وهذا يشمل عقله، إلا أن هذا لا يعني أنه جل جلاله قد خلق العقل قادراً على كل شيء، بل إن العقل كسائر قوى الإنسان له قدرة محدودة، ومهما بلغ الإنسان في مقدرته وعلمه، فإنه في حقيقة

---

(١) انظر: الإرشاد؛ الجويني: ٣٠٣ - ٣٠٤. وانظر ما سبق: ٢٧٣، ٢٨٢.

(٢) انظر ما سبق: ٣٦٩.

(٣) انظر ما سبق: ٣٨٩-٣٩٠.

الأمر لم ينل من العلم إلا شيئاً يسيراً، قال تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً(٨٥)﴾الإسراء.

حتى علماء الكون كلما تكشف لهم جديد في شأنه؛ تكشف لهم في الوقت نفسه عظم ما هو غائب عنهم من علوم الكون ومعارفه.

٣- وبالإضافة إلى مقدرة العقل المحدودة؛ فإن العقل في الإنسان لا يعمل وحده، وإنما في الإنسان أهواء وشهوات ورغبات، وتؤثر فيه عدة عوامل داخلية وخارجية، وكل ذلك يؤثر في أحكام العقل ويجعلها تحيد عن الصواب الواضح، الذي ما كانت لتحيد عنه لولا تلك الأمور.

والواقع قديماً وحديثاً فيه أدلة كثيرة تؤكد هذا الأمر. ومن أظهرها قضية الشرك، وغيرها من القضايا التي انقلب فيها الحق باطلاً، والباطل حقاً[١].

٤- إنه يوجد الكثير مما يغيب عن العقل، وهناك الكثير مما يحيد عنه العقل، وقد كان ينبغي له أن يلتزمه، ومن أراد السعادة الدنيوية والأخروية فإنه لا غنى له عن النبوة.

٥- ودعوى أن النبوة إن أتت متفقة مع العقل فلا حاجة لها، وإن خالفته فلا تقبل... الخ[٢]، قد تكررت أو تكرر معناها، مع بطلانها الظاهر، وكونها هي التي تضاد العقل، وقد سبق بيان ذلك قريباً.

وتكرارها على هذا النحو إنما يدل على أنه ليس لدى أصحابها سبب حقيقي يدفعهم إلى إنكار حقيقة النبوة، وأنه ليس إلا مجرد التحكم واتباع الهوى.

---

(١) انظر ما سبق: ٢٧١-٢٧٢، ٣١١.

(٢) انظر ما سبق: ٣٦٩.

القضية الخامسة: حول ادعاء قدرة العقل الوصول إلى معرفة العبادات ونحوها:

ويصل (العلماني) في نصرته لمزاعم مدعي الاستحالة إلى مرحلة يتبنى فيها آراءهم ويقررها مهما بلغت دركة بطلانها واستحالتها، فيدعي: (وإن كل ما يتوصل إليه بالسمع يمكن معرفته عقلاً، حتى الشرعيات والعبادات إن لم تعرف بخواصها فإنها تعرف بغاياتها)[1].

ومثل هذه الدعوى لا يخفى بطلانها على مؤمن بالله تعالى، وهي إنما تدل على مدى ما تبلغه أحلام مدعيها من الحمق والسفه والتحكم الذي لا مبرر له. ومما يقال لمفتريها:

١- كيف يمكن للعقل أن يدرك -بلا وحي من قبل الله جل ذكره- ما يريده تعالى من العبادات التي يتعبد بها عباده؟!. وكيف يدرك العقل وحده الصلوات وعددها وأركانها وأحكامها ومبطلاتها وسننها... الخ، ومثل ذلك يقال في أحكام وشرائع كافة العبادات؟!.

وكيف يدرك العقل دار المثوبة وما جاء فيها من تفصيلات لا تكاد تحصى؟!. وكيف يدرك دار العقوبة وما جاء فيها من تفصيلات متعددة؟!.

وغير ذلك من عقائد كثيرة أوجب الله تعالى الإيمان بها.

٢- ثم أين كان ذلك العقل قبل مجيء النبي محمد صلى الله عليه وسلم؟!. وأين ذلك العقل الذي وضع من عنده عبادات لا تشبه من أي وجه العبادات التي جاءت في الإسلام؟!!. فالعبادات الوضعية التي لا تعتمد على أي أصل ثابت قد جاءت به النبوات؛ إنما هي في حقيقة أمرها طقوس يتوجه بها أصحابها إلى أوثان، أو أية آلهة من دون الله تعالى، وهذه الطقوس كثيراً ما تكون عبارة عن رقصات وحركات وتصرفات تتنافى مع مفهوم العبادة الحقيقي.

وكذا الحال بالنسبة إلى التشريعات التي تحكم وتضبط تصرفات البشر في هذه الحياة، بما يحقق لمجموعهم السعادة الكاملة.

٣- وأما دعوى (العلماني): (أن العبادات إن لم تعرف بخواصها فإنها تعرف بغاياتها)؛ فمما يبطل زيفها:

إن الكيفية التي شرعت لأية عبادة؛ مطلوبةٌ لذاتها، كما أنها مطلوبة لما تحقق من غايات وحكم كثيرة، فلابد للإنسان أن يعبد ربه، ولابد أن يكون لهذه العبادة صورٌ وكيفيات وهيئات

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩.

تؤدي الغاية من العبادة. ولما كان المطلوب من هذه العبادة رضا الله تعالى، فإنه لا أحد -كائناً من كان- يستطيع أن يوكل نفسه نيابة عنه عز وجل في تحديد ما يرضيه، إلا إذا كان مأذوناً له بذلك، من قبله عز وجل. ولم يأذن جل ثناؤه لأحد في بيان ما يرضيه للبشر؛ إلا للأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم. ومثل ذلك الأمر يعتبر أمرا طبعيا عند البشر العاديين، فكيف بربهم تبارك اسمه؟!.

٤- ثم إن الغايات والحكم المطلوبة من أي، عبادة كثيرةٌ جداً، قد لا نستطيع إحصاءها في أكثر العبادات، فكيف نتوصل إلى تحديد كيفية للعبادة ترضي الله عز وجل؛ ولم نقدر على إحصاء جميع الغايات من وراء أية عبادة شرعها لنا جل شأنه؟!. ولو فرض أنه في عبادة ما قد أمكن مثل ذلك الإحصاء؛ فإن الإنسان العاقل الحكيم المنصف سوف يجد حتماً أنه لن يحقق تلك الغايات إلا العبادة التي شرعها الله جل شأنه، وبالصورة التي شرعها.

٥- إن الغاية من وراء العبادات والتشريعات ليس فقط مصلحة البشر في هذه الحياة، وإن كان هذا مقصوداً أساساً فيها، ولكن المقصود الأساس الأول هو رضا الله الخالق المنعم الحكيم جل وعلا، وإذا تحقق هذا المقصود، تحقق المقصود الآخر وهو مصلحة البشر في هذه الحياة، ومصلحتهم الحقيقية في الحياة الباقية غير الفانية.

القضية السادسة: حول التقابل بين السمع والعقل:

ادعى (العلماني): (استحالة أن يكون السمع أساس العقل لأن الأدلة والبراهين عقلية خالصة، لا سمع فيها)[١]، وفيما يلي الرد على هذا الادعاء الكاذب:

١- لقد تكرر في كلامه وضع السمع مقابل العقل كأنهما ضدان، وكأن ما يأتي عن طريق كل منهما؛ مضاد دواماً لما يأتي عن الطريق الآخر، مع أنهما طريقان للوصول إلى المعرفة، في أية درجة من درجاتها، حتى أعلاها الذي هو اليقين.

قد يصل الإنسان إلى معرفة حقٍ ما عن طريق الدليل العقلي، وقد يصل إلى معرفته عن طريق الخبر الصادق، وهو الدليل السمعي، وتكون المعرفة الحاصلة بأي من الطريقين مطابقة للمعرفة الحاصلة بالطريق الآخر، وبذلك يتعاضد الطريقان على إثبات المعرفة الحق.

٢- إن السمع يراد به القضايا التي جاءت بها النبوات وطالبت الناس بالإيمان بها، وبالالتزام بمقتضاها، وقد أوردت لكل منها الدليل الذي يناسبه.

فمن تلك القضايا أمور جعل الله تعالى في موازين العقول السليمة وفِطَرِها التي فَطَرَها عليها ما يدل عليه، ومن ثم فإن مثل تلك القضايا عندما تأتي في الرسالة الربانية؛ تأتي ومعها الدليل الذي يجعل العقل يسلّم بها اكتفاءً بدليلها الخاص بها، الذي يتوافق مع منهج التفكير العقلي السليم، وموازينه الفطرية.

ومن تلك القضايا أمورٌ؛ لا يوجد في العقول ما يوجب وصولها إليها بشكل كامل وقاطع، فقد تحتار في شأنها، بين النفي والإثبات، أو تحتار في تحديد الكيفية أو الصورة أو غير ذلك، وذلك عند وجود احتمالات كثيرات دون وجود مرجح قاطع، وقد يغيب عن العقل وجوه ويكون الحق فيها، ومع ذلك فإنه لا يوجد في العقل المنصف ما يرفض شيئاً ثبت في نصوص النبوة، فهذه تأتي النبوات بإثباتها بدليل خبري، يستند إلى الأدلة العقلية العامة الدالة على صدق الرسول عليه السلام في عموم ما جاء به من عند ربه تعالى[٢]. ثم إن العقل لو تفكر صاحبه بإنصاف في هذا الذي جاء إثباته في الشرع إثباتاً خبرياً -كهيئات العبادات مثلاً- لوجد فيه من الحكم ما لا يوجد في غيره من الاحتمالات الأخرى. فتكون هذه القضايا قد حملت دليلها العقلي، ولكنه ليس دليلاً منفصلاً عنها، وإنما هو دليل داخلي مستنبط من خلال التفكر في بواطن تلك الأمور.

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩.

(٢) انظر ماسبق: ٢٧١-٢٧٣.

٣- وأما العقل فهو الجهاز الذي لابد منه حتى يصبح الإنسان مكلفا ومسؤولاً عن أعماله، إذ به يفهم ما يلقى إليه، فيؤمن أو يكفر، وبه يعلم عواقب عمله فينفذه أو يكف عنه، وبفقده يسقط التكليف، وتسقط المسؤولية عن الإنسان. والعقل أيضاً لابد منه لينطلق الإنسان في مجالات المعرفة المختلفة.

٤- فالعلاقة بين السمع والعقل علاقة تكامل لا علاقة تقابل أو تضاد، فأخبار السمع الصحيحة، مع الفهم العقلي السليم وما فيه من موازين فطرية لم تنحرف عن الحق؛ يؤديان إلى جلب كل خير للإنسان وصرف أنواع الشرور عنه.

٥- وعلى ذلك فمن المغالطة القول: بأنه يستحيل أن يكون السمع أساس العقل، فالسمع يأتي بالقضايا والأحكام، والعقل فيه موازين لمعرفة الحق من الباطل، وهو القادر على فهم كل ما يلقى، فكل من السمع والعقل أساسٌ لابد منه.

٦- ومن المغالطة أيضاً القول: بأن الأدلة والبراهين عقلية خالصة لا سمع فيها، إذ ليس الدليل السمعي دليلاً خبرياً محضاً دواماً، بل هو في كثير من الأحيان دليل يجمع بين المنهج العقلي والخبري في الاستدلال. بالإضافة إلى أن وجوب التسليم بالخبر الصادق يستند إلى البرهان العقلي[(١)].

(١) انظر ما سبق: ٢٩٤.

القضية السابعة: حول ادعاء معرفة الحُسْنِ والقبح قبل السمع:

ادعى (العلماني): (أن معرفة الحُسْنِ والقبح واردة قبل السمع)[١].

ومسألة الحسن والقبح العقليين قد سبق بيان ما يَرِدُ عليها، وأما ادعاء أن معرفة الحسن والقبح واردة قبل السمع فإن مما يُرَدُّ به عليها:

١- أن الناس كانوا قبل مجيء النبوات في جهل مطبق، وهذا ما يثبته التاريخ المنقول، فأين تلك المعرفة المزعومة، أين هي عند المشركين، أو مستحلي المحرمات، أو غيرهم من الكفار والفجار؟!!.

٢- ثم إن آدم عليه السلام أبا البشر جميعاً قد تلقى تشريعات من عند الله عز وجل، ثم جاء بعده الرسل والأنبياء عليهم السلام تترًا[٢] إلى أقوامهم، إلى أن ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم، بحيث يصعب القول بأن الأرض قد جاءها وقت خلت فيها من أي أثر لنبوة منزلة من عند الله جل جلاله، ولهذا خاطب الله عز وجل كفار مكة بقوله في سورة القصص:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)﴾.

٣- وقد يعم الفساد وقد يعظم الانحراف عن دين الله القويم، ولكن ذلك لا يعني أن ما تبقى من الخير بين الناس؛ ليس متأثراً ببقية رسالة ربانية، مع تأثره بإحساس الناس الفطري بحسن ما تبقى لديهم من الخير، الذي لم يتعرض إلى الانحراف، كالذي تعرضت له سائر أنواع الخيرات.

٤- وعلى ذلك يمكن أن يكون لدينا دليل جديد على أن العقل ليس هو الموجه الوحيد لأعمال البشر، وإلا فما دام أن الخير هو الأصل، والانحراف عنه طارئ، فكيف لإنسان لديه عقل تام كامل؛ ينحرف عن الخير، إن لم تكن هنالك مؤثرات أخرى، تجعله يهوي إلى الانحراف، كاتّباع الأهواء والشهوات، وحب العاجلة من زينات الحياة الدنيا؟!.

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩.

(٢) تترًا: جاء في لسان العرب: جاؤوا تترى، و: تترًا، أي: متواترين. وأصله: وترًا. انظر لسان العرب: (وتر)/ ٧/ ١٣٧-١٣٨.

القضية الثامنة: حول إدراك التوحيد والعدل بالعقل:

ادعى (العلماني): (أنه قد أمكن إدراك التوحيد والعدل بالعقل، وهما البابان الرئيسيان في العقليات، وهي الإلهيات)[١].

في هذا القول إعادة وتكرير لما سبق أن كُشِفَ زيفه فيه، وملخص الرد هنا:

١- أن إدراك التوحيد والعدل بالعقل غير ممتنع، ولكن يقال أين كان أثر هذا الإدراك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد عم الشرك ومظاهر الظلم في الأرض، حتى كادت أن تخلو عمن يوحد الله حقاً، وعن أي مظهر حقيقي للعدل بين البشر؟!.

٢- وأين هو هذا الإدراك العقلي عند سائر الأمم من غير المسلمين في أيامنا هذه، وهي متأرجحة بين الشرك، أو الإلحاد الكامل وجحد وجود الله جل شأنه بالكلية؟!. وأين هذه الأمة التي تطبق العدل الحقيقي بين أفرادها؟!. أما الأمة الإسلامية فإن الظلم المنتشر فيها؛ سببه الانحراف عن تطبيق أحكام الله جل شأنه المنزلة، والتي يكفل تطبيقها على الوجه الأكمل تحقيق العدل التام بين أفرادها.

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩.

القضية التاسعة: حول ادعاء تحدي العقل والشيطان للنبوات:

ادعى (العلماني): (أن الإنسان بعقله قادر على تحدي النبوة، مثل قدرة الشيطان الذي طلب الاستمهال فَاسْتُمْهِل)[١].

وهذه الدعوى تدل على مدى الحقد الذي يكنه هذا (العلماني) وأضرابه تجاه النبوات المنزلة، وتدل كذلك على دركة الكفر والسخف العقلي التي هوى إليها. وظاهر أن فكرة التحدي تلك فكرة ساقطة، ويقال لمدعيها:

١- فهل في بيانات النبوة أخطاء يتحداها العقل بها؟!.

٢- وهل في بيانات النبوة تقصير عن بيان ما هو المقصد من بعث الرسل وإنزال الكتب؟!.

لقد جاءت بيانات الدين على أكمل وجه يحقق سعادة الناس، وسكتت هذه البيانات عن أمور تجاوز الله عنها، رحمة بعباده، ودلت النصوص على أن بيانات الشارع اشتملت على تفصيل كل شيء هدى ورحمة للمؤمنين، فقال الله عز وجل:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ يوسف -عليه السلام-.

﴿ما كان حديثا يفترى﴾ أي: القرآن ليس حديثاً مكذوباً على الله جل شأنه.

﴿تفصيل كل شيء﴾ أي: تبيين كل شيء، مما هو المقصود من إنزال الرسالات الربانية[٢].

وقال جل جلاله:

﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾ النحل.

﴿تبيانا لكل شيء﴾ أي: كل شيء من الأمور التي من أجلها أنزل الله الكتب وأرسل الرسل[٣].

ونحو ذلك ما ذكره جل شأنه عن التوراة التي أنزلها إلى موسى عليه السلام:

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) انظر: فتح القدير؛ الشوكاني: ٦١/٣. و: التحرير والتنوير: ٧٢/١٣.

(٣) انظر: فتح القدير: ٨٧/٣. و: التحرير والتنوير: ٢٥٣/١٤.

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤)﴾ الأنعام.

٣- وهل يظن عاقل أن سبب التحدي وجود سباق بين النبوة والعقل للوصول إلى الحق؟!. إن النبوة عند من آمن بها الإيمان الصحيح؛ آتية من عند الحق جل شأنه. وهي شاملة لكل حق يريد الله تبارك اسمه من البشر أن يلتزموا به. والعقل غايته البحث عن الحق، وسواء فهمه عن طريق فهمه لنصوص الشرع، أم عن طريق فهمه لسنن الحياة والكون؛ فإنه ينبغي لمن عرفه أن يلتزم به الالتزام الأمثل. فليس يوجد سباق تنافس بين النبوة والعقل للوصول إلى الحق.

٤- من أجل ذلك ينتفي أيضاً ظن أن العقل قد يتحدى النبوة ليثبت لها أنه يمكنه الوصول إلى الحق من غير مساعدتها، إذ لا يرفض عاقل مساعدة تأتيه من عليم وناصح ومحب ومريد للخير، وليس لديه إلا كل نفع وخير وصلاح له. ولا سيما أن الواقع قد أثبت عدم استطاعة العقل بمفرده أن يهدي الإنسان إلى كل ما فيه خيره من أمر الدين عاجلاً وآجلاً، وأن يُثَبّتَهُ عليه. بالإضافة إلى أنه لم توجد في تاريخ الناس دعوة قائمة على أسس الحق، التي جاءت بها الرسالات الربانية، ودعت الناس إليها، فآمن بها من آمن ، وكان لهم وجود ظاهر في التاريخ، ومسيرة كان لها أكبر الأثر في الحياة الإنسانية؛ وكان مصدرها العقل وحده.

٥- وليس وراء هذه الاحتمالات معنى ظاهر لذلك التحدي المزعوم، وكل تلك الاحتمالات غير واردة أصلا، فلا معنى لهذا الإيراد.

٦- إن الأشد غرابة من ذلك التحدي المزعوم؛ هو: قياسه على تحدٍ مزعوم آخر نسبه (العلماني) إلى الشيطان، وقال: (إنه طلب الاستمهال فاستهمل)[1]!!.

فهل كان إبليس عندما طلب من ربه جل شأنه أن يمهله إلى يوم البعث، يتحدى بقدرته ربه -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-؛ أنه سيعمل على إضلال الناس؟!، أو كان يتحدى أنبياء الله ورسله عليهم السلام؟!.

٧- إن إبليس قد عرف من خصائص هذا المخلوق وعرف من صفاته؛ ضعف أكثر أفراده تجاه الأهواء والشهوات، وانقياد أكثرهم لدعاة الضلال، الذين يزيّنون لهم مسالكه، باستثارة أهواء نفوسهم وشهواتها، وبالتأثير على عقولهم بالشبهات. مع علمه التام بأنه سيوجد فريق من عباد الله المخلصين يستعصون عليه، ولن يجد إليهم سبيلاً، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) انظر ما سبق: ٣٦٩-٣٧٠.

"لما صوّر الله آدم في الجنة؛ تركه ما شاء الله أن يتركه. فجعل إبليس يُطِيفُ به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوفَ؛ عرف أنه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك"(١).

وحتى جبريل عليه السلام قد خشي ألا يدخل الجنة أحد، بسبب ما أحيطت به من المكاره، وألا ينجو أحد من النار، بسبب ما أحيطت به من الشهوات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"لما خلق الله الجنّة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أيْ ربّ، وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. ثم حفها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب، فنظر إليها، ثم جاء فقال: أيْ ربّ، وعزتك لقد خشيتُ ألا يَدْخُلَها أحد. فلما خلق الله النار، قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فحفها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: أي رب، وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها."(٢).

ولذلك فإن إبليس عندما طرده ربه جل شأنه من رحمته لمخالفته الأمر كِبْراً، وطلب من الله سبحانه أن يمهله إلى يوم يبعثون، فأعلمه الله بأنه سينظره إلى قيام الساعة؛ عندئذ أبان إبليس غرضه من هذا الإمهال، وهو إغواء ذرية آدم، بدعوتهم إلى كل ما لا يرضي الله سبحانه، وتزيينه لهم، وصرفهم عن كل ما يرضيه جل جلاله، وتنفيرهم منه. قال تعالى:

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾ الأعراف.

٨- وإبليس -لعنه الله- في حقيقة الأمر لا يتحدى ربه عز وجل، لأنه عالم بقدرته تعالى

---

(١) رواه مسلم وأحمد والحاكم وأبو يعلى والطيالسي وعبد بن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، واللفظ لمسلم. صحيح مسلم: ٢٠١٦/٤/ ح: ٢٦١١. وانظر: مسند أحمد: ١٥٢/٣، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٥٤. و: المستدرك على الصحيحين: ٩٣/١/ ح: ١٠٥، ٥٩١/٢/ ح: ٣٩٩٢. و: مسند أبي يعلى: ٦٨/٦/ ح: ٣٣٢١. و: مسند أبي داود الطيالسي: ٢٧٠/ ح: ٢٠٢٤. و: المنتخب من مسند عبد بن حميد: ٤٠٧/ ح: ١٣٨٦.

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وأحمد وابن حبان والحاكم وأبو يعلى عن أبي هريرة، واللفظ لأبي داود. وقد قال الألباني في صحيح سنن أبي داود والترمذي والنسائي: حسن صحيح، كما قال كذلك الترمذي عن روايته. سنن أبي داود: ٢٣٦/٤/ ح: ٤٧٤٤. وانظر: مسند أحمد: ٣٣٢/٢، ٣٥٤، ٣٧٣. و: سنن الترمذي: ٦٩٣/٤/ ح: ٢٥٦٠. و: سنن النسائي: ٣/٧٠/ح: ٣٧٦٣. و: السنن الكبرى؛ له: ٣/ ١٢١/ح: ٤٧٠٢. و: صحيح ابن حبان: ١٦٠/ ٤٠٦/ ح: ٧٣٩٤، وقال المحقق: شعيب الأرناؤوط: حسن. و: المستدرك على الصحيحين: ٧٩/٩/ ح: ٧١، ٧٢، وقال الحاكم عن الرواية الأولى: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. و: مسند أبي يعلى: ١٠/ ٣٤٥/ ح: ٥٩٤٠، وقال المحقق: حسين أسد: حسن. ومعنى: "حُفَّت" أي: أحيطت وأحدقت واستدار حولها. انظر: مادة (حفف) في: لسان العرب: ٣٩٤/١٠. و: المعجم الوسيط: ١٨٥/١.

وعظمته جل شأنه، بل إنه عندما أقسم له؛ اختار من صفاته تعالى: صفة العزة. قال الله عز وجل في حكاية ما قال إبليس:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ ص.

والعزة: القوة الغالبة، والعزيز: القوي الغالب، الذي لا يُغلب[1].

فإبليس يعلم عزة الله جل شأنه وغلبته، وأنه لو شاء لقصمه ومنعه، فما أضل أحداً. وكذلك هو يعلم أنه ليس له سلطان حقيقي على الناس حتى يضلهم. وأن غاية ما لديه هو الوسوسة، ودعوتهم إلى اقتراف الآثام، وتزيينها لهم، مستغلاً في ذلك ما جُبل عليه الناس من محبة للشهوات. قال سبحانه مبيّنا مقالة إبليس لمن اتبعه من الغاوين:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم...(٢٢)﴾ إبراهيم -عليه السلام-.

٩- فتمكين الله عز وجل الشيطانَ من إغراء البشر وإغوائهم، بوساوسه وتسويلاته؛ كان بإذن منه جل شأنه، لتتم ظروف الابتلاء في الدنيا. فكما يوجد داعٍ للخير؛ يوجد داعٍ للشر، وكما توجد في النفس محبة للخير والحق؛ يوجد فيها ميل إلى الشهوات. فمن أراد لنفسه النجاة اتَّبعَ داعي الحق، وغالب هواه وشهوته، وما يلاقيه من الصعوبات في سبيل اتباعه الحق. ومن أتْبع نفسه هواها، وأصغى سمعه لدعاة الضلال؛ فلا يلومَنَّ إلا نفسه. قال جل شأنه مبيناً أنه هو الذي أذن لإبليس بالأساليب التي يتبعها مع البشر، ليتبين الصالح من الفاسد:

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥)﴾ الإسراء.

فهناك فريق من عباد الله المخلصين؛ يعلم الشيطان علما يقينيا مسبقاً بأنهم سوف يستعصون عليه، ولن يجد سبيلا لغوايتهم.

والاستفزاز: طلب الفز، وهو: الخفّة والانزعاج، والمراد أي: استزعج واستخف من استطعت من بني آدم. والصوت هنا المراد به وسوسة إبليس وأعوانه في صدور الناس. والمعنى:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ١/ ١٨٤، ٤/ ٣٤٣. و: تفسير فتح القدير: ١/ ٥٢٦.

استخفهم بصوتك ووسوستك، داعياً لهم إلى المعصية[١].

والإجلاب: مشتق من الجَلَبَة، وهي الصياح، أي: (صِحْ عليهم)، وقيل المعنى: أي اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك.

والخيل: اسم جمع الفرس، ويقع على الفرسان.

رَجِلِكَ: الرَّجِل: الماشي على قدميه، الذي ليس له ظهر يركبه، وهو مثل راجل[٢].

أي اجمع عليهم فرسانك والمشاة. والمعنى: اجمع لمن اتبعك من ذرية آدم وسائل الفتنة، والوسوسة لإضلالهم. وقد شبهت هذه الوسائل المتنوعة بالجيش الغازي، الذي يجمع أصنافاً متنوعة من المقاتلين: من راكبين وراجلين[٣].

١٠- والشيطان ليس مختصاً بالجن، فإن من الإنس شياطين، وكلاهما يتآزران في سبيل إفساد الناس وإضلالهم، عن سبيل الهدى والرشاد. قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣)﴾ الأنعام.

وهنا يؤكد جل شأنه أنه لو شاء لما مكَّن هؤلاء الشياطين من إضلال البشر. ولكن ليميز الخبيث من الطيب، ولينال كلٌّ ما يستحقه من الجزاء.

١١- فالتحدي غير وارد أصلاً بين الله تبارك وتعالى والشيطان، ولا هو موجود كذلك بين النبي عليه السلام والشيطان. فالنبي عليه السلام يدعو إلى كل خير، وقد أدى مهمته على أكمل وجه. والشيطان يدعو إلى الضلالة، وهو يؤدي مهمته كذلك. والإنسان هو الذي يجب عليه أن يختار بين السبيلين.

١٢- فإذا انتفى التحدي؛ فمن أين جاء ذلك القياس الباطل بين العقل والشيطان؟!، وهل وظيفة العقل هي وظيفة إفساد وإضلال، حتى يقاس على الشيطان؟!.

---

(١) انظر: فتح القدير: ٣/٢٤١. و: التحرير والتنوير: ١٥/ ١٥٣.
(٢) انظر: لسان العرب، مادة: (رجل)/ ١٣/ ٢٨٤ - ٢٨٥.
(٣) انظر: فتح القدير: ٣/ ٢٤١ - ٢٤٢. و: التحرير والتنوير: ١٥/ ١٥٣ - ١٥٤.

١٣- إن فكرة التحدي بين العقل والنبوة، أو قياس تحدي العقل المزعوم على تحدي الشيطان؛ لا يُظَنُّ بأن أحداً من الأقدمين، قد قالها، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين نُسَبَ إليهم القول بإستحالة النبوة. غاية ما هنالك ما نُقِلَ عن بعضهم من القول: بأن للمكلف الاستمهال حتى يَنْظُرَ، ويصل عن طريق النظر إلى العلم بالمرسِل جل وعلا، وهذا غير مقدر بزمان، ومن ثم يلزم إفحام النبي عليه السلام[١]. وقد سبق الرد على هذه الشبهة[٢]. ولكن ليس فيها أن العقل يتحدى النبي عليه السلام بالمعنى الصحيح، وإنما جلّ ما فيها تلاعب مستند إلى مفهومات باطلات عند بعض فرق المسلمين الضالة، بحيث إن ظُن أن هناك إفحاماً؛ فهو يلزمهم، دون غيرهم من الفرق، فضلاً عن النبي عليه السلام[٣].

١٤- ويغلب على الظن أن دعوى تحدي العقل للنبوة إنما مصدره الخيال المريض لناقل الشبهةِ المعاصر، إذ هي قد صيغت بأسلوب ضعيفٍ يتنافى وأسلوب الأقدمين، حتى عند نقلهم لشبهات الخصوم، فإنهم يسوقونها على غاية ما يمكن أن تصاغ عليه، بل ويجمعون لها كل ما يمكن أن تستند إليه، حتى مما لم يخطر على بال أصحابها، ثم يبطلون ذلك كله.

وأما ناقل هذه الشبهة فقد خُيِّل إليه أولاً دعوى وجود تحدٍ بين العقل والنبوة، وربما يكون مصدر ذلك التخيل من: فكرة طلب الاستمهال للنظر، المذكورة سابقاً. ثم خطر له أن الشيطان قد طلب مثل ذلك الاستمهال، فخيل له ثانياً أن هذا أيضاً نوع من التحدي بين الشيطان والنبوة. وبلغ القمة في التخيل المريض؛ عندما توهم أنه توجد مشاكلة ما بين تحدي العقل وتحدي الشيطان، فقاس أحدهما على الآخر. فكان عمله في هذا كله عبارة عن أوهام وخيالات ومغالطات بعضها

---

(١) انظر: المواقف: ٣٤٣.

(٢) انظر ما سبق: ٣٦٤-٣٦٥.

(٣) مثل هذا الإفحام وُجّه إلى المعتزلة، على اعتبار أنه لازم لمذهبهم، لا أنهم يقولونه، أو يلتزمون به. فقد ذُكِرَ أن المعتزلة - أو بعضهم- يقولون: بأن للمكلف طلب المهلة للنظر، فوجه إليهم: أنه يلزم على ذلك إفحام الأنبياء عليهم السلام، إذ المهلة لا حد لها. أي كما نقل عن بعض القائلين باستحالة النبوة؛ أنهم سلكوا هذا المسلك، وقد سبقت الإشارة إلى هذا النقل، والرد عليه. انظر ما سبق: ٣٦٤-٣٦٥. وقد نُقل ذلك عن المعتزلة في المواقف: ٣٤٣. وانظر: غاية المرام: ٣٣٨-٣٣٩.

وعلى كل حال وبعيداً عن المناقشة حول مسألة المهلة؛ فإنه حتى عند من استخدمها ليفحم الأنبياء عليهم السلام بزعمه، إن وجد مثل هذا الفريق فعلاً؛ فليس في طلبها أي تحدٍ حقيقي من العقل للنبوة، بقدر ما فيها من استخدام أسلوب التلاعب، للتهرب من التزام الحق.

فوق بعض[1]، لا يصح أن تصدر عن جاهل يدعي العلم، جائر يدعي الإنصاف، عدو للحق والخير يدعي حبهما والبحث عنهما. ولا يقع في مثل هذه المغالطات إلا من كانت له غاية محددة هي همه الأكبر، وهي العمل على إبطال الحق. ومثل هذه الغاية تُعْمي صاحبها عن أي خطأ ومغالطة يقع فيها للوصول إليها، مهما كان ذلك الخطأ ظاهراً، ومهما كانت المغالطة كاشفة -في واقع الأمر- عن حقيقة حاله، وهو لا يشعر، وقد يشعر، ولكن كل شيء يهون في سبيل تلك الغاية الشيطانية الخبيثة!.

(١) انظر: النبوة؛ حنفي: ٥٤٦، هـ: ٧٦. إذ ذكر فيه ما نُقل عن المعتزلة من أن مذهبهم طلب الإمهال للنظر، ثم استدل لهذا استدلالاً عجيباً بقوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً(١١)﴾ المزمل. وقوله ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (١٧)﴾ الطارق. وذلك لمجرد ورود الإمهال للكافرين فيها، دون النظر في معنى هذا الإمهال والمراد منه!.

إن من يقرأ قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً (١٢)﴾ المزمل. وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١٥) وَأَكِيدُ كَيْداً (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (١٧)﴾ الطارق. فهل يغيب على من يقرأ ذلك ولو كان أمياً لم يتلق حرفاً واحداً من العلم؛ أن الإمهال الوارد في الآيتين هو من باب التهديد الصريح؟!. فهؤلاء الكفار قد نوقشوا بالحجة والبرهان، ولكنهم أصروا على الكفر والضلال، فَطُلِبَ من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتركهم ويمهلهم، حتى ينزل الله جل شأنه بهم عذابه، الذي لا يرد عن القوم المجرمين. فمن الكفار فريق قال عنهم تبارك اسمه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ البقرة، فهؤلاء قد وصلوا في الكفر إلى دركة لم يعد ينفع معها أي دعوة، فليس يفيد معهم إنظار ولا إمهال، على الوجه الذي قصدته المعتزلة، وإنما هو انتظار أن يأخذهم الله سبحانه، وينزل بهم عقابه. وهذا الإمهال الوارد في هذه الآيات كالإنظار الوارد في مثل قوله جل شأنه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ يونس -عليه السلام-، فهل يفهم من هذا كله إلا الوعيد والتهديد الشديد؟!. وماذا يفهم من قول مَلِكٍ لخارجٍ عليه: انتظر وسترى ما سأفعل بك؟!.

إن الإمهال والإنظار الوارد في الآيات السابقات ليس في حقيقة الأمر يحتاج إلى شرح وإيضاح لمعناه، إذ المعنى أظهر من أي شرح يمكن أن يتناوله. وهذا يعني أن الاستدلال بهذه الآيات على مسألة طلب الكافر المهلة للنظر؛ إنما يبين إلى أية دركة يمكن أن يتسفل إليه أفهام الذين يريدون التطوير والتجديد، بأية صورة وأي شكل، ولو كان ذلك على حساب أبسط قواعد الفهم السليم للعقل، الذي يزعمون أنهم يناصرونه، وهو منهم بريء.

ويأبى حسن حنفي إلا أن يؤكد لنا هذا الأمر، فلم يَكْتَفِ بالاستدلال على طلب الكافر للمهلة بالآيات السابقات، بل إنه كذلك قاس هذه الإمهال عن الإمهال والإنظار الذي طلبه الشيطان من الله عز وجل ليتمكن من إغواء بني آدم، فكلاهما -بزعمه- قد طلب هذا الأمر من باب التحدي. وهذا هو الذي فهمه من آيات إمهال الكافرين، ومن آيات طلب إبليس الإنظار إلى يوم الدين!. وأي خلط بين الأمور التي لا علاقة بينها، وأي سوء في الفهم يمكن أن يتصور بعد هذا؟!. إن مثل ذلك الهراء لو لم يكن مكتوباً قد أخرجه صاحبه في كتاب يريد أن يجدد به الدين وأصوله، لَعُدَّ من باب الطُّرف التي يحكيها الإنسان عن خصمه، مُتَزيّداً عليه في النقل، ليضحك الناس منه.

ولكن الله جل جلاله يفضح أهل الأهواء من ثنايا ما يصرحون به ويظهرونه.

القضية العاشرة: مناقشة (العلماني) لدعوى الخواطر، واعتماده عليها للوصول إلى إلغاء الحاجة إلى النبوات مطلقا، وإلى إبطال كثير من الحقائق التي جاءت بها:

ادعى (العلماني): (أنه يوجد في كل عقل خاطران: خاطر للاقدام من الله، وخاطر للإحجام من الشيطان، وللإنسان حرية الاختيار بين الخاطرين أو الباعثين. الخاطران في القلب، الأول يدعو للحق، والثاني يدعو للباطل، ويقع التكليف بوقوع هذه الخاطرين.

ولا يعني تعارض الخواطر الشك وتكافؤ الأدلة؛ بل تعني حرية الإنسان وضرورة اختياره بين الخير والشر.

وقد يكون خاطر الدعوة إلى الطاعة أمراً خفياً للطاعة من الله، يقابله أمر خفي للعصيان من الشيطان.

وقد يكون الخاطر قولاً جلياً من الله بلا واسطة، أو بتوسط رسول مقرون بمعجزة.

وقد يكون الخاطران مجرد باعثين في القلب على الإقدام والإحجام، أحدهما للطاعة، والثاني للمعصية، من أجل الاختيار بينهما، دونما حاجة إلى تجسيم أو تشخيص أو تشبيه!، وإلا لزم في حال الشيطان تكليفه بخاطرين، واحد من الله، والآخر من شيطان آخر، ويتسلسل الأمر إلى ما لا نهاية.

والحقيقة أن الخواطر إنما هي البواعث النفسية والمرجحات العقلية، التي تجعل الإنسان يختار بينهما، وهي أقرب إلى طباع النفس وميولها ورغباتها، ما تميل إليه النفس وما تنفر منه طباعاً، فالعقل والطبيعة صنوان)[١].

إن هذه الدعوى العريضة عن الخواطر تشتمل على أباطيل وزيوف عديدة، فمنها:

أولاً: إن الأساس الذي بنيت عليه تلك الدعوى أساس باطل، إذ هي مبنية على ثبوت التكليف للإنسان بمجرد الخواطر، وبطلان هذا الأساس يتضح بما يلي:

١- إن القول بالتكليف بمجرد الخواطر، هو قول مَن يذهب إلى تكليف الإنسان، ولو لم تبلغه دعوة رسول من الله جل شأنه[٢]، ولكن الله سبحانه قد بيّن أنه لن يعذب الناس مجازاةً لهم على أعمالهم السيئة قبل أن يكون قد أعذر إليهم برسول يبعثه، وهو يبلغهم رسالة الله تعالى إليهم،

---

(١) انظر ما سبق: ٣٧٠.

(٢) انظر في مسألة القول بالخواطر عند المعتزلة: أصول الدين؛ البغدادي: ٢٤-٢٨.

ويبشر من أطاع بالثواب، وينذر من عصى بالعذاب، وبذلك تنقطع أيةحجة، يمكن أن يعتذر بها المسيئون إذا وقفوا للحساب والجزاء. قال تبارك اسمه:

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥)﴾ النساء.

وقال جل جلاله:

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ الإسراء.

وهذا من رحمة الله جل شأنه بالبشر، وهل يرفض مثل هذه الرحمة عاقل ويصرّ على أن يحكم على من لم تبلغه دعوة رسول قط بأنه مؤاخذ، لأنه لم يَهْتِدَ عن طريق الخواطر إلى ما جاء به رسل الله عليهم السلام؟!.

٢- ثم إنه كيف عن طريق الخواطر وحدها تنظم علاقة الرجل بالمرأة على سبيل المثال؟!. وأين هذه الخواطر أمام هذه الفوضى الخلقية المنتشرة في العالم؟!. إن الإنسان لو تُرِكَ ومقتضى خواطره لما كان منه أي التزام بحدود تنظم علاقته بالمرأة، بل قد يصل به الحال إلى اعتبار أن الواجب هو إطلاق الحريات الجنسية -كما تسمى- من غير أي ضابط، والواقع الحالي يشهد لهذا ويؤكده، وهذا مع وجود أحكام الدين الإسلامي التي لم تُحرَّف، وبقايا من أحكام الشرائع السابقة التي أنزلها الله تعالى، وبقيت فيها نصوص تحرم العلاقة غير المشروعة بين الرجل والمرأة، وإن كان كثير من أرباب تلك الديانات المحرفة قد صاروا يبدلون حتى هذا النذر اليسير من الحق، الذي نجا من تحريف أسلافهم.

فأين هذه الخواطر التي يمكن أن يُركن إليها وتكون أساس التكليف في هذه المسألة الواحدة؟!. وأين أحكامها الحامية للمجتمع البشري من المخاطر الجسيمة، ومن العواقب الوخيمة، وهي أحكام قد جاء إثباتها في النصوص الشرعية، وهي أيضاً من الأمور التي ينبغي للعقل السليم أن يصل إليها، ورغم هذا كله؛ فأين هي عند أمم الأرض التي لا تطبق شرع الله عز وجل؟!. ثم كيف الحال في سائر القضايا، التي ربما اشتبه الأمر في بعضها؟!.

٣- إن الخواطر ولو استندت إلى مرجحات عقلية لا تكفي وحدها لجعل الإنسان يسلك سبيل الهدى، لأنه سيضطر إلى مخالفة الكثير من أهوائه الجامحة ونزواته، ورغباته، ولكنه في معظم أحواله؛ أسيرٌ لها، يتبعها وهو منطمس البصيرة.

والإنسان لا يستطيع أن يكبح تلك الشهوات والرغبات، والأهواء الجامحة؛ ما لم يؤمن إيماناً حقاً بأنه مكلف مسؤول أمام قوي عزيز قادر، سينزل به عقابه الشديد، إذا لم يلتزم الحدود التي شرعها له.

٤- ثم إن هناك ملحظ هام وأساسي وخطير، وهو جوهري في هذه القضية ألا وهو اختلاف الناس في خواطرهم، بل اختلاف الخواطر لدى الإنسان نفسه بين حال وأخرى. فالناس لا يجتمعون على خاطر واحد تجاه القضية الواحدة.

ثم إن الإنسان الواحد تختلف خواطره تجاه القضية الواحدة من حال لأخرى، فاليوم يرى فيها رأياً...، وغدا يرى فيها رأياً آخر. فأي نوع من الخواطر يتبع الناس تجاه قضية ما، وهم مختلفون؟!. وأي خاطر يتبعه الإنسان تجاه قضية بعينها؛ حين تعصف به الخواطر من النقيض إلى نقيضه؟!. وأين الحق في كل هذا؟!.

٥- وأما تأنيب الضمير فهذا بمجرده دون عوامل مساعدةٍ -أهمها الإيمان بالخالق الحكيم وبجزائه العدل- لا يكاد يوجد له أثر في السلوك. ووجود المجازي من البشر كذلك لا يكفي لردع الناس عن تجاوز الحدود، إذ من السهل خداعه. وكذا ما يتعلق بتضارب المصالح، وأن على الإنسان أن يلتزم حدوداً، لتحقق له ولغيره المصلحة، فالإنسان كثيراً ما يعتدي على بني جنسه، في محاولة منه للاستئثار بالنصيب الأكبر من المنافع، ولو استطاع أن لا يدع لغيره شيئاً، فعل. ومن نظر إلى أعمال المستعمرين والمحتلين في الأرض؛ لوجد أمثلة لا حصر لها، تدله على مدى تأصل صفة الطمع والاستئثار في نفوس البشر[1].

٦- إن ما سبق لا يعني عدم وجود داع من داخل الإنسان يدعوه إلى فعل الخير، ويزينه له، وآخر يدعوه إلى المعصية ويزينها له، ولكن الإنسان -ولكي يتمكن من التفرقة بين داعي الخير وداعي الشر الداخليين-؛ لابد أن يكون عنده منهج محدد معلوم له سابقاً، يبين له الخير، ويبين له الشر، ويفرق بينهما، بحيث لا تشتبه عنده الأحكام. ومن ثم فإنه إذا شعر بداعٍ يدعوه إلى أمر؛ استطاع من خلال عِلْمِه بذلك المنهج، وإيمانه بحقائقه؛ أنْ يعلم إذا كان هذا الداعي داعي خير، ينبغي له أن يجيبه؛ أم أنه داعي ضلالة، ينبغي له أن يصرفه عنه، ويتطهر منه.

والطريقة التي يُعْلَم بها هذا المنهج هي التي دار حولها النقاش فيما سبق، بين المؤمنين بالنبوات؛ ومدعي كفاية العقل في ذلك.

ثانياً: وأدرك (العلماني) أنه سيصطدم باعتراض خطير على دعواه، وهو تعارض الخواطر

---

(١) إن: حسن حنفي كثيراً ما يردد عبارات التأثر على واقع الشعوب المغلوبة المضطهدة، المستعمرة المغلوبة على أمرها. وهل فعل فيها ذلك إلا شعوب أخرى، قد بلغت أقصى درجات الطمع والأنانية؟!.

إلى حدٍ يوقع في الشك، فقال: (وإنه لا يعني تعارض الخواطر: الشك، وتكافؤ الأدلة، بل هو يعني حرية الإنسان، وضرورة اختياره بين الخير والشر)(١).

ومما يبطل دعواه:

١- إن الخواطر وإن كانت قد تعتمد على مرجحات عقلية أحياناً؛ فكثيراً ما يقع تعارض فيما بينها، يؤدي إلى الشك حتماً، إذ توجد أمور كثيرة يحتار العقل في شأنها. وادعاء عدم وجود مثل هذا الأمر مكابرة للحقائق.

وهذه الخواطر تتعارض بين الأفراد إلى حد التناقض أو التضاد.

٢- والحال التي عليها (العلماني) مثال واضح لفساد الخواطر، وزيفها، لدى الكثيرين من الناس.

إن أقواله مليئة بالخواطر الفاسدة والضالة، والمعارضة للحق الذي بعث الله تعالى به الأنبياء والرسل عليهم السلام. وخواطره هذه قد ساقته إلى إلغاء ركن الإيمان بهم عليهم السلام، من أركان الإيمان، وإلى الكفر بهم، وجحد ما جاؤوا به بلاغاً عن الله رب العالمين، متعللاً بالاكتفاء بالعقل. وهل ساقه إلى الضلال المبين والكفر البواح؛ إلا زعمه الاستغناء بالعقل عن النبوات؟!.

ثالثاً: وبأسلوب تخايلي أخذ (العلماني) يطرح احتمالات عدة لمصدر تلك الخواطر، ويرفض كل احتمال حق لا يرتضيه اتباعاً للهوى والشيطان، ومن ذلك احتمال إرسال الأنبياء والرسل عليهم السلام، فقال: (إنه قد يكون خاطر الدعوة أمراً خفياً للطاعة من الله، يقابله أمر خفي من الشيطان، وقد يكون الخاطر قولاً جلياً عن الله بلا واسطة، أو رسول مقرون بمعجزة، وقد يكون الخاطران مجرد باعثين في القلب على الإقدام أو الإحجام، أحدهما للطاعة، والثاني للمعصية، من أجل الاختيار بينهما دونما حاجة إلى تجسيم وتشخيص أو تشبيه)(٢).

والواقع أنه في هذا الكلام يخلط الحق بالباطل، على سبيل طرح الاحتمالات للتبليس، وتضييع الحق في ركام احتمالات يطرحها. والحق في هذه المسألة يتبين من خلال النقاط التالية:

---

(١) انظر ما سبق: ٣٧٠.

(٢) انظر ما سبق ص ٣٧٠. وعبارة: (وقد يكون الخاطر قولاً جليا من الله بلا واسطة)، قد ذكرها عبد القاهر البغدادي، وأراد بها أن الإيحاء من الله تعالى -والذي يتضمن تكليفاً- قد يكون قولاً جلياً من الله بلا واسطة، وهذا لا يكون إلا بالنسبة للرسل عليهم السلام، لأن كلام الله الجلي والمتضمن تكليفاً؛ نوع من أنواع الوحي كما هو معلوم، وهو لم يثبت إلا للرسل عليهم السلام، بل ولم يثبت إلا لموسى ومحمد صلوات الله عليهما. انظر بالنسبة للعبارة المذكورة: أصول الدين؛ البغدادي: ٢٧-٢٨.

١- إن الخواطر لها عوامل متعددة، فالخواطر الداعية إلى فعل الخير:

* تكون من الله جل جلاله عند الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

* وتكون من داعي الخير الموجود في نفس كل إنسان، وهو القرين من الملائكة عليهم السلام.

* وتكون من الفطرة الخيرة التي فطر عليها كل إنسان، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

"ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهمية جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء...".

ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه - راوي الحديث-:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[1].

وهذه الآية التي ذكرها أبو هريرة رضي الله عنه، تبين لقارئها ومتدبرها معنى الفطرة الوارد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي قول الله عز وجل:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ الروم.

ففطرة الله التي فطر الناس عليها هي الدين القيم: الإسلام[2]، أي إن الله تبارك اسمه قد جعل في أعماق النفس الإنسانية فطرة طيبة مقتضية لكل خير وصلاح، ولو خلّي بينها وبين مقتضاها؛ لما نشأ صاحبها إلا نشأة طيبة، متصفا بكل صفةٍ حميدة، مبتعداً عن كل رذيلة. ولكن عوامل التربية السيئة، والتوجيه الداخلي والخارجي، الذي يحيط بالإنسان، ويزين له السوء، وغير ذلك من العوامل؛ كل ذلك يجعل الإنسان ينحرف عن مقتضى فطرته الخيرة.

٢- وفي المقابل فإن خواطر السوء في الإنسان ناشئة عن أمور مقابلة لتلك التي سبق بيانها، فهي ناشئة عن:

أ- الدعاة إلى الآثام والرذائل، من كل منحرف عن الحق والفضيلة، إذ اتخذ الشيطان وَلِيّاً له.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد سبق تخريج الحديث: ٨٢. والآية: (٣٠)، من سورة الروم.

(٢) انظر: شفاء العليل؛ ابن قيم الجوزية: الباب الثلاثون: في ذكره الفطرة الأولى ومعناها...، من: ٤٧٠، وما بعدها.

ب- الداعي الباطني في نفس الإنسان إلى الشرور والضلالات، وهو القرين من الجن، والذي لا يألو الإنسان خبالاً. قال صلى الله عليه وسلم في بيان القرين من الملائكة عليهم السلام، والقرين من الجن:

["ما منكم من أحد إلا وقد وُكّلَ به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة". قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: "وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير"][1].

فقرين الجن يدعو الإنسان إلى الشرور والآثام، والرسول صلى الله عليه وسلم قد خُصَّ بالإعانة عليه، نظراً لعظم المهمة، المكلف أن يقوم بها، وكونه سيلاقي في سبيل أدائها صعاباً وأعداء، مما لن يلاقيه أحد من أمته، ويحتاج من أجل ذلك إلى جميع قواه الباطنة، لمجابهة تلك الصعوبات بالعزيمة التامة، ومن ثم فإنه يحتاج أن لا يوجد شيء باطني يؤثر على عزيمته تلك، ولذلك فقد خص صلى الله عليه وسلم بالمعونة حتى استطاع أن يطوّع هذا الداعي الداخلي للشر -عادة-، ويجعله داعياً إلى الخير.

وإذا كان قرين الجن داعياً إلى الشر؛ فلابد أن يكون قرين الملائكة داعياً إلى الخير، حتى تستوي العوامل الدافعة نحو الخير، باطنة وظاهرة، مع العوامل الدافعة نحو الشرور والآثام، ظاهرة وباطنة.

ج- الشهوات الدنيوية التي زينت للناس وحُببت إليهم، فغرائزهم تميل إليها وتشتهيها، وقد تدفعهم إليها، ولو تجاوزوا في سبيل ذلك الحدود والضوابط المشروعة. وهذا يكون مقترناً مع ضعف الإيمان بالله جل شأنه وبجزائه العادل، أو انتقاضه.

فالدوافع نحو الخير والنوازع نحو الشر متعددة، وليس من الشرط اجتماعها دواماً، بل يكفي -على سبيل المثال- ضعف الدوافع نحو الخير، وقوة أحد العوامل التي تنزع نحو الشر: ومن ثم يهوي صاحب هذا الأمر نحو الرذائل والآثام[2].

٣- وإثبات الدوافع والنوازع النفسية وحدها في هذا المجال، ورفض بقية العوامل، بدعوى عدم الوقوع في التشبيه، أو التجسيم والتشخيص؛ هو نظر قاصر، يغفل دور دعاة الخير ودعاة الضلال من البشر، الذين لا يغفل عنهم أحد. وهل في إثبات دور هؤلاء الدعاة وقوع في التشبيه والتشخيص؟!.

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقدسبق تخريج الحديث: ٨٤. وانظر: التبيان في أقسام القرآن، ابن قيم الجوزية: ٢٦٥.

(٢) انظر: في بيان هذه العوامل: ٨١-٨٥.

٤-إن دعوى عدم الوقوع في التجسيم...؛ يبدو أنها موجهة فقط إلى رفض داعيي الخير والشر؛ اللذين يعملان في الإنسان من داخله. وفي هذا رفض وإبطال لنصوص قاطعة، تثبت العمل الذي يقوم به شياطين الجن في إفساد بني آدم، وهو رفض لا يستند حتى إلى شبهة. ولا توجد أية استحالة عقلية في وجود مخلوق له كيانه الخاص به، منفصل عن الإنسان، يوجهه بأسلوب خفي، إما نحو الخير أو نحو الشر، وهذا أمر من الممكنات، فإن جاء ما يثبته من الدليل النصي الصحيح؛ وجب الإيمان به. وقد جاءت النصوص الشرعية واضحةً وظاهرة وقاطعةً في إثبات هذا المخلوق، قال تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَـهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ الناس.

ولا يرفض هذه النصوص وينكر ما جاء فيها إلا شخص غير مؤمن بها، ولا بمن جاء بها[1].

٥- إن العلماء الذين ألزموا القائلين بالتكليف بالخواطر، خاطر من الله تعالى وخاطر من الشيطان؛ بأنه يلزم في الشيطان أيضاً أن يكون مكلفا عن طريق خاطرين، واحد من الله وآخر من شيطان آخر، إلى ما لا نهاية له[2]؛ لم يقصدوا رحمهم الله تعالى نفي وجود الشيطان، أو نفي كونه يوسوس بالشرور في صدور الناس، وإنما قصدوا الرد على هؤلاء الذين زعموا أنه يشترط في تكليف أي مخلوق وجود هذين الخاطرين، فقالوا لهم: إن الشيطان إما أن يكون غير مكلف، فلا يستحق الذم، أو مكلف، فلابد له من شيطان آخر يلقي إليه خاطر السوء، ويتسلسل الأمر[3].

وهذا يدل على أن ثبوت التكليف لا يلزم بمجرد الخواطر، ولا يدلّ على أن الشيطان غير موجود.

---

(١) إن حسن حنفي بهذا الكلام يشير إلى إنكار وجود الملائكة عليهم السلام والشياطين، من غير دليل، ويبدو أن دليله الوحيد أنه لم يطلع عليهم. وهو لا يصدق إلا نفسه، ولا يؤمن بالخبر الصادق عن وجودهم، ولا بأخبار الكثير ممن رأوهم، وقد يظن أن ذلك إنما هو أوهام وخيالات، ولو اتبعنا منهجه هذا؛ فلا أدري كيف يجيب على من يقول: أنا لا أصدق أن الناس قد مشوا على القمر، وأن ما عرض إنما هو خدع سينمائية؟!.

(٢) انظر: أصول الدين؛ البغدادي: ٢٨.

(٣) انظر: المرجع السابق، الموضع نفسه.

رابعاً: ويقرر (العلماني) النتيجة التي أراد الوصول إليها والمتضمنة رفض حقائق النبوة كذباً وزوراً، فيقول: (الحقيقة هي: أن الخواطر إنما هي البواعث النفسية والمرجحات العقلية التي، تجعل الإنسان يختار بينها. وهي أقرب إلى طباع النفس وميولها ورغباتها، ما تميل إليه، وما تنفر منه طباعاً، فالعقل والطبيعة صنوان)[1].

وظاهر أن هذا الادعاء يتضمن تكذيباً لما جاء في النصوص الثابتة الصحيحة في الدين. وهو من قبيل تخصيص الخواطر ببعض بواعثها، لإنكار الملائكة عليهم السلام، وإنكار الجن، وإلغاء أي تأثير لهم في النفس الإنسانية.

ويمكن الرد على افتراءاته هذه بما يلي:

١- مما سبق بيانه ظهر أن الخواطر لا تكفي وحدها لجعل الإنسان يختار السبيل الأقوم، فالبواعث النفسية وإن ضم إليها المرجحات العقلية؛ فإن ميل صاحبها نحو الشهوات؛ كثيراً ما يغشي على بصيرة الإنسان، ومن ثم يخطئ في إطلاق الأحكام، ويترتب على ذلك سلوكه سبيل الضلالة، والابتعاد عن الصراط المستقيم.

٢- ومن أراد التأكد فلينظر إلى أحوال الأمم القوية المعتدية، والتي تبحث عن الأمم الضعيفة، لمجرد أن تستذلها وتستعبدها وتستأثر بخيراتها، وهي في ذلك لا ترى أي حرج!.

٣- والناظر في الأحكام التي يضعها البشر في أيامنا هذه، حتى بالنسبة إلى تلك التي يظنون أنهم يؤصلون بها علوماً ومعارف -كعلم النفس والاجتماع والسياسة-؛ يرى فيها كثيراً من المخالفة لأحكام عقلية، ما كان ينبغي أن تغيب عن بال البشر، لولا قوة نوازع الشر والفساد لدى واضعي تلك الأحكام.

---

(١) انظر ما سبق: ٣٧٠.

خامساً: ويتيه (العلماني) في بيداء الجهالات، وهو يحاول أن يبحث عن أيّة فكرة ليتعلق بها، مهما بلغ بطلانها، أو مهما بلغت سخافتها، ورفض العقل لها. وذلك كله للاستغناء بها عن حقيقة الحاجة إلى النبوات. فمن هذا ما زعمه عن التصفية[١].

ومن هذا ما ذكره أيضاً عن العقل الباطن، الذي زعم أنه لا يحتاج إلى نبوة، أسوة بالعقل الاستدلالي[٢]، ولكنه لم يبين ما هو هذا العقل الباطن، وعلى ماذا يعتمد. والظاهر أن العقل الباطن -في هذا الموضع- ليس إلا الخواطر والحدسيات، فهو بهذا يكرر ما سبق أن ذكره، ليوهم ويدلس على قارئه بأنه قد أتى له بأمور متعددة لإبطال الحاجة إلى النبوات، والحق أنه لم يأت بجديد.

---

(١) انظر ما سبق: ٣٧٠. وأعجب من ذلك استنباطه لتلك التصفية المزعومة من مذهب أهل التناسخ الباطل، والذي لا دليل عليه، لا من نص ولا من عقل، ولكن غايته الفاجرة لإبطال الحاجة إلى النبوات؛ تجعله يتعلق بأي باطل، مهما بلغت دركة زيفه.

(٢) انظر ما سبق: ٣٧٠. ولا يقاس هذا العقل الباطن المزعوم على الضمير الخلقي في الإسلام، الذي سبق ذكره، انظر: ٨٨-٨٩، فإن ذلك الضمير يعتمد اعتماداً كلياً على حقائق النبوة. وأما هذا العقل الباطن؛ فهو عند من افترى وجوده لا يعتمد على النبوة!.

القضية الحادية عشرة: حول دعاوى (العلماني) المتعلقة بالعبادات:

أولاً: ذكر (العلماني) أن العقل وإن لم يستطع أن يهتدي إلى العبادات، إلا أنه باستطاعته معرفة الحكمة منها وغايتها[1]. وهو يريد من هذا أن يصل إلى إقرار دعوى إمكان الاستغناء عن العبادات المشروعة؛ ببدائل وضعية، مادامت تحقق الغايات نفسها، بحسب ظنه الفاسد، ويقال لهذا المفتري:

١- الحق أن مسألة الحكمة من العبادة؛ لا تعني أن الإنسان قد وصل إلى جميع الحكم من كل عبادة، ولا إلى تفاصيل الحكمة من عبادة واحدة، فقد يعرف بعض الحِكَم، ويغيب عنه حِكَم أخرى لا حصر لها.

٢- ثم إن العبادة ليست مطلوبة فقط لأجل تحقيق حكم تعود على البشر بالنفع في مسيرة حياتهم الدنيوية، بل هي كذلك مطلوبة لتحقيق عبودية العبد لربه جل ثناؤه، بأداء ما أمره به، واجتناب ما نهاه عنه، وبهذا ينال رضاه جل شأنه، ويفوز بثوابه. وما دام أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم قد أبلغونا أن هذه العبادات التي شرعها، بالصورة التي بينها؛ هي التي ترضيه جل ذكره؛ فمعنى هذا أنه لا توجد صورة أخرى يمكن أن نصل إليها بعقولنا المجردة؛ وننال بها رضاه تعالى. فهو سبحانه قد بين الأمر الذي ننال به رضاه، وحكم به، فلم يعد هناك مجال للتعقيب على حكمه.

٣- ولو تدبر الإنسان في العبادات؛ لوجد أنه لا يمكن أن يتخيل صورة لها؛ إلا والذي في الشرع أحسن وأجلّ من أيّة صورة يتوهمها.

ثانياً: ويفتري (العلماني) على النبوة وحقائقها افتراء كبيراً إذ يدعي أن: (الأمر يظل بالنسبة للخاصة؛ أن العبادات وأشكالها لا تكوّن جوهر النبوة، التي هي في حقيقتها معارف نظرية...)[2].

١- إن هذا المفتري على الحق، الذي ادعى هنا أن العبادات لا تكون جوهر النبوة، التي هي في حقيقتها معارف نظرية؛ هو نفسه الذي انتقد الحركات الإصلاحية لاهتمامها -في زعمه- بما أسماه: الوحي الرأسي، دون الوحي الأفقي، الذي هو -كما يرى- مصدر التشريع العملي...[3].

---

(١) انظر ما سبق: ٣٧١.
(٢) انظر ما سبق: الموضع نفسه.
(٣) انظر ما سبق: ٣٠٦، وما بعدها.

فمرة النبوة عنده خاصة بالمعارف النظرية، ومرة يتباكى على عدم الاهتمام بالتشريعات العملية، ومعلوم أن العبادات قائمة على تلك التشريعات!. والحق أنه غير مؤمن بهذا ولا ذاك، ولكنه في كل مرة يستدرج من قد ينخدع بزخرفه الباطل؛ إلى دركة من الكفر، ليصل به في النهاية إلى هاوية الإلحاد الكامل.

٢- ثم إن دعواه هنا ليست أكثر من إطلاق حكم لا دليل عليه مطلقاً، مخالف للحكم الحقيقي، ذي الأدلة الظاهرة الواضحة الثابتة، والمعلومة للجميع. وهذا الصنع أدنى دركة من البهتان، الذي هو اتهام المرء بما ليس فيه، إذ قد يكون حال هذا الإنسان المتّهَم مستوراً، وأما النبوة وأحكامها؛ فإنه لا يجهلها ذو فكر سليم.

ومن يصل به الحال إلى مثل هذا الحد فإن النقاش معه لن يفيد، إذ حاله كحال من يقول إن الشمس البازغة في نهار مضيء؛ ليست هي السبب مطلقاً في إضاءة الأرض!.

ثم إن هذا البهتان ليس افتراءً على النبوة فحسب، بل هو افتراء على من أسماهم الخاصة والصفوة!، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان من العامة -فضلاً عن أن يكون من الصفوة- ويدعي مثل ذلك الهراء الباطل.

٣- وأيضا؛ فإنه ما من نبوة سابقة حتى النبوة الخاتمة إلا قد أتت بعقائد وقضايا طالبت الناس بالإيمان بها، وأتت كذلك بأحكام وشرائع وعبادات؛ طالبت الناس بتطبيقها في السلوك، فكيف لكائن من كان أن يلغي أحد شطري النبوة، ويدعي أنه ليس من جوهرها؟!.

وهل البشر هم الذي يحددون للنبي عليه السلام وظيفته؟!. وهل هم الذين أرسلوه حتى يكون لهم ذلك الحق؟!.

إن الذي يحدد للنبي عليه السلام مهمته، وحدود رسالته؛ إنما هو الذي أرسله جل جلاله، فهو تعالى ينزل الرسالة شاملة لكل ما يريد من البشر أن يؤمنوا به أو يلتزموه، ويأمر رسوله عليه السلام بإبلاغها كاملة، وبتطبيقها منهجاً عملياً واضح المعالم.

٤- وبعد؛ فإن كل مؤمن حق بالنبوات -سواء كان من الخاصة أم العامة- لا يمكن أن يجهل الآيات الكثيرة؛ التي طالب الله تعالى فيها العباد أن يُحَكّموا شرعه، وبين لهم أنه قد طالب من سبقنا من الأمم بمثل ذلك أيضاً، وأنه تعالى قد حكم بعدم الإيمان، ودمغ بالكفر والظلم والفسوق؛ من لم يُحَكّم شرعه. قال تعالى:

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥)﴾ النساء.

وقال تبارك اسمه:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ المائدة.

فهل بعد هذا كله مجال لأن يظن أحد أن الأحكام والشرائع والعبادات ليست أساساً في النبوة؟!.

إن من لم يؤمن بحقيقةٍ ما من حقائق النبوة الثابتة اليقينية؛ هو غير مؤمن بالنبوة مطلقاً، إذ الإيمان بالنبوة كلٌّ لا يتجزّأ.